هارون الرشيد وعصره

تأليف
انـدري كلـو

تعريب وتعليق
محمّد الرّزقي



هارون الرشيد
وعصره

العنوان الأصلي لهذا الكتاب

Haroun al-Rachid

et le temps des Mille et Une Nuits

تمّ تعريب هذا الكتاب بمساعدة
المعهد الفرنسي للتعاون - تونس

ISBN 9973 - 19 - 305 - 9

6، شارع عبد الرحمان عزام
1002 تونس

تقديـــم

عندما فرغت من تعريب "سليمان القانوني" ، الكتاب الذي ألّفه أندري كلو عن العصر الذّهبي للخلافة العثمانيّة ، قدّمته للطبّع ، فعَرض عليّ النّاشر ترجمة "هارون الرّشيد وعصره " ، الذي كتبه المؤرّخ نفسه عن أشهر خلفاء بني العبّاس وعصره ، أزهى عصور الحضارة العربية ؛ فوعدته بالجواب بعد الاطّلاع عليه .

ولمّا قرأته ، تبيّن لي أنّ الكاتب توخّى فيه نفس الموضوعيّة التي اتّصف بها تأليفه للكتاب الأوّل ، ونفس الأمانة والتّجرّد في التّعريف – بل وفي الإشادة أحيانا – بالثّقافة العربيّة الإسلاميّة في أوج عزّها ؛ واكتشفت أنّه جمع فيه بين شمول العرض ، وحسن الاختصار، وتنوّع المقاصد والأغراض ، واعتماد أحدث الدراسات ، مما يُضفي عليه طابعا من الطرافة يبوّؤه مكانة متميّزة بين ما أُلّف عن الرشيد وزمانه ، وما أكثر ما كُتِب عنهما من الكتب ، في البلاد العربية وخارجها ! ويقينًا منّي أنّ القارئ العربيّ مستفيد من مطالعته – إذا ما عُرّب طبعا – أجبت النّاشر بالقبول وشرعت في الترجمة .

لكن ما أن بدأت حتّى بدا لي أنّ أندري كلو يذكر ، مع روايته للأحداث ، الكثير من الأعلام الدّالّة على أشخاص وأماكن ، دون التّعريف بها ، وهو أمر طبيعي لو كان الكتاب أُعدّ لذوي الاختصاص من المؤرّخين ؛ أمّا والتأليف موضوع للجمهور الواسع من القرّاء، فقد كنت ، وأنا أعرّب ، أضع نفسي مكان المطالع المغاربي والعربي عموما ، وأتخيّل ما قد يلقاه من عناء في فهم الأحداث فهما مبنيا على معرفة المشاركين في صنعها والأماكن التي كانت مسرحا لها .

فراجعت الناشر في الأمر، فأبدى لي رغبة ملحة في أن أرفق الترجمة بشروح ضافية تيسّر على القارئ الانتفاع بالكتاب ، وأقنعني بأنّ تعريبه تعريبا صرفا كالمعهود قد يُبقي ما بسطه فيه المؤلّف ، من كلّيات وجزئيّات ، غامضا مبهما ، ولا يشجّع متصفّحه على استتمام مطالعته والاستفادة منها . فقررت العدول عن التّعريب المجرّد ، وأخذت أحقّق – تحقيقا يكاد يكون كاملا – كلّ ما يعرضه المؤلّف في الكتاب ، شارحا ما يلمّح إليه من أمور طواها النّسيان في هوّة الماضي السّحيق ، ومعرّفا بأشخاص وأماكن لا يكاد اليوم يستحضر خطورة دورها الباحثُ المختصّ ، فما بالك بالمطالع العاديّ . . .

وفيما كنت أواصل عملي ، تبيّن لي أنّ المؤلّف بذل جهدا كبيرا في الاستشهاد بنصوص نثريّة وشعريّة كثيرة ؛ فاجتهدت في تقديم جميعها كما جاءت في مصادرها ، دون تصرّف . ولم يكن البحث عنها والعثور عليها بالأمر الهيّن ، خصوصا ونقل أندري كلو لأكثرها من العربية إلى الفرنسية يكاد يكون تقريبيا في أغلب الحالات ، ولا لوم عليه في ذلك ؛ فعسى أن يكون ، إذن ، ما أضفته إلى مادّة الكتاب ، من توضيحات وتدقيقات ، ميسّرا لمطالعته باشتياق ورغبة ، خصوصا لدى النّاشئة .

وقد يستغرب القارئ استبدالي " هارون الرّشيد وزمن ألف ليلة وليلة " – العنوان الذي جاء في الأصل الفرنسي – " بهارون الرّشيد وعصره " ، وهو العنوان الذي اخترته للكتاب بعد إعمال طويل للرّأي ؛ وجوابا أقول : إنّ الذي حدا بي إلى هذا الاختيار هو تجنّب ما قد يتركه الإلماح الى هذه المجموعة من القصص الخيالية ، على ما لها من شهرة في العالم الغربي بالخصوص ، من شعور أنّ أندري كلو اعتبرها من المصادر الأساسية التي تُعتمد في التعريف بالرشيد وعصره ، هذا رغم بسطه للقضية في غضون الكتاب ورفع كلّ التباس في شأنها ؛ فالمؤلّف لم يزد على أن انتخب من هذه المجموعة بعض الشواهد ليروّح بها على القارئ، وحَسَنًا فَعل !

ومن باب الأمانة ، رأيت أن أذيّل الكتاب بلائحة المصادر التي اعتمدها المؤلّف والتي نشرها في نهاية تأليفه ، وأن أشفعها بلائحة المراجع التي اعتمدتها في المقابلة والتحقيق ، مع الرموز التي أشرت بها إليها في الحواشي والتعاليق ؛ وتسهيلا للبحث عن الأعلام التي ذُكرت في الكتاب – وهي كثيرة بين دفّتيه – رأيت من الصّالح تذييله أيضا بفهرس بأسماء الأشخاص ؛ وكدت ألحق به فهرسا بأسماء الأماكن ، لكنّ إشفاقي من أن يزداد حجم الكتاب ، ازديادا مفرطا ، هو الذي حال دون ذلك .

وختاما لهذا التمهيد ، الذي فاتحت فيه القارئ بأهمّ ما أحاط بتعريب " هارون الرّشيد وعصره " من ظروف وملابسات ، لن يفوتني أن أنوّه بما لقيته من تشجيع وتأييد لدى عدد من الزملاء والأصدقاء ، أخصّ بالذّكر منهم الصديق المؤرخ الأستاذ حمادي السّاحلي ، فإليه منّي جزيل الشّكر والامتنان .

محمد الرزقي

تونس ، يوم الثلاثاء العاشر من شوّال 1414

الموافق للثّاني والعشرين من مارس (آذار) 1994

تنبيـــــــه

أثبتّ أسفل متن النّصّ المعرّب نوعين من الحواشي :

– حواشي المؤلّف وهي مدرجة ، بعد تعريبها ، كما جاء ت في النّصّ الفرنسي لا علامة أمامها ؛

– الحواشي التي وضعتُها ، مساعدة للقارئ على فهم غوامض الكتاب ، وهي إما مسبوقة بالنجمة التالية * وإما موضوعة بين معقّفين [. . .] .

وفي تعريب الأعلام الأعجمية الدّالّة على أشخاص أو أماكن – وقد أرفقت جلّها بالرّسم الذي جاءت به في المعاجم والموسوعات الغربية – كتبت الصوامت الثلاث من الألفباء اللاّتيني الأكثر ورودا فيها على النّحو التالي :

p	=	پ	مثل	:	Hippone	هيپّون
g	=	ڠ	مثل	:	Thagaste	طاڠاست
v	=	ڤ	مثل	:	Trèves	تريڤ

« فسمّى النّاس أيّامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيّام العروس ...» [1]

(المسعودي)

(1) * مروج ، 4 ، 336 .

الفصـــــــل الأوّل

جـند اللــــه

" إنّ الدّولة العامّة الاستيلاء ، العظيمة الملك ،
أصلها الدّين إمّا من نبوّة أو دعوة حقّ " [1] .

(ابن خلدون)

(1) * المقدمة ، 281 .

يوم 8 جوان (حزيران) من عام 632 (الموافق 13 من ربيع الأوّل سنة 11 للهجرة) تُوفّي محمّد بعد أدائه أوّل مرّة لمناسك الحجّ بمكّة . فلم يُعقِب وارثا من الذّكور ولا أوصى لأحد بالخلافة . والعرب – وكانوا لا يعرفون للحكم الوراثيّ معنى – ما كانوا ليبايعوا بالخلافة ابنا للرّسول لو وُجد . فاحتدم الخلاف إثر وفاته بين صحابته الأنصار ، من أهل المدينة ، والمهاجرين من أهل مكّة . ولم تنفرج الأزمة إلاّ بفضل حكمة أبي بكر وعمر وكانا من أقرب النّاس إلى الرّسول ، وأيضا لأنّ عليّا ، ابن عمّه وصهره ، لم يستطع إذّاك أن يفرض نفسه. فبويع أبو بكر بالخلافة ، خلافة الرّسول ، "رسول اللّه" . وهذا "الانتخاب" الذي كاد أن يحدث مواجهة مسلّحة بين خيرة رفاق محمّد كان إنذارا خطيرا للمستقبل . وبعد مُضيّ عامين أحسّ أبو بكر بقرب المنيّة فعيّن لخلافته عمر بن الخطّاب الذي تولّى الحكم دون أن يلقى أيّ معارضة .

غـــارات صـــاعقة

أبو بكر كان أوّل من وجّه القبائل العربيّة لاحتلال الجهات الشّماليّة من جزيرة العرب .ثمّ جاء بعده عمر وهو ألمع الخلفاء الرّاشدين[2] وأوفرهم حزما. فأوسع بسرعة البرق حدود " دارالإسلام " . وما كانت سنة 634 (13 هـ) حتّى هُزِم البيزنطيّون في أَجْنَـادين بفِلِسطين . وفي السّنة الموالية فُـتِحت دِمَشْـق [3] وأوقع انتصارُ المسلمين

(2) الخلفاء الأربعة الأوائل سُمّوا الرّاشدين (أي السّالكين سبيل الرّشاد) لتمييزهم عن الذين جاؤوا من بعدهم واتُّهموا بتحويل الخلافة عن وجهتها وباستغلالها لخدمة أغراضهم الشّخصية أو أغراض آل بيتهم. وهؤلاء الخلفاء الأربعة هم : أبو بكر (11/632 هـ – 13/634 هـ) وعمر بن الخطّاب (13/634 هـ – 24/644 هـ) وعثمان بن عفّان (24/644 هـ – 36/656 هـ) وعليّ بن أبي طالب (36/656 هـ – 41/661 هـ). وسيحمل هارون أيضا لقب الرّشيد [مع التّذكير بأن مفرد الرّاشدين هو راشد لا رشيد كما ورد ذلك في الأصل الفرنسي] .

(3) * دِمَشْق : عاصمة سوريا اليوم . هي من أقدم مدن العالم وهي واقعة في طرف بادية الشام على ملتقى الطّرق العسكريّة والسّبل التّجاريّة القديمة . يرتقي تاريخها إلى خمسة آلاف سنة . سكنها الآراميّون فجعلوها عاصمة مملكتهم . فتحها الأشوريّون والبابليّون =

باليَرْمُوك [4] كاملَ بلاد الشام بحوزتهم. وفي سنة 642 (22 هـ) بعد معركتي القَادسِيّة[5]، في بلاد ما بين النّهرين ونهَاوَنْد [6] في إيران ، انهارت الامبراطورية السَّاسَانية [7]، فسقطت عاصمتها طَيْسِفون [8]، وفُتحت العراق بأكملها ثمّ الجهة الغربية والوسطى من بلاد فارس. ففرّ الامبراطور يَزْدَجَرد 3ً [9] وسيُقتل في مدينة مَرْو[10] عام 651 (31 هـ). وفي سنة 638 (17 هـ) فتح عمر أورَشَلِيم [11]، وفي السنة الموالية فتح مدينة الرَّهَا [12].

= والفرس واليونان والرّومان . وَرَد اسمها في التّوراة وعظّمها النّصارى . بعد الفتح الإسلامي اتّخذها خلفاء بني أميّة عاصمة لهم فكان عهدهم عصرها الذهبي .

(4) * اليَرْمُوك : نهر من روافد الأردنّ ينبع من سوريا ويجري أوّلا قرب الحدود بينها وبين فلسطين ثم ينحدر جنوبًا إلى فلسطين ويصبّ جنوبي الحَوْلة.

(5) * القَادسِيّة : مدينة في العراق (لواء الدّيوانية) ؛ عندها هزم العربُ الفرسَ ، وعلى رأس الجيش العربي سَعْد بن أبي وَقّاص ، وعلى رأس الجيش الفارسي رُسْتُم .

(6) * نَهَاوَند مدينة في بلاد الجبال جنوبيّ هَمَذان بإيران . عندها انتصر العرب بقيادة نُعْمان بن المُقرّن على الفرس الذين كان يقودهم ذو الحاجبين مرداناش .

(7) * هي المملكة التي أسّسها بنو سَاسَان والتي اتّسعت رقعتها من جبال خراسان إلى بلاد ما بين النّهرين. وبنو ساسان ملوك ظهروا من مقاطعة فارس (فارسستان) على دولة الفرثيّين وقهروها وأسّسوا مكانها دولة من أشهر ملوكها : أرْدَشير 1ً (226-241) وسَابُور 1ً (241-272) وسَابُور 2ً (310-379) وأرْدَشير 2ً (379-383) وبَهْرام 5ً (420-438) وخُسْرو 2ً (590-628/6 هـ) .

(8) * طَيْسِفُون Ctésiphon مدينة قديمة أقيمت على الضفّة الشّرقيّة من نهر دَجْلَة . كانت معسكرا للفَرثيّين وصارت عاصمة للأرسَاسيّين les Arsacides أيّام الملك أورُود 2ً Orode II حوالي 55 قبل الميلاد وبقيت مَشْتى وعاصمة للسّاسانيين ؛ أخذها تراجان Trajan (116) وسِپتيم سِيڤير (197) Septime Sévère الرومانيان ،وهِرَقْل البيزنطي 628 (6 هـ) وفتحها خالد بن الوليد سنة 637 (15 هـ)، هي اليوم خرائب بها إيوان (اطاق) كسرى الشّهير. وطيسفون هي "المدائن" عند المؤرخين العرب.

(9) * يَزْدَجَرْد 3ً Yazdgard III : آخر ملوك الفرس من بني ساسان (632-651 / 11- 31 هـ). قُتل أثناء هربه من العرب الفاتحين لخراسان .

(10) * مَرْو Merv : مدينة واقعة في جبال خراسان . فتحها المسلمون سنة 651 (31 هـ) ، منها خرج أبو مسلم الخراساني قائد جيوش الثّورة على بني أميّة . خرّب المغول سدّ نهر المُرْغاب الذي كان مصدر غناها الزّراعي . وهي اليوم إحدى مدن ما كان جمهورية التّركمانستان السّوفياتية سابقا واسمها الجديد منذ سنة 1937 (1356 هـ) : مرُو Mary .

(11) * أُورَشَلِيم أو القُدس : عاصمة فلسطين . هي مدينة داود الملك ، دمّرها الرّومان سنة 70 وأعادوا بناءها في القرن 2ً ، وفي القرن 4ً على عهد قسطنطين شيّد فيها النصارى الكنائس العديدة على آثار المسيح . فتحها العرب سنة 638 (17 هـ) ثمّ أخذها الصّليبيّون =

أمّا مصر فإنّها لم تصمد طويلا أمام العرب ؛ فالبيزنطيّون الّذين استردّوها من السّاسانيين سنة 628 (6 هـ) هزمهم عَمْرو بن العاص[13]، أحدُ عظام القوّاد العرب ، في هِلْيُوپُولِيس [14] ثم في بَابَلِيُـون [15] (قـرب القاهرة حاليّا)، ثـمّ احتُلّت الإسْكَنْدَرِيّة [16] نهائيّا سنة 646 (26 هـ)٠ وهكذا تكُون المرحلة الأولى من الفتح العربي قد انتـهت نحو 650 (30 هـ)٠ وسيُستـأنَف الزّحف عمّا قريب نحو الشرق والغرب دون أن يلقى مقاومة أشدّ من التي لقيها إلى حدّ الآن .

= عام 1099 (493 هـ) ، فاسترجعها صلاح الدّين الأيّوبي سنة 1187 (583 هـ)٠ ثمّ ظلّت في أيدي العثمانيّين من 1516 (922 هـ) إلى 1917 (1335 هـ) ٠ وأورشليم مدينة يقدّسها اليهود واالنّصارى والمسلمون فيحجّون إليها من جميع أقطار المعمورة ٠ ومن أعظم ما لليهود فيها حائط المبكى وللمسيحيّين كنيسة القيامة وللمسلمين المسجد الأقصى وقُبّة الصّخرة٠

(12) * الرَّهَا أو أُورْفَـا Urfa , Edesse : مدينة بين النّهرين (دَجْلة والفُرَات) في تركيا ، اشتهرت بين القرنين 3 م و 5 م بمعاهدها العلميّة حتّى أصبحت عاصمة الثقافة والآداب ٠ فتحها العرب سنة 639 (18 هـ) ودخلها البيزنطيّون سنة 942 (330 هـ) ثم الأفرنج سنة 1098 (491 هـ) ثم ملك الموْصِل عماد الدّين حتّى استقرت في أيدي العثمانيّين سنة 1637 (1046 هـ)٠ أشهر أساتذتها القِدّيس أفْرام السِّرياني ورَبُولاَ الأسقف ومن بعدهما خضعت لتعاليم النّساطرة ٠

(13) * عَمْرو بن العاص ٠ قرشيّ أمويّ أسلم سنة 629 (7 هـ) ؛ هو من أشهر الفاتحين ، كان في أجْنَادين واليَرْمُوك وفَتْح الشّام ٠ فَتَح جانب الأردن الغربيّ ومصر وأسّس الفُسْطَاط ٠ ناصر معاوية على عليّ في صِفّين ثمّ ارتأى بالتّحكيم بينهما فأُوقِف القتال وفاز معاوية بالخلافة فأعاد عمرا إلى مصر٠ تُوفي سنة 663 (43 هـ) ٠

(14) * هِلْيُوپُولِيس أو مدينة الشّمس : مدينة في مصر القديمة كانت تقع في أقصى الجنوب من دلتا النيل وهي اليوم ضاحية من ضواحي الشمال الشرقي لعاصمة مصر٠ بسهلها انتصرالسّلطان سليم على المماليك سنة 1517 (923 هـ) والقائد الفرنسي كلِيبير على جيش ابراهيم باي التّركي سنة 1800 (1214هـ)٠

(15) * بَابَلِيُون Babylone d'Egypte ٠ مدينة قديمة كانت تقع بالقرب من المكان الذي أقيمت به القاهرة ٠ عندها جرت المعارك الفاصلة لما فتح عَمْرو بن العاص مصر سنة 641 (20 هـ)٠ وبالقرب منها بُنيت فُسطاط مصر٠ وقد يأتي اسم بَابَلِيُون بمعنى القاهرة في المؤلّفات الغربية الحديثة٠ يقول عنها اليعقوبي : « ... وكانت الفسطاط تعرف بباب اليون... » (البلدان ، 86) .

(16) * الإسْكَنْدَرِيّة : مدينة في مصر ٠ من أعظم ثغور البحر المتوسّط ٠ أسّسها الإسكندر الكبير سنة 331 ق م واشتهرت بمنارتها وعلوّها 400 قدم٠ وفي عهد البطالسة les Ploléméе أصبحت أعظم مدن الشرق بل العالم المعروف آنذاك ٠ فتحها أُكْتَاڤِيُوس فضمّها الى الامبراطورية الرّومانية في 30 ق م ثم أصبحت مركزا مسيحيا خطير الشأن في الشرق وقاعدة مدرسة لاهوتية من أشهر زعمائها أكلِيمَنْضُوس Clément وأُورِيجِينُوس = ،

في امبراطوريّة قيصر الرّوم [17] التي تمزّقها الخصومات الدّينيّة كان البيزنطيّون مستهدَفين لأحقاد شديدة . فالأراميّون [18] والأقْباط [19]، وهم من المُونُوفيسيّين [20]، كانوا يكوّنون كنيسة حقيقيّة. وجرت محاولة لفرض القول بالوحدانية فأغضبت الأرثُوذُوكس [21]، وكان كل منّ الفريقين متشبّثا بمواقفه العقائديّة. أمّا اليهود، وقد صدر عن الإمبراطور هِرَقْل [22] أمرٌ يقضي بإرغامهم على الإعتماد [23]، فقد كانوا ساخطين.

= Origène . واشتهرت بمدرستها الفلسفية بين أوائل القرن 3ً وسنة 529. ومن أساتذتها أفْلُوطِينُوس Plotin. فتح العرب الاسكندريّة سنة 645 (24 هـ) واتّخذوها مرفأ بنى سُورَه المتوكّلُ سنة 858 (244 هـ). على أيّام الفاطميين نقل الأقباط كرسيَّهم البطريركي منها الى القاهرة . استولى عليها الأتراك سنة 1517 (923 هـ) وكان لمحمد عليّ اليدُ العظمى في ازدهارها خلال القرن 19ً (13ً للهجرة).

(17) * قَيْصَر الرُوم (ولقبه عند قومه "باريلوس أتوكراتور") : هو إمبراطور بيزنطة، وكلمة بازيلوس يونانية الأصل ومعناها الملك ، وكانت تعني الى حد 630 (8 هـ) ملك الفرس .

(18) * الأرَاميّون : شعب ذكره التّاريخ ابتداء من الألف الثّانية قبل الميلاد ويُنسب إلى أرَام بن سام، قطن بلاد أرام ولا سيّما بلاد الشّام. وأرام هو الاسم الذي أُطلِق في التَّوْراة على بلاد سوريا وما بين النهرين .

(19) * الأقْبَاط أو القُبْط : سكّان مصر الأصليّون الذين ظلّوا محتفظين بلغتهم القوميّة في مختلف لهجاتها . سُمُّوا بهذا الاسم تمييزا عن الاقوام الغريبة التي استوطنت البلاد واستعملت اليونانية ، وخاصة عن البيزنطيين وأساقفة الإغريق الذين سكنوا مصر الشّمالية. والقُبْط مسيحيّون والكنيسة القُبْطيّة ترتقي إلى مجمع خَلْقِدُونة Concile de Chalcédoine (451) والجدالات اللاهوتيّة حول المسيح . وهي اليوم فرعان : فرع (كنيسة) الأقباط الأرثوذوكس وهم من المونوفيسيّة وفرع (كنيسة) الأقباط الكاثوليك.

(20) * المُونُوفيسيّون les Monophysites : بدعة مسيحيّة ظهرت في القرن 5ً للميلاد وقالت بأنّ للمسيح طبيعة واحدة وبأن طبيعته البشرية المجسّدة ذائبة في طبيعته الإلهيّة . ومن زعمائها أُطيخا Eutychès وديوسْقُوروس Dioscore في الإسكندريّة. حرّمها مجمّع خلقدونة (451).

(21) * الأرثُوذُوكْس : هم النّصارى المنتمون إلى الكنائس المسيحيّة الشرقيّة البيزنطيّة التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكيّة على أيّام بطريرك القسطنطينيّة ميخائيل كارولاريوس 1054 (446 هـ). وهذه الكنائس موجودة الآن في روسيا وبلاد البلقان واليونان ومختلف بلدان الشرق الأدنى . وكلّ كنيسة منها مستقلّة تحت سلطة بطريركها . ويقدر عدد المنتمين اليها اليوم بنحو 185 مليونا .

(22) * هِرَقْل (610-641/21 هـ) : امبراطور المملكة الرومانيّة الشرقيّة أي البيزنطيّة . طرد الفرس من سوريا واستردّ منهم عود الصّليب . لم يَقْوَ على صدّ جيوش العرب فانتصروا على قوّاته في وقعة اليَرْمُوك.

(23) * الإعْتِمَاد: قبول المعموديّة وهي أوّل أسرار الدّين المسيحي وباب النّصرانيّة ، وتتمثّل في غسل الصبيّ أو غيره بالماء باسم الأب والابن وروح القُدُس . والإعتماد هو التّنصّر .

وأمّا النّساطرة [24]، وقد قُرِّر نفيُهم من الامبراطوريّة ، فإنّهم اضطرُّوا للّجوء إلى البلاد السّاسانيّة. لذا خضع العددُ الأوفر من هؤلاء الأقوام للأسيادِ الجُدد دون صعوبة تُذكر، خصوصا وقد خفّف أولائك الأسياد عنهم ثقل العبء الجبائي . ثم إن الإمبراطوريّة السّاسانية ، وكانت تسودها الفوضى الكاملة ، قـد أُنهكت جميعُ قـواها. فغـزوات خُـسْرو 2ً[25] ، التي قادت جيوشَه حتّى القسطنطينيّة [26] وأورَشَليم آلت إلى كارثة . وكانت الكنيسة الفارسيّة الرّسميّة – المَزْدكيّة [27] منها والزّرَادُشْتّية[28]– تضطهد المُهَرْطقِين . وبات الأهالي ، وقد عيل صبرهم وساءت حالهم ، مستعدّين هم أيضا للتّرحيب بأوّل "محرّر" .

---

(24) * النّساطرة les Nestoriens أو الأشوريّون . طائفة من المسيحيّين ينتسبون إلى نَسْطور بطريرك القسطنطينيّة . قطنوا في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن تبدّد شملهم بعد حرب 1914 (1332 هـ) فتفرّقوا في بلدان شتّى . ازدهرت عندهم الحياة الرهبانيّة فأوفدوا المبشّرين إلى آسيا الشّرقيّة منذ فجر القرن 6ً للميلاد . ومنهم انتشرت النصرانيّة في فارس والهند والصّين .

(25) * خُسْرُو 2ً أبرويز . أحد ملوك الفرس السّاسانيين . حكم من 590 إلى 628 (6 هـ) . لما مات قيصر الرّوم موريس. وهو الذي أعانه على ارتقاء عرش الأكاسرة. وخلفه فوقاس (602) أغار خسرو 2ً على الامبراطوريّة البيزنطيّة واحتلّ منها سوريا وآسيا الصغرى وبلغت جيوشه حتّى خَلْقدُونة (609) وفتَح القدس (614) ومصر (618) فأعاد مجد الامبراطوريّة الأخمنيّة . لكنّه أُرغم ابتداء من 622 (سنة هجرة الرّسول) على التقهقر أمام زحف هِرَقْل . وخسرو 2ً هو عاشر بني ساسان وأحد مشاهيرهم، بفتوحاته وإنجازاته العمرانية. اغتاله ابنه قُبَاذ Kévedh الذي ارتقى الى العرش مرّتين وصالح ملك الروم وقدّم له تنازلات.

(26) * القسطنطينيّة . بيزنطيّة القديمة التي أسّسها الإغريق الأقدمُون بالقرن الذهبي على مضيق البُوسفُور (القرن 4ً ق م) . جعلها الامبراطور قُسْطنْطِين من عواصم الامبراطورية الرّومانيّة بعد أن أسماها باسمه (330). ثمّ أصبحت قاعدة الامبوراطوريّة البيزنطيّة إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون (1453/ 857 هـ) وفيها استقرّ السّلاطين فسُمّيت استنبول. خلفتها أنقرا عاصمةً للجمهوريّة التركيّة بأمر من مصطفى كمال (1923 / 1341 هـ).

(27) * المَزْدَكيّة أو المَزْدَقيّة : عقيدة مَزْدَك ، وهو رجل إيراني دعا إلى مذهب غايته نزع الخلاف بين الناس بجعل الحق في الأموال والنساء مشاعا بينهم . وقد نجح سعيه على أيّام الملك قُبَاذ (458-531). مات قتلا .

(28) * الزَّرَادُشْتِيّة . مذهب زَرَادُشْت Zoroastre (حوالي 660 - 583 ق م) الذي وُلد في بلاد ماداي La Médie ، وهو مصلح الدّيانة القديمة في إيران ومنشئ الطائفه المجوسيّة. وهي طائفة من الكهّان (المجوس les Mages) كان لها دور كبير في نشر الدّيانة الايرانية القديمة لا سيما في العهد السّاساني.وأطلق العربُ قديما اسمَ المجوس على عبدة النار من الفرس.=

فأمام هاتين الامبراطورتين المقسّمتين والمنهوكتين ظهر العرب وكأنّهم شباب العالم. فلم تكن لهم خطة ثوريّة ولا أسلحة جديدة ولكن كان يدفعهم حماس تغذّيه عقيدة دينيّة لا يزعزعها شيء، ويضاف إليها ما يقدمه لهم من إغراء الفوزُ بالغنائم الهائلة. فجيوشهم الخفيفة معوّدة على شتّى ضروب الحرمان الطّويل والمناخ القاسي، وغالبا ما كان الغزاة الجُدد يضربون خيام معسكراتهم خارج المدن الموجودة . وهكذا سيكونون مؤسّسي مدن جديدة : الكُوفَة [29] والبَصْرة [30] في العراق ، والفُسْطَاط [31] في مصر. فلم يسعوا إلى فرض الدّين الجديد على الأهالي ولا إلى تسليط ضغوط إضافية عليهم . فمقابل دفع الجزية كان المزدكيون واليهود والنّصارى بكل شيعهم يستطيعون أن يمارسوا طقوسهم بأمان وأن ينظّموا شؤون حياتهم كما يبتغون . فرؤساء الطوائف غير المسلمة (الذميّين) - أي الأساقفة في البلاد المسيحية والدّهاقنة (وهم الأعيان الرّيفيون) في إيران - يجمعون الضّرائب لحساب الوالي، رئيس المقاطعة التي أحدثتها السّلط الإسلاميّة . أما الأراضي فإنّها بقيت بأيدي أصحابها مقابل ضريبة يدفعونها وهي ضريبة الخراج .

لكن المآسي ما عتّمت أن اندلعت بين المسلمين . فيوم 16 جوان (حزيران) 656 (18 ذي الحجّة 36 هـ) اغتيل بمدينة الرّسول الخليفة عثمان وهو من البيت الأمويّ ، وبويع عليٌّ بالخلافة . فابن عمّ النبيء وزوج ابنته فاطمة لم تكن له يد ، حسبما ما هو مرجّح ، في مقتل عثمان . وجُلّ الشّخصيات الّتي حضرت البيعة وافقت على هذا الاختيار، لا فقط من أجل قرابة عليّ بمحمّد، ولكن لأنها تعترف بورعه الشّديد وحزمه في تطبيق الشّريعة الإلهية في كلّ الظّروف. إلاّ أنّ الأمويّين وأشياعهم غادروا المدينة مُتّهمين الخليفة الجديد بالمشاركة في قتل الخليفة السّابق ومطالبين بالاقتصاص منه ومن الجُناة . وبما أنّ عليّا لم يكن يُنعت بالذكاء المفرط بل يعرف بأنه كان أكثر إقداما منه فطنة ، فلم يُحسِن دفع التّهمة التي كانت موجّهة إليه ، ولأوّل مرّة حلّ الانقسام بين جماعة المؤمنين . ولن يزول أبدا بل ، على العكس ، سنرى التشيّع لعليّ يتّسع مداه ويعمق إلى حدّ الزّيغ عن السنّة أي

= وبعد فتحهم إفريقية والأندلس سَمّوْا بنفس الاسم قرصانَ النُّورمان والعبابيد الاسكندينافية التي حاولت في القرون الوسطى اقتحام السّواحل أو الحدود في بلاد الغرب الاسلامي.

(29) * الكُوفَة : مدينة بالعراق أسّسها سَعْد بن أبي وَقّاص سنة 638 (18 هـ) .

(30) * البَصْرة . مدينة بالعراق أسّسها عُتْبة بن غَزْوان سنة 636 (15 هـ) . وهي اليوم مرفأ على شطّ العرب يُصدَّر منه النّفط العراقي ؛ ازدهرت البصرة في القرنين 8 و 9 (2 و 3 للهجرة) على أيام العبّاسيين ، وكانت مع الكوفة مهدا للدّروس اللغوية العربية ؛ هي مسقط رأس الحسن البصري والجاحظ والأشعري والحريري .

(31) * الفُسْطَاط . عاصمة مصر القديمة ، أسّسها عَمْرو بن العاص سنة 639 (18 هـ) .

عن المذهب الذي أقرّه خلال القرنين 8ً و9ً (2ً و3ًهـ) فقهاءُ الإسلام استنادا إلى ما جاء في الكتاب وما رُوي عن النّبيء من أقوال وأفعال.

بعد أن مضت بضعة شهور على تسمية عليّ خليفة غادرالمدينة ، التي لن تكون أبدا من جديد عاصمة للإسلام ، واتّجه إلى الكوفة ثمّ إلى البصرة . فمواجهته الأولى مع خصومه في المعركة التي سُمّيت بوقعة الجَمَل – لأنّ عائشة أرملة الرّسول شهدتها وهي راكبة جملا – انتهت بفوزه عليهم. لكنّ معاوية[32]، وهو أحد وجوه البيت الأموي – وكان عثمان قد عيّنه واليا على بلاد الشّام – واصل المطالبة بدم ابن عمّه الخليفة المقتول. فكان يتصرّف من موقع الرّجل القويّ، وهو الذي كان على رأس مقاطعة غنيّة وجيش عتيد . أمّا مكانة عليّ فكانت أقلّ قوّة ، وقد زادت ضعفا بعد وقعة صِفّين[33] على الفرات (37/657 هـ) عندما رفع أهل الشّام المصاحف على الرّماح مدّعين أنّه لا سبيل إلى حقن الدماء في هذا الصّراع الدّائر بين المسلمين إلاّ بالرجوع إلى قضاء اللّه أي بالاحتكام إلى ما جاء في كتابه المبين . فجرى التّحكيم وكان لمعاوية على عليّ ، وإذا بجماعة من أصحاب هذا الأخير ينفصلون عنه – وهؤلاء هم الخوارج (أي الذين خرجوا) – وسنلقاهم من جديد عبر كامل التّاريخ الإسلامي . وفي حين كانت قوات معاوية تتقدّم ، رفض عليّ قرار التّحكيم، وارتكب أيضا الخطأ المتمثّل في عزمه الحسم في قضيّة الخوارج بالقوّة . وسيكون تقتيلهم السبب الرئيسي في مصرعه : فقد اغتاله أحدهم انتقاما لإخوته بطعنة خنجر مسموم أمام باب مسجد الكوفة ، وكان ذلك سنة 661 (41 هـ). وفي الأثناء كان معاوية قد أغار على مصر والحجاز فاحتلّهما، ومن ذلك الوقت بات الخليفة الأوحد للمؤمنين.

انتهى عهد الخلفاء الرّاشدين وابتدأ عصر الأمويّين[34]وعقب التنظيمَ البدائي الذي كانت عليه شؤون الدولة بناءُ امبراطورية حقيقيّة تؤطّرها إدارة فارسيّة بل بيزنطيّة أكثر منها عربيّة . فالدولة الجديدة – التي اتّخذت من دمشق قصبة سياسية لها والتي كان جلّ أعوانها ممن وُرِثوا عن الرّوم (فمعاوية نفسه اختار له كاتبا نصرانيا) – أقرت مبدأ الملك الوراثي وأحيت مختلف التقاليد الموجودة من قبل وأعادت العمل بها متّكلة في ذلك على الموالي أي الأهليّين الذين دخلوا حديثا في الدين الجديد . فأغضبت بذلك أقدم الناس عهدا بالإسلام ؛ وبات هؤلاء لا يجدون - في هذه الدولة التي أصبحت مقاليدها بأيدي

---

(32) * مُعاوية بن أبي سُفيان : أحد كبار الصّحابة وأحد العشرة ، تولّى الحكم في الشام عشرين عاما والتقى بالقتال من أجل الخلافة مع عليّ بن أبي طالب في صفّين . أسّس خلافة الأمويّين في سوريا وعاصمتها دمشق . تُوفّي سنة 680 (61 هـ) .

(33) * صِفّين : موقع بالقرب من شاطئ الفرات الأيمن بين الرّقة وبالِس. به انتصر معاوية على عليّ.

(34) الأمَويّون . نسبة إلى أميّة الجدّ المشترك لعثمان ومعاوية [أنظر ص 151 رقم 39] .

أسياد جدد - مآثر الرسول ولا المثل الدينيّة التي من أجلها جاهدوا ؛ وستكون تبعات ذلك ثقيلة ؛ فبعد مرور أقلّ من قرن ستنهار الامبراطوريّة الأمويّة . لكن ريثما يحين ذلك، سيشيّد كبارُ خلفائها – ومنهم معاوية نفسه وعبد الملك وهشام – واحدة من أقوى الدول التي عرفتها الإنسانيّة. سيُنهون فتح الأراضي الشاسعة جنوبي البحر المتوسط والأصقاع النائية من بلاد الشّرق ، تلك التي ستبقى مسلمة إلى الأبد.

تعدّدت المناسبات التي هدّد فيها الأمويّون القسطنطينيّة ، لكنّهم – وفي عدد قليل من السّنين بالخصوص – احتلّوا الهضبة الإيرانيّة حيث جاءت فاستقرّت الآلاف من العشائر العربيّة. ثمّ اجتازت جيوشُهم نهرَ جَيْحُون [35] واستولت على هَرَاة [36] وكَابُل[37] وبَلْخ [38]. وفي سنة 710 (92 هـ) سقطت بأيديهم بُخَارى[39] وسَمَرْقَنْد [40].

---

(35) * نهر جَيْحُون هو أمُو دَارِيَا الحالي Amou-Daria (واسمه القديم أُكْسوس Oxus) . نهر نَبْعُهُ في أنجاد پَامير بالهند. يجتاز آسيا السّوفياتيّة ويصبّ في بحر خُوَارِزم (بحر آرال الحالي). وتليه بلادُ السّغد la Sogdiane وهي أراضي في أواسط آسيا تمتدّ من هذا النّهر حتّى نهر سَيْحُون وهو سِيْر دَارِيَا الحالي Syr-Daria واسمه القديم يَكْسَرت laxartes)، وهي الأراضي الشّاسعة التي كان المؤرّخون العرب يسمونها ببلاد ما وراء النهر، وهي أيضا من أقدم ما توغّل فيه الفتح العربي من البلاد شرقاً .

(36) * هَرَاة : مدينة في أفغانستان اليوم، تقع على نهر هَارِي رُود الدي تنصبّ مياهه في فلوات كَارَاكُوم (الرمال السّود) بالاتحاد السّوفياتي. تأسّست في القرن 10م (4هـ الهجري) على أنقاض اسكندرية آري Alexandrie d'Arie في خُراسان ، شمال شرقيّ إيران . خرّبها مرات عديدة المُغولُ والأُزْبكُ. تأسست بها سلطنة ظلت زمنا طويلا تتمتّع باستقلالها إلى أن أُعيد إلحاقها بأفغانستان ، فضُمّت نهائيّا إليها سنة 1862 (1278 هـ) ؛ هي اليوم مركز مشهور لصنع الطنافس وتصدير الزّرابي وفرو الأستراخان .

(37) * كَابُل . مدينة معروفة منذ العهد اليوناني تحت اسم كَابُورَا . تقع في ملتقى سبل القوافل على نهر كَابُل أحد سواعد نهر السّند. فتحها العرب في بداية القرن 8م (2هـ الهجري) وكانت عاصمة للامبراطورية المغولية طيلة القرن 16م (10هـ الهجري) وأصبحت منذ القرن 18م (12هـ الهجري) عاصمة لأفغانستان.

(38) * بَلْخ واسمها قديما بَقْتَر أو بَكْتَر Bactres هي القصبة السياسيّة لبلاد بَكْتَرِيَان la Bactriane وانتقلت فيما بين القرنين 6 قبل الميلاد و 5 بعد الميلاد من أيدي المَادَايِين إلى الفرس الآخمنيّين ثمّ إلى السّلُوقيّين les Séleucides فالفرثيّين فالساسانيين وأخيرا الهُون الهَباطِلَة الذين عاثوا فيها فسادا. ظلت عاصمة ومركزا دينيّا لمملكة طخارستان إلى أن سدّد عليها الأحنف بن قيس الحصار سنة 653 (33 هـ) وفتحها. اجتاحنها قبائل جنكيزخان سنة 1220 (617 هـ) فخرّبتها. (انظر ص 41 رقم 104).

(39) * بُخَارَى . مدينة في أُزْبكستان على ملتقى الطرق بين روسيا وفارس والهند والصّين . اتّخذها السّامانيون عاصمة لهم في القرنين 9م و10م (3هـ و4هـ الهجريين). ظفر بها جنكيزخان=

وبلغ قُتَيْبة [41]– القائد العربي الذي ينعته المؤرخون "بنابغة القوّاد" – بالرّايات الأموية ، فَرْغَانة[42] وكَاشْغَار[43] بالتُّركستان الصّيني. وسيعطي العربَ انتصارُهم على الصّينيين فـي طَالاَس[44] التّفوّقَ فـي البـلاد الـواقعة بـين الهضبـة الإيرانيّـة وجبـال تِيـَان

= ودمّرها سنة 1220 (617 هـ). من 16ً (10ً الهجري) إلى بداية القرن 20ً (14ً الهجري) كانت عاصمة لخانة (مملكة على عرشها خان) بُخَارَى Khanat de Boukhâra التي أسّسها الأزبك في بداية 16ً (10ً الهجري) في بلاد أُزْبِكستان الحالية، وخضعت سنة 1868 (1285 هـ) لامبراطورية الرّوس وأُعلنت فيها سنة 1920 (1338 هـ) جمهوريّة شعبيّة سوفياتيـّة ثـمّ قُسّمت سنـــة 1924 (1342 هـ) بين جمهوريات أُزبِكستان وتاجِيكستان وتُركمانِستان الاسلاميّة بعد إعادة تقسيم أراضي آسيا الوسطى في ما كان يُعرف بالاتحاد السوفياتي.

(40) * سَمَرْقَنْد : مدينة في أُزْبِكستان ؛ عُرِفت منذ القدم بمراكندا Maracanda وكانت القصبة السّياسيّة لبـلاد السُغْد التي احتلها الفرس وفتحها الاسكندر (329 ق م) قبل أن تخضع للسلُوقيّين ثم لملوك بَكْتريَان البونانيين فالفرثيين فالعرب (94/712 هـ) فالأتراك. خرّبها جنكيزخان (617/1220 هـ) ثمّ كان عزّمجدها في عهد تَيْمُورلنْك الذي اتخذها عاصمة له في القرن 16ً (10ً الهجري). ثمّ استولى عليها خاناتُ الأُزبك 1500 905/ هـ) فالرّوسُ (1868 / 1285 هـ). وصارت من 1926 (1344 هـ) إلى 1930 (1348 هـ) عاصمة لجمهورية أُزبكسنان.

(41) * قُتَيْبة بن مُسلم : أحد كبار الفاتحين ، حمل بالحرب على صَغَانيَان (بلاد واقعة في أعالي وادي جَيْحُون) فدخلت في طاعته سنة 705 (87 هـ)، وعلى طَخَارِسْتَان – وهي بلاد أخرى واقعة في أعالي وادي جَيْحُون أيضا، مجاورة لصَغَانيَان ، ذكرها ياقوت وقسمها إلى طخَارِسْتَان العليا وطخارستان السّفلى – وعلى وبُخارى وما وراء النّهر وسِجِسْتَان (وهي بلاد صحراويّة واقعة جنوب غربي أَفْغَانسْتان) وعلى سَمَرْقَنْد وفَرْغَانة. قُتِل في فتنة الجنود سنة 712 (94 هـ).

(42) * فَرْغَانة : مجموعة سهول خصبة وفلوات في الاتحاد السّوفياتي مقسّمة بين جمهوريات أُزْبِكستان وكِرْغيزِيستان وتاجِيكستان . يخترقها نهر سَيْحُون وجلّ انتاجها القطن . بها مدينة فَرْغَانة التي فتحها العرب وخربها جنكيزخان ثم غزاها تيمورلنك وأسس بها الأُزْبك خانة خُوقَند Khanat de Kokand في القرن 18ً (12ً الهجري) قبل أن تضمّها روسيا نهائيّا إلى ممالكها(1875 / 1292هـ).

(43) * كَاشْغَـار : مدينة في التركستان الصينيّ ، كانت تسمىّ "سولو" في الكتب الصينيّة القديمة . فتحها قُتيبة بن مسلم في أوائل القرن 8ً (أواخر1ً الهجري) واستقرّ بها الاسلام نهائيا في القرن 10ً (4ً الهجري) .

(44) * طَالاَس : نهر يجري في آسيا الوسطى السّوفياتيّة جنوبي بحيرة بَيْكَال Lac Baikal. عنده هزم العربُ سنة 751 (134 هـ) الجيشَ الذي أرسلته لصدّهم مملكة تَنْـج Tang الصينيّة (حكمت من 618 إلى 295/907 هـ). وهـذه الهزيمة هي التي فتحت الطريق أمام انتشار الدّعوة الاسلاميّة بين أتراك التّركستان الصّينيّ فدخلوا في الدّين الجديد أفواجا.

تَشَان[45]، ولن يتقدّموا أكثر نحو الشّرق. لكن، جنوبيّ تلك الأصقاع ، صعدت جيوش الخليفة نحو أعالي وادي الهِنْدُوس[46] حيث ظفرت بمدينة مُلْتَان [47].

في نفس الوقت زحفت وحدات عربيّة أخرى في اتّجاه الغرب وأفريقيا الشماليّة. فبعد أن أسّس العرب القيرَوان[48] سنة 670 (50 هـ) بلغوا تِلِمْسَان [49] وتقدّموا حتّى المحيط الأطلسي. وفي سنة 710 (92 هـ) أخضعوا قبائل المَغربين الأوسط والأقصى. فطُمست معالم إفريقية البيزنطية ، فيما كان قائد بربري ، وهو طَارق بن زياد، يجتاز، مع ستة آلاف من الرجال، المضيقَ الذي سيحمل اسمه : جَبَل طَارِق[50]، وهذا الاسم حُرِّف فصار " جِبِرَالْتار ". التقى طارق ، بعد أن نزل بالعدوة الإسبانية ، بالملك الفيزيقوطي أَخِيله [51] وهزمه [52] في معركة كانت هي الحاسمة في تقرير مصير شبه الجزيرة

(45) * تيَانْ تشَانْ T'ien-Chan . مجمع لسلاسل من الجبال الشّاهقة تقع بآسيا الوسطى، طولها 1.200 كم ومعدل ارتفاعها 5.500 م. يغطي قسمها الغربي جزءا كبيرا من جمهورتي كازاخستان وكِرْغيزستان . اما قسمها الشرقي – ويقع في بلاد الصّين – فهو عبارة عن سلسلتين من الجبال متوازيتين . ومن هذا المجمع تنبع أنهار كثيرة أشهرها نهر سَيْحُون (انظر اعلاه ، ص 20 رقم 35).

(46) * السِّنْد (الهندوس اليوم) : نهر في الهِنْدُسْتان (3.180 كم). ينبع في التِّبتّ ويمرّ في بنْجَاب ويخترق أنجاد باكستان ويصب في خليج عُمَان من المحيط الهندي.

(47) * مُلْتَان : مدينة في باكستان.

(48) * القيروان : مدينة في تونس أسّسها القائد العربي عُقْبة بن نَافع فصارت عاصمة لإفريقية. بلغ أوج عزّها في عهد الدّولتين الاغلبية (184/800 هـ – 297/909 هـ) والصّنهاجية (363/973 هـ - 452/1060 هـ).

(49) * تلِمْسان : مدينة في الجزائر على ملتقى الطرق المؤدية من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، ومن الصّحراء إلى البحر المتوسط. تأسّست بها سنة 1248 (646 هـ) دولة بني عبد الواد البربريّة التي استقلّت عن الموحّدين وشمل حكمُها كاملَ البلاد الجزائرية تقريبا . في القرن 16 ً (10 ً للهجرة) خضعت لسلطة الوالي الاسباني بوَهْرَان قبل أن يحررها عَرّوج. استولى عليها الأتراك سنة 1553 (960 هـ) .

(50) * جَبَل طَارق : مضيق بين أوروبا وافريقيا يصل البحر المتوسّط بالمحيط الأطلسي. عرضه 15 كلم وعمقه 450 م وهو من المواقع العالميّة الاستراتيجيّة لخطورة مركزه ، ويُعرَف أيضا ببحر الزقاق. وجبل طارق أيضا شبه جزيرة صخريّة في طرف اسبانيا الجنوبي ويُسمّى أيضا جبل الفتح ؛ بنيت فيه مدينة ومرفأ فحُصّنا تحصينا جبارا . وقعت المدينة نهائيا في أيدي الاسبان سنة 1462 (866 هـ). وأخذها منهم الانكليز سنة 1704 (1115هـ) وهي اليوم من الأراضي الخاضعة للحكم البريطاني ولا تزال محل نزاع بين الانكليز والاسبان.

(51) * أخِيلة (وَقلَة عند العرب) أحد الثلاثة من أبناء غيطشة Wittisa آخر ملوك القوط باسبانيا. رشحه حزب أبيه ليعلن نفسه ملكا مكان الطاغية لُذريق Roderic الذي هزمه =

الإيبيرية ، فأخذ قُرْطُبة[53] وطُلَيْطِلَة[54] ثم سقطت بعد ذلك سائر المدن الاسبانية ؛ وفي سنــة 720 (102 هـ) كانت جميع بلاد الاندلس بأيدي المسلمين ٠

وسيزداد الإسلام انتشارا أكثر فأكثر في اتجاه افريقيا وآسيا ٠ وفي أقل من قرن سيكون الفتح ونشر الدعوة قد دُعّما على الوجه الأكمل وأركان الدولة قد بُنِيت على أسس صحيحة وذلك على أيدي الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين ٠

ثــورة الانتقــام

ليس في تاريخ الإسلام حدث - إذا استثنينا ليلة سَمِع النبيءُ المولى تعالى يأمره بالدعوة للاله الواحد - كانت له نتائج أخطر من اغتيال الإمام عليّ بالكوفة ٠ فلم تمرّ سنوات على ذلك - أي في اليوم العاشر من أكتوبر (تشرين الأول) 680 (10 محرم 61 هـ) حتى فُجِع الناس بكربلاء[55] في العراق بمصرع ابنه الحسين الذي اغتاله هو أيضا جند الأمويين ٠ فقد كان لكل منهما شخصيّة لا بروز فيها ، وبقدر ما كان كل منهما محبّبا إلى

= طارقُ بن زياد في معركة وادي البَرْبَاط Rio Barbate في 19 جويلية (تمّوز) 711 (28 رمضان 92 هـ)٠ ورغم الجهد الذي بذله أخيلا في استصدار قرار من مجلس طُلَيْطِلة لنيل خلافة أبيه على العرش لم تُلَبّ رغبتُه لأن الشّائعات كانت تملأ الجو ومفادها أن لذريق لم يُقتل٠

(52) * هَزَم طَارِقُ ، في معركة وادي البرباط ، لـُذ َرِيقَ لا أخيلةَ كما ذهب إلى ذلك المؤلّف ٠

(53) * قُرطبة . مدينة في اسبانيا على نهرالوادي الكبير. أسسها الفينيقيون واستعمرها الرومان وصارت تابعة لملكة الفبزيقوط (القُوط عند العرب) الى انْ فتحها العرب ، فصارت عاصمة للولاة ثم للخلفاء الأمويين في الأندلس؛ ازدهرت في أيامهم وشيّدوا فيها المباني ومن أشهرها مسجدها الجامع وقصور الزّهراء والزّاهرة ٠ وقرطبة اسم عدة أماكن أخرى في القارّتين الأميركيتين ، منها مدينة في الارجنتين وأخرى في المكسيك وهي التي أُعلِن فيها استقلال هذا البلد سنة 1821 (1236 هـ) ٠

(54) * طُلَيْطِلَة : مدينة في إسبانيا على نهر التّاجُه . كانت عاصمة لملكة الفيزيقوط وكرسيّ الأبرشية archevêché الكاثوليكية وهي أعلى سلطة دينية في إسبانيا المسيحية . فتحها العرب سنة 711 (93 هـ) واستعادها منهم الأذْفُنْش (ألفنس 6) سنة 1085 (478 هـ) فصارت عاصمة لملكة قشتالة ، فعاصمة لإسبانيا قاطبة الى سنة 1561 (968هـ). وطليطلة اسم لعدة اماكن أخرى في اميركا الشّمالية والوسطى والجنوبية ٠

(55) * كَرْبَلاَء : مدينة بالعراق ، فيها قُتل الحسينُ ابنُ عليٍّ وفاطمة وبها مشهده الذي يكرّمه الشّيعة الى اليوم ٠ وبها أيضا مقام المرزة شفيع خان رئيس فرقة الشيخية ومقام السّيد كاظم الرّشتي صاحب الفرقة الكَشْفية ومقام عليّ حسين شاه رئيس الطريقة الصُوفيّة ومقام مؤمن دَهْدَه رئيس الفرقة البَكْتَاشية.

النفوس بتُقاه وورعه ووفائه لسنّة الرسول كان قليل التحلّي بالحنكة السّياسية ؛ واحتجابهما المأساوي فتح في جسد الكيان الإسلامي جرحا لن يبرأ إطلاقا. فاعتداء الكوفة وفاجعة كربلاء قسّما جماعة المؤمنين إلى الأبد ، وتسبّبا في اصطباغ النزعة الشيعية – نزعة أنصار عليّ – بصبغة مسيحيانية (قائلة برجعة المسيح عند النصارى وبعودة الإمام عند الشيعة) صوفية متحمّسة لآلام الشهيدين وسيظل المذهب الشيعي محتفظا بهذه الخاصيّة عبر العصور وحتّى يومنا هذا.

فالانقلابات والمؤامرات التي كانت تتعاقب جعلت كره بني أمية ، وهم الذين يُحمَّلون مسؤولية استشهاد حفيدي الرّسول – اللّذين اصطفاهما الله للإمامة الأبدية –[56] يتعاظم ويؤول الى سقوط دولة تمثلت جريمتها ، عند شيعة عليّ ، في تحويل وجهة الدّين قصد بلوغ غايات سياسية وتحقيق مآرب شخصيّة ، وكذلك في الأمر باغتيال رجلين هما قطبا العترة النبويّة الشريفة.

لم يمض على كَرْبلاء إلا زمن قليل حتى تكونت جماعة من بين سكان الكُوفَة – الذين ندموا على عدم تصدّيهم لاغتيال عليّ – وقرّرت الانتقام من قاتليه. فخرج ألف من الرجال منادين «هلمّوا نثأر لدم الحسين» وشنوا هجومًا انتحاريًا على وحدات من الجيش الأمويّ. فكان مآلهم هزيمة نكراء ألحقتها بهم تلك الوحدات. وما كادت تمضي على ذلك أشهر قليلة حتّى نشبت فتنة أخرى ، أعظم خطورة هذه المرة وأحكم تنظيما ، وكان مدبّرها المُخْتار[57]، الرجل الغريب التّصرف والأطوار. فكان برنامجه يرمي الى افتكاك الأمر من أيدي الأمويّين وجعله في آل البيت أي في ذرّية عليّ ؛ لكن أشياخ القبائل ارتابوا في أمره واتّهموه بالاستعانة بالموالي ، فقُتل سنة 687 (68 هـ).

حِيكَت بعد ذلك بقليل مؤامرة جديدة ، دائما بالكوفة ، لكن هذه المرّة سيكون نصيبها النّجاح. فقد استمدّت قوّتها من نفس المشاعر التي استغلّتها سائر المؤامرات السّابقة وهي مشاعر الرّغبة في الانتقام من بني أميّة ، لكن لفائدة ذرّية العبّاس[58] عمّ

(56) انتهت سلسلة الرّسل بخاتم النبيّين محمّد. وتبدأ بذلك [في نظر الشّيعة] سلسلة الولايات أي تتالي الأئمة الذين ستكون وظيفتهم تأويل التنزيل تأويلا باطنيا وإرشاد النّاس في المسائل المتعلقة بحياتهم الرّوحيّة.

(57) * المختار بن أبي عبيد الثّقفي : صاحب الكوفة 685 (65 هـ) . ناصر عليّا وجاهد في سبيل الحركة الشّيعية .

(58) العَبّاس . أخو عبد الله (أبي النبيء محمّد) وأبي طالب (أبي الإمام عليّ). لم يكن قد لعب دورًا هامّا عند ظهور الاسلام. وقد عُهِد اليه فيما بعد بمُهمّة مَيْر الحجيج ، فمكنّه ذلك من اكتساب بعض الثّروة. [كان العبّاس تاجرًا غنيًا. حارب محمدًا في بدر فأسّره المسلمون وافتدى نفسه وأعلن إسلامه ومكث يجاهد مع المسلمين. تُوفّي في المدينة سنة 653 (32 هـ)].

النّبيء . فقوي شأنها بإيران ، في خراسان ، حيث هاجر قرابة المائتين وخمسين ألف عربي من أصل عراقي ، وانتظمت الثّورة بقيادة أبي مُسْلِم . فهذا القائد – والمرجح أنه ابن رجل إيراني اعتنق الإسلام – كان ذا شخصيّة عاتية مجبولة على تدبير الدّسائس ، لذا فهو الذي سينظم الحملة ويضمن لها كامل التّوفيق . ففي حين كان عدد الثّوار قليلا، عند بداية الأمر، سرعان ما تزايد وبلغ مائة ألف رجل فيما بعد . فكان منهم العرب المسلمون ولكن أيضا الإيــرانــيــون الزرادشــتــيّــون والمزدكيّون ، إلاّ أنهم جميعا اتّحدوا تحت الرّايــة الـسّوداء[59] ، رايــة القـائم فـي حـقّ آل البيت . فكانت النّيران تُشعَل من قرية إلى قــريــة، معلنة بـداية الـثـورة . وفي سنة 747 (130 هـ) سقطت مَرْو وتلتها نَيْسابُور [60]، ولم يمض زمن طويل حتّى مَحق أنصارُ أبي مُسْلم جيشا أمويّا واستولوا على الكوفة وكان ذلك في 2 سبتمبــر (أيلــول) 749 (132 هـ) ، ونادوا بأبي العبّاس أميرا للمؤمنين وخليفة في الإسلام ؛ على أنّ أول الخلفاء العباسيين المعروف بالسّفّاح[61] لن يدوم في الحكم الا أعواما قليلة .

لكن بقِي وجوب البتّ في مصير مَـرْوَان[62]، خـليفة دمشق . فقد كانت جيوشه هُزمت الواحد تلو الآخر، وكان إلى حدّ الآن ترك قواده يواجهون الأعداء بمفردهم . فبعد هزيمة ابنه بالزّاب الصّغير[63]، في الجزيرة ، خرج مروان بن محمّد آخر خلفاء بنى أميّة بالشّام بنفسه للقتال ولاقى عبد الله بن عليّ أحد أعمام السّفّاح بالقرب من الزّاب[64] . فهُزم بدوره وفصل هاربا إلى دمشق ، لكن سكانها منعوا عليه دخولها . فظل فارًا من بلد إلى بلد وجيوش العبّاسيين تلاحقه حتّى دخل مصر حيث نُصب له كمين لقِي فيه حتفه .

(59) إن الرّايات السّود التي رفعها العبّاسيّون كانت ايضا قد اتّخذت علامة على الثّورة الدينية من قبَل حركات أخرى مناهضة للأمويّين . فكان لها أيضا دلالة مسيحيانيّة (قائلة بالرَّجعة) وكانت تشير إلى أن الآمال التي حرّكها في النّفوس الوقوفُ في وجه الانحرافات والظّلم لن تُخيَّب . وصار السّواد بعد ذلك لون الثّورة العبّاسية .

(60) * نَيْسَابُور : عاصمة خُراسان . من أعظم المدن الاسلامية في العهد الوسيط مع بَلْخ وهَرَاة ومَرْو . هي مسقط رأس الشّاعر الفيلسوف عمر الخيّام . خرّبتها الحروب والزلازل .

(61) من معاني هذه الكلمة : سفّاك الدّماء .

(62) * مروان 2 : هو مروان بن محمد "الجعدي" الملقب "بالحمار" لصبره في الحروب . آخر خلفاء بني أميّة وأحزمهم . تولّى والفتن الدّاخلية قائمة قاعدة . بذل جهده لإخمادها لكن غلبته على أمره "الفتنة الكبرى"التي كان يقودها أبو مسلم . قُتل بصعيد مصر بطعنة رمح ، فاحتُز رأسه وأُرسل الى السفاح ، وكان عمره 62 سنة . كانت مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر (744 - 750 / 127 - 132 هـ) .

(63) * الزّاب الصغير : نهر في العراق من روافد دجلة ويصب فيه عند قلعة جُعبُر .

(64) * الزّاب الكبير : نهر في العراق، ينبع في تركيا ويصب في دجلة عند المخلط على مسافة 44 كم شرقي الموصل ؛ عنده انكسر مروان .

بات السّفاح[65] الآن سيّد الشّرق الأوسط . فاتقاءً لما قد تُحدِثه الدّعاية لفائدة البيت الأموي من خطر ، أمر أن يُبحث في كل نواحي المملكة عمن قد يوجد بها من رجال ينتسبون إلى ذاك البيت ، للقضاء عليهم . بل وذهب به الأمر حتى إلى إصدار الإذن بالنبش عن جثث خلفاء بني أميّة وإحراقها وذري رمادها مع الرياح . ويروي المؤرخ الطبّرى أن السفّاح ، لما جمع آخر من بقي من الأمويين ، أمر بهم فقُتلوا وبُسطت عليهم بُسُط من جلد ، وقُدّم عليها الطعام وأكل النّاس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا جميعا.

نجا من هذه المذبحة أمير أموي واحد : هو عبد الرحمان بن معاوية ، أحد أحفاد الخليفة هشام . فبعد أن قضى أربعة أعوام في الترحّل متنكرًا عبر فلسطين وشمال افريقيا – حيث استطاع بفضل نسب أمه البربري أن يجد ملجأ – اجتاز مضيق جبل طارق للالتحاق بجماعة من موالي الأمويين كانوا في انتظاره بالعدوة الإسبانية . وفي خريف 756 (139 هـ) بويع أميرًا للأندلس في جامع قرطبة ، فبدأ بهذه البلاد عهد جديد لبني أمية سيدوم ما يقارب الثلاثة قرون .

يبدو أن السفّاح لم يكن رجلاً من ذوي المقدرة الفائقة . ومع ذلك فإن الكلام الذي صرّح به يوم بيعته لا يترك مجالا للشك في عزمه وعزم العبّاسيين على الاحتفاظ بالحكم الذي ظفروا به منذ زمن قليل . فقد قال لأهل الكوفة : « خذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تُخدَعُوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، وان لكل أهل بيت مصرًا وإنّكم مصرنا »[66]. ليس أوضح من هذا التصريح قصدًا فقد قُضِي إلى الأبد على هيمنة أهل الشّام ودالت دولة بني أميّة وأُقِرّت بلا منازع شرعيّة الحكم لبني العبّاس . «فكان ذلك في تاريخ الاسلام ثورة بل منعرجا ليس أقلّ حسما ممّا مثّلته في تاريخ الغرب الثورتان الفرنسية والرّوسية »[67].

دعّم العباسيون بادئ ذي بدء استقرارهم بالعراق وأعرضوا عن بلاد الشام التي كان يعكّر صفوها وجود الأمويين ، فعدلوا عن دمشق الكرسي التقليدي لدول الشرق الأوسط وحطّوا عصا التّرحال بالمنطقة السّفلى من بلاد ما بين النّهرين ، بالقرب من

---

(65) * أبو العبّاس عبد الله السّفاح : أول خلفاء بني العبّاس . كانت ولايته أربع سنوات (750 - 754 / 132 - 136 هـ). مات وعمره 33 سنة.

(66) المسعودي : مروج الذهب [الكلام لداود بن علي،قاله حين اشتدّ الوعك بأبي العبّاس بجامع الكوفة فعجز عن مواصلة خطابه ؛ فجلس على المنبر وصعد داود فقام دونه على مراقي المنبر وألقى بدوره خطابا ذكر فيه مناقب الخليفة الجديد وأثنى على بني العبّاس وعدّد جرائم بني أميّة وهنّأ أهل الكوفة ببيعتهم لأبي العبّاس ووعدهم وتوعّدهم ، وليس الكلام للسفّاح كما ادّعى ذلك الكاتب؛ثم ان الكلام لم يورده المسعودي في مروج الذهب بل أورده الطبري، الملوك،7،428].

(67) ب. لويس B. Lewis ، العرب في التاريخ ، Les Arabes dans l'histoire .

الكوفة في مرحلة أولى ، ثم ، بعد ذلك بزمن قصير ، قليلا نحو الشّمال ، بالأنبار التي ستظلّ عاصمة للامبراطورية الاسلامية حتّى تأسيس بغداد ، بعد ذلك بعشر سنين .

كان لهذا الانكفاف نحو الجنوب دلالات عديدة . فالدّولة الجديدة لا تتخلّى عن البحر الأبيض المتوسّط ، لكنّها ستُولِي اهتمامها شيئا فشيئا إلى الشرق ، إلى فارس والهند وحتى إلى ما أبعد من ذلك ، إلى البلاد الآسوية النّائية . وسيضعُـف تأثير اليونان والرّوم وستصبح دولة الخلفاء امبراطورية حقيقية تهيمن على الشّرق الأوسط .

الدّولة العباسيّة دولة عربية ، فاعتمادها إذن على العرب ، ولغتها العربية ، وحضارتها عربية ، والمناصب العليا في الدولة يشغل معظمَها العربُ . ووراء هذه الدّولة قوتان تستند إليهما وتَلقَى لديهما وفاء لا تزعزعه الأحداث : جيش خراسان وآل بني العباس. أما القوة الأولى فتضـمّ رجالات كلهم من ذوي الجود والإخلاص والطاعـة ، وإذ كانوا هـم الذين رفعوا بني العبّاس على عرش الخلافة فهم مستعدون أيضا للدّفاع عنهم في أحرج الظّروف، ولن يعرف الانتقاض على الدولة الجديدة إليهم سبيلا . وبما أنّ تجنيدهم في سبيلها جرى على أسس قَبَلية فسيُرسَلون إلى جهات حساسة (سوريا ، شمال أفريقيا) : وسيشملهم النّظام الجديد برعايته ويوزّع عليهم أراضي داخل مدينة بغداد ويجعل منهم "قوته الضّاربة" حتّى يحين ، بعد مرور قرن ، وقت تعويضهم بالأتراك .

أما القوّة الثانية، وهي أسرة بني العبّاس ، فهي التي ستُوفّر للخلفاء الأوائل من الدّولة الجديدة - وعلى الأخصّ لهارون الرشيد - القوى التي سيستطيعون بفضلها القبض على مقاليد الحكم بيد صارمة عندما تعصف بالخلافة ريح الشدائد . وستتمتّع هذه الأسرة ، وهي المتضامنة المتّحدة حول رئيسها ، بسلطة أدبية لا مثيل لها طالما أنّها تستمدّ جاهها من انتسابها لسلالة الرّسول .

لكن العبّاسيين رأوا بدورهم الجناح الشّرقي يُفلت من أيديهم : فأبو مُسلم ، وهو السيد المطلق بخُراسان ، أمسى الآن يحكم البلاد كما لو كان نائب الخليفة . لكن إليه يرجع الفضل في إيصال بني العباس إلى الحكم وذاك ما كان يُقِضّ مضجع السّفاح ، ثم بعده – وبمقدار أوفر دون أدنى ريب – مضجع أخيه أبي جعفر الذي يُروى أنه قال له ذات يوم : «هو (يعني أبا مسلم) أحد الجبابرة ولن ينعم لك عيش ما دام بقيد الحياة».

وفي سنة 754 (137 هـ) تُوفِّي السّفاح وخلَفه أخوه أبو جعفر، متلقّبا بالمنصور[68] . فثار والي الشّام عبد الله بن عليّ على الخليفة الجديد بدعوى أنه أولى منه بالحكم لأنّه عمّ الخليفة الرّاحل. فخرج إليه أبـو مسلم وهزمه ، مقدّمـا بذلك آخـر خدمة لبني العباس.

(68) * أبـو جعفـر عبـد الله المنصـور : ثـاني خلفاء بني العبّاس . كانت ولايتـه 22 سنة (754-775/137-159 هـ). مات وعمره 63 سنة.

فاستدعى المنصور أبا مسلم إلى معسكره ، وقد بات في غنى عن "مُتوِّجٍ للملوك" ؛ وبعد أن أشبعه سبّا وشتما أمر بضرب عنقه .

حلّت الآن سنة 755 (138 هـ)، وها هم بنو العبّاس يحكمون المملكة ولا أحد ينازعهم الحكم فيها . وبعد مرور إحدى عشرة سنة على ذلك التّاريخ فقط وُلد هارون وسيتلقّب بالرّشيد ، وسيعطي الدّولة عظمة تكسبها سناء لن يفنى على مرّ العصور . لكن سيحكم الدّولة قبله خليفتان – واسم الثّالث لا يستحقّ غير النّسيان – لولاهما ما كان للامبراطوريّة أن تكتسب الدّعامات الثّابتة التي ضمنت لسياستها ونظمها طول البقاء ، ولا أن تباهي العالم بعاصمتها العظمى .

المنصور ، الخليفة المشيّد

كان المنصور، سيدُ الامبراطورية الجديد ، رجلا ذكيا صبورا على ما يلحقه في العمل من إرهاق . لكنّه كان قاسيا عنيفا بخيلا غدّارا ، وكان عمره عند توليه الخلافة لا يربو على الأربعين إلا بقليل . وكان لا يُبيح أي ضرب من ضروب اللهو ويحرّم الموسيقى في القصر، حتى أنه اتفق له يوما أن قبض على غلام يقرع طبلاً عند بابه فجلده بنفسه . وكان يستيقظ مبكّرا وينقطع للعمل كامل اليوم حتى صلاة المغرب ولا يصيب أثناء ذلك من الراحة الا قليلا. وكان يتّخذ بنفسه كلّ القرارات ، حتّى تلك التي تهمّ أقلّ النّفقات قيمة : لذا لُقّب بأبي الدّوانِق[69] . وكان يَقبل هذا اللّقب بكل اعتزاز ويؤيّد ذلك بقوله : « من لا مال له لا رجال له ، ومن لا رجال له اشتدّ عليه أعداؤه ».

عندما خلف المنصور السّفاح كانت له تجربة طويلة في ممارسة السّياسة ومعاملة الرّجال. لقد وُلد حوالي سنة 710 (92 هـ) في الحُمَيمة ببلاد الشّام حيث تقيم الأسرة العباسية أيام كانت تحاك المؤامرة التي ستوصلها الى الحكم. فبعد الدسيسة التي دبّرها قوّاد أبي مسلم ، كان من الأوْلى أن يُعهَد بالخلافة اليه ، لأنّ ما كان له من الشّيم يؤهّله لها بلا ريب أكثر من أخيه السفّاح. لكن قوّاد الجيش فضلوا عليه هذا الأخير مدّعين أنه ابن لزوجة حرة في حين أن أمّ المنصور أَمَة ، والسّبب الحقيقي هو أنّهم كانوا يجدون في مرونة السفّاح ما يهيّئه لمطاوعتهم . وما كان لشخصيّة المنصور من قوّة سيطرت على سير الأحداث في عهد أخيه السفّاح سيزيد تمكّنا حالما تؤول إليه خلافته . ومدّة الإحدى وعشرين سنة[70] التي سيمتدّ طيلتها عهده سيثبّت دعائم الدولة ويُحكم تنظيم شؤونها .

(69) * الدّوانِق ج دانِق وداَنَق وهو سدس الدّرهم ، والكلمة فارسية .

(70) * المدّة إحدى وعشرون سنة شمسيّة لكنّها اثنتان وعشرون سنة قمريّة .

لما ثار عبد الله بن عليّ[71] على الخليفة الجديد كان يعتمد على جيوش شامية لدى رجالها نقمةٌ شديدة على نقل بنى العباس القصبة السياسية لدولتهم من دمشق إلى العراق. لكنّ انهزامه سيقضي على آخر أمل لدى أهل الشّام في جعل مدينتهم عاصمة للمملكة من جديد. فاغتنم المنصور هذه الفرصة للتّخفيف من حدّة التّوتّر في العلاقات مع أهل الشّام : من ذلك أنه لم يتّخذ إزاء الثّوّار أي إجراء انتقامي واحتفظ بالرّجال الذين كانوا قادوا الجيش في عهد الدّولة السّابقة ، بل جازى بعضهم بأن أسند لهم خططا عالية في الدّولة ، وعهد للوحدات السّورية التي كانوا على رأسها بحماية الحدود من غارات البيزنطيين[72]. هكذا قضى المنصور دفعة واحدة على ما كان في أكبر مقاطعات المملكة من عداء نحو الدّولة الجديدة ، ثم إنه خلق في نفس الوقت ، من جهة الشّرق ، قوّة تمثّل ثقلا

(71) * عبد الله بن علي : عمّ الخليفتين السفّاح والمنصور. غلب مروان الثاني في وقعة الزّاب وفتك بالأمويين. طمح إلى الخلافة وقتل ألوفا من الخراسانيّين أنصار المنصور للوصول إليها. حكم دمشق ثم سُجن وقُتل بأمر من المنصور (147/764 هـ).

(72) * البيزَنْطِيّون (نسبة الى بِيزَنْطة أو بيزَنْطِيّة) . الاسم القديم للقُسْطَنْطِينِيّة (إسْتَنبُول اليوم) وهي تسمية مختصرة للإمبراطورية البيزنطية (أوالامبراطورية الرومانية الشرقية) المسمّاة عند العرب قديما ببلاد الروم (مع التذكير بأنّ اللقب الرسمي للإمبراطور البيزنطي الى حين سقطت الدولة البيزنطية هو "إمبراطور الرّومان ") والتي نلخّص أهمّ أطوارها في ما يلي . منذ 295 للميلاد لم تعُد رُومَا عاصمة لامبراطورينها . وبانقسام الدولة الى شطرين dyarchie صارت تريف Trèves (ماتزال موجودة بألمانيا) عاصمة للجناح الغربي ، ونِيكومِديا (اليوم إزْمِيت بتركيا) عاصمة للجناح الشرقي. وفي 330 أسسّ الامبراطور الروماني قُسْطَنْطِين الكبير، على انقاض بيزنطة ،" رُومَا " ثانيةً، سمّاها القسطنطينية، وذلك لمراقبه تحرّكات البربار على ضفاف الطّونة (الدّانوب) ، والفرس على مشارف الأناضول وسـائر بلاد المشرق . وفي 395 وزّع الامبراطور تِيُودُوز الاول قسمي الامبراطورية على ابنبه . فكان النصف الغربي من نصيب هُونـُورِيُوس (وفي عهده استولى البربار على ايطاليا) والنصف السرقي (الملكة البيزنطية لاحقا) من نصيب أرْكَادِيُوس . حكمت الامبراطوريـة البيزنطيـة أُسَرٌ عديدة أشهرها : الهَرَاقِلـة les Héraclides (610 - 717 / 12 ق هـ – 99 هـ) ، والإِيزُورِيّون les Isauriens (717-802/99-187 هـ) ، والآمـُورونيون les Amoroniens (820-867/205-253 هـ) ، والمَقْدُونِيون les Macédoniens (867-1081/253-474 هـ)، ومعهم كان أوج العـزّة للامبراطورية، وآل كـُومْنان les Comnènes (1081-1185/474-581 هـ) ، والأنْجِيّون les Anges (1195-1204/592-601 هـ) ، وآل لاَسْكَارِيس les Lascaris (1204-1259/601-658 هـ) ، وآل پَالِيولُوج les Paléologues (1261-1453/660-857 هـ) . وكان سقوط هذه الدولة على آيدي الأتراك ، وذلك بفتح محمد 2ً القسطنطينية سنة 1453 (857 هـ) ؛ وبسقوط هذه المدينة وزوال مملكة الروم تُطوى عصر من عصور التاريخ وهو العصر الوسيط.

معادلا للنّفوذ العظيم الذي يتمتّع به الخراسينون والذي كان يهدّد، مع مرور الزمن، بخلق مصدر للمخاطر على الخلافة.

لم يبق الآن أمام العبّاسيين أيّ انتفاضة عسكرية تُخشى. لكن كان ينبغي أن يُحسَب الحساب للنّاقمين على النّظام الجديد بسبب خيبة ظنّهم فيه ، ويأتي في مقدمة هؤلاء العَلَويّون. فآل عليّ ظلّوا لا يأملون ان يرتقي أحدهم الى منصب الخلافة ، وسرعان ما أدركوا أن نضالهم من أجل مجتمع جديد « يقوم على أحكام القرآن والعدل والمساواة بين كافة المسلمين» قد ذهب سدى وأنّ حكم آل العبّاس عمّ النّبيء حلّ محلّ حكم بني أميّة لا أكثر ولا أقل. فالدولة الجديدة دولة لا دينية كدولة الأمويين، والثورة اذن قد باءت بالفشل.

فما لبثت أن تكوّنت جماعات من المعارضين في العراق وفي الولايات. فالرَّاوَنْدية – وهم من أول ما تكوّن من تلك الجماعات (واسمهم مستمد من رَاوَنْد، وهي مدينة صغيرة واقعة شرقي إيران) – رفضت الاعتراف بشرعية العباسيين. كان عددهم قليلا لكنهم كانوا شديدي التعصّب ومتوفّرين على إقدام كبير، لذا فإنهم نادوا باعتماد العنف في عملهم ، وحاولوا اغتيال المنصور فتصدّى لهم وقضى عليهم.

أما ثورة محمّد النّفس الزّكية وأخيه إبراهيم فقد كانت أحكم تنظيما وأوسع نطاقا وكان بالإمكان أن يُكتب لها النّجاح ؛ ففي سبتمبر (أيلول) 762 (145 هـ) وبعد مدّة طويلة قضاها في النشاط السرّي ، أعلن محمّد – المنحدر من سلالة الحسن ، أحد أبناء عليّ – تمرّده واستولى على المدينة ، فقال المنصور : «ها هو ذا الثعلب قد خرج من مخبئه»[73]. ثم وجّه إليه أربعة آلاف من الرّجال ، وسرعان ما هُزم جيشه وقُبض عليه فقُتل. لكن ما كاد يمرّ شهران حتى ثار بالبصرة أخوه إبراهيم وقد انضمّ إليه خلق كثير. فوجد المنصور هذه المرة عناء أشدّ للقضاء على الفتنة. وبما أنّ قدرته على قيادة المعارك وتعبئة الرجال كانت لا تقلّ عن مهارته السياسية، فان المعركة التي شنّها جنوبي الكوفة على جيوش الثائر والتي قُتل فيها ابراهيم وضعت حدّا في فيفري (شباط) 763 (146 هـ) لأخطر تمرّد عرفه عهده. وهكذا ينضاف اسمان إلى القائمة الطويلة التي ضمّت شهداء الشّيعة.

انّ الشّراسة التي قُمعت بها هذه الفتن والقسوة التي صُرع بها أبو مسلم أقامتا الأدلّة – وكم كانت الأدلة ههنا دامية ! – على العزم الذي عقده أبو جعفر المنصور أن يكون هو المتصرف – والمتصرف الوحيد – في حظوظ الدولة. ولا أدلّ على ذلك من سكوت جيش خراسان على مقتل قائده وسكوت أنصار عليّ على الفتك بمحمّد النّفس

(73) * والصّواب أن أبا جعفر « حين بلغه خبر خروج محمد بالمدينة بادر إلى الكوفة وقال : أنا أبو جعفر، استخرجتُ الثعلب من جحره » ، رواه الطبري (الملوك ، 7 ، 564).

الزّكية وأخيه إبراهيم ؛ على أن مقاصد المنصور قد فهمها الجميع. فالدولة العباسية ستظلّ ، وذلك حتّى تظهر على مؤسسة الخلافة بوادر الوهن، دولة مجمّعة السّلطات بين أيدي عاهل ستمتدّ سلطته التي لا تعرف حدا حتّى أقاصي المملكة .

فالمنصور كان يسمّي ولاة دولته بنفسه وغالبا ما كان يسمّيهم من بين ذوي قرابته. وحتى إن كان البعض من بين هؤلاء يتمتع بسلط واسعة فإنه كان يُخضعهم لمراقبة صارمة. فقد كان يحيط موظفيه بعدد كبير من الجواسيس حتّى يكون دائما على بيّنة من سلوكهم وتصرفهم. وقد وصل به الأمر إلى أن وضع الرقباء حتّى على أقرب الناس إليه. فما كان بإمكان شيء ان يغيب عن أمير المؤمنين الذي تلقب "بالمنصور" أي "بالمؤيّد بعون الله". فقد كان حاكما مطلق السلطة ، وكان يقتدي بخيرة خلفاء بني أميّة والعظماء من أقيال الشرق القديم كالسّاسانيّين[74] والاخْمنِيّين[75]. وكان المَوَالي يلعبون بجانبه دور المستشارين ، ولا يزيد هذا الدّور على مجرّد التنفيذ لأوامره. وكان أحدهم وهو خالد بن بَرْمَك ، المكلّف، على الأرجح في أوائل أمره، بالمسائل الجبائية، يحمل اسما سيكون له شأن فيما بعد. وقد أقرّ المنصور ما كان معهودا أيّام بني أميّة من تقسيم للمجتمع إلى خاصة وعامّة ، الأولى حاكمة والثانية محكومة. فكان يضمن السّلامة لدولته ، لكن دون أن يحقّق للمسلمين ما كانوا يطمحون إليه من ائتمار لأوامر إمام يسوسهم بهدي من الله.

إن أبا جعفر وهو المؤسس الحقيقي للامبراطورية العبّاسية قد خلّد التاريخ اسمه كمشيّد لمدينة بغداد.

نعلم أنّ العبّاسيين –حتّى من قبل أن يظفروا بالحكم – كانوا قد قرّروا أن يجعلوا قصبة دولتهم بالعراق ، لأنّ العراق،إضافة إلى كونه المقاطعة التي لم تنفك تناهض تقليديا بني أميّة وتعلن موالاتها لآل البيت،كان أوفر البلاد ثراء وأكثرها دَرّا لأموال الجباية على الخزينة.وقد كانت الكوفة لعبت دورا عظيما في الثورة العباسية حتى أنه في مسجدها نودي بأبي العبّاس خليفة.فكان أن بادر هذا الأخيرفجعل القصبة لدولته قريةً مجاورة للكوفة وهي قرية الهاشمية التي أمر أن يُشيَّد بها عددٌ ن المباني؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى الأنبار،على الفرات،غير بعيدعن طَيْسِفُون العاصمةالقديمة للفَرْثيين [76] والسَّاسَانيين.

---

(74) * الساسانيون ، انظر ص 14 رقم 7 .

(75) * الاخمنِيّون les Achéménides : هي دولة فارسية يرجع أصلها الى الملك أخمنـوس. ثارت على دولة المَادَايِيّن les Mèdes ، وقضت عليها وأسسّت مكانهاامبراطورية عرفها العهد العتيق وظلت سيدة الشرق الى فتوحات الاسكندر الكبير . ومن ملوكها قُورش 2 ، وقمبيز 2 ، وداريوس 1 ، وسرسيس 2 وغيرهم . وقد دام عهدها من القرن 6 إلى القرن 4 قبل الميلاد .

(76) * الفَرْثيُون أو البارثيّون les Parthes : شعب عاش قديما بين بحر قزوين وإيران =

وعندما وَلِي المنصور الخلافة واصل الإقامة بالأنبار. ثم – ولأسباب مجهولة – عاد إلى الهاشميّة من جديد. لكن هذه المدنية كانت عسيرة الحماية ، وأهل الكوفة المجاورة شغبهم كثير وتقلبُهم سريع . فجعله ذلك يبحث عن موقع يؤسّس في رحابه عاصمة جديدة ، واستقرّ رأيه في نهاية الأمر على الضفّة الغربية لنهر دجلة . كان للمكان الذي وقع عليه الاختيار ميزات عديدة : فمن جهة الشرقّ كان النّهر مستحيل العبور على غير السّابح . ومن جهة الجنوب كانت تحيط به شبكة من القنوات تسهّل الدّفاع عنه دفاعا طبيعيّا وتمثل سبلا منيعة للتّموين ؛ ومن تلك الميزات نقاء الهواء وقلّة البعوض وقابليّة الضفّتين لشتّى الزّراعات ، كلّ هذا بصرف النّظر عن الأسباب الكُسمُلوجية المستمدّة من الماضي الإيراني البعيد ، حتّى ولو صحّ قولهم آنّ فلكيّا ، واسمه نَوْبَخْت[77]، جاء الخليفة وأيّد اختياره . وقد قيل إنّ بعض الرّهبان المسيحيّين الذين كانوا يعيشون بدَيْر قريب من ذلك المكان أعلموه [78] أن كتبا بأيديهم تبشّر بأنّ مَلكا سيأتي ويستقرّ به .

رسم المنصور بنفسه مخطّط مدينة دائرية الشّكل شُخصّت معالمها على عين المكان بذرّ رماد يبيّن للخليفة ماذا ستكون عليه عاصمته مستقبلا . ثم أُطلق على هذه المدينة المستديرة اسم "مدينة السّلام" تذكيرا بالجنّة[79] . وكان المخطّط الدّائريّ ييسّر الدّفاع عن المدينة باجتناب الزوايا الميّتة وبتخفيض الكلفة التي يقتضيها بناء الأسوار الواجب تشييدُها في نفس المساحة. فجيء بالمعماريّين والمهندسين والعملة والبنّائين من سوريا وإيران والموصل والكوفة والبصرة ، وقد قارب عددهم المائة ألف[80] على ما قيل . وما مضى أربعة أعوام وحلّت سنة 762 (145 هـ) حتّى كان كلّ شيء قد انتهى.

استُخدِمت لبناء المدينة الموادّ المألوفة في الشرق وهي اللّبِن (المضروب من الطين

= (خراسان)، لم يقْوَ الرومان على إخضاعهم. كانوا يركبون الخيل ويتظاهرون بالفرار أمام العدو ، وعلى غفلة يرمونه بسهام من وراء أكتافهم. وضُرب بهم المثل القائــل : «رماه بسهام الفرثي» أي آصابه واختفى، (انظر الهامشين 7 و 8 ص 14) .

(77) ذكره اليعقوبي .

(78) مدينة السّلام لم تكن أوّل مدينة رسمت على شكل دائريّ في التّاريخ . فمن بين المدن الدّائرية التشكّل والمشهورة قديما نذكر مدينة "هَاجْمَاتَانَا" (أَكْبَاتَان) التي أُسّست بإيران في القرن 8 قبل الميلاد . ومدينة "مَانْتِينِيا" التي شيّدها [الملك] إيبِيمُونْدَاس Epimondas سنة 370 ق م ، ومدينتي "طَيْسفُون" و"هَاطْرَا" بالعراق ، و"دَرَاجْبِرْد" بإيران و"جُو" (المعروفة اليوم في إيران بفيرُوزَآبَاد).

(79) القرآن الكريم، السورة 6، آلاية 127 [والكاتب يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : «لَهُمْ دَارُ السّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»] .

(80) قد تكون المبالغ التي أنفقت على بناء "المدينة المستديرة" بلغت أربعة ملايين من الدّنانير (الدّينار في عهد العبّاسيين الأوائل كان يساوي 4.55 غراما من الذهب) .

المجفّف) كمادة أصلية والآجُرّ (المصنوع من الطّين المشويّ) لتشييد الحنايا والقِباب ، يُفصَل بين طبقاتها بنضائد من القصب. وكان السّوران - اللّذان يحميان المدينة والمقامان على شكل دائرتين متراكزتين - محاطين بخندق ويباعد كلاهما عن الآخر مدًى مقدارُه ثلاثون مترا تقريبا. وكانت الأسوار التي يبلغ سمكها الخمسة أمتار وارتفاعها الثلاثة عشر متراً يُنِيف مجموعُ طولها على الكلمترين والنصف.

أمر المنصور بتشييد القصر والمسجد وسط المدينة ، وبتخصيص ما بين القصر والسّور لمساكن حاشيته ؛ كان قصر المنصور- ويُعرف بقصرالباب الذّهبي - مبنيّا على شكل مربّع طول كلّ ضلع من أضلاعه كلمتران. وكان الإيوان بَهْوا شاسعا مفتوحا من جهة واحدة وتعلوه قبّة. وكان بالطابق العلويّ قاعة أخرى فسيحة تعلوها بدورها قبّة عظيمة خضراء : هناك كان الخليفة يقتبل زائريه بطائفة من المراسم جديرة بالأقدمين من أكاسرة الفرس وأباطرة الرّوم، ولا شيء فيها يذكّر ببساطة العهود الإسلامية الأولى. كان المسجد ملاصقا للقصر وينفُذ إليه مباشرة ، وكان فضاء واسع يفصل بينهما وبين المباني التي تُؤوي المصالح الإدارية من خزينة ومكاتب ومحارف لصنع السّلاح ومساكن لأبناء الخليفة وكبار موظّفيه .

داخل هذا الحيّ الإداري من المدينة كان شارعان دائريًّا الشكل يرسمان حدود منطقتين للأمن : فقد كانا يقطعان أربع سكك تبدأ كل واحدة منها عند أحد أبواب المدينة الأربعة وتُؤَدّي إلى قصرالخليفة والمسجد. وفيما بين السّورين كان يوجد الحيّ السّكنيّ مقسّما إلى أربعة أرباع من محيط الدّائرة يقطنها، حسب ما رواه اليعقوبيّ، الضبّاط السّامون، بل من كان له منهم لدى الخليفة ما يكفي من الثقّة ليدَعَه يسكن على مقربة من قصره ، ثمّ خيرة مواليه، وأخيرا كلّ الأعوان الذين يُحتاج إليهم لتنفيذ مهمّة أكيدة طارئة.

ثم أُحدثت داخل الأسوار وتحت أروقة مقوّسة دكاكين للتّجّار. لكن اتّفق ذات يوم - كان المنصور فيه يقتبل مبعوثا من بلاد الرّوم - أن فرّت بقرة من دكّان جزّار وأحدثت بجوار القصر ضوضاء عظيمة. وإذ قد شهد البيزنطيّ ما حصل من لجب لم يتمالك من أن قال للخليفة ، حين أُدخِل عليه : « لقد شيّدتَ بناء لم تر العين مثله من قبلك، لكن لك فيه ثلاثة عيوب : فليس فيه من الماء ما يكفي ، ولا حوله من الحدائق ما يمتّع الناظر، ثم وهذا الأشد خطورة ، رعاياك يقيمون فيه معك ، ومتى أقام الرعايا مع ملك في قصره تفشّت الأسرار». فلم يستحسن الخليفة هذه الملاحظات وردّ معبرا عن تبرّمه منها قائلا : «أمّا الماء فلنا ما يفي بحاجتنا منه للشرب، وأمّا العيب الثاني، فاننا لم نُخلق للهّو والمجون، وأمّا ما قلته عن أسراري، فليس لي من سرّ إلاّ ولرعيّتي الحقّ في الإطلاع عليه ».

كان لكلام المبعوث الرّوميّ في نفس الخليفة وقع، فما لبث بعد سفره بقليل أن أمر بمدّ قنوات جديدة لجلب الماء . وجدّ حادث آخر أشدّ خطورة هذه المرّة وأقنع الخليفة أنّه

ليس في مأمن من المفاجآت. فقد تمرّد المحتسِب ، وهو الموظّف المكلّف بشرطة الأسواق، وحاول على رأس عصابة من أشياع عليّ أن يُحدث فتنة في المدينة . لكن سرعان ما قُبض عليه فقُتل وعُلّقت جثّته على أحد أبواب العاصمة الجديدة ، فأمر المنصور عندئذ بنقل السّوق إلى الكرخ ، خارج المدينة المستديرة . ثمّ أمر ببناء مسجد ثان ، خارج المدينة أيضا ، لأنّ الأوّل كان يجلب خلقا كثيرا ويُحدث ازدحاما حول القصر. لكنّ الخليفة قرر في نهاية الأمر، لحل مشكل التّموين ، أن ينقل مقرّ إقامته إلى قصر الخُلْد ، "الخُلْد السّعيد" الذي أنْهي تشييده منذ قليل على شاطىء دجلة شماليّ المدينة . وبالجانب الآخر من دجلة ، على الشاطىء الشرقيّ ، شُيّد ، تقريبا في نفس الوقت ، قصر ابنه ووليّ عهده الأمير محمّد المهديّ ، والد هارون الرّشيد .

كانت نهاية عهد المنصور نهاية يسودها السلام والهدوء ، إذ قُضي في الداخل على أعداء الخليفة ، الواحد تلو الآخر؛ وعلى مشارف جبال القَفْقاس (القُوقاز) هجم الخَزَر[81] على مدينة تِفْلِيس[82] واستولوا عليها لكنّهم أُزيحوا عنها . وفي آسيا الصُّغرى ، حيث هدّدت حروب القيصر قُسْطَنْطِين 5َ[83] كيانَ الامبراطورية البيزنطية وعرّضتها للمخاطر إبّان الثورة العبّاسية ، تيسّر لقوّات المنصور أن تُمسك بزمام الأمور؛ وفي مصر خضع السّكان لسلطة العبّاسيّين دون صعوبة . أمّا اسبانيا، فقد كانت معتبرة مقاطعة مخسورة بلا

---

(81) * الخَزَر : شعب قطن القَفْقاس في القرون الوسطى وعُرف باسم الهُون les Huns، تنصّروا بين 851 (237 هـ) و863 (249 هـ) ثم أسلموا حوالي 965 (355 هـ) وقد أطلق العرب عليهم اسم الهَيَاطِلَة .

(82) * تِفْلِيس هو الاسم القديم لتبيليسّي (1.300.000 نسمة اليوم) : عاصمة جورجيا إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي. تأسست في القرن 5َ بعد الميلاد ، وظلّت مقصدًا للأطماع ومحلاً للتنازع بين البيزنطيين والعرب ثم بين الفرس والأتراك الى أن احتلها الرّوس نهائيا سنة (1214/1800هـ).

(83) * قُسْطَنْطِين 5َ ("القذر") "Constantin V Copronyme " l'Ordurier امبراطور بيزَنْطة من 741 (124 هـ) الى 775 (159 هـ). صدّ هجمات البُلْغَار عن القُسْطنطينية وحارب الصَّقَالِبَة ولم يقدر على مدافعة اللُّمْبَرْدِيِّين الذين افتكوا منه رَافِين ، وكانت عاصمة إحدى الولايتين الإكْسَرْخُسِيَّتَيْن exarchat (والثانية التي كانت تعُدها الامبراطورية البيزنطية هي إِكْسَرْخُسِيّة قرطاج وقد سقطت بأيدي العرب سنة 709 (91 هـ) . وإثر سقوط الاكسرخُسية الأولى استقلّت بابوية روما عن الامبراطورية الرّومانية (لم يبق من هذه الأخيرة إلا القسم الشرقيّ الذي عاصمته بيزنطة) وجعلت نفسها تحت حماية ملوك الفرنجة. حرّم قسطنطين 5َ عبادة الصّور المقدّسة واضطهد أنصارها، كما اضطهدهم أبوه من قبله ، وابنه وحفيده من بعده ومن أجل ذلك لقّبه المؤرّخون المتعصّبون عليه والمتشيعون لخصومه بأشنع الألقاب (انظر الملحق السادس) .

رجعة ، فلم يعُد يربطها بالملكة العبّاسيّة أيّ علاقة ، لكنّ أنواع المبادلات ستتواصل بين المملكتين بدون انقطاع.

توفّي المنصور في 6 اكتوبر (تشرين الأوّل) 775 (159 هـ) ببئر مَيْمُون[84] قرب مكّة وكان في طريقه إليها على رأس ركب الحجيج محاطا بأهمّ أفراد آل بيته؛ فوُوري رمال الصحراء هناك. وكان المهديّ ابنه ووليّ عهده موجودا ببغداد؛ وحسبما اقتضته العادة ، كتم كبير الحُجاب الرَّبيعُ بن يُونس[85] الخبر إلى أن أحكم المهديّ القبض على أعنّة الوضع.

لقد حُلّ مشكل الخلافة لكنّه لم يُحَلّ دون عناء ؛ كان السّفّاح ، قبل وفاته بقليل – خشية انتقاض أبي مُسلم على بيعته لوليّ العهد المعيّن أبي جعفر (المنصور) – قد عيّن وليّا ثانيا للعهد ألا وهو عيسى بن موسى أحد أحفاده للأخ. فعندما ولي المنصور بقي عيسى وليا لعهده ، فحاول ابن المنصور، وهو محمد المهديّ الذي أزيح عن الخلافة إزاحة فعلية، أن يقنع عيسى بالإقلاع عن المطالبة بها ، لكن عبثا حاول. فجرى بعد ذلك صراع طويل آل في النهاية إلى تخلّي عيسى عن المطالبة بالخلافة مقابل تعويضات مالية والتّعهّد من قبل المهديّ أن تعود الخلافة إلى عيسى في صورة وفاة المهديّ ، وهو أمر صعب توقّعه لأنّ عيسى كان يَكبُر المهديَّ سنّا بكثير.

المهديّ، السّخيّ الحليم

كان المهديّ[86] ابن شحّيح، لكن على عكس ما كان عليه أبوه في كل شيء. لقد ترك عنه الطّبريّ وصفا كله إشادة بالمحاسن. قال عنه إنه كان كثير الجود وفير الحلم يعفو حتى عن كبار المجرمين، فلا أحد من بين خلفاء بني العبّاس كان يفوقه عدلا وحلما وورعا وفضلا وحسنا. وقد روى المؤرّخون انّ المنصور قبل خروجه إلى الحجّ زوّده بنصائح منها قوله له : «خذ نفسك بالتيقظ، وجدّ في احكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا»... وقولـه:

---

(84) * بئر مَيْمُون لا بير مَيّوم كما وردت بقلم المؤلّف ، ذكرها ياقوت مضيفا : ... « وعندها قبر أبي جعفر المنصور... » (معجم ، 1 ، 302).

(85) * هو الرَّبيع بن يونس بن محمّد بن أبي فَرْوة كَيْسان (730 - 786 / 112 - 170) : عتيق حارث الحفّار عتيق عثمان بن عفّان . وزير ، من العقلاء الموصوفين بالحزم. اتخذه المنصور العبّاسي حاجبا ثم استوزره. كان مهيبا محسنا إدارة الشؤون. عاش الى خلافة المهديّ وحظي عنده ، ثم صرفه الهادي عن الوزارة وأقرّه على دواوين الأزمّة فلم يزل عليها الى أن تُوفّي. وإليه تنسب "قطيعة الرّبيع" ببغداد وهي محلّة كبيرة أقطعها المنصور إيّاه .

(86) * محمّد المهدي : ثالث خلفاء بني العبّاس. كانت ولايته عشر سنوات (775-785 / 159-169 هـ). مات وعمره 43 سنة .

«قد جمعت لك الاموال... فاحتفظ بها، فإنك لاتزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا» ...
وقوله أخيرا : «... وإيّاك أن تُدخِل النّساء في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل»[87].

ان أمير المؤمنين المنصور ، الخليفة الشديد ، كان يعرف ابنه معرفة جيّدة . فقد كان هذا الأخير مبذرا: من ذلك مثلا أنّه أتلف الأموال التي جمعها أبوه جمعا فأنفقها بلا حساب. فقد كان جميل الطلعة طويل القامة ممشوق القدّ وكان أسمر الوجه عالي الجبين جعْد الشعر[88]. وكان يحبّ النساء والنساء يحببنه . ففي عهده ، ولأوّل مرّة ، كان للنساء نفوذ، وكان نفوذهنّ من الإفراط بحيث تخطّى أحيانا نفوذ الخليفة نفسه .

وُلد المهديّ سنة 745 (128 هـ) وقضّى طفولته ببلاد الشّام ومنها شخص إلى الكُوفة، بعد انتصار الثورة العبّاسية. كلّفه أبوه – وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره – بقيادة حملة عسكرية في خُراسان ، وبعد ذلك بقليل عهد إليه بإدارة تلك المقاطعة وكانت من أعظم ولايات المملكة ، وقصبتها حينئذ مدينة الرّيّ[89] التي كانت تقع بالقرب من طَهْران اليوم. أقام المهديّ سنوات عديدة في هذه المدينة وأعاد بناء قسم كبير منها وسُمّيت "المحمّدية" باسمه .

وبمدينة الرّيّ أيضا وُلد عدد من أبناء المهديّ. بها وُلدت له عَبّاسة من أمَة اسمها رَحيم وسيكون لها شأن في نشوب أخطر حوادث عرفتها الدّولة. لكن ، وعلى الأخصّ ، اتّفق للمهدي أن أهدى له أبوه يوما – ولا ندري أيّ يوم – جارية «هيفاء مليحة الأعطاف

---

(87) * (الملوك ، 8 ، 103-104). وهنا اشتبه الأمر على المؤلف ، فالمنصور استهل وصاياه للمهدي بقوله : « سأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها» ، وظل يوصيه ويختم كل وصية بقوله : «...وما أظنّك تفعل»؛ وعندما قارب النهاية أوصاه وصيتين وختم كلّ واحدة منهما بقوله : «...وأظنّك ستفعل »؛والوصيتان هما قوله :«إيّاك أن تستعين برجل من بني سُليم، وأظنّك ستفعل»، وقوله :«إيّاك أن تدخل النّساء في مشورتك في أمرك، وأظنك ستفعل».

(88) * وردت عند الطبري (الملوك ، 2، 171) كما يلي : « وكان طويلا مُضَمَّر الخَلْق جَعْدا، واختُلِف في لونه ، فقال بعضهم : كان أسمر، وقال بعضهم : كان أبيض » .

(89) * الرّيّ (Rhagès عند الأقدمين) : مدينة قديمة في دولة ماداي وهي اليوم موقع أثريّ إيراني يقع جنوب طهران بشرق. عمّر البشر هذا المكان منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وبه نشأت مدينة سميّت بالريّ وازدهرت منذ عهد الأخمنيين، وظلّت تزداد نموّا حتى صارت أعظم مركز للنّساطرة في القرن 5 ً للميلاد. فتحها العرب على يد عُروة بن زيد نحو 639 أو 641 (18 أو 21 هـ). في القرن 11 ً(5 ً للهجرة) أخضعها السّلاجقة فباتت من أعظم مدن فارس وتضاهي عظمة دمشق وبغداد في ميادين السياسة والاقتصاد والفنّ. خربّها المغول سنة 1220 (617 هـ) ولم يبق قائما في خرائبها اليوم إلا برج طُغْرُل وبرج نَقّاره خانه. بُنيت بالقرب من موقعها مدينة شاه عبّاس (وهي من كبريات المزارات عند الشيعة) وسميّت منذ عهد قريب الرّيّ. وبمدينة الرّيّ (القديمة طبعا) ولد هارون الرّشيد.

كأنّها الغصن » ، من أصل يمني بدون شك يقال لها الخَيْزُرَان. وقد كان المنصور اشتراها من مكّة فأرسلها وقال : « خذوها إلى ابني المهديّ وقولوا له إنّها ستكون ولاّدة »، ولم يخطئ الخليفة العظيم في حكمه . فالخيزران[90]، التي كان لها من الثقافة والأدب ما يجعلها في مأمن من النشوز بسلوكها عمّا كان في أخلاق البلاط من رقّة وظُرْف ، سريعا ما اهتدت إلى أقرب السّبل المؤدّية إلى قلب الأمير الشّاب. فأنجبت له ثلاثة أبناء : وُلد أوّلهم ، وهو موسى، على الأرجح سنة 764 (147 هـ) ؛ والثّاني، وهو هارون ، بعد ذلك بسنتين ؛ وسيلي كلاهما الخلافة؛ أمّا موسى فستختم حياته بمأساة ، وأمّا هارون فستبلغ معه دولة بني العبّاس ذروة مجدها في حين يبقى الثالث ، وهو عيسى ، مجهولا أو يكاد.

بذلك تكون أماني الخيزران قد تحقّقت ، وسيساعدها ذكاؤها وطموحها على قطع ما بقي من مسافة لبلوغ مراميها . فكشفت فجأة عن وجود أسرتها ، وكان الأمر إلى حدّ ذلك الوقت سرّا مكنونا. فأوقعت أختُها الكبرى سَلْسَلُ في شباكها جعفرا أخا غير شقيق [91] للمهديّ ، وستنجب له ابنا وبنتا. وهذه الأخيرة – هي التي سيسميّها جدّها المنصور زبيدة (أي القطعة الصّغيرة من الزّبدة) – هي التي سيتزوّجها ابن عمّها ووارث عرش الخلافة هارون الرّشيد وستخلّد ذكرَها قصّةُ ألف ليلة وليلة.

كان المهديّ مولعا بالنّساء . فقد اجتمع في قصره عدد لا يُحصى من الإماء اللائي توارت أطيافهنّ مع ذكريات القرن العبّاسيّ الجميل. فمنهنّ شَكْلة الجارية الفتيّة التي كانت على ملك أمير الديلم [92] (على السّاحل الجنوبيّ لبحر قزوين) والتي سُبيَت مع

---

(90) * الخَيْزُران (... – 790 / ... – 173 هـ) : زوج المهديّ العبّاسيّ وأمّ ابنيه موسى الهادى وهارون الرّشيد. جارية يمانية الأصل (والطبري يضيف أنّها كانت جُرَشية، وجُرَش من مخاليف اليمن). وهي من جواري المهدي، أعتقها وتزوّجها فصارت قويّة الحزم والعزم . كانت آخذة بنصيب من العلم : فقد أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، وجاء في نزهة الجليس أنها كانت أديبة شاعرة. لما توفي المهدي ووَلِي ابنها الهادي انفردت بكبريات الأمور إلى أن وَلِي بعده أخوه الرّشيد، فحجّت وأنفقت أموالاً كثيرة في الصّدقات وأبواب البرّ وتوفّيت ببغداد.

(91) * يقول الطبري (الملوك ، 8 ، 102) : « إنّ من وُلْد المنصور : محمّدًا وجعفرًا الأكبر وأمّهما أرْوى بنت منصور الحِمْيَري، وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمّد، من وُلد طلحة بن عبيد الله ، وجعفرًا الأصغر (وهو الذي تزوّج أخت الخيزران) وأمّه أمّ وَلَد كان المنصور اشتراها فتسرّاها ، وصالحًا المسكين وأمّه أمّ وَلَد روميّة يقال لها قالي الفرّاشة ، والقاسم ، مات قبل المنصور وهو ابن عشر سنين وأمّه أمّ ولد، والعالية وأمّها امرأة من بني أميّة » .

(92) * الدّيلم هو القسم الجبلي من بلاد جيلان شمال مدينة قَزْوين أسفل سفح سلسلة البروز بإيران. اعتنق الاسلام بعض سكّانه في 913 (301 هـ) وخدموا في جيش الخلفاء. =

سائر نساء حريمه إثر هزيمته في إحدى المعارك. فقد كانت شَكلة الحسناء السّمراء على قدر كبير من الذكاء والولع بالموسيقى وهي التي أنجبت للمهديّ ابنا أسماه إبراهيم[93]. وسيكون إبراهيم هذا موسيقيا وشاعرا ومغنّيا ذائع الصيت، وبعد ذلك بزمن سيتولى الخلافة لكن لن يطول عهده. وستصبح أخته، وهي ابنة المهديّ أيضا، من أشهر حسان عصرها «وآية في الجمال والفطنة»[94]. ومنهنّ مأمونة ذات العرقوب الرّقيق والصّدر النّاهد. فقد اشتراها خفية عن أبيه بمقدار هائل من المال قُدّر بمائة ألف درهم. وهي التي اعترفت بشأنها الخيزران قائلة: «لم تقدر امرأة سواها أن تجعل احتفاظي بحظوتي أمرا عسيرا»[95]. ومنهن أيضا حُسْنة ونُلقى وحُلّة وأسماء أخت الخيزران الصّغرى... لكنّ الخيزران التي أصبحت للخليفة زوجة حليلة سنة 775 (159 هـ) على الأرجح كانت تفوق جميع أولئك الحسان ذكاء وفطنة وظرفا. وشيئا فشيئا أصبح لها تأثير شديد على المهديّ وبالطبع على شؤون الدولة.

وهكذا طرأ على بلاط المنصور في قلب المملكة تحوّل سريع، وعلى غرار ما أحرزته

= اشتهروا بالعداوة والشّرارة. يقول عنهم ياقوت في معجمه: إنهم جيل من العجم سمّوا بأرضهم وليس باسم لأب لهم.

(93) * الامير إبراهيم (779 - 839 / 163 - 225 هـ) بن الخليفة المهديّ، وأخو هارون الرّشيد. ولد ونشأ ببغداد؛ ولاه الرّشيد إمرة دمشق ثم عزله عنها بعد سنتين، ثمّ أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. ولما انتهت الخلافة إلى المأمون اغتنم فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدّعوة الى نفسه، وبايعه كثيرون ببغداد. فطلبه المأمون فاستتر، فأهدر دمه فجاءه مستسلما. فسجنه ستة أشهر، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله، فاعتذر فعفا عنه. وكانت خلافته ببغداد سنتين إلاّ خمسة وعشرين يوما (818 - 820 / 203 - 205 هـ). ونغلّب على الكوفة والسّواد والمأمونُ بخراسان. وأقام في استتاره ستّ سنين وأربعة أشهر وعشرة أيّام، وظفر به المأمون سنة 826 (211هـ). وكان أسود حالك اللون عظيم الجثة. وليس في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أجود شعرا. وكان وافر الفضل حازما واسع الصّدر سخيّ الكفّ حاذقا بصنعة الغناء. وأمّه جارية سوداء اسمها شَكلة نسبه إليها خصومه. مات في سُرّ من رأى وصلّى عليه المعتصم.

(94) أبو الفرج، كتاب الاغاني. [وصفها أبو الفرح في الحقيقة بقوله: «كانت عُلَيّة بنت المهدي من أحسن الناس وأظرفهم». (الأغاني، 3، 243)].

(95) * روى ذلك أبو الفرج قائلا: «...كانت مكنونة (أم علية) جارية المروانية...مغنية وكانت أحسن جارية بالمدينة وجها وكانت رسحاء (أي قليلة لحم العجزين والفخذين)... حسنة الصدر والبطن ... فاشتُريت للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم فغلبت عليه حتى كانت الخيزران تقول: ما ملك (المهديّ) امرأة أغلظ عليّ منها... ». (الأغاني، 10، 162).

العاصمة الجديدة من رخاء ، تدفّق إليه طيب العيش وطغت على الحياة فيه ضروب التّرف، وأصبح الخليفة الشّاب منذ ذلك الحين يعطي المثل لغيره في الإسراف والتّبذير.

على عكس أبيه حاول المهديّ أن يحلّ ، بالحسنى لا بالقوّة ، المعظلة المزمنة المتمثّلة في الخلاف مع الشيعة أنصار عليّ أو على الأقلّ مع أكثرهم اعتدالا. فبدأ بالعفو على الحَسَنيّة الذين أعلنوا الثورة مع محمّد النّفس الزّكية في عهد المنصور، ثمّ ، عندما استأمن أحدهم – وهو الحسن بن إبراهيم – بعد فراره من السّجن، صفح عليه المهديّ وأمّنه وأقطعه في الحجاز ضياعا ذات بال. وسينال منه وافرَ العطايا العديدُ من العلويّين وخاصّة من كان منهم بالمدينة .

سيتّخذ المهديّ قرارا خطير النّتائج : سيقرّب يعقوب بن داود[96] الذي كان سبق لأبيه أن خدم بني أمّية ، بلا شك قصد استعماله في التأثير على العلويّين. وسيكسب يعقوب كسبا ثقة المهديّ إلى حدّ أنّ هذا الأخير سيسمّيه "أخاه في الله" ويتّخذه وزيرا. فهو أوّل من لُقّب بهذا اللقب عند العبّاسيّين ، وكان له نفوذ واسع يخولّه إدارة شؤون الدّولة باسم الخليفة وتسمية الولاة والإشراف على الإدارة المركزية. وقد أراد المهديّ من وراء هذا الصنّيع أن يُظهر للعلويّين مدى ما يكون له من سخاء على كلّ من يدخل في صفّ مؤيّديه.

أخفقت هذه السيّاسة مع أشدّ العلويين تطرّفا ألا وهم الزّيديّة[97]. ورفض أحدهم، وهو عيسى بن زيد ، موالاة المهديّ وأصبح يعقوب حرِج الموقف إذ كان لا يزال متين الصلّة بالعلويّين. فحاك له بعض أعدائه من الموالي مكيدة للإيقاع به وكانوا يأخذون عليه تملّقه ميول المهديّ للمجون والشراب. فأنشد إذ ذاك شاعر أبياتا عرفت رواجا كبيرا، قال :

بَنِي أمَيّة هُبّوا طَالَ نَوْمُكُمُ
إنَّ الخَلِيفَةَ يَعْقُوب بُنُ دَاوُدِ

---

(96) * يعقوب بن داود (... – 813 / ... – 198 هـ). كاتب من كبار الوزراء ، كان متشيّعا وكتب لإبراهيم ابن عبد الله بن الحسن المثنّى. وبعد خروج إبراهيم على المنصور وقتلِه حُبس يعقوب. وبعد وفاة المنصور تقرب من المهدي وعلت منزلته عنده حتى استوزره. وسقط يوما عن برذون فكسرت ساقه. فاغتنم أعداؤه فرصة غيابه وحاكوا له مكيدة آلت إلى سخط المهدي عليه وسجنه ومصادرة أمواله. ومكث في الحبس إلى أن مضت أكثر من خمس سنوات من ولاية هارون الرشيد فأُخرِج وقد ذهب بصره. فردّ الرشيد عليه ماله وخيّره في الإقامة فاختار مكة وبها مات.

(97) * الزّيديّة طائفة من الشّيعة اتّخذت زيدًا بن عليّ إماما لها . عدد منهم يوجدون اليوم بفارس وأكثرهم يقيمون باليمن .

ضَاعَتْ خِلاَفَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا
خَلِيفَةَ اللهِ بَيْنَ الزِّقِّ وَالْعُــــود
[من البسيط](98)

ونجا يعقوب من الموت لكنه قضّى خمسة عشر عاما في السّجن.

وبقدر ما سيدّعي العبّاسيون الانفراد بالدّفاع عن السنّة سيزداد عمق الهوّة التي تفصل بينهم وبين العلويّين. وكسائر خلفاء بني العبّاس سيُضطر المهديّ - رغم ميله الفطريّ إلى المصالحة - إلى محاربة أهل البدع بجميع أصنافهم. وسيجنح إلى الشدّة ويضطهد - لا فحسب الزّنادقة(99)(أي الكافرين بما أنزل الله) والشّيعة-بل المانوية(100)

(98) * وردت القصة في الأغاني (3، 243) حيث يقول أبو الفرج : هَجَا بَشَّار المهديَّ في قصيدته :

خَلِيفَةٌ يَزْنِي بِعَمَّاتِــــــــه يَلْعَبُ بِالدَّبُوقِ وَالصَّوْلَجَـانْ
أَبْدَلَنَا اللّهُ بِهِ غَيــــــــرَهُ وَدَسَّ مُوسَى فِي حِرِ الخَيْزُرَانْ
[من المنسرح]

وأنشدها في حلقة يونس النحوي، فسُعِيَ به إلى يعقوب بن داود، وكان بشار قد هجاه،فقال. «بني أمية...» (البيتان أعلاه). فدخل يعقوب على المهدي وقال له يا أميرالمؤمنين : إن هذا الأعمى المُلْحِد الزنديق قد هجاك . فقال : بأيّ شيء. فقال . بما لا ينطق به لساني ولا يتوهمه فكري. قال له . بحَيَاتي إلاّ أنشدتني... إلى آخر القصّة وخلاصتها انّ يعقوب رفض إعادة الهجاء مجاهرة وفَضّل كتابته للخليفة على رقعة. فدس المهدي لأحد رجاله بقتل بشّار ففعل.والدّبّوق من لُعَب الصبيان.قال صاحبا القاموس واللسان :إن اللعبة معروفة ولم يبيّناها .

(99) * الزّنادقة ج . زِنْديق . كان يُطلق اسم "زنديق" عند السّاسانيين على كل من تجرّأ وأتى بتفسير جديد لكتاب "أفِسْتَا" وهو مجموع النّصوص المقدّسة التي يتكوّن منها كتاب الدّين المزدكي le mazdéisme . ويبدو أنّ "زنديق" (زند أفستا) تحريف للكلمتين أفِيسْتَا وزند وهو اسم لإحدى لهجات الفرس القديمة ؛ وقد اتسع معنى لفظة الزندقة في العهد العباسي فأطلقت على التّهتك ثم على التدرّج فيه الى الخروج عن الدين أحيانا بألفاظ ماسّة ثم المغالاة في ذلك الى أقوال فيها معنى الإلحاد ؛ وأطلقت أيضا على اعتناق الإسلام ظاهرا والتدين بدين الفرس القديم باطنا وخاصة بمذهب ماني . وللجاحظ ردود مشهورة على أنصار هذا الدّين في كتاب الحيوان .

(100) * المانويّة les Manichéens هم أصحاب مَاني الذي أسّس بفارس في القرن 3 للميلاد دينا ثنائيّا يقول بقيام العالم على صراع إلهين توأمين : إله الخير أُهْرُمَزْد ، وإله الشرّ أهْرِمَان . ورغم اضطهاد المزدكية والمسيحية والإسلام لهذا الدين ، فقد انتشر شرقا في آسيا حتّى الصّين ، وغربا في أوروبا حتّى إيطاليا ، وفي شمال افريقيا (فالقدّيس أوچُوسْطِينُوس ، أحد آباء الكنيسة ورأس الفقه الكاثوليكيّ الوضعيّ - وليد سوق أهراس (طاچاست قديما)، وأسقف عنّابة (هيپّون قديما) - كان مانويّا قبل ارتداده الى المسيحيّة). وظل هذا الدّين ، وهو كثيرالأتباع ، العدوّ الألدّ للنّصرانية حتّى نهاية العصر الوسيط . فنحلتنا =

والخوارج والمُلْحدين. بدأت موجة الاضطهاد الكبرى سنة 782 (166 هـ) وتزامنت مع محاربة رجال المُقنّع وهو ثائر إيراني مقنّع الوجه يدّعي انتسابه إلى أبي مُسلم. وفي ناحية بحر الخزر(بحرقزوين) اضطرّ الخليفة إلى مواجهة المُحمِّرة ذوي الرايات الحُمْر[101].

سيكون عهد المهديّ ، رغم قصره النّسبيّ ، بمثابة المنعرج في تاريخ الدّولة العبّاسية، وستظهر داخل الطبقة الحاكمة أثناء ه كُتَل تأثير سيؤول الصّرا ع بينها إلى وضع مصير الدّولة في خطر.

تتصدّر تلكم الكتلَ الثلاثَ كتلةٌ أولى، كتلةُ الموالي الإيرانيين ، وسيكون على رأسها أسرة عتيدة ، هي أسرة البرامكة. وآل بَرْمَك[102]، أو البرمكيون، إذ كانوا على الأرجح كبار كهنة المعبد البوذيّ ببَلْخ ، حيث كان يعيش في القرن 6ً – حسبما رواه المسافر هوانغ تسانغ[103]– ، قرابة الثلاثة آلاف من الرّهبان ، كانت لهم منذ عهود سحيقة مكانة عظيمة بطخارستان[104]. فأسلموا بلا شك في السّنوات الأخيرة من العهد الأمويّ وانضمّوا إلى الثورة العبّاسيّة التي قد يكون أحدهم ، وهو خالد[105]، لعب فيها دورا هامّا. وسيتعاظم

= البـُوجـُوميـت les Bogomites والكاطار les Cathares – المهرطقتان واللتان أحدثتا فتّنا دوّخت البابوية والبطريركية الاورثوذوكسية جنوبي أوروبا–هما وليدتا المانوية التّقليدية. وفي العهد العتيق ، اعتنق المانوية عدد كبير من الأهالي في إفريقية .

(101) كان أنصار بني أميّة ينضوون تحت رايات حُمْر.

(102) حسب نظام الملك ، وزير السّلطان السّلجوقيّ ملك شاه (القـرن 11ً / 5ً الهجري) قد يكون البرامكة وزروا لملوك الفرس خلفا عن سلف. ويذهب كَوَنْدَامير مؤرّخ العهد التّيموريّ (القرن 15ً / 9 ً الهجري) حتى إلى جعلهم من سلالة هؤلاء الملوك. والواقع أنّ لفظة بَرْمَك كانت لقبا لكبير رهابنة دَير بوذيّ (د. سورديل). [ويذهب المستشرق بارثولد W. Barthold في دائرة المعارف الإسلامية (1، 1065 في فصل عن البرامكة إلى أن بَرْمَك ليس اسم شخص وإنّما هو لقب يطلق على الموبذان في نوبهار وهو منصب وراثي].

(103) هُوانْغ – تَسَانْغ هو راهب صيني سافر الى الهند لدراسة الكتب المقدّسة للدّين البوذيّ .

(104) * طَخَارِسْتان la Bactriane بلاد واقعة في أعالي جيحون (أَمُودَاريا)، قاعدتها بَلْـخ (أنظر ص 20 رقم 38).

(105) * خالد بن بَرْمَك بن جاماس بن يشتاسف (709 - 780 / 91 - 164 هـ) : أبو البرامكة وأوّل من تمكّن منهم في دولة بني العبّاس. كان أبوه برمك من مجوس بلخ ، وتقلّد خالد الغنائم بين الجند في عسكر قحطبة بن شبيب في خراسان ، وكان قحطبة يستشيره ويعمل برأيه. ولّما بويع السّفّاح ودخل خالد لمبايعته توهمّه من العرب لفصاحته وأقرّه على الغنائم، وجعل اليه ديوان الخراج وديوان الجند بعد ذلك وحلّ به محلّ الوزير. وبعد وفاة السّفاح أقرّه المنصور نحو سنة ثمّ صرفه عن الدّيوان وقلدّه بلاد فارس (الرّيّ وطبرستان ودنباوند وما إليهـا). فأقام بطبرستان سبع سنين وعزله ونكبه ، ثم رضي عنه وأمّره على الموصل. ولّما ولي المهديّ اعاده إلى إمارة فارس ووجّهه مـع ابنه هـارون في صائفة (الخروج للجهاد في الصيف) 780(164 هـ) ، ومات بعدها ، وقيل بعد أوبته منها. وكان سخيّا سريّا عاقلا فيه نبل .

تأثيرهم تقريبا بلا حدّ إلى آن تحلّ نكبتهم الشهيرة. وستحاك أسطورة حقيقية ويتنامى رواجها حول هذه الأسرة التي ستعرف طيلة عقود عديدة عزّة لم يُعهد لها مثيل في تاريخ الشّرق بأسره.

أورث خالد بن برمك أبناءه فضائله وسجاياه . فالمسعودي[106] يثني عليه «عقله وحزمه وعلمه وقدرته» ويقول عنه اليزيديّ إنّه كان «جَوادا، وفيّا، ورعا، عطوفا، ذا حزم ومهارة»[107]، وكانت ثقافته واسعة عميقة، خاصة في الطّب. وكان مشهورا بسخائه نحو العلماء والشّعراء حتى انّه أعطى - على ما يروى - عشرة آلاف دينار لشاعر مدح خصاله . وسيصبح خالد، بمساعدة ابنه يحيى، شخصية رفيعة المقام في بطانة المهديّ.

اعتمد البرامكةُ الكتّابَ في بسط نفوذهم الهائل على الخليفة والدّولة، وقد كوّن هؤلاء الكتاب - وجلّهم من أصل إيرانيّ ولم ينسوا جميعا عزّ الامبراطوريّة السّاسانيّة التي ارتكزت هي نفسها على بيروقراطيّة عتيدة - قوّة عظيمة سريعا ما ستعمد أكثر فأكثر إلى إضفاء الطابع الفارسي على الدّولة.

وغالبا ما كانت كتلة الكتّاب، وهي الكتلة الثانية، تتّحد مع كتلة الموالي. والموالي هم الأهليّون الذين أسلموا وصاروا يشاركون الغزاة إدارة البلاد، ومع مرور الزّمن استطاع أغلبهم أن يندمجوا وآن يصبحوا من أعيان الطّبقة الحاكمة. فالبعض منهم قد عُيّنوا ولاة على رأس مقاطعات، أو كُلِّفوا ببريد الخليفة أي بمصالح المخابرات، وارتقاؤهم الى هذه الخطط السّامية كان يُكمِد خصومهم غيظا.

لم يهمل المهديّ ما كان يدعوه إليه واجبه كرئيس للحكومة فوضع في كلّ وزارة من وزارات دولته مراقبا يرجع بالنظر إليه مباشرة دون سواه، وذلك قصد الفصل بين سلطات العسكريين وسلطات الإدارة، خصوصا فيما يتعلّق بضبط معاليم الجباية واستخلاصها.

وكتلة التأثير الثالثة هي كتلة حليفة للنّظام وفيّة له؛ وهي تتألفّ من "الأبناء"[108] أي من رجال جيش خراسان، أشدّ نصير للعبّاسيين طاعة ووفاء. فقد أُسْكِن هؤلاء "الأبناء"

---

(106) * يقول المسعوديّ «... لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من أولاده في جودة رأيه وشدة بأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروّه وبُعد همّته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبزاهته ...» (مروج، 3، 402).

(107) أورده ك. سكفّر، S. Scheffer، في المنتخبات الفارسية، Chrestomathie persane.

(108) * والحقيقة آنّ عبارة "أبناء الدّولة" آطلقت في القرون العبّاسية الأولى على أبناء البيت العبّاسي وأبناء الخراسانيين وأبناء مواليهم بدون تمييز، لا على أبناء الخراسانيين دون سواهم. وقد دامت الحظوة "للأبناء" إلى القرن 9م (3 الهجري) حيث حلّ محلهم الأتراك وغيرهم من الأعراق.

بغداد ومُنحوا امتيازات وسيبقون متّحدين للذود عن بني العبّاس ضدّ الموالي وأيضا ضدّ الكتّاب . وستؤول هذه التوتّرات بين مدنيين وعسكريين من جهة وبين مجموعات من المدنيين من جهة أخرى الى اصطدامات ستؤدّي بعد انقضاء ثلاثين سنة إلى تهديد سلامة الدّولة .

انتصاب بيروقراطيّة ، نشوب صراعات بين كتل تأثير، احتلال أهل البلاط- ونسائه على وجه الخصوص - مكانة أوسع فأوسع في تقرير سياسة الدّولة : هذا ما أصبح عليه وضع بني العبّاس، وقد انقضى العهد الذي كانوا فيه يكافحون قصد تدعيم نفوذهم. فلا شيء بات الآن يهدد الخليفة تهديدا جدّيا في الدّاخل ، وتلقّبه " بالمهدي " أدلّ برهان على أن الثورة العبّاسية قد نجحت. وفي ظلّ مغالطة صريحة - ولم تكن أولّ تمويه جرى في التّاريخ - انتسب العبّاسيّون مباشرة الى الرّسول والى عمّه العبّاس مدّعين أنّ محمّدا هو نفسه الذي عهد إليه بالخلافة. وآنذاك احتجب الخليفة في عزلة مهيبة هي بقدماء الأباطرة الأخْمنيين والسّاسانيين أشدّ منها تذكيرا بخلفاء الرّسول الأوائل وحتّى بخلفاء بني أميّة.

بات يحقّ للمهـديّ - وقد مضى عشر سنين على تولّيه الخلافة - أن يَقرَّ عينا بالأمْن الذي حقّقه - وإن نسبيّا - داخل الحدود، وللصّغار الذي خسف به أنف كفرة الرّوم. فالآن، وقد بلغ الثالثة والأربعين ، كان أمام الخليفة الشاب، المحبّ للدنيا وملذاتها، عهد قد يدوم له فيه طيب العيش طويلا ، لكنّ القدر شاء غير ذلك. ففاجأه الأجل المحتوم وهو في طريقه إلى جُرجان بخراسان حيث كان يقيم ابنه الهادي. فحسبما رواه البعض، مات في الصّيد، وقد اصطدم جبينه بباب واطئ ، أثناء ملاحقته بفرسه غزالا فرّ إلى بعض الخرائب [109]. وحسب رواية أخرى ، مات مسموما على وجه الخطإ بيَد إحدى حظاياه، وذلك أنّ جاريته حُسنة دسّت في كمّثرى سُمّا زعافا قصد التّخلص من ضرّة لها، فرأى المهديّ، وكان جالسا غير بعيد، الوصيفة تمرّ بطبق فيه فواكه ، ودعا بها فمدّ يده إلى الكمّثرى المسمومة وأكلها فمات لحينه.

الهادي ، مُجرّد وحش

تولّى العاقب مكان الهالك بلا صعوبة. فقد كان المهديّ عيّن الهادي[110] وليّا أوّلا

(109) * « خرج المهديّ يتصيّد وطردت الكلاب ظبيا ، فلم يزل يتبعها فاقتحم الظبيّ باب خربة فاقتحمت الكلاب خلفه واقتحم الفرس خلف الكلاب. فدُقّ ظهرُ المهديّ في باب الخربة فمات لساعته (الملوك ، 8 ، 169).

(110) * موسى الهادي : رابع خلفاء بني العبّاس. كانت ولايته سنة وثلاثة أشهر (785 - 786 / 169 - 170 هـ). مات وعمره 62 سنة .

للعهد وهارون وليّا ثانيا : فلا اعتبار ولا مكانة إلاّ لولدي الأمَة الخيزران لفرط ما كان لها من تأثير على الخليفة . فقد أمّر الهادي على شرقيّ المملكة وأمّر هارون على غربيّها وعلى أرمينية . ثمّ إنّ المهديّ تراجع في قراره وشاء أن يجعل من هارون وليه الأول للعهد ، وما كان خروجه إلى جرجان إلا لإقناع الهادي بقبول التّخلّي لفائدة أخيه ، وذاك ما يفسّر ادعاء بعضهم أنّه ليس من المستبعد أن تكون للهادي يد في مقتل أبيه.

فلما بلغ الخبرُ سيدَ المملكة الجديد ركب إلى بغداد التي حلّ بها بعد عشرين يوما . وقبل وصوله منح أخوه هارون جنود بغداد رزق ثمانية عشر شهرا[111]، وأخذ البيعة منهم ومن أعيان الدولة لموسى بالخلافة وله بولاية العهد من بعده ، فلم يبق للهادي إلاّ أن يتولّى الأمر. فاتّخذ الرّبيع بن يونس وزيرًا وأقرّه على خطّـة الحجابة . أما يحيى فقد بقي من رجال ثقته .

كان الهادي ، الخليفة "القصير الشـّفة"، (وكان من عادته أن يظلّ دائما مفتوح الفم)[112] سريع الغضب شديد الثأر، عديم الذمّة. يقول عنه المسعوديّ : « كان موسى قاسـي القلب ، شـرس الأخـلاق صعب المرام» ،[113] وكان أوّل خليفة سار أمامه رجال حرسه شاهرين سيوفهم ، متنكّبين مقامعهم ، موتّرين أقواسهم . فمدّة خلافته القصيرة ستؤكّد فساد السّمعة التي راجت حوله في المملكة ، وتؤيّد مخاوف أسرته وخاصّة مخاوف أمّه الخيزران وأخيه هارون.

ففي البداية ، لم يَحدُث شيء من شأنه أن يعكّر صفو العلاقات بين الخيزران وابنها؛ فقد أبقى على ما كان لها من امتياز وحظوة أيّام المهدي ، وظلّ يكنّ لها كثيرا من العطف والاحترام. وغالبا ما كان يخرج لزيارتها من قصر عيساباذ الواقع شرقي بغداد والذي اختاره مقرّا لإقامته . وعندما كانت تحول دون زيارته لها الواجبات التي تفرضها عليه مهامّه – وكان حريصا على القيام بها على أحسن وجه حرصه على اقتبال سامي الموظّفين والزّائرين بنفسه – فإنّه كان يرسل إليها هديّة مرفوقة برقعة يضمّنها تحيّته.

---

(111) * والصواب أنّ هارون ، عندما تُوفّي أبوه ، كان معه بماسبذان ولم يكن ببغداد. والذي أعطى الجنود أرزاقهم انما هو الرّبيع ، وكان ذلك قبل قدوم هارون إليها. فغضب الهادي وتوعّد الربيعَ بالقتل لتوجيهه الوفود الى الأمصار تنعى المهديّ ولأخذه البيعة له ولتوزيعه الأموالَ على الجنود قبل وصوله إلى العاصمة. فعندما وصل واعتذر إليه الرّبيع عفا عنه وولاّه الوزارة مكان عبيد بن زياد (الملوك ، 8 ، 189).

(112) * وصفه الطبّريّ (الملوك ، 8 ، 214) بقوله : « كان الهادي طويلا جسيما جميلا أبيض مشرَّبًا بحمرة... وكان بشفته العليا تقلّص».

(113) * لكنّه يضيف : « ... وكان كثير الأدب ، محبّا له ، شديدا، شجاعا ، بطلا ، جوادا ، سخيّا ... » ، (مروج ، 3، 356) .

أمّا هارون فقد قبل – هو الآخر وبإشارة من يحيى[114]– الوضع بكلّ وفاء . فكان أكثر اهتماما ، في الظّاهر على الأقلّ ، بملاهيه وبالشّعر والموسيقى ، مُتَيَّمًا بزوجته الشـابّة زُبَيْدة[115]ذات الحسن البديع ؛ ولم يكن على استعداد للدّخول في صراع مع أخيه ، لأنّه يعرف جيّدا – وأكثر من كلّ أحد – فظاظته ومكره .

إنّ مقتل الرّبيع بن يونس ينبىء بانتهاء الأيّام الملاح من عهد الهادي . فبعد وفاة المهديّ[116] كان الربيع يتعاون مع الخيزران تعاونا وثيقا عند حدوث الملمّات ، وآخذه الهادي على ذلك ، واتفق أن سَمّمت العلاقات بينهما امرأة ؛ وذلك أنّ جارية ، وهي أمَة العزيز ، كانت سُرِّيّة الرّبيع قبل أن تصبح حَظيّة الخليفة ؛ فنَمى إلى الهادي أنّ الوزير أسرّ إلى بعض رجال الحاشية أنّه لم يكن أحبّ امرأة قطّ حُبّه أَمَة العزيز . فأوغر ذلك على الرّبيع صدر الهادي فعزم على قتله وعُلم الأمر . فلم تمض أيّام حتّى هلك الرّبيع بعد شربه قدحا من العسل ؛ وأثار هذا الاغتيال في نفس الخيزران وهارون فزعا كبيرا .

كانت الخيزران لا تبتغي الاحتفاظ بما كان لها أيّام المهديّ من تأثير فحسب بل تريد تعزيز ذاك التأثير وتوسيعه ، عملا بالسّنّة الشّرقيّة القاضية بأن يكون لوالدة العاهل الجالس على العرش المَقام الأوّل في حشمه . لقد كانت ذات غنى مدهش وكان يتردّد على

(114) * يحيى بن خالد بن برمك (738 - 800 / 121 - 191 هـ) : وزير عبّاسيّ سريّ جواد . سيدّ بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدّب الرّشيد ومعلّمه ومربّيه . رضع الرّشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل فكان يدعوه " أبتي "، ولمّا وَلِي هارون الخلافة دفع خاتمه الى يحيى وقلّده أمره ، فبدأ يعلو شأنه واستمرّ الى أن نكب الرّشيد البرامكة فقُبض عليه وسُجن في الرّقة الى أن مات .

(115) * زُبَيْدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العبّاسية (... - 832 / ... - 216 هـ) : هي أمّ جعفر، زوجة هارون الرّشيد وبنت عمّه ، من فضليات النّساء وشهيراتهنّ ، وهي أمّ الأمين العبّاسي . اسمها أمَة العزيز . قيل كان جدّها المنصور يُرقصها في طفولتها ويقول : «يا زبيدة أنت زبيدة » فغلب ذلك اللقب على اسمها . تزوّج بها الرشيد سنة 782 (166 هـ)، ولما مات وقُتل ابنها الأمين اضطهدها رجال المأمون ، فكتبت تشكو اليه حالها، فعطف عليها وجعل لها قصرا في دار الخلافة وأقام لها الوصائف والخدم . كانت لها ثروة واسعة وخلّفت آثارا نافعة تكاد لا تحصى . يقول ابن جبير فيما شاهده على طريق الحجّ : « وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكّة هي آثار زبيدة ابنة جعفر» .

(116) * وتفصيل ذلك أن «الجند، لما وَافَوْا بغداد وعلموا خبر وفاة المهديّ ، ساروا الى باب [قصر] الربيع وأحرقوه وطالبوا بالأرزاق وضجّوا . وكان ذلك قبل قدوم الهادي وهارون الى بغداد، فبعثت الخيزران الى الرّبيع والى يحيى تشاورهما في الأمر . فأما الربيع فدخل عليها وأما يحيى فلم يفعل لعلمه بشدّة غَيْرة موسى . ثم جُمعت الأموال حتى أعطِي الجندُ لسنتين فسكتوا . وبلغ الخبرُ الهاديَ فكتب الى الربيع كتابا يتوعدّه فيه بالقتل . . . وكان قد احتمل على الربيع ما كان منه وما صنع من توجيه الوفود وإعطاء الجنود قبل قدومه» (الملوك، 8، 189) .

بابها عدد كبير من المتوسلين ، وهذا العدد الغفير من أهل الزلفة الذين يتقرّبون إليها كان يثير حفيظة الهادي. فوجّه إليها رسالة يأمرها فيها بالكفّ عن التدخّل في شؤون الدّولة، لكن الخيزران كانت أشدّ شكيمة من أن تطاطئ الرأس وتسلم له بالأمر الواقع ؛ والتّصادم الذي كان منتظرا بينهما ما عتّم حتّى حدث. فأرسلت إليه كعادتها تلتمس منه قضاء حاجة لصاحب شُرَطه ، فرفض ، فألحّت فأجابها حين قامت مُغْضَبة ، وقد استولت عليه فَوْرة غيظ : « مكانك تستوعبي كلامي والله ! والاّ فأنا نفيّ من قرابتي من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوّادي أو أحد من خاصّتي أوخدمي لأضربنّ عنقه ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كلّ يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إيّاك ثمّ إيّاك ، ما فتحت بابك لمسلم أو ذمّي »[117].

كان الهادي لا يحبّ أخاه ، وهو أحسن منه طلعة وأجمل وجها، وكاد أن يحلّ محلّه في ولاية العهد. فلمّا تولّى الحكم لم يلبث أن عقد العزم على أن يقدّم عليه فيها ابنه جعفرا. ففاتح في الأمر يحيى البرمكي مرّة أولى، فثناه عن رأيه وقال له إنّ هذه السّابقة قد تُستخدم يوما ضدّ ابنه جعفر نفسه. فامتثل ثم أعاد الكرّة بعد ذلك بقليل. فنهاه قائلا إنّه إذا غاب الخليفة وجعفر لا يزال طفلا فقد لا يرتضيه النّاس قائدا ولا إماما، وقد ينازعه الأمر عندئذ من يعتبر أنّه أحقّ به منه من بني العبّاس. فنصحه بانتظار بلوغ الطفل سنّا تؤهله لارتقاء عرش الخلافة وعند ذاك يعرض على هارون التّخلّي عن حقوقه . وهذه المرّة أيضا اقتنع الهادي وأطاع يحيى، لكن ما لبث أن شجّعه بعض قادته على التّراجع ، فرمى بتحذيرات يحيى عرض الحائط .

لم يكن هارون مستعدّا للدّخول في صراع مع أخيه الجبّار العنيد؛ فقد بدا لأوّل وهلة وكأنّه مستعدّ لقبول كلّ شيء منه. لكن ، بما أنّ ولاية العهد قد انتُزعت منه ، فقد بات يخشى أن يتعرض لما قد لا تُحمد عقباه، إذ قد تخلّى عنه جميع النّاس ما عدا يحيى الذي كان يرعاه منذ زمن بعيد (فقد كان أحد أبناء يحيى أخا لهارون من الرّضاع) والذي عضده في صموده أمام فظاظة أخيه الخليفة ؛ ورغم ذلك حاول أن يتحدّاه ؛ وممّا يقوم دليلا على ما أبداه هارون فجأة من عزيمة على ذلك خبر تواترت روايته عند العديد من المؤرخّين ومفاده أنّ والدهما (المهديّ) أعطى هارون خاتما ثمينا وأنّ الهادي عقد العزم على أخذه منه. فعهد إلى يحيى بهذه المهمّة وتوعّده بضرب عنقه إن لم يأته بالخاتم . فرفض هارون الاستجابة ، رغم إلحاح يحيى عليه ، ووعد بتسليم الخاتم إلى أخيه بنفسه.

(117) المسعودي ، الكتاب المذكور آنفا [(مروج ، 3 ، 360). وردت كذلك عند الطبري (الملوك ، 8 ، 206)].

لكن عندما مرّ فوق جسر دجلة ألقى به في النهر وقال : «والآن فليفعل ما بدا له»· لكن لا شيء حدث إذ لم يكن ليحيى في هذه القضيّة دخل ، لكنّ الخليفة استشطّ بعدها غيظا ·

فحاول الهادي عندئذ اغتيال أمّه· فبعث إليها ذات يوم بـأرزّة وقال : «استطبتها فأكلت منها، فكلي منها» ، فأطعمتها كلبها ، فمات بعد ذلك ببضع دقائق· فأرسل إليها يسألها كيف وجدت الأرزّة ، فأجابته أنّها هي أيضا وجدتها طيّبة · ويروي الطّبري جواب الهادي لأمّه إذ قال : « لم تأكلي ! ولو أكلت لكنت قد استرحت منك ؛ ما وُجد قطّ خليفة تولّت أمّه الحكم مكانه »[118]· وحاول الهادي مرّات عديدة أن يتخلّص من أخيه بالسّمّ ، فألجِئ هارون إذّاك إلى الفـرار، لكنّ الهادي أمر بملاحقته والقبض عليه ، فأُودِع السّجن ببغداد مع يحيى·

كانت إذن أيّام هارون تبدو وكأنهن معدودات ، إذا بالهادي يصاب بمرض خطير· هل أصابه قَرْح في المعدة كما أصاب العديد من أسرته ؟ من الأرجح أن يكون قد سُقي سمّا بطيء المفعول دسّته له أمّه في شرابه· فقد ذهب الطّبيب الذي فحصه وهو ميت إلى أنه لا بدّ أن يكون قد هلك في أقلّ من تسع ساعات ، ولم يكن على خطإ· لكن قيل أيضا إنّ أمّه هي التي عجلت بموته ، إذ أمرت بعض جواريها ، فوضعن على وجهه وسائد، وجلسن فوقها وهو مريض حتى مات غمّا.

وما أن لفظ الخليفة أنفاسه الأخيرة حتّى أمرت الخيزران أن يُخرَج يحيى من السّجن لكي يمسك بزمام الأمور· ثمّ أرسلت القائد هرثمة[119] ليعلم هارون ، وكان نائما فقال له : « قُم يا أميرالمؤمنين ! » ـ فقال له الرّشيد : «ماذا تقول ؟ فماذا تكون حالي لو

(118) الطّبري ، التأليف المذكور آنفا [والحقيقة أنّ الطّبريّ أضاف هنا (الملوك، 8، 206) لا قوله . « ما وُجد قطّ خليفة رأى أمّه تولّت الحكم مكانه » بل قوله : «متى أَفلَح خليفة له أمّ » ؟] .

(119) * هَرْثَمَة بن أعيَن (... - 816 / ... - 201 هـ) : أمير، من القادة الشّجعان ، له عناية بالعمران ، بنى في أرمينية وإفريقية وغيرهما · ولاّه الرّشيد مصر سنة 795 (179هـ) ثمّ وجهّه الى إفريقية لإخضاع عُصاتها، فدخل القيروان سنة 796 (180 هـ) ولقي من أهلها ما يحبّ ، فأحسن معاملتهم· وتقدّم في جيش كثيف الى تيهَرت فقاتله ابن الجارود وظفر هرثمة· وأطاعته قبائل البربر فعاد الى القيروان ، وبنى القصر المعروف بالمنستير (على يد زكريا بن قادم) وبنى سور طرابلس الغرب· واستمرّ واليا على إفريقية سنتين ونصفا، وطلب من الرّشيد أن يعفيه فنقله سنة 798 (182 هـ) وعقد له على خراسان فأقام فيها· وولاّه غزو الصّائفة سنة 807 (192هـ)، ثمّ ولاّه ما كان لابن ماهان عليّ بن عيسى فانتقل الى مرو· ولمّا بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون انحاز الى المأمون ، فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة حتّى سكنت الفتنة بمقتل الأمين· وانتظمت الدّولة للمأمون ، فنقم عليه أمرا، فدعاه اليه وشتمه وضربه وحبسه· وكان الوزير الفضل بن سهل يبغضه ، فدسّ إليه من قتله في الحبس سرّا بمرو·

علم الهادي أنّي ألقّب بالخلافة ؟»[120]. ولمّا أيقن هارون أنّ أخاه قد مات ، قام وذهب لتسلّم خاتم الخلافة ؛ وبعد ذلك جاء رسول وأخبر أنّ إحدى جواري هارون ، وهي مَرَاجل الفارسيّة ، قد ولدت له غلامًا . فسُمِّي عبد الله وهو الذي سيكون الخليفة المأمون ، أعظم خلفاء بني العبّاس . « وهكذا رأت ليلةُ القدر هذه ، وقد كانت تنبأت بها الخيزران ، موتَ خليفة وولاية ثان وولادة ثالث »[121] .

وفي نفس الساعة تقريبا ، أقبلوا على جعفر ابن الهادي ، وكان لا يزال غلاما ، فأيقظوه وأرغموه على التّنازل أمام الملأ عن حقّه في ولاية العهد . فلا أحد من بين القوّاد الذين حملوا الهادي على تجريد أخيه من هذا الحقّ استطاع أن يتحرّك لأنّ يحيى وهرثمة شمّرا عن ساعد الجدّ لمجابهة الوضع. وتلقّت الولايات الخبر بنفس الهدوء ، ويوم 15 أو 16 سبتمبر (أيلول) 786 الموافق 15 ربيع الأوّل 170 هـ بويع هارون الرّشيد[122] بالخلافة وكان عمره يربو على العشرين بقليل .

وحسب المعهود هنّأ الشّعراء الخليفة الجديد وأطنبوا في مدحه .

---

(120) على ما رواه الطبري ، الكتاب المذكور آنفا [اشتبه الأمر على الكاتب . فالذي ذهب ليوقظ هارون من النّوم ويعلمه بموت أخيه انّما هو يحيى بن خالد. يقول في ذلك الطّبريّ (الملوك ، 8 ، 232) : « جاء يحيى بن خالد الى الرّشيد، وهو نائم في لحاف بلا إزار، لمّا توفّي موسى؛ فقال : « قم يا أمير المؤمنين » ! ـ فقال له الرّشيد : « كم تروّعني إعجابا منك بخلافتي ! وأنت تعلم حالي عند هذا الرّجل ، فإن بلغه هذا فما يكون حالي ؟ »... فبينما هو يكلّمه إذ طلع رسول آخر فقال : « وُلد لك غلام » ـ فقال : « قد سمّيته عبد الله ... »].

(121) ن. أبُوطّ ، N. Abbott . [رواها الطّبريّ (الملوك ، 8 ، 218) بقوله : فلما حضرت الوفاةُ الهادي وأتى الرّسول الخيزران فأخبرها بذلك قالت : «وما أصنع به ؟» ـ فقالت لها خالصة : « قومي أيّتها الحرّة ، فليس هذا وقت تعتّب ولا تغضّب ! » ـ فقالت : «أعطوني ماء أتوضأ للصّلاة » ، ثمّ قالت : « أمَا إنّا كُنّا نتحدّث أنّه يموت هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة ؟ » قال (الطّبري) : « فمات موسى وملك هارون ووُلد المأمون »].

(122) * هارون الرشيد : خامس خلفاء بني العبّاس . كانت ولايته 23 سنة وشهرين (786-809 / 170-194 هـ). مات وعمره 47 سنة.

الفصل الثّاني

شباب الرّشيد وسناه

« كَانَ الخَلِيفَةُ هَارُونُ الرَّشِيدُ أَعْظَمَ
مُلُوكِ زَمَانِهِ وَأَكْرَمَهُمْ » .

(ألف ليلة وليلة)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً
فَلَمَّا وَلِى هَارُونُ أَشْرَقَ نورُهَا ».

(الموصلي)

كيف كان ملوك الشّرق يقضون أعوام صباهم ؟ الحقيقة أنّنا لا نعرف عن ذلك إلاّ القليل . فالكثير منهم وصلوا إلى الحكم بعد تنازع على منصب الإمامة ولم يجد المؤرخّون داعيا للاهتمام بذلك . فجلّ التّفاصيل المتعلّقة بطفولة الخلفاء أو السّلاطين إنّما جُمعت بعدها بمدة ، حينما يكونون قد ارتقوا العرش. وطفولة الرشيد ، " الخليفة المحبوب " ، لم تشذّ عن هذه السُنّة .

طفولة ورغد عيش

وُلد الرّشيد في شهر فيفري (شُبَاط) 766 (149هـ) بمدينة الرّيّ في خراسان ، وهناك قضى السّنين الأولى من عمره ، بالقصر الذي يشرف على المدينة. والرّي-التي كان يحميها خندق وسور سميك ويسقيها نهران بمياه وفيرة – ستصيربعد سنين قلائل «إحدى مفاخر البلاد الإسلامية » . وعلى ما يُرْوَى، سيحنّ هارون باشتياق كبير إلى مسقط رأسه حيث كانت نساء أهل الحلّ والعقد يتنافسن ، بُعَيد ولادته ، لنيل شرف إرضاعه .

استقرّ المهديّ ببغداد، وهارون في الثّالثة أو الرّابعة من عمره ، وسكن القصر الذي كان ابتناه على شاطىء دجلة. فهناك تلقّى الأمير اليافع التّربية التي تُعطَى لأبناء الملوك وكانت شبيهة أو تكاد بالتي تُعطَى لأطفال الخاصّة بأسرها. كان الخلفاء يُولُون تعليم أبنائهم عناية بالغة : ألم يضع النّبيء محمّد أهل العلم « في المرتبة الثّالثة بعد الإله والملائكة ؟». فكانوا يعهدون بتعليمهم إلى العلماء وأيضا إلى شعراء ومغنّين يتخيّرونهم بأنفسهم ، ويظلّون يتابعون المتعلّم منهم في استيعاب المعارف ، مختبرين تدرّجه فيه سرّا وعلنا. كانت تربية صغار الأمراء تبدأ منذ الخامسة من عمرهم : فمن الأمثال السّائرة إذّاك قولهم : «التّعليم في الصّغر كالنّقش على الحجر» ، وتنتهي مع الخامسة عشرة ، أي مع أولى المهام التي تسند إليهم.

فبينما كان بنو أميّة ، القريبون من حياة البداوة[1]، يُؤْثِرون ترغيب صغارالسّن من

---

(1) * وفي ذلك قال الجاحظ قولته الشهيرة : « دولة بني مروان عربية أعرابية ودولة بني العباس فارسية خراسانية » .

أمرائهم في فنون الحرب وصنوف الرّياضة على تفقيههم في علوم الدّين وروائع الأدب، صار تعليم القرآن والفلسفة والفقه يحتلّ الصّدارة عند بنى العبّاس. وفي حين كان اليافعون من الأمراء عند الأمويّين يقتصرون على حفظ القرآن، صاروا يُطالَبون عند العبّاسيين بتفسيره والأخذ بنصيب من علوم السّنّة معه. فالمستوى الرّفيع الذي بلغته الحضـارة العبّـاسية والذي خوّل للغرب من أن يكرع بواسطتها من منهل القدماء[2] مدين بلا شكّ ، ولحدّ بعيد، إلى ما كان يُغرس في نفوس النّاشئة من إجلال للفكر منذ نعومة أظفارهم.

روى المسعوديّ كيف عهد الرّشيد إلى الأحمر النّحويّ[3] بتربية ابنه الأمين. فقد قال له : « يا أحمر، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرّفه الآثار، وروّه الأشعار، وعلّمه السّنن ، وبصرّه مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضّحك إلاّ في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشائخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسـه . ولا تمرّنّ بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إيّاها ، من غير أن تَخرُق به فتُميت ذهنـه . ولا تمعِن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة »[4].

فهذا البرنامج الذي كان على المتعلّم أن يستوعبه ليصبح من أهل الأدب ، أي من أهل الكياسة والظّرف ، يشبه بلا شك ذاك الذي خضعت له تربية هارون نفسه. لقد أوكل المهديّ ، وكان على درجة من الثّقافة، تعليم أبنائه إلى مؤدّبين عديدين تَخصّص كلّ واحد منهم في فرع من فروع المعرفة. فالكسائي[5] "مؤدّبه "، الذي له اليد الطولى على جميعهم،

---

(2) * المقصود بالقدماء هنا قدماء الفلاسفة والعلماء والأدباء الذين عرفتهم الحضارتان اليونانية والرومانية .

(3) * عليّ بن الحسن المعروف بالأحمر (... - 810 / ... - 195 هـ) : مؤدّب المأمون العبّاسيّ وشيخ النّحاة في عصره . كان في صباه جنديّا من رجال النُوبة على باب الرّشيد. أخذ العربيّة عن الكسائيّ ، فلمّا نبغ أوصله إلى الرّشيد ، فعهد إليه بتأديب أبنائه ، واستمرّ في نعمة إلى أن توفّي بطريق الحجّ.

(4) لم يكن هذا التّرخيص للمؤدّبين باستعمال الشـدّة ترخيصا شكليّا. فقد كان الأحداث من الأمراء يُجلَدون بالسّياط ، وأحيانا بلا شفقة .

(5) * عليّ بن حمزة ، الأسديّ بالولاء ، الملقّب بالكسائيّ (... - 805 / ... - 190 هـ) . إمام في اللّغة والنّحو والقراءة. من أهل الكوفة ، وُلد في إحدى قراها وتعلّم بها وتعلّم النّحو بعد الكبر. تنقلّ في البادية وسكن بغداد وتوفّي بالرّيّ عن سبعين عاما. وهو مؤدّب الرّشيد العبّاسيّ وابنِه الأمين. قال الجاحظ . كان أثيرا عند الخليفة حتّى أخرجه من طبقة المؤدّبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين. أصله من أولاد فارس ، وأخباره مع علماء الأدب في عصره كثيرة.

كان من مشاهير المفكّرين في عصره . أمّا "متولّي أموره وأعماله" فهو يحيى البرمكّي الذي كان هارون يدعوه : «أبتي». فقد كان بلا ريب من مشاهير الرّجال الذين ساسوا العالم العربيّ في القرون الأولى بعد الهجرة ، وسيظلّ ملازما لهارون إلى أن يُنكب البرامكة .

إنّ الرّوابط الوثيقة التي تكوّنت بين البيتين العبّاسيّ والبرمكيّ منذ السّنوات الأولى التي حكمت فيها الدّولة الجديدة قد ازدادت وثوقا . فمثلما جرت به العادة عند الجيل السّابق(6)، كان أطفال أحد البيتين يرضعون من لبان نساء البيت الآخر؛ وهكذا سنرى ابنًا لهارون تُرضعه زوجة جعفر البرمكيّ ، في حين أنّ إحدى بنات جعفر تُرضعها زوج الخليفة.

لمّا بلغ هارون الثّالثة عشرة من عمره عُيّن يحيى طبعا " كاتبا خاصّا" له ، وهي خطّة باتت تعطيه كامل النّفوذ على الأمير الذي في رعايته . وعندئذ جاوز دَورُه مجرّدَ المساعدة : إذ عندما خرج الأمير الشّابّ في حملة ضدّ البيزنطيّين(7) رافقه يحيى. ولمّا وُلّي أذربيجان وأرمينية ، كان يحيى هو الذي يسوس مكانه ، في واقع الأمر، هاتين المقاطعتين الشّاسعتين. وإذ كان يحيى على درجة من الحنكة السّياسية ، فقد استطاع أن يبرهن – حالما باشر هذه المهامّ – على مهارات في التنظيم الإداري ، وعلى روح عالية في تحملّ المسؤوليات . ثمّ إنّه كان على الأخصّ كثير الاهتمام بالشؤون العسكريّة ، لذا ، كان هارون يترك له كامل الحرّية في التصرّف ؛ فكان يحيى ، عند هذا الأمير المقبل على الملذّات ، المساعدَ المثالي. والسّنوات التي قضّاها بجانب هارون في تلك النّواحي النّائية كانت له تدريبا ممتازا على ممارسة المهامّ التي تنتظره مستقبلا .

وفي سبتمبر (أيلول) 786 (170 هـ) ارتقى هارون عرش الخلافة ، وأوّل ما صدر عنه من القرارات هو اتخاذ يحيى وزيرا . فقد رُوي في كتاب ألف ليلة وليلة : « سمع أهل

---

(6) روى المؤرّخ ابن الطِّقْطقا أنّ السّفّاح قال يوما لخالد : « يا خالد ما رضيتَ حتّى استخدمتني». ففزع خالد وقال : «كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا عبدك وخادمك ؟» فضحك وقال :«انّ رَيْطة ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد ؛ فأقوم بالليل فأجدهما قد سُرّح الغطاء عنهما فأردّه عليهما » . فقبّل خالد يده وقال : « مولى يكتسب الأجر في عبده وأمّته »[الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلامية ، 156 - 157].

(7) * الإشارة هنا إلى صائفة هارون التي غزا فيها بلاد الرّوم سنة 782 (166هـ) حتّى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وذلك أيام وصاية الامبراطورة إيرينة ("ريني امرأة أليون الملّقبة أغُسطة"، كما يسميهاالطبري، 8، 156 و 307) على ابنها قسطنطين 6 . وهي التي ملكت بعد موت زوجها ليون 4 ، وابنُها – وارثُ العرش – في حجرها قاصر. فلمّا كبُر وتولّى (وقد لُقّب قسطنطين 6) تخالف معها، فأطاحت به وسملت عينيه (214/829 هـ) وكانت تحاول أن توحّد الشقّين الأرثوذكسي والكاثوليكي من العالم المسيحي بزواجها من شارلمان عاهل الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة (انظر الملحق السادس) .

بغداد قبل طلوع النّهار بوفاة الهادي وتولّي الرّشيد. ومن الغد جلس هارون على عرش الخلافة وقد أحاط به رجال الدّولة، فأخذ البيعة عن الأمراء والأعيان ومن اجتمع في قصره من وجوه الرّعيّة، واستوزر يومها الفضلَ[8] وجعفرا[9]، ابنَيْ يحيى البرمكّي. ثمّ بايعته النّواحي والأمصارُ والأقاليم والثّغورُ، ودانت له بالطّاعة أممُ الإسلام والعربُ والعجم، والتّرك والدّيلم[10]، وافتتح عهدَه في نعمة الرّخاء وسنى المجد، وأشاع على البلاد ما خصّه الله به من العُلى والعزّ»[11].

---

(8) * الفضل بن يحيى بن خالد البرمكّي (765-808 / 148-193 هـ): وزير الرّشيد العبّاسيّ وأخوه من الرضاع. كان من أجود النّاس، استوزره الرّشيد مدة قصيرة، ثمّ ولاه خراسان سنة 794 (178 هـ) فحسنت سيرته. وأقام إلى أن فتك الرّشيد بالبرامكة سنة 802 (187 هـ). وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى، وأخذهما معه إلى الرّقّة فسجنهما وأجرى عليهما الرزّق ثم استصفى أموالهما وأموال البرامكة كافّة، وتُوفّي الفضل في سجنه بالرّقّة.

(9) * جعفر بن يحيى بن خالد البرمكيّ (767-802 / 150-187 هـ). وزير الرّشيد العبّاسيّ وأحد مشاهير البرامكة ومقدّميهم. وُلد ونشأ في بغداد واستوزره هارون الرّشيد، ملقيا إليه أزمّة الملك، وكان يدعوه: "أخي". فانقادت إليه الدّولة، يحكم بما شاء، فلا تُردّ أحكامه إلى أن نقم الرّشيد على البرامكة نقمته المشهورة، فقتله في مقدّمتهم ثمّ أحرق جثّته بعد سنة. وكانت لجعفر توقيعات جميلة، وهو أحد الموصوفين بفصاحة النّطق، وبلاغة القول، وكرم اليد والنّفس. قالوا في وصف حديثه: «جمع الهدوء والتمهّل والجزالة والحلاوة، وإفهامًا يغنيه عن الإعادة». وكان كاتبا بليغا، يحتفظ الكتّاب بتوقيعاته ويتدارسونها.

(10) * الدّيْلم: سكّان القسم الجبليّ من بلاد جيلان، شماليّ بلاد قزوين، والدّيلم اسم يطلق على الجبل وعلى سكانه (انظر ص 37 رقم 92).

(11) سيعثر القارئ في هذا التأليف على روايات مأخوذة من كتاب ألف ليلة وليلة. فلئن كانت هذه المجموعة من الأقاصيص قلّما تُعتَمد كمصدر تاريخيّ سديد، فإنّ التي اتّخذت من بينها بغداد والبصرة إطارا لأحداثها تمثّل بالمقابل مرآة تنعكس عليها بكلّ أمانة حياة أبهى عصور الحضارة العربية الإسلامية. [ألف ليلة وليلة: مجموعة حكايات ألّفتها بالعربية أجيال متعاقبة من القصاصين الشّعبيين. مذكورة لأوّل مرة في مروج المسعودي وفهرست ابن النّديم (القرن 10م /4هـ). لهذه المجموعة ثلاثة أصول على الأقلّ: أصل أوّل استُخدِم تراثا هنديا/فارسيا متأثّرا بحضارة اليونان، وأصل ثان عربي/عراقي اتّخذ من بغداد في القرن 9م (3 الهجري) مسرحا لأحداثه المترفة المتخيّلة حول شخصيات تاريخية (هارون الرشيد، زوجتة زبيدة، ابنه الأمين، البرامكة، أبي نواس...)، وأصل ثالث مصري يرقى الى العهد الفاطمي ويلتقي فيه الوصف بالنّقد الاجتماعي. عدد قصص المجموعة 264 تحكيها السّلطانة شهرزاد لأختها دنيازاد في حضرة الملك شهريار، وأحيانا أمير المؤمنين، مدة ألف ليلة وليلة، سمرًا، للنّجاة بنفسها من القتل. أشهرها قصصُ السندباد وقمر الزّمان وعلي بابا وعلاء الدّين. لهذا الكتاب طبعات عديدة وقد ترجم إلى الكثير من اللغات].

كان الوزير يتولّى وظائف تختلف من عصر إلى عصر؛ فقد كان تارة مجرّد مستشار، وطورا أعظم رجل في المملكة بعد أمير المؤمنين ، وطورا آخر رجل دولة يضبط سياسة الحكومة ويشرف على سير دواوينها. وكان الوزير غالبا من الموالي أي رجلا من أصل أعجميّ، بل من أصل فارسيّ في الأغلب ، أسلم وتثقّف وانقطع لنصرة العلوم والفنون والآداب. أمّا عصر الرّشيد فقد كانت الوزارة فيه بالأساس وظيفة أكثر اختصاصا بشخص الخليفة ؛ وفي القرن الموالي سيكون للوزير أهمّيّة أوفر، وسيتقلص نفوذ الخليفة بحيث يصبح دوره مقتصرا على تزكية كل قرار يتّخذه وزيره. وسيؤدي للخلافة بعضُ الوزراء – المنحدرين من " سلالات وزارية " أو من بيوتات أنجبت عديد الكتّاب – جليلَ الخدمات في الميادين المالية والسّياسيّة والعسكريّة. فكان عدد كبير منهم – وقد بلغ أعلى المراتب وامتاز على خيرة أعوان الدولة – يتلافى بحزمه عجز من كان عديم الكفاءة من الخلفاء أو غير متأهّل منهم تأهّلا كافيا لتدبير شؤون المملكة ؛ وهو أمر سيؤديّ بالبعض من هؤلاء الوزراء إلى اتّخاذ قرارات هي إلى مصالحهم أشدّ ملاءمة منها إلى مصالح الدّولة. فقد تلقّى يحيى من الرشيد سلطات كانت إلى ذلك العهد من مهامّ الخليفة ، منها حقّ تعيين كتّاب الدّواوين[12] والجلوس للمظالم . روى المسعوديّ أنّه لمّا أفضت الخلافة إلى الرّشيد، دعا بيحيى بن خالد وقال له : «يا أبَت ، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلّدتك الأمر» ، ودفعَ خاتمه إليه[13].

على أنّ يحيى كان مُطالَبا، رغم ما كان له من علوّ المقام ، أن يتخلّى عن نصيب كبير من نفوذه لفائدة الخَيْزُران ، والدة الخليفة ، ذات الحَوْل الرّهيب. فما لها من ثروات طائلة كان يزيد في اقتدارها؛ وطيلة العديد من السّنوات ، وإلى يوم وفاتها سنة 789 (173هـ)، سيحتاج يحيى إلى مقدار ذي بال من المهارة للتّموّر بسلام بين الرّشيد وبين امرأة آلت على نفسها أن تتمتّع دون قيد ولا شرط بما تمنحه إيّاها مكانتها من السّلطات. كان الوزير إذن - وهو الذي لا يجسر على أن يجابه في آن واحد الخليفة وأمّه مجابهة مباشرة مضطرّا إلى التّعامل معهما بالمداراة والتّلميح وضرب الأمثال. فقد كان يحيى يقول،على ماروا ه المسعوديّ:«كأنّ ما نُهيتُ عنه الخليفة من الأمور رغّبتُه فيه ، وماحثثته على فعله رغّبته عنه ».

(12) أي المسؤولين على الخزينة والمراسلة بالخصوص [كتبة ديوان الخراج وديوان الرّسائل].

(13) * ويضيف المسعوديّ . «ففي ذلك يقول الموصليّ :

أَلَمْ تَرَ أَنّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَـةً	فَلَمّا وَلَـى هَارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَـا
بِيُمْنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّـدَى	فَهَارُونُ وَالِيهَا ، وَيَحْيَى وَزِيرُهَا

[من الطويل]

(مروج ، 3 ، 369 وكذلك الملوك ، 8 ، 233 ، والبيت الأوّل هو الذي وشّح به المؤلف أ. كلو صدر هذا الفصل).

والحقيقة أنّه كان يؤازر يحيى في أداء مهامّه ولداه الفضلُ وجعفرُ، وأنّ مؤازرتهما له كانت عظيمة ؛ فكلاهما كان يمارس بجانب أبيه خطة وزير ويحضر معه المجالس الرّسمية العامّة ، وهو أمر نادر جدّا في الشّرق. وسيُسلَّم خاتم الخلافة إلى جعفر قبل أن يسلَّم إلى يحيى ، ثمّ إلى الفضل من بعده ، وهكذا سيبقى ذاك الخاتم في نفس البيت. وفي الواقع ، فإنّ تاريخ الرشيد ، في العقد الأوّل من خلافته ، سيتطابق مع تاريخ البرامكة ، وستكون حكومته حكومة هؤلاء الرّجال الثّلاثة وجميعهم متوفّرون على حنكة وكفاء ة وفطنة تفوق المعهود عند سائر النّاس .

بعد مصرع الهادي مصرعا مأساويّا ، وبعد سلسلة الخيانات التي سبقته ، هل أينعت رؤوس وحان قطافها ؟ فما من شكّ في أنّ الذين تنكّروا لمبايعتهم هارون عندما كان وليّ عهد – وكانوا كُثْراً – وبايعوا جعفرابن الهادي ، قد قضّت عليهم مضاجعُهم ليالي عديدات . ويحيى هو الذي أنجاهم – وأنجاهم كذلك الرّخاء الذي عمّ البلاد – من ويلات النّقمة ، على الأقلّ إلى أجل مسمّى . فقد أقنع يحيى الخيزران ، وكانت تريد أن تُضرَب أعناقُ كلّ الخونة ، أنّ إرسال هؤلاء لمقاتلة العدوّ أولى من قتلهم .

وجَدَت نصيحة يحيى أذنا صاغية وقُبض على خائنَيْن من مرتبة ثانية فحسب[14]. أما كبار المسؤولين فقد تُرِكوا وشأنهم ؛ فإنّ أحدهم[15]، وهو رئيس الشّرطة في عهد الهادي ، قد استطاع أن ينجو بوسيلة طريفة : لقد خُوِّل له أن يتحلّل من البيعة التي كانت لهارون عليه بأن يحجّ البيت راجلا ، وقد وفّى بما وعد لكن مشيا على زرابي كان الخدم يفرشونها أمامه ، ثمّ يرفعونها ليبسطوها من جديد في طريقه. أمّا علي بن عيسى بن ماهان ،[16] أحد كبار المسؤولين على " الأبناء " ويزيد بن مَزْيَد، أحد المستشارين العسكريين لدى الهادي[17]، وكلاهما كان قد حرّض هذا الأخير على إحلال جعفر محلّ هارون في

---

(14) * الإشارة هنا إلى أبي عصمة الحرّانيّ وسلاّم الأبرش اللّذين كان الرّشيد ساخطا عليهما، فعندما وَلِي الخلافة أمر بضرب عنق الأول وحبس الثاني وقبض أمواله (الملوك، 8،232-233).

(15) * يلمّح الكاتب هنا الى عبد الله بن مالك الخزاعي الذي كان على شُرط الهادي والذي «حجّ ماشيا» و «مشى إلى مكة على اللّبود»، بعد مشاورة الفقهاء في الأمر (الملوك ، 8 ، 233).

(16) * عليّ بن عيسى بن ماهان (... – 810 / ... – 195 هـ) : من كبار القادة في عصر الرّشيد والأمين العبّاسيّين. وهو الذي حرّض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد. سيّره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير، وولاّه إمارة الجبل وهمذان واصبهان وقُم وتلك البلاد. فخرج من بغداد في أربعين ألف فارس ، فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الرَّيّ ، فقُتل ابن ماهان وانهزم أصحابه .

(17) * يزيد بن مَزْيَد بن زائدة الشَّيْباني (... – 801 / ... – 185 هـ) : أمير، من القادة الشّجعان. كان واليا على أرمينية وأذربيجان. انتدبه الرّشيد لقتال الوليد بن طريف الشيباني رأس =

ولاية العهد، فقد اكتفى الرّشيد بنفيهما، وسوف لا يقع استقدامهما من المنفى إلاّ بعد وفاة الخيزران بمدّة ، فخلافة الرّشيد قد أهلّ إذن هلالها والفرحة شاملة للبلاد.

ما كادت تمرّ أشهر قلائل على تولّي هارون الخلافة – وقد وليها بعون الله لا محالة، ولكن بمساعدة الخيزران ويحيى أيضا – حتّى قرّر الخروج لأول مرة لأداء مناسك الحجّ. لم يحتفظ لنا التّاريخ بتفاصيل مدقّقة عن قضائه لهذه الفريضة التي سيؤدّيها مرّات في حياته والتي كان العبّاسيّون يولونها أهميّة بالغة . فهذه الحجّة كانت بلا ريب فرصة ليبرهن فيها الخليفة الجديد على مدى ما كان له من السّخاء . بيد أنّ لدينا معلومات أوفر تدلّ على أنّ الحجّ الذي أدّت الخيزران مناسكه بعد ذلك بأشهر قلائل ، كان فوزا مبينا : لقد تدفّقت بمناسبته الصّدقات ، على ما رُوي ، تدفّق السّيل العارم ، فكانت أمّ الخليفة ، خلاله ، تصدر أمرها كلّ يوم تقريبا بإقامة المآوي للحجيج ، وبناء الصّهاريج والسّقايات والمساجد في مسالكه . وحين حلّت بمكّة ومرّت بالبيت الذي وُلد به الرسول – أو بالأحرى الذي يُظنّ أنّه وُلد به – أمرت بضمّه إلى الذي كان يجتمع فيه بصحابته لجعله مسجدا ، وسيبقى زمنا طويلا يعرفُ " ببيت الخيزران " .

هكذا كان العبّاسيّون يريدون التّأكيد على الطّابع الدّينيّ الذي يجتهدون في طبع دولتهم به. فقد كان ذلك في نظر المنصور والمهديّ بمثابة المبرّر للمؤامرة التي دبّرها بنو العباس وللانقلاب الذي حصل على أيديهم سنة 750 (133 هـ)، وغايتهم من ذلك جعل الناس يقتنعون أنّ العبّاسيّين ما أزاحوا خلفاء بني أميّة عن الحكم إلاّ ليؤوبوا بالمسلمين إلى سبيل الرشاد. لقد كان لهارون – أكثر من أبيه وجدّه العظيم – إيمان عميق أنّه الإمام المجتبى لهداية النّاس وتولّي أمرهم بالحق. ففي كلّ المواسم والاحتفالات سيرتدي بردة الرّسول ويمسك بيده القضيب ، وهما من الاعلاق الشّريفة التي يُرمَز بامتلاكها إلى مرتبة سّنية يرتقي إليها من بويع " خليفةَ رسول الله، ووَليٌّ أمره في الأرض "، وهو اللّقب الذي تلقّب به المنصور. فالخلافة هي قبل كلّ شيء مؤسسة دينية ووظيفتها تتمثل في الدّفاع عن الدّين ، والخليفة العبّاسيّ هو الذي وُكلت إليه مهمّة المحافظة على السُّنّة المثلى وحمل النّاس على العمل بالأحكام التي ضبطها الشّرع ضبطا نهائيا.

كان هدف الرّشيد هو بسط النّظام الذي سنّه الرّسول وتنفيذ شريعته في البلاد ، لذا جمع حوله ، منذ السّنين الأولى من عهده، عددا من رجال الدّين كان يساجلهم في مسائل فقهيّة وكلامية. ففي أيّامه عاد إلى البقاع المقدّسة ما كان لها من السّناء بفضل ما

= الخوارج في عهده ، فقتل ابنَ طريف سنة 777 (161 هـ) وعاد إلى أرمينية ، وكان فيما وليه اليمن ؛ وأخبار شجاعته وكرمه كثيرة . توفّي ببردعة (من بلاد أذربيجان) ورثاه شعراء كثيرون ، وهو ابن أخي معن بن زائدة .

أحاط به هارون موكب الحجّ من أبّهة تلتقي فيها المفاخرة مع التّقى ويرفعها إلى أوج الجلال ما كان يتجلّى فيها من الآيات لسخائه (فقد رُوِي أنّه أنفق في إحدى حجّاته مليون دينار)٠

لكنّ الرّشيد كان مهتمّا ، على وجه الخصوص ، بمكافحة البدَع بجميع صنوفها ، وذلك لأغراض دينيّة وسياسيّة ٠ فهو يرى أن لا مكان ، في هذه المملكة المترامية الأطراف والتي تعدّدت فيها الأعراق واختلفت ، وبات يهدّد فيها العنصرالعربيَّ التّحلّلُ والذوبانُ ، إلاّ لدين واحد ولقانون واحد ، فهُما لُحْمتها وعلّة كيانها ؛ ووظيفة الخليفة فيها تتمثّل في حمل النّاس على احترامهما ؛ لذلك سيُسخّر هارون جميع قواه لمكافحة أشياع عليّ ومحاربة الزّنادقة كما سنرى ذلك[18].

فالخطر المحدق بالعبّاسيّين الأوائل كان مأتاه المثيرين للفتن من المشوّشين الدّينيّين والاجتماعيّين لا غير، ولا وجود لعدّو يتهدّدهم من الخارج ٠ فالخصم المجاورالوحيد الذي قد تُخشى شوكته – " صاحب الروم " – كان غارقا في دسائسه وأزماته ، وعاجزا عن إزعاجهم٠ وهارون الذي كان أبوه قد أرسله ليغزو بلاد ما وراء طُورُوس[19] لن يصرف ، مع ذلك ، اهتمامه عن الامبراطورية البيزنطيّة٠ فلن ينسى أبدا ما يفرضه عليه الإسلام من جهاد للكفرة ، وسيخرج بدوره غازيا لبيزنطة . وقد استهواه على الأرجح – مثلما سيستهوي بعده العديد من الملوك والأباطرة – الطّمعُ في فتح القسطنطينية ؛ وسيجعل من هذه الحرب ومن الجهاد في سبيل الله بواسطتها الشّغل الشّاغل له كامل حياته٠

وحالما يلي الخلافة سيتولى بنفسه قيادة الجيش ويجعل من الميدان العسكري الميدان الذي يختصّ به دون سواه : من ذلك أنّه قرّر أن يقيم على بعض الحدود خطّا دفاعيّا جديدا يعوّض أو يتمّم المواقع المحصّنة – الثّغور –[20] التي كان أقامها المهديّ والتي تناقصت " نجاعتها "[21].

---

(18) في نفس العصر ستتّخذ جماعاتٌ من المُهرطِقين المسيحيّين من اختلافاتها المذهبيّة ذريعة لبثّ الفوضى ومطيّة للحطّ من هيبة السّلطة ٠

(19) * طُورُوس : سلسلة جبال في آسيا الصّغرى ، واقعة بين قِيلِيقية وقَبّادُوقية ، المقاطعتين الموجدتين اليوم جنوبي الأناضول بتركيا والتي كان لهما شأن عبرالتريخ في نشر المسيحية ٠

(20) * الثّغور لغةً . هي مواضع المخافة من بين فروج البلاد المتاخمة للعدوّ ؛ وفي مُصطلح المؤرّخين : هي الحصون التي ابتناها الخلفاء في القرن 8م (2هـ للهجرة) بين أرض الإسلام وأرض الروم شمالي سوريا ، وقاية لها من هجمات العدوّ ، منها طَرْسُوس وأذَنة ومَرْعَش ومَلَطية ٠ وتسمّى الثّغورُ أحيانا العواصمَ .

(21) * روى ذلك الطّبري بقوله : « عزل الرّشيد الثّغور كلّها عن الجزيرة وقِنّسرين وجعلها حيّزا واحدا وسُمّيت العواصم » (الملوك ، 8 ، 234) .

أمير المؤمنين في قصـــره

تُوفّيت الخيزران في نهاية 789 (173 هـ) على الأرجح وفاة طبيعية ، ولم تكد تبلغ الخمسين من عمرها، فمشى الرّشيد في جنازتها وعليه طيلسان أزرق ، وقد شدّ وسطه بحزام وأخذ بقائمة التّابوت ، حافيا يخبّ في الطّين حتّى مقبرة الرّصافة[22] على الضّفّة الشّرقيّة لنهر دجلة ، وهي المقبرة التي لا تزال تحمل اسمها؛ وصلّى عليها ودخل قبرها وأنشد المرثيّة الشّهيرة[23] التي قالتها عائشة على قبر أبيها أبي بكر، أوّل الخلفاء الرّاشدين، بُعيد وفاته. ثمّ خيّم الصّمت على الخيزران ذات العزّ الأثيل والمقام الرّفيع . لكن عندما يَهلَك جميع من كان لهم دور في الفواجع التي شهدتها أو كان لها فيها يد، ويصيرون بدورهم إلى العـدم ، سيتمثّل الأخباريون والمؤرّخون والشّعراء المنقلَب الرّومنسي الذي انقلبته هذه الأمَةُ اليمنية ، زوجةُ خليفة ، ووالدة خليفتين ، والأمّ التي أجرمت لإيصال ابنها المفضّل إلى عرش الخلافة .

ما إن احتجبت عن الرّشيد أمّه حتّى أخذ الخاتم من جعفر البرمكيّ ليسلّمه إلى حظيّ آخر من حظاياه – الفضل بن الرّبيع –[24] ، هو أمر كانت الخيزران تعارضه بلا

---

(22) * بل مقابر قريش على ما رواه الطّبريّ (الملوك ، 8 ، 238).

(23) * ينسب المؤلّف هذه المرثيّة إلى رجل أسماه ابن نُويرة . وبالرّجوع إلى المصادر التّاريخية والأدبية لم نجد أثرا لأديب أو شاعر بهذا الإسم أنشد مرثية تكون عائشة قد قالتها على قبر أبيها . ولعلّ الأمر قد اشتبه على المؤلّف بين ابن نُويرة المزعوم هذا والنّويري صاحب نهاية الأرب ، وهو فعلا من الأدباء الذين رووا في كتبهم ، مع جملة من المراثي النّموذجية ، ما قالته عائشة عند وفاة أبيها . جاء في نهاية الأرب (النويري ، 5 ، 169- 170) ما يلي : « وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وأبوها يُغمَّض .

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَـامُ بِوَجْهِهِ ثِمَـالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ للأرَامِــــلِ

[من الطويل]

فنظر إليها وقال . ذاك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ثمّ أغمي عليه ، فقالت .

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَــى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

[من الطويل]

فنظر اليها كالغضبان وقال : « قُولي . (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)» . ثمّ قال : « انظروا مُلاءَتَيَّ فاغسلوهما وكفّنوني فيهما، فإنّ الحـيَّ أحوج إلى الجديد من الميّت » . ووقفت رضي الله عنها على قبره رضي الله عنه ، فقالت ... ثمّ انصرفت » ' وجاءت مرثيتها هذه نثرًا ولم نعثر على غيرها من رثاء قالته عائشة في أبيها .

(24) * الفضل بن الرّبيع بن يونس (755-824 / 138-208 هـ) : وزير أديب حازم. كان أبوه وزيرا للمنصور العبّاسي، واستحجبه المنصور لما ولّى أباه الوزارة. فلمّا آل الأمر إلى الرّشيد واستوزر البرامكة كان الفضل هذا من كبار خصومهم ، حتّى ضربهم الرّشيد تلك الضّربة؛=

هواداة. وغاية هارون من هذا الصّنيع أن يعبّر على عزمه أحداثَ عِدْل لتأثير أسرة بني برمك العتيدة التي ينحدر منها وزيره. ثم إنّه أمر بالقبض على إبراهيم الحرّاني الوزير السّابق لأخيه الهادي وبمصادرة أمواله، ولم يقدر يحيى إلاّ على بعض التّخفيف من صرامة هذا الإجراء[25].

عُمُر هارون الآن ثلاث وعشرون سنة. فهو شاب حسن الطّلعة طويل القامة؛ وكان، حسب الطّبري، جميلا وسيما أبيض جعْدا. أما كتاب ألف ليلة وليلة فإنّه ينسب إليه «فمًا صغيرا جدّا وخدّين وارمين منتفخين قليلا». وهو يقيم غالبا ببغداد في قصر الخُلْد الذي بناه أبوه على شاطئ دجلة، والذي تمتدّ أمامه ساحة يُطِلّ عليها مجموع مباني صاحب الشّرطة، وتجلب إليها المواكبُ والحفلاتُ، أيّام الأعياد، حشودا غفيرة من العوامّ تأتي للتّفرّج على مشهد العظمة السّلطانية عند استعراض جند الخلافة.

لا ندري بالتّدقيق ما كانت عليه هندسة القسم الدّاخليّ من قصر الخُلد، لكنّنا نعلم أنّه كان ذا حجم هائل ككلّ القصور التي بُنيت في الشّرق منذ أقدم العصور. كان هذا القصر هو الأوّل من بين مجموعة القصور التي ستُشيَّد على طول نهر دجلة، وكان بناؤه يستجيب لرغبة لدى الخليفة في ضمان أمنه، لأنّه كان يجمع في مكان واحد بين مقرّ إقامته والمركز السّياسي والإداري لدولته[26]. فعلاوة على ما يحويه من قاعات فسيحة

= قال صاحب غربال الزّمان: وكانت نكبتهم على يديه. ولي الوزارة إلى أن مات الرّشيد؛ قال أبو نواس:

إنّ دَهْرًا لم يَرْعَ عَهْدًا ليَحْيَى غَيْرُ رَاعٍ ذِمَامَ آلِ الرَّبِيعِ
[من الخفيف]

واستُخْلِف الأمين فأقرّه على وزارته، فعمل على مقاومة المأمون. ولّما ظفرالمأمون استتر الفضلُ سنة 811 (196 هـ)، ثمّ عفا عنه المأمون وأهمله بقية حياته. وتوفّي بطُوس (مقاطعة من خراسان شمال شرقيّ إيران)، وهو من أحفاد أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفّان.

(25) انظر د. سورديل D. Sourdel، الوزارة العبّاسية، Le Vizirat abbasside

(26) لم يبق لقصر الخُلْد أثر، لكنّه لا يزال يوجد بالأخَيْضِر [مكان به آثار حصن في صحراء العراق يبعد 25 ميلا عن كربلاء] على بعد 200 كلم من بغداد من جهة الجنوب الغربي، خرائب قصر شُيِّد بلا ريب في النصف الثاني من القرن 8 (2 للهجرة). والذي يذهب إليه ك. أ. س. كريسولّ K. A. C. Creswell. هو أنّ هذا القصر قد يكون من قصور عيسى بن موسى حفيد السفّاح والمنصور للأخ. إنّ سور هذا المبنى المحميّ بأربعة أبراج في الزاويّة له 169 م x 175 م والقصر نفسه يمسح 9.000 متر مربّع؛ وهندسة الأخيضر تمزج بين التّقاليد القديمة للشرق العربي وللعصر الأموي والتّأثيرات السّاسانية القريبة العهد؛ فقاعات العرش تتماشى ومقتضيات التّشريفات المعقّدة التي يفرضها شبه التّأليه الذي كان يحظى به الخليفة. لذا فهي تزداد فخامة؛ ولن تمرّعلى ذلك بضعة عقود حتّى تصبح قصوربغدادالجديدة =

للجلسات والاقتبالات ، كان يضمّ غُرفا عديدة مخصّصة لأصحاب الرّتب العالية وكتّاب الدّواوين ، وحجرات مجعولة لسكناهم. فكما كان الشأن عند تشييد المدينة المدوّرة ، فانّ قصر الخلد قد بُني، حسبما كانت تقتضيه التّقنية الشرقية التّقليدية ، باللّبن (أي الآجر المضروب من الطّين المُجفّف) المُقوّى بالطّوب (أي الآجر المصنوع من الطّين المشويّ) والمُغطّى بالجبس. وكانت جدران خارجية سميكة ومعزّزة بأبراج عظيمة تجعل كامل المبنى كقلعة حصينة.

في نفس الوقت الذي شيّد فيه المنصور القصر، كان قد أمر بتهيئة حدائق فردوسية مستوحاة من تلك التي كانت لبني ساسان وبني أميّة. فكانت إطارا ساحرا ينعم فيه أهل البلاط برغد العيش ، خصوصا بعد الذي أدخله عليه كبار الخلفاء ، منهم المهديّ وعلى الأخصّ هارون الرّشيد ، من تحسينات جعلت المُقام فيه أطيب وأمتع. فمما زاد تلك الرياض روعةً زهرٌ ، مُتحصّل عليه بتطعيمات ماهرة ، ونابتٌ في الأرض بكيفية تجعله يرسم أمام النّاظر أبياتا شهيرة من الشّعر العربي ، وشجرٌ مطوّقٌ بمُهَل مرصّعة بالحجارة الكريمة ، ومكسوٌّ ورقُه بالعسجد واللُّجين ، وبِرَك وجداولُ مبثوثة بين الخمائل والأعشاب ، وجسورٌ صغيرة مصنوعة من خشب مجلوب من أصقاع نائية ، ومقاعدُ في شرفات أحلام وسروٌ وطقسوسٌ يتمرّى على صفحات مياه يُصوّر النّيْلَوفرُ فيها آيات تُشيد بعظمة الخليفة ... فلا أثر في هذه الأجنّة ليد الطّبيعة ، وكلّ شيء فيها وليد فنّ في أعلى درجات كماله . والطّبريّ يروي أنّه كان يوجد داخل القصر روضُ صغير، غُرِس كلّه شجرا ورديّ الزّهر، وشُيّدت وسطه قاعة كُسيت جدرانُها سُترا وردية ، وسعى فيها غلمان ثيابهم متعددة الألوان . فكتاب ألف ليلة وليلة قد ترك لنا من كلّ ذلك أوصافا رائعة منها :

« ... هذا البستان الذي ناما عند بابه يسمّى بستان النّعيم ؛ وكان أمير المؤمنين هارون الرّشيد إذا ضاقت به النفس ، خرج إليه ليتفسّح وينسى هموم الدنيا... وكان فيه قصر يسمّى قصر العجائب ، به قاعة فسيحة على جدرانها ثمانون نافذة... لا تُشرَّع بيبانها إلاّ إذا حضر الخليفة ، فتُوقد عندئذ جميع القناديل ، وتُوقد المشكاة الكبرى، وتُفتح النوافذ، ويجلس أميرالمؤمنين على أريكة من المخْمل المذهّب والحريرالمحلّى بالدرّ؛ ثم يأمر القيانَ بالغناء والعازفين بالضرب على الأوتار ... وفي سكون الليل وطيب نداه يستريح ثم يخرج مع جعفر متنكرا في مدينة بغداد ... » .

كانت تنمو وتفوح داخل قاعات القصرالفسيحة أزهار بديعة وورود نادرة قيل عن روضها : « ... وحول القاعة التي يعقد فيها الخليفة مجالسه ، حديقة صغيرة تعكس ظلال أشجارها على إجّانة بَلَق يفور منه ماء كعقد من الألماس ، بهجةً للنّاظرين ...».

= (الرّصافة،التّاج) وخاصّة قصور سامرّاء مجموعات ضخمة من المباني [انظر الملحق الثاني].

تعددت الأوصاف الرومنسية الرّائعة التي صُوِّر بها سحر تلك الرياض والبساتين أيّام الرّشيد وفي القرن الموالي. فمن أشهرها تلك التي تضمنّتها رواية تتحدّث عن اقتبال[27] المبعوثَيْن البيزنطيّين يُوحَنّا چَادِينُوس ومِيخَائِيل طُوكْسَارَاس اللّذين جاءا مُوفدَيْن من قِبَل الامبراطور قُسْطَنْطِين پُورْفِيرُوجِينِيت[28] لعقد هدنة مع الخليفة المقتدِر[29] وافتداء الأسرى من الرّوم.

« كان عدد ما عُلّق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من ستور الدّيباج المذهّبة بالطّرز المذهبة الجليلة ، المصوّرة بالجامات والفِيَلة والخيل والجمال والسّباع والطّرد[30] والستّور الكبار الصنعانية والأرمينية والواسطية والبهنسية السّواذج والمنقوشة والدّبيقية المطرّزة ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها السّتور الدّيباج المذهّبة المقدّم وصفها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر، وعدد البسط والنّخاخ[31] الجهرمية والدّارابجردية والدّورقية ، في الممرّات والصّحون التي وطئ عليها القوّاد ورسل صاحب الرّوم ، من حدّ باب العامّة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله ، سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطّبريّ والدّبيقي التي لحِقْها للنّظر دون الدّوس ، اثنان وعشرون ألف قطعة ».

« وأُدخِل رُسُل صاحب الرّوم من دهليز باب العامّة الأعظم إلى الدّار المعروفة بدار الخيل ، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضّة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجِلاَل الدّيباج بالبراقع الطّوال ... ثمّ أدخلوا من هذه الدّار إلى الممرّات والدّهاليز المتّصلة بحَيْر الوحش ... ثمّ أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزيّنة بالدّيباج

---

(27) هذا الوصف ، وإن تأخّر تحريره بقرن تقريبا عن عهد هارون ، يمكّننا من تصوّر البذخ الذي كان عليه البلاط أيّام الرّشيد في ظروف مماثلة .

(28) * هو الامبراطور البيزنطي قُسطَنطين 7ً پُرْفِرُجِنِتس (905-959 / 293-348 هـ) : ابن لَيُون 6ً ؛ كان عاهلا مثقّفا لا يميل إلى السّياسة ، فترك الحكم أوّلا لأمّه زُوي ثم لعشيقها رُومَانُوس 1ً لاكاپِين (920-945/308-334 هـ) وأخيرا لزوجته . تميّز عصره بانتصارات عديدة على العرب وامتدادٍ للتّأثير الحضاري البيزنطي إلى الشّمال والشّرق وإصلاحٍ عميق للتّعليم والادارة والتّشريع. كان أديبا مشجّعا للعلوم والفنون ، ومن تآليفه:كتاب التّشريفات، وحياة بازيل الأوّل ، ورسالة في الإدارة ؛ وأشرف بالخصوص على أشغال جماعة من الموسوعيّين (انظر الملحق السادس) .

(29) * المقتدِر بن المعتضِد : هوالثّامن عشر من خلفاء بني العبّاس . كانت ولايته 25 سنة (908-932/296-321 هـ). مات وعمره 38 سنة.

(30) * الطرد . ما يطرد من الكواسر.

(31) * النُخاخ : جمع نخ وهو البساط الطّويل.

والوشي ، على كلّ فيل ثمانية نفر من السّند والزّرّاقين بالنّار، فهال الرّسلَ أمرُها . ثمّ أُخرِجوا إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون منها يمنة وخمسون يسرة ، كلّ سبع منها في يد سبّاع وفي رأسه وعنقه السّلاسل والحديد[32] . ثمّ أخرِجوا إلى الجَوْسَق المُحدَث ، وهي دار بين بساتين ، في وسطها بركة رصاص قلعيّ ، حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضّة المجلوّة ، طول البركة ثلاثون ذراعا في عشرين ذراعا ، فيها أربع طيّارات لطاف بمجالس مذهّبة مزيّنة بالدّبيقي المطرّز وأغشيتها دبيقي مذهّب . وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل عدده أربعمائة نخلة ، وطول كلّ واحدة خمسة أذرع، قد لُبِس جميعها ساجا منقوشا من أصلها إلى حدّ الجمّارة بحِلَق من شبه مذهّبة ... ثمّ أُخرِجوا من هذه الدّار إلى دارالشّجرة ، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مُدوّرة ، فيها ماء صاف ، وللشّجرة ثمانية عشر غصنا لكلّ غصن منها شاخات كثيرة عليها الطّيور والعصافير من كلّ نوع مذهّبةٌ ومفضّضةٌ ، وأكثر قضبان الشجرة فضّةٌ ، وبها مذهّب ، وهي تتمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرّك كما تحرّك الرّيح ورق الشّجر، وكلّ من هذه الطّيور يصفر ويهدر»[33] .

يصف كتاب ألف ليلة وليلة أيضا قاعة كبرى من القصر تشبه دون شك تلك التي اقتبل فيها الخليفة رسل ملك الرّوم :

« كانت قاعة تعلوها قبّة مقامة على أربعة وعشرين عمودا صُنعت من أرفع صنوف البَلَق الشّفّاف ، ونُحتت تيجانها وقواعدها نحتا بديعا ، وُزيّنت بطيور ودواب من إبريز ، وقد طليت القبّة بطلاء من ذهب كُسي خطوطا مُلوّنة ، تروق النّاظر وتعيد لبصره ما حُلّي به بساط القاعة الكبيرة من الألوان والأشكال . أمّا الأعمدة فقد رُتّب ، فيما كان بينها من فضاء ، أكوابٌ عظيمة طلع منها زهرٌ عجيب ، وأوانٍ من اليشْب والعقيق والبلّور، وبدت خاوية عظيمة الحجم رائعة الحسن ، وتفتح هذه القاعة الفسيحة على روضة رُصّع مدخلها بأحجار ملونة رسمت بها تصاوير البساط : فكانت القبّة والقاعة والرّوضة توحّد بينها زرقة الطّلاء والسّماء »[34] .

لنتصوّر أيضا الطنافس المبثوثة ، ذات الحدّ الفائق والصّنع الرائق ، المطرّزة

---

(32) ليس لدينا من المعلومات ما يفيد وجود حديقة حيوان بقصر هارون الرّشيد. لكن الرّاجح أن يكون الرّشيد نفسه ، وربما أبوه المهديّ أيضا ، قد جلبا الوحوش إلى قصورهما، مثلما فعل الأمويّون من قبل.

(33) حسب الخطيب البغدادي ، مقدمة تاريخ بغداد [البغدادي ، 1 ، 102-103].

(34) الليلة 552 [والحقيقة أنّ هذا الوصف تأليف لمجموعة أوصاف متقطّعة مبثوثة في حكايات أربع عشرة ليلة ، من الليلة 559 الى الليلة 571] .

بأسلاك الذهب المرصعة بنفيس الجواهر وكريم الأحجار، ثمّ لنتخيّل سُترَ الدّيباج المحلاّة أيضا بالحجر النّفيس ، وثريّاتِ العسجد المتدلّية من السّقوف ، والرّسومَ على الجدران موحية بمشاهد من حياة الخلفاء السّابقين ، فكلّ ما ينتجه إذاك البشر والطبيعة كنت تُلفيه مُجمّعا في تلك المواضع الخلاّبة من قصور بغداد ورياضها.

في تلك القاعات الفخمة والحجرات العديدة من القصر كان يعيش الخليفة والمئُون من البشر. فالقصر الذي نحوه تتساءل أنشطة الدّولة ، وعنه تصدر قراراتها ، كان في آن واحد مركز الحياة الرّسمية للدّولة ومقرّا لسكنى الخليفة ؛ فهو عالم مُغلَق يكاد يكون خرافيا، مدينةٌ مقفلة لا يدخلها أحد عدا سكّانها والعاملين فيها. ففي القصر كانت تزدهر فنون الزّينة بمقدار أوفر بكثير من ازدهارها في المسجد ، إذ كان القصر يمثل واجهة ، مقصورة لامحالة على ثلّة من المحظوظين ، لدولة بلغت ذروة العزّة والثّراء . ففيه كان الخليفة يقتبل الزّائرين ورجال الحاشية ، متربّعا على سرير بُسطت فوقه فرش الدّيباج المنسوج بالذهب والمرصّع بالجواهر، وضُرِبت عليه قبّة ستُرها من حرير؛ وكان يفصل بين الخليفة والحاضرين حِجاب يؤكّد قداسة مهمّته ، وفعلا فبلقب " أمير المؤمنين " كان يخاطبه كلّ داخل عليه وهو يحيّيه.

كانت مجموعةٌ من المراسم تضبط سنَنَ السّلوك بالقصر ، وستزداد تلك المراسم صرامة في القرن التّالي مع تولّي البُويهيّين[35] وتعاظم التأثير الإيراني. سنرى البويهي عَضُد الدولة[36]، أثناء الحفل الذي قلّد فيه مهامّ خطيرة تنازل له عنها الخليفة ، يركع تسع

(35) أسرة أصلها من مشارف بحر الخَزَر (قزوين)، باشرت السّلطة الحقيقة في بغداد من 915 (303 هـ) الى 1055 (447 هـ) . [بنو بويه : أسرة فارسية شيعية من بلاد الدّيلم ، أسّسها أبو شجاع بويه وبنوه عليّ والحسن وأحمد ولُقّبوا بلقب عماد الدّولة وركن الدولة ومعزّ الدّولة. أمّا عِماد الدّولة – عليّ – (894-949/281-338 هـ)، وهو أوّل من تولّى منهم ، فكانت له بلاد فارس وعاصمته شيراز. وأمّا رُكن الدّولة – الحسن – وهو أعظمهم، (897-976 / 284-366 هـ) فكان صاحب أصبهان والرّيّ وهمذان وجميع عراق العجم وهو الذي استوزرابن العميد ثمّ ابنه أبا الفتح وهو والد فنّاخسرو عَضُد الدّولة وبُوَيْه مُؤيِّد الدّولة وعلي فَخْر الدّولة الذين قسّم بينهم مملكته قبل وفاته. وأما مُعِز الدّولة – أحمد –(915 - 303/967 - 357هـ) وهو أصغر أخويه ، فقد تولّى في صباه كرمان وسجستان والأهواز تبعا لأخيه عماد الدّولة ثمّ امتلك بغداد سنة 945 (334 هـ) في خلافة المستعين. في عهدهم غدا الخليفة ألعوبة في أيديهم لا نفوذ له إلى أن غلبهم طُغرُل بك السلطان السّلجوقي سنة 1055 (446 هـ)].

(36) * عَضُد الدّولة (936-983 / 325-373 هـ) : فنّاخسرو بن الحسن ، ركن الدّولة بن بُوَيْـه ، أحد المتغلّبين على الملك في عهد الدّولة العبّاسية بالعراق ؛ تولّى ملك فـارس ثمّ ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، وهو أوّل من خُطب له على المنابر بعد الخليفة ، وأول من لُقّب في الاسلام "شاهنشاه". كان شديد الهيبة جبارا عسوفا أديبا عالما بالعربية ينظم الشّعر. صنّف له =

مرّات قبل الوصول إلى سدّة الخليفة ، ويقبّل الأرض مرّتين عندما يؤذن له بالمثول بين يديه. فبقدر ما تتضاء ل سلطات أمير المؤمنين كانت تتزايد الحفلات التّشريفاتية فخامة.

في عهد الرشيد كانت مهمّة الحاجب تتمثّل في إدخال الزّائر وراء الحجاب للمثول لدى الخليفة . فكان الزّائر يُقبّل يدي الخليفة ورجليه وينتظر أنّ يؤذن له بالجلوس ؛ وبقدر ما يطول انتظاره كانت تتجلّى نيّة الخليفة في الحطّ من قدره. ولا حقّ لأحد في مبادرة الخليفة بالخطاب ؛ وفي الاقتبالات الكبرى يُنادَى على كبار الدّولة وأعيان الحاشية الواحد تلو الآخر حسب ترتيب مضبوط. ويتقدّم الداخلين على أمير المؤمنين أبناءُ الصّحابة ، وخاصّة من سبق غيره منهم إلى الاسلام ، ويليهم أصحاب الرّتب العالية وسامي الموظّفين ؛ فالمؤمنون لا محالة سواسية ، لكنّ البعض منهم – حتّى في نظرالخالق – أرفع مرتبة من البعض .

كان يحيط بالخليفة المئات من الأراهط : أمراء ، أبناء ، أحفاد خلفاء متوفّين ، ذراري عباسيون ، حجّاب ، كتبة ، حرّاس ، تَبَع ضروريون لشؤون الحياة اليومية . من طبّاخين وسقّائين ونجّارين وسرّاجين وخدم ، دون أن ننسى طبعا الأطبّاء والمؤذنين والمنجّمين والمهرّجين . فالقصر مدينة في المدينة ، مدينة ستزداد حجما في القرن الموالي حين سيتكاثر عدد الأعوان والحرّاس والخُفّار من الأعاجم (وجلهم من الأتراك).

الحَــــــرَم

تقيم أسرة الخليفة ونساؤه في الحَرَم وهو جناح القصر المخصّص للحَريم ؛ كان لهارون ، على ما يُروى ، مائتا امرأة في حرمه[37]، عشرون منهنّ أنجبن له أولادا : وهذا

= أبو علي الفارسي "الايضاح" و "التكملة"، وصنّف له أبو إسحاق الصّابي كتاب "التّاجي" في أخبار بني بويه ، ولقّبه بتاج الملّة ، ومدحه فحول الشّعراء كالمتنبّي والسّلامي. كان كثير العمران ، أنشأ بيمارستانا ببغداد وعَمّر الجسور والقناطر وبنى سورا حول المدينة .

(37) كان للمأمون عشرة أبناء وللمهديّ ستّة (وعدد مثله من البنات) ، أمّا هارون فكان له أربعة عشر ابنا ونعرف أسماء أربع من بناته .[يقول الطبريّ : ووُلِد للرّشيد من الرّجال محمّد الأمين وأمه زُبَيْدة ، وعبد الله المأمون وأمه أمّ ولد اسمها مَرَاجِل ، والقاسم المؤتمن وأمه أم ولد اسمها قَصِف ، ومحمّد ابو اسحاق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها مَارِدَة ، وعليّ وامه أَمَة العزيز، وصالح وأمه أم ولد يقال لها رَئم ، ومحمّد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عِرَابَة ، ومحمّد أبو يعقوب وامّه أمّ ولد يقال لها شَذْرَة ، ومحمّد أبو العبّاس وأمه أم ولد يقال لها خُبْث ، ومحمّد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رَوَاح ، ومحمّد أبو علي وأمه أم ولد يقال لها دَوَاج ، ومحمّد أبو أحمد وأمه أم ولد يقال لها كِتْمان ؛ ومن النساء : سُكَيْنة وأمها قَصِف وهي أخت القاسم ، وأم حَبيب وأمها مَاردة وهي أخت أبي اسحاق المعتصم ، وأروى وأمها =

قليل قياسا بالاثني عشر ألف امرأة اللائي ضمّهُن قصرالمتوكل خمسين سنة بعد ذلك ! لم يكن هذا الجناح المخصّص للنساء من القصر ، والذي طالما تغذت منه المخيّلات الغربية ، ذاك المكانَ الذي كثيرا ما وُصف بكونه وكرا للفساد؛ بل كان مقرّا لسكنى مهائرالخليفة وأمّهات أولاده ، كما كان العديد من النّساء – من سراري وإماء وجوار وخادمات – يُقِمن أيضا في هذا العالم المنظّم تنظيما محكما والذي يباشر تسييرَه خِصِيّ ونساء أخريات ينتمين إلى حشم الخليفة.

جلّ النّساء المقيمات في الحرم يُشتَرَيْن من أسواق الرّقيق أو يُهديهن إلى الخليفة آلُ بيته وبعضُ من كان ينشد التّقرّب إليه من رجال حاشيته . ففي عهد الرشيد كنّ ينتسبن إلى أعراق مختلفة : فمنهنّ العربيات والشركسيات والتركيات والروميات وغالبا ما كنّ يُجلَبن من الغارات والغزوات العديدة التي كان يشنّها العرب على الرّوم.

في خلافة المهديّ شرع البلاط في التّفتّح على الثقافة والتّرف والتّأنّق الحضاري. ومنذ أن تولى هارون الخلافة ، حاول بدوره أن يجمع حوله رجالا ونساء مثقفين . فاختار أزواجه وحظاياه – مع عناية بالحظايا أشدّ منها بالزّوجات – لا من بين أوفر النساء جمالا فقط ، بل وأيضا من بين أكثرهنّ ذكاء : فالبعض من بينهنّ كنّ أرسلن إلى الطّائف[38] – وإلى المدينة[39] بالخصوص – حيث كانت تُوجد منذ عهد بعيد مدارس مشهورة لتعليم الغناء والرّقص. وحتى العاصمة بغداد، فقد كان فيها من المعلّمين من له ثمانون "تلميذة" يعلمهنّ الموسيقى وسائر فنون الغناء. من ذلك أن المغنّي الشّهير إسحاق[40] كان مكلّفا

= خَلُوب ، وأم الحسن وأمها عِرابة ، وأم محمّد وأمها حَمْدُونة ، وفاطمة وأمها غُصَص واسمها مُصفّى، وأم أبيها وأمها سُكّر، وأم سَلمَة وأمها رَحِيق ، وخديجَة وأمها شَجَر وهي أخت كريب ، وأم القاسم وأمها خَزَق ، ورَمْلة أم جعفر وأمها حَلْي ، وأم علي وأمها أنيق وأم الغالية وأمها سَمَنْدَل ، ورَيْطَة وأمها زِينَة . فيكون ، حسب الطبريّ ، عدد الأبناء اثني عشر وعدد البنات أربع عشرة ؛ (الملوك ، 8 ، 36)] .

(38) * مدينة في الحجاز جنوبي شرقي مكّة اشتهرت منذ أقدم العصور بطيب هوائها وجودة ثمارها، فيها العنب العذب ، ويضرب المثل بزبيبها ؛ اتّخذت منها القبائل المجاورة ، وخاصة قريش، محطة اصطياف تخرج إليها عند اشتداد الحرّ.

(39) * المدينة – مدينة الرّسول التي لقّبت بالمنورة – تقع في الحجاز وهي أحد الحرمين الشريفين ؛ اسمها القديم يترب وإليها هاجر الرسول (622م) وفيها مات ودُفن (11/632 هـ)، وهي ايضا عاصمة الخلفاء الرّاشدين الأربعة ؛ كان لها، أيام بني أمية ، دور في تأسيس حياة حضرية مترفة ، واشاعة فنون من الشعر وألوان من الموسيقى والغناء ، لا عهد للعصرين الجاهلي والإسلامي الأول بها.

(40) * اسحاق الموصلي (767-850/ 150-236 هـ) : أحد كبار المغنّين في العصر العبّاسي الأول ، ولد في الرّيّ وتوفّي في بغداد. تعلّم الحديث والقرآن والأدب والغناء ، وكان منقطعا للرشيد والبرامكة . لم يسبقه أحد في صنعة الغناء والضرب على العود وهو أول من استعمل التخنيث.

بتكوين عدد كبير منهنّ. ترك لنا كتاب ألف ليلة وليلة شهادة حيّة عن ذلك : «كان الخليفة هارون شديد المحبّة لإسحاق ، لذا أسكنه أحسن القصور وأفسحها، وعهد إليه بتعليم الغناء والإيقاع لأولئك الجواري اللائي كُنّ يُشترَيْن من كبار النّخاسين في أسواق الرّقيق ويُلحَقن بحريم الخليفة » (الليلة 926) .

كان الثّمن الذي تُبتاع به تلكم القيان يبلغ أحيانا الألفي دينار، وستباع أحداهن في القرن التّالي بثلاثة عشر ألف دينار؛ فامتلاك الخليفة لقيان وجوار مثقّفات كان مظهرا من مظاهر الأبّهة السّلطانية. وسيزداد أكثر فأكثر عددُ الخلفاء – وهارون أحدهم – الذين ستلدهم أمهات أولاد، عربيات في بداية الأمر، ثم أعجميات فيما بعد. وسيختلط الدّم العبّاسيّ، مثلما حدث للدّم العثمانيّ ابتداء من القرن 16 (10 الهجري) بدماء أعراق أخرى غير عربية .

من المعلوم أنّ لكلّ مسلم حقّ التزوّج من أربع نساء . وعندما خلف الرشيد أخاه كانت له ثلاث من النساء المهائر : عَزيزةُ ابنة الغِطْريف أخي الخَيْزران ، وغادِر[41] جارية الهادي ، وابنةُ عمّه زُبَيْدَةُ التي تزوّجها سنة 781 (165هـ) أو 782 (166هـ) والتي كانت ابنة لجعفر ، أحد أبناء المنصور من سَلْسَل أخت الخيزران. ولئن كانت زُبيدة على قدر وافر من الجمال فإنّ ذكاءها كان أوفر ، لأنّ معايشة العشرات من الغادة الحسان المتباهيات بالملاحة والبهاء ، والتّصرّفَ بدهاء في المناورات السّياسية لم يكونا من الأمور الهيّنة ؛ فكانت بالتأكيد المرأة الوحيدة التي عَلِقها هارون عُلوقا شديدا.

بعد وفاة زوجتيه الأوليين[42]سيتزوّج هارون ثلاث نساء من أرومات شريفة وهن: أمّ

---

(41) كان هارون قد حلف لأخيه ألاّ يتزوّج أبدا غادِر. [جاء في ثمرات الأوراق لابن حجّة (2، 197): « كانت غادر من أحسن النّاس وجها وغناء ، فكانت أحظى الناس عند الهادي ثم صارت الى هارون الرشيد بعد أخيه وكان أحلفه الاّ يتزوّجها . ولما ذكّرته غادر بأيمانه قال : « احلف بكلّ شيء حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما إلاّ تزوجتك». وحجّ ماشيا تكفيرا عن حِنْث يمينه. وشَغُف بها أكثر من أخيه حتّى كانت تنام فيُضجع رأسها في حجره ولا يتحرّك حتى تنتبه»]. وكانت غادر حلفت نفس اليمين ، لكن ما كاد يمضي شهر على وفاة الهادي حتّى تزوّجا . وبينما كانت يوما نائمة اذا بها تستيقظ وتقفز فَزِعة. لقد كانت رأت في منامها أنّ الهادي يعذلها على زواجها ويقول لها : « اذا أصبح الصّباح لَحقتِني » ، فما مرّت ساعة حتّى قُبضت.

(42) * وهما : عَزيزَةُ ابنة أخي الخيزران وكانت عند سليمان بن أبي جعفر (والد العبّاسة زوجة الرّشيد) فطلّقها فأعرس بها الرّشيد وكانت وفاتها سنة 770 (154 هـ) ، وغَادِر وتُعرف بأَمَة العزيز (انظر الحاشية السّابقة) وكانت وفاتها سنة 771 (155 هـ).

محمد[43] والعبّاسة[44]وفتاة أخرى من بيت عثمان[45] لكن لن يكون لهنّ اعتبار، إذ ستحتلّ زبيدة الأعماق من قلبه ، رغم غرامياته التي تكاد لا تحصى.

يُقرّ المجتمع الإسلاميّ تعدّد الزوّجات لأنّ الإسلام يحضّ على إرضاء الشّهوة الجسدية ، من ذلك قول الله [تعالى] : «يا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» (قرآن ، 5)[46]، وقول الرّسول : « بُضْعُهُ أهْلَهُ صَدَقَةٌ » (حديث)[47]أو قوله : « وقَرُ الشّوْق كَوقْرِ الجِبَالِ الرّوَاسِي » (حديث عن زيد بن علي). فإهداءُ الزّوجةِ جاريةً حسناء لزوجها ليس أمرا محظورا ، وقد أهدت زبيدة للرشيد في مناسبات عديدة جواري كان لإحداهنّ على الأقلّ مآل غير منتظر.

سمع الرشيد ذات يوم في قصر يحيى البرمكي جارية تغنّي . كانت تلك الجارية السمراء ، وتُعرف بدنانير[48]، قد تلقّت تربية موسيقية رفيعة. فأغدق عليها الخليفة الهدايا منها عقد ثمنه 30.000 ألف درهم. فلمّا علمت زُبيدة الخبر انذعرت ، فشاء هارون أن يُقنعها أن لا أرب له في الجارية وإنما أربه في غنائها، ودعاها إلى الاستماع إليها، فغنت

(43) * وهي رَتْم ابنة صالح المسكين ، كانت قد أُملكت من ابراهيم بن المهديّ ثمّ خُلعت منه فتزوّجها الرّشيد، وقد حُملت إليه مع العبّاسة سنة 785 (169 هـ).

(44) * هي العبّاسة ابنة سليمان بن أبي جعفر وقد حُملت إلى الرّشيد مع أمّ محمّد رتم ابنة صالح المسكين سنة 785 (169 هـ) فتزوّجها .

(45) * هي حَلْي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، وهي طالبية من جهة الأبوين ، وكانت تعرف بالعثمانية الجُرَشية (لنشأتها بجُرَش في اليَمَن).

(46) * والصواب . قرآن ، 4 ، 85 ، أي من سورة المائدة لا من سورة الانعام.

(47) * الحديث عن الرسول لأبي ذرّ الغفارى. وفي رواية «بَضيعَتُهُ أهْلَهُ صَدَقَةٌ» والمباضعة المباشرة أي مجامعة المرأة . ومعنى الحديث : مُجَامَعَةُ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ صَدَقَةٌ يَنَالُ عَنْهَا الثّوَابَ (اللسان ، 1 ، 233).

(48) * دنانير لا دَنَانِيس كما رسم ذلك المؤلّف (... – 825 / ... – 210 هـ) : مغنية ، كانت مولاة لرجل من أهل المدينة خرّجها وأدّبها . فلما رآها يحيى بن خالد البرمكي وقعت بقلبه فاشتراها . فأصبحت من أحسن النّساء وجها وأظرفهنّ وأكملهنّ وأحسنهنّ أدبا وأكثرهنّ رواية للغناء والشعر. فأخذت الغناء عن بذل وأكابر المغنين في عصرها مثل فُلَيْح وابراهيم الموصلي وابن جامع واسحاق ونظرائهم. ونبغت في الغناء حتّى كانت كثيرا ما تفوز على ابن جامع ، وتغني غناء ابراهيم الموصلي فتحكيه حتّى لا يكون بينهما فرق ، وقد نُسب إليها كتاب في الغناء. وممّن شُغفوا بها الرشيدُ ، فجعل يكثر المصير الى مولاها يحيى البرمكي وكان يقيم عندها ويبرّ ويفرط. فلما علمت أم جعفر زبيدة خبره شكته إلى أهله وعمومته ... ظلت دنانير موالية للبرامكة حتّى آخر عهدها بالحياة . فأمرها الرشيد بعد قتله البرامكة أن تغنّي بين يديه فعصته فأمر بصفعها ثم رقّ لها فأطلقها . وخُطبت للزواج فأبت ولزمت حالها إلى أن توفيت.

دنانير وأمراء من البيت العبّاسي حضور، فاستخفّهم غناؤها وطـَربوا، واقتنعت زبيدة وأهدت له ، تكفيرا عن سوء ظنّها، عشرا من أكثر الجواري حسنا.

سيلد عـدد من تلكم الجواري للرّشيد أطفــالا. أمّا مَرَاجِل ، وأصلهـا من جهة هَرَاة[49]، فستُنجِب له عبد اللـه وذلك ليلة القدر الشهيرة ، وسيكون عبدُ اللـه هذا المأمونُ[50] الخليفةَ العظيم وسيقتُل أخاه الأمينَ [51] الذي كانت أنجبته زُبيدة والذي سيكون له أكبرَ مُشاغبٍ على الحكم. وأمّا مَارِدة[52]، وأصلها من بلاد السّغْد[53] فستلد له خمسة أطفال منهم المُعتصم[54] الذي سيرقى إلى الحكم ويخلف المأمون. كان هارون مفتونا بمَارِدَة ، والكتب تروي الكثيرمن أخبار خصوماتهما الغرامية ومساعي الشـّعراء لإصلاح ذات البين بينهما.

تسلّلت نساء أخريات – وعددهـنّ كثير – إلى حياة أمير المؤمنين وأقضضن على زبيدة مضجعها. فدخلت ذات يوم ، وقد أفزعها ما كانت تلقاه إحدى المنافسات من الحظوة لدى الرّشيد ، على عُليّة[55] أخت الخليفة وسألتها المساعدة ؛ فوعدتها عُليّة بأن تردّ إليها زوجهـا القُلُوب. فصنعت لها، وكانت شاعرة ، بيتين صاغت فيهما لحنا وضمّنتهما

---

(49) * انظر ص 20 رقم 36 .

(50) * المأمون ابن الرشيد : سابع خلفاء بني العبّاس . كانت ولايته 20 سنة (813 - 833/198 - 218هـ). تُوفّي وعمره 47 سنة.

(51) * الأمـين ابـن الرّشيد . سادس خلفاء بني العبّاس . دامت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر (809-813 / 194-198 هـ). تُوفي وعمره 28 سنة.

(52) * مَارِدة ، جارية هـارون الرّشيد ، من فواضل نساء عصرهـا ، ذات حسن وجمال وإلمام بالشعر والأدب ، كان الرّشيد يحبّها حبّا عظيما حتّى غلبته على أمره.

(53) * السّغْد أو الصّغْد la Sogdiane . أراضٍ في أواسط آسيا تمتدّ من نهر أكْسوس (أمُودَاريا اليوم) إلى نهر يَكْسَرْت (سيرْدَاريا اليوم) ، والسّغْد أمّة ايرانية الأصل كانت تقطن بلاد السّغْد ودخلت في طاعة الفرس على عهد داريوس (القرن 5 ق م)، ذكرها البيروني مع الخوارزمية باسم شعوب ما وراء النّهر.

(54) * المعتصم ابن الرّشيـد : ســابع خلفــاء بني العبّــاس. دامت خلافته ثمــاني سنـوات وثمــانية أشهـر (833-842 / 218-228 هـ). مات وعمره 38 سنة .

(55) * عُليّة بنت المهديّ بن المنصور، أخت الرّشيد (777-825 / 161- 210 هـ) : أديبة شــاعرة تحسن صناعة الغناء ؛ من أجمل النّساء وأظرفهنّ وأكملهنّ فضلا وعقلا وصيانة. كان أخوها ابراهيم يأخذ الغناء عنها ، وكان الرّشيد يبالغ في إكرامها ويجلسها معه على سريره وهي تأبى ذلك وتوفيه حقّه ؛ تزوّجها موسى بن عيسى العبّاسي ، لها ديوان شعر وفي شعرها إبداع وصنعة.

ما معناه · «حتى ولو سلبوا مني قلبي فلن يقدروا أن يحولوا بيني وبينه»[56]. ولما أقبل الليل وخرج الخليفة فجلس كعادته يستريح في بعض أفنية القصر ، طلعت عليه جواري الأميرتين وغنّين اللحن وهو يستمع ، فتأثّر وعاد إلى زبيدة بعد أن أغدق على الجواري آلاف الدراهم·

ذاتُ الخال ، سِحر ، ضِيَاء ، هَيْلاَنة الرّومية··· أمّا الأولى، وهي التي اشتراها الخليفة بثلاثين ألف درهم ، فقد فَقَدت يوما خالها في شجار لها مع جارية أخرى من جواري الحرم ، حسدتها على إفراط هارون في التّردّد عليها ، فانتقمت منها ذات الخال وعضّت لها أنفها فكادت تقطعه ،وانتهى كلّ شيء بشعر ولحن غنّاه ابراهيم المَوْصِلي[57]. ثمّ كانت هناك عِنَان ، القينة الشاعرة التي جُلبت من جزيرة العرب بعد تخريجها في الغناء والتي عزّ على الرّشيد شراؤها لارتفا ع الثمن الذي كان يطلبه فيها بَائعها ! وكانت هناك أيضا، بعد ذلك بمدّة ، رومية أخرى لكن أصلها من هِرَقْلَةَ وكانت سُبِيت أثناء الغارّة التي شُنّت على هذه المدينة[58].

وسط هذا العدد الكبير من حسان الجواري المغريات ستستطيع زبيدة – والحال أنها تقدّمت في السّنّ – أن تتحدّى المنافسة وأن تحافظ على حبّ هارون وعطفه وتقديره· كانت تثير فيه الإعجاب بجودة ذوقها وسعة خيالها وأناقة بيتها ، وأيضا بمدى ورعها وتقاها· من ذلك ، مثلا ، أنّ مائة من إمائها كنّ يتناوبن ، عشرا بعد عشر، لتلاوة القرآن كامل اليوم·لا محالة هي تنفق بلا حساب على اللوازم التي يقتضيها تزيّنُها واللطائف

---

(56) * والبيتان اللّذان صنعتهما عُلَيّة هما ·

مُنْفَصِـلُ عَـنِّـي وَمَـا قَـلْبِيَ عَنْهُ مُنْفَـصِـلْ
يَا قَاطِعِي الْيَوْمَ لِمَـنْ نَـوَيْـتَ بَعْـدِي أَنْ تَصِـلْ
[من مجزوء الرجز]

(57) * إبراهيم المَوْصلي (742-804 / 125-189 هـ) : موسيقيّ ومغنٍّ من أشهر فناني العرب· أصله فارسيّ ، وُلد بالكوفة وتُوفّي ببغداد · برع في الغناء والعزف على العود· حظي بمنادمة المهديّ والهادي والرّشيد، واشتهر بعده ابنه اسحاق الموصليّ·

(58) * خرج إليها الرشيد بنفسه غازيا سنة 802 (187 هـ) ردّا على مكتوب ارسله إليه صاحب الرّوم اثر نقضه الصلح ، قال فيه · « من نقفور ملك الرّوم إلى هارون ملك العرب ، اما بعد ، فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل امثاله إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهنّ ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل لديك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك· وإلاّ فالسيف بيننا وبينك »· فشخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هِرَقْلَة ، ففتح وغنم ، واصطفى وأفاء ، وخرّب وحرق واصطلم (الملوك ، 8 ، 308) .

التي يتطلّبهـــا تلهّيها، كامتلاكها لقرد يرعاه ويتجوّل به ثلاثون من الغلمان، ممّا سيؤدّي إلى امتعاض أحد القوّاد وإجهازه بالسّيف على القرد وقطعه إلى نصفين. لكنّ برّها وسخاءها لا يعرفان حدّا ؛ ففي الصّفحات المطوّلة المخصّصة لذكر مآثر أمراء البيت العبّاسيّ وأميراته ، يتحدّث المسعوديّ عن «آثار زبيدة التي لم يكن في الإسلام مثلها» ويصف «من فعلها وحسن سيرتها في الجدّ والهزل ما برّزت فيه على غيرها »... مضيفا أنّ «جملة ما أنفقت على ما تقدّم ذكره من المصانع والدّور والبرك والآبار بالحجاز والثّغور ألف ألف وسبعمائة ألف دينار... دون ما كان في وقته من البذل وما عمّ أهل الفاقة من الخصب والمعروف».

الآن وقد أشرف هذا القرن 8ً (2ًللهجرة) على النّهاية ، غدا الرشيد ، وهو سيّد الشّرق بلا منازع ، أعظم وأثرى عاهل في العالم المعروف إذاك . فهذا الخليفة الذي ذاع صيته إلى أقاصي المعمورة يعيش في قصره على شاطيء دجلة في بذخ لم يُسمع بمثله من قبل ، محاطا بمئات النّساء والأمراء والموظّفين والشّاكرية[59]. فكلّ هذا الملأ من النّاس يتحرّك ويتآمر أو يلهو ويمرح في جوّ متناهي الفظاظة ومفرط التّرف ، أبلغتنا عنه تآليف العصر وأقاصيصه أخبارا، الرّاجح أنها أصداء للحقيقة. فقد يُعطَى المنشدُ لبيتين الآلاف من الدراهم وأحيانا من الدّنانير؛ أو ما تكاد القينة الحسناء ، وقد شُريت من سوق الرقيق ، تدخل حرم أمير المؤمنين، حتّى تُلبّى لها حالاً أشد نزوات الطّيش جنونا. ويزدهر في ذلك الملأ ، فيزكُو بين كنوز نادرة من البهاء ، أكثر ضروب الصبابة براءة وأشدّها فحشا. لكنّ مسرورا السّيّاف ، "حامل حسام النّقمة" لا يتخلّف عن مرافقة هارون ، الخليفة المحبوب وهو يتجوّل ليلا ببغداد لتفقد أحوال الرعية ، بل أيضا الخليفة المحبوب وهو يأمر أحد بنيه بضرب عنق بعض المساجين لاختبار قدرته على مسك مقبض السيف...

مـــــلايين من الدّراهـــــم

في سائر الأيّام يُدخل الزّائرون للقصر لابسين البياض، لكنّهم مطالبون في المناسبات الاحتفالية بلباس السّواد، لون الدّولة العبّاسية. فالزّيّ الإلزاميّ هو القَبَـاء ، وهو شبه سترة ذات كمّين تنزل إلى ربلة السّاق ، والقَلَنْسُوّة وهي طاقية طويلة من قماش أو فرو، والسّيف والنِّطَاق. وفي مثل تلك المراسم، يلبس الرشيد الدُّرَّاعة وهي جُبّة واسعة ذات كُمّين، مشقوقة المُقدَّم تزرّر من الأمام وتُخاط من حرير أو صوف مُقصّبا بالإبريز، وعلى

(59) * الشّاكري : كلمة من الدّخيل ، أصلها فارسي ومعناها الخادم والأجير.

رأسه قلنسوّة حولها عمامة ، وعلى كتفيه بُرْدَة الرّسول ، وبيده قَضيبُه وسَيْفُه. والاقتبالات تُنظّم بمناسبة توزيع جوائز على مستحقّيها أو إسناد خطط لأصحابها أو تكريم قائد مظفّر عائد من القتال . وأعظم الاقتبالات بذخا وفخامة ما كان يقام احتفاء بمقدم رسول يُراد إبهاره إبهارًا حتّى يؤوب إلى بلاده ويخبر سيده بعزّة أمير المؤمنين .

من بين ما نُظم بقصور بغداد من الاحتفالات لم يَفُق حفلٌ فخامةً وإشراقًا حفلَ زواج المأمون ابن الرّشيد من بُورَان[60] ابنة الوزير الحَسَن بن سَهل[61]؛ فقد كَلّف هذا الزّواجُ الحسنَ ، والد العروس ، مبلغا هائلا من المال يساوي 50 مليون درهم ؛ وبنفس المناسبة أنفقت زبيدة 35 مليونا وأميرة أخرى 25 مليونا، ويروي مؤرّخو ذاك العصر أنّ الحسن أمر بإلقاء بِدَر من المسك إلى المدعوّين ، الواحدة في حجم بطّيخة وتحوي رقعة عليها اسم عقار أو عبد أو أمة ، الخ. وكان يكفي للمدعوّين أن يقدّموا الرقاع للموظّف المكلّف بالتّوزيع لكي يتحصّلوا على الهدايا، وبعضها يمثّل ثروة حقيقية. كما أُلقِيَ الجوهر بالحفنة عند رجلي العريس ، وما كان على المدعوّين إلا أن ينحنوا نحوه ليلتقطوه. وأخيرا أفرَغت جدّةُ العروسة علي حفيدتها ملء طبق من الدرّ الدّقيق النّاعم ، وعبّأ المأمون نفس الطّبق جوهرا وقدّمه لتلك التي أضحت يومئذ زوجته. وبمناسبة هذه الزّيجة أهدت زبيدةُ بورانَ صُدْرة مشهورة كانت على ملك عَبْدة زوجة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وكانت أزرارها من الماس والياقوت. دامت الحفلات سبعة عشر يوما ووُزّعت أثناءها كميات هائلة من نقود الذهب والفضّة وبِدَر المسك والعنبر على سائر الحاضرين .

إنّ الاحتفالات التي نُظّمت عند تولّي المهديّ الخلافة قد أوجبت نفقات كانت من

---

(60) * بُورَانُ بنت الحَسَن بن سَهْل (807-884 / 192-271 هـ) : زوج المأمون العبّاسيّ . من أكمل النّساء أدبا وأخلاقا ، اسمها خديجة وعُرفت ببُورَان ، بنى بها المأمون في فم الصّلح وتوفّيت ببغداد ، وليس في تاريخ العرب زفاف أنفق فيه ما أنفِق في زفافها على المأمون سنة 824 (209 هـ) ، وللشّعراء في وصف تلك الليلة شعر غير قليل . وفي القاموس : البُورانية (بضم الباء) طعام ينسب إلى بُوران بنت الحسن.

(61) * الحَسَن بن سَهْل بن عبد الله السَّرْخَسي (782-851 / 166-237 هـ) : وزير المأمون العبّاسيّ، وأحد كبار القادة والولاة في عصره .اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة وحسن التّوقيعات والكرم. وهو والد بُوران زوجة المأمون ، وكان المأمون يجلّه ويبالغ في اكرامه وللشّعراء فيه أماديح. أصيب بمرض السّوداء سنة 800 (185 هـ) فتغيّر عقله حتّى شُدّ في الحديد ثم شُفِي منه قبل زواج المأمون بابنته وتوفي في سرخس من بلاد خراسان. وهو أخو ذي الرياستين الفَضْل بن سهل ، كانا من أهل بيت رياسة في المجوس وأسلما هما وأبوهما سهل في أيّام الرّشيد.

الإفراط بحيث أفرغت الخزينة ردحا من الزّمن. وبقيت كذلك عالقةً بالأذهان الحفلاتُ التي أقامها المتوكّل بعد ذلك ببضعة عقود بمناسبة ختان أحد أبنائه والتي حضرها أربعة آلاف من المدعويّين. كانت المقاعد وآلة الشّراب فيها مكلّلة بالحجارة الكريمة وكانت تُجَال أطباق ملأى نقودا ذهبية يغرف منها الحاضرون ملء أكفّهم ، ومن كان يرفعها من الخدم ينادي : أمير المؤمنين يقول لكم : « خذوا ما شئتم ». وفيها أعطِيَ الحشمُ والخدمُ مليون درهم ، وخُلع على كلّ مدعوّ ثلاثُ خِلَع ، وأسرِجت ألفُ دابة من خيول وحمير لنقل الهدايا إلى منازل أصحابها ، وكان جملة ما أنفقه الخليفة على هذه الاحتفالات 86 مليون درهم.

على عهد الرشيد ، خاصّة بعد ما نجح بنو برمك في تنفيذ سياسة أفاد منها بيت مال الخليفة ، كانت الحياة اليومية في القصر تجري بنفس المقدار من البذخ. لقد بات القوم بعيدين عن قوله [تعالى] : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ... ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْط» (قرآن، 17)[62]، يشربون في كؤوس من ذهب ' فزبيدة لا تأكل إلا في أوان من إبريز، بملاعق من ذهب أو بلّور على موائد كسيت بورق الذهب أو الفضّة. وكان لا يُرى داخل الحرم إلاّ أحسن الطّرَف وأغلاها ثمنا : من خزف صيني وآنية من ذهب وفضة.

إنّ الروايات التي تركها لنا الأخباريون والأوصاف التي أوردها كتاب ألف ليلة وليلة في الحكايات التي اتّخذت بغداد إطارًا لها هي بلا ريب صدى أمين لواقع الأحـداث « ... قَدّمَت لهم الطشت وإناء الذهب مملوء ماء لغسل أيديهم ثمّ أتتهم بإبريق عجيب مرصّع بالياقوت والألماس... وبعد ذلك جاءتهم بطيب المَقْر في مجمرة من ابريز». أو : « جيء بالمدام وسقوهم في أكواب من ذهب وفضّة وبلّور... وكان غلمان يرشّون النّدامى بماء الورد والمسك بمرشّات الذهب المرصّع بكريم الأحجار».

كانت زبيدة ، وهي التي اتخذت الخِفَاف المرصّعة بالجوهر وشمع العنبر ، ترزح تحت ثقل حليها إلى حدّ أنّها غدت في بعض الأحايين لا تقدر على احتمال البقاء قائمة على رجليها إلا بمساعدة أمَتين . وكانت تُحملُ في قِباب من أبنوس وصندل كلاليبها من ذهب وفضّة ملبّسة بالوشي والسّمور والدّيباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق. وقد اتفق لها أن ملأت دُرًّا فم شاعر مدحها فأجاد مديحها، وقد كانت الخيزران تعيش في فرط كهذا من الترف. وكان يُصنع لزبيدة الرفيع من الملابس حتّى أنّ ثوبًا مُوشًّى اقتنته لنفسها بلغ خمسين ألف دينار... وعند وفاتها وُجد في خزائنها 18.000

---

(62) * الآيات الأربع المستشهَد بها من سورة الإسراء هي : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ، وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا، وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » (قرآن ، 17 ، 25-28).

من الثياب . فشراء الثوب بألف دينار[63] لم يكن عندها بالأمرالنّادر؛ وما يقتنيه الأمراء من الملابس – وكم كانوا يقتنون ! – كان ثمن الواحد منها 500 دينارعلى أقلّ تقدير.

حرير ، ديباج ، مُخمَل مُوشّى بالذهب والدرّ ، ولكن أيضا عطور رفيعة كان من اللازم ملاءمتها مع اللّباس لأنّ استعمالها كان يخضع لشروط دقيقة . فكان يُخلط المسك المسحوق بماء الورد ، ويخلط المَقر بالقرنفل ، وتُرش الثّياب والأرض بعنبر البحرين وزيت الورد ، وقد يُعَطَّر به الميت ويُحرَق في مبخرات جميلة الشكل ومصنوعة من معادن نفيسة ، وقد يُفرّق على الندامى في المجالس . فكلّ شيء يفوح منه الطّيب : اللّباس والطعام وحتّى قاعات القصر، فكأنما كان لا يُستنشق فيها إلا الشّذى . وكانت أصناف ما يُتصمّغ به من الطيب كثيرة : « فالبخور والجاوي والعطور تتضوّع رائحتها في الإيوان، وكذلك ماء النـّور وماء الزّهر الذي كنا نُنفضه على رؤوس الضيوف... ولن أنسى أيضا عبيق زيت العطر وما كانت تبثه مجمرات الفضة من أريج »[64].

في القصر كان الرجال والنساء يلبسون الحلي : يلبسونه خواتم في الأصابع وقلائد في الأعناق. أمّا الثياب فيقصبّونها بالذهب والفضّة ويُحَلّونها تحلية رائعة باليواقيت والألماس والفيروز والعنبر. وكلّ ما يوشّحون به رؤوسهم من العصابات كان مطرّزًا بالجواهر والأحجار الكريمة ، وهكذا يتبارى في الأناقة والإنفاق جميع من شملهم حشم الخليفة وحاشيته من رجال دولة وأمراء وأميرات وحظايا . والبرامكة هم الذين كانوا قدوة في الإقبال على الترف المفرط ؛ فكان جعفر يرمي بملء حفنتيه نقودا من الذهب إلى الشعراء والمغنين ، ويسكن قصرا يفوق – أو يكاد – قصر الخليفة بذخا[65]، ولا يتردد في صرف مبالغ باهظة جدا لاقتناء أثواب أو طرفات أعجبته ؛ وكان كبار الأعيان وأغنياء التّجّار يتأسّوْن به ، كلاًّ على قدر طاقته .

زمرة المحظوظين من بطانة الخليفة

كلّ من في تلك الحاشية وذلكم الحشم من رجال ونساء كان يُحال بينهم وبين الخليفة بمراسم صارمة ، فلا تُخوّل لهم مخاطبته إلاّ مُنحنين بين يديه ومقتصرين على

(63) سنعود إلى الأقمشة في الفصل الثامن ، ص 271 .

(64) ألف ليلة وليلة .

(65) بُنِي هذا القصر على الضفّة الشّرقية لنهر دجلة وأُنفِق على بنائه عشرون مليون درهم .

الإجابة عن أسئلته ، فلا حقّ في الدّخول عليه والتّحادث معه ، بل وفي التّناقش معه إلاّ لنفر قليل من خاصّة أصحابه : أي لندمائه .

سبق أن جلب الأمويّون إليهم – والسّاسانيون من قبلهم – ذوي الحجى من الأتباع ؛ فكان كلٌّ من السّفّاح – أوّل خلفاء بني العبّاس – وأخيه المنصور بعده ، كثيرا ما يدعو جماعة من خاصّته إلى القصر لمجالسته ، لكنّ ستارا كان يحجبه عنهم . والمهديّ هو أوّل من اختلط بمن دُعي إلى مجلسه من الأصحاب ، لكنه كان يحجِّر على ابنيه الهادي وهارون مجالستهم مهدّدا من عصى أمره منهما بجلده بالسياط . وعندما ولي الهادي الخلافة دعا جلاّسه الى منادمته ؛ أما الرشيد فكان أول من صيّر المنادمة مؤسسة رسمية ، فعمل على تقريب من يأنس عندهم كفاءات في دنيا الأدب والعلم والفن والعلم والفقه ، ورتّبهم طبقات وأجرى عليهم الأرزاق . فكان الندماء في منزلة الوجهاء من رجال الدولة ، وإن اقتصرت مهمّتهم على المجالسة والتسلية . فعلاوة على ما يسديه إليهم من الأعطية ، كان يجود عليهم بأموال وفيرة كلما أطربه أحدهم وأثار إعجابه : من ذلك مثلا أن إبراهيم الموصلي نال 4.000 درهم دفعة واحدة جزاء له على لحن من ألحانه .

يُطالَب النديمُ بالتفكيه دون رفث ، والتعليمِ دون تحذلق ، والجمعِ بين الجدّ والهزل ، والقدرةِ على تحديث الخليفة في كلّ المواضيع والفنون – بما فيها فن الطبخ ، وقد لا يقتصر فيه دور النديم على التحديث ، بل يتعداه حتى الى الممارسة ممارسة فعلية إن لزم الأمر[66] – ؛ ومن الخلال المستحَبة أيضا لدى النديم أن يُجيد لعبَ الكُرّة والصَّيْدَ ورميَ الأغراض ولعبَ الشطرنج بالخصوص[67]؛ وكان الرشيد أوّل من لعبه وقرّب الحُذّاق فيه ، على ماروى المسعودي . قيل : « لا سبيل للعيش دون لهو، وخيرُ لهو للملوك الشطرنج » ؛ ولقد لعب الرشيد مع ندمائه النـرْد ، ويُحكى أن الأمر ذهب به إلى حدّ المراهنة فيه ذات يوم بثيابه ، فخسر فأُجبِر على خلع ما كان عليه منها حتى آخره .

كان الندماء يزورون الخليفة مرّات في الأسبوع ؛ فإذا جَنّ الليل اجتمعوا به –

(66) سيُعطي المتوكّلُ يوما أحدَ ندمائه 200 دينار جزاء له على طعام أتقن إعداده .

(67) كان هارون يُجري الأرزاق على الحُذّاق من لاعبي الشطرنج ؛ وفيه يُتبارَى ، وتُقال الأسعار، وتُؤلَّف الكتب ؛ ولُعبة الشطرنج هنديّة الأصل، انتقلت الى الفرس ومنهم الى العرب ، والرّاجح أنّ النّرْد [المعروف عند العامة بالطاولة] هو أيضا من أصل هنديّ . كان على النّديم الملاعبِ للخليفة أن يكون حسن الهيئة سمح الأخلاق رفيع السلوك قويّ الحافظة سريع البديهة ؛ وقد احتفظ لنا التاريخ بأسماءِ من نَبَغ في الشطرنج من بطانته وجواريه. وكان الملوك يتهادون النفيس من هذه اللُّعْبة ؛ فمنها ما كان من بلّور الجندل ، ومنها ما كان من الحجر الكريم ، الخ . [وكلمةُ «شطْرَنْج» مُعَرَّبُ «شَتْرَنْك» الفارسية ومعناها ستة ألوان لأنّ له ستة أصناف من القطع التي يُلعَب بها فيه ، وهي الشّاه والفرزان (أوالفرز) والرُّخُّ والفيل والفرس والبيدق] .

بقاعات القصر في الشتاء وببساتينه في الصيف – وقد لبس كل منهم ثوبا خاصا ، يتمثّل في دُرّاعة فوق القميص ، وعمامة منسوجة أو مطرّزة بالذهب ؛ فيجلسون إليه سماطين ، رُبَاعَ أو خُمَاسَ من كل جانب ، مجيبين عن أسئلته ، راوين له القصصَ ، مُنشدين له الشِّعرَ ومُعاقرين معه الخمرَ. قال الجاحظ : « ومنْ حقّ الملك ، إذا حضر سُمَّارُه ومُحدِّثوه ، أن لا يُحرِّك أحدُ منهم شفتيه مبتدئا ، ولا يقطع الحديث عليه بالإعتراض فيه – وإن كان نادرا شهيا – ، وأن يكون غرضُهم حُسنَ الاستماع وإشغال الجوارح بحديثه ... ؛ وعلى المحدّث للملك أن لا يُعجِّل في كلامه ، وأن يُدمج ألفاظه ، ولا يُشير بيده ، ولا يُحرّك رأسه ، ولا يَزحف في مجلسه ، ولا يُراوح بين قعدته ، ولا يَرفع صوته ، ولا يلتفت يمينا وشمالا ، ولا يُقبِل على غير الملك بملاحظته[68]».

من أعظم النّدماء أثرة لدى هارونَ إسحاقُ بن إبراهيم الموصلي المُغنّي وقد كان أبوه هو أيضا نديما للرشيد . فعلاوة على مواهبه الفنية ، كان إسحاق مشهورا بمعارفه في التاريخ والنحو والشعر. ويُروى أنّ الرشيد قال له يوما : « لو لم تكن مغنيا لولّيتك القضاء » . وكثيرا ما وردت أخباره في كتاب ألف ليلة وليلة ؛ من ذلك مثلا قوله : « كان لأمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد جليسٌ مفضّل على الجُلاس، ونديمٌ مُقدّم على سائر الندمان، أثير عنده دون كل السُّمار، سيد المغنين وملك العازفين ، مداعب العيدان ومروّض الألحان ، ذو الصوت الفتان ، الفائق علىٌ تغريد الكروان ، إسحاق الموصلي رفيقه المحبوب، وشاعره الموهوب ، الساكن من قصوره أجملها، والنائل من نعمه أوسعها[69]» .

وكان أيضا لِمُلَح أبي العتاهية[70]، في مفاكهة هارون وتسليته ، دور لا يقلّ قيمة عن دور غيره من مشاهير النّدامى الذين أمتعوا– قليلا أو كثيرا – أمير المؤمنين بطرائف أدبهم: منهم أبو نواس[71]، أحد فحول الشّعر العربي ؛ وشعراء آخرون – وكانوا أيضا مغنّين – كالعبّاس بن الأحنف[72] وسلم الخاسر[73] ومروان بن أبي حفصة[74]

(68) الجاحظ ، كتاب التّاج [ص ص 111-112] .

(69) ألف ليلة وليلة .

(70) * أبو العتاهية (750- 850 / 133- 236 هـ) : شاعر وُلد قرب المدينة ونشأ بالكوفة وكُنّي بأبي العتاهية لحبه المجون والتعتّه ؛ كان في زمان الرشيد مقرَّبا منه ، وعاش الى أيام المأمون ؛ له ديوان وشعره سهل أكثره في الزهد.

(71) * أبو نواس (762- 813 / 145- 198 هـ) : أحد كبار شعراء العصر العباسي . وُلد في الأهواز وتعلم في الكوفة على أبي زيد وعلى العرب في البادية . قضى عزّ حياته في بغداد مُقرَّبا الى الرشيد والأمين والمأمون واتصل بالبرامكة . عاقر الخمرة وأسرف في اللهو ، ثم تاب في آخر أيامه . له ديوان مطبوع ومترجم الى عديد اللغات .

(72) * العبّاس بن الأحنف (?-808/?-193هـ) · شاعر هارون الرشيد ورفيقه في حملاته على خراسان وأرمينية . له ديوان أكثره في الغزل يشهد لصاحبه برقّة العاطفة وحسن الذوق وقوة الإبتكار.

كان لابراهيم[75]، وهو أخ غير شقيق لهارون ، مكانة خاصة في بطانته ؛ وسيكون له مصير متميّز إذ سيرتقي بدوره عرش الخلافة وإن كان ذلك لفترة قصيرة .

كان ابراهيم وأخته عُلَيّة قد تلقّيا تربية على درجة عالية من الكمال ، فأصبحا مغنّيَين وعازفَيْن لم يُسمع بمثلهما في الجاهلية ولا في الإسلام ؛ وكان هارون ، وهو أكبر منهما سنا ، يحبهما حبا شديدا . فبعد أن عَيّن إبراهيم واليا على دمشق ندم على مفارقته اياه واستقدمه إلى بغداد وألحقه بخاصته، وكان يحب الاستماع اليه ولا يملّ من ذلك ، لكن بمعزل عن عموم الناس، لأنه لا يليق بأمير من بيت الخلافة أن يغنّي بحضورغيرأهله وذويه. كان لأرستقراطية بغداد، ولبقية طبقات المجتمع العراقي، ولع شديد بالشعر الغنائي[76]؛ وكانت طائفة من الناس تنحاز الى شاعر وثانية الى آخر، مثلما كان الشأن في قِيَنّا أو العواصم الصغرى من ايطاليا خلال القرن 19م (13 للهجرة) وكان كبار المغنين ، كإسحاق الموصلي ، يوضَعون في مرتبة عظماء الدولة. والرشيد نفسه ، وهو المُغرَم بالغناء ، كان شَغِفاً بأشعار أبي نواس وأبي العتاهية ، يُغنيها أخوه وتصحبه القِيان بالأصوات والعيدان والمزامير. أمر هارونُ ابراهيمَ يوما، وكان حاضرا مجلسَه ، أن يغنّي في شعر للأحْوَص[77] أمام نفر من نُدمائه لم يسبق لهم أن استمعوا اليه ؛ فأُعجِب الخليفة بغنائه ، ولفرط ما اشتدّ به الطّرب أمر له بألف ألف درهم تُصرف له حالا : والرّاجح أنّ هذا الخِدَبَّ ، العظيم الجثة ، الحالك السّواد، العجيب الأطوار، السّخي اليد، قد أنفقها في اليوم نفسه.

---

(73) * سَلْم الخاسر (?- 802 / ?- 187 هـ) : شاعر من الموالي خليع ماجن ، نشأ بالبصرة وعاش ببغداد . له أخبار مع بشار بن بُرد وأبي العتاهية ، وله مدائح في المهدي العباسي وابنه الرشيد ، وشعره رقيق رصين . قيل : سُمِّي الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى طنبورا .

(74) * مروان بن أبي حفصة (723-798 / 105-182 هـ) شاعر عالي الطبقة ، كان جده ، على ما يُروى ، طبيبا يهوديا أسلم على يد مروان بن الحكم فصار من مواليه ؛ نشأ باليمامة في العصر الأموي ، وأدرك العهد العباسي ، فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد وتقرب الى هذا الأخير بهجاء العلوية . كان رسمُ بني العباس أن يعطوه عن كل بيت يمدحهم به ألف درهم، فجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة .

(75) كان ابرهيم أخا لهارون من أبيه ، أنجبته أمّ ولد اسمها شَكْلَة (أنظر ص 38 رقم 93). أما أخته عُلَيّة التي تكبره بسنتين فهي ابنة حظيّة أخرى .

(76) كان المحافظون من المؤمنين يستنكرون الموسيقى ويعتبرونها غير متماشية والعمل بأحكام الدين .

(77) * الأحوص (?-808 / ?-193 هـ) : شاعر حجازي ، وُلِد بالمدينة ، وتوفي بدمشق . قيل إنه كان يُشبِّب بالنّساء الشّريفات ، فسُجِن ونُفِي الى جزيرة بين اليمن والحبشة كان بنو أمية ينفون اليها من يسخطون عليه . هو من طبقة جميل ونُصيب ، ومعاصر لجرير والفرزدق ؛ كان لاذع الهجاء ، يهابه الناس لذلك ، وكان حمّاد الراوية يُقدّمه في النسيب على شعراء زمانه .

كان ابراهيم يفوق أخاه بذلا، والحال أن هارون لم يشتهر بالبخل ولو قليلا ... وكان يُسرف في إنفاقه الى حد أن الرشيد استشاط منه يوما غضبا ؛ وذلك أنه زار الرَّقّة وقد استضافه فيها أخوه ، فجلس للطعام وكان يأكل الحارّ قبل البارد ؛ فلما وُضِعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جامُ قُرِيص مثل قريص السمك ، فاستصغر القِطَع وقال: « لِمَ صَغَّر طبّاخك تقطيع السمك ؟ » – فقال ابراهيم · «يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السّمك» – فقال : « يشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان» – فقال مراقب خادمه : «يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين » . فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يَطعَم شيئا دون أن يُحضره ألف درهم ؛ فلما حضر المالُ أمره أن يتصدّق به ، وقال : « أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جامِ سمكٍ ألفَ درهم » ؛ ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : « اخرج من دار أخي ، ثم انظر أوّل سائل تراه فادفعه إليه »[78].

كان ابراهيم مفرط الخُيَلاء كثير الحسد لسائر الفنانين على ما كان لهم من حظوة لدى الخليفة ، يلاحق بفظاظةٍ نقمته من كان يُثنَى عليه من المغنين والعازفين من ندماء أخيه ؛ وكان ، على وجه الخصوص ، يكنّ حقدا عظيما لإسحاق وأبيه . ومع هذا ، فانه لما ولي الخلافة لم ينتهز – مدة حكمه القصير – ما كان له من سلطة للإنتقام لنفسه كفنّانٍ . فرجع هذا الرجل ، الغريبةُ أطواره ، والذي لم تُلطّخ يديْه إراقةُ الدماء ، الى منزلته السابقة – نديما بين الندماء – وانتظم في بطانة المأمون ، ابن أخيه الرشيد ، وقد عفا عنه وغفر له استيلاء ه على الحكم غدرا .

يختلف جعفر البرمكي عن ابراهيم تمام الاختلاف ؛ فهو أقرب الناس إلى هارون وأفضل من يصافيهم الودّ – ولو ادعوا أنه ودّ من نوع خاصّ على ما قيل ، ولكن لا وجود لما يؤيّد هذا الادّعاء – . كان ابراهيم ضخم الجثة[79] كريه الهيئة ، وكان جعفر ممشوق القدّ، في وجهه حسن كذاك الذي يصفه إبراهيم في شعر له إذ يقول :

كَأَنَّ صورَتَهَا في الْوَصْفِ إِذْ وُصِفَتْ ... دِينَارُ عَيْنٍ منَ الْمصْرِيَّةِ الْعُتُقِ
أَوْ دُرَّةٌ أَعْيَتِ الْغَوَّاصَ فِي صَدَفٍ ... أَوْ ذَهَبُ صَاغَهُ الصَّوَّاغُ فِي وَرَقِ

[من البسيط][80]

---

(78) عن المسعودي [مروج ، 3 ، 397].

(79) * قال عنه ابن خلّكان : « كان مع سواده عظيم الجثة ، ولهذا قيل له التنّين » (وفيات ، 391).

(80) * رواها أبو الفرج فكتب . قال لي (والمتكلم هو ابراهيم بن المهدي) الرشيد ليلة ولم يبق في المجلس الاّ جعفر بن يحيى : « أنا أحب أن تُشرّف جعفرا بأن تغنّيه صوتا » ؛ فغنّيته لحنا صنعته في شعر الدرامي » ؛ قال أبو الفرج : الشعر للدرامي والغناء لمرزوق الصوّاف ، رمل بالبنصر عن ابن المكي (الأغاني ، 10، 99 - 100) .

ولما سمع جعفر البيتين ، على ما قيل ، هزّه الطرب حتى انتشى .

اشتهر جعفر بسلامة ذوقه وتنوُّقه الشديد في الملبس ، مما جعل الناس يعتمدون رأيه ويحتكمون إليه في اختيارالدُّرْجة (المُوضة ، أي الزّيّ الرّائج) ؛ فهو الذي روّج دُرْجة الأطواق لأنه لبس طوقا يكسو عنقه وكان فيه شيء من الطول . وهو الذي جعل منه القصّاصون رفيقا لهارون إذا خرج ليلا يتجول في شوارع بغداد ، « وقد ضاق منه الصدر » – أي اعتراه الضجر والسّآمة – أو «شاء التعرّف على سيرة العمال والولاة لكي يعزل منهم من يتظلّم منه الناس » .[81]

فجعفر مساعد للخليفة ، وهو في آن واحد رمز لعهد سادت فيه المملكة العدالةُ والرخاء ؛ فهو بالتالي – مع أبيه يحيى – أقرب الناس إلى هارون وأعظمهم تأثيرا عليه ؛ وسيظلّ هكذا إلى أن يحين وقت الاستغناء عن البرامكة والفتك بهم . فقد كان واسع الثقافة ، حسن الخط ، ضَلِعاً بالفقه ، فكهًا لبيبًا ، ذا أدب وفصاحة ؛ وكان ميله للهو يتلاقى مع ولع هارون بالمجون منذ بداية عهده ، لذلك توثقت بينهما أواصر المودّة ؛ فأسكنه الرشيد جناحا من أجنحة قصر الخُلد ، وظلّ يعاقره الخمرة كل ليلة تقريبا . كان إدمانهما للشراب – والرشيد يشرب مرتين في الأسبوع على الأقل[82] – كثيرا ما يجمعهما مع سائر الندماء والجواري والقيان حول آلة الشراب في مجالس قد تنقلب إلى سَكْرات ولا تمنع مع ذلك جعفرا – وكانت له طاقة نادرة تخوله السرعة في إنجاز الأمور والصبر على الإرهاق – من النهوض باكرا لأداء ما تفرضه عليه خطته من مهام .

وسنرى فيما بعد أن هارون سيعيّنه واليا على مصر ويوفده إليها لقمع الاضطرابات؛ لكن جعفرا كان يضطلع بمهام أخرى في البلاط حيث كان يجلس مع أبيه للمظالم وردع التجاوزات . وانقضت سنوات عديدة وهو ماسك لخاتم الخلافة ومشرف على حرس القصر والبريد ودار السكّة (حتى أن بعض النقود ستضرب باسمه) ودار الطِّراز – وهي المؤسسة التي تكاد تنفرد بنسج الأقمشة السلطانية وتطريزها – ؛ وفي تأديته لكل هذه المهام ، سيبرهن على مقدرات عالية في التنظيم وذكاء حادّ وشعور عميق بالمسؤوليات ؛ وحسبما رواه ابن خلدون فقد « كان له الإشراف العام على حكومة البلاد وإدارتها[83] » . وأخيرا ،

---

(81) ألف ليلة وليلة .

(82) حسبما جاء في " كتاب [التاج في أخلاق] الملوك " أنّ الرشيد « لم يره أحد قطّ يشرب ظاهرا » [(ص 259)] وأنه « كان لا يحضر شربَه الاّ خاصُّ جواريه » [(ص 8)] .

(83) عن ابن خلدون [المقدمة ، الباب الرابع والثلاثون في مراتب الملك والسلطان وألقابها· الوزارة ص 427 ، وقوله الذي لخصه المؤلف هو : « فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف =

عندما أخذ هارون البيعة بولاية العهد للأمين ابن زبيدة ، وعيّن المأمونَ أخاه الأكبر[84] وليّا ثانيا للعهد، وُضِع هذا الأخيُر في حِجر جعفر، حتى غدا الناس يضربون به المثل في بغداد ويقولون : « فلان غنيّ كجعفر» . ويُروى أن المغنّي ابراهيم الموصلي كان يوما بحضرة هارون وجعفر، فرأى بستانا جميلا وشاء ان يتجوّل فيه ؛ فسأل الرشيدُ : « أهو للبيع ؟» – فقيل له : «نعم» – فقال : «ما ثمنه ؟ » – فقيل له : «14.000 دينار». فأنشد إبراهيم شعرا بين يدي الخليفة فأمر له بالمبلغ المطلوب وزاد عليه جعفر 5.000 دينار. كان مقدار جوده لا يقلّ مستوًى عن مقدار البذخ الذي كان يعيش فيه ؛ وقد أهدى – بإشارة من ابراهيم بن المهدي – قصرَه الفخم للمأمون ، الأمير الصغير الموكول لنظره ، بعد أن أنهى بناءه بقليل، وكان في هذا أشدّ حذرا من فُوكيه[85]. كان مولعا بالغناء والشّعر، يعزف على الآلات ، ويدعو إلى منادمته خيرة الشعراء والمغنين والمغنيات ، ويُجزل لهم العطاء ، ويذكرهم بالخير لدى الخليفة ، ويذود عنهم كلما حاول الخصوم السّعاية بهم ، حتى أن أحدهم – وهو أبو زَكَّار[86] – ذهب به الأمر الى حدّ أنه أقدم على طلب المشاركة في محنة سيّده عندما أمر الرشيدُ بضرب عنقه .

= والقلم ، ... حتى لقد دُعِي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلاّ الحجابة التي هي القيام على الباب فلم يكن له لاستنكافه عن مثل ذلك »] .

(84) * لا الأصغر كما كتب ذلك أ. كلو . لنستمع الى الطبري يجزم لنا أن المأمون يكبر أخاه الأمين بسبعة أشهر، يقول « وفيها [سنة 170 هـ] وُلِد محمّد بن هارون الرشيد؛ وكان مولده يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوّال من هذه السنة [ويكون بالتقويم الميلادي سنة 787]؛ وكان مولد المأمون قبله في ليلة الجمعة النصف من شهر ربيع الأول [ويكون بالتقويم الميلادي سنة 786] » .

(85) * ن . فُوكيه كبير وكلاء (وزراء) المالية على عهد العاهل الفرنسي لويس 14 ؛ كسب ، أموالا لا تُحصى ، وبنى قصورا فخمة ، وجمع فيها من فاخر الرياش ونفيس المتاع ما أحقد عليه الملك . فدبّت اليه عقارب السّعاية ، ووشى به الوزير كُولْبير ورُفِعت ضده قضية بتهمة اختلاس أموال الدولة ، فحُكم عليه بالسجن ومات سنة 1680 (1091 هـ).

(86) * أبو زَكَّار الأعمى المُغَنِّي الكَلْوَذَانِي الطُّنْبُوري ، محمّد بن عليّ ، ويُلقّب أبا حَشيشة (. . . – نحو 865 / ... – نحو 251 هـ) · شاعر وموسيقي دمشقي ، كان يقول الشعر ويُلحّنه ويغنّي به . غنّى، على أيّام بني العباس ، الخلفاءَ وحاشيتَهم الى المستعين . عندما دخل مسرور السّيّاف على جعفر، وقد أمره الرشيد بضرب عنقه ، كان عنده ابن بَخْتَيشُوع المتطبِّب وأبو زكّار الأعمى وهو يغنّيه ، حسب الطبري (الملوك ، 8 ، 295) :

فلاَ تَبْعَدْ فَكُلُّ فَتًى سَيَأْتِـي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَـادِي

[من الوافر]

إن ما لجعفر من دماثة في الأخلاق ، وأريحية في الطبع ، وعلوّ مقام عند الخليفة[87] كان يجعل منه أعظم أهل بغداد شُهرةً ؛ فكان السكان يهتفون له بالتحية عندما يمرّ في شوارع المدينة . والغالب على الظنّ أنّ ما أحرزه من صيت هو الذي ساعد إلى حدّ بعيد على التعجيل بنكبته .

كان الفضل[88]، أخو جعفر الأكبر ، هو أيضا من ندماء الرشيد ؛ وكان يليه في المنزلة ضمن بطانة الخليفة ، الاّ أنه يفوق جعفرا خبرة و« اقتدارا على تدبير الشؤون » . ثم إنّه كان أقلّ إقبالا منه على الملاذّ ، لايعاقر الخمر ولايحضر مجالس اللهو. وكان أيضا كثير السخاء ، يصلِ الشعراء ، ويُجزل لهم العطاء ، ويُجري على الكثير منهم أرزاقا تُصرَف لهم سنويا . فقد أعطى شاعرا هنديا ألف دينار وهجينا طِرْفا وخلعة فاخرة ، على أبيات مدحه بها ، ونال الترجمان 500 دينار على نقله الأبيات الى العربية .

كان الفضل من أهل الحجى ، أريبا حازما ، من أدقّ الخلق ذهنا وأصحّهم فكرا؛ وسيعوِّض أباه مدة على رأس الحكومة ، ويُمسك هو أيضا خاتم الخلافة قبل أن يردّه الرشيد الى جعفر. وسيبقى طويلا أحد ثقاة أمير المؤمنين ، حتى أنه سيُسنِد إليه قيادة حملات عسكرية وسيُعَيِّنُه على رأس مقاطعة شاسعة : فسيُوَلِّيه على غربي إيران – ويُروى انه ولاّه قبل ذلك على مقاطعة الرَّيّ[89] – وخاصة على خُراسان ، حيث سؤدّي خدمات ذات بال ، متوخّيا سياسة التهدئة في تلك النّواحي التي قلما عرفت الاستقرار. فقد كان على ما يُروى من ذيا ع الصّيت هناك بحيث سُمِّي – أيام ولايته – 20.000 طفل باسمه اعترافا لما كان له من الأيادي على السكان .

كان هذا الرجل الذي أرضعتْه الخيزران (فكان إذن أخا لهارون من الرضاع) شديد الشكيمة ، صعب المراس ، ذا كرم وتيه ، وكان أشد من هارون ميلا الى مصالحة

= وحسب المسعوديّ

مَـا يُرِيـدُ النَّـاسُ مِنَّـــــا   مَا يَنَامُ النَّاسُ عَنَّـــــا
إِنَّـمَــا هِـمَّتُهُـــــمْ أَنْ   يُظْـهِـروا مَـا قَدْ دَفَـنَّـا

[من مجزوء الرمل]

(87) * جاء في الوفيات (1 ، 328) أنّ جعفرًا « كان من علوّ القدر ، ونفاذ الأمر ، وبُعد الهمّة ، وعِظم المحلّ ، وجلاله المنزلة عند الرشيد ، بحالة انفرد بها ، ولم يشارَك فيها ؛ وكان سمحَ الأخلاق، طلقَ الوجه ، ظاهرَ البشر؛ وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يُذكر؛ وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة » .

(88) * انظر ص 54 رقم 8 .

(89) انظر د. سورديل D . Sourdel في كتابه المذكور آنفا . وسنتعرّض للبحث عن الدور الذي لعبه بنو برمك مع تفاصيل أوفر في الفصل الموالي .

العلوّيين ، فأحقد ذلك عليه الخليفة وأفقده ما كان لديه من حظوة ، خصوصا بعد أن تبين أن له يدا في فرار أحدهم من السجن . ثم انه كان شديد المنافسة لجعفر؛ وكونُ الرشيدِ وَضع وليَّيْ العهد في حجر الشّقيقين[90]، بحسب تقدُّم أحدهما في السن على الآخر ، لم يذَر العلاقات تجري مجراها الطبيعي داخل البيت البرمكي ، ثم بين أعضاء هذا البيت وهارون.

كان ليحيى بن خالد البرمكي ابنان آخَران هما : موسى – وسيُعَيَّن واليا على الشّام – ومحمّد ، وسيكون لكليهما – وخاصة لمحمّد – منزلةٌ بين المقرَّبين إلى الخليفة . لُقِّب كلٌّ منهما بالأمير، وهو لقب سيُمنَح لأبنائهما ثم لبني عمومتهما ؛ وسيشغل أخ ليحيى، وهو محمّد بن خالد ، منصب الحجابة مدة تسع سنوات متتاليات .

من بين رجال الحاشية ، تنكّر للبرامكة عدوّهم الألد ألا وهو الفضل بن الربيع الذي سيكون نجمه في صعود بينما كان نجمهم في أفول ، وسيغدو الساعد الأيمن للرشيد بعد نكبتهم ، وكان له ضلع كبير في تحقيقها. كان أبوه الربيع بن يونس رجلا وضيع النسب، لكنّ ذكاء ه وحزمه خوّلاه تولِّيَ خطط هامة في بلاط المنصور، منها خطّة الحجابة . كان الربيع يحظى بثقة تامة لدى الخليفة : فعهد اليه بديوان الأزمّة ثم استوزره (وكانت الوزارة إذّاك منصبا شرفيا أكثر منها خطّة سياسية فعلية) وأحلّ محلّه في الحجابة ابنه الفضل الذي سيكون له أيضا منزلة عند الخلفاء ، خصوصا عند المهدي ثم عند هارون من بعده ؛ فسيتسلم خاتم الخلافة وسيُعَيَّن حاجبا سنة 795 (179 هـ) ووزيرا سنة 803 (188 هـ) بعد قضاء الرشيد على البرامكة ، وسيبقى– وهو الصديق الحميم لهارون والمستشار الخاص لزوجته زبيدة.– إحدى الشخصيات المهيمنة في القصر، أيام كانت الوظائف السياسية والعسكرية والإدارية – وقلما تُضبط حدودها بالتدقيق – كثيرا ما تختلط مع مهام أخرى ، في غاية الدّقة ، وهي التي تقتضيها مجالسة أمير المؤمنين ومنادمته .

كان يُقتبَل في القصر أيضا عدد آخر من الأشراف وكبار الشخصيات ، وفي مقدّمتهم أمراء البيت العباسي ، من إخوة للرشيد وأبناء إخوة وبني عمومة وذوي قرابة ، كعبد الله بن محمد[91]، وعبد الصمد[92] الشهير الذي خدم خمسة خلفاء ، وعدد آخر غير

---

(90) * قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ، 4 ، 28) : « كان الرشيد قد جعل ولده محمّدا في حجر الفضل بن يحيى، والمأمون في حجر جعفر، فاختص كل واحد منهما بمن في حجره. . .

(91) * عبد الله (لا الله ، كما قال المؤلف !) بن محمّد (. . . نحو 815 / . . . – 200 هـ) : أمير من أمراء بني العباس، ولِي مصر للرشيد سنة 787 (171 هـ) وعُزِل عنها فعاد الى بغداد، فجعله الرشيد في جملة قواده يوجّـهه في المهمات الى أن مات .

(92) * عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله (722-801 / 104-185 هـ) : أمير عباسي هاشمي، وهو عمّ المنصور: كان عامله على مكة والطائف ، ثم ولِي المدينة وعزله عنها المهدي ، ثم ولاه =

قليل من أمراء البيت العباسي ؛ وكانت ثلة من الرجالات كالقائد هَرْثَمة ، وقد عرض لنا الحديث عنه، وعليّ بن عيسى(93) الذي سيؤمَّر على خراسان ، وغيرهم من كبار القواد ، وجبريل(94) طبيب الخليفة ، والفقيه القاضي أبو يوسف(95)، يعيشون داخل هذا العالم الصغير المغلق الذي تُحاك فيه الدسائس وتنفّذ المؤامرات وتحاك المكائد وتتنازع التأثيرات.

= الجزيرة ، ثم عزله وحبسه الى سنة 764 (147 هـ) وأخرجه وولاه دمشق ثم عزله . وظل وجها من وجوه البلاط في عهد الهادي والرشيد الى أن مات وقد عمي في آخر عمره . وكلمة "عليّ" الواردة في النص الفرنسي قبل "عبد الصمد" مجرد تحريف مأتاه خطأ في الترصيف المطبعي . فقصْدُ الكاتب اذن "عبد الصمد بن عليّ" لا "عليّ ، عبد الصمد".

(93) * عليّ بن عيسى : أمير عباسي، عاصر الرشيد وخدمه وقاد له الجيوش ومات في غزاة أرض الروم وهو مع القاسم ابن الرشيد وذلك سنة 785 (169 هـ) ؛ وهو ابن عيسى بن موسى بن محمّد العباسي، ابن أخي السفاح ، الأمير والقائد المعروف بشيخ الدولة ؛ وكان عيسى هذا من فحول أهله وذوي النجدة والرأي .

(94) * جبرئيل بن بختيشوع بن جرجس (... – 828 / ... – 213 هـ) : طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله . يقال ان منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه : « من كان له حاجة اليّ فليخاطب بها جبريل ، فاني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه منيّ ، فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم . ولما توفي الرشيد خدم الأمين ؛ فلما ولي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعاده الى مكانته عند أبيه الرشيد ، فلم يزل الى أن توفي . ومن تصانيفه "المدخل الى المنطق" و"كناش" في الطب ورسالة في "المطعم والمشرب" وكتاب في "صنعة البخور" .

(95) * أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (731-798 / 113-182 هـ) : صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، وأوّل من نشر مذهبه . كان فقيها علاّمة من حفاظ الحديث ؛ وُلد بالكوفة وتفقه بالحديث والرواية ، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي . ولِي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته وهو على القضاء ، وهو أول من دُعِي "قاضيَ القضاة"، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة . كان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب ، وله تصانيف عديدة .

الفصل الثالث

الغيوم الأولى على أيّام النّعمة

« الفَلاّحُونَ أنْفُسُهُمْ يُسِيؤُونَ مُعَامَلَةَ
مَنْ كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ »

(ديونيسيوس تلمخري)

أريحيّة بلا حدود في الخليفة والأمراء ، بذخ مشط عند النساء والرجال ، تشييد قصور وبساتين فردوسيّة ... وعندما ترصّع زوجةُ خليفة خِفافَها بالحجر الكريم وتترع فم أحد الشعراء بالجوهر، فمن أين يُؤتَى ، يا تُرى ، بالأموال الطائلة لمواجهة هذا الانفاق الجنونيّ ؟ فالغزوات التي كانت تُشَنّ على بلاد الرّوم صارت لا تدرّ الكثير من الغنائم (الفتوحات الكبرى قد انتهت) ؛ وأرباح التجارة - وإن كانت نفقات البلاط تساعد على نموّها - غدت لا تُسمن ولا تُغني من جوع ؛ وفي مملكة العبّاسيين ، كما هو الشأن في كلّ مكان وكما سيكون إلى الأبد ، لا يوجد إلاّ مورد واحد للأموال التي تجبيها الدّولة : ألا وهو هِمْيان ذاك الذي نسمّيه اليوم " المواطن الخاضع للأداء " .

إنّ نظام الجباية كان على قدر كبير من البساطة : فالمسلمون يؤتون الزّكاة المُنظَّرة بالعُشُر، وهي أحد الأركان الخمسة للإسلام ، ويؤدّي غير المسلمين الجِزْية وكذلك الخَرَاج ، وهو أداء عقاريّ (واجتنابا لدفعه اعتنقت الإسلامَ جلُّ الشعوب المغلوبة) ، لكن سيشمل الخراجُ فيما بعد كلَّ المالكين للأرض ، لا فرق في الواجب عليهم دفعه بين المسلمين وغير المسلمين . أمّا الفَيء ، وهو ما يُغنَم من غير المنقول أثناء الفتح ، فهو يشمل أيضا ما يَعُود للمجموعة من ممتلكات المهزومين : - ممالك ، كنائس ، ضياع لاذ أصحابها بالفرار، وللدّولة أن تستغلّه مباشرة أو أن تعهد باستغلاله الى أحد الخواصّ بشرط أن يلتزم بدفع الأداء . وهذا النظام المسمّى بنظام القطيعة أو الإقطاعة والذي كان معمولا به عند الرّوم هو تنازلٌ عن ملك عموميّ لأمد طويل. وسيظهر بعد ذلك ، في القرن 11 ًً (5 ًً للهجرة) ، نظامُ الوقف ، وهو تأسيس انتفاع دائم من ممتلكات معينة لفائدة مستحقين مخصوصين (أشخاص أو مؤسّسات عموميّة : مساجد ، خانات ، مستشفيات) ، ولا تزال الأوقاف - أو الأحباس - موجودة إلى يومنا هذا[1].

---

(1) * ما كان من الأحباس - الخاص منها والعام - بالبلاد التونسيّة قد حلّ اثر استقلال البلاد وقيام الدولة الجديدة المستقلة والنظام الجمهوري بها .

يُؤدَّى الخراج إما عينا بنسبة تتراوح بين الرّبع والنصف حسب نوع المزروعات ، وإمّا نقدا . وفي هذه الحال يُعيّن مقداره بحسب مساحة الأرض ونوع الزراعة ووسيلة الريّ بالخصوص. أما الأوّل فكان معمولا به في السّواد أي في الأراضي القريبة من بغداد ، وأمّا الثاني فكان شائعًا في سائر الجهات . ويتولّى جبيَ الضرائب موظفٌ حكوميّ مسؤول على منطقة محدّدة ، وقد يتولاّه مستلزم (لزّام)؛ وفي صورة اللزمة ، يضبط العامل ، أي العون المكلف بالجباية ، المبلغ المتعيّن على اللزام دفعه – ويكون عادة دون المبلغ المقبوض – ويمثل الفارق بين المبلغين ربح اللزام . فهذا النظام – وهو المعمول به منذ أقدم الدهور والذي لا يزال ساري المفعول إلى الآن – هو الذي يفتح الباب ، على الأرجح ، لأكبر عدد من التجاوزات . ومن ناحية أخرى فالفلاّحون ، وهم المطالبون بدفع الضرائب ، كانوا مرغمين على تحمّل النصيب الأكبر من النفقـات المنجرّة عن جبي الضرائب ، كإيواء الأعوان المكلّفين به وغير ذلك من الأعباء .

كانت تنضاف إلى هذه الضرائب صنوف أخرى من الجباية فيها أيضا مدعاة إلى ابتزاز الأموال كالغرامات ومصادرة المكاسب والأراضي المعتبر امتلاكها امتلاكا غير شرعيّ ، والرّسوم المدفوعة مقابل التمتع بحماية الشرطة . وقد ترك لنا دِيُونِيسيُوس تَلْمَحْري[2]، أحد بطارقة الجزيرة المونوفيسيين في كتابه "مجموعة الأخبار السّريانيّة" وصفا قاتما للويلات التي كانت تعانيها جماهير الشعب في هذه الجهة قبل تولّي هارون الخلافة بزمن قليل ، والأرجح أن الوضع كان لا يختلف عن ذلك كثيرا في سائر جهات المملكة . ذلك أنّ حال الطبقات الشعبيّة لم تتحسّن في عهد هارون بل زادت تعكّرا ، فديونيسيوس يذكر مثلا موظفا كُلّف بجمع الضرائب فضمّ إلى الملك العموميّ، من تلقاء نفسه ، مساحة عشرين مترا تقريبا حول ما كان معتبرا مبنى عموميّا؛ ويذكر أيضا موظفا آخر كان يأخذ عيّنة من كلّ بضاعة توجد في الدّكاكين ومنازل الخواصّ. ويضيف ديونيسيوس أنّ كلّ عيّنة تؤخَذ يُفرَضُ عليها مكس «بما في ذلك النّحل والحمام والدّجاج ».

وفرْض المكس كان يجري بنسب في منتهى التعسّف ، إذ كانت الضرائب المحسوبة نقدا يُرْغَم صاحبها على دفعها نقدا ، مما يجبر الفلاحين على بيع مداخيلهم دون تأخير، وغالبا إلى تجّار متواطئين مع الأعوان المكلّفين بجبي الضرائب. وكان التأخّر عن دفع الضرائب يُعاقَب عليه عقابا تؤول شدته أحيانا إلى استعمال وسائل التعذيب ، وأخفّ هذه الوسائل وطأةً سجن المطالبين بالأداء إلى أن يؤدّوا ما عليهم. لكنّ المزارع كان كثيرا ما

---

(2) * دِيُونِيسيُوس تَلْمَحْرِي Denys de Tell-Mahré : بطريرك أنطاكي يعقوبي ، وُلد في تَلْمَحْرة – وهو موضع على نهر البُلَيخ من الجزيرة بسوريا – وتوفي سنة 845 (231 هـ) . له تاريخ سرياني مفقود لا يعرف منه الا جزء مخطوط في الفاتيكان .

يفضل ، عند موعد الدفع ، تسلّف الأموال على دخل محصولاته من المقرضين بأثمان بخسة · وبما أنّه غالبا ما يعجزعن تسديدالدين ، فإنّه يلجأ إلى المرابين في المدينة لاقتراض ما يُمكّنه من الوفاء بدينه في الموعد، ممّا تنجرّ عنه أوضاع معقّدة ، نرى فيها أحيانا مزارعين يضعون أنفسهم وممتلكاتهم تحت "حماية" بعض الأعيان ، متنازلين عن حرّيتهم ومتخلّين عن ملكيّة أراضيهم التي سرعان ما يتمّ افتكاكها من قبَل هؤلاء الأعيان· وقد يتفق أن يلوذ آخرون بالفرار للنّجاة من شرّ العامل المكلّف بالجباية وأن يُضخّموا عدد العاطلين عن العمل ، متنقّلين من قرية إلى أخرى بحثا عن وسيلة عيش · وكثيرا ما ينتهي بهم الأمر إلى اللّصوصية ، فتتبّعهم السلط وتبحث عنهم ، وعندما تعثر عليهم وتعتقلهم فانها تَسِمهم بسمات لا تَمّحي ، ملزمة ايّاهم أن يسلّموا ما عليهم من الضرائب إلى شيوخ طوائفهم المسؤولة معهم على سبيل التّضامن · لذا فالقرويون كان من فائدتهم أن يسارعوا بالبحث عن الهاربين والمختفين من بني عشيرتهم للعثور عليهم ، وقد لا يتردّدون في ملاحقتهم هم بدورهم ، مفاقمين بذلك التّوتّرات بين المتساكنين في الرّيف ؛ وكان لهروب الفلاّحين هذا تأثيرات سلبية على الاقتصاد، وقد أجبِرت أحيانا السلّطات على اعادة تعمير القرى والدساكر، لكن ما كانت تتولاّه من محاولات في هذا المضمار لم يُكلّل دائما بالنّجاح·

في تلك الفترة كان البؤس منتشرا في جميع أرياف الدولة بنفس المقدار تقريبا . في شمال افريقيا، وفي سوريا، وفي مصر (حيث أُحدِث جوازُ سفر اجباريّ)، وفي فارس· أمّا خراسان وبلاد ما وراء النّهر، فانّ ما يروج فيهما من نظريات قديمة رامية إلى تحقيق المساواة بين أهل الرّيف كان يزيد في تعميق الطابع الإجتماعي للانتفاضات التي تندلع هنا وهناك وتتعاضد مع مختلف الحركات المسيحيانية[3]، كحركة سُنْبَاذ المجوسي[4] وأُسْتاذَسِيس[5]

---

(3) عن هذه الحركات المسيحيانية ، انظرالملحق الأوّل ' [المهدية او القول بالرَّجْعة (رجعة المهدي المنتظر) هي من أهم تعاليم الشيعة ، وهي شبيهة بالعقيدة المسيحيانية le messianisme القائلة برجوع المسيح الذي سيملأ الأرض عَدْلاً كما مُلِئت جورا والتي هي ركن من أركان الديانة النصرّانيّة]·

(4) * سُنْبَاذ (لا سَنْبَاد كما كتب أ. كلو) : رجل مجوسي من إحدى قرى نيسابور يقال له "أهن". خرج على المنصور سنة 755 (138 هـ) غضبا لقتل أبي مسلم الخراساني ومطالبة بثأره ، فتسمى فيروز أصبهبذ وقبض على ماتركه أبو مسلم من خزائن وكانت هائلة ، وغلب على نيسابور وقُومس والريّ ، وكان عامّة أصحابه من أهل الجبل · فأرسل إليه أبو جعفر جيشا فقُتل وسُبِيَ ذراريُّه ونساؤه ، فصيّر أبو جعفر أصبهبضة طبرستان الى وُلْد هُرْمُز بن الفَرْخان (الملوك ، 7 ، 495) .

(5) * أستَاذسِيس (لا أسْتَادِيس كما كتب أ·كلو) : ثائر خراساني خرج أيضا على المنصور سنة 766 (149 هـ) في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها، فعظم أمره وهزم كثيرا من =

والمُقنَّع[6]، صاحب القناع الذي ادّعى النبوّة ، أو تلك التي تتّصل بالبطل الخرافي أبي مسلم المذبوح[7] .

على أنّ الانتفاضات لم تكن كلها وليدة الأوضاع الاجتماعيّة . فتلك التي حدثت في مصر سنة 785 (169 هـ) مثلا انما خرج فيها على السلطة العبّاسيّة ثوّار أمويّون ، لكن البؤس هو الذي كان كلّ مرّة يوتّر الصّراعات السّياسية والدّينية. فمنذ مطلع النّصف الثّاني من القرن 8ً (2ً للهجرة) ظلّ التّباين يزداد تمكنا بين ما كانت تئنّ تحت وطأته عامّة الشّعب من فقر، وما ترفل فيه من بذخ فاحش بطانة الخليفة وسائر الطّبقات المحظوظة .

وقد كان المنصور أحد الخلفاء العظام ، لكنّه كان أيضا من أشدّهم قسوة على الشّعب في جبي الضرائب . فهذا الرّجل الذي كان ، حسب ما رواه الطبريّ، «أبخل خلفاء بني العبّاس جميعهم » ، لم يُدخل أيّ تغييرعلى نظام الجباية الذي أقرّه الأمويّون وقد كان يختلف اختلافا كبيرا من مقاطعة إلى أخرى ، اذ كان نظاما مقاما أساسا على الإقتصاد الزراعيّ . من ذلك أن ما يُجبَى من الحواضر كان أقلّ بكثير ممّا يُجبى من الأرياف نظرا للسّرعة التي كانت تُحدَث بها المدن والقرى . ثمّ انّ أغنياء التّجّار كانوا لا يدفعون أيّ أداء ، ويُترك واجب هذا الدفع لما تمليه عليهم ضمائرهم . والرّسوم المفروضة على دخول

= القواد العبّاسيّين في معارك كثيرة . فأرسل وليّ العهد المهدي ، وكان بنيسابور، جيشا عظيما لمحاربته ، وجعل على رأسه أحد كبار قوّاد أبيه ، وهو خازم بن خزيمة ، وأعضده بجيوش من عديد الجهات ، منها جيش من طخارستان بقيادة أبي عون . فجرى قتاله في معارك يصفها الطبريّ بغاية الدقة (الملوك ، 8 ، 29-31)، وحُوصر في جبل لاذ إليه ونزل منه على ان يُعتق أصحابُه وكانوا ثلاثين ألفا . أما هو فقد أوثق في الحديد ومعه أهل بيته وبنوه والحَريش مدبّر أموره في المعارك فقُتلوا جميعا .

(6) * هو مشعوذ أعور قصير من أهل مرو اسمه حكيم وقد لُقب بالمقنّع لأنّه كان يقنّع وجهه بوجه من ذهب لئلا يُري . فادعى الالوهية واحياء الموتى وعلم الغيب وقال بالحلول والتناسخ . وكان يقول : ان الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وهكذا إلى أبي مسلم الخراساني وسمى نفسه هاشما. واجتمع عليه حلق كثير فحاصره المهدي بجيش في قلعة كشّ " . ولما ايقن بالهلاك جمع أهله وسقاهم السّم فماتوا جميعا ثمّ أحرق القلعة والقى بنفسه في النّار مع أصحابه فهلكوا، وكان خروجه سنة 778 (162 هـ) وهلاكه سنة 780 (164 هـ) .

(7) * الاشارة هنا إلى "المُسْلميّة " وهي الطائفة القائلة بأبي مسلم وإمامته وقد تنازع أتباعها بعد موته ، ففرقة قالت برفعه إلى السماء وأخرى قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة ! وإلى حركة المسلمية المعروفة في التاريخ بالخُرّمية ينتمي بابك الخُرَّمي الذي سيخرج على المأمون والمعتصم (مروج ، 3 ، 323) .

السّلع المستوردة كانت هي أيضا ضعيفة جدّا ، وكان العديد من التّجّار يتهرّبون من تسديدها. فعبء الضرائب اذن تتحملّه الفلاحة : فالفلاّح كان سهلاً انفاذُ الأوامر إليه وسهلاً أيضا إرغامُه على تنفيذها.

أمر المهديّ ، وهو الذي سبق أن رأينا احتياجاته الهائلة إلى الأموال ، بأن يُجرِّد الجيش من حقّ جبي الضرائب ، وحسنا فعل. لكنّه غيّر في نفس الوقت النّسب المطبّقة في توظيف الأداء باتجاه تشدّد أوفر؛ فنتج عن ذلك ، رغم تطوّر الزراعة ، انهيار في مستوى العيش لدى عامّة الفلاّحين.

ولم يبذل البرامكةُ أيّ جهد لعلاج هذا الوضع ؛ فقد اتجهت همّة يحيى بن خالد قبل كلّ شيء ، وهو الذي برع في التّصرّف الإداري ، إلى توفير أموال الدّولة وانماء ثروات الخليفة ، وانماء ثروته وثروة أسرته بطبيعة الحال. فلم يتردّد في افتكاك عقارات ليضيفها إلى ملك الخليفة أوملك أحد البرامكة : منها ممتلكات فرّ عنها مالكوها أو تركها هالكون لا وارث لهم ، ودكاكين ومنازل وأراض على ملك بعض " أعداء " الدّولة او الدّين ، وجميعها كانت تُنتزع من أصحابها بتعلاّت شرعية وغير شرعيّة . فذاك ما جعل الخليفة وأسرته[8] يتوفرّون على ثروات هائلة رَيْعُها لا يُعرّف له حدّ : فثروة زبيدة بمصر مثلا كانت تحتاج إلى وكيل خاصّ يتولّى شؤونها .

كان الجانب المالي هو الغالب على تصرّف يحيى في شؤون الدّولة ، فلم يلتفت كثيرا إلى ما كانت عليه الجماهير من بؤس وخصاصة ، ولا فكّر قطّ في اقرار إصلاحات جبائية – والحال أنّه كان قد أشار بها أكثر رجال البلاط نفاذا في الرّأي – بل عزّز ما كان في الجباية من صرامة باحكام إجراءاتها، واقتضى ، على وجه الخصوص ، أن تُجبَى الضَرائب مهما كانت نتيجة المواسم الفلاحية ؛ وسمّى أيضا موظّفين كلّفهم خصّيصا بجبي المتخلّف من الأداء بذمّة من تعيّن عليهم دفعه. وقد أظهر هؤلاء الموظّفون في جهة الموصل سلوكا في منتهى القساوة ، ففُرضت المكوس في الأرياف على كافة المواشي والأنعام ، وأخذ النّاس بالبقايا ؛ وحتّى العرب ، فقد أرغموا على دفع ضرائب كانوا معفّون منها. فثار منهم فلاّحون وفرّ آخرون، خصوصا إلى أذربيجان، حيث ذهبوا لتعزيز جانب الجماعات التي شقّت عصا الطّاعة وشهرت السّلاح في وجه السلطة ، احتجاجا على إلغاء الامتيازات التي مُنِحها العربُ عند انتصابهم بالأراضي المفتوحة. وما لبثت أن انضمّت إلى هؤلاء عناصر غير خاضعة لأيّ نظام في هذه الجهة الحسّاسة التي كثيرا ما كانت تهجم عليها عبابيد من الخزر فتعيث فيها فسادا.

---

(8) * كانت على ملك الخيزران أمّ الرّشيد، ببغداد وضواحيها، عقارات ذات بال تُعرف "بالخيزرانية" ويبلغ دخلها سنويا 160 مليون درهم ، كانت تباشر الخيزران شؤونها بنفسها يساعدها في ذلك كاتبها عمر بن مهران .

اضطرابات اجتماعيّة ودينيّة

كانت التحرّكات الإجتماعيّة في أرض الكنانة والشّمال الافريقيّ تواكبها انتفاضات معادية للمسلمين. ففي 767 (150 هـ) هَزم الأقباط في مصر جيشا اسلاميّا وُجِّه من الفُسْطَاط لردّ النّظام إلى نصابه. وفي افريقية لم يقدر العبّاسيون ، وكانوا في صراع متواصل مع البربر، على استرجاع القيروان والقضاء على الفتنة التي ظهرت بها الاّ بعد انقضاء خمس سنوات في مواجهة أصحابها . ثمّ كان عصر الرّشيد ، فبيّضت[9] عشائر العرب التي كانت استقرّت في الحوف ، شرقيّ الدّلتا، غضبا لتوظيف الخراج من جديد على أراض موات مازال أصحابها بصدد احيائها . واذ وثبوا بالعامل فضربوه ثمّ قتلوه ، وُجِّهت إليهم من سوريا جيوش حديثة التجنيد يقودها هرثمة بن أعين ، أحد كبار قوّاد هارون الرّشيد، فقضت على الفتنة التي أثاروها . وفي 789 (173 هـ) جُمع 10.000 من المقاتلين الاضافيّين وأرسلوا لمحاربة الفلاّحين الذين ثاروا إثر زيادة أعلنها الوالي الجديد في نِسَب استخلاص الخراج. ولمّا كانت سنة 793 (177 هـ) أثقلت من جديد كواهل المزارعين بالضّرائب ، فكانت النتيجة ان تجددت الاضطرابات ، لكنّها كانت هذه المرّة أشدّ خطورة. فأرسلت تعزيزات لارجاع الأمن الى تلكم الربوع ، لكنّ رجوعه اليها كان لمدّة قصيرة ، اذ بعد ذلك بأعوام قليلة اضطُرّ الرشيد إلى بعث جيوش من بغداد لقمع انتفاضة اندلعت بساحل البحر الأحمر، جنوبيّ سينا، تلتها أخرى بمدينة الفسطاط نفسها حيث عاثت بالحديد والنّار شراذمُ من الجنود الثائرين : وكان سبب ثورتهم غضبهم لعدم تقاضيهم أرزاقهم على الوجه المعهود، اذ قرّرت الحكومة أنّ تدفع لهم ثُلُثها نقدا وثُلُثها الثّاني بُرّا والثّالث قماشا[10].

في خراسان وفي الجهات الغربية من البلاد الايرانية انضافت أسباب أخرى للغضب الذي كانت تحدثه الابتزازات والتّعدّيات . ففي تلك المقاطعات ، التي احتضنت الثّورة العبّاسيّة منذ نشأتها ، والتي أعطت الدّولة الجديدة أعظم رجالها ، لم تعرف الاضطرابات انقطاعا . كان يُحدث الفتنَ هناك أعداءُ بني أميّة وكانوا يُذكون نيرانها بين جماهير استمالوها بشتّى الوعود مُمَنّين إياها بالخصوص بحلّ مشاكلها الاجتماعية ؛ لكنهم عجزوا عن تحقيق تلك الوعود، ممّا انتج نقمة كانت شدّتها في مستوى خيبة الآمال

---

(9) * بيّض القوم : نزعوا السّواد ، شعارالعبّاسيين ، ولبسوا ثيابا بيضا اعلانا للعصيان والثورة (اللسان) .

(10) رواه غ. ڤيات G. Wiet في كتابه : تاريخ الأمّة المصريّة ، Histoire de la Nation égyptienne.

التي حمّل المزارعون مسؤوليتها، على حدّ سواء، العربَ والدّهاقنة[11]، أي كبار قومهم من الفرس. وكانت الدّعاية التي شاعت ابّان الثّورة - والتي تعتمد شعاراتُها قولاً بالرّجعة ممزوجا بعقائد محلّية - صادرة إلى حدّ كبير عن رفض للدّيانة الاسلاميّة. فلا شيء كان أسهل على "متنبّىء" أو أحد المدعين أنّه "تجسيد لروح أبي مسلم" أن يجمع حوله العديد من المساكين المستعدّين لاعتناق أيّ معتقد بشرط أن يُوعَدوا بتحسين حالهم. فكانوا يتقبّلون كلّ الحركات، سواء منها ما اتصل بالمذهب المانوي[12] العتيق أو بالثقافة الفارسية القديمة. على أنّ الشعور القومي الإيراني كان دون شك لا يزال غريبا عن ثورات تلكم الأقوام الذين لا يترددون عن اتّباع أيّ ثائر يُلوِّح بعداوته للنظام القائم ولذوي الحول والطّول فيه.

عندما جلس الرشيد على دست الخلافة كانت السّلطة محلّ نزاع في جلّ مقاطعات المملكة. ففي خراسان وفي بلاد ما وراء النّهر، لم يُقضَ الاّ بصعوبة كبيرة على ثورة صاحب القناع ("النّبيء المقنّع")، وهو أشد الخارجين عن سلطة بني العبّاس خطرا. لكنّ المُحمِّرة[13] الذين كانت لهم عقائد شبيهة بعقائده حلّوا محلّه. ثمّ ان الخُرَّمية، القريبين من المزدكية كانوا هم أيضا يُذكون نارالفتنة مع من كان يذكيها من الثائرين وهم كُثُر، وما كانت سنة 796(180هـ) حتّى قضت عليهم جيوش هارون ،لكن بعد معارك دامت أعواما.

---

(11) * دِهْقان ج دَهَاقِنَة ودَهَاقِين. القويّ على التّصرّف مع شدّة خبرة. من له رياسة أو مال أو عقار. رئيس الاقليم وهو المعنى المقصود هنا. والكلمة من الدّخيل، فارسية الأصل.

(12) * عن المذهب المانوي انظر ص 40 رقم 100. ولعلّه من الطريف أن يطلع القارىء على رأي أحد خلفاء بني العباس في هذا المذهب: ... إن المهدي قال لابنه موسى يوما - وقد قُدِّم اليه زنديق، فاستتابه فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه - . «يا بنيّ، ان صار لك هذا الأمر، فتجرّد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزّهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومسّ الماء الطّهور وترك قتل الهوام تحرّجا وتحوّبا، ثم تخرجها من هذا الى عبادة اثنين. أحدهما النّور والآخر الظّلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والإغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطُّرُق، لتنقذهم من ضلال الظّلمة الى هداية النُّور؛ فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السّيف ... فاني رأيت جدّك العبّاس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الإثنين» ... (الملوك، 8، 220).

(13) * المُحَمِّرة: الذين علامتهم الحُمْرة، وهم يخالفون المبيِّضة. يقال المُحَمِّرة للذين يُحمِّرون راياتهم خلاف زيّ المُسَوِّدة من بني هاشم، وهم فرقة من الخُرَّمية (اللّسان)، وقد خرجوا على الرّسيد سنة 797 (181 هـ) بتحريض من الزّنديق عمرو بن محمد العمركيّ. فأمر الخليفة عامله بمرو، عليّ بن عيسى بن ماهان، بالقبض عليه وقتله، فقُتل (الملوك، 8، 266).

أمّا طبرستان والديلم ، وهما الإقليمان الواقعان على سواحل بحر الخزر (بحر قزوين) ، فانّ الفتنة فيهما أخذت طابعا شيعيا وخارجيا . فهناك تحرّك يحيى بن عبد الله بن حسن (أحد أحفاد عليّ) وجاهر بالعصيان بمساعدة زعماء العشائر وعدد كبير من سكّان الجهة . وسرعان ما أخذت الأحداث هناك مجرى مفزعا ، إذ أنّ القوات المحلّية كانت قليلة العدد وعديمة الاستعداد، على ما قيل ، لمطاردة حفيد ابن عمّ الرسول وصهره ، فلم تحقّق أيّ تقدّم في مقاومة الثّوار الذين كان عددهم يتزايد تزايدا مطّردا .

في 792 (176 هـ)[14] عيّن هارون الرّشيد الفضلَ بن يحيى البرمكيّ على رأس المقاطعات الغربية من بلاد إيران ، وكان هذا الاختيار موفّقا كلّ التّوفيق . فقد انتهز برد الشتاء الذي حالت شدته دون مواصلة العمليات العسكريّة للتّفاوض مع الثائر : فمقابل ضمانات رسميّة قَبِل يحيى بن عبد الله الاستسلام . فكتب الرّشيد له امانا بخطّه وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجِلّة من بني هاشم[15] ومشايخهم الموجودين ببغداد . وبعد أن أغدقت الهدايا على يحيى خرج إلى المدينة واستقرّ بها . لكنّه قُتل رغم الأمان : وذاك أن الوفاء بالعهد لم يكن من أخصّ ما يتّصف به هارون من السّجايا . ثمّ انّ الفضل ، وقد نجح في اخماد نار الثّورة دون اراقة دماء ، أولى اهتمامه إلى انجاز أعمال جبّارة : منها بناء مساجد ومحلات [خانات] تستريح فيها القوافل ، خصوصا في بُخَارَى ، وحفر قناة في بَلْخ[16] وأخيرا وضع ما كان على الأهالي من البقايا [أي المتخلف بذمتهم من الضرائب التي تُؤَدَّى إلى عمّال الخليفة] ؛ فاستتبّ هكذا الأمن في البلاد حتى شمل جهة كَابُل وبَـمْيَان ، وكانت هذه الأخيرة فُتحت لأوّل مرة منذ عهد قريب .

عند ذاك جهزّ الفضل جيشا بخمسين ألف مقاتل وضع منهم عشرين ألفا تحت قيادة هرثمة ووزّعهم على الجهات الغربية من المملكة ووجّه البقية إلى بغداد . فكانت هذه القوات ، وقد أعدّت لتعزيز جانب الوحدات المخصّصة للتّدخّل ، أكثر وفاء للبرامكة من القوات المكوّنة من "الأبناء" . وسيُطلَق عليها اسم "العبّاسية"، وسنعود للحديث عنها عمّا قريب .

ان القضاء على ثورة يحيى لم يخفف من روع هارون ولا أزال عنه المخافة من العلويّين ؛ بل على العكس، ازدادت منهم توجّساته وستتجّه بالخصوص إلى موسى الكاظم[17]

---

(14) * الصّواب انّه عيّنه سنة 793 (177 هـ) – انظر الملوك ، 8 ، 242 .

(15) أي أفراد العترة النبوية .

(16) وجعل أيضا من المعبد البوذيّ بهذه المدينة مسجدا ؛ وقد يكون هو الذي أمر بتعليق مصابيح في المساجد لانارتها ، فانتشرت هذه السّنة في سائر بلدان العالم الاسلاميّ .

(17) موسى الكاظم أحد كبريات الشّخصيات التي عرفها تاريخ التشّيعة . فقد كان أخوه اسماعيل عهد إليه أبوه جعفر الصّادق بخلافته في منصب الامامة ، لكنّ اسماعيل فاجأته المنية =

أحد أحفاد الحسين بن عليّ الذي قُتل بكَرْبَلاء ؛ فقد كان المهديّ أمر بإلقاء القبض على هذا الرّجل المعروف بتقاه والمحاط بإجلال وتقديس من الجماهير؛ ثم خلّى سبيله ، وبالرّغم من عدم تعاطيه لأيّ نشاط سياسيّ فان هارون أمر بإيقافه من جديد ، وسيموت بالسّجن، على الأرجح موتا طبيعيا ، وان اتّهم هارون بقتله غدرًا.

زعزعت أيضا أركانَ الدّولة فتنٌ دينيّة أخرى ذات طابع اجتماعيّ وكانت جلّها خارجيّة النّزعة ؛ والخوارج[18] هم تلك الفرقة التي تكوّنت بعد وقعة صفّين سنة 657 (37 هـ) والتي قالت بإثبات الفعل للعبد وباستطاعته قبل الفعل. فهم يطالبون بحقّ اختيار الامام اختيارا حرّا صريحا، سواء كان عربيا أو أعجميا ، وبحقّ الوقوف في وجهه [ان حاد عن سواء السّبيل طبعا!]، ويرفضون تفرّد الامام بالسّلطة وتوريثه اياها لابنائه. وقد انقسموا طوائف عديدة[19]؛ الا أن جميعها كانت تناهض النفوذ القائم بدون هوادة.

منذ السنوات الاولى لخلافة الرّشيد قامت فتنة خارجية في الجزيرة في جهة نِصِّيبِين[20] قادها زعيم احدى القبائل يُدعى الوليد بن طريف[21]، وقد جهز جيشا يعدّ 30.000 رجل وزحف به إلى أذربيجان وأرمينية وأخضعهما في زمن قصير، ثمّ ظلّ طيلة سنتين يجبي الأموال ويُحكّم متحدّيا نفوذ السلّطة المركزية. فاضطرّ الرّشيد، للقضاء

= فاجتمع بعض أنصاره حول ابنه الصغير محمد ابن اسماعيل وقالوا بإمامتة ، وهكذا تأسس مذهب الاسماعيليّة فكان مذهبا فلسفيا رفيع المستوى. لكن قال بعض آخر من التشيّعة بامامة موسى الكاظم ، الامام السّابع ، وادعوا أنّ حفيده [الخامس لموسى ، والثاني عشر لعليّ] محمدًا الذي اختفى سنة 940 (329 هـ) [والصواب ان التاريخ المرجّح لاختفاء آخر الائمة "المهدي المنتظر" هو 888 (275 هـ)] دخل فترة يتوارى خلالها ولا يحرج منها ليبرز للعيان الا يوم يصبح الناس قادرين على تمييز "الرجل الكامل".

(18) * كان الخوارج أول أمرهم حزبًا سياسيا واستحال تدريجيا إلى مذهب ديني ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيعة .

(19) كانت فتنة الأزارقة التي اندلعت بالبصرة سنة 684 (65 هـ) أشدّ الفتن خطورة. فقد اتسعت رقعتها حتى بلغت خراسان وفارس وفرمان، ولم يُقدَر على اخماد نيرانها الاّ بعد معارك طاحنة ، وكان ذلك سنة 700 (81 هـ). وقد عطّلت ثوراتٌ أخرى نشاط جيوش أموية نظاميّة عديدة ، وشملت البدعة الخارجية العراق وسوريا وكذلك شمال افريقيا وعلى الأخصّ طرابلس.

(20) * نِصِّيبِين Nissibin : مدينة في ما بين النّهرين ، واقعة على نهر جغجغ. عُرفت في العهد القديم باسم نِيسِيبِيس Nisibis وكانت تابعة لملكة الفرس وتمثّل مركزا تجاريا واحترابيا ذا بال . اشتهرت بمدرستها السّريانية واشعاعها النّسطوري .

(21) * خرج الوليد بن طريف الشّاري بالجزيرة سنة 795 (179 هـ) وحكّم بها وفتك بابراهيم ابن خازم بن خزيمة بِنِصِّيبِين ثمّ مضى إلى أرمينية (الملوك ، 8 ، 256). وفي 796 (180 هـ) رجع ابن طريف إلى الجزيرة واشتدّت شوكته وكثر أتباعه (الملوك ، 8 ، 261) .

على فتنته ، إلى ان يوجّه إليه القائد يزيد بن مَزْيد الشّيباني ، وهو الرجل الذي كان من أشدّ النّاس معارضة له عند تولّيه الخلافة . واذ كان من خيرة المصمّمين للمعارك ، استطاع أن يراوغ ابن طريف الشّاري[22] وأن يظفر به ، بعد ذلك ، على حين غفلة ، فوق هيت غار في قعر من الارض ، وأن يقتله وجماعة كانوا معه[23] .

وفي خراسان ، بجهة هَرَاة ، اندلعت نفس الثّورة من أجل نفس الأسباب الدّينية والاجتماعية . فقد شَرِي حمزة بن أتْرَك[24] وتلقّب بأمير المؤمنين بعد أن حَكّم[25] وقتل الوالي ، لكنّه دُحِر بعد معركة دامية ، فانهزم إلى سِجِسْتان[26] ثمّ إلى كَرْمان[27] ، وستنقضي سنوات عديدة والرّشيد يواجه هذه الثّورة قبل أنْ يظفر بمدبّرها الذي كان يقود تمرّدًا قوامه النّشاط الارهابيّ وشعاره وجوب محاربة الخليفة من قبَل جميع المؤمنين ومناهضة كلّ من يعترف بسلطته . واذ كان لابن أترك استطاعة فائقة في التّنظيم ، وجيش متحمّس للقتال ، ووسائل لترويج الدّعاية ذات قدرة مدهشة على التّعبئة ، فقد استعصى أمره على القوّات العبّاسيّة ؛ وما كان ليُغلَب لو لم يتجند من سكّان نيسابور جماعات للدّفاع الذاتي فهزموه وقضوا على ثورته سنة 820 (205 هـ) .

في كلّ تلك الجهات ، كان جشع السلّط في ابتزاز الأموال وقسوة الولاة في

---

(22) * الشّاري مِنْ شَرِيَ (أو من شَرَى بحسب المعنى) : صار من الشّراة وهم الخوارج ، سمُّوا بذلك لأنّهم شَرُوا أي غضبوا ولجّوا ؛ أما هم فقالوا نحن الشّراة أي نحن الذين بعنا نفوسنا وبذلناها من أجل الجهاد منذ فارقنا الائمة الجائرة عملا بقوله تعالى: « ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » (اللسان) .

(23) * واعتمر الرّشيد في هذه السنة (755/138 هـ) شكرا على ما أبلاه في محاربة الوليد بن طريف . وقالت الفارعة أخت الوليد بعد قتله :

أَيَا شَجَرَ الخَابُور مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنّكَ لَمْ تجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ
فَتًى لاَ يُحِبُّ الزَّادَ الاّ مِنَ التُّقى وَلاَ المَالَ الاّ مِنْ قَنًا وَسُيُوفِ

[من الطويل]

(24) * حمزة بن أتْرَك (لا أدرك كما رسمها أ. كلو) : شَارٍ خرج بخراسان سنة 756 (139 هـ) .

(25) * حَكّم : حَكّم نفسه ونبذ حُكم غيره . والمُحكّم هو الشاري أي الخارجي .

(26) * سِجِستان (أو سيستان) : بلاد واقعة بين ايران وأفغانستان ، قاعدتها نصرنباد وفيها نشأ رستم بطل ايران الاسطوري ، وتمثل تقريبا مقاطعة درانجيان Drangiane الاغريقية القديمة ؛ وهي عبارة عن مجموعة فلوات مالحة تنصب فيها أنهار أفغانية متحدّرة من جبال فيروز كُوه . خرّب نظامَ الرّي فيها وقنواتِه تيمورلنكُ في غزواته التي حصلت في القرن 14م (8 الهجري) .

(27) * كَرْمان : اقليم بايران واقع على مشارف الهضاب الوسطى قاعدته مدينة كَرمان وهي اليوم أكبر مركز ايراني لنسج القطن وتصدير السجّاد والزرابي الرفيعة .

استبدادهم بالأمر يزيد من حدّة الغضب ذي الطّابع الاجتماعي وفي عمق الاختلافات الدّينيّة ، لأنّ في بؤس الجماهير– وفي التجبر عند معاملتها أيضا – دافعا لنقمتها، سيما انه قد صاحَب كل ذلك سلبُ مكاسبها منها قهرا – اذ يؤول الأمر بها حتما إلى تعاسة لا تطاق. على أنّ الضّغينة الدّينيّة قد تكون بدورها شديدة وليس من باب القول بالخرافة أو اللامعقول أن نعطي الشّعور الدّينيّ المقام الذي يستحقه بين سائر الدّوافع التي تتدخّل في تكييف السّلوك الانسانيّ.

من الواضح أنّ تفسير أحداث القرنين 7ً و 8ً (1ً و 2ً للهجرة) ، مثلا ، بصراع مزعوم بين العالمين السّامي والآري لا يتّصف بالجدية . فهل نحن في حاجة إلى التّذكير بأنّ أهل خراسان وسواحل بحر قزوين أو أهل اليمن والحجاز لم يبسطوا المشكل قط بهذه الصّيغة ، والى أنّه لا يمكن أن نتحدّث في ذلك العهد عن "قومية فارسية" وعن "قومية عربية" ؟ كذلك ، من الخطإ أن نعدّ المذهب الشّيعيّ والمذاهب المبتدعة التي تفرّعت عنه ظواهر ايرانية بحتة . فمنشأ هذا المذهب كان بالعراق وشمال بلاد الشّام ، فهو "مذهب عربي أساسا"،[28] اعتنقته بعض الأوساط الايرانيّة في المدن. قال ب. لويس : « انّ العرب هم الذين أدخلوا مذهب الشّيعة لبلاد فارس حيث أضحت مدينة قُم[29] – وكانت مقر الحامية ومستعمرة تابعة للكوفة – احدى كبريات معاقل الشّيعة ؛ والمعارضة التي يعبّر عنها التّشيع هي ثورة اجتماعية ضدّ الأرستقراطيين العرب وضدّ عقيدتهم ودولتهم وحلفائهم، لا ثورة قومية ضدّ العرب »[30].

اذن فمنذ السّنوات الأولى لخلافة هارون ، كان مجال الاضطرابات السّياسيّة والدّينية والاجتماعيّة – التي ما انفكّت تهزّ أركان المملكة منذ بداية العهد العبّاسي – يتّسع شيئا فشيئا. فوراء الواجهة البرّاقة ، كانت شقوق عديدة تبدو هنا وهناك على المبنى الضّخم الذي شيدته الدولتان العربيتان الاوليان ، وتنبىء بحدوث هزّات خطيرة ستهدّد قريبا تماسك وحدته ؛ ذلك أنّ الإفراط في مركزة النّظام – وقد ضاعف مفعوله كل من هارون والبرامكة ، وهو الذي وضع بأيدي حكومة بغداد حقّ اتخاذ القرارات ، حتّى التي تتعلّق بأقصى أقاصي المملكة – قد زاد في قابليته للتّصدّع. لا محالة ، كان النّفوذ المركزيّ ، بفضل التنظيم الرّائع الذي كانت تتمتّع به مؤسّسة البريد، على علم بكلّ ما يجري في الأمصار – صغيرها وكبيرها – وحتّى في أبعدها عن العاصمة. لكن تلكم

---

(28) ك. كاهين Cl. Cahen .

(29) * قُم : مدينة في العراق العجميّ (ايران) فتحها أبو موسى الأشعري سنة 644 (24هـ). محجّة للعلويّين وفيها قبور أوليائهم.

(30) ب. لويس B. Lewis .

المَرْكَزَة للنفوذ لم تتحقق نجاعتُها بالمقدار الكافي ، اذ أنّ القرارات الصّادرة عن الخليفة – وكانت تَرِد بعد العديد من الأسابيع – لم يكن لها من النّفاذ ما كان للتي يتخذها أحد الولاة على عين المكان. على أنّ هؤلاء الولاة ، مهما اتّسعت السّلطات المفوّضة إليهم ، لم يتّصفوا جميعا بما يجب من الكفاءة والأمانة ، ويتجلّى ذلك بوضوح عندما يوجّه الخليفة إلى جهة تنشب فيها أزمة رجلا مقتدرا، كما كان الشأن مثلا لما أُرسِل الفضلُ البرمكيّ إلى ايران أوجعفرٌ إلى سوريا : ففي كلّ تلك الحالات كان الأمن يعود إلى الاستتباب بغاية السرعة.

ومع ذلك فانّ الحركات النّابذة والمبعِدة عن المركز ، والتي سنشهد ظهورها قريبا في عدة جهات من المملكة ، ما زالت لم تتصف بالخطورة التي قد تحُيّر ، بحيث كان يتم التغلبُ على ما تُحدثه من فتن ، وإنْ بشيء من العسر في بعض الأحيان. فالجيوش ، على ما يبدو ، كانت غير كافية لضمان النّظام في كلّ مكان ، إلاّ أنّ التّجنيد كان يسيرا ، ورغم تردّد العرب أكثر فأكثر في الإلتحاق بصفوف الجند ، فإنّ ايران وخراسان ما انفكتا توفّران ما يفي بالحاجة من العساكر، ولم يحن بعدُ الوقت الذي سيوكِل فيه الخلفاءُ إلى جماعات من المرتزقة[31] السّهرَ على أمنهم وأمن دولتهم .

الخليفة يضطلع بمهامّه

انتهت الفترة الأولى من عهد هارون ؛ فهذا الخليفة الذي تولّى الأمر وهو لا يزال أميرا شابّا عديم الخبرة ، أضحى الآن عاهلا واعيا أكثر فأكثر بنفوذه الذي يكاد لا يعرف حدّا. وليس معنى هذا أنّ أمير المؤمنين كان من قبلُ ألعوبة بأيدي البرامكة والنّساء : فنحن نعرف العديد مما أخذه من قرارات مخالفة لرأي يحيى وحتّى لرأي والدته الخيزران. فقد كان رجلاً سريع الغضب شديد الثّقة بنفسه دائم الانشغال بكلّ ما من شأنه أن يهدّد سلطته : فهو الذي أمر بالقاء القبض على موسى الكاظم ، الرّجل الورع المسالم ، وباغتيال يحيى بن عبد الله في حين كان قد أمّنه على حياته. فلم يكن هارون الأميرَ الوديع الذي رُوِي أنه فاقد للشخصية ، ولا « هارونَ المفرط الطّيبة » ، ذاك الخليفة المُغفَّل الذي حدثتنا عنه الأساطير الشرقية ؛ بل كان سيدًا لا يتحمّل أن يعارضه معارضٌ ولا حتّى ان يناقض كلامه مناقضٌ. وكالعديد من رؤساء الدّول ، كان يفضّل المَرِن من المساعدين على اللامِع منهم ، وسيعرف الفضل بن يحيى البرمكيّ قريبا نتائج قلّة المرونة في التّعامل مع هارون.

كان الفضل رجل تدبير سياسي وقيادة عسكرية ، لذا فانّه لم يتردّد في مجابهة الخليفة ، وحتى في الامتناع عن تنفيذ البعض من قراراته ، وسيكون هذا التّنافر في

(31) بدأت الجماعات الأولى من المرتزقة ، وجلّها من الأتراك ، تظهر في حرس الرّشيد.

الطباع بين الرجلين أحد أسباب نكبته ؛ وسينضاف هذا التنافر إلى تبرم هارون من الانتصارات التي حققّها "الوزير الصّغير" في خراسان – وكان يستنكر ما حصل على يديه فيها من إفراط – ثمّ من الرعاية التي اتهم باسدائها إلى العلويّين ، وكان البرامكة يُبدون نحوهم أكثر تسامحا من الرّشيد الذي سرعان ما يرمي ذريّة عليّ بالعمل على اغتصاب الحكم منه. وهكذا، فلئن عاد الفضل من خراسان ، ولقي من الرّشيد وافر الإستحسان والعرفان بالجميل ، الاّ أنّه لم ينل مذ رجع أيّ منصب خطير، ولن تمرّ الاّ سنوات قليلة حتى يُقال من كافة مهامّه الاداريّة.

عندئذ أسندت ولاية خراسان إلى عليّ بن عيسى بن ماهان الذي سيرتكب الخطأ تلو الخطأ في تلك المقاطعة ؛ لكنّه كان يعتمد على انتمائه إلى الشقّ المناهض للبرامكة . ثمّ انّه كان يقود جند "الأبناء" الذين عبّروا عن امتعاضهم عندما تكوّن جند "العبّاسية"، وقد جمعه الفضل من الأطراف الشرقية للمملكة. والوحدات السّورية/العراقيّة للجيش هي أيضا لم ترحّب بتكوين هذا الجند الجديد. حاول يحيى أن يمانع في تسمية علي بن عيسى بن ماهان لأنّه يعتبره عاجزا، لكن دون جدوى ؛ فالغالب على الظّن ، انه ما أقرّ الخليفةُ هذه التّسمية إلاّ لأنّها تُغيظ البرامكة ، وتُلبّي رغبته في إحداث نفوذ معادل لنفوذهم.

تناقصٌ متواصل لحظوة الفضل ، تزايدٌ لحظوة منافسه رغم معارضة يحيى، ازاحةُ محمّد، أخي يحيى، عن منصب الحجابة الخطير وتعيينُ الفضل بن الرّبيع فيه ، وهو الذي ينتسب إلى أسرة معادية للبرامكة والذي ستتكتّل حوله القوى المناوئة لهم ؛ كلّ هذا يدلّ على أنّ الخليفة – وقد حان الوقت ، بعد انقضاء عشر سنين على تولّيه الحكم – عاقد العزم على انهاء ما كان يمارسه من هيمنة على دواليب الدولة البيتُ البرمكي، ذاك البيتُ القويّ العتيد.

الرّقّة(32)

ثمّ انّ الوقت قد حان ليستعدّ هارون لمغادرة بغداد مغادرة تكاد تكون نهائية. فالخليفة ، على ما قيل ، لم يشعر قطّ بأي ميل لهذه العاصمة العظيمة التي شُيِّدت بقرار من جدّه . فقد كان يقول انّ هواء ها فاسد وأنّه لا يناسبه . ثمّ انّ وجود جند " الأبناء " – الغيور على امتيازاته والمضجر بنزاعاته – على مقربة من قصره كان يزعجه ، أضف إلى ذلك أنّ السّكّان في تلك المدينة الضّخمة كان يزداد عددهم ويتواصل هيجانهم باطّراد.

---

(32) * الرّقّة : قاعدة ديار بكر في الجزيرة على الفرات . فتحها عياض بن غنم (18/639هـ) ، وصالح سكّانها النصارى على دفع الجزية . عندها قطع الفراتَ عليُّ بن أبي طالب في وقعة صفّين (656 / 36 هـ) .

وكغيره ممن سبقه من الخلفاء ، كان هارون ، الحريص على ضمان أمنه الشّخصيّ ، يشعر بقلق شديد من اقامته فيها • وقد يكون اعتزم مرّتين على الأقلّ ، ابتناء قصر في سفح جبلَ زاجْرُوس[33]، غربيّ إيران ، لكنّه اعتلّ فعدل عن الأمر • ثمّ مرّت سنتان فأمر بتشييد مقر إقامة له بجهة الموصل[34]الا أنّه لم يستقرّ به • وفي 796(180 هـ) قرّر اختيار الـرَّقّة ، بالجـزيرة [35]، على الضّفّة اليسرى لنهر الفرات ، حيث كانت توجد ، في العهد العتيق ، مدينة تدعى كلّينيكوس[36] •

لِمَ اختار الرّقّة ، البعيدة كلّ البعد عن بغداد وعن سافلة وادي ما بين النّهرين حيث تجمعت جلّ المراكز السّياسية والاقتصاديّة والفكريّة للمملكة ؟ لو كانت الاعتبارات الأمنية هي الباعث الوحيد على مغادرة هارون بغداد ما كان يُعقل أن يترك في قصر الخُلْد نساءه وأطفاله وكنوزه ؛ فالأرجح اذن أنّ مقاصد ذات طابع عسكريّ هي التي كان لها الدّور الأوفر في حمله على نقل مقر إقامته الى حدود الامبراطورية البيزنطيّة •

نتذكر أنّه لمّا كان هارون حَدَثًا أرسله أبوه على رأس حملة ضدّ الرّوم• فاقترب أثناءها من القسطنطينية حتى أدرك أسوارها و « أسند إليها رمحه »[37]•وما إن ارتقى

---

(33) * زَاجْرُوس : سلسلة جبال تفصل بين سهول العراق والهضبة الايرانية• تمتدّ على طول 1.800 كم بمعدل 250 كم في العرض بين بحيرة وان ومضيق هُرْمُز قممها شاهقة ترتفع أحيانا إلى 4.500 م ، ووهادها خصبة تنتج الحبوب ، ويُزرع بها القطن والتّبغ زراعة سقوية • سكانها – وهم من عنصر كرديّ وبختياريّ ولُرْسيّ – مترحّلون يربّون الأغنام والأمعاز والخيول • يحوي هَوْمُها كميات هائلة من النفط الذي يستخرج في مسجدي سليمان ونفطي شاه (ايران) وكركوك (العراق)•

(34) * المَوْصل . مدينة بالعراق لُقّبت بالحدباء ، تقع على نهر دجلة . بالقرب منها انقاض نِينَوَى عاصمة المملكة الاشورية القديمة ومناجم النفط • كانت قاعدة بني ربيعة • فتحها العرب (21/641 هـ) وتناوب الحكمَ فيها الحمدانيون ثمّ العقيليون • ازدهرت زمان السلاجقة وكان صاحبُها عماد الدين زنكي (521/1127 هـ) . خربها المغول (661/1262 هـ)• استولى عليها الفرس الصفويون ثمّ العثمانيون• حاصرها نادر شاه سنة 1743 (1156 هـ) فخضعت لحكم العجم من جديد إلى أن احتلها الانكليز سنة 1918 (1336 هـ) وألحقوها بالعراق رغم احتجاج تركيا ، وقد أقرت هذاالالحاقَ عُصبةُ الأمم سنة 1925 (1343 هـ)•

(35) * الجزيرة : القسم الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات)• والجنوبي الشرقي منها هو العراق •

(36) نسبة إلى سِلُوقُوس 2ً كالِينِيكُوس (256 - 226 ق م) الذي أسّسها • [وسلوقوس هذا هو أحد ملوك سوريا السلُوقِيين الذين كانت عاصمتهم سلوقية ثمّ أنطاكيا • وقد حارب كالينيوكوس الفرثيين لكنّه أسِرَ وقُتل] .

(37) على مارواه الشاعر مروان بن حفصة [والذي يشير إليه أ. كلو هو قوله (الملوك،8،153) :=

عرش الخلافة حتّى أمر – كما رأينا ذلك – بتعزيز مراكز الدّفاع عن تلك الحدود ، ولم تكن تلك الاستعدادات دفاعيّة فحسب ، لأنّ بيزنطة ، وكانت غارقة في أزمة خطيرة ، لم تكن تمثل مصدرا لأيّ تهديد. فالمرجّح اذن هو أنّ هارون الرّشيد، منذ بداية عهده ، نوى ، لا الاقتصار على مشاغبة مملكة الرّوم ببعض المناوشات والغارات على تخومها، بل شن حرب شعواء عليها والتوغل قُدُما في فتحها حتّى يبلغ القسطنطينية بعون وتسهيل من اللّه. فمحاربة البيزنطيين كانت هدفه الأسنى؛ وخطتّه التي اعتمدت تشييد قواعد منيعة على سفح جبل طوروس ونقل مقرّ إقامته لجعله قريبا من دار الحرب ، كلّ ذلك ليس له تفسير آخر.

فتح العرب الرّقّة سنة 639 (18 هـ) وكان سكّانها من النّصارى. والذي أيقظها من سباتها هو المنصور عندما أقام بالقرب منها قرية جديدة ، الرافقة ، التي سريعا ما التحمت بها. كانت المدينة على شكل حُدوة فرس ، يسقي جنبها المستوي نهُر الفرات الذي يمرّ اليوم على مسافة كلومتر من ذلك المكان. وكانت أبوابها والسّوران الدائريان ، اللذان يحيطان بها – الواحد داخل الآخر – والشّوارع التي تخترقها ، تذكّر بالمدينة المستديرة لكن في حجم مصغّر (تفصل 1.500من الأمتار طرفيها الشّمالي والجنوبيّ وطرفيها الشّرقي والغربي). وكان ثمانية وعشرون من الأبراج المقامة على طول السّور– وسمكها يتراوح بين أربعة أمتار وخمسة – تؤوي مراكز للدّفاع. أمّا مادّة البناء فكانت الطّوب (أي الآجرّ المصنوع من الطّين المشوّى) للأبراج ، واللّبن (أي الآجر المضروب من الطّين المجفّف في الشّمس) للأسوار. وشُيّد مسجد جامع مستطيل الشّكل (108 م على 93 م) في قلب المدينة الجديدة وحفرت قنوات لجلب الماء إليها.

كان "قصر السّلام"، القصر الذي شيدّه هارون ، يقع داخل سور المدينة ، جنوب شرقيّ المسجد ؛ وكان لهذا الصرح الضّخم[38]، ذو القياسات العظيمة ، أجنحة توزعت بينها ساحات وبساتين على مدى شاسع. ففي الخارج كان الزّخرف محدودا ، وما كان يَرى الرائيّ إلاّ أسوارًا، عديمة المنافذ ومبنية باللبن (وأسّها من طوب) ، وكلّ الزينة كانت في الدّاخل : نقائش من الجبس ، ستائر من الدّيباج ، تذهيبات ، رسوم ، زرابي . في هذا الإطار البذخ ، كان مئات من النّاس يعيشون ، معزولين ، عزلة أشدّ من التي كانوا عليها

= أطَفْتَ بِقُسْطَنْطِينِيّةِ الرُّومِ مُسْنِدًا إلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى اكْتَسَى الذلَّ سُورُهَا
[من الطويل]

(38) لا تزال تُرى هناك ، بين آثار إحدى القاعات ، زاوية بها هوابط تمثّل أولى المظاهر لتلك الزّخرفة التي ستتسرّب إلى الفنّ السّلجوقيّ وحتّى إلى الفنّ العثمانيّ. وليس لنا ، من قصر الرّقّة، بقايا أخرى غير هذه؛ لكنْ، ما من شكّ في أنّ هذا القصر كان يشبه سائر قصور سامرّاء، حيث نقل المعتصمُ ، أحدُ أبناء الرّشيد ، عاصمتَه سنة 836 (222. هـ). انظر الملحق الثاني : سامرّاء.

ببغداد، عن السكّان المحلّيين الذين يوفّرون لأهل هذا البلاط الهائل ما يحتاجونه من يد عاملة ومن أغذية وموادّ مختلفة.

كان تأثير الحضارة السّاسانية – وسيضحي هذا التأثير أشدّ في القرن التّالي – يتجلى أكثر فأكثر، وبغاية الوضوح ، في كافة الميادين . فتأسّيا بملك الملوك[39] كان الخليفة يحتجب عن النّاس في قصره ويحيط نفسه بمراسم بات تعقّدها في تزايد مستمر. واذ كان الرّئيسَ الدّينيَّ وإمامَ كافة المؤمنين ثمّ "ظلَّ اللهِ في الأرض" ، فقد أمسى أعزّ عاهل في زمانه ، وبات قصره رفيع المرتبة بين الأماكن المقدّسة . فلا يخرج منه إلاّ في موكب عظيم الأبهة يبهر به رعيّته . فالخرائب المنتشرة الى اليوم ، في السّهل الممتدّ شرقيّ الفرات ، تجعلنا نتخيّل هذا العاهل العظيم وسط حاشيته في هذا الصّرح الهائل ، تحيط به " الجنّات " التي أمر بتهيئتها فيه ، تلك المنتهزات الشبيهة بحدائق الحيوان[40]، والتي كان أعدّها بنو أميّة وجعلوها متوزعة في البادية ليخرجوا إليها قصد الصيد واللّهو . كان هارون مولعا بتعاطي الرّياضة في الهواء الطّلق ، وكان أيضا فارسا مِغوارًا ، لذا أمر بأن يهيّأ بالرّقّة مضمار لتتسابق فيه خيول اسطبلاته . فقد وصف الجهشياري المؤرّخ ما كان يبديه الخليفة من سرور عندما يكسب السّباقَ أحدُ أبنائه أو فرسانه ؛ وفي المضمار أيضا كانت تنظّم لعبة " البُولُو " أي اللعب بالصّولجان[41]. والرّاجح أنّ هارون هو الذي أدخل هذا اللعب الإيراني الأصل عندما كان يقيم بالرّقة ، لكنّ الخليفة كان يمارس نوعا خاصّا من الصّولجان ألا وهو لعب الكرّة بالطبطاب[42]. كما أدخل لعب البرجاس[43] وهو أن يرمي اللاعب النّشّاب أو أن يولج سنان الرّمح في حلقة وهو راكب فرسه ، وقد أصبحت هذه الألعاب من التمارين الداخلة في تدريبات الجنود ، وكان هارون يشارك فيها على قدم المساواة مع سائر اللاعبين ، كما يشارك المتنافسين في الرمي بالسهام ، وقد كان من أوائل الخلفاء الذين اتخذوا الرّماة لحماية أنفسهم .

---

(39) * لقب كسرى ، ملك الفرس .

(40) حول طرديات بني العبّاس ، انظر الملحق الثالث .

(41) كانت لعبة [الصولجان لا الكُوغان كما رسمها أ. كلو] ، التي يُلْبَس لها لباس خاصّ – منه نطاق مذهّب وجزمتان حمراوان– تتمثّل في قذف أحد اللاعبين كرّةً مصنوعةً من جلد إلى ارتفاع عالٍ و وتلقّيها من لاعب ثان بمحجنه ، ورمي هذا اللاعب لها من جديد ليتلقّاها آخر ويرميها بدوره ، وهكذا دواليك إلى أن تدخل الكرّة مجالا بحدّده قضيبان يحرسهما أربعة فرسان من كلا الجانبين . وكانت المحاجن ، المتّخذة من الخشب ، معقوفة الأطراف كالتي تُستعمَل اليوم في نوادي البولو باوروبا .

(42) * الطَّبْطابة . خشبة عريضة تُرمى بها الكرّة .

(43) * البِرْجاس . الهدف الذي تُرمى عليها النّشّاب .

قضى الرّشيد في الرّقّة السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من عهده ومن حياته أيضا، وكانت أيام اقاماته في بغداد أثناءها قليلة وستقلّ مع مرّ الأيام أكثر فـأكثر ؛ وقد اتفق مرة ، وكان قادما من الجنوب، أن عرّج دونها، ولم يدخلها. ثمّ ان الادارة المركزية توزعت بين المدينتين ممّا زاد تصريف شؤون الدولة تعقيدا، فكان اهتمام الخليفة متجها قبل كلّ شيء إلى المنطقة الحدودية وكانت عنايته بإعداد الحملات على ما وراء جبال طوروس من بلاد الرّوم أشدّ منها بإحكام التصرّف في أمورالدولة. وقد يكون من حقنا أن نتساءل : أوَ لم يكن ذلك من أسباب تدهور المملكة في المدّة التي تلت انصراف الخليفة عن مدينة بغداد ؟

الفصـــــل الـرابـع

السنـــوات العصيبـة

« ان الدّول لها أعمار طبيعيّة كما للأشخـاص ، فهذا العمر للدّولة بمثابة عمر الشّخص من التزيدّ إلى سنّ الوقوف ثم إلى سن الرّجـوع » .[1]

(ابـن خلـدون)

---

(1) * المقدمة ، 304 .

انّ الأعوام التي توالت منذ جلس هارون على دست الخلافة لم تَخلُ من الاضطرابات ولا من الأزمات ؛ لكن لم يحدث خلالها ما من شأنه أن يهدّد مصير المملكة . فكلّ شيء بات يدلّ على أنّ أيّام النّعيم ، حينما ارتحل الخليفة من بغداد إلى الرّقة ، قد ولّت ولن تعود . فهل بدأ الرّشيد يفكّر في التّخلّص من البرامكة ؟ لا شك في أنّ ذلك لم يحن وقته ، رغم أنّ ما كان يبدو عليه من تبرّم لبقائهم في الحكم ظلّ لا يخفى عن أيّ أحد من بين الذين كانوا ينتمون إلى بطانته حيث كان نَجْمُ عدوّهم الألدّ ، الفضلِ بنِ الرّبيع ، في صعود مطّرد .

كان هارون ، مع استعداداته العسكريّة ضدّ بيزنطة (وعلاقاته مع شارْلُمان[2] تندرج في إطار مشاريعه ضدّ ملك الرّوم) يوجّه كامل اهتمامه إلى تعيين ولي عهد له على العرش . فما فتئ يفكّر في هذه المعضلة ويفاتح فيها المقرّبين من خاصته ، وانتهى به الأمر إلى حسمها لكن دون القضاء على إشكالها .

ففترة الرّقة – أطول فترات حكم الرّشيد – هي اذن أوفرها نشاطا ، وهي أيضا تلك التي أتت بعد تمهيد لها دام عشر سنوات ؛ فطُرحت المشاكلُ على حقيقتها ، وأحيانا بمقدار مأساويّ . ثمّ إنّها وافقت زمنا ستنقضّ فيه على الدولة ظاهرة التفكك ، وقد بدت واضحة هنا وهناك ، وستشهد فيه الخلافة استقلال بعض المقاطعات عنها استقلالا يكاد يكون تامّا .

وحـــدة المملكة مهـــدّدة

في نهاية القرن 8م (2هـ للهجرة) بلغت الخلافة العبّاسيّة أوج عزّتها . ففي الجزء الذي تُسيطرِ عليه من بلدان العالم ازدهارٌ اقتصادي لم يُشهد له مثيل من قبل ، وقُوًى عسكرية

---

(2) * شَـرلُمَـان (742- 814 / 125-199 هـ) . هو الإبن الاكبر لبيبين القصير رأس الأسرة القارولنجية . ملك الفرنجة وامبراطور الغرب . بعد خيبتـه في انتزاع اسبانيا من ايدي المسلمين حالف – على ما يروى – هارونَ الرّشيد على خلفاء الأندلس الأمويّين . تَنسب اليه الأسطورةُ أوّلَ حماية على الأراضي المقدّسة . تَوَّجَهُ البابا إمبراطورًا في مدينة روما . (184/800 هـ) . كانت عاصمةُ مملكته آخِن بألمانيا . قبل وفاته أمــر بتتويـج ابنه لُويس التّقيّ (198/813 هـ).

هي الأولى على وجه البسيطة اذ ذاك ، وحضارة متفنّنة في الترّف : كلّ ذلك جعل من أمير المؤمنين أعظم عاهل في الدّنيا لذلك العهد. فقد كانت ممتلكاتُه تمتدّ من المحيط الأطلسي غربا إلي جبال تِيَان-تشَان[3] ومصبّ نهر الهِنْدُوس[4] شرقا ، ومن جبال طُورُوس شمالا إلى باب المَنْدب[5] والنّيل الأزرق[6]جنوبا. وكان أعداؤه تَشُلّ قواهم نزاعاتُهم الدّاخلية : فامبراطورية الرّوم تتخبّط في أزماتها ؛ والأخيرة منها – وهي التي انجرّت عن خصومة الأيقونات[7] – قد زَعزعت أركانَها زعزعة شديدة. أمّا شارلمان ، الذي شخص إلى رومة ليتلقّى من أيدي البابا تاج المملكة الرّومانية الجرمانية المقدّسة ، فانّه لا يمكن أن يكون للخليفة غريما ولا حتّى منافسا ؛ ثم انّ بين مملكته وبين مملكة الرّشيد بُعدًا يا له من بُعد! فلا أحد كان يضاهي مرتبة الرّشيد ، الأمير على الملايين من المؤمنين العرب والأفارقة والمصريين والأتراك والبربر ، وجميعهم يُصلُّون خمس مرات في اليوم نفس الصّلوات ، مُولين وجوهَهم إلى نفس البيت الحرام ، وتوحّد بينهم العربيةُ ، لغةُ القرآن ، التي سرعان ما أصبحت لغة الادارة والثّقافة من أقصى البلاد الاسلامية إلى أدناها.

---

(3) * انظر ص 22 رقم 45 .

(4) * انظر ص 22 رقم 46 .

(5) * باب المَنْدب : مضيق يصل بين البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي.

(6) * النّيل الأزرق قسم من النّيل. والنّيل نهر في افريقيا الشرّقية (6.671 كم) يخرج من بحيرة ڤيكتوريا فيجتاز أوغندا والسودان ويمزج مياهه ببحر الغزال فيُسمّى النيل الأبيض ، وبمياه البحرالأزرق بالقرب من خرطوم فيُسمي النيل الأزرق. ثم يجري في بلاد النُّوبة ومصر فيُخصبها بفيضانه. يبلغ القاهرة ومنها يتشعب بالدلتا وينصب في البحر المتوسط . والنيل هو أطول نهر في العالم.

(7) * خصومة الأيقونات (المسمّاة أيضا قضية تحطيم الصُّوَر l'Iconoclasme) : هي تلك التي قسّمَت ، مدّة تزيد على القرن (من 108/726هـ الى 229/843هـ) ، نصارى الرّوم إلى أنصارٍ لعبادة الصّور (وهي عادةً صور من الفسيفساء المذهبة وتمثّل على جدران كنائس الأرثوذوكس المسيحَ والعذراءَ والقدّيسين على غرار التماثيل في كنائس الكاثوليك) ، وخصومٍ لها يحرّمونها ويكفّرون أصحابها ويضطهدونهم، متأثرين في ذلك دون شك – ولو بصفة غير مباشرة – بتعاليم الدين الإسلامي التي كان لها صدى في كامل المنطقة. اعتنق ما كان يعتبره النصارى بدعة (أي مذهب التكفير) لَيُون 3ْ وقسْطَنْطِين 5ْ ، وارتدت عنها إيرينة فحلّلت العبادةَ وحَجّرت التكفيرَ واعتنقها من جديد لَيُون 5ْ وتيُوفيل إلى أن انعقد بالقسطنطينية سيِنُودس synode (مجمع كنسي) قضى بإبطال التكفير وأقر الرجوع الى عبادة الصور أي العودة رسميا إلى العقيدة الأرثوذوكسية. وأثناء الخصومة ناصر في صلب الكنيسة الشرقيّة تحريمَ العبادة قمّةُ الاكليروس من بطارقة ومطارنة وأساقفة، يؤيدهم الأباطرة، وتَعصّب لتحليلها سائرُ رجال الدّين من رهبان وقساوسة (أنظرالملحق السادس) .

كان الخليفة على رأس مملكة مُمَركَزة النّفوذ قلّدت نُظُمَ الامبراطورية السّاسانية ومؤسساتها ، فمارس السلطةَ وأمّن النّظامَ في المقاطعات التي تكوّنها – وهي على ما هي عليه من التباين – ، وواجه النزعاتِ الاقليميّة والإقطاعيّة – قويَّها وضعيفَها – ، والابتداعاتِ المهرطِقة بجميع صنوفها ، وقاوم التيّاراتِ التي خلّفها كابوس البؤس وانهيار الأمل ، فلا يكاد يمرّ عام دون أن تندلع فتنةٌ في جهة من الجهات ، فتُرغم الولاة والقواد على أن يسارعوا بالتدخل لاطفاء نارها والقضاء على مدبّريها.

كان بنو أميّة قد حققوا هيمنتهم على الأمصار والأقاليم باخضاع الجموع الغفيرة من أهاليها لنفوذ قلّة نَزِرة من الفاتحين العرب. وهل كان ارتقاء بني العبّاس – وهم الذين خلفوهم على رأس المملكة وجعلوا تدبيرَ شؤونها بأيدي الموالي القريبين كلّ القرب من الأهليين لكونهم من غير العرب – هل كان ارتقاؤهم إلى الحكم تحقّق حين بات من المستحيل القضاءُ على نفور الأهليّين المغلوبين ؟ أم هل أنّ رفضَ أولئك الأهليين للضّيم وانتفاضَ البعض منهم على السلطة عند أول نهزة كان أمرا محتوما ؟ على كل ، فالحركات الاجتماعيّة والدّينيّة التي نشأت منذ العقود الأولى من الحكم العبّاسيّ ستُحدث في هيكل الدولة ، قبل موفى القرن ، كسورا لن يتسنّى أبدا جبرُها. يضاف إلى ذلك أنّه ، بسبب اتساع رقعة المملكة اتساعا متناهيا ومركزة النفوذ فيها مركزة مفرطة ، كان من الصّعب مراقبةُ المقاطعات النّائية. ألم تكن الأوضاع إذن تُغري الولاة بالاستقلال شيئا فشيئا عن السّلطة المركزية ؟

انّ الشّمال الافريقي الذي فُتح في نهاية القرن 7م (1 للهجرة) كان قد نُشر الاسلام في معظمه على يد الخوارج ، احدى الفرق المهرطِقة ، الأكثر تأثيرا إذّاك . نشأت هذه الفرقُ ، كما رأينا ، على اثر رفض جماعة من المؤمنين قبولَ التحكيم الذي تقرر أن يُحسَم عن طريقه الخلافُ القائم بين عليّ ومعاوية. فانتشر مذهبها انتشارا سريعا بين سكّان الأرياف في المغرب ، بفضل الصبغة المساواتية التي اصطبغ بها. وتفرّق دعاته بين قبائل البربر، على الأرجح اثر فرارهم من الاضطهاد الذي كانوا تعرضوا له من الأمويين بالعراق. فهذه "البدعة المُحرِّرة" انتشرت انتشارا سريعا بين ساكني السهول والجبال ، وكانوا أقلّ النّاس تقبّلا لسيطرة العرب الذين خيّبوا الظنّ بغطرستهم. فمنذ سنة 757 (140 هـ) – أي في عهد المنصور – استولى جمعٌ من الخوارج على طرابلس الغرب[8] واتخذوا منها قاعدة لهم. وفي السّنة الموالية استولى جماعة آخرون منهم على القيروان واعتصموا بها

---

(8) * طرابُلُس الغرب : احدى ولايات ليبيا ، تحدّها تونس والجزائر غربا ، وولاية فزّان جنوبا ، وولاية بَرْقة شرقا. يرتفع فيها شمالا جبل نفوسة يليه سهل ساحلي خصيب . قاعدتها طرابلس (وتضاف أحيانا الى طرابلس كلمة الغرب تمييزا لها عن طرابلس لبنان التي تُعرف أحيانا بطرابلس الشّرق) . فتح طرابلسَ الغرب عمرُو بن العاص سنة 643 (23 هـ) .

ثلاثة أعوام إلى أن أطردهم منها عاملُ الخليفة واسترجع المدينة. وبالرّغم ممّا حدث بعد ذلك من تقتيل ، بقيَت سيطرةُ نائب بغداد على الوضع غيَر كاملة ، بحيث بُويع في تِلِمْسان خليفةٌ مضادّ للخليفة العبّاسيّ ؛ فأعرَض الأغلبُ ، وهو الوالي اذ ذاك ، عن الخروج لاقتفاء أثره. عندما اشرفت خلافةُ المنصور على نهايتهـا ، كانت الحالة تبدو على قدر كبير من التدهـور فـي إفريقية ، حـيث أعلِن الجهادُ من جديد ، وحُوصر الوالي عمرُ بن حفص بالقيروان[9] ، ثم قُتل بها. وللقضاء على الثورة أُرسلت تعزيزاتٌ كبيرة بقيادة يزيد بن حاتم[10] : 60.000 رجل من العراق وسوريا و 30.000 من خراسان ، كاملي العدّة والسلاح ؛ وشُيدت استحكاماتٌ في مواضع المخافة حيث أُقيم ما يستوجبه الدفاع من الرُبُط[11] ، كما أعيد ترميمُ القلاع البيزنطية القديمة لحشد صفوة المجاهدين فيها ، وقد آتت هذه الاحتياطاتُ أُكلَها . ففي 772 (156 هـ) قُضي على الخوارج في طرابلس وقُتل قادتُهم ، واسترجَع يزيدُ القيروانَ ، ولمدة خمسة عشر عاما ، سيعمد الوالي الجديد إلى تسليط القمع على السكان وسينجح في إحكام وسائله ، وسيليه في الحكم ابنُه ثمّ أخوه.

---

(9) * عمر بن حفص بن قُبيْصة ابن أبي صفرة المُهَلَّبي (... - 771 / ... - 155 هـ) . أمير ، من الأبطال. كانت العجم تسميه "زهزارمرد" أي ألف رجل . ولي امارة السند أيام المنصور العبّاسيّ ، ثمّ وجّهه المنصور أميرا على افريقية فدخل القيروان سنة 768 (151 هـ) والفوضى قائمة فيها ، فقضى على بعض أصحاب الفتنة ، فتكاثرت عليه جموعهم وثبت لهم فيمن معه من الجند ، وقاتلهم زمنا وحصروه في القيروان ، فخرج إليهم فقاتل حتى قُتِل.

(10) * يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أبي صفرة الأزدي (... - 787 / ... - 171 هـ) أمير ، من القادة الشجعان في العصر العبّاسيّ . ولي الدّيار المصريّة سنة 762 (145 هـ) للمنصور ، فمكث سبع سنين وثمانية أشهر وصرفه المنصور سنة 769 (152 هـ) ثمّ ولاه إفريقية سنة 771 (155 هـ) ، فتوجه إليها وقاتل الخوارج واستقرّ واليا بها خمس عشر سنة وثلاثة أشهر ، قضى خلالها على كثير من فتن البربر وغيرهم ، وتوفيّ بالقيروان. كان جوادا ممدوحا شديد الشبه بجدّه المهلب في الدّهاء والشجاعة .

(11) كانت الرُبُط تُشيّد بالخصوص على الحدود البحرية لردّ غارات الأعداء - من النصاري على الأخصّ - ولتمكين المسلمين من مواصلة الجهاد في سبيل الله. وكان الرجال الذين يقيمون بها ضربا من الجنود المترهبين الذين يُوقفون حياتهم على الحرب والعبادة ؛ ذاك ما جعل العديد من القلاع تنتشر على طول السّواحل الافريقية بأبراجها ومتارسها ، وابن خلدون يُقدّر عددها بعشرة آلاف وهو عدد مبالغ فيه جدا . يتركب مبنى الرباط عادة من سور عليه أبراج ، وداخله أروقة تحيط بفناء يَفتح عليه بيتُ صلاة بجانبه ميضاةٌ. وفي الطابق العلوي حُجيرات ، كالتي في الطابق السفلي. ثمّ في احدى زوايا السور ، برج معلّى وظيفته ارسال إشارات نارية للاعلان عن الخطر. وعلاوة عن رباط المنستير فان رباطين لا يزالان يوجدان بسوسة وصفاقس .

وهكذا بدأنا نرى أُسَرًا حاكمة من الولاة تتكوّن هنا وهناك ، وهي طريقة "ناجعة" في ممارسة السّلطة ، لكنّها ليست خالية من المَساوئ .

على أنّ آل يزيد لم يقدروا هذه المرّة على الاحتفاظ بالحكم. فالبرامكة ، الذين لا يروق لهم أن يَرَوْا الولاية على الأمصار يورّثها الأبُ لابنه ، كانوا يُبعِدون من الرّجال من يرتابون في أمره. وبعد التسابق بين الشّقّين المتنافسين في بطانة الرّشيد – قَصْد التأثير عليه – أمكن البرامكة أن يفرضوا تعيين القائد هرثمة بن أعين ، ذي الصّيت الذائع والصلّة المتينة بهم وبأتباعهم. فبفضل تأييد قسم من جند " العبّاسيّة " – الذين جمعهم الفضل البرمكي من خراسان – استطاع هذا الوالي الجديد أن يواصل إخماد الفتنة . كما أنه بنى بالمنستير الرّباط الذي لا يزال يُشاهَد إلى اليوم ، والذي يُعتبَر أعظمَ رباطات الشّمال الافريقي وأقدرها على الصمود أمام البِلَى والخراب ؛ وقد يكون الرشيد هو الذي أمر شخصيا ببنائه لقطع الطّريق على السّالكين إلى الأندلس.

ومع ذلك ، فإنّ أعاصير جديدة بات هبوبها على الجهة متوقّعا؛ فقد أقيل هرثمة من مهامّه ، بطلب منه ، وتلت استقدامَه إلى الشّرق فترةٌ غامضة : اتّحد الجند والأهالي وأطردوا الواليَ محمد بن مقاتل[12]، الذي سمّاه البرامكة ، فأعاده إلى منصبه إبراهيم بن الأغلب[13]

---

(12) * محمّد بن مقاتل بن حكيم العكّي (.... - بعد 800 / .... - بعد 184 هـ) : أمير؛ كان رضيع هارون الرّشيد . وليَ افريقية سنة 797 (181 هـ) وقدم إليها ، فأقام بالقيروان. ولم تُحمد سيرته ؛ فثار عليه عامله بتونس تمّام بن تميم التميمي، فانخذل العكّي واعتقله تمّام وأرسله إلى طرابلس الغرب ؛ فقام بنصرته عامل الزّاب إبراهيم ابن الأغلب فأعاده إلى القيروان ، وقضى على فتنة نمام. وأحبّ الناس إبراهيم ؛ وكان لافريقية كل سنة مائة ألف دينار تأتيها من مصر، فعَرَض إبراهيم على الرّشيد أن يترك هذه المائة ألف ، ويُرسل هو من افريقية أربعين ألف دينار، فورد أمرُ الرّشيد بولايته ، وعُزِل العكّي سنة 800 (184 هـ) واستقلّ إبراهيم بالامارة.

(13) ابراهيم ابن الأغلب بن سالم التميمي (757-140/812-197 هـ) . ثاني الأغالبة ، ولاة افريقية لبني العبّاس . كان أبوه الأغلب قد وَليها من 766 (149 هـ) إلى 768 (151 هـ) وقتله ثائر. فوُجه إليها عدةُ ولاة غلبتهم الفتنُ . ووليها محمّد بن مقاتل وتغلّب عليه أحد عمّاله سنة 779 (163 هـ) ؛ وكان إبراهيم واليا على الزّاب فناصر ابنَ مقاتل وردّه الى امارته ؛ فورد عهد الرّشيد بعزل ابن مقاتل وتولية إبراهيم امارة افريقية. فنهض بها وضبط أمورها، وابتنى بها مدينة العبّاسيّة على مقربة من القيروان وانتقل إليها، ونشبت ثورات في أواخر أيامه فأطفأها؛ وكان على علم بالأدب والفقه ، شاعرا خطيبا شجاعا، وله وقائع في المغرب مع أهل الدعوة لإدريس العلوي. مات بالعبّاسيّة ، وهو أول من اتّخذ العبيد لحمل سلاحه واستكثر من طبقاتهم واستغنى بهم عن الرّعية في بعض أموره. قال ابن عذاري : «لم يَلِ افريقيةَ أحسنُ سيرة ، ولا أحسنُ سياسية ، ولا أرأفُ برعية ، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه ».

عامل الزّاب[14]؛ لكنّ الأهالي أطردوه من جديد وحثّوا ابن الأغلب على المطالبة بأن يُعيَّن هو عاملاً على افريقية. وبعد شيء من التّردّد ، وافق هارون : في شهر جويلية (تمّوز) من سنة 800 (184 هـ) أسنَد إمارة المقاطعة الغربية من المملكة إلى إبراهيم ابن الأغلب الذي سيُعرف في التاريخ بإبراهيم الأوّل الأغلبي.

بهذا يبدأ عهد جديد بالنسبة الى إفريقية[15]– بل وبالنسبة الى الخلافة قاطبة – وذلك من حيث لم يكن أحد يتوقعه ؛ فلأوّل مرّة ، يجري ، بين أمير المؤمنين وأحد عمّاله ، اتّفاق يتعهّد هذا الأخير بمقتضاه ، لا فحسب بالتنازل عن المائة ألف دينار التي تدفعها مصر للمساهمة في الانفاق على جيوش الاحتلال ، بل بتقديم أربعين ألف دينار للخليفة كل سنة . منذ ذاك الحين أصبحت لافريقية حرية التّصرف المالي – وهو على الأرجح تمهيد لتحرّر أوفر– دون أن يُخفي ذلك التّحررُ النسبي نيةَ المطالبة بالاستقلال الكامل ؛ وصار أميرُها – وهو الذي ليس بالموظّف العادي المعرَّض للعزل – يحكمها ويتصرف في شؤونها بمعزل عن مراقبة بغداد. على أنه بقي التابعَ الخاضع للخليفة الذي ينفرد بتوليته ، لكن دون التدخّل في نظام الوراثة للبيت الأغلبي الذي سيحتفظ بالنّفوذ طوال مدة تفوق القرن.

وشيئا فشيئا ، تسبَّب البعدُ عن العاصمة ، وتعذّرُ تدخل السلطة المركزية في شؤون هذه المقاطعة التي لها من الثراء ما يغنيها عن كل إعانة ، في فتور العلاقات بين بغداد والقيروان ؛ وفعلا سرعان ما طفق إبراهيم يتحكم تحكم الأمير الذي يتمتع باستقلال تام أو يكاد . فاتخذ لنفسه " حرسا أسود " يعدّ خمسة آلاف من العبيد ، يدينون لشخصه بالولاء المطلق ؛ وذاك ما سيجعله في مأمن من كلّ مفاجأة قد يباغته بها "الجند". فما أبداه من حصافة في التصرّف ، وما حقّقه من استقرار للأمن الداخلي ، ومن دفع للنموّ الاقتصادي ، أمّن له وفاء الأهالي وإخلاصهم .

ثم إن إبراهيم شاء أن يُظهر انه ليس عاملا عابرا كسائر العمال ، وانه عاهل يتمتع عمليا باستقلاله ، وأن له ما للخليفة تقريبا من النفوذ والجاه . فابتنى بضواحي القيروان قصرا عظيما[16]، عُرف بالقصر القديم – وسمّاه " العباسية " عرفانا للأسرة الحاكمة – ، واستقرّ به مع حرّاسه السّود ، والوحدات الموالية له ، وجنده ، وحاشيته ، وكامل حشمه .

---

(14) الزّاب : هو القسم [الجنوبي] الغربي من افريقية [الزّاب أراضٍ وجبال في تونس الجنوبية الغربية والجزائر الجنوبية الشرقيّة على حدود الصحراء. يفصّل ياقوت عنه البيان قائلا : « الزّاب الكبير منه بِسكَرَة وتَوْزَر وقُسَنْطينيّة وطَوْلَقَة وقَفْصَة ونِفْزَاوة ونَفْطَة وبَادِس ...» ؛ والزّاب أيضا اسم لنهرين بالعراق هما الزاب الكبير والزّاب الصغير].

(15) أي البلاد التونسية حاليا والقسم [الشرقي لا الغربي، كما كتبه ، أ. كلو] من البلاد الجزائرية.

(16) حسب نفس التخطيط الذي بُنِي عليه قصر الرَّقّة .

وهناك ، على ما يبدو ، جرى اقتباله للوفد الذي أرسله شارلمان لتسلّم رفات القدّيس قِبْرِيانوس[17]؛ وسيَبْني أحد خلفائه ، وهو إبراهيم الثاني ، قرب ذلك المكان قصره الفخم، المعروف برقّادة ، ويحيطه بحدائق شاسعة ، وقد بقي منه بعض الآثار الى اليوم .

وكالعبّاسيين ، خصّص الأغالبة[18] نصيبا كبيرا من مواردهم للمباني الدّينية والنّفعية . فقد وسّعوا جامع عُقبة[19] بالقيروان – وهو من أقدم المساجد الاسلامية وأعظمها مكانة في النّفوس–، والجامع الأعظم[20] بتونس، والجامع الكبير بسوسة[21]، والجامع الكبير بصفاقس[22] ؛ وشيّدوا قلاعا وبنوا مصانع[23] للرّيّ. واقترن هذا التّحوّل الذي شهدته البلاد – وكان صدى للرخاء الاقتصادي – بنشاط كبير للحياة الدّينية : فقد أمست القيروان أيّام الأغالبة مركزا هامّا من مراكز التّبحّر في العلوم القرآنية ، أحدث فيه أنصار المدارس الشرقيّة ، على اختلافها، حياة فكرية واسعة تذكّر بتلك التي كانت تختصّ بها بغداد والفُسطاط والبصرة .

عند نهاية عهد إبراهيم 1 ً[24] – وتكاد توافق نهاية عهد هارون – كانت إفريقية خارجة تقريبا عن المملكة ؛ فالخليفة يقتصر على التّذكير بوجوده عن طريق ارسالـه

---

(17) * القدّيس قِبْرِيانوس (أو كُپْرِيانوس) Saint-Cyprien (ولد بقرطاج في أوائل القرن 3 ً للميلاد وتوفي بها سنة 258 م) . أديب لاتيني مسيحي وأحد آباء الكنيسة . عُيِّن أسقُفا لقرطاج سنة 248 م ، وأرْغِم على الاختفاء أثناء موجة الاضطهاد التي شَنّهَا على المسيحيين الامبراطور ديسيوس إثرانتصاره على فيليپّوس (الامبراطورالعربي الأصل) ، ونادى بالعفو عن المرتدّين"Lapsis" ، ومات شهيدا . هو أحد الفقهاء الذين كان لهم ضلع في توحيد الكنيسة . من آثاره : "الخاسرون" و "وحدة الكنيسة" و"الرسائل" . أطلقت السُلُطُ الاستعمارية بتونس اسمه على قرية من ضواحي تونس تعرف بسيدي علي الحطاب – مثلما صنعت في أماكن عديدة – عبثا بالمقدسات الاسلامية وطمسا لآثارالحضارة العربية .

(18) * الأغالبة : أسرة حكمت افريقية من 800 (184 هـ) الى 904 (292 هـ)، كانت عاصمتها القيروان وعدد أمرائها أحد عشر، أوّلهم إبراهيم 1 ً وآخرهم زيادة الله 3 ً.

(19) * أسّسه عقبة بن نافع سنة 671 (51 هـ) لدى تأسيسه مدينة القيروان .

(20) * المعروف بجامع الزيتونة . أسّسه عبيد الله بن الحبحاب سنة 732 (114 هـ).

(21) * لم يوسّعه الأغالبة بل أسّسوه . أسّسه أبو العبّاس محمّد بن الأغلب سنة 850 (236 هـ) توسعة للمصلين ، وقد ضاق بهم مسجد الرّباط ومسجد قُتاتة (انظر . ورقات ، 2 ، 22-32).

(22) * أسّسه القاضي عليّ بن سالم الجبنياني، مع أسوار المدينة ، سنة 849 (235 هـ) .

(23) * المصانع : ما يُجمع فيه ماء المطر من أحواض وصهاريج وبِرَك وسَوَاق وغيرها ؛ وتعرف أكبر بركة أغلبية في القيروان في الوقت الحاضر باسم "فسقية الأغالبة".

(24) * انظر ص 111 رقم 13.

هبات ومساعدات الى ضحايا الكوارث الطبيعيّة ومساهمات في بناء المعالم الدّينية ؛ وشأن هارون الرّشيد يمثل مسبقا في هذه الفترة ما سيكون للخليفة العبّاسيّ من مكانة مستضعفة في القرن الموالي.

استؤصلت من افريقية فتنة الخوارج ذات النّزعة المخالفة المهرطقة ، ولن تُبعث للوجود من جديد. إلاّ انّها لم تعرف مصيرا مماثلا غربيّها أي في الجهة الوسطى من الجزائر اليوم. فهذه المنطقة التي كان سكّانها من البربر والتي فُتحت منذ أواسط القرن 7ً(1ًالهجري)، نُشِر فيها الإسلام على أيدي الخوارج أيضا أثناء النصف الأوّل من القرن 8ً (2ً للهجرة) ؛ وقد بقيت منهم جماعات حتى اليوم صامدة ومحافظة على عقيدتها، خصوصا بجهة ميزاب[25] . فجيوش الخليفة ، أثناء الحملات التي شنّتها لاسترداد ما اغتصبه الثوّار من الشُّراة ، لم تقدر على الانتشار غربي افريقية حيث قبلت أن تعايشها – وتزدهر على تخومها – امارات يكاد جميع سكّانها يدينون بإسلام غير سنّيّ .

كانت أهمّ هذه الامارات قد أسّسها بتَاهَرْت[26] سنة 761 (144 هـ) عبد الرّحمان

---

(25) * مِيزَاب . مجموعة واحات في شمال صحراء الجزائر غربيّ وادي سُوف ، سكّانها من البربر يشتغلون بالزّراعة ، وأهم مدنها غَرْدَايَة. قساوة الطبيعة في هذه الجهة وقلّة الموارد ترغمان السكّان على الهجرة إلى مدن الشّمال لتعاطي التّجارة . والمزابيّة، وهم من الخوارج، جاؤوا الى أرض ميزاب واستقروا بها بعد قضاء الشّيعة على إمارة ناهرت في القرن 10ً(4ً للهجرة).

(26) * تَاهَرْت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحداهما تاهرت القديمة والاخرى تاهرت المحدثة ، بينهما وبين المسيلة ست مراحل ؛ وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد ، وهي كثيرة الانداء والضباب والأمطار، حتى ان الشمس بها قلّ أن تُرى ، وكانت قديما تسمى عراق المغرب. ولم تكن في طاعة صاحب افريقية ولا بلغت عساكر المسوّدة (العبّاسيّين) إليها قط ولا دخلت في سلطان بني الأغلب ، وانما كان آخر ما في طاعتهم مدن الزّاب. وهي في سفح جبل يقال له جزّول وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة... وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رسنم بن برهام هو مولى عثمان بن عفّان وهو بهرام بن بهرام جوربن باذكان بن شابور بن ذي الاكتاف ملك الفرس؛ وكان ميمون هذا رأس الأباضية ورأس الصُّفرية والواصلية ، وكان يُسلـَّم عليه بالخلافة. وتعاقب مملكةً ناهرت بنو ميمون وإخوته.

(27) * عبد الرحمن بن رُستُم(... - 767/... - 150 هـ) مؤسّس مدينة تاهرت بالجزائر وأوّل من ملك من الرستميين ، وكان من فقهاء الأباضية بافريقيّة معروفا بالزهد والتواضع. ولما تغلب أبو الخطاب على افريقية استخلفه على القيروان. وزحف ابن الأشعث ودخل القيروان وقتل أبا الخطاب ،ففرّ عبد الرحمن بأهله وما خفّ من ماله الى المغرب ، ولحقت به جماعات من الأباضية ، فنزل بموضع تاهرت وكان غيضة بين أنهار وفيها آثار عمران قديم ، فبنى أصحابه بها مسجدا واختطوا مساكنهم (نحو 162/778 هـ) وبايعوه بالامامة فأقام إلى أن تُوفّي.

بن رُستُم[27]وهو فارسيّ أطرِد من القيروان ابّان الفتنة التي استردت السنّة اثرها سالف نفوذها بافريقية وعاصمتها. وبعد أن انتخبه خوارج الجهة اماما جعلوا يختارون خلفاءه من بين أهل بيته ؛ وهكذا أصبحت السّلطة العليا وراثية وازداد تأثير بني رستم[28]، وسريعا ما شمل قسما كبيرا من الشّمال الافريقيّ. ففي هذا النّظام الطّيوقراطي ، حيث للبربر مكانة متميّزة ، لم تكن المشاغل الاقتصادية غائبة. فكانت سياسة بني رُستم – وهم الذين سيوفّرون الأئمّة حتّى نهاية القرن 10م (4هـ الهجري) – تعمل بالخصوص على تسهيل مبادلات المناطق السّاحليّة مع داخل البلاد وحتّى مع البلدان الواقعة جنوبيّ الصّحراء ، وخصوصا مع السّودان[29]. فهذه "الجمهورية الوراثيّة" من التّجّار– حيث كان العنصر الفارسي متشبّثا بنفوذه – ربطت مع المترحّلين من السّكان والفلاحين المستقرّين داخل البلاد ، علاقات متينة ، موفّرة بذلك الأمن لقوافل التّجار وموسّعة نطاق سلطانها وإشعاع مذهبها الخارجيّ حتى حدود اسبانيا والعراق. وازدهر اقتصادها ، فجلب إليها الرّخاءُ الذي عمّها مهاجرين كثيرين شدّوا إليها الرّحال من كلّ حدْب وصوْب ، في حين ارتحل بعض الرّستميين إلى الأندلس وشغلوا خططا في بلاط امرائها.

وكما كان الشأن دائما في البلاد الاسلامية خلال العهد الوسيط ، فإن النّمو الإقتصادي كان يقترن دائما بانتشار المعارف. فكلّ العلوم – من رياضيات وفلك[30] وأدب وشعر وعلوم دينية طبعا – كانت محلّ نظر ودراسة وحفظ لدى سكّان تاهرت الذين اشتهروا بميلهم التلقائي الى التّقشّف وابتعادهم عمّا كان عليه أهل القيروان من إسراف في اللّهو والمجون أيّام الأغالبة ؛ فمدينة القيروان لم يكن لها أيّ تأثير على امارة تاهرت

---

(28) * بنو رُستُم : أسرة أنشأت مملكة بجبل الوَرْسَنيس الجزائري خلال القرنين 8م و9م (2هـ و3هـ للهجرة) ؛ أسّسها سنة 761 (144 هـ) عبد الرحمن بن رُستُم ذو الأصل الفارسي والذي كان عُيّن واليا على القيروان ؛فحكمت امارةً كانت موطن الدعوة الخارجيّة. في عهد بني رستم ، أصبحت عاصمةُ إمارتهم تاهرتُ كعبة القُصّاد ومركز إشعاع ديني وثقافي بالغ الأهمية. وفي سنة 908 (296 هـ) زحفت قبائل كتامة من الجبال على دولة بني رستم وقضت عليها، وبعد سنة (297/909 هـ) هدّم الفاطمي عُبيد الله المهدي مدينة تاهرت ولم يُبْقِ منها أثرا.

(29) * السودان جمهورية من جمهوريات القارة الإفريقية تقع جنوبي البلاد المصرية. وفي المصطلح الجغرافي العربي القديم كلمة سودان كانت تعني بلاد السّود (السودان خلافًا لبلاد البيضان) أي البلاد الواقعة جنوب الصحراء ، وقد استعملها الجغرافيون المعاصرون للاشارة إلى البلاد الواقعة جنوب غربي الصحراء أي إلى ما يوافق ما كان يُسمى بالخصوص "بافريقيا الغربية الفرنسية" (ب. ڤيدال دي لابلاش).

(30) قال بعض الرّستميين : «ليس لنا من أمّة الا وهي تعرف فلك البروج وصوره » (ذكره ج. مارسيه G. Marçais).

حيث كان النّاس يعتبرون عاصمة الأغالبة مثالا لا يُحتذَى . أما بغداد فقد كانت بعيدة كلّ البعد – من جميع النّواحي – عن نفسيّة هؤلاء البرابرة ، وأولئك الأعاجم الذين يُنْكِرون على الخليفة ما كان ينتحله من المعتَقدات ، وما يقول به من الآراء ، وما تتخبّط فيه عاصمته وبلاطه من انحلال في الأخلاق ليس – في رأيهم – بعده انحلال . فجميع هذه المنطقة الوسطى من المغرب قطعت كلّ صلّة مع النّفوذ المركزي قبل استقلال الأغالبة عنه بزمن طويل ، وبات الرشيد لا رقابة له عليها ولا ذكر حتّى لاسمه فيها .

بعيدا عن تلك الإمارة من جهة الغرب ، فيما يمثّل المغرب الأقصى الحالي ، دخل الاسلام في أواخر القرن 7 م (1 للهجرة) وأوائل القرن 8 م (2 للهجرة) ، وانتشر بين عشائر جبليّة ما عتّمت ان صبغته بصبغة مهرطِقة . فهنا أيضا سرعان ما حوّل إفراط العمّال في جباية الأموال ، وتعسّفُ الولاة في معاملة الأهالي ، وضعفُ الادارة في ممارستها للتصرّف القويم ، قلوبَ الناس في آن واحد عن الاسلام السّنّي وعن السّلط الممثّلة للخلافة . اعتنقت تلكم الأقوامُ مذهبي الخوارج والمعتزلة خصوصا لأنّهما معارضان للنّفوذ المركزي ، وصارت تشق عصا الطاعة كلما سنحت لها الفرصة بذلك . فمنذ سنة 740 (123 هـ) اندلعت ثورة في أقصى الغرب واستولت على طنجة[31] ثمّ على قسم كبير من البلاد ، وأحدثت ثلمة عظيمة في هيمنة بني أمية على الجهة . ولما ولي بنو العبّاس لم يكونوا أسعد حظا من سابقيهم ، وسادت البلاد فوضى تكاد تكون تامّة ، فكانت امارات تتكوّن ثمّ تضمحلّ وتزول ، وأخرى تعظم وتقوى حتّى تصبح دولا . وستعطي الاسلامَ إحداها ، وقد أسّسها أحد المنتسبين إلى آل البيت ، واحدا من أعظم مراكز الإشعاع الثقافي فيه ، وإحدى كبريات عواصمه الجميلة : ألا وهي مدينة فاس[32] .

---

(31) * طَنْجَة . مرفأ على مضيق جبل طارق في شمال المغرب الأقصى . كان مصرفا للفنيقيين ثمّ للقرطاجنيين . فتحه المسلمون سنة 707 (89 هـ) وحشد فيه طارق بن زياد جيشه قبل أن يجتاز إلى اسبانيا سنة 711 (93 هـ) . من 1923 إلى 1956 كان قاعدة لمنطقة دولية . بعد عودته إلى الحظيرة المغربية بقي مرفأ للتجارة الحرّة .

(32) * فاس : من أقدم مدن العالم الاسلاميّ عراقة ، وهي احدى المدن السّلطانيّة الأربع وعاصمة الشّمال في المغرب الأقصى . تقع على وادي فاس (أحد روافد نهر السّبُو) بالأطلس الأوسط. أسّسها ادريس سنة 809 (194 هـ) . سكنها أولَ عهده البربرُ والأندلسيون اللاجئون من قرطبة وأقوامٌ من القيروان . أصبحت مركزا ثقافيا وفنيّا خطيرا في القرن 10 م (4 م الهجري) . وزادت أهمية مع الموحّدين إلا أنّها بلغت أوج عزّها في القرنين 13 م و 14 م (7 م و 8 م للهجرة) مع السّلاطين المرينيّين الذين شيّدوا بها الجوامع والمدارس السبع . ورغم اختيار مولاي اسماعيل مكناس عاصمة له في القرن 17 م (11 م للهجرة) لم تزل فاس في =

وفي 786 (170 هـ)، أي نفس السّنة التي ارتقى فيها الرّشيد عرش الخلافة ، اندلعت ثورة شيعيّة في المدينة المنوّرة اعتصم أثناءها الحسين بن عليّ ، أحد أحفاد الحسن[33] بمسجدها ونادى بنفسه أميرا للمؤمنين. واذ كان في عدد قليل من الرّجال (26 رجلا من العلويين يضاف إليهم بعض المنضوين حديثا تحت لواء المذهب وبعض الحجيج) لم يكن لمحاولته أيّ حظ ممكن من النّجاح ؛ فمكّنته السّلط من الانسحاب ، فخرج وارتحل إلى مكّة. وما كان يُكتب لهذه القضية ان تعرف ذيولا لو لم يعترض سبيلَه جنودُ الخليفة ، وكانوا يخفرون ركب الحجّاج. فقطعوا عليه الطريق ونشبت بينهم وبين رجاله معركة قُتِل أثناء ها الحسين وتفرّقت اثرها فلُولُ جيشه الصغير. أما العلويون فقد خرج جند الخليفة جادّا في طلبهم ففرّوا وتفرّقوا أيدي سبأ. فلجأ أحدهم ، وهو يحيى بن عبد الله[34] إلى العراق ثمّ انتقل إلى الرّيّ . ورغم أنّ الرّشيد – الذي تولّى الخلافة منذ عهد قريب – أهدر دمه ، فقد استطاع ان يمضي الى خراسان ، وان يصل إلى ما وراء النهر ثمّ إلى بلاد الدّيلم قرب بحر قزْوين وان يدعو من هناك إلى الانتقاض؛ الاّ أن الفضل استطاع ان يقنعه

= ازدهار متواصل ، لاسيما في عهد مولاي سليمان ومولاي الحسن . من بناياتها الأثريّة الشهيرة جامع القرويين والأندلس ومدرسة العطّارين. بها أيضا مدافن سلاطين بني مَرين.

(33) * الحَسن بن عليّ ابن أبي طالب (624-2/670-50) : خـامس الخلفاء الراشدين وآخرهم ، وثاني الأئمة الاثني عشر عند الامامية . وُلد في المدينة المنوّرة وأمّه فاطمة الزّهراء بنت الرّسول ؛ كان عاقلا حليما، من أحسن النّاس منطقا وبديهة . بايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه ، فأطاعهم فخرج بجيش لمحاربة معاوية ، فـزحف إليه معـاوية ، وعندما تقارب الجيشان لم يستشعر الثّقة بمن معه فكتب إلى معاوية يشترط شروطا للصلح ورضي معـاوية ؛ فخلع الحسن نفسه وسلم الأمر لمعاوية سنة 662 (42 هـ) وانصرف إلى المدينة حيث أقام حتى توفيّ مسموما .

(34) * يحيى الطالبي، هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن عليّ بن أبي طالب (... – نحو 796 / .. – نحو 180 هـ) : من كبار الطالبيّين في أيام موسى الهادي وهارون الرّشيد العباسيّين . ربّاه جعفر الصادق في المدينة فتفقّه ، وكان مع ابن عمه الحسين بن عليّ في ثورته بالمدينة . وذهب إلى اليمن فأقام مدّة ودخل مصر والمغرب ، وعاد إلى المشرق ؛ فدخل العراق متنكرا، وقصد بلاد الرّي وخراسان ؛ واشتدّ الرّشيد في طلبه ، فانصرف إلى خاقان التّرك ، فأقام مدّة وخرج إلى طبرستان فبلاد الدّيلم ، وأعلن بها دعوته وكثر جمعه ؛ فندب الرّشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي ، وضعف أمر الطالبي، وخاف أن يغدر به ملك الدّيلم ، فطلب أمان الرّشيد فاجابه بخطّه ، واستقدمه إلى بغداد ؛ فأغدق عليه العطايا إلى أن بلغه أنه يدعو لنفسه سرا، فحبسه عند الفضل بن يحيى الذي رق له بعد مدة فأطلقه . وعلم الرّشيد وكان ذلك ممّا أحفظه على البرامكة ، وأرسل من أعاد يحيى إلى الاعتقال في سرداب ، ووكل به مسرورًا السيّاف واستمرّ إلى أن مات في حبسه .

بالاستسلام ، وسيمثّل مقتله–بعد ذلك بمدّة–أهمّ أسباب القطيعة بين هارون والفضل ، وسيتّهم الأوّلُ الثانيَ – بأنّه المسؤول عن ذلك .

كان لإدريس ، أحدِ المنتسبين لآل البيت ، مصيرٌ ارفعُ شأنا ، فقد استطاع ، برفقة رشيد – أحد مواليه – أن يصل إلى مصر؛ واذ كانت شرطة هارون تلحّ في طلبه تمكّن من أن يختفي هناك مدة قبل أن يفرّ إلى المغرب حيث آوته قبيلة بربرية بوَلِيلَى[35] (ڤولُوبِيلِيس)٠ وأكسبه انتسابه إلى آل البيت مزيدا من الجاه ، وسيُنشئ هناك دولة تحكم مدّة تزيد على القرن وسيؤسّس بالخصوص مدينة فاس٠

سريعا ما طمح ادريسُ 1ً إلى أن تكون له عاصمة تضاهي تاهرت والقيروان ٠ كان موقع فاس – وهي التي أسِّست على ضفاف نهر ، في ملتقى طرقات – محلّ اختيار مقصود : فقد كان ادريس ، باندماجه بل بانصهاره في البيئة البربرية يرمي الى جلب جموع المهاجرين العرب إليه ؛ ومن فاس كان أيضا يستطيع أن يتابع نشاط الناشرين لتعاليم الدّين بين السكان داخل البلاد ، وكانوا أبعد ما يكونون عن نبذ المسيحية أو اليهودية أو حتى الوثنيّة ٠ ومنذ 801 (185 هـ) شرع ابنه في ضرب السّكّة ؛ أمّا هو فقد هلك سنة 791 (175 هـ) مسمومًا ، على ما يُروى ، بأمر من الرّشيد الذي كان انشغاله بالعلويين وحقده عليهم في تزايد مستمر .

تولّى بعده ابنه ادريس 2ً فواصل أعماله : نقل فاس الى الضّفّة المقابلة من الوادي ، في اتجاه عالية النهر، وبنى مسجد الشرفاء وقصرا٠ وفي سنة 814 (199 هـ) قدِم الى فاس ثمانية آلاف من الأسَر العربية التي أطرِدت من الأندلس – بعد فشل ثورة شنها أهل قرطبة على الأمويين – واستقرّوا بها ، فتأسست منذ ذلك العهد حومة الأندلس، ولن يتغيّر اسمها الى اليوم٠

ستبقى لمملكة الأدارسة سطوتها قرابة الثلاثين سنة بعد ذلك التاريخ ، وستزدهر عاصمتها فاس ، وقد أضحت مصرفا تجاريا تمرّ عبره البضائع ، ومركزا ثقافيا ودينيا

---

(35) * وَلِيلَى أو قصر فرعون ٠ مدينة بالمغرب قرب طنجه ؛ لما دخل ادريس ابن عبد الله المغرب ناجيا من وقعة فخ حصل بها في سنة 789 (173هـ) أيام الرّشيد، وأقام الى أن مات بها مسموما سنة 791 (175 هـ)؛ وخلفه ابنه ادريس التاني فنقل مقامه الى فاس ، وقد أضحت ، أيامَ الادارسة ، عاصمة لدولة اتسعت من بلاد تلمسان إلى الأطلس٠ وبوليلى آثار مدينة رومانيّة تعرف بڤولوبيليس Volubilis (وتقع بمقاطعة موريطانية الطّنجية الرومانية قديما)، واقيمت على انقاض مدينة بربرية عمّرها ووسّعها العاهل البربري يُوبا 2ً ، وعرفت أوج عزّها في عهد الأباطرة السيڤريين الرّومان في القرنين 2ًو 3ًللميلاد ؛ وهُجرت نهائيا نحو 285 م أيام دِيوكْلِيسيَانُوس ، أمام ما كان يعتورها من تخريب على أيدي قبائل البربرالمغيرة عليها من الجبال ٠

يشعّ على ما حوله من البلاد، وسيصل إشعاعه حتى بلاد الكنانة. كان الأدارسة[36] قليلي التّعصّب الطّائفي وكانوا متقبّلين لجميع التّيارات الدّينية وحتّى لأضعفها صلة بالسنّة ، وغير معتزمين جعل عاصمتهم مقرّا للدعوة الشيعية. فبُعْدها عن بغداد وبلاطها وعن سائر المراكز الدّينية الكبرى كان يجعل تأثير ما قد يكون للخلفاء عليها من سلطة محدودا الى أقصى درجة . ان هذا القسم من المغرب لن يعود أبدًا تابعا لبني العبّاس.

وكذا كان الأمر بالنسبة الى الأندلس. فعبد الرحمن 1ً ، الأمير الأمويّ – وقد نجا من المذبحة التي دُبّرت لافناء أهل بيته ونادى بنفسه سنة 756 (139 هـ) أميرا على الاندلس – لم يعترف أبدا ببني العبّاس ولا قَبِل أيّ تدخّل منهم في شؤون مملكته. فحظر لباس السّواد، وكان هو ورجاله لا يرتدون الا البياض وهو اللون الرّسميّ لبني أميّة. ثمّ انّه خطب على المنابر في الجمعات للخليفة العبّاسيّ لكنّ ذلك أبْطِل حالما استسلم الوالي العبّاسيّ؛ ومنها بات ملعوناً كلُّ متلفظ باسم بني العبّاس ، وكثيرا ما سيحاول أمراء بني أمية إذكاء نار الثورة من الأندلس ضدّ العبّاسيين ؛ وسيذهب الأمر بعبد الرحمن الداخل إلى حدّ إعداد حملة علنية على بلاد الشّام لازاحة العبّاسيين عنها. وفي عهد الرّشيد لم يبق بين الامارة العربية الجديدة وبين مملكة أميرالمؤمنين أيّة صلة سياسية[37] .

إفريقية ، الأندلس ، تاهرت ...، كلّ هذه المقاطعات كانت بعيدة كلّ البعد عن بغداد، وخروجها عن الطّاعة لم يؤثّر كثيرا في مصير المملكة العبّاسيّة ؛ والاضطرابات التي هزت أرض الكنانة أو البلاد الشّامية لم يكن لها الى حدّ الآن أيّ خطورة ولا عمق ؛ ثمّ انّ

---

(36) قيل انهم اعتنقوا مذهب المعتزلة لكنّ ذلك أمر مستبعد. فالبدعة المعتزلية قائمة على خمسة مبادئ أوّلها انّ القرآن ليس من ذات الله ، فهو مخلوق ، خلقه الله لابلاغه للنّاس ؛ والثّاني ان الانسان يتمتّع بحرّية الاختيار ؛ والثالث أنّ أهل جهنّم مخلّدون فيها ؛ والرابع انّ صاحب الكبيرة من المؤمنين جزاؤه النّارإذا لم يتب ؛ والخامس انّ واجب الامام الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر وينجرّ عن ذلك حق المؤمن في الثّورة عليه اذا كان جائرًا.

(37) على انّ التّأثير العبّاسيّ على الأندلس ظلّ قويا جدّا في ميادين عديدة ؛ من ذلك أنّ قرطبة واشبيلية كانتا تأخذان كلّ ما يأتي من بغداد، وما يظهر على سكان شبه الجزيرة الإيبيرية – المسلمين منهم والنصارى – من ترف كان يضاهي ما يتباهى به المجتمع العبّاسيّ. وقد أضاف مجيءُ المغنّي البغدادي الشّهير زرياب إلى قرطبة في القرن 9ً (3ً للهجرة) هذا "التّمشرقَ" مزيدا من الإتساع. فسرعان ما أصبح هذا الفنّان موسيقيّا ذائع الصّيت – بل وأكثر من ذلك – حكما يرجع إليه القول الفصل في ضبط مقاييس حسن الذوق . فقد علّم القرطبيين والقرطبيات أيّ زي يتّخذون بحسب الفصول ، وكيف يختارن المشطة المناسبة للشّعر ، وكيف يتزيّنون ويتعطّرون وينسوّكون ، الخ ؛ وبتوجيه من هذا العبد الذي أعتقه المهديّ ، تغيّر التأثيث وازداد فنّ الطّبخ وإعداد المائدة تأنّقا.

ثورة اليمن التي نشبت سنة 795 (179هـ) سرعان ما تمّ القضاء عليها : فقد أخذ زعماؤها وأرسلوا إلى بغداد حيث قتُلوا خنقا بأمر من الرّشيد وعُزل الوالي وعادت الأمور إلى مجراها الطّبيعيّ.

أمّا خراسان (أي ما يوافق اليوم شرقيّ إيران وقسما من افغانستان وبلاد ما وراء النّهر) فقد كان الوضع فيها مختلفا تمام الاختلاف. فكلّ ما يجري هناك كان له صدى في بغداد وفي سائر أصقاع المملكة ، وخصوصا في الادارة – حيث كان جلّ الأعوان من أصل فارسيّ – وفي الجيش ، سواء في ذلك جند "الابناء" وجند "العبّاسيّة". هذا وقد بات من المؤكّد أن تعيين عليّ بن عيسى على رأس تلك المقاطعة خطأ كبير. فقد كان لا يفكّر إلا في استغلال خراسان لفائدته ، مضطهدا من كان يعارضه من الدّهاقين، ومغتصبا من أيدي الأهالي– بعد تعذيبهم – ما كان يرسله إلى بغداد من الأموال. وقد بلغ تعسّفه إلى حدّ أن النّاس اشتكوه إلى سُلَط العاصمة ؛ من ذلك أن أحد الأعيان ، وهو هشام بن فرخسرو، هرب إلى بغداد وطلب حماية الخليفة ، وأنّ ثانيا[38] تمارض وتظاهرللنّجاة من غضب ابن عيسى بأن الفالج أصابه ؛ فتدخل الفضل لدى هارون لكي يردع عليا، لكن دون جدوى ، اذ كان لابن عيسى في البلاط شخصيات مخلصة له تحميه بما لها من جاه. ثم ان هارون كان لا يشاء ، مهما كان الثّمن ، ان يضعف أمام إرادة وزيره البرمكيّ ؛ أضف إلى ذلك أنّ هذا الوالي كان يوجّه إليه الهدايا الفاخرة فتخفّف ما له من حنق عليه.

كان هارون لاَ همَّ له إلاّ الحدّ من نفوذ الأعيان المحلّيين – ومعظمهم من أتباع البرامكة – وتقبّل الأموال والألطاف التي تتدفّق عليه بالرّقّة ؛ لكنّ الوضع في البلاد بات من التّوتّر بحيث اندلعت فتن عديدة . فأرسل الخليفة الى ايران جيوشا تصدّت للبعض منها ، لكنّها لم تقض عليها تماما . فتحيّر للأمر وقرّر أخيرا الخروج بنفسه للوقوف على حقيقته بعين المكان ؛ فقطع حملته على الرّوم واستخلف في مناطق الحدود من آسيا الصّغرى ابنه القاسم على رأس قوات عسكرية عظيمة ومضى إلى خراسان.

لأوّل مرّة تقدّم خليفةٌ في الحكم على رأس جيوشه بعيدا كلّ هذا البعد نحو الشّرق؛ فقد أنهى الرّشيد رحلته في الرّيّ ولم يواصلها إلى مرو ، عاصمة المقاطعة. ومقامه هذا في مسقط رأسه لم يحلّ المشاكل ؛ فقد أبرمت لا محالة اتفاقات مع رؤساء بعض عشائر جبل القفقاس (القوقاز) وضفاف بحر الخزر (قزوين) لكنّها لم تسفر إلا على نتائج هزيلة. ثمّ انّ عليّ بن عيسى ورد على الخليفة في معسكره محمّلا بنفيس الهدايا وزيّن له الحديث عن الوضع، فأقره هارون في مهامّه وأرجعه إلى مقرّ عمله ؛ والرّاجح أنّه كان في انتظار ما قد يطرأ للإقتناع بتعكرالحالة ، وبما أنّ شيئا من ذلك لم يحدث ، عدل عن اتخاذ أيّ

(38) * وهو الحسين بن مصعب ، انظر قصّته عند الطّبري (الملوك ، 8 ، 325-326) .

قرار بشأن خراسان وجدّد ثقته لعليّ بن عيسى وقفل راجعا إلى الرّقّة. وبعد ذلك بسنين قليلة سيأخذ طريق المقاطعات الشرقية من جديد، لكن هذه المرّة لن يؤوب منها وهو بقيد الحياة.

معضلة ولاية العهـــد

انّ القواعد التي تتمّ بمقتضاها وراثة العرش في البلاد الاسلامية لم تُقنّن قطّ ولا حُدّدت شروطها . فمبايعة عليّ بالخلافة تسببت في حدوث مأساة لم تُعرف لها نهاية حتّى اليوم ؛ أمّا عهد بني أميّة فقد كان عبارة عن صراع متواصل ضدّ العلويّين ؛ وأمّا عهد بني العبّاس ، فحالما تولّى المنصور الخلافة ، وجد نفسه فيه مرغما على مقاومة عمّه عبد الله مقاومة شديدة . ولا ننسى أنّ " ليلة القدر" هي تلك التي تولّى فيها الرّشيد ، لكن بعد ان اغتيل أخوه بتدبيرمن أمّه الخيزران ، وقد كان الهادي يريد التّخلّص منها قبل مقتله . ومن جانب آخر ، فقد يسّر تضخّمُ عددِ المنتسبين الى البيت العبّاسيّ – نتيجة لتكاثر المواليد الذين كانت تنجبهم الحرائر والإماء ، من جهة ، وللمساواة بينهم في الحقوق من جهة أخرى – ظهورَ أطراف متعادية وشِيع متناحرة في البلاط . ذاك ما جعل مشاكل ولاية العهد ووراثة العرش من مشاغل الخلفاء ، خصوصا والرّجال اذ ذاك – وكذلك النّساء – كانوا يهلكون في سنّ مبكّرة نسبيا .

كان لهارون الرّشيد أربعة عشر من الأبناء لكن سرعان ما اتّفِق على أن تنحصر وراثة العرش في الأميرين الاثنين الذين يكبران إخوتهم سنّا وهما عبد الله (المأمون) ومحمد (الأمين). أمّا الأوّل وهوالمولود ليلة القدر، فقد أنجبته مراجلُ الأمةُ الفارسية التي توفّيت في نفس الليلة ؛ وأمّا الآخر فقد ولدته ، سبعة أشهر بعد ذلك التّاريخ ، زبيدة، احدى مهائرالرّشيد والأميرة العبّاسيّة الشريفة. والعديد من الرّوايات تؤكد لنا ما كان يكنّه هارون لابنيه من المحبّة وما كان يحيطه بتربيتهما من عناية ؛ فقد كان ينتدب لتعليمهما خيرة شيوخ العصر من المؤدّبين ، ومنهم أحد الأعلام – الكسائي – الذي قد كان فيما مضى أحد أساتذته ، والذي ترك لنا وصفا طريفا لمجلس لطيف جمع بين الخليفة وولديه. قال : «فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضّا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلّما على أبيهما بالخلافة ، ودعوَا له بأحسن الدّعاء ؛ فأمرهما بالدّنوّ منه ، فدنوَا فصيّر محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره. ثمّ أمرني أن استقرئهما وأسألهما، ففعلت. فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب عنه والخروج منه ؛ فسُرّ بذلك الرّشيد حتّى تبينتُه فيه ، ثمّ أنشدني محمّد... ثمّ أنشد عبد الله... فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن

ألفاظا ولا أشدّ اقتدارا على تأدية ما حفظا... ودعوت لهما كثيرا، وأمّن الرّشيد على دعائي ، ثمّ ضمّهما إليه وجمع يديه عليهما، فلم يبسطهما حتّى رأيت الدّموع تنحدر على صدره »٠

ما كان يخصّ به هارون ابنيه من المحبّة لم يكن ليُخفيَ عنه ما كان لابن الزوجة الشريفة من خطير العيوب وما كان لابن الأمة الفارسيّة من كبير المحاسن٠ فالأوّل «على درجة من الانقياد لهواه ، والخضوع لشهوته... والتّبذير لما حوته يده ، وإشراك للنّساء والإماء في رأيه٠ وعبد الله المرضيّ الطّريقة ، الأصيل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم... أمّا والله أني لأتعرّ ف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهديّ ، وعزّة نفس الهادي »[39]٠ وأضاف الرّشيد قائلا، متحدّثا عن ابنه عبد الله : «الحمد لله الذي رزقني ابنا يرى بعين البصيرة ما لا يراه بعين الجسد»٠

كان الرّشيد شديد الرّغبة في ضمان سلامة المملكة بعده ودائم الانشغال بابقاء السلطة بأيدي بني العبّاس ؛ لذا كان له تخوّف شبيه بالوسواس أن يكون خلفه دون مستوى مسؤولياته ٠ ففي سنة 791 (175هـ) أخذ البيعة لابنه الأمين الذي كان لا يزال في الخامسة من عمره ، ولم يتأتّ له ذلك دون أن يلاقي من حوله عديد المعارضات : فقد ادّعى بعض أفراد البيت العبّاسي انّ الأمير ما زال صبيّا ، وكانوا في الواقع يفكّرون في أنفسهم في صورة ما اذا بوغتوا فجأة بشغور العرش٠ إلا أن الفضل البرمكي " متولّي شؤون الأمين " توصّل الى التّخفيف من الاحترازات ، فأرسل أهل خراسان البيعة لوليّ العهد الجديد وبايعت سائر الولايات بدورها ٠

لكن كلما ازداد الأمين تقدما في السّنّ ازداد الرّشيد اقتناعا بأنه فاقد لما يحتاجه الحاكم من سجايا ؛ ففاتح يحيى البرمكيّ في الأمر، وقال له : « قد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووَهْنَه ، وهو عبد الله (المأمون) ؛» ثمّ أضاف : « وبنو هاشم مائلون الى محمد (الأمين) بأهوائهم٠٠٠ فان ملت الى عبد الله أسخطت بني هاشم[40] »٠كلّ المعضلة كامنة إذن في هذا ؛ ومن الآن فصاعدا كان بالامكان التّكهّن بالانقسامات التي ستحدث بين بني العبّاس وحتى بين ولايات المملكة ، حالما يلتحق الرّشيد بالرّفيق الأعلى ٠ قرّر الخليفة حينئذ أن يؤول الامر بعد الأمين الى أخيه عبد الله ، فلقّب هذا الأخير بالمأمون وأسندت اليه ولاية خراسان في حين أسندت الى الأمين ولاية القسم الغربي من المملكة ، وانعقد للبيعة موكب بالرّقّة ثمّ ببغداد ٠

---

(39) رواه المسعودي [مروج ، 3 ، 385]٠

(40) المصدر المذكور آنفا [أورد المسعودي الخبر عن الكسائي (مروج ، 3، 386)] .

بمرور الزّمن ، برزت أكثر فأكثر مساوئ الأوّل من الأميرين ومحاسن الثّاني ؛ والذي زاد الوضع خطورة انه كان لكلّ منهما أنصاره الذين لا يتورّعون من المجاهرة بموقفهم . انحاز للأمين البيت الحاكم وعلى رأسه طبعا زبيدة ؛ وانحياز هذه الأخيرة لابنها كان بلا أمل ، اذ كانت ترى ، هي أيضا ، ما كان عليه من كسل ، وتتخيّل ما سيكون عليه – اذا ما ولي الخلافة – من خمول وانصراف عن شؤون الدّولة . وعندما وضع هارونُ المأمونَ على رأس قوات عسكرية عظيمة لضمان الأمن والسلام في مقاطعة خراسان الصَّخِبة ، ظنت زبيدة أن ابنها مهدّد . فردّ عليها الرّشيد قائلا بلهجة الزّاجر: « ... انا نتخوّف ابنك على عبدالله ، ولا نتخوّف عبدَ الله على ابنك ان بويع » ، ولم تكن توجسات زبيدة بلا مبرّر : اذ يبدو انّ الرّشيد فكّر في جعل المأمون لا وليّ عهده الثّاني بل الأوّل ؛ وأخيرا استقرّ رأيه على أن يُكسِب الاجراءات التي قرَّر اتخاذَها أكثر أبّهة وأوفر فاعلية ، لفرط ما كان يخشى ان تبقى حبرا على ورق .

لقد كانت مكّة هي الاطار الوحيد المناسب لهذا الاحتفال الخطير، الذي قد يُحدَّد فيه مصيرُ البيت العبّاسي ، ومصيرُ رئيسه " خليفة رسول الله " . فرحل هارون في شهر ديسمبر(كانون الأول) من سنة 802 (187هـ) يرافقه الامراء ورجال الدّولة وأعيان الحاشية ، كما رافقه يحيى البرمكي وابناه الفضل وجعفر ، وكان أيضا ضمن الرّكب الحاجب الفضل بن الرّبيع . وكان فقهاء البلاط قد أعدّوا نصّ ميثاق يضبط تفاصيل وراثة العرش والالتزامات التي كان على الأميرين التّعهّد باحترامها ؛ وأقسم كل من الأخوين يمينا واشترط على نفسه شرطـًا عُدِدت فيه العقوبات التي تُسلّط على من نكث منهما العهد: أخذُ أمواله وتصديقُها على الفقراء ، وفرضُ الحجّ عليه مشيا على الأقدام ، وتطليقُ نسائه عليه بالرغم منه ، وإعتاقُ جميع ما ملكت يداه من العبيد .

حالما أنهى هارون مناسك الحجّ علّق الأمينُ والمأمون ، بأمر منه وبحضور أعيان بطانته ، بيديهما على جدار الكعبة ، الكتّاب الذي كانا قد صادقا عليه . وجدّ حادث حيّر المتطيّرين من بين الحاضرين : ذلك انّ الكتاب الذي خُطّ عليه العهد وقع على الأرض ، فتنبّأ هؤلاء بأنّ الميثاق لن يكتب أبدا لصاحبيه الوفاءُ بشروطه . فلم يُعِر الرشيد الأمر أيّ أهميّة وأمر بتوجيه رسائل الى كافّة الجهات لاعلام المسؤولين فيها بالتّراتيب التي قُرِّر اتّخاذُها فيما يتعلّق بمصير المملكة ، بل وأمر بابلاغ نص الميثاق وتلاوته على النّاس حتى في أبعد المدن والجهات . وأودع الكُتُب عند حَجبة الكعبة لحفظه بعد أن وُضِع في أطواق نفيسة مرصّعة بالجوهر والياقوت والزّبرجد .

انّ الوثائق التي أمضيت وأذيعت في الأمصار حسبما بيّنّا تتجاوز كثيرا بمراميها حلّ المعضلة التي يمثّلها اختيار وليّ العهد . فالأمين تعهّد باحترام حقّ أخيه في خلافته ،

لكنّه اعترف له بالسّيادة على خراسان أي على كامل القسم الشرقي من المملكة من همذان[41] الى ما وراء النهر بما في ذلك ولايات كرمان وفارس[42] وسجستان ؛ والسلط التي مُنِحت للمأمون على تلك المقاطعات الشاسعة تتجاوز كثيرا ما كان يُمْنَحُه منها وال من الولاة أو حتى أميرٌ من بين هؤلاء الأمراء العبّاسيين ، الذين يُعيَّنون على رأس جهة من جهات المملكة لدعم نفوذ الدّولة فيها . فالجيش والخزينة والجباية والصدقات كلّ ذلك كان خاضعا لقرارالمأمون دون سواه[43]؛ ثم انّ حاصل الجباية كان يجب ان يُنفق على عين المكان والا يُرسل الى بغداد ؛ فالادارة والدّفاع والبريد لا يخضع جميعها إلاّ له ، ولا حقّ للخليفة – أي لأخيه الأمين – في توجيه ايّ موظّف او مراقب ، ولا في تسليط أيّة غرامة عليه ؛ وينحصر نفوذه في البيعة التي يُصرّح له بها أتباعه تصريحا غامضا بالطاعة والولاء . وهكذا جُسِّد ، تجسيدا مسبّقا وفي عنفوان الخلافة العربية ، أيام بني العبّاس، مفهوم النّفوذ الرّوحي للخليفة ، ذاك المفهوم الذي لن يلبث أن يصبح سائدا في الأراضي التي يحكمها الأغالبة والأدارسة وبنو طُولون ، ثمّ في سائر بلدان المملكة .

رغم المظهر الرسمي الذي اكتساه حفل مكّة ، قلّ من كان يعتقد أنّ الأميرين سيحترمان التزاماتهما فيه . ويروى أنه ، لما خرج الأمين من البيت الحرام ، اقترب منه جعفر البرمكيّ وقال له : «ان غدرت بأخيك خذلك الله » ، فاستعاده هذا الدعاء ففعل ذلك ثلاثا يحلف له في كل واحدة منها . اما الذين عاصروا هذه الأحداث ، فقد رأوا بالخصوص ما كان في الحلّ الذي أقره الرّشيد من عيوب . وكالعادة ردّد الشعراء انطباعات الرأي العام ؛ فقد قال أحدهم :

رَأى المَلِكُ المُهَذّبُ شَرَّ رَأْيٍ بقِسْمَتِه الخلاَفَةَ وَالبِـــــــلاَدَا
رَأى مَـا لَـوْ تَعَقّبَــهُ بِعِلْــمٍ لَبَيَّضَ مِنْ مَفَارِقِه السَّـــــوَادَا
[مِنَ الوافر][44]

---

(41) * هَمَذان : مدينة في ايران تقع غربي طهران وهي اليوم عاصمة الولاية الخامسة التي تحمل نفس الاسم. بها صناعة الطنافس والدّباغات. سُميت أحْمَتَا في التّوراة ويكرّم اليهود فيها قبر مردخاي واستير. كانت تسمّى قديما إكْبَتّان Ecbatane وكانت في القرن 7 ق قبل الميلاد عاصمة للمادايين . ويروي هيرودوت انها كانت محاطة بسبعة أسوار مطلية بألوان مختلفة. ثم صارت عاصمة للأخمنيين يصطافون فيها . بها وُلِد بديع الزمان صاحب المقامات ودُفِن ابن سينا الحسّاب والطبيب الفيلسوف المشهور.

(42) * فارس (وهي غير بلاد فارس أي إيران او بلاد العجم) : احدى مقاطعات إيران تقع جنوبي مقاطعة همذان وغربي مقاطعة كرمان وتطلّ على الخليج العربيّ. عاصمتها شِيرَاز.

(43) * « ولاّه خراسان وثغورها وكُورَها وحربَها وجندَها وخراجَها وطرزَها وبريدَها وبيوتَ مالها وصدقاتِها وعُشْرَها وعشورها وجميعَ أعمالها » (الملوك ، 8 ، 278) .

(44) * من قصيدة لم يُذكر قائلها (الملوك ، 8 ، 278) .

وروى المسعوديّ أنّ « ... رجلا من هُذيل يقود بعيره [استُمِع اليه وهو] يقول :

وَبَيْعَةٍ قَدْ نُكِثَتْ أَيْمـَـانُهَـا وَفِتْنَةٍ قَدْ سُعِّرَتْ نِيرَانُهَـــا

[من الرجز]

فقيل له : ويحك ما تقول ؟ – قال : انّ السّيوف ستُسَلّ والفتنة ستقع والتنازع في الملك سيظهر[45]». الراجح أنّ هذه الرّوايات قد تخيُّلت ووُضعت بعد هذا الظّرف بزمن طويل، لكنّها تترجم عمّا أحدثه شرط مكّة من شكوك ومخاوف بين النّاس.

ما كادت تمرّ ثلاث سنوات حتّى قرّر هارون تعيين ابن آخر له – القاسم – وليا ثالثا للعهد حسب تراتيب الوراثة. فولاّه على شمال العراق وعلى أقاليم جنوب الآناضول ، وهكذا ازدادت الانقسامات في البلاد تمكنّا.

لم يكشف الرّشيد قطّ عن المقاصد التي دفعته الى تقسيم مملكة ورثها عن أجداده العبّاسيين تقسيما يذكر بالنّظرية الجاهلية القائلة بالملكية الجماعية . فبالاضافة الى اقتناعه بضعف امكانات ابنه الأمين ، بدأ الرّشيد بلا شك يتوجّس خيفة من الافراط في مركزة الحكم في الدولة ، تلك المركزة التي كان يستغلها الولاة ليرتكبوا نحو الاهالي التجاوزات بمختلف أنواعها. اذن ، ألم يكن من الأنسب أن يوضع هؤلاء الولاة تحت شبه رقابة من قبَل السّلطة المركزيّة ؟ أوَ ليس من الأفضل أن يُعهد بشؤون الجهات الى أمراء البيت الحاكم وأن يتولّى ذلك أحدُهم في خراسان ، أكثر كلّ تلك الولايات إحداثا للقلاقل والاضطرابات ، مثلما فعل المنصورعندما وجّه ابنه المهديّ الى الرّيّ ، معطيا ايّاه أوسع ما يمكن من النّفوذ على الأقاليم الشـّرقيّة ؟ وهل أنّ الرّشيد ، عندما وضع نصفي مملكته مباشرة تحت مراقبة ابنيه ، كان يعتقد حقّا أنه سيقدر بذلك على أن يكبح جماح التيارات المناوئة للسلطة المركزية والتي كان يلحظ تصاعد نشاطها شرقا وغربا ؟

انّ عكس ذلك هو الذي حصل ، والذي أنتجه تقسيم المملكة انما كان مزيدا من الاستقطاب للطّموحات وتصعيدا لمخاطر المواجهة : بلا شكّ ، لم يكن يوجدْ إذّاك كثير من الوسائل لاجتناب تلك المخاطر؛ بل على العكس ان ممتلكات الخليفة الشاسعة ، والمصالح المتضاربة بين الولايات ، والتي كان الانتساب فيها الى دين واحد لا يعدو أن يمثّل ستارا يحجبها ، وخيبات الأمل التي تلت وصول العبّاسيين الى الحكم ، كلّ ذلك كان يتنافس في العمل على تفكيك المملكة . فاليمين التي أدّيت في البيت الحرام – وان لم تكن السّبب الرئيسي في اندلاع الفتنة التي ستمزّق البيت العبّاسي والأمة العربية عموما – إنما كانت يمينا مآلها الحنث .

---

(45) * مروج ، 3 ، 387 .

نكبة البرامكــــة

« تلك القصة المليئة بالدموع والتي وسمت عهد الخليفة هارون الرّشيد بِسِمة الدّم الذي أهدِر والذي قد لا تقدرالأنهارالأربعة على غسله...»
(ألف ليلة وليلة)

مدّد هارون مقامه بمكة لإتمام مناسك الإعتمار ثمّ قفل راجعا الى الرّقّة بكامل حشمه وذلك في محرّم 187 (جانفي/كانون الأوّل 802) وما كاد الرّكب يحلّ بالعُمْر، قرب الأنْبَار ، حتى حطّ رحاله مدة أيام طلبا للراحة . ويروي الطبري أنه لما كان اليوم الرّابع جمع الخليفة من كان حاضرا من البرامكة – أي يحيى وأبناءه الفضل وجعفرًا وموسى – ويضيف قائلا : « وبعد أن تذاكر مع يحيى في شؤون الدّولة خلع عليهم كما لو كان يريد تكذيب ما كان يروج حولهم من تنبؤات بقرب حلول النكبة بهم ، فسرُّوا بذلك واطمأنّوا »[46] .

وبعد ذلك بساعات قليلة حلّ أعنف الأعاصير الدامية التي عرفها تاريخ الاسلام .
« ... قعد الرّشيد وجعفر عنده ... فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش... »[47].
« ... ولم يزل مع جعفر لا يفارقه حتى انصرف مع المغرب ؛ فلما أراد الدخول ضمه اليه وقال له : « لولا اني على الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ، فأقم أنت في منزلك ، واشرب أيضا واطرب ، لتكون أنت في مثل حالي »... [48]. ثم دخل منزله وجلس للشراب مع حريمه ، وبعد ذلك بقليل وجّه أحدَ خدمه ليرى هل جلس جعفر للشراب مثله ؛ ولما علم انه كان مغتما أرسل اليه يقول : «بحياتي لما شربت... لانني لا أطرب للشرب الا اذا أمنت انك تطرب له مثلي... » . فأمر جعفر، والوجلُ والحيرة يعتورانه، بإعداد مأدبة ، وكان لجعفر في بطانته مغنّ أعمى يدعى أبا زكّار؛ فقال له ، وقد أخذ الشرب منه مأخذه: «أنا الليلة شديد الحيرة » – فقال ابو زكّار : «أيها الوزير، انّ أمير المؤمنين ما أحاطك قطّ أنت وآل بيتك بمثل ما أحاطكم به اليوم من رعاية وعطف » – قال جعفر: «انّ بنفسي

(46) * هنا مزج أ. كلو قولين ورد أحدهما في الملوك (8، 296) والثاني في المروج (3، 414) ، أما الأول فهو قول الطبري . « ... وخلا الرّشيد بالفضل ليلا ، ثم خلع عليه وقلّده وأمره أن ينصرف مع الأمين ... » ؛ وأمّا الثاني فهو قول المسعودي . « ... وقعد الرّشيد ، وجعفر عنده ، في موضع يُعرَف في الأنبار بالعُمْر، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش. فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرّشيد حتّى ركب مشيعا له ثم رجع الرّشيد... ومضى جعفر الى منزله وفيه فضلة من الشراب » .

(47) * مروج ، 3 ، 414 .

(48) * الملوك ، 8 ، 299 .

هاجسا ينذرني أنّ مكروها سيحدث »– قال أبو زكّار· «دع عنك هذه الهواجس وأقبل على اللهو والشراب »·فلما كان وقت المغرب جاء أحدُ خدم الرّشيد الى جعفر بأنفلة وأبخرة ورياحين ، ولمّا كان وقت العشاء أرسل الرّشيد ثانية وثالثة الى جعفر بالانفلة والهدايا· · · حتى ذهب الليل[49]. وحوالي منتصفه غادرالخليفة خيمته حيث كان مجتمعا بنسائه· فنادى مسرورا خادمه وقال له:«اخرج لحينك واقبض على جعفر وجئ به الى خيمتك واضرب عنقه وائتني برأسه » · فلما دخل مسرور على جعفر أخذته رعدة [50]، فقال له : « أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك » – فقال جعفر: « وأين هو؟ » – فقال مسرور: « هو ذا قد غادر نساءه وعاد الى بيته » – فقال جعفر : « دعني أدخل داري وأُوصِي» – فقال مسرور: « الدخول لا سبيل اليه ولكن أَوْصِ بما شئت » ؛ فتقدّم في وصيته بما أرادَ وأعتق مماليكه ·ثمّ حمله مسرورالى منزل الرّشيد وعدل به الى قُبّة[51] وجرّد سيفَه ؛ فسأله عما أمره الخليفة بتنفيذه فيه ، فقال · «أمرني أن أضرب عنقك وآتيه برأسك» – فقال له جعفر: « يا أبـا هاشم ، اللة ، الله ، والله ما أمرك بما أمرك الا وهو سكران » – قال مسرور : « لا والله ما افتقدتُ من عقله شيئا ولا ظننته شرب نبيذا في يومه مع ما رأيت من عبادته» – فقال جعفر : « انّ لي عليك حقوقا لم تجدْ لها مكافأة في وقت من الأوقات الاّ هذا الوقت، فارجع اليه فأعلمه انّك قد نفذّت ما أمرك به ، فان أصبح نادما كانت حياتي على يديك جارية ، وكانت لك عندي نعمة مجدّدة ، وان أصبح على مثل هذا الرأي نفذت ما أُمرت به في غد » – قال : «ليس الى ذلك سبيل» – قال : « فأصير معك الى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعتك اياه ، فاذا أبديتَ عذرا ولم يقنع الاّ بمصيرك اليه برأسي خرجتَ فأخذتَ رأسي من قرب » – قال . «أمّا هذا فنعم » · فعاد مسرور، ولما دخل سأله الرّشيد – وكان ينتظره في فراشه – : « أين رأس جعفر ؟ » – فقال مسرور : «ها هو ذا جعفر بالحضرة ، يا أمير المؤمنين » – فصاح به الرّشيد · « يا ماصّ بَظْرِ أمّه ، ائتني برأس جعفر والا والله قتلتك قبله » – فخرج فقال : « أسمعت الكلام » – قال : « فشأنك وما أُمِرت به » ؛ وأخرج جعفر من كمّه منديلا صغيرا فعصب به عينيه ومدّ عنقه فضربها مسرور[52] وادخل رأسه الى الرّشيد ؛ فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه وجعل يذكّره بذنوبه ، ثمّ نظر الى مسرور وقال له · «احتفظ بالرأس والجثّة حتى أراجعك في

---

(49) * الملوك ، 8 ، 299 ·

(50) * لم تُذكر "الرّعدة" الاّ في مروج الذهب ، وقد نسبها المسعودي لا الى جعفر بل الى مسرورعندما أمره الرّشيد بضرب عنق جعفر (مروج ، 3 ،414) .

(51) * الفخري ، 210 ·

(52) * في رواية ابن طباطبا المأمور بضرب عنق جعفر هو ياسر لا مسرور·

الأمر ، والآن اذهب للاحاطة حالاً بيحيى وأبنائه الثلاثة وأخيه محمّد بن خالد فخذهم الى القبة (الخيمة) وكبّلهم بالقيود وخذ ما تجده لهم من مال وضياع ومتاع وغيرذلك » . فنفذ مسرور كل ما أُمره ؛ ولما أصبح هارون أرسل رأس جعفر الى بغداد ثم شخص الى الرّقّة[53]

سلّمت جيفة جعفرالى هرثمة بن أعين وعدد من أعيان القواد[54] وحُملت الى مدينة السّلام ، وشُطرت الى نصفين صُلب أولهما على الجسر الأعلى، والثاني على الجسرالأسفل، وعُلّق الرأسُ على الجسر الأوسط ، وبقيت هذه الأشلاء الرّهيبة هناك عامين الى أن أمر هارون بإحراقها[55] .

أُلقي القبضُ على جميع البرامكة وعلى حشمهم ومواليهم ورقيقهم ؛ وخُلّي سبيل يحيى بن خالد قبل شخوص الرشيد من العُمْر– وهي محلّة بناحية الأنبار– ، بعد أن حُبِس منذ الليلة الأولى في ناحية من منزل الرشيد، ثم حُبِس من جديد مع الفضل ومحمّد في ديرالقائم ثم في الرّقّة . وقد كان الرشيد، عندما خلّى سبيله ، ترك له حرّية الاختيار لمقرّ إقامته ، فرفض الإنصراف وفضّل البقاء حيث كان ما لم يجدد له الخليفة ثقته فيه ؛ وظلّ يحيى يعامَل تارة باللين وطورا بالشدة الى ان مات في السّجن بالرّقّة منصرَم 805 (190 هـ) وقد أدرك السبعين من عمره . اما ابنه الفضل ، فقد أُصيب بالفالج ، وتوفي سنة 808 (193هـ) في الخامسة والأربعين من عمره اي في سن جعفر عند وفاته ؛ وقد يكون هارون أمر بتعذيبه قبل ذلك بزمن قليل لإرغامه على الإعتراف بالمكان الذي أُخفيت فيه ثروته وثروة آل بيته ؛ فجُلد عشرين سوطا[56]، ولولا أنّ أحد المساجين ممن كانوا معه في الحبس عالجه بعد جلده لهلك . ولما قُتل جعفر وقُبض على يحيى والفضل وضُيّق عليهما في المحابس واشتد بهما الجهد وترادف عليهما البلاء قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه :

إلى اللّه فيمَا نَابَنَا نَرْفَعُ الشّكْوَى
ففِي يَدِهِ كَشْفُ الْمَضَرَّةِ والْبَلْـــوَى
خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهـا
فَلاَ نَحْنُ فِي الأمْوَاتِ فِيهاَ وَلاَ الأحْيَا

---

(53) المصدر المذكور سابقا .

(54) * « . . . ومعه شعبة الخفتاني وإبراهيم بن حميد المرّوذي وحسين الخادم ، وأتبعهم عدة من خدمه وثقاته ...» (الملوك ، 8 ، 296) .

(55) عُثر في حسابات أحد دواوين هارون على عشرة قراريط ثمن نفط وبواريّ لإحراق جثة جعفر بن يحيى.

(56) * والحقيقة انه جُلِد مائتين . روى المسعودي في مروج الذهب (3 ، 420) : « ... فضُرِب مائتي سوط » .

إذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ
عَجِبْنَا وَقُلْنَا : جَاء هَذَا مِنَ الدُّنيـَا
[من الطويل][57]

كانت جنازة الفضل مناسبة عبَّر فيها الكثير عن عطفهم عليه وعلى أسرته ، فقد حضرتها زبيدة نفسها وحضرها الأمير محمّد الأمين وليّ العهد وعدد من رجال الدولة وعندما نُعِي الفضل للرشيد يقال انه صرّح قائلا : «انّ أمري قريب من أمره»[58] لأنّ المنجّمين كانوا تنبّأوا بأنّ أخاه [أي الفضل] سيموت قبله بقليل وهو تنبُّؤٌ ما عتّم أن صدق.

أمّا موسى ومحمّد– الابنان الآخران ليحيى– فقد بقيا في السجن الى أن ولي الأمين الخلافة فأطلق سراحهما؛ وأمّا سائر البرامكة فقد أُخذت أموالهم وأموال أقربائهم وأتباعهم وخدمهم ؛ وأُلقي القبض على زبيدة بنت مُنير[59] أمّ الفضل، ودنانير[60] المغنية الشهيرة جارية يحيى، وعلى عدد من إماء البرامكة؛ لكنّ أولادالفضل وجعفر ومحمّد الأصاغر خُلِّي سبيلهم، وكذلك أم يحيى وأم جعفر. وقُتل ما يزيد على الألف من نساء البرامكة وأطفالهم ومواليهم، وفُتِّشت منازلهم وأُودِع كلّ ما كان على ملكهم من وَرَقٍ وعَيْنٍ ببيت المال .

(57) * قال الفضل ثلاثة أبيات لم ينقل منها أ . كلو الا البيتين الأولين (مروج ، 3 ، 419) .

(58) * اشتبه الأمرعلى أ. كلو . فهذا التصريح ليس للرشيد بل للفضل قبل وفاته ، ذُكِر في خبر للطبري عن وفاة الفضل : « . . . [كانت] وفاة الفضل بن يحيى بن برمك في الحبس بالرّقة في المحرّم [من سنة 192]، وكان بدء علّته – فيما ذُكِر – من ثِقَلٍ أصابه في لسانه وشقّه ، وكان يقول : « ما أحب أن يموت الرشيد » – فيقال له : « أما تحب أن يفرّج الله عنك ؟ » – فيقول : « انّ أمري قريب من أمره » . . . وتوفي مع أذان الغداة قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر . . . وجزع عليه الناس وصلى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجه ، ثم أُخرِج فصلى الناس على جنازته » (الملوك، 8 ، 341) .

(59) * لا بنت مانع كما كتب أ. كلو .

(60) ظلّت دنانير موالية للبرامكة حتى آخر عهدها بالحياة . فأمرها الرشيد يوما، إثر وفاة الفضل بقليل ، أن تغنّي ، بعد أن ذكّرها بما ارتكبه البرامكة من خيانة استحقوا عليها العقاب . فأجابت ، والعبرة تكاد تخنقها، بأنها مدينة لآل برمك بكل شيء وحتى بالحظوة التي شرّفها بها الخليفة ، وانها آلت على نفسها الاّ تغني أبدا بعد موتهم . فنادى الرشيد مسرورا وأمره بصفعها، فصُفِعت وأقيمت على رجليها، وأُعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحرّ بكاء ، واندفعت تغنى :

يَا دَارَ سَلْمَى بِنَازِحِ السَّنَـدِ بَيْنَ الثَّنَايَا وَمَسْقَطِ اللِّبَـدِ
لَمَّا رَأَيْتُ الدِّيَارَ قَدْ دَرِسَـتْ أَيْقَنْتُ أَنَّ النَّعِيمَ لَمْ يَعُـدِ
[من البسيط]

فرقّ لها الرشيد وأمر بإطلاقها فانصرفت .

إنّ ما سلِّط على أبرز رجالات البرامكة من ضروب الإهانة وصنوف الإضطهاد كان له في بغداد وسائر أنحاء المملكة صدى عظيم جدا. فباستثناء أعدائهم ، قلّ من استبشر لما أحاط بهم من الخطوب ؛ وقد ذكر الطبري بايجاز ما أحدثه فتك الرشيد بالبرامكة في النفوس من غضب واستنكار، معلنا أنّ صنيعه لا يمثل تصرّفا حكيما، ومنذرا أنّ ما ارتكبه لن ينساه الناس أبدا الي يوم الدّين . وسارع الشّعراء طبعا الى التعبير عما كان للحدث من تأثير لدى الجماهير، فتركوا لنا مراثيَ عديدة وصلت الينا معبِّرة عما أحسّ به القوم إذاك من بالغ اللوعة لزوال النعمة عن رجال اشتهروا بالجود والكرم ، وكانوا من أهل الفضل والحِجى.

وممن بكاهم من الشعراء أَشْجَعُ السُّلَمِي[61]، فقد قال من قصيدة :

أَلاَ أَرَحْنَا وَاسْتَرَاحت رِكَابُنَـا وَأَمْسَكَ مَن يُجْدِي وَمَنْ كَانَ يَجْتَدِي

....

وَقُلْ لِلْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ : تَعَطَّلِي وَقُلْ لِلرَّزَايَا : كُلَّ يَوْمٍ تَجَـــدَّدِي

[من الطويل][62]

وقال من قصيدة أخرى :

قَدْ سَارَ دَهْرٌ بِبَنِي بَرْمَكٍ وَلَمْ يَدَعْ فِيهِمْ لَنَا بُقْيَـا

كَانُوا أُولِي الْخَيْرِ وَهُمْ أَهْلُهُ فَارْتَفَعَ الْخَيْرُ عَنِ الدُّنْيَـا

[من السريع][63]

وقال فيهم سَلْم الخَاسِر :

خَوَتْ أَنْجُمُ الْجَدْوَى وَشُلَّتْ يَدُ النَّدَى

وَغَاضَتْ بِحَارُ الْجُودِ بَعْدَ الْبَرَامِكِ

هَوَتْ أَنْجُمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرْمَكٍ

بِهَا يَعْرِفُ الْهَادِي قَوِيمَ الْمَسَالِكِ

[من الطويل][64]

---

(61) * أَشْجَع السُّلَمي : هو أشجع بن عمرو السُّلَمي ، شاعر فحل كان معاصرا لبشار بن برد. استقر ببغداد ومدح البرامكة وانقطع الى جعفر بن يحيى فقرّبه من الرشيد ، فأُعجِب به الرشيد ، فأثرى وحسنت حاله . توفّي نحو 811 (196 هـ) .

(62) * المسعودي [مروج ، 3 ، 417 . والطبري ينسب الأبيات – وعددها خمسة – الى الرّقاشي ويضيف «... وقد ذُكِر انّ هذا الشعر لأبي نواس »] .

(63) * مروج ، 3 ، 419 .

(64) * مروج ، 3 ، 418 .

وقال فيهم منصور النَّمري[65] :

أَنْـدُبُ بَنِـي بَـرْمَكٍ لِدُنْيَـا تَبْكِـي عَلَيْهِـمْ بِكُـلِّ وَادِ
كَـانَتْ بِهِـمْ بُرْهَةً عَرُوسًـا فَأَصْبَحَتِ الْيَوْمَ فِي حِـدَادِ
[من مخلّع البسيط][66]

كَـانَ وَزِيـرَ الْقَائِـمِ الْمُرْتَضَـى وَذَا الْحِجَا وَالْفَضْلِ وَالذِّكْـرِ[67]
وَكَانَتِ الدُّنْيَا بِأَقْطَارِهَـا إِلَيْهِ فِـي الْبَرِّ وَفِـي الْبَحْـرِ
يُشَيِّدُ الْمُلْكَ بِآرَائِـهِ وَكَانَ فِيهِ نَافِذَ الأَمْـرِ
....
يَطِيرُ فِـي الدُّنْيَـا بِأَجْنَاحِـهِ يَأْمُلُ طُولَ الْخُلْـدِ وَالْعُمْـرِ
إِذْ عَثَـرَ الـدَّهْـرُ بِـهِ عَثْـرَةً يَا وَيْلَنَا مِنْ عَثْرَةِ الدَّهْـرِ
[من السريع][68]

سرعان ما وُصِف عهد البرامكة – وهو العهد الذي يوافق تقريبا كامل خلافة الرشيد– بكونه العصر الذهبي للدولة العباسية. من ذلك ، مثلا ، ما جاء من إشادة بسُعد تلك السنين التي خلَّدتها في الأذهان هذه الفقرة الشهيرة من كتاب ألف ليلة وليلة[69] : «[اعلم انّ هذه الدولة لا] هذه الأسرة كانت غرّة في جبين الدهر، وتاجا على مفرقِ العصر،

---

(65) * منصور النَّمري : هو منصور بن الزّبرقان النَّمري ، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية . استقدمه الفضل بن يحيى من الجزيرة واستصحبه ثم وصله بالخليفة هارون الرشيد ، فمدحه وتقدم عنده وفاز بعطاياه ومتّ اليه بقرابة من أمّ عباس بن عبد المطلب وهي نمرية . وجرت بعد ذلك وحشة بينه وبين العتّابي حتى تهاجيا وسعى كل منهما على هلاك صاحبه . وكان النمري يُظهر للرشيد انه عباسي منافر للشيعة العلوية وله شعر في ذلك . فروى العتابي للرشيد أبياتا من نظم النمرى ، منها تحريض عليه وتشجيع للعلوية ، فغضب الرشيد وأرسل من يجيئه برأسه من بلدته "رأس العين" بالجزيرة . فوصل الرسول في اليوم الذي مات فيه النمري وقد دُفن . فقال الرشيد : « هممت أن أنبشه ثم أحرقه » – توفي نحو 805 (190 هـ).

(66) * آ. كلو نقل الى الفرنسية في الحقيقة بيتا آخر منسوبا في مروج الذهب (3 ، 418) الى مجهول وهو قوله :

كَانَتِ الدُّنْيَا عَرُوسًا بِكُـمُ وَهِيَ الْيَوْمَ ثَكُولُ أَرْمَلَـةْ
[من الرمل]

(67) * اسم كان ضمير عائد على جعفر بن يحيى .

(68) * نسب أ. كلو هذه الأبيات الخمسة – وبحرها يختلف عن بحرالأبيات السابقة – الى منصور النمري . والحقيقة انها لعلي بن أبي مُعاذ (مروج ، 3، 416) .

(69) * لم ترد هذه الفقرة في كتاب ألف ليلة وليلة بل في تاريخ الدول الإسلامية (الفخري ، 193) .

ضربت بمكارمها الأمثال ، وشُدَّت اليها الرِّحال ، ونيطت بها الآمال . وبَذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومَنحتها أوفر إسعادها. فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة . أسواق الأدب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية . والدنيا في أيامهم عامرة ، وأُبَّهة المُلك ظاهرة . وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

سَلاَمٌ عَلَى الدُّنْيَا اذَا مَا فُقِدْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِ
[من الطويل]

« نهضوا بأعباء الدولة أتمّ نهوض، وسدّوا الثغور وتداركوا الخلل ، وجبوا الأموال ، وعمّروا الأطراف ، وأظهروا رونقَ الخلافة ، وتصدوا لمهمات المملكة ، وأشاعوا مجد الرشيد في الآفاق ، وأذاعوا صيته من أقاصي بلاد الصين وموائل التتر الى مشارف الأندلس وأراضي البربر. وما كان منهم أحد إلا وهو كاتب بليغ وأديب لبيب ، صائب الآراء حسن التدبير، ضابط لما تحت يده ، قوي على الأمور، جواد يباري الريح كرما وسخاء ، ممدَّح بكل لسان ، حليم عفيف وقور مهيب . »

وعلى مرّ العصور، سيبقى ذكرُ البرامكة يملأ الدنيا شرقا و غربا، وستظل عبارةُ "عهد البرامكة " مميزة لكل ما اتصف من الأشياء بالحسن والجودة . من ذلك مثلا أنّ المقري المؤرِّخ[70] سيستعمل في القرن 17 ً (11 ًلهجرة) عبارة " برمكي " للاشارة الى كل ما عرفه عصره من أعلاق رفيعة[71].

ان نكبة البرامكة وزوال النعمة عنهم كانت طوال اثني عشر قرنا محل افتراضات عديدة . فقد كثرت الأسباب التي علّل بها المؤرخون فظاظة ما عامل به الرشيد من بطش رجالا هو مدين لهم بالكثير: فأحدهم كان " أباه "، والآخر أخاه من الرضاع ، والثالث أخص المقربين اليه دون سائر أتباعه ؛ ثم إنّ جميع آل البيت البرمكي ، بطبقاته الثلاث ، كان قد خدم العباسيين بكفاءة وإخلاص ؛ والرشيد نفسه لم يصرح قطّ بالسبب الذي من أجله سلّط عليهم شديد نقمته واستأصل شأفتهم . وحُكِي أنّ أخته عُلَيّة سألته يوما : «يا سيدي ما رأيت لك يومَ سرورٍ تامٍّ منذ قتلتَ جعفرا ، فلأيّ شيء قتلته ؟» – فقال لها : «يا حياتي، لو علمتُ أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته » ؛ وأعادت عليه السؤال في غير

(70) * أحمد المقَّري (1591-1631/999-1040 هـ) : أديب ومؤرخ مغربي، ولد بتلمسان في أسرة أصلها من مدينة مقَّرة بالقطر الجزائري . طاف في مصر والحجاز والشام وكان من نوابغ علم الكلام والتفسير والحديث . من مؤلفاته " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" و "المنظومة المقَّريّة في علم التوحيد".

(71) ذكره كواترامير Quatramère في المجلة الآسيوية .

ذلك اليوم فأجابها : « لو بلغني أن يدي اليمنى تعلم السبب لقطعتها » . فالمتبادر للذهن ان مقتل جعفر لم يكن له من سبب غير سورة غضب انتابت الخليفة فجأة .

علي أنّ روايات عديدة تفيد عكس ذلك . فحسب الجاحظ[72]، أخبر أحد المقربين من الرشيد – والأرجح أنه مسرور السيّاف – انه استمع اليه ، وكان قريبا منه كل القرب ، اذ كانت ثيابهما حسب دعواه – متلا صقة، يقول ، وهو متعلّق بأستار الكعبة ، ويخاطب العليّ القدير مباشرة : «اللهم أرجوك إهلاك جعفر بن يحيى[73]» . وتؤكّد دلائل أخرى على ان القرار خطّط له الرشيد منذ أمد بعيد، والأرجح تحت تأثير نفر قليل من رجال الحاشية كان لهم عداء شديد للبرامكة ؛ فكل الذين كانت لهم عليهم دعوى – على حد قول الطبري – كانوا يترصّدون زلاّتهم فيسعَون بهم الى الرشيد ويقرفونهم لديه ، ذاكرين له استبدادهم بالملك واحتجانهم للأموال ، حتى أوغروا صدره عليهم فأوقع بهم . والواقع ان جوًّا محيِّرا وباعثا على التخوُّف بدأ يخيِّم عليهم وعلى من حولهم : من ذلك مثلا ان الخليفة عاب يوما على يحيى دخوله عليه دون سابق استئذان ، والحال انه كان يدخل عليه مرات كل يوم ولا يستأذن لذلك ؛ ومن ذلك أيضا أنه غضب في يوم آخر وقال لطبيبه ابن بختيشوع : «استبدَّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها الاّ اسمها» . أمّا الفضل ، فقد رأى مهامه تُسلَب منه الواحدة تلو الأخرى؛ وأمّا جعفر فقد تفطّن قبل حلول الفاجعة الى تغيُّرٍ في تصرفات الرشيد نحوه . فالنّكبة التي حلّت بهم لم تكن اذن نتيجة نزوة من نزوات طاغيةٍ غاشم ؛ لكن ، وبلا شك ، ثمرة قرار اتّخذه ، بعد سابق تفكير وطول تخمين ، عاهلٌ تعاظم الحنق لديه على رجال – وإن كانوا خدموه بإخلاص – الا انهم اتّخذوا ، في مناسبات عدة ، اجراءات لم يستحسنها ، وتصرّفوا غالبا في الشؤون كما لو كان غير موجود.

استحوذت المخيلة الشعبية بغاية السرعة على مقتل جعفر الفظيع وأسندت له أسبابا رومنسية ، هي الى طلب التأثير القوي في النفوس أقرب منها الى إثبات الحقيقة التاريخية.

---

(72) كتاب التاج .

(73) * رواية الجاحظ (التاج ، 126) هي التالية : . . . حدثني مسرور الخادم قال : « أشهد بالله ! لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمسّ ثوبي ثوبه ، وهو يقول في مناجاته ربه : « اللهم إني استخيرك في قتل جعفربن يحيى.» وتؤيّد هذه الرواية رواية كتاب تنبيه الملوك والمكايد (ص 196-197) وهذا نصها : كان الرشيد أدهى الناس وأكتمهم لسرّه . ومما يدل على ذلك ما حدّث به مسرور خادمه ، قال : « كنت مع الرشيد في بعض سني حَجّه ، فسمعته – وقد التزم المستجار من الكعبة وهو يلتفت يمينا وشمالا ، و كنت بين أستار الكعبة لم يرني – وهو يقول : « اللهم اني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى !» مرارا كثيرة ؛ فلما سمعته ، طار عقلي وخشيت أن يفطن بي، فيكون ذلك سبب هلاكي. فاقبلت أتعوّذ، ولم أزل أحتال حتى استللت من الأستار...وكان بين الوقت الذي استخار الله فيه في قتل جعفربن يحيى وبين قتله سبع سنين ».

فتبنّاها عدد كبير من مؤرخي العصر ، وحذا حذوهم – حتى عصرنا الحاضر – القصّاصون والرّوائيّون[74]. روى كل من الطبري والمسعودي[75] قائلا :

... " ان الرشيد قال لجعفر : « ويحك يا جعفر ! انه ليس في الأرض طلْعة انا بها آنَسُ، ولا إليها أمْيَلُ، ولا أنا أشدُّ استمتاعا وأنسا منّي برؤيتك . وان للعباسة أختي مني موقعا ليس بدون ذلك ، وقد نظرت في أمري معكما ، فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظّ والسّرور منك يوم أكون معها ، وكذلك حكمي منك في يوم كوني معك دونها. وقد رأيت شيئا يجتمع لي به السرور، وتتكاثف لي به اللّذة والأنس » – فقال : « وفقك الله ، يا أميرالمؤمنين ! وعزم لك على الرشد في أمورك كلها !» – قال الرشيد : «قد زوّجتك اياها تزويجا تملك به مجالستها والنّظر اليها والإجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك » " .

" فزوّجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر اليه في ذلك ، وأشهد له من حضر من خدمه وخاصة مواليه ، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه انه لايخلو بها ، ولا يجلس معها ، ولا يُظلّه وإياها سقفُ بيت إلاّ وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما ؛ فحلف له جعفر على ذلك ، ورضي به ، وألزمه نفسه ؛ وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفناها ، وجعفر في ذلك صارف بصره عنها ، مُزْوَرٌّ بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه " .

" وعَلِقَتْه العباسة وأضمرت الإحتيال عليه ؛ وكتبت اليه رقعة ، فرد رسولها وشتمه وتهدّده ، وعادت فعاد بمثل ذلك ؛ فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمّه عَبَّادة ، ولم تكن بالحازمة ، فاستمالتها بنفيس الهدايا والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك ، حتى اذا ظنّت انها لها في الطاعة كالأمَةِ ، وفي النصيحة والإشفاق كالوالدة ، ألقت اليها طَرَفا من الأمر الذي تريده ، وأعلمتها ما لها في ذلك من حميد العاقبة ، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين ، وأوهمتها ان هذا الأمر اذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط المرتبة " .

" فاستجابت لها أمّ جعفر، ووعدتها بإعمال الحيلة في ذلك ، وانها تلطف لها حتى

---

(74) [نذكر منهم] الطبرى والمسعودي ومؤرخين آخرين ، وقصاصي ألف ليلة ، وأقرب منا اليوم – على سبيل الذكر لا الحصر– ج. زيدان (في "العباسة ، أخت الخليفة ") وخاصة ل. هيرماري- فياي C. Hermary-Vieille (في "كبير وزراء الليل" Le Grand Vizir de la nuit ، باريس ، 1981) .

(75) * في الواقع اختصر آ. كلو رواية المسعودي (مروج ، 4 ، 411 - 413) عند نقله لها الى الفرنسية فجاءت مبتورة ؛ لذا رأينا إيرادها كاملة اتماما للفائدة وايفاء بواجب الأمانة نحو صاحب المصدر والناقل عنه ؛ وقد أوردناها في المتن أعلاه بين علامتي تنصيص « . . . » .

تجمع بينهما؛ فأقبلت على جعفر يوما فقالت له : « يا بُنيَّ ، قد وُصِفت لي وصيفةٌ في بعض القصور من تربية الملوك ، قد بلغت من الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم يُر مثله ، وقد عزمتُ على اشترائها لك ، وقد قرُب الأمر بيني وبين مالكها» . فاستقبل جعفر كلامها بالقبول ، وعَلَّقت بذلك قلبه ، وتطلعت اليها نفسه ، وجعلت تمطله حتى اشتد شوقه وقويت شهوته، وهو يلح عليها بالتحريك والإقتضاء ؛ فلما علمت انه قد عجز عن الصبر ـ واشتد به القلق قالت له : «أنا مُهْدِيَتُها اليك ليلة كذا وكذا» ، وبعثت الى العباسة فأعلمتها بذلك ، فتأهبت بمثل ما تتأهب به مثلها ، وسارت اليه في تلك الليلة ".

" وانصرف جعفر في تلك الليلة من عند الرشيد ، وقد بقي في نفسه من الشراب فضلة ، لما قد عزم عليه ، فدخل منزله ، وسأل عن الجارية ، فخُبِّر بمكانها ، فأُدخِلت على فتىً سكران لم يكن بصورتها عالما ، ولا على خَلْقها واقفا، فقام اليها فواقعها ؛ فلما قضى حاجته منها قالت له : « كيف رأيت حِيَل بنات الملوك ؟» – قال : « وأيّ بنات الملوك تعنين ؟»، وهو يرى انها من بعض بنات الروم ؛ فقالت : « أنا مولاتك العباسة بنت المهدي !» فوثب فَزِعا قد زال عنه سكره ورجع اليه عقله . فأقبل على أمه وقال : «لقد بِعْتِني بالثمن الرخيص ، وحملتني على المركب الوَعْر، فانظري ما يؤول اليه حالي ! » " .

" وانصرفت العباسة مشتملة على حَمْل ، ثم ولدت غلاما، فوكلت به خادما من خَدَمها يقال له رياش وحاضنة تسمى بَرّة ؛ فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبيّ والخادم والحاضنة الى مكة وأمرتها بتربيته . وطالت مدة جعفر، وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة ؛ وكانت زبيدة أم جعفر زوجُ الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حَرَم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة الى الرشيد؛ فقال ليحيى بن خالد : « يا أَبَتِ ، ما بال أم جعفر تشكوك ؟» – فقال : « يا أميرالمؤمنين ، أَمُتَّهَمُ أنا في حَرَمك وتدبير قصرك عندك ؟ لا والله ! لا تقبلْ قولها. » – قال الرشيد : «فلست أعاودك » " .

" فازداد يحيى لها مَنْعا، وعليها في ذلك غِلْظَة ؛ وكان يأمر بقفل أبواب الحَرَم بالليل، ويمضي بالمفاتيح الى منزله. فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه اياي من خدمي ووضعه اياي في غير موضعي ؟ » – فقال الرشيد : « يحيى عندي غير مُتَّهَم في حرمي » – فقالت : «إن كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه » – فقال : « وما ذاك ؟» . فخبَّرته بالخبر وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر، فسُقِط في يده وقال لها : « هل لك على ذلك من دليل أو شاهد؟» – قالت : « وأي دليل أدل من الولد ؟ » – قال : « وأين الولد ؟ » – قالت : « قد

كان هـهنا ، فلما خافت ظهورأمره وجهته الى مكة » – فقال لها : « أفيعلم هذا أحد غيرك ؟» – قالت : «ما في قصرك جارية الاّ وقد علمت به» ".

" فأمسك عن ذلك ، وطوى عليه كشحا ، وأظهرانه يريد الحج ، فخرج هو وجعفر بن يحيى ؛ وكتبت العباسة الى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي الى اليمن . فلما صار الرشيد الى مكة وكّل من يثق به بالفحص والبحث عن أمر الصبي والداية والخادم فوجد الأمر صحيحا" ؛ فأمر بقتل العباسة وابنها[76] .

وحسب رواية أخرى[77]، أقامت العباسة احتفالات عظيمة في بعض البساتين على ساحل دجلة تكريما لأخيها هارون ؛ ففي الليلة الأولى أتحفت كلاًّ من أخيها وجعفر بجارية حسناء ، وفي الليالي الموالية ظلت تتحف كليهما بجارية ، الى أن كانت ليلةٌ ، فاحتالت وتقدمت الى جعفر مكان الجارية الموجهة اليه . فرُزِقا ولدين – الحسنَ والحسينَ – لم يبلغ كلاهما ، عند حدوث فاجعة العُمْر، الا العاشرة والثامنة من عُمُره ؛ فلم يتعرض لهما الرشيد بسوء . لكن خادما من خدم زبيدة جزم ان هارون عاقب أخته ، فأمر بصندوق ، فوُضِعت فيه مع حَلْيها ، وأُغلِق الصندوق وسُمِّر ثم أُلقِي به في جُبّ رُدِم وطُمر بالجِير واللَّبِن ؛ وقُبِض على وكيلها وعشرة من خدمها فقُتِلوا وأُخِذ ابناها وأُقحما في سعير تنّور ملتهب ، والرشيد يصيح بهما : « الثّأر ولا العار! » ، ثم أمر بجلاّديهما، ممن كانوا يساعدون مسرورا في تنفيذ أوامر الخليفة ، فوُضِعوا في أكياس ورُمِي بهم في دجلة .

أكلّ هذا رواية من محض الخيال ، أم قصة من صميم السخف ، أم خبر مستمَد من واقع الأحداث ؟ فالطبري والمسعودي غيررافضَيْن لخبرالزواج الذي جمع شمل العشيقين الجميلين جعفر والعباسة ، رغم العنصر العجيب المذهل والطابع الفاجع المأساوي الذي يطغى عليه ؛ لكن ابن خلدون[78] يرى انه لا يمكن تصوُّرُ الرشيد – « لبعد همّته وعظم آبائه»[ولعلّ الصّواب : إبائه] – يُصهِر الى موالي العجم ويُزَوِّجُ أخته الأميرة العباسة[79]،

---

(76) * الجملة الأخيرة التي وردت بعد آخر رواية المسعودي هي من وضع أ. كلو. اما الطبري فقد ختم روايته بقوله : ... « فأراد قتل الصبي، فيما زُعِم ، ثم تحوّب عن ذلك . » واما المسعودي فقد قال في آخر روايته : ... «فلما قضى حجه ورجع ، أضمر في البرامكة على إزالة نعمهم» . واما ابن طباطبا فختمها بقوله : « . . . فكان ذلك سبب نكبة البرامكة » .

(77) اليزيدى ، التاريخ .

(78) المقدمة ، المذكورة سابقا .

(79) * ويضيف ابن خلدون ، تأكيدا على رأيه ، قوله : « . . . وهيهات ذلك [يعني زواجها المزعوم من جعفر بن يحيى] عن منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينه وبينها الاّ أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ؛ والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله بن أبي جعفر المنصورابن محمد الساجد بن عليّ أبي الخلفاء =

ولو تزويجا شكليا ، من جعفر سليل الفرس الوثنيّين . والمؤرخون المعاصرون متشككون، وهم يذهبون الى ان المصادرالتي تذكر هذا الحدث هي من التأخر بحيث يصعب تصديق روايتها له . فينجرّ عن هذا أنّ أشهر المؤرخين الذين عاشوا بُعَيد ذلك العصر– ومنهم الطبري والمسعودي على سبيل الذكر – يجب أن ترفض رواياتهم . اما نحن اليوم ، فالذي يتعذر علينا قبوله هو احتمال حدوث الواقعة ، وطابع " القصّة الشّرقية " الغالب عليها ، ثم القصد الوعظي والغرض التأديبي الطاغيان عليها والمتمثلان في ضرورة إقامة الحدّ على الآثم ، مع ما يتخللها من سرد لعجائب لم يتردد المتأخرون من الأخباريين عن التوسع فيها مع مرّ الزّمن . و ينبغي ألا ننسى أن العباسة قد تجاوزت سن الأربعين (فقد كانت أكبر سنا من أخويها الهادي وهارون) ، وأنها كانت قد تزوجت مرتين ؛ فمن العسير التصديق بأن هذه المرأة – التي أسلفت وتجاوزت نعومة الشباب – تركن الى حيل ساذجة ومعقدة في آن واحد ، لتجلب الى مخدعها فتىً على أبواب الإكتهال يدخل عليها ، وقد بلغ به السكر حدا لا يستطيع معه ان يكتشف حقيقتها قبل المواقعة ولا بعدها ؛ اما هارون فيجب ان يكون قد أحسر بغتة (وهذا ما لم يذكره لنا المؤرخون !) لئلا يلاحظ علامات الحمل على أخته التي كثيرا ما كان يراها ويجالسها . أوَ ليس من الأنسب البحث عن جذور هذه القصة – التي تجمع بين الطرافة والفظاعة – في حادثة غرامية قد يكون جعفر فعلا أحد أبطالها، لكن مع إحلال المذكر مكان المؤنث ؟ ...[80]

ما هي الأسباب التي أدت اذن الى مقتل جعفر وحدوث هذه المأساة التي طالما

= ابن عبد الله ترجمان القرآن ، بن العباس عم النبيء صلى الله عليه وسلم ؛ ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحابة الرسول وعمومته ، وإمامة الملة ونور الوحي ، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبةُ عهدٍ ببداوة العروبية وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفحش . فأين يُطلب الصَّوْن والعفاف اذا ذهبا عنها ؟ وأين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها ؟ أوَ كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ؟ . . . » (المقدمة ، 22) .

(80) أُدخِل القصرَ يوما فتًى عربيٌّ " ذو أدب وفصاحة " يُدعى زُرارة [لا زَرارة كما رسم ذلك المؤلف] بن أحمد الاعرابى ، فقدّمه للخليفة أشدُّ الناس عداء للبرامكة ، ألا وهو الفضل بن الربيع الذي سرعان ما أصبح من أخصّ المقرَّبين الى هارون ومن ألدّ الخصوم لجعفر ؛ ووصلت به الدالة على الرشيد الى حد إيهامه بأن زُرارة قد مات ؛ وتواصل ذلك الى أن خرج زرارة من القبر الذي كان قد اختفى فيه . فلما رآه الرشيد صاح به : «أما كنتَ ميتا ؟ » – فقال : « نعم ! كنت ميتا فبُعِثت كي أُطلِع أمير المؤمنين على ما لحقني من سوء المعاملة » . فازداد زُرارة حظوة لدى الرشيد ، وظل من أكبر خصوم جعفر بن يحيى (رواه بوفا Bouvat عن اليزيدي) .

استتكر العرب بشاعتها ؟ لقد زعموا أن جعفرا لم يكن مسلما إلاّ في الظاهر، وانه ما كان يشيّد المساجد إلاّ للتّلهّي ، وان قراءة القرآن تُدخِل على نفسه ضجرا كبيرا . فقد بقي، في قرارة نفسه ، مزدكيا[81]؛ والدليل على ذلك – على ما رُوِي – أنه أعطى الرشيد عطورا وأوصاه بأن يُحرِقها داخل الكعبة كما لو كان يشاء أن يجعل منها معبدا من معابد النار. ورُوِي أيضا ان من مظاهر قلة تحمّسه للدين تسامُحَه مع العلويين والمهرطقين . أليس جعفر هو الذي أذن بإطلاق سراح يحيى بن عبد الله ، الثائرالعلوي المُعلِن العصيانَ ببلاد الديلم؟

لكن هذا أيضا غير محتمَل الوقوع : الفضل – كما رأينا – هو الذي وضع حدا لهذه القضية وهو الذي وُجِّه اليه اللوم من قِبَل الرشيد . بيد ان جعفرا هو الذي أمر بقتل علوي آخر، وهو عبد الله بن الحسن ، مخالفا بذلك أوامر الخليفة . وقد اتُّهِم ايضا بأخذ مبالغ ذات بال من أموال الخزينة سلمها الى عبد الملك بن صالح[82] الذي كان الرشيد حذرا منه ، شديد الريبة به ، ويعتبره منازعا له خطيرا على عرش الخلافة ، ويُروى انه غضب لذلك غضبا شديدا .

كان الرشيد شديد الإمتعاض من الثروة الهائلة التي جمعها جعفر والبذخ الفاحش الذي كان يبديه في عيشه وعلى الأخص من عظم المبالغ التي أنفقها على بناء القصر الذي شيده على ضفاف دجلة ؛ والأخبارالتي وردت علينا واصفة غضبه على كل ذلك عديدة . قيل انه خرج يوما الى الصيد في عدد كبير من الصَّحب والأتباع فسأل قائلا : « هل رأى أحد قَطُّ حاشية أعظم من حاشيتي اليوم ؟» – فقال له أحد المتزلفين : «لا وجود لحاشية تضاهي حاشية جعفر ! . . . »ولما اجتاز الركب دساكر تحيط بها قصور فاخرة تحفّ بها بساتين تروق الناظر حسنا ونضارة سأل : «لمن كل هذه القصور والبساتين » – فقيل له : « هي للبرامكة !» – فقال : « لقد غدرنا أنفسنا بأنفسنا، اذ مكنا البرامكة من أسباب العزة والرفاه ، فها هم اليوم قد بلغوا ذروة المجد؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يُحصِي ثرواتهم؟»[83].

(81) كان أجداد البرامكة على دين بُوذة لا على دين مَزْدَك .

(82) * عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله ابن العباس (... - 811 هـ/ ... - 196 هـ) . أمير من أمراء بني العباس . ولاّه الهاديا امرة الموصل سنة 786 (170 هـ) ، وعزله الرشيد سنه 788 (172 هـ) ، ثم ولاه المدينة والصوائف ، وولاه مصر مدة قصيرة ، فلم يذهب اليها . وولاه دمشق فاقام فيها أقلّ من سنة . وبلغه انه يطلب الخلافة ، فحبسه ببغداد سنة 803 (188 هـ) . ولما مات الرشيد أطلقه الأمين وولاه الشام والجزيرة سنة 809 (194 هـ) ، فأقام بالرقة أميرا الى أن توفي . كان من أفصح الناس وأخطبهم ، قيل ليحيى بن خالد البرمكي ، لما ولّى الرشيد عبد الملك على المدينة ، كيف ولاه المدينة من بين أعماله ؟ فقال « أَحَبّ أن يباهي قريشا ويعلمهم انّ في بني العباس مثله » ، ولا تخلو هذه الكلمة من التحريض عليه .

(83) حسب المسعودي ، كانت العقارات التي على ملك البرامكة موزَّعة عبر كلِّ تراب المملكة =

فالذي أثّر تأثيرًا بليغا في الخليفة ، أكثرَ من تأثير عوارض الحسد وسَورات الغضب التي قد تكون اعترته ، ودفعه الى العزم على الفتك بالبرامكة – وما بلغنا عن تلك المأساة من أخبار ربما انتُحِل بعد وقوعها بأمد طويل – هي بلا شك الضغينة التي كان يضمرها الفضل بن الربيع لجعفر بن يحيى . فقد كان كلا الرجلين يُبغِض الآخر؛ وكان جعفر ، وهو العقبة الكأداء أمام طموحات عدوّه ، يعلم ان الفضل لا يدّخر جهدا قصد القضاء عليه ؛ وفعلا أوغر هذا الأخير صدر الرشيد وأحقده عليه ، وصار ملاذا منيعا لخصوم البرامكة وأعدائهم .

لم يكن الكره لجعفر وللبرامكة عموما مقصورا على الفضل بن الربيع ؛ فكبرياء الحظيّ الجميل وتأنقه الباذخ ، وما في سلوكه أحيانا من استخفاف بالغير، كل ذلك جلب له عداوات شديدة . من ذلك مثلا ما كانت تشعر به زبيدة من نفور نحو الخليط الحميم لزوجها و" الوصي " على المأمون ، المنافس النبيه لابنها الأمين . فلا أحد في القصر كان يجهل ان الرشيد معجب بمواهب المأمون ، وعاقد العزم على تقديمه على الأمين في ولاية العهد ؛ وما قُرِّر في مكة من تدابير تمنح المأمون ولاية خراسان مع قوات عسكرية هامة لم يغير شيئا ولا خفف من روع زبيدة ، بل عكس ذلك هو الذي حصل . وكل شيء يبعث على الإعتقاد انه كان لزبيدة ، طيلة الأسابيع التي سبقت الفاجعة ، تأثيرها – ويا له من تأثير– في قلبِ ظهرِ المجنّ على جعفر المخلص كل الإخلاص لمنافس ابنها على ولاية العهد .

كان لعلاقات هارون بالفضل البرمكي طابع مخالف تماما . كان الخليفة معجبا بكفاءة أكبر أبناء يحيى البرمكي ، لكن دون أن يكون له معه كبير تعاطف . لقد كُلِّف بولاية خراسان مرتين نجح فيهما نجاحا باهرا . وكانت قدراته في قيادة الجيوش تساوي قدراته في تدبير السياسة وتسيير الإدارة ، فأكثرت انتصاراته من حساده : وزعيمهم أخوه جعفرالذي كان يسعى به لدى الخليفة ؛ ثم أعيان البلاط ، وكانت لهم غيرة شديدة من الشهرة التي نالها ، بالرغم من صعوبة مراسه وكثرة ما يبديه من عُجْب .

كان الفضل أيضا شديد التسامح مع العَلَويين ؛ فقد نُسِب اليه – مثل جعفر– إطلاق سراح يحيى بن عبد الله ؛ ويُروى أيضا أنه عَصى أمر الخليفة اذ أنجى موسى

= فكان لخالد ويحيى حيٌّ كامل من أحياء بغداد يُكْريان فيه المنازل والدكاكين . وأضاف يحيى الى ذلك قصرا ابتناه وسمّاه بكل تواضع قصر الطين ؛ كما سكن قصرا آخر كان مبنيا أمام قصرالخُلْد ، قصرِالخليفة . وكان قصر جعفر ، وهو الذي أهداه الى المأمون ، يوجد أسفله ، على نفس الضفة ، في اتجاه سافلة النهر ؛ وكان أيضا في مدينة السلام "سوق يحيى" و "سوق جعفر" و" تُرْعة الفضل" و"ميدان خالد". وكان لهم بالكُوَر ضيعات فلاحية تدرّ عليهم مبالغ هائلة من الأموال ، وبالبصرة قصر سيحان ، وبالقرب من بَلْخ قرية "راون" الشهيرة ؛ وكان لهم ببلخ ذاتها "باب يحيى" وببُخَارى "باب الفضل" ، الخ ...

الكاظم من الموت في حين كان الخليفة أمر بإعدامه ؛ على أن نجاة موسى ما كانت الاّ الى حين ، اذ ان أبا الفضل ، يحيى ، قتل الكاظم ؛ ومما لا ريب فيه ان ذلك كان بأمر من هارون . ويُروى أيضا أن الرشيد أخذ الفضل بما أبداه من تساهل مع علويّ آخر، الحسني ابن طَباطَبا[84]: فالخليفة ، وهو الرجل الذي لا يُعرف لنفوذه حدّ ، كان يكفي أن يداخله أدنى توجُّس من حدوث فتنة علوية مدبرة ضده حتى يستولي عليه هلع شديد؛ في حين أن الفضل كان يرى – على عكس ذلك – ان الحكمة تقتضي ان يُترك العلويون وشأنهم ما داموا لا يمثلون خطرا حقيقيا . واذ كان الفضل مُتَّهَما من قِبَلِ الخليفة بقلة الحزم إزاء الأعداء ، وكان في خِلاف مع أخيه جعفر ذاته ومع كافة ذوي الشأن تقريبا من رجال الحاشية الذين لا ينتمون الى حزب البرامكة –وعلى رأسهم الفضل بن الربيع – فانه كان أول من انتَزَع منه الرشيد مهامه ، ولم يُبق له منها الا الوصاية على الأمين ، ولي العهد.

اما يحيى ، فان ذنبه – حين وضع هارون حدا "لدولة بني برمك"– يتمثل ، بالخصوص، في كونه موجودا . ففي حين كان مبعثَ سعادة الخليفة ومحطَّ ثقته الكاملة عند بداية عهده، أصبح ، مع مرّ الزمان ، المعلّم المضجر، ثم المانع الألد عند اتخاذ التدابير. كان الرجل الشيخ يختلف عن الخليفة الشاب طبعا ومزاجا : ففي حين كان الثاني ميّالا الى القرارات الفظّة بل والطائشة أحيانا،كان الأول يتميز بمرونته ورغبته الدائمة في المصالحة ؛ فبات ، في نظر هارون–المتطلّع الى الممارسة الفعلية لنفوذه–حملا لا يطاق . ألم يكن من المحتوم أن يتخلص من أمثاله عاهلٌ جَزِعٌ ، شديد الغيرة على سلطته ؟ كان هارون – وهو الذي لا يعوزه الذكاء – يرى بلا شك الخطرَ الحقيقي : نفوذَه الذي ينسلّ شيئا فشيئا من يديه لينتقل الى أيادٍ أُخرى ، واحتفاظَه هو بالعرش بينما ليس له من السلطة الا المظاهر. فقد روى كثير من المؤرخين ما حدّث به جبريل [ابن بختيشوع] طبيب هارون اذ قال:« دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخُلْد بمدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة . قال :فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ؛ فقال : « جزى الله يحيى خيرا ؛ تصدى للأمور وأراحني من الكد ووفّر عليّ أوقات اللذت » . ثم دخلتُ عليه بعد مدّة ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : « قاتل الله يحيى ، فقد حَكَّم واستبَد بالأمور دوني»[85]. وكانت زبيدة حاضرة فأيّدت ما قاله الرشيد وطفقت تُعَرِّض بيحيى وبتصرّفاته[86].

---

(84) * ابن طَبَاطَبَا (789-173/815-200 هـ) : هو محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أمير علوي ثائر من أئمة الزيدية ، توفي بالكوفة ودُفِن بها وله من العمر 26 سنة .

(85) * الفخري ، 208 .

مما لا شك فيه ان يحيى لم ينْوِ قط الإستيلاء على عرش هارون ، كما اتهم بذلك لكن ، ألم يكن فى استطاعته أو في استطاعة أحد أبنائه أو أحد أفراد أسرته ان يدخل في مؤامرة غايتها أن تُحِل محل الرشيد عباسيا آخر، أو- وهو أخشى ما يخشاه هارون - أحد العلويين ؟ أوَلَم يكن الخليفة يعتبر أن القضاء على البرامكة نتيجة حتميّة لا مناص من حدوثها بعد ما تم إقراره من شروط في مكة ؟ وهل كان يمكن أن تُقسَّم المملكة والبرامكة في الحكم ؟ فقد يكون من الأولى تفسير مأساة العُمْر بمشكل وراثة العرش لا بالصراع بين التأثيرات العربية والإيرانية .

كان البرامكة ، لامحالة ، أصيلي خراسان ، لكنهم بُوذيون لا زَرادُشْتيون ؛ فمن المستبعد ان يكونوا قد أفرطوا-أو تجاوزوا الحد الذي يقتضيه العصر- في إشاعة حضارة الفرس وإعضاد تأثيرها ؛ فلم يكن لتسامحهم مع العلويين - وهم ، كما هو معلوم ، من العرب لا من الفرس - أيُّ صلة بنسبتهم الخراسانية . أضف الى ذلك ان الإنتساب الى خراسان ليس نقيصة : فقد انطلقت الثورة العباسية من خراسان ، وكان الخراسانيون أقوى الأنصار إخلاصا للنظام الجديد . ثم ان اندماج البرامكة في الثقافة العربية كان اندماجا كاملا ، حتى وإن كانوا - كسائرالناس في ذلك العصر- متقبلين للإسهامات الإيرانية ، من النظريات الفلسفية الى العادات ، مرورا بتقاليد اللباس والطبخ . فلا وجود ، فيما رماهم به هارون ، لتهمة تتّصل بنزعتهم الإيرانية[87] .

ان ذراري البرامكة - وعددهم كبير - خصّهم القدر بحظوظ مختلفة ؛ فالذين نجوا من بطش الرشيد او استطاعوا الإختفاء استعادوا حياة طبيعية عندما ارتقى المأمون عرش الخلافة . فانتُدِب محمد بن يحيى لولاية البصرة ، وعباس بن الفضل لولاية خراسان وموسى لولاية السِّند ، وسيخلفه فيها ابنه عُمران بعد ذلك بزمن قليل ؛ وسيكون أحد أحفاد موسى- وهو شاعر ومؤرخ يدعى أبا الحسن - نديما للخليفة المقتدر. ومن مشاهير أخلافهم المؤرخ وكاتب السِّيَر ابن خلّكان المعروف بكتابه "وفيات الأعيان" (المتوفى بدمشق سنة 680/1282 هـ وهو من سلالة جعفر) ، وأحد وزراء الدولة السّامانية ، وأحد سفراء

---

(86) فى ألف ليلة وليلة أصداء لما بلغه البرامكة من سطوة وجاه ، منها : « فلا كلام الا عن عزة بني برمك ؛ بهم تُفتح الأبواب وتُبلغ المقاصد ؛ فهم فرسان الجيش ودعائم القضاء وأركان الولاية في الأمصار. . . ؛ وحول منازلهم من ازدحام الناس وتنافس المتزلفين والمكدّين ما لا وجود له على باب الخليفة » (الليلة 996) .

(87) * كأنّ أ. كلو يخفّف هنا عمدا من خطورة الشعوبية ومضاعفاتها في ذاك العصر .

الدولة الغزنوية ، وفقيه استقر بالأندلس في القرن 10 ً (4 ً الهجري) . وقد لُقّب "بالبرمكي" رجال كثيرون لأنهم كانوا أحفادا لبعض موالي البرامكة ؛ وادعت جماعات انها من ذرية البرامكة : منها "البُرَامِك" او "البُرْماتا" الذين استقروا باديءَ الأمر بطرابلس ثم بتُوات[88]؛ ولجيرار دي نرڤال[89] في كتابه "رحلة الشرق" حديث مطوّل عن الراقصات "الشواسي" اللائي يزعمن انهن يُسَمَّيْن "البَرَامِك" او "البُرْمُك" لأنّهن سليلات البيت البرمكي .

---

(88) * تُوات مجموعة واحات تقع في صحراء الجزائر ، بها نخيل كثير وسواد عظيم ، يسقيها نهر السَّوْرة بعد قَطْعه مائتي كلم في مجرى تحتأرضيّ .

(89) * جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval . أديب فرنسي (1808-1855/1223-1271) كان أول أمره رومنسي المنزع ، ثم مهّد السبيل بنثره وشعره للرمزية والسريالية ؛ أصيب بالجنون في آخر عمره وعُثِر عليه مشنوقا في بعض الشوارع بالقرب من قصر الشاتلي بباريس .

الفصل الخامس

هارون ودنيا عصره

« انّ هارون ، ملك فارس ، الذي يدين له بالطاعة كامل الشّرق - عدا بلاد الهند - له مع شارلمان علاقات وديّة ، وكانت من المتانة بحيث أنّه يُؤْثِر عطفه على صداقة ملوك المعمورة وسائر أمرائها » .

(إجِنْهارد) [1]

« لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، وَلَنِعْمَ الأمِيرُ أَمِيرُهَا ، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ » .

(حديث نبوي) [2]

---

(1) * أنظر ص 161 رقم 75 .

(2) * لأحمد في مسنده وللحاكم في مستدركه ، كلاهما عن بشر الغنوي ، حديث صحيح . (الجامع ، 2 ، 402) .

ان أقرب العوالم الى عالم العرب – والوحيد[3] الذى لهم معه علاقات – هو ذاك الذي كان يحيط بالبحر الأبيض المتوسط ؛ فالبلدان المجاورة لهذا البحر هي مقصد سياستهم الخارجية ، هذا طبعا اذا سلمنا بوجود سياسة مقررة لديهم مع الخارج ، لأن ما لأمير المؤمنين من السطوة والاقتدار، وما لمملكته من الاتساع والامتداد ، وما لنظرته الى غير المسلمين من الاستعلاء ، كان يجعل ملوك الأعاجم لا يمثلون عنده سوى أتباع ، قد يتنازل ليتلقّى من سفرائهم – في ظروف استثنائية – شواهد الطّاعة والإخلاص .

ويأتي في مقدمة هؤلاء الملوك عاهل الروم ؛ فقد انتزع منه العرب ممتلكاته في بلاد المشرق والشمال الإفريقي ، وأفلتت إيطاليا من قبضته ، فلم يبقَ البحر المتوسط " بحرا روميا " كما كان ؛ ثم ان أمواج العبابيد من الصّقالبة ، التي تدفقت من الشّمال منذ أمد بعيد ، وعبرت نهر الطُّونة (الدّانُوب) ، باتت على وشك الارتطام بأسوار القسطنطينية ؛ وستأتي قرون يظلّ فيها بقاء الإمبراطورية البيزنطية في الوجود رهينَ عجزِ أعدائها عن الاتحاد ضدها ، وأيضا رهين تفوّقها التقني عليهم (النار الإغريقية)، واقتدارِ من يظهر فيها من شخصيات فذّة على الأخذ بزمام الأمور لإنقاذها من الخطر، والذّود على ما كان يبدو فيها مهدّدا بالتّلف من إرث قُسْطَنْطِين[4] ويُوسْطِينْيَان[5] .

والقرن 8 ً (2 ً هـ) هو أحد تلك القرون ؛ فقد توالى على عرش القسطنطينية وأُزيح

---

(3) * كانت لهم أيضا علاقات عريقة المتانة مع عوالم أخرى ، أهمها تلك التي تحيط بالبحر الأحمر، وغربي المحيط الهندي وشرقيه ، وبحر عُمَان والخليج العربي .

(4) * قُسْطَنْطِين 1 ً الأول أو الكبير (274-337): إمبراطور روما (306) ؛ هَزَم خصمه مَاكْسانْس (312) وأعلن حرية الدين المسيحي في قرار ميلانو (313). نقل عاصمة الإمبراطورية من روما الى بيزنطة ، فسُمّيت القسطنطينية (330) ؛ شيّد عديد الكنائس ، منها كنيسة أجيا صوف . بدأت ولايته عامين بعد سقوط الأسرة العربية الحاكمة في تَدْمُر إثر هزيمة الإمبراطور الرّوماني أُورِيلْيانوس لملكتها زينب التدمُرية (الزّبّاء التي خلفت على العرش زوجها أُذَيْنَة Odénat) وتأسيره لها وأخذه إيّاها مع غنائمه وسباياه الى إيطاليا حيث ماتت بإحدى ضياعه (أنظر ص 17 رقم 26).

(5) * يُوسْطِينْيَانُ 1 ً (527-565) : إمبراطور الروم ، كمّل بناء كنيسة أجيا صوفيا في القسطنطينية، وأمر بتدوين القوانين الرومـانية ؛ تزامن عهده مع حكم الغساسنة ، وزاره الحارث الغسّاني في عاصمته (529 م) .

عنه سبعة أباطرة[6]. وأُعدِم حرقاً بالنار وزيران من وزراء يوسطينيان 2 ً[7]؛ وحلت بالبلاد الكوارث وتوالت الفتن وتعاقبت الثورات في كل مكان، وباتت المملكة تنتظر منقذا، فأنقذها ليون[8] الإيزوري "أستراطيغوس"[9] الأناضول ؛ وإذ ثار على الإمبراطور، فلم يلبث أن بايعه مجلس الشّيوخ والجيش والشعب .

كانت إذن مهمة العاهل الجديد إيقاف الزحف العربي . واستطاع أن يحقّقها

---

(6) * والحقيقة انهم ثمانية من مجموع الأحد عشر إمبراطورا الذين غطت عهودهم تقريبا كامل القرن 8 ً / 2 ًللهجرة (عن هؤلاء الاباطرة الأحد عشر، أنظر الملحق السادس) ؛ والأباطرة الثمانية المخلوعون هم · يُوسْطِينْيان 2 ً، ولِيُونِيس ، وتِيبير3 ً، وفيلِيبِيك بَرْدان ، وأَنَسْتَاز 2 ً، وتِيُودُوز 3 ً، وقُسْطَنْطِين 6 ً، وإيرينة .

(7) * عن يوسطينيان 2 ً (685-695/66-76 هـ) أنظر الملحق السادس .

(8) * لِيُون 3 ً الإيزُوري (717-740/99-123 هـ) . مؤسّس الأســـرة الإيزُورية . كان قائد جيش يحكم الدّائرة الإدارية والعسكرية الأناضولية ، ثم ثار على تيودوز 2 ًفنودي به إمبراطـورا ؛ استطـــاع إذاك أن يذود مدينة القسطنطينية دون العرب الذين حاصروها من 717 الى718 (99-100 هـ) – أي في عهد هشام بن عبد الملك – وأن يُلحِق بهم هزيمة نكراء في أَكْرُوَايْنُون (740/123 هـ) وأن يحرّر آسيا الصّغرى . واصل سياسة الهراقلة الرامية الى إعادة تنظيم الإدارة المركزية والجهوية . واذ ناصر القائلين بتحريم عبادة الأيقونات (الصـورالمقدسـة للمسيح والقدّيسين والعذراء مريم) فقد افتتح معركة الصّور l'icônoclasme التي سيكون لها أوخم العواقب على وحدة المملكة وعلى علاقاتها مع المسيحية الغربية . وليون 3 ً هذا طال عهده فعاصر الخليفة الأموي السابع سليمان بن عبد الملك ثم الثامن عمر بن عبد العزيز والتاسع والعاشر يزيد وهشام ابني عبد الملك .

(9) * الأَسْطْرَاطِيغُوس le stratège (من اليونانية القديمة : stratêgos أي جنرال الجيش وقائده) كلمة من الدخيل استُعملت ، في المشرق بالخصوص ومنذ القرن 4 ً م ، للدلالة على حاكم الدائرة le thème الإدارية والعسكرية في مملكة الروم (وكثيرا ما كان يتقلد هذا الحاكم الوظيفة الدينية بجانب وظيفتيه الإداربة والعسكرية) . وممن وردت اللفظة في نثره من كُتَّاب العرب في القرن 4 ً ، مثلا ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه ، في تقديمه لديوان أبي فراس الحمداني وشرحه لقصائده ؛ فهو الذي مهّد للدّاليّة المشهورة التي أرسل بها أبو فراس – أول أسره – الى سيف الدولة ، يسأله مفاداته والتي مطلعها :

دَعَوْتُك لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ لَدَيَّ ، وَلِلنَّوْمِ الْقَلِيلِ الْمُشَرَّدِ

[من الطويل]

فكتب : « ولما خرج "بُودْرُسُ الأَسْرَاطِيغُوسُ ابْنُ مَرْدِيسَ الْبِطْرِيقِ" – وهو ابن أخت ملك الروم – في ألف فارس من الروم ، الى نواحي مَنْبِج ، صادف الأمير أبا فراس يتصيّد في سبعين فارسا. . . » (أبو فراس ، 2 ، 75-76) .

بفضل المكيدة التي دبّرها لمسلمة[10]، القائد الذي وجّهه الخليفة الأموي على رأس جيش عظيم لفتح القسطنطينية[11]. فقد رُفِع الحصارُ عن هذه المدينة ، لكن ما كادت تمر سنوات قلائل حتى استؤنفت الغارات ؛ ووصل المغيرون حتى نيقية[12]، على مقربة من العاصمة ، كما لو كانوا يريدون أن يُعلنوا أنّ المدينة التي يحميها الرّبُّ (المسيح) هي التي ينوي الإسلام فتحها .

على أنّ ليون 3ً وابنه قسطنطين[13] كانا – بتحطيم الإيقونات التي تسبّبا في نشوب فتنتها – أشد انشغالا منهما بصدّ الغزاة العرب . فهل كانت الدوافع الى ذلك دينية أم سياسية ؟ أم هل أن مأتاها إرادة مبيّتة للحد من سلطان الكنيسة بكبح التزايد المطّرد في ممتلكات دُيورتها والتقليص من عدد رهابينها ؟ على كلّ ، فالأرجح أنّ ليون 3ً والأسرة الحاكمة التي أسسها – وهم من أصل شرقي – قد شملهم ، هم أيضا ، تأثير اليهود والمسلمين المُحرِّمة عليهم عبادةُ الصُّوَر. فبعد أن أبعد ليونُ المذكورالخطرَ العربي ، أمر بتهشيم صنمٍ مقامٍ على مدخل القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية ، يمثل المسيح ويقدّسه الناس تقديسا عظيما . فغضبت الجماهير وثارت ، وبدأت بذلك قضية تحطيم الصور وتحريم عبادتها باضطراباتها الدامية واضطهاداتها المتواصلة (أنظر ص 108 رقم 7) ؛ وتمّ بالخصوص اجتياز مرحلة أخرى نحو القطيعة مع البابوية ، وتفكيك الإمبراطورية الرومانية ، لفائدة مملكة الفرنجة التي بدأت تَظهَر قوتها في العالم الغربي[14] .

---

(10) * مَسْلَمَة بن عبد الملك (... - 738 / ... - 121 هـ) · أمير وقائد أموي ، من أبطال عصره . له فتوحات مشهورة. سار في مائة وعشرين ألفا لغزو القسطنطينية في دولة أخيه الخليفة سليمان . وأمره بالقفول من هذه الغزوة عمر بن عبد العزيز. قال الذهبي : كان أولى بالخلافة من سائر إخوته بني عبد الملك (وهم أربعة تولوا الخلافة دونه حسب الترتيب التالي: الوليد فسليمان ، ثم يزيد فهشام) .

(11) * تفاصيل هذه الخديعة ، التي تسببت في إفقاد الجيش العربي مُؤَنَه وفي هلاك جلّ رجاله ، يرويها الطبري فيختم كلامه بقوله . « فكتب [ليون 3ً] الى مَسلَمة . . . يسأله أن يأذن لهم ليلةً في حمل الطعام ، وقد هيّأ إلْيُون السفن والرجال ' فأذن له ، فما بقي في تلك الحظائر [من الطعام] إلا ما لا يذكر ؛ وأصبح إلْيُون محاربا ، وقد خدعه خديعة لو كان امرأة لعيب بها . فلقي الجند ما لم يلقه جيشٌ ، حتى ان كان الرجل يخاف أن يخرج من العسكر وحده. وأكلوا الدواب والجلود والورق وكل شيء غيرالتراب » (الملوك ، 6 ، 531) .

(12) * نيقية Nicée : مدينة في الأناضول، عُقد فيها مجمعان مسكونيان : conciles œcuméniques النيقاوي 1ً (325 م) الذي حَرّم آريوس ،والنيقاوي 2ً (787 م/ 171 هـ) الذي حَرّم الإيقونوكلاست أو محطمي الصور؛ واسمها اليوم إزنيق ، وهي من المدن التركية المشهورة منذ القدم بخزفياتها الرائعة .

(13) * ابن ليون 3ً · هو قسطنطين 5ً والملقب بالقذِر (أنظرص 34 رقم 83 والملحق السادس) .

لم يعترف أيّ بابا من البابوات بعقيدة الإيقونوكلاست . وذهب الأمر بغريغوريوس 2 ً[15] الى حدّ حرْم[16] كلّ من يقبل الرضوخ لقرار القيصر[17]. فعجّل ليون 3 ً بردّ الفعل وأصدر قرارا يقضي بأن تُفصَل عن بطْريرْقيّة رُوما [أي عن سلطة البابا] – وأن تُلحَق بالقسطنطينية – كاملُ مقاطعة إِلّيريكُوم (أي دَلْماسيا[18]، وتقريبا كامل شبه الجزيرة البلقانية ، وصقلّية ، وقَلَوْريّة)[19]. فحصلت بذلك القطيعة بين إيطاليا والإمبراطورية [البيزنطية] ؛ ولن تلبث البابوية أن تضع نفسها تحت حماية ملك الفرنجة پِپِين الذي سيَعِد البابا إِتْيَان َ2 ً[20]« أن يذود بحزم عن حقوق المبرور بُطْرُس[21] وجمهورية الرّومانيين » .

---

(14) * الفَرنْجة (أو الإفرَنج) les Francs · قبيلة جرمانية استوطنت ، في القرن 5 ً للميلاد ، بلاد الغال (أو غالة) التي تسمت منذ ذلك العهد باسمهم ، وباتت تُدعى فرنسا . مملكة الفرنجة توالت على عرشها دولتان : دولة الميروفِنْجيين من 447 الى 751 م (أول ملوكها ميرُوفِي وآخرهم شِلْدِريك 3 ً) ، ودولة القاروَلَنْجِيي من 751 الى 987 م (وأول ملوكها پِپِين القصير ، وأعظمهم شارلمان ، وآخرهم لويس 5 ً) ؛ زامن ليونَ 3 ً البيزنطي ً، من ملوك الفرنجة ، قَارْلُه (شارل مَارْتل) الذي قاتل العرب في بلاط الشهداء سنة 732 (114 هـ) – وبعد الحروب الصليبية أُطلِق في الشرق اسم الفرنجة أو الإفرنج على الأوروبيين عموما ، وحلّ أحيانا محلّ كلمة العلوج .

(15) * غريغوريوس 2 ً : هو البابا 89 ً (715-731/97-113 هـ) .

(16) * الحرْم l'excommunication : هو ، عند النصارى ، منع الأُسْقُفِ الرجلَ المسيحيَّ من شركة المؤمنين المسيحيين عقابا له على إخلال خطير بموجبات العقيدة .

(17) * قيصرالروم : ملكهم ، وهو الإمبراطور (البازيلوس) .

(18) * إِلّيرِيكُوم Illyricum · هوالإسم القديم لدَلْماسيا la Dalmatie ، وهي منطقة ساحلية في يوغسلافيا ، شمال شرقي الأدرياتيك ، قاعدتها سبليت .

(19) * قَلَوْرِية (كَالاَبْرِيا) : منطقة في أقصى جنوب إيطاليا، يفصلها عن صقلية برزخ مِسِّينا .

(20) * إِتْيَان 2 ً : هو البابا 92 ً (752-757/135-140 هـ) . سافر فعلا الى غالة للإحتماء فيها بملك الفرنجة پِپِين ، لا من البزنطيين كما ادعاه أ. كلو ، بل من اللَّمْبَرْدِيين الذين افتكّوا راڤِين (بإيطاليا) من قسطنطين 5 ً (أنظر ص 34 رقم 83 ؛ انظر أيضا الملحق السادس). وإذ استردّ پِپِين من اللّمْبَرْدِيين ما اغتصبوه (راڤين وجزيرة كورسيكا وغيرهما مما ستتكوّن به دولة البابوات) من الأراضي وأهداها لإتيان 2 ً جازاه هذا الأخير بتجديد تقديسه

(21) بُطْرُس (10 ق م ؟–67 ب م) : هو ابن يونان Jonas وأخو أندراوس André ، كان اسمه سِمْعَان Simon وكان يرتزق من صيد الأسماك في بحيرة طبرية ؛ فدعاه المسيح الى التبشير وسماه كِيفاسَ Képhas أوبُطْرسُ Pierre (الصخرة) وجعله كبير الحواريّين ورئيس الكنيسة في مهدها (إنجيل متّى) . أقام مدّة في أنطاكيا ثم نزح الى روما حيث استُشهد ومات ، على ما قيل ، مصلوبا ، في عهد الطاغية نيرون . والبابا ، في نظرالكاثوليك، خليفة بطرس ومتمم رسالته، وهو معصوم من الخطأ، عصمة الرسل والأنبياء عند المسلمين .

وهكذا لم يقدر القيصر– وكان يترجّى توحيد الإمبراطورية البيزنطية – على الحيلولة دون ظهور منافس ؛ وما كاد يمرّ نصف قرن ، حتى تُوِّج بروما شارلمان إمبراطورا للغرب ، لذاك الغرب الذي بدأ، بعد احتجاب طويل ورغم غارات البَرْبَار[22]، يأخذ مكانه على مسرح الأحداث – المحدود لا محالة – في العالم المعروف إذاك .

إذن ، ففي شرقيّ البحر المتوسط ، إمبرطورية في وضع متأزّم ، لكنها ما زالت عظيمة وقوية ؛ و[في شماليّه إمبراطورية] ثانية بدأت تظهر وتفرض نفسها بأوروبا ؛ وفي أقصى غربيّه إمارة قُرطبة ، وارثة خلافة دمشق ، حيث أسّس آخر من تبقى ونجا من الأمويّين حكما سيثير الإعجاب حتى لدى أعدائه أنفسهم .

ما هي الدول التي سيلتقي معها العباسيون على درب الديبلوماسية والتجارة ؟ فلا دولة من دول ذاك العصر كان بإمكانها مضاهاة دولتهم ، اللهم إن بحثنا على مسافات بعيدة ؛ أما اليابان فقد بلغت إذاك إحدى ذروات عظمتها عبر التاريخ ؛ جَمَع عهدُ نَارَا[23] شملَها وفتحها على البحر ، لكنّ مبادلاتها ظلت مقصورة على بلدان الشرق الأقصى. وأما الصِّين ، فإنّ أسرة تَنْج الحاكمة فيها والتي تعاني من ويلات الفِتن والثورات قد باتت تتأرجح بين الرضا بالفوضى وبين اللجوء الى القهر والإستبداد ؛ ثم إن هزيمتها بطالاس[24] سنة 751 (134 هـ) – وهي أحد الأحداث التي قررت بلا رجعة مصير الشرق الأوسط ، بل وحتى مصير أوروبا نفسها – قطعت أمامهما نهائيا طريق آسيا الوسطى ؛ وبذلك تكون قد ضاعت على هذه البلاد – والى الأبد – فرصة التدخل للتأثير على مستقبل البلدان الواقعة بين سلاسل جبال تِيَان شَان[25] والبحر الأبيض المتوسط .

وأما قبائل الترك[26] فقد كانت مواصلة تقدمها بضغط متزايد : الأوغوز في اتجاه

---

(22) * البَرْبَار أو المُتَبَرْبِرُون : موصوف أطلقه اليونانُ ، ثم الرومانُ من بعدهم ، على الأعاجم عموما. وأُطلِق في العصر الوسيط على العشائر الجرمانية والعبابيد من المُغُول والهياطلة التي اجتاحت الإمبراطورية الرّومانية في القرن 3 و 4 و 5 .

(23) * نَارَا Nara : مدينة تقع في جزيرة هُونْشُو ، وكانت عاصمة لإمبراطورية اليابان من 710 (92 هـ) الى 784 (168 هـ) . يشار بعهدها ، في تاريخ اليابان ، الى القرن 8 ، وهو عصر استؤنفت فيه نهضة هذه البلاد وتدعمت البوذية التي تسربت اليها من كوريا في القرنين 6 و 7 للميلاد .

(24) * أنظر ص 21 رقم 44 .

(25) * أنظر ص 22 رقم 45 .

(26) * التُّرك Türk (والكلمة دخلت الإستعمال الفرنسي ورُسمت بشكل Turc وهي ، بهذا الرسم ، انما تعني الأتراك اليوم) : لفظ – ومعناه في الأصل "القويّ"– أُطلِق على عشائر عديدة من الرّحّل ظهرت في القرن 6 للميلاد في آسيا الوسطى وأسست دولا وممالك . نزح بعضها =

الغرب ، والكَرْلُك في اتجاه بحيرة بَلْخَش[27]؛ وازدهرت خانة[28] من الوِيغُور[29] ، مانوية النِّحلة ، في شمال منغوليا ، ثم تنقلت وانتهى بها المطاف الى واحات طارِيم[30] حيث استقرت . وحلّ الخَزَر[31] بدورهم في السباسب الفاصلة بين جبال الأُورَال ونهرالدُّون بالبلاد الروسية ، واعتنق البعض منهم اليهودية ؛ وامتد تأثير الخزر الى الشمال واستعملهم أباطرة بيزنطة ضد العرب .

في شمال القارة الأوروبية ، بدأ الإسكَنْدناڤيون والأمراء الإنْكلُوسَكْسُون (الحكومة السُّباعية)[32] يتعاطون مبادلة مُنتَجاتهم بمنتجات البحر المتوسط والمشرق عن طريق شرق أروبا – مرورا بكِييف[33] والأنهار الروسية ومَايَنْس[34] – وعن طريق غربيّها – مرورا

= شرقا في اتجاه مُنْغوليا ، في القرنين 6ً و 7ً ، فتنصَّرت على أيدي المبشرين النساطرة. وأما القسم الأهم ، فقد بقي ضاربا خيامه في صحاري آسيا الوسطى وسباسبها شمالي جبال آلْتاي ؛ وانقسم الترك دويلات منها : دولة القره خانيين شمالي إيران وما وراء نهر أمو داريا ، ودولة الغزناويين في پنجاب وأفغانستان ؛ وقد أسلمت الدولتان في منتصف القرن 10ً (4ً هـ) . وفي نفس الفترة تقريبا ، يذكر التاريخ ظهور قبائل الغُزّ أو الأوغوز ، شمال بحيرة بَلْخَش ، نزح بعضها نحو التركستان الحالي وهم التُّرْكُمان ، والبعض الآخر نحو إيران وآسيا الصغرى (في القرن 11ً / 5ً هـ) وهم السلاجقة وعنهم تفرّع العثمانيون .

(27) * بحيرة بَلْخَش : بحيرة تقع جنوبي جمهورية كازاخستان اليوم .

(28) * خانة khanat : وظيفة خان أو إمارة على رأسها خان . وخان : اختصار قاغان او خاقان، والكلمة ظهرت حوالي القرن 10ً (4ً هـ) واستُعملت كمرادف للملك وأمير وشاه . وخان خانان : لقب كان يخلعه أباطرة دلهي على أكبر موظف في الدولة . ومن الألقاب المماثلة له : خان دوران ومعناه سيد الزمان، وخان جهان ومعناه سيد العالم . والخان لقب السلطان عند الاتراك . الخان أيضا الحانوت ، ومحل نزول المسافرين ويسمى الفندق ، والكلمة من الدخيل .

(29) * الويغور Ouigours فرع من العشائر التركية استقر بآسيا الصغرى نحو القرن 8ً (2ً هـ) وأسس دولة كانت طُرْفان عاصمة لها .

(30) * طارِيم : نهر (2.190 كم) يجري في الناحية الغربية من بلاد الصين (Hsin-Kiang أي التركستان الصيني) . وفي حوضه مناطق خصبة ومناقع شاسعة وفلوات مترامية الأطراف ، ويحيط بهذه الأخيرة حزام من الواحات أشهرها كاشغار (أنظر ص 21 رقم 43) وهي التي عمرها الويغور منذ القرن 2ً .

(31) * أنظر ص 34 رقم 81 .

(32) * إشارة هنا الى الممالك السَّبْع heptarchie التي أسسها الأنكلوساكسون ببريطانيا العظمى بين القرنين 6ً و 9ً للميلاد .

(33) * كِييف . عاصمة أكْرانيا الواقعة غربي روسيا .

(34) * مَايَنْس : مدينة تقع بألمانيا على نهرالراين .

بالحوض الرُدَاني[35] ووادي الماس[36]ومدن البلطيق . لكنْ لم يَحِن بعد – وسيحل بعد زمن يسير – موعد ظهور التيارات الكبرى للتبادل بين العالم الإسلامي وشمالي أوروبا وغربيها ؛ ولن يحل أيضا ، إلا بعد ذلك الوقت بقليل ، زمنُ تنامِي العلاقاتِ ، تناميًا كثيفًا ، مع جنوبي الشرق الآسيوي وجزر المحيط الهندي . وفي كل تلك الأصقاع ، وخاصة في الهند حيث الحكم بأيدي دول عتيدة ، يتنقل مسافرون وتجار، معرِّفين – مرحلة بعد مرحلة – البلدان النائية بعضها ببعض . وعندما يتمّ الأمر لبني العباس ، ستعرف إمبراطوريتُهم نماءً اقتصاديا هائلا ؛ وكنهضة أوروبا في القرنين 15ً و 16ً سنكون نهضة الإسلام فترة لقاءات .

أمير المؤمنين وشارلمان[37]

طوال تلك القرون التي يُفعِم الإيمانُ فيها القلوب ويأخذ بالألباب ، هل أنّ الصراع بين عبدة المسيح وأنصار محمد ، سيتواصل في كل مكان ، دون أن تُلهِيَ أولائك وهؤلاء عنه ، بعضُ الإعتبارات ، ولو آنيًا ؟

كلاّ . لقد ظلت الحروب آنذاك ، أكثر فأكثر، في خدمة السياسة ، وباتت العلاقات تُربَط والأحلاف تُعقَد مع الأطراف التي يُتوقَّع في مسالمتها مصلحة ؛ فالبيزنطيون[38] مستعدون لمناصرة الأمويّين[39] على العبّاسيين[40] الذين يحاولون ، هم أيضا وبكل الوسائل ،

(35) * الحوض الرُدَاني le Sillon rhodanien : وادٍ بأوروبا يجري فيه نهر الرُّون (رُدَانُه) الذي يعبر سويسرا وفرنسا ، وينصب في البحر الأبيض المتوسط غير بعيد عن مرسليا .

(36) * واد بأوروبا يجري فيه نهر الماس la Meuse الذي يعبر فرنسا وبلجيكا وهولندا ، ويُكَوِّن دلتا واحدا مع الرّاين قبل أن ينصب في بحر الشمال .

(37) * أنظر ص 107 رقم 2 ، و ص 148 رقم 14 ، و ص 152 رقم 42 .

(38) * انظر ص 29 رقم 72 .

(39) * الدولة الأموية :

أ \ بالشرق (661-750/41-133 هـ) . عاصمتها دمشق . عدد خلفائها 14.

أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان 2ً الملقب بالجعدي .

ب\ بالأندلس (756-1030/139-422 هـ) . عاصمنها قرطبة .

1) – فترة الإمارة (756-911/139-299 هـ) . عدد أمرائها 7 .

أولهم عبد الرحمن 1ً الداخل وآخرهم عبد الله بن محمد .

2) – فترة الخلافة (912-930/300-318 هـ) . عدد خلفائها 9 .

أولهم عبد الرحمن 3ً الناصر وآخرهم أمية بن عبد الرحمن .

(40) * الدولة العباسية :

أ \ بالعراق (750-1258/133-656 هـ) . عاصمتها بغداد . عدد خلفائها 37 . =

الإطاحة بنظامٍ أسَّسه بالأندلس سليلُ[41] الدولة البغيضة ؛ ودولة الفَرَنجة ، التي تُؤَيِّد البابا في نزاعه مع إمبراطور بيزنطة ، تستبشر بكل ما قد يُكَبِّد هذا الأخيرَ ، من الهزائم ، عدوُّه العباسيُّ الرهيب ، الذي لا تنفكّ جيوشه تلاطم الحدود دوريا ، كأمواج صاخبة تغدو وتروح . فكل من القارُولنجيّين[42] والعباسيّين مستفيدون من مناهضة أمويّي الأندلس ؛ وپيپين إذ عاضَدَ البابا ضدّ القيصر في خصومة الصُّوَر، فقد أمسى إذن "حليف الخليفة". لكن الغارة (114/732 هـ) على پُواتييه[43] بالخصوص ، كانت قريبة العهد ؛ ولم يتيسّر طرد العرب من نَرْبُون[44] إلاّ عام 751 (134 هـ) . فالتعاون بين الفرنجة والعباسيين كان إذن طبيعيا[45] .

تجلى هذا التعاون الفرنجي/العباسي لأول مرة في تبادل البعثات الديبلوماسية

= أولهم أبو العباس السفاح وآخرهم المستعصم بن المستنصر.
ب\ بمصر (1260-659/1516-922 هـ) . عاصمتها القاهرة . عدد خلفائها 15.
أوّلهم المستنصر 2 ً وآخرهم المتوكّل 2 ً بن المستمسك .

(41) * الإشارة هنا الى عبد الرحمن الداخل الملقب أحيانا بصقر قريش .

(42) * القارولنجيون : ممهِّد السبيل لتأسيس دولتهم هو قارلُه (شارل مارتل) ، وكان حاجبا للقصر maire du palais (من 96/714 هـ الى 124/741 هـ) على عهد أواخر الملوك الميروفنجيين ؛ اقتسم إرثَه إبناه : كارلُمان وپيپين ؛ ومؤسس دولتهم هو پيپين القصير الذي خلَف أباه قارلُه في حجابة القصر (من 124/741 هـ الى 134/751 هـ) ، ثم خلع آخر الميروفنجيين شِلْبريك وأعلن نفسه ملكا للفرنجة (من 134/751 هـ الى 151/768 هـ) ؛ وأعظم ملوكهم هو شارلمان (والإسم تحريف لمجموعة كلمتين لاتينيتين معناهما قارلُه (أو شارل) العظيم الذي اقتسم مُلكَ أبيه پيپين مع شقيقه كارلُمان ثم انفرد بمملكة الفرنجة بعد ذلك (من 151/768 هـ الى 184/800 هـ) قبل أن ينادى بنفسه إمبراطورا للغرب (من 184/800 هـ الى 199/814 هـ) – أنظر ص 107 رقم 2 ، وص 148 رقم 14 – .

(43) * پُوَاتييه Poitiers : مدينة تقع اليوم غربي فرنسا ، ويَرمُز المؤرخون الغربيون باسمها الى الوقعة التي تجَابَه فيها الجيشُ العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي والجيشُ الإفرنجي بقيادة شارل مارْتل (أنظر أعلاه رقم 42) وكانت الدائرة في آخرها على العرب ، إذ نُحر جيشهم، وقُتل قائدهم ، وارتد مقاتلوهم على أعقابهم . وتُسمَّي الوقعة عند المؤرخين المسلمين بلاط الشهداء ، وهي الأرض التي جرت فيها المعارك بين تور وپواتييه (لزيادة الوضوح عن تركيبة الجيشين وشخصية القائدين وظروف المعركة ، راجع مؤنس ، ص 261 وما بعدها) .

(44) * نَرْبُون (أَرْبُونَة) : مدينة تقع في أقصى الجنوب الفرنسي ؛ فتحها المسلمون سنة 719 (101 هـ) فكانت معقلا لهم ، يخرجون منها اذا أرادوا الغزو ويعتصمون بها اذا داهمهم خطر؛ سقطت بأيدي پيپين عام 142/759 هـ) .

(45) خاصة بعد القضاء على فتنة علاء بن المغيث وقد دبّرها العباسيون [أبو جعفر المنصور] سنة 763 (146 هـ) ضد أمير قرطبة [وهو إذاك عبد الرحمن الداخل] .

بين العاهلين پـپـين القصير[46] وأبي جعفر المنصور ابتداء من 765 (148هـ). ففي هذه السنة أرسل الملك القارولنجي الى بغداد سفراء عادوا مصحوبين برسل وجههم الخليفة الى پـپـين مع " هدايا فاخرة "؛ ويؤكد الرواة أن پـپـين اقتبل مبعوثي المنصور بمدينة ميتز، وأكرم وفادتهم ؛ وكان قفولهم عن طريق البحر ، فرجعوا محمّلين ، هم أيضا ، بثمين الهدايا : « وهكذا تكتمل دائرة التحالفات التي جمعت البابا والخليفة العباسي وملك الفرنجة ضد الأمويين والقسطنطينية »[47]. أكانت تحالفات حقا ؟ – في الكلمة ، بلا ريب، ضرب من الشّطط . وقد يكون من الأنسب أن نقول إن القوم عملوا بالقول السائر: « عدوّ عدوّي صديقي » . فكان بين رؤساء الدول الثلاثة ، في بعض الأمور، تَطابقٌ في المصالح يجعل الواحد منهم يساند الآخر في بعض الظروف . فهل اعترف المنصور بسيادة پـپـين على سرقسطة وبرشلونة[48] ؟ على كلّ حال ، اعترف والي هذه المدينة – عام 752 (135 هـ) على ما يبدو – بسلطة هذا الملك الفرنجي، وظل مواليا له كسائر أتباعه . فقَبْل دخول العرب إسبانيا ، قد كان للقارولِنْجيين سابقُ اهتمام بشبه الجزيرة . ومن المعقول أن يكون اهتمامهم هذا بما يجري وراء جبال البِيرِنِه[49]محل استغلال ، من قِبَل العباسيين ضد الغاصب الأموي ، استغلالا يتكيف بحسب الظروف . قد لا يعدو ما كان بين المملكتين من العلاقات أن يكون شيئا غير ذلك ، لكنّ هذا الضرب من الإعتراف – اعتراف كل من الدولتين بالدولة الأخرى – رغم ما كان بينهما من تباين وتباعد ، يُعَدّ على كل حال شيئا عظيما .

في 24 سبتمبر (أيلول) 768 (151 هـ) حضرت الوفاةُ پـپِـينَ بسَانْ دنِي[50] ودُفِن في الدَّيْر حسب رغبته . وكان ، قبل وفاته بأيام ، قسم إمبراطوريته بين ابنيه شارل وكارْلُمان ؛ فكان نصيبُ الأول شمالَ المملكة وغربَها ، ونصيبُ الثاني الجنوبَ الشرقي

---

(46) * أنظر ص 148 رقم 14 و ص 152 رقم 42 .

(47) ف . و . بوكلر F. W. Buckler .

(48) * سَرَقُسْطَة · مدينة بإسبانيا تقع على نهر إِبْرُه ؛ فتحها المسلمون سنة 712 (94هـ) واسترجعها منهم " الطاغية " أَلْفُنْس 1ً(الأذْفُنْش) ملك أَشْتُرِيس عام 1119 (513 هـ)، وصارت فيما بعد عاصمة لمملكة أرَغُون . وبَرْشَلُونَة ، عاصمة قَطَلُونِية بالشمال الشرقي من إسبانيا ، أسسها القرطاجنيون وسموها بَرْكِينُو Barcino تخليدا لمجد أسرة هَمِلْكار بَرْكَه Barca . احتلها الرُّومان ثم القُوط وفتحها المسلمون سنة 712 (94 هـ) واستردها منهم شارلمان عام 801 (185 هـ) .

(49) * البِيرِنِه (البيرت ، البِرتات ، البِرانس) les Pyrénées : سلسلة جبال تفصل بين فرنسا وإسبانيا. تمتد على طول 435 كم . يُجاوز ارتفاعها أحيانا الثلاثة آلاف متر. وقوله : « بما وراء جبال البيرينه » كناية هنا عن البلاد الإسبانية .

(50) * سَانْ دنِي Saint-Denis:مدينة تقع في ضواحي باريس الشمالية ، بها مدافن ملوك فرنسا .

منها . وتُوّج شارلُ بنُوَايُون[51]وكارلُمانُ بسوّاسُون[52]، لكن لم يُعمّر التفاهم بينهما طويلا؛ إلاّ أنّ الأقدار شاءت أن تستقيم الأمور لشارل ، إذ لم تكد تمضي ثلاثة أعوام حتى هلك كارلُمان وانضم أنصاره الى شارل ، وسيُعرَف بشارلمان (شارل العظيم) وسيكون ، كما قيل » ، *المظهر الحيّ للنّجاح النّهائي الذي أحرزه ما حصل من انصهار بين الأعراق الغاليّة والرّومانيّة والجرمانيّة* ، وهو ما ستتكوّن منه أوروبا مستقبلا»[53]. وفعلا ، فبصفته إمبراطورا مسيحيا – وأوروبيا – استأنف ، بعد ذلك بمدة قصيرة ، تنفيذ " السياسة الشرقية " التي رسم أبوه خطوطها الأولى .

ستمرّ سنوات عديدة قبل أن تستهوي *الملكَ الشّاب الآفاقُ* النّائية وسياستها المعقّدة. فمن بين القضـايا الكبرى ، كانت المسألة الإيطالية ، واحتلاله لبلاد السّاكْس[54] أَوْلَى عنده بالعناية العاجلة من سائر الأمور. وسيحل أُولى القضايا بطرد زوجته ، والوثوب بأبيها دِيدْيِيه[55]، ملك اللّمبرديين والإطـاحة به . وسيستغـلّ تلقّبه "ملكاً الرّومان" ليستأثر بحقّ التدخّل في شؤون البابوية ، فيُسند لابنه پيپين تاج إيطاليا التي سيظلّ أكثر ترابها تابعا لملكة الفرنجة .

أما السّاكسون فسيستعمل شارل معهم القوة ؛ وما سيتعاطاه في بلادهم إنما هو غزو حقيقي ، يُجريه بانتظام وتُؤدة . وإخضاعهم النهائي ، فلن يتم إلاّ عام 804 (189 هـ) ، لكنّ معظم العشائر وجل زعمائها كانوا قد استسلموا وعبّروا عن ولائهم لشارل بمدينة پَادِرْبُرْن[56] منذ 777 (161 هـ) .

---

(51) * نُوَايُون : مدينة تقع شمال شرقي باريس في مقاطعة شَمْپَانيا .

(52) * سواسّون : مدينة تقع في مقاطعة شامپانيا شمال شرقي باريس أيضا .

(53) ك. فـ. ورْنر K. F. Werner ، المحاتد les Origines .

(54) * سَاكْس : جهة من جهات ألمانيا الشمالية ، استمدت اسمها من عشائر السّاكْسون التي استقرت بها ، مهددة حدود مملكة الفرنجة ، مما اضطُر شارل مارتل وپيپين الى محاربتها . وواصل شارلمان منازلتها وتنصيرها الى أن أخضعها سنة 804 (189 هـ) . ألحقها نهائيا بملكة الفرنجة لويسُ الجرماني سنة 842 (228 هـ) .

(55) * دِيدْيِيه : آخر الملوك اللّمْبَرْدِيين . وثب بالبابا إتيان 2ْ فنهض اليه پيپين وهزمه . لكنه وثب من جديد بالبابا فحاصره شارلمان في مدينة پَاڤِي Pavie وظفر به (158/774 هـ) .

(56) * بأدِربُرْن : مدينة بألمانيا ، استمدّت أهميتها في العهد الوسيط من وجودها على الطريق التجارية الرابطة بين هولَندة وبلاد الساكس . كان لشارلمان بها إقامات عديدة . فيها عبّر له زعماء الساكسون عن ولائهم . وفيها اقتبل شارلمانُ سليمان بن العربي وقد جاء سنة 778 (162 هـ) يستدرجه للإغارة على سرقسطة وافتكاكها من أيدي المسلمين (أنظر رقم 57 أسفله) ؛ وفيها التقى ، سنة 779 (163 هـ) ، بالبابا ليون 3ْ الذي لاذ بالفرار من رومة واحتمى به (أنظر ص 156 رقم 62) وعن الظروف التي سبقت حملة شارلمان والنتائج التي تولدت عنها ، راجع پروڤانسال ، (I، 118-129) .

في نفس السنة – ولعل ذلك كان محض صدفة – قدم الى آخِن (عاصمة شارلمان) سليمان بن العربي ، والي سرقُسطة[57]. كان قد خرج عن طاعة أمير قرطبة وجاء يُغري به ملك الفرنجة ، محسّنا له الإغارة على شمال إسبانيا . فخرج شارل في ربيع 778 (162 هـ) لغزو بلاد الأندلس وقطع جبال البيرينِه على رأس جيشين إثنين . إلا أنّ المساعدة التي وعده بها ابن العربي لم ترد عليه ، فآلت الغزوة الى كارثة عليه ، ولم يقدر أثناءها على الإستيلاء حتى ولو على سرقسطة ، وكانت فاجعة رُونْسِڤْو[58] حيث مُحِقت كامل المؤخرة من جيشه في أوعار الجبال ومخانقها .

كانت مرارة الدرس شديدة الوقع على نفس شارل . فقد اكتشف أن الحملات العسكرية وراء البيرينه ، على الأرض الإسبانية ، أعسر بكثير مما كان يظن ؛ فالسكان [يعني البشكنس] المحلّيون – وهم جبليون بلا ذمام – مفطورون على الإغارة والسلب فلا يأمن أحد شرّهم ؛ والأدهى من ذلك أن التحالف مع الزعماء المسلمين كان يبدو غير مضمون العواقب ، لأنه متأثر دائما تقريبا بتقلب العلاقات التي تربط بينهم . فشُعوبهم كانت تأبى أن تراهم يتحالفون مع ملك كافر لمحاربة مسلمين آخرين . لذا عدل شارل عن تنفيذ مشروعه الرامي الى توسيع ممتلكاته فيما وراء البيرينه ، مفضلا ضمان المناعة لدولته ، بمنطقة عازلة على طول الحدود ، تتمثل في مملكة يكون بإمكانها مراقبة العرب وتحركاتهم ، ثم – بفضل عتاد عسكري موفور – إيقافُ زحفهم إذا ما حاولوا التقدم نحو الشمال ؛ وستكون تلك المملكةُ مملكة أكتِين[59] التي سيُنَصِّب شارل على عرشها ابنَه لويس وسيُعرَف مستقبلا بلويس التّقيّ[60] .

---

(57) * سليمان بن يقظان بن العربي شخصية يحيط بها كثير من الغموض . بعض المصادر تجعل منه واليا على سرقسطة ، وأخرى على جيرون وبرشلونة ؛ ومنها ما يُرفِقه في رحلته الى ألمانيا تارة بأبي الأسود بن يوسف الفهري وعبد الرحمن بن حبيب الصقلبي ، وطورا بأبي ثور أمير وشكة وبالقائد الأموي ثعلبة بن عُبيد الجذامي الذى أُسِرَ حديثا في حصاره لسرقسطة ؛ ومن المصادر ما يجعل مقابلته مع شارلمان في آخِن ، ومنها مايجعلها في پادربرن وهو الأصح (أنظر أعلاه رقم 56) .

(58) * رُونْسِڤُو (رُونْسِڤالة) اسم أحد مخانق جبال الپيرينه الشرقية ، عنده ألحَق البَشْكَنْس (البشكونيش عند العرب ، وهم أجداد الباسك ، المطالبين بالإنفصال عن الدّولة الإسبانية) هزيمة نكراء بمؤخرة جيش شارلمان (والأسطورة تنسب للعرب – واسمهم إذاك les Sarrasins – الخيانة ثم الغارة التي أدت الى الهزيمة ومقتل ابن أخت شارلمان ، الأمير رولاند) . وحول أحداث هده الوقعة ألفت ملحمة رولاند الشهيرة la Chanson de Roland ، وهي من أقدم آثارالأدب الفرنسي ومن أشدها تحاملا على المسلمين .

(59) * آكتِين أو آكْوِتين (أَقطانية) : اسم يُطْلَق على حوض نهر الجارُون الذي يحتل تقريبا كامل الجنوب الغربي من فرنسا ؛ وهي جهة كوّن منها الرومان أحد الأقاليم الأربعة التي قسموا=

وتمرّ الأيّام والسنوات ؛ ويظلّ شارل حذِرا ، متجنّبا التّدخّل لاسترداد جيرُون[61] – وقد صارت من ممتلكات الفرنجة – وممتنعا عن الإستجابة لتوسّلات والي برشلونة الذي كان يؤكد له دوما أن مدينته ستستسلم له دون قتال . فقد اكتفى بتنظيم حملة صغيرة على الجهة الواقعة شماليّها ؛ وفي تلك الفترة قرّر إرسال وفد الى بغداد ، لدى أمير المؤمنين هارون الرشيد .

أوّل وفد من شارل الى هارون

كان الخليفة إذاك في أوج عزه . وقد ذاع صيته عبر الأقطار ، وشاعت أخبار مملكته وراء البحار. فكلٌّ يعلم أنه قاد غزاة بلغت حتى البوسفور وهو لايزال أميرا صغيرا ؛ وجيوشه الآن تتوغل كل سنة داخل مملكة القيصر، وشارل يعلم ذلك حق العلم ؛ ثم هو يعلم أيضا أن إمبراطور بيزنطة ، رغم هفواته ، وفضائح بلاطه ، والأخطار المُحدقة التي تتهدده ، يمثّل لديه الخصم الأكبر والوحيد . ومؤامرات الأروام في إيطاليا كانت تثير غضبه ؛ ثم ما يجري في القسطنطينية ، حيث مقاليد الحكم بأيدي امرأة لا تتورّع عن سمل عيني ابنها لتأخذ مكانه على العرش ، كان يسخطه ؛ وإذ كانت البابوية يمسك زمامها رجل ضعيف فاقد الإعتبار، لما اشتهرت به سيرته من تهتك فاضح واستهتار مشين ، فقد ثارت ثائرته وذهب به الأمر الى حدّ مكاتبة هذا الرجل – وهو البابا ليون 3ᵉ[62] – لحضه على العدول عن فسوقه ، وعلى العيش في عفاف واستقامة . ففي مثل تلك الأوضاع المتقلبة ، كان إمبراطورالغرب وخليفة بغداد يمثلان "ركيزتي" المعمورة قاطبة ؛ ومن الطبيعي أن يرغب شارل ، إن لم يكن في التحالف مع هارون ، ففي ربط الصلة معه والتعرف على آرائه ومراميه ، على الأقل .

هل تلقّى رُسُل شارل تعليمات مضبوطة ؟ ذاك أمر مُرَجَّح ، لكنّ شيئا لم يصلنا عن

= إليها غالة أيام استعمروها ، وجعلوها ثلاث مقاطعات (ق 3ᵉ للميلاد) ؛ أُلحقت بمملكة كلوفيس وظلت دوقية فرنجية الى أن ملّك شارلمانُ عليها ابنَه لويس الذي سيُعرف بلويس التقي .

(60) * لويس 1ᵉ التّقيّ : هو ابن شارلمان ووريثه على عرش إمبراطورية الغرب . تولّى من 199/814 هـ الى 226/840 هـ .

(61) * جيرون : مدينة تقع شمال شرقي إسبانيا في مقاطعة قَطَلُونية .

(62) * ليون 3ᵉ . هو البابا 96ᵉ (795-816/179-201 هـ) . إعتدى عليه سكان رومة واعتقلوه لعهارته وفساد سيرته ، ففرّ الى ألمانيا واحتمى بشارلمان فحماه . وحين عاد الى رومة توّج بها الإمبراطور اعترافا له بالجميل (800/184 هـ) .

تلك التعليمات ؛ وفيما يتعلق بجلّ نقاطها ، فلا نستطيع أن نرسم إلاّ خطوطها الكبرى في إطار السياسة العامة التي كانت لكل من العاهلين .

كانت مسألة إسبانيا (الأندلس في المصطلح التاريخي العربي) بلا ريب من المسائل التي يريد شارل إحراز توضيحات في شأنها ؛ فالحضورالإسلامـي في شبـه الجزيـرة [الإيبيرية] كان منذ عهد بعيد يشغل بال الفرنجة ؛ ولئن لم ينس شارل الإخفاق الذي مُني به فيها ، فإنّ جيوشه وجيوش مملكة أكتين قد شنت هناك بعض الغارات . والعباسيون ، من جانبهم – وإن يئسوا من الإطاحة بالإمارة الأموية في الأندلس ، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم في حرب دائمة مع أميرها الغاصب ، وكانوا يراقبون ما كان يدور بقرطبة بالقدرالذي يتيحه البُعد . فما كان من مندوحة ، لدى كلّ عدوّ من أعداء عبد الرحمن 1ً وأعداء ورثته ، إلاّ أن يكون حليفا للخليفة ، وكان للعباسيين في الأندلس أنصار يمُكن تحريضهم على التعاون مع شارل ضد الأمويين .

كانت علاقات شارل مع بيزنطة طبعا أكثر تلونا مع الأحداث ؛ فكل من القوّتين النصرانيتين – آخِن والقسطنطينية – تتنازعان التفوّق الإمبراطوري ؛ وسيضع البابا قريبا على رأس شارل تاج مملكة الرّومان ، وسينجرّ عن ذلك بين المملكتين توتّر لا مزيد عليه ؛ ولن تخرج البعثة الفرنجية الى بغداد إلاّ بعد مرور ثلاثة أعوام على الحدث الخطير المتمثل في تتويج شارل يوم 25 ديسمبر (كانون الأول) سنة 800 (184 هـ) ؛ فلم يكن شارل في غِنى عن معرفة ما كانت عليه علاقات القيصر مع الخليفة ؛ ولا كان في غفلة ، أيضا ، عمّا كان لهذا الأخير من فائدة في تعميق الخلافات بين الدولتين المسيحيتين العظميين .

ثم كانت هناك القُدْس ، المدينة المقدسة عند النصارى ، وكثيرا ما كان يُرَغّب المؤمنون المسيحيون في حَجّها بوصف معالمها الدينية لهم وصفا مُشوِّقا ؛ ومن تلك المعالم كنيسةُ القِيَامة[63] ؛ وكنيسةُ الصَّلَبُوت[64] ، وقد أقيمت في المكان الذي عَثرت فيه هِيلانة ، أمّ الإمبراطور قسطنطين ، على الصليب الحقيقي ؛ وجبل الطُّور الذي بُنِيت على قمّته – بالمكان الذي رُفِع منه المسيح الى السماء – كنيسة الصُّعُود[65]. ففي كامل المدينة تكثر

---

(63) * كنيسة القِيَامة (وتذكرها تواريخ العرب باسم القُمامة والقُمامة) l'Eglise du Saint-Sépulcre : كنيسة بناها قسطنطين (حوالي 326م) على قبر المسيح ، وجدّد بناءها الصليبيون (1130-1149/525-544 هـ) .

(64) * كنيسة جبل الصَّلَبُوت (ويُعرف أيضا بجبل الجُلجُلة أوالجُمجُمة l'Eglise de Sainte-Marie-du-Calvaire) ، وهي المقامة على الربوة التي يقال إن المسيح صُلِب عليها le Mont Calvaire .

(65) * كنيسة الصُّعُود l'Eglise de L'Ascension المقامة على جبل الطّور le Mont des Oliviers.

المَبَرَّات ، من صومعات شرقية وديورات غربية[66]، يقوم على شؤونها إكليروس وفير العدد، رهبانه من الرّوم ، ولكن أيضا من اللاتين ، وجميعها تحت سلطة بطريرك أورشليم المهيب ، الذي هو أعظم سلطة دينية في العالم المسيحي بعد البابا وبطريرك القسطنطينية. فكان النصارى اذن يهرعون الى القدس من كامل البلاد الأوروبية ؛ وهناك ، في تلك المدينة المقدسة في نفوسهم – قداستَها في نفوس المسلمين – ينقطعون الى طقوس عبادتهم يمارسونها في مأمن من كلّ إزعاج ، اذا استثنينا طبعا تلك المضايقات التي لا مفرّ للزّائرين من التعرّض لها في سائر المدن ذات المحجّ المقصود، والتي يقترفها ، لا أصحاب السلطة ، بل أراهيط من الأوباش والنشّالين ، ممن لا عهد لهم ولا ميثاق .

على أن آخِن ، عندما قرّر شارل أن يرسل وفده الى بغداد ، كانت قد تلقت أخبارا مثيرة لشيء من الحيرة ؛ فقد بلغها أن جماعات من البدو، لم تتّخذ إزاءهم السّلط الإسلامية ما يلزم من إجراءات الردع ، أغاروا على المدينة ونهبوا منها أحياء مسيحية ، وقتلوا ثمانية عشر من الرهبان . فتأثر شارل ، لشدة ورعه ، وذلك رغم ما كان يتخلل سلوكه أحيانا من سورات الغضب الشديد ، وعهد الى مبعوثيه بالسعي لدى الخليفة حتى يُوضَع حدّ لمثل تلك الإعتداءات ، كما عهد إليهم باستمالة الأمراء من المسلمين وكسب عطفهم ؛ وأخيرا كلفهم بتوزيع نصيب من المال على فقراء النصارى ومساكينهم ، في مصر وإفريقية والشام والقدس .

ثم هناك الفيل الشهير، ذاك الذي سال من أجله كثير من مداد اليراع : سيؤوب وفد شارل من رحلته ومعه فيل أهداه هارون الرشيد الى شارل . لقد ذهب بعض المؤرّخين الى الجزم بأنّ الغاية الوحيدة من إيفاد البعثة هو جلب هذا الحيوان الأسطوري ليُزيِّن معرض الوحوش بالبلاط الإمبراطوري . ويبدو هذا الضرب من الجزم غير جادّ . فقد كان للملك العظيم – مثلما رأينا ذلك – مَرام أخرى يقصد اليها من وراء إيفاد رسله الى الخليفة . والأرجح أن هارون أهدى هديته ، من تلقاء نفسه ، ليعبر لشارل عن صداقته وعن التقدير المتاز الذي يكنه له ولمملكته[67] .

سافرت بعثة شارل الى الشرق في أواخر 797 (181 هـ) ، وقد كان اختار لها رسولين مدنيّين من خارج الإكليروس ، المدعوَّيْن لانْطفْريد وسِجِيسْمُونْد[68] وإسرائيليا

---

(66) * الصومعة "الشرقية" le laure يعمرها رهبان من الروم ، من النحلة الأرثوذوكسية ؛ والدير "الغربي" le couvent يعمره قساوسة من اللاتين ، نحلتهم الكاثوليكية ، نحلة كنيسة رومة

(67) حسب فاسيلِيَاف Vassiliev ملكية الفِيَلة امتياز ينفرد به الخليفة ؛ وكان يُؤتى له بها من الهند .

(68) * Lantfried et Sigismond .

يسمّى اسحاق ، كترجمان على الأرجح . فأيّ طريق سلكوا ؟ في ذلك العهد ، كان السالك الى الشرق ، يركب البحرالى مصر، ومنها يسافر برًّا حتى القدس وسوريا ؛ وكان بالإمكان أيضا السفر بحرا حتى بيروت أو أنطاكيا ، ومنهما برّا الى حلب ثم الى الرَّقَّة وبغداد ، نزولا مع الفرات ؛ ويبدو أن الوفد الإفرنجي سلك هذه السبيل الأخيرة .

بعد ثلاثة أعوام عاد إسحاق ، وقد استطاع أن ينجو بحياته من ويلات هذه السفرة الطويلة المُضنية . لكنّ لاَنْطفْريد وسِجِيسْمُونْد قد هلكا[69]، على الأرجح في طريق العودة . فالإسرائيلي هو الذي قَدِم إذن على شارل بهدية هارون الرشيد الفاخرة والمتمثلة في الفيل "أبي العبّاس" ؛ وقد كان طلب منه ، حين وافى الساحل الإفريقي ومعه هذا الرفيق المزعج بضخامته ، أن يرسل إليه سفينة لحمله عليها . فوجّه اليه شارل عَدْلا يُدعى أَرْسِبَالْد (أو (إرْكَنْبَالْد) وأُوكِل اليه تسهيلُ الرحلة عليه حتى الرَّايْنانية (مقاطعة الرّاين) . وحالما أنـزل "أبو العباس "منَ السفينة – وكان ذلك بمرفأ پُورْتُو ڤِينِري من مقاطعة لِغُورِيَا (بإيطاليا) يوم 20 جويلية (تموز) 802 (187 هـ) – أُخِذ الى ڤِرْسَيْ[70] حيث قضّى فصل الشتاء ، ومنها نُقِل الى العاصمة آخِن ، وكان بها الإمبراطور، فدخلها وأحدث في الجماهير الضجة التي بالإمكان تصوّرها ؛ واقتبَل شارل إسحاق ، « وكان ذلك شرفا فريدا ينال يهوديا في ذلك العصر[71]» ؛ أما " أبو العباس " فهلك عام 810 (195 هـ) .

في الفترة الفاصلة بين خروج المبعوثِين الثلاثة الى بغداد ورجوع إسحاق منها ، جرت أحداث كثيرة لها صلة بالعلاقات مع الشرق . ففي أواخر 799 (183 هـ) قدم الى آخِن راهب وجّهه جيورجيوس ، بطريرك القدس ، ليشكر لشارل إيفاده "الرسل" الثلاثة وتبرعه بالصدقات التي جاؤوا بها معهم الى فقراء المدينة المقدسة . ولم تمض بضعة أسابيع على ذلك ، حتى أذن شارل الى الراهب بالإنصراف وأوفد معه قسّا يدعى زكريّا ، محمّلا بهبات لنصارى الأماكن المقدسة . ويومَ 23 ديسمبر(كانون الأول) من نفس السنة – أي يومين قبل تتْويجه – اقتبل شارل زكريا برومة وقد آب من السفرمرفوقا براهبين : أحدهما رومي (أرثوذوكسي) من دير القديس سَبَا ، والثاني لاتيني (كاثوليكي) من دير جبل الطُّور ؛ فقد جاءا مُوفَدَيْن من قِبَل جيورجيوس ، «ليسلما لشارل مفاتيح المدينة ومفاتيح كنائس القيامة والصلبوت وجبل صهيون مع راية الصّليب[72]» . فأبلاغا هدايا البطريرك ، ثم أقاما مدة

---

(69) لا أحد يدري الظروف التي هلكا فيها . لكن بإمكاننا الإفتراض أن سبب هلاكهما كان المرَض، لأنهما لو ماتا غيلة لكان أخبرنا بذلك أحد الرواة .

(70) * ڤِرْسَيْ (بالإيطالية : Vercelli) مدينة تقع شمالي إيطاليا بمقاطعة پِييمُونْت le Piémont

(71) ج. مُوسْكا G. Musca .

(72) حسب حوليات المملكة Les Annales du Royaume .

في ضيافة الإمبراطور ولما كان شهر أفريل (نيسان) ، قفلا راجعيْن الى القدس .

لقد نسب المؤرخون وكتبة الحوليات في ذلك العصر، لإرسال المفاتيح ، مغزى سياسيا ، ورأوا أن وراء ه من المقاصد أكثر مما كانت عليه حقيقة الأمر في الواقع . فقد كان تسليم مفاتيح مدينة ما ، في كلّ العصور، تعبيرا مألوفا عن المجاملة . ولا يزال هكذا الى يوم الناس هذا . وكان البابوات يُهدُون مفاتيح صغيرة من كنيسة القديس بُطرس (بالڤاتيكان) الى الشخصيات التي يريدون تكريمها . وكذا كان الأمر بالنسبة الى مفاتيح كنائس القيامة والصلبوت وجبل صهيون . أما راية الصليب فقد كانت بلا ريب قطعة من المَصوغ حوَت بقايا من الصليب الحقيقي[73]. تلكم الهدايا كانت تعبيرا عن شكر إكليروس أورشليم لشارلمان ، لا فحسب على هباته المالية ، بل وأيضا – وهذا الراجح – على تدخلات رسله لفائدة نصارى الشرق حاضرا ومستقبلا . ما كانت إذن هذه المفاتيح إلا مجرد رموز. وعلى كل حال ، فليس فيها إشارة ، كما ادعاه البعض ، الى أن شارل صار واليا على القدس ، ولا أيضا الى أنه ظل " مولى " تابعا للخليفة ، إذ من المُحقَّق أنّ هذا الأخير لم يسمع قطُّ بإرسالها .

وفد من المسلمين لدى شارل

حدث أمر تفوق أهميته هدايا إكليروس القدس ووصول الفيل " أبي العباس " ، ويتمثل في وفود مبعوثَيْن مسلمَيْن على شارل في نفس المدة التي عاد فيها اسحاق من الشرق . كان أحدهما من حاشية هارون والثاني من حاشية والي القيروان ، ابراهيم بن الأغلب ، أعظم ولاة الشمال الإفريقي ؛ وقد رأينا الدورالخطيرالذي كان قد لعبه في إفريقية. ولم يَخْلُ لدى إبراهيم إرسال نائب عنه في الوفد الذي ذهب لمقابلة عاهل الغرب العظيم من قصد : فقد كان ، بالطبع ، يرمي الى ربط الصلّة بينه وبين ذاك الذي يمثل في نظره ، وراء البحر المتوسط ، رجل العهد الجديد .

إقتبل شارل في جهة قِرْسَي ، بشمال إيطاليا ، حيث كان يقيم آنذاك ، المبعوثيْن ، اللذيْن قدما " بهدايا رائعة " أرسل بها اليه الخليفة والأمير: قِرَدة عديدة ، وكميات بلسم وناردين ومَرُوخ وعطر وبخور وأدوية متنوعة « من الوفرة بحيث كانت تبدو وكأنها أفرَغت الشرق والغرب » ، على ما رواه راهب سان غالّ ؛ وجليّ أن زيارة هذا الوفد ردّ على الزيارة التي أدّاها وفد شارل سنة 797 (181 هـ) والتي استُحسِنت على ما يظهر؛ وإيفاد

(73) على ما رواه أ. كلاينكلاوس A. Kleinclausz .

الرسولين في إثرها أحسن دليل على ذلك . وهكذا سنحت فرصة من تلك الفرص التي يتقرّر فيها مصير كبريات الممالك ؛ فقد كانت كلّ من البابوية وامبراطورية الرّوم تجتاز أزمة من أخطر الأزمات ؛ ففي بيزنطة كان يُخشى من أن يُقدم امبراطور الإفرنج الرّهيب، اثر تتويجه ، على غزو القسطنطينية وطرد إيرينة من عرش القياصرة الذي اغتصبته . وهارون الذي يحلم – كسائر العظماء من ملوك الإسلام – بالإستيلاء على القسطنطينية ، كان أولى الناس بمعرفة نوايا شارل . فهل ينوي هذا الأخير تزوّج إيرينة أم النهوض إليها بجيوشه ؟ ماذا جرى في الواقع بين الإمبراطور والمبعوثَيْن وماذا أبلغاه من رسائل ؟ فهل تقدّما بعروض لإمبراطور الغرب من قِبل هارون وإبراهيم ؟ لا ذكر لكل ذلك في المصادر التاريخية .

على أنّ كلّ شيء ، في السّياق السّياسي ، بات يبعث على الإعتقاد أنّ من بين ما يشغل بال الخليفة – الذي كان يُعدّ العُدّة على الحدود – يحتلّ مستقبلُ إمبراطورية الشرق النّصرانية إحدى المراتب الأولى ؛ وإبراهيم أيضا ، وهو المجاور لبيزنطة من الواجهة البحرية ، شديد التطلّع لما يجري فيها من أحداث ، ولن تلبث مطامحه أن تتجلى للعِيان . ولن تنقضي بعد ذلك التاريخ عقود ثلاثة حتى يكون أخلافه قد أنزلوا جيوشهم بصقلية – وكانت من أراضي الرّوم – وبجنوب إيطاليا . فالأمير الأغلبي ، مقتصِر ، في الوقت الحاضر ، على المراقبة والإستخبار والإستعداد . ثم هناك الأندلس التي كان لشارل وهارون ، وأيضا لإبراهيم ، في شأنها آراء ، وحولها إرشادات ، وإزاءها مُخطّطات . لذا، فمهمة هذا الوفد جديرة بعناية أوفر من تلك التي حظيت بها عادة الى حدّ الآن .

قضّى المبعوثان بضعة أشهر في بلاط شارلمان ، مبهورَيْن – على حدّ قول نُتْكِر، راهب سان غالّ[74]– بما رأياه من روائع عجيبة ، وحضرا يوم عيد الفُصح شعائرَ القُدّاس في الكنيسة الكاتدرائية ؛ ثم إن الإمبراطور منحهما شرفا عظيما ، وهو شرف الجلوس الى مائدته لتناول الطعام معه . لكن « الأشياء المدهشة التي كانا يريانها قطعت عليهما شهيّة الطعام[75]» . وفي بحر سنة 802 (187هـ) أخذا طريق العودة الى بلادهما .

---

(74) * نُتْكِر Notker (950؟ - 339/1022؟ - 413هـ) · أديب سويسري من رهبان دَيْر سَانْ (القديس) غَالّ Couvent de Saint- Gall الذي كان من أنشط مراكز الثقافة الأَنَسيّة humanisme بألمانيا . لنُتْكِر تآليف في ميادين شتى وهو من أقدم الكتاب الذين جعلوا من الألمانية لغة أدب وفلسفة .

(75) هذه الرواية موضوعة بلا ريب ، وواضعها هو الراهب الذي كتب ، خمسين سنة بعد ذلك التاريخ ، كتاب " ملحمة شارل العظيم " Gesta Caroli Magni ، وهو تآليف طويل كله تمجيد لشارلمان . [والراهب الذي يشير اليه أ. كلو هو إجِنْهَارْد Eginhard (770 ؟ -840/154-226 هـ) : وهو أحد رجال الكنيسة ؛ كان صديقا ومؤرخا لشارلمان =

الوفد الفرنجي الثاني

ما كادت تمضي على انصراف المبعوثَيْن بضعة أشهر ، بل بضعة أسابيع – وكان ذلك على الأرجح عند نهاية 802 (187هـ) – حتى وجّه شارلمان إلى هارون وفدا جديدا على رأسه أحد رجال حاشيته يُدعَى رَادْبير[76] ؛ ولا تذكر لنا "حوليات المملكة" أيّ شيء عن سفر الوفد ولا عن إقامته بالعراق ، باستثناء ما حبتهم به المقادير من عناية ، إذ عبروا البحر خفية بين سفن الإغريق دون أن تتفطّن لهم العَمارة البيزنطية ، وكانت تحاول أن تحتلّ دَلْماسيا بقيادة البطريق نِيستاس[77] .

هلك رَادْبير حال أوبته الى إيطاليا ولم يستطع إذن أن يرفع الى شارل تقريرا عما أفضت اليه مهمته ؛ لكن وصل ، حين عاد رادبير، وفدان آخران : أحدهما وجّهه هارون الرشيد بقيادة رجل يدعى عبد الله ، والثاني جاء مُوفَدًا من قِبَل طُوماس (بطريرك أورشليم الجديد الذي خلَف جيورجيوس) ويتركب من الراهبين فِلِيكْس وجُورْج ، وهذا الأخير– وهو ألماني الأصل – كان رئيس دَيْر جبل الطّور بالقدس . أما الراهبان فقد أتيا ليسلّما الى الإمبراطور المكتوبَ المعلِن عن تنصيب طوماس على كرسي البطريركية وليطلبا منه إمداد الطّوائف المسيحية في الأراضي المقدسة بما هي في حاجة اليه من المساعدات . وأما عبد الله ، فقد أقبل محمَّلا ، هو أيضا ، بطُرَف رائعة مُهداة اليه من الرشيد : منها سُرادق به سُتر من كتان مختلفة الألوان ، وفضلات عديدة من نسيج الدّيباج ، وعطورات ، ودهان ، وبلسم ، وشمعدانان كبيران من القُلْز ّ(البُرُنْز) المُذهَّب ، وعلى الأخصّ ساعة من القُلْز المُذهب أيضا « كانت فتنة للناظرين »[78] .

أما البعثة الأولى فكانت دينية ، ولم تكن لها إذن خصوصية تُميّزها ؛ وأما بعثة عبد الله – كالبعثة الأولى التي أوفدها هارون – فكانت تمثل في حدّ ذاتها حدثا هاما. والغالب على الظّنّ أنّ عبد الله هو الذي أكّد لشارلمان من جديد منْحَه التنازلات التي التمسها من

= الذي عهد اليه بالإشراف على بناء كاتدرائية آخِن وقصرها وديْرها، وفيه انقطع آخر حياته لتأليف ترجمة شارلمان المذكورة أعلاه والتي فلّد فيها المؤرخ اللاتيني سُويتُونيُوس Suétone . " ملحمة شارل العظيم " أهم المصادرعن حياة شارلمان ، لكن يجب أن تُقرأ وتُعتمد بكثير من الحذر.

(76) * Radbert .

(77) * Nicetas .

(78) إنّ " حوليات المملكة " تُدقّق أنّ آلة التوقيت المهداة هي ساعة مائية clepsydre ، وأنها تُسمِع بعد مرور كل ساعة من الزمن حِسّ جُلجُل ، وأنها تقذف في حوض صغير كُويرات ملونة ، وأنه يُطلّ إثنا عشر فارسا من نوافذها الاثنتي عشرة عند كلّ منتصف نهار .

هارون – أو عرضها الخليفة عليه – والتي كانت موضوع حوار مع الوفود الأولى . والنصّ الوحيد الذي يمكن الإطمئنان الى رواياته في موضوع التنازلات هو نصّ "حوليات مملكة الفرنجة"[79]، لأنّ إجِنْهَارد ، في "حياة شارل"[80] ، صنع من الأخبار خليطا لا يتيسّر للقارئ أن يتعرّف منه على الإمتيازات التي منحها هارون لشارل ولا على تواريخها . فمؤرخ شارلمان يسجل بإيجاز أنّ «الخليفة ، لما أحيط علما برغبات شارلمان ، لم يكتف بتلبيتها فحسب ، بل وضع تحت سلطته المكان المقدّس الذي منه جاء الخلاص للبشر» يعني «المكان الأقدس الذي دُفن فيه وسيُبعث منه أيضا مولانا ومنقذنا السيد المسيح » ؛ وبعد مرور ستّين سنة ، تَخَيَّل راهب سَانْ غَالْ ، في "ملحمة شارل العظيم"[81] خطابا يلقيه هارون الرشيد على مسامع موفَدي شارلمان ، ويؤكد لهم فيه أنه يضع الأرض الموعودة تحت نفوذ شارلمان ، وأنه لن يتصرف فيها إلاّ باعتباره "وكيلا" له عليها لا غير. وهذه الروايات المقتضبة للأخباريّيْن هي التي جعلت بعض المؤرّخين المُحدَثين يعتبرون أنّ هارون منح لشارل "حماية" على فلسطين . ودون أن ندخل هنا في تفاصيل الجدل[82] الذي ثار حول هذه القضية ، يمكننا الجزم أن كلمة "حماية" تُمثِّل ، بلا شك ، مفارقة تاريخية . فمفهوم الحماية ، في القرن 9م(3 للهجرة) ، غريب تماما عن القانون الغربي ، وعن القانون الشرقي أيضا، ولا يمثل شيئا في الواقع . وإلاّ فما معنى « وضع قبر المسيح تحت نفوذ شارلمان » ؟ – لا شكّ أنّ هارون منحه "سلطة" (لكن ما هي ؟) على ذات المكان الذي وُورِيَ فيه المسيحُ التّرابَ ، يعني القبر ، أي «المكان الذى وُضِع فيه المولى الرّبّ ملفوفا في عُصَيْبات والذي طُولُه سبعة أقدام حسب قياس أجراه عليه أَرْكُولْف بيده ... والذي مساحته ، بأكملها ، قادرة أن تكون مرقدا لرجل مضطجع على ظهره[83] » .

ففيما لدينا من نصوص غربية معروفة ، لا وجود لما من شأنه أن يسمح بتجاوز هذا التأويل للخروج منه بفائدة ؛ فعلى القبر ذاته – ولا على شيء سواه – أعطى الخليفةُ إمبراطورَ الغرب "سلطة". لكن هل اتّسع نطاق هذه السلطة ليشمل سائر المبنى أي كامل كنيسة القيامة ؟ فمهما كان الغرض السياسي الذي يرمي اليه الرشيد من وراء منحه

---

(79) * Annales Regni Francorum .

(80) * Vita Carolii وهي الترجمة التي ضمّنتها أحداث حياة شارلمان .

(81) * أنظر ص 161 رقم 75 أعلاه .

(82) أنظر الملحق الخامس .

(83) أَرْكُولْف 1م Arculfe I (624-704/2-85 هـ) أسقف قام برحلة الى الأراضي المقدسة [680 - 690/61 - 71 هـ] وعاد منها ومعه عنها وصف مدقق (ذكره كلاينكلاوس Kleinclausz في مجلة "سوريا") .

ترضيات لشارل فإنه من غير المؤكد بالمرة أن يكون الخليفة ذهب الى أبعد من تنازلات محدودة بل ورمزية أكثر منها حقيقية . فهارون ، كما هو معروف ، كان شديد التعلق بدينه ؛ والدين – وقد كان الحجة التي اعتُمِدت في طرد الأمويين من الحكم – هوالمبرِّر، إن أمكن القول ، لوجود بيته العباسي على رأس الدولة الإسلامية وخلافة المؤمنين . ونفوذ الخليفة كان مطلقا ، لكن في حدود العمل بأحكام الشريعة ، في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل أكثر من سائرالعهود الأخرى . فأن يُمنح ملكٌ كافرٌ سلطةً على قبر"إلهِه" ، وإن كان فارغا، كان إذن أمرا لا يخلو من مخاطر : منها التعرّض لاستغلال العلويين لهذا الإنتهاك لحرمة الدين . وهارون ، المعروف بحذره وعدم اطمئنانه – وكثيرا ما كان حذره وعدم اطمئنانه في محلّهما – ما كان ليُجازف مثل هذه المجازفة . فدعوى "الحماية" على فلسطين إذن غير قابلة للتصديق ، ولا تخوّل أيّةُ وثيقة من الوثائق الموجودة مثلَ هذا التأويل .

"فهبة" قبر المسيح هذه – وهي من الأمور التي لا يمكن التشكيك فيها رغم انعدام نصوص عربية تذكرها – إذن رمزية لا غير ؛ لكن ، لقداسة قبرالإله المنقِذ ، كان له في نفس شارل ونفوس سائر المسيحيين ، إجلال ليس فوقه إجلال ؛ وأن يكون القبر قد أصبح "ملْكا"، ولو وهميا ، لشارلمان ، قد حَمَّس مخيّلات هؤلاء الرجال والنساء الذين يحلمون بالذهاب الى القدس والسجود بها ؛ فازداد شارل بهذه " الملكية " اعتبارا وذاع صيته عبر العصور ، واستحوذت الأسطورة على كلّ ذلك ؛ فعلاوة على روايات راهب سان غالّ – وكلها موضوعة وضعًا – تُخُيِّلت رحلة لشارل الى الشرق ، وتُخُيِّل الإمبراطور داخلا القدسَ ، والرشيد يُهديه مذوَد[84] المسيح ومدفنه ؛ وتُخُيِّل عائدا ومعه رفات القدّيس أَنْدرَاوُس[85] .

وفي القرن 12 م (6 للهجرة) ظهرت "رحلة شارلمان الى الشرق" وهي قصيدة ملحمية تروي بطولات الإمبراطور وهو يُطرد ، بجيشه المتركب من الحجيج النصارى، المشركين [المسلمين] من المدينة المقدسة . كما جعلت منه الأسطورة أوّل محارب صليبي ؛ وحتى نهاية العهد الوسيط ، صدّق الناس قاطبة هذه الأساطير.

بالإضافة الى هبة القبر الرمزية ، ليس مستبعدا أن يكون المسلمون قد منحوا شارلمانَ إمكانيةَ "رعايةِ" المؤسسات الدينية بالقدس ، أي توسيعها، وترميمها ، وتعهّدها بشتى ضروب العناية ، وتيسير مَقْدَم الحجيج النصارى اليها ، وتحسينِ ظروف إقامتهم

---

(84) * المذود : لغةً هو مُعتلف الدّواب ؛ واصطلاحًا هو معرض تذكاري لميلاد عيسى يتبرّك به النصارى – وخاصة في عيد الميلاد – وتُقدم فيه دميتان تمثل الأولى المسيح والثانية أمّه مريم ، وتوضع الدّميتان في مذود crèche يحبط به عدد من الدواب ، تذكيرا بالظروف التي حفّت بولادته .

(85) * أندراوس (القديس) André (Saint) · أخو بُطْرُس ، (أنظر ص 148 رقم 21) .

فيها . ففي الروايات الواردة علينا من ذاك العصر، يعثر القارئ على أخبار راهبات سبع عشرة ، من أصل فرنجي ، كنّ يوجدن بالمدينة المقدسة ؛ وعلى ما يُروى ، أنفقت أعطية شارل في بناء خان وسوق ومكتبة لحجيج النصارى ؛ وقد يكون الإمبراطور قد أمر أن يُشترى له في وادي يُوشَفَاط [86] كروم وبساتينُ وأن يُشترى له كذلك "حقلُ الدماء" [87]، ذاك الحقل الذي اقتناه يَهُوذا [88] بثلاثين فلسا نالها جزاء غدره بالمسيح .

بفضل هذه العلاقات قد يكون شارلمان ساهم أيضا في تحسين أوضاع المسيحيين العائشين في البلاد الواقعة تحت الحكم الإسلامي. لكن ، بعد وفاة الرشيد سنة (809 / 194 هـ) انتشرت الفوضى في الإمبراطورية الإسلامية لمدة تقارب العشرة أعوام ، تعرّض خلالها المسيحيون الى شتّى المحن التي تُسلّط عادة على الأقليات في الفترات التي يسودها الإضطراب [89] . ثم عادت حياة المسيحيين كما كانت من قبل ، في أكثر الأحيان هنيئة ، وفي بعضعها أكثر صعوبة ، بحسب الملابسات المحلّية ، وشخصية الولاة ، والموظفين الذين لهم اتصال بالأهالي . ومن بين ما أنجز في ظلّ التسهيلات التي قد يكون منحها هارون لشارلمان ، بقيت ، بالأساس ، المباني والترميماتُ التي ساهم الإمبراطور في إنجازها بتبرعاته ، وعلى الأرجح ، الزياداتُ التي شجّع على تحقيقها في عدد الرهابنة الإفرنج بالأراضي المقدسة ، وتقاليدُ وذكرياتُ ظلت قائمة طويلا بعد وفاة العاهليْن العظيمين .

ما كادت تمرّ سنتان على إقامة عبد الله ورفاقه ببلاط شارلمان حتى حضرت الرشيدَ الوفاةُ بخُراسان . فهل عاد عبد الله في الإبّان وأدرك الرشيد ليُعلمه بفحوى محادثاته مع شارلمان أم هل أنه وصل حين كان الرشيد قد سبق أن مضى من الرّقة ؟ لا تذكر الوثائق العربية أيّ خبر عن علاقات الرشيد بإمبراطور الغرب . لقد عطّلت وفاة الخليفة والفتنةُ التي أعقبتها تبادل البعثات الديبلوماسية ، وأوجد ما حصل من تحوّلات في الدولة العباسية أوضاعا جديدة . فلم يتخذ الأمين ولا المأمون ، وريثا الرشيد على عرش

---

(86) * وادي يُوشَفَاط Vallée de Josaphat : واد واقع بين أورشليم وجبل الزيتون يجري فيه نهر قدْرون le Cédron ، به اليوم مقابر للمسلمين والنّصارى . في هذا الوادي يكون حشر البشر يوم الدّينونة الأخيرة على ما ترويه بعض تقاليد اليهود .

(87) * " le Champ du Sang" .

(88) * يَهُوذا الإِسْخَرْيُوطي Judas Iscariote (ومعنى النعت في اللسان الآرامي : الخائن) · أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر. با ع معلّمه بثلاثين فلسا من الفضة فصار اسمه عنوانا للخيانة . شنق نفسه حسرة ويأسا .

(89) سنة 810 (195 هـ) صدرعن شارلمان أمر يقضي بجمع التبرعات لترميم كنائس القدس التي خُرّبت أيام الفتنة [و "أوامر شارلمان الجليلة" معروفة في المراجع الفرنسية تحت عنوان : [les Capitulaires de Charlemagne] .

الخلافة ، أيّ بادرة جديدة في الخارج[90]، وتوقّفت الحرب مع بيزنطة ، رغم الحملة التي شنّها المأمون عليها قبيل وفاته والتي لم تَعُد عليه بطائل . وفي سنة 814 (199 هـ) مات شارلمان .

من أخطر ما قد يحاوله المرء أحيانا إعادة صنع التاريخ . فإلى ماذا كان يؤول تطوّر الأحداث لو لم يمتِ الرشيد موتا مفاجئا ولو استطاع أن ينجح في السياسة الهجومية التي كان ينوي تنفيذها ضدّ بيزنطة ؟ لقد افتُرض أنّ اتفاقاتٍ صريحةً قد تكون أُبرمت بين العاهلين ، بل وذهب البعض حتى الى حدّ الحديث عن قيام "محور" بين آخِن وبغداد . وينسى القائل بوجود مثل هذا المحور ما كان يفرق بين العاهلين وبين الإمبراطوريتين، في المكان ثم في تصوّرهما للعالم ؛ فلم يبلغ إذن تعاونهما هذا المبلغ. وبما أنهما "غير متنافسين" إطلاقا ، فقد كان لهما نفس العداء لقرطبة ونفس الإحتراس من بيزنطة ، مما يجعلهما يَرَيَان "الوضعَ الدُّوَلي"بمنظار متقارب ، على الأقلّ فيما يحيط بالبحر المتوسط من الأصقاع . وكلاهما – والرشيد على الأخصّ – يتمنّى إمبراطورية بيزنطية مهزولة منهوكة القوى ؛ وهل كان أمير المؤمنين يريد تحاشي تعاون مُحتمل – وغير مرغوب فيه لمملكته – بين الإمبراطوريتين الإفرنجية والرّومية ؟ قد يكون ذلك ؛ على أنّ هذا الخطر، في ذاك الظرف من التّاريخ بالذات ، لم يكن واضح التهديد . مع أنّ الرشيد كان يخشى – رغم بعد المسافة – الدولة الإسلامية التي تكونت حديثا بالأندلس والتي نمت نموا باهرا وسريعا . وفي السنين الأولى من هذا القرن 9 ً (3 ً للهجرة) ، حيث باتت وحدة الدولة العباسية وتماسكها مهددين في كثير من آقاليمها ، كان الرشيد يعلم أنّ العاهل الآخر العظيم لا يكِنّ له العِداء ، بل وبالإمكان أن يكون له " صديقا " . والأرجح أنّ العلاقات بين الرجلين وبين الدولتين كانت تقف عند هذا الحدّ · لا تحالفات ديبلوماسية ، ولامشاريع مضبوطة قصد شنّ حملات عسكرية ، ولكنْ يقينٌ واحدٌ في أن كلا العاهلين لا يخشى شيئا من الآخر– طالما أنّ لهما مصالحَ وأعداء مشتركة – ويقينٌ أيضا في أنّ كليهما يستطيع التّعويل على مساعدة الآخر، اذا ما أضحى أحد هؤلاء الأعداء قادرا على تهديد مصالحه.

عينان اثنتان للعالم

الصلوات الخمس ، الحجّ ، الصّوم ، الزّكاة ، تلك هي – مع الشّهادة – قواعد

(90) على أنّ المأمون أرسل ، سنة 831 (216 هـ) ، الى لويس التقِيّ ، ابنِ شارلمان وخلبفته، بوفدين أحدهما إسلامي والآخر مسيحي ؛ ولا يُستبعد أن تكون غايتهما محاولة التعرف على نوايا الملك الإفرنجي في الوقت الذي كان الخليفة يوشك فيه أن يشنّ حملة جديدة على بيزنطة.

الإسلام الخمس[91]. ويُضاف الى هذه الفرائض الخمسة فرض سادس – "فرض كفاية لا فرض عين" – يتحتم القيام به على من أمّره الله على جماعة المؤمنين : ألا وهو الجهاد ، أي توسيع بلاد الإسلام بشنّ الحرب المقدسة على بلدان الكفر ، ودعوة أهلها الى اعتناق دين محمّد أو الخضوع لحكم المسلمين والدخول في ذِمّتهم[92]. وعلى عكس الأمويين" خلفاء رسول الله" كان العبّاسيون – وقد « وصلوا الى الحكم على ذروة موجة دينية عارمة» يعتبر الواحد منهم نفسه "خليفة الله بعينه" . لذا فقد كانوا أشد من بني أمية حرصا على أداء هذا الواجب المقدس .

الآن – وقد أشرف القرن 8ً (2ً للهجرة) على نهايته – بلغ العرب أقصى حدود إمكاناتهم ؛ أمّا بنو ساسان [93] ، فقد دالت دولتُهم وطُويَت من التاريخ صفحتُهم ؛ ومن جهة الشرق – رغم الإضطرابات التي ستتواصل ، على مدى عدة عقود بعد ذلك التاريخ ، في نواحي نهر الأكسوس[94] – فإنّ معركة طالاس[95] وضعت حدّا للتّوسع الصّيني في أواسط آسيا ، وقضت في آن واحد على مساعي بلاد ما وراء النهر[96] الى الإستقلال عن النفوذ المركزي . أمّا إمبراطوريات الشرق الأقصى ، فهي بعيدة المنال ؛ وأمّا إمبراطورية القارولنجيين فهي من النّأي – إذ تفصل 1.500 كيلومتر جبل طارق عن ضفاف نهر[97] اللُّوَار – بحيث يتعذّر بلوغها . ومعركة پُواتِييه[98] – وما كانت ، في نظر المؤرخين المسلمين، إلا «إخفاقة ثُلّة من جنود الفتح أثناء غزوهم أراضي بعيدة كل البعد عن حدود بلادهم »[99] – كانت حدثا لم يُعقِب جديدا ؛ ومن جهتي الشرق والغرب لم تبق أراض قابلة للإحتلال ولا شعوب يمكن نشرالدين فيها .

---

(91) * وترتيبها الشرعي عند المسلمين : الشّهادتان ، والصّلاة ، والزّكاة ، والصّوم ، والحجّ على من استطاع اليه سبيلا .

(92) أهل الذّمّة هم من كان على غير دين الإسلام من أهل الكتاب ، وهم مطالبون بدفع الجزية .

(93) * أنظر ص 14 رقم 7 .

(94) * الأكسوس هو الإسم القديم لنهر جيحون ؛ أنظر ص 20 رقم 35 .

(95) * أنظر ص 21 رقم 44 .

(96) * بلاد ماوراء النهر ؛ أنظر ص 20 رقم 35 ، و ص 69 رقم 53 .

(97) * نهراللُّوَار : هو أطول أنهار فرنسا (1.020 كم) ، يفصل بين شمالها وجنوبها، وينصب في المحيط الأطلسي . في واديه مُصطاف ملوك فرنسا وعلى ضفافه أفخر قصورهم. في ذكره هنا تلميح الى الحد الأقصى الذى بلغه المدّ العربي ، إذ بالقرب منه جرت معركة پُواتِييه الشهيرة .

(98) * أنظر ص 152 رقم 43 .

(99) ب. لويس B. Lewis ، العرب في التاريخ Les Arabes dans l'histoire .

بقيت إمبراطورية الرّوم وبقي حلم احتلال القسطنطينية ، عاصمتها ؛ فطيلة قرون عديدة ، سيخامر هذا الحلم أذهان الكثير من أمراء المؤمنين ؛ وحين يحققه أحدهم[100] ويستولي عليها ، سيحلم – والى يوم الناس هذا تقريبا – ملوك وأباطرة مسيحيون باستردادها من أيدي المسلمين . فلولا ليون 3ً الإيزوري[101] – وقد قدّمت له غاراتُ البُلغار[102] على العرب دعمًا بالغ الأهمية – ولولا النار الإغريقية[103] ، ربما كان يُكتب النجاح لحملة مَسلَمة[104]، تلك الحملة التي مثّلت أقصى ما بلغته سطوة العرب من عُتُوّ إبان فتوحاتهم. وسيصطدم العباسيون في أوج عِزّتهم – المهدي أولاً ، ثم الرشيد وابنه المأمون من بعده – بقوى برّية وبحرية بيزنطية ذات بال ، أُعيد تنظيمها على أُسُس إقليمية (الدّوائر) ستقيم الدليل بعد زمن قليل على نجاعتها[105] .

---

(100) إن المدفعية الثقيلة التي استخدمها محمد 2ً هي التى مكّنت من الظّفر بالمدينة وذلك بما فتحته من ثغرات في أسوارها .

(101) * أنظر ص 146 رقم 8 ، و ص 147 رقم 11 .

(102) * البُلغار شعب تكونت منه دولتان في أوائل العهد الوسيط ، إحداهما على نهر أتيل (الڤُلْجَا) والثانية على نهر الطونة (الدانوب) .

(103) عُرِف استخدامُ السوائل والمركّبات الكيميائية المُلهِبة منذ العصور الغابرة من العهد العتيق ؛ فهي مذكورة في تآليف هيرُودُوتُس Hérodote [وهو"أب التاريخ"، عاش في القرن 5ً ق م] وثُوقيدِيدِس Thucydide [وهو أكبرمؤرخي اليونان ، عاش مخضرما بين القرنين 5ً و 4ً ق م] وتِيطُس لِيڤِيُوس Tite-Live [وهو أحد مشاهير مؤرخي اللاطين ، عاش في النصف الأخير من القرن 1ً ق م] . ويتحدث أمّيَانوس مَرْسلِّينُوس Ammien Marcellin [وهو مؤرخ يوناني المَنْبَت ، لاطيني المُترَعرَع ، عاش في القرن 4ً للميلاد] عن " الكعوب " malleoli أي السّهام التي عليها مادة مُحرقة . وتلك " الزيوت " التي يدخل في تركيبها القارُ والراتِنْج [صمغ الصّنوبر] والجِير والشّمع والكِبْريت ومِلْح البارود [نِتْرات البوتاسيوم] . استعملها الفرس بغمس طاقات من المُشاقة فيها يرمون بها العدوّ مع النُّشّاب بعد ذلك . وكان النفط مما تعظم الخشية من استعماله لأنّ لهيبه سريعا ما ينتشر في كل مكان . واستعمل العرب أيضا السوائل الملهبة ، خصوصا في إحدى حملاتهم على الهند عام 779 (163 هـ) ، واستخدمها الرشيد أيضا في حملته على هِرَقلة سنة 806 (191 هـ) . ونسبة النّار الى الإغريق سببها أن كَلِّينيكوس ، وهو إغريقي ، جلبها من سوريا الى بيزنطة ؛ [فسُمِّيت النّار الإغريقية] .

(104) * أنظر ص 147 رقم 10 .

(105) حسب هذه النظرية الرامية الى إقرار خطة للدّفاع عن البلاد – وقد ظهرت منذ 625 (3 للهجرة) [أي في عهد هرقل 1ً]، إلا أنها لم تدخل حيز التطبيق إلا تدريجيا – قُسّمت المملكة الى دوائر عسكرية وتقررت تعبئةُ المقاتلين في حدود كلّ دائرة منها على عين المكان ، وتعيين أسطراطيغوس [أنظر ص 146 رقم 9] على رأس كل دائرة منها ، بيده فيها كل السلط =

محكوم عليهما بالتلاقـــي

في أوائل القرون الوسطى كان البيزنطيون هم الوحيدين الذين لهم مع العرب جوار مباشر، وكانت بلدان سائر الشعوب الأخرى على مسافات هائلة من أراضيهم ، بل وقد تفصلها عنها أحيانا مسيرة أشهرعديدة . فربط الصّلة معها يكاد يكون ضربا من ضروب الرّيادة والإستكشاف ، وما يُعْرفُ عن أحوالها كان قليل النسبة بالواقع ؛ فالسفر الى دار الحرب ، حسب الشريعة الإسلامية ، أمر مكروه ، ولا يحلّ إلاّ إذا كان القصد منه افتداء أسرى من المسلمين ، وليست التجارة ، هي أيضا ، مبررا كافيا للخروج الى بلاد الكفر[106]؛ ولايجرؤ من المسلمين على السفر اليها إلا ّذوو الجسارة من بين التجار، وكثيرا ما يكون ذلك للإثراء السّريع ؛ والبقية فقد كانوا يجهلون كل شيء عن آسيا؛ أمّا أوروبا فليس لهم عنها إلاّ فكرة غامضة ، ولا تصوّر لهم إطلاقا عما يحيط بها؛ وأما أفريقيا فهي مقصورة في ذهنهم على شمالها (المغرب) وجانب من سواحلها الشرقية ؛ وما تبقّى من العالم فهو ملك للأساطير .

على عكس العرب ، كان للبيزنطيين عن بلدان الغرب والشمال فكرة أقلّ غموضا . فقد كانت لهم مع تلكم البلدان – ومن ضمنها دولة القارولنجيين – علاقات تجارية بالخصوص ولكنها سياسية أيضا ؛ وكان القسمان الأوسط والجنوبي من إيطاليا تابعَيْن للإمبراطورية اليونانية حتى نهاية القرن 8ً (2ً للهجرة) ، إلا أنـهم لـم يُخـاطروا بأنفسهم أيضـا خـارج حدودهـم ، وقلما خاطروا على كل حال ، منذ أن احتل العرب السواحل الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، وبات بأيديهم أوفر نصيب من التجارة مع الأصقاع النائية .

فالعرب والروم ، الشعبان الوحيدان اللذان يجمع بينهما جوار مباشر، كان محكوما

= العسكرية والمدنية ، وله عليها حكم يكاد يكون مطلقا . والعائلات المالكة للأرض فيها مطالبة بتقديم خدمة عسكرية ؛ فاذا حدث استنفار ووجب التأهّب للحرب ، عليها تقديمُ الرجال ، مع كل رجل منهم سلاحُه وفرسه ؛ ومن كان فقير الحال من بين الفلاحين جُهِّز للقتال (بالسلاح والمركوب) على نفقة القرية . فهذه الخطة كانت تمكّن الجهات من أن تُقدِّم للدَّولة ، في أسرْع وقت ، مقاتلين على تمام الأهبة لخوض المعارك ؛ وطُبِّق نفسُ الإصلاح على البحرية [وأقدم ما أُحدث من هذه الدوائر دوائر تراقيا ومقدونيا ونِكوپوليس ، ثم أحدثت دوائر هِلاّد وپيلوپونيز ثم الأناضول] .

(106) هذا الموقف المتشدّد لم يلبث أن تتطوّر، واستطاع الفقهاء أن يوفّقوا بين الشّريعة والضّرورة ، وذلك بأن تصوَّروا حالة وسطى [بين السّلم والحرب] وهي حالة المهادنة ؛ ومما كانت تُخَوِّله ، خروجُ المسلم الى دارالحرب في تجارة مثلا . وفي موضوع التجارة ، أنظرالفصل الثامن، ص ص 279-285 .

عليهما – إن أمكن القول – بتبادل العلاقات . فكثيرا ما كانت تلك العلاقات تنفصم من جراء الحروب ، لكنها دوما موجودة ؛ كما كانت توجد باستمرار بين الشعبين مبادلات من جميع الألوان . كانت لرجال كلا الجانبين رغبة شديدة في التعرف على رجال الجانب الآخر؛ لكن هل معنى ذلك أن التفاهم بين أولائك وهؤلاء كان حاصلا ؟ كلاّ ، بلا شك ! فالديانتان مختلفتان فرط الإختلاف ، والعادات أيضا . وكلا الطرفين مُؤْمِن بأنه خير من الطرف المقابل ، وإن سلّم باقتسام العالم معه اقتساما موقتا . فأما المسلمون فهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأنّ دينهم هو الدين الحقّ ، وأنه سيكون يوما ، دون سواه ، دين المعمورة قاطبة . ثم هم يعتبرون أنّ الروم مُشركون (أي أنهم ، بحكم القول بالثالوث ، يُضيفون لله شريكيْن) . وهؤلاء الكفرة ، في نظرهم ، كثيرو العاهات ، شديدو البخل ، عديمو الذمة ؛ فنساؤهم قذرات فاسقات ، وطعامهم فاسد؛ أضف الى ذلك أنهم يُزوّدون العالم الإسلامي بالخِصي ، ويمارسون خِصاء أطفالهم بأيديهم[107].

وأما البيزنطيون فهم يرون أن مُلْكهم وحده – وهو مُلْك المسيح – يمثل ، دون سواه ، المثل الأعلى الديني والفكري والأخلاقي الذي ينشده الإنسان في هذه الدنيا . وفي رأيهم « ما كان داخل الإمبراطورية فهو العالم المتحضِّر – "الأُويْكُومِين" – وما كان خارجَها فهو البادية القفراء – "الإيريمُوس" –[108]» . فالمسلمون ، في نظرهم خرّبوا المملكة الشاسعة الممهَّدة لتأسيس مملكة المسيح ، وقوّضوا وحدة العالم التي كانت بصدد التحقق ، فهم القوم الكافرون ؛ وهل من شيء أقوى من هذا [لتبرير الدوافع لكره المسلمين] .

فكل من الطرَفيْن المتعاديَيْن – الطرف البيزنطي والطرف المسلم – يعتبر الطرف الآخر متبربِرا[109] ؛ والشعور بالتّفوّق كان لدى البيزنطيين أشدَّ وضوحا وعمقا منه لدى المسلمين ؛ لكن أولائك موجودون بل هم يفرضون وجودهم ؛ ثم إنّ لهم مع الروم حدودا مشترَكة ؛ والعلاقات التجارية بين عرب الجزيرة وأروام الإمبرطورية المسيحية قائمة منذ العهد الجاهلي . وكل من الرسول محمّد – والخليفة عُمَر من بعده – كان يعلم عن تجربة أنّ على الدّاخل للأراضي البيزنطية دفعَ رسوم الدّيوَانة[110] . وفي العهد الأموي كان

(107) في الواقع ، النخّاسون اليهود هم الذين كانوا يتعاطون الخِصاء .

(108) جرونْباوُم Grunebaum الإسلام القروسطي L'Islam médiéval . [المقابل اليوناني للعالم المتحضر هو l'oikoumene والعالم المقفر هو l'eremos] .

(109) * أنظر ص 149 رقم 22 .

(110) * نأسّيا بقرارالسلط العمومية في تونس ، نعدل في تسمية "ديوان الجمارك"عن اللفظ الدخيل "جمرك" الى اللفظ العربي الأصيل "ديوانة" الذي حُرّف في بعض لغات جنوب أوروبا الى douane و doggana .

التبادل التجاري يتم بالخصوص عن طريق البحر: فمن البضائع الكثيرة المجلوبة الى القسطنطينية بَرْديّ أرض الكنانة . أما العهد العباسي ، فقد كَثّف فيه الإزدهارُ الإقتصادي نشاطَ المبادلات التي ظلّت تمر دائماً عبر القسطنطينية حيث يوجد مسجد للتُّجار المسلمين؛ لكنها كانت تمرّ أيضا عبر طَرَابْزُون[111] وعبر لامُس[112] المدينة الحدودية ، غربي طَرَسُوس[113]، حيث تنعقد دوريًا أسواق تجارية ويتم تبادل الأسرى بين الروم والعرب . لكن بعض البضائع كان مُحَجَّرًا تصديرُها : من ذلك أنّ التجار الأجانب لا يمكنهم أن يُخرِجوا من البلاد الإسلامية معهم نُسخا من المُصحَف ولا كميات من البلسم ؛ أما البيزنطيون فإنهم يحجرون كل تصدير للزيوت .

كان الخلفاء والقياصرة يتبادلون الهدايا في بعض المناسبات ؛ فقد أهدى معاويةُ ملكَ الروم خمسين فرسا من الخيول العتاق (وكان تصديرها ممنوعا منعا باتا). وأهدى المأمونُ أحدَ قياصرتهم لطائف فيها فروُ السَّمُّور والمسكُ ، وأهدى هارونُ الرشيد نقفور[114] عطورات وخيمةً وفواكه جافة ، وتلقّى منه مائتي خلعة ديباج مطرّز وبُزاةً وكلاباً للصّيد ؛

---

(111) * طَرَابْزُون أو طَرَابْزُنْدَة : مدينة في تركيا على البحر الأسود . من الموانى النشيطة منذ أقدم العصور في تبادل السلع بين العالم الروسي/البلطيقي والهندي/الصيني. كاد يحتكر ذاك التبادلَ في العصر الوسيط بأكمله التجارُ البنادقة الإيطاليون . نقل إليها ، في القرن 13 ً (7 ً للهجرة) بعضُ أمراء آل كُومْنان (أنظر ص 29 رقم 72) الحكمَ فرارًا من الغزو اللاطيني أثناء الصّليبية الرابعة . أضحت منذ ذلك العهد من أنشط المراكز الحضارية البيزنطية . فتحها محمّد 2ً سنة 1461 (865 هـ) ، وبسقوطها ينتهي حكم آخر أسرة بيزنطية .

(112) * لاَمُس Lamos (لامِس في معجم البلدان) يقول عنها ياقوت : « هي قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طَرَسُوس ، كان فيها الفداء بين المسلمين والروم ، يقدم الروم في البحر فيكونون في سفنهم والمسلمون في البرّ ويقع الفداء » . والغالب على الظن أن هذه القرية ، النشيطةُ في القدم والعافيةُ رسومها اليوم ، كانت تقع على نهر لامَس ، وهو نهر في قيليقيا، ينحدر من جبل طوروس وينصب بين بانياس ومرسين .

(113) * طَرَسُوس مدينة في قيليقيا بجنوب تركيا . كانت سابقا من العواصم . فتحها المأمون (172/788 هـ) وفيها دُفِن . استولى عليها النصارى في الصليبية الأولى (1097 / 491هـ) وأسسوا بها مملكة أرمينية الصغرى المسيحية . استردها المماليك (760/1359 هـ) ثم آلت الى العثمانيين .

(114) * نِقفُورُس 1 ً (802-811/187-196) : ناظر المالية logothète للإمبراطورة إيرينة . نودي به إمبراطورا إثر الإنقلاب الذي أطاح بها . تنازل عن إيطاليا لشارلمان (188/803هـ) وتعاهد معه . غضب الرشيد لنقضه العهد معه ، فخرج اليه محاربا فغلبه وأرغمه على دفع الجزية . قاوم الصقالبة وحارب البلغار، فهزمه خانُهم كُرُم Korum وقتله وجعل من جمجمته إناء له يشرب فيه الخمر.

وكانت إيرينة قد أهدت له من نسيج وبر المعز ما وقره 30.000 رطل . وكان القياصرة والخلفاء يتهادون النُطقَ المذهبة المرصعة بالألماس وخلعَ الحرير النفيس والجواريَ والغلمانَ. ويذكر كتاب ألف ليلة وليلة ، أكثر من مرة ، هدايا ملك الروم الى هارون الرشيد . « وكانت هدية الملك أفْرِيدُونيُوس صاحب البلاد اليونانية والعساكر النصرانية المقيم بمملكة القسطنطينية خمسين جارية من خواص بلاد الروم وخمسين مملوكا عليهم أقبية من الديباج بمناطق من الذهب والفضة ، وكل مملوك في أذنه حلقة من الذهب ، فيها لؤلؤة تساوي ألف مثقال من الذهب ، والجواري كذلك ، وعليهم من القماش ما يساوي مالا جزيلا ؛ كانت هذه هي الهدايا الأولى ، لكن تبعتها هدايا ثمينة لا تقل قيمة عن الهدايا المذكورة[115]» .

فهذا التبادل للهدايا –وتكون عادة ثمينة ، وأحيانا غريبة (من ذلك مثلا أن أحد الأباطرة أرسل الى الخليفة معاوية رجلين أحدهما عملاقيّ القامة ، والثاني هرقلي القوّة)– كان يقع عند إبرام معاهدة أو فداء أسرى أو تولّي إمبراطور أو خليفة مقاليد الحكم . وكان يرافِق الهدايا سُفراءُ تُقدم اليهم أيضا تُحف وألطاف يُخوّل لهم أخذها معهم الى بلادهم؛ ويتمتع هؤلاء السفراء بالحصانة الديبلوماسية طيلة إقامتهم ، وإن كانت قصيرة ، لانعدام السفارات القارة . وقد لايتردد البعض منهم – ممن يحفزه الفضول الى مزيد من الإطلاع على البلد المضيف – في اغتنام ما قد يسنح من الفُرص للتجوّل في بعض جهاته ، والتعرف على عاصمته ، وحضور المجالس التي تجمع أعيانَ دولته ؛ وقد لا يتأخر هؤلاء عن دعوة الضيوف من السفراء الى حضور ولائم فاخرة يقيمونها على شرفهم قصد إبهارهم وإيهامهم بثراء عاهلهم . وكانت بغداد والقسطنطينية تتنافسان في التباهي لدى زائريها بمظاهر الأبهة والبذخ . من ذلك أنّ جان دي سُنسيل[116] الذي التقى بالمأمون في دمشق سنة 831 (216 هـ) وزع مبالغ هائلة من المال لا على أصحاب المراتب العالية فى الدولة وأفراد من بطانة الخليفة في البلاط، بل وعلى رجال من عامة الشعب؛ وقد وقع ذلك من نفوس المسؤولين في القسطنطينية موقعا حسنا حتى قيل : « لقد أطلع جان المسلمين[117] على فضائل الإمبراطورية » .

---

(115) ألف ليلة وليلة ، الليلة 46 .

(116) * Jean de Syncelle .

(117) * les Sarrasins "[الغزاة] السرّقسطيّة" – وهو من أقدم الأسماء التي أطلقها النصارى في غربي أوروبا – وفي فرنسا وجنوبها بالخصوص – على الفاتحين المسلمين ، بجانب كلمات ذات دلالة عقائدية وحاملة لشحنة تحقيرية مهجّنة مثل " مشرك " païen ، و " كافر" infidèle و " وثنيّ " idolâtre – ، وفي أواخر العهد الوسيط ، حلت محل هذا الاسم لفظة " المغربي " le Maure ، وكانت أقل تحقيرا من السابقة ، وانتشرت بعدها لفظة جديدة، =

كان الخليفة والإمبراطور يتكاتبان . فعندما يكتب أحدهما طالبا من الآخر مهادنته أو مبادلته الأسرى كانت الرسالة تتميّز باللطف بل وحتى بالودّ في اللهجة أحيانا ؛ لكن عندما تتضمن الرسالة إعلانا للحرب تكون اللهجة فيها عنيفة وأحيانا جارحة . (سنرى ذلك عند التعرض للكتاب الذي بعث به الرشيد الى نقفور). ويتبادلون أيضا من الرسائل ما ليس فيه أثر للسياسة . فقد طلب نقفور من الرشيد أن يوجه اليه الشاعر أبا العتاهية مقابل ما شاء أن يوجّهه اليه من الرهائن . إلا أن الشاعر رفض السفر الى بلاد الروم رغم إلحاح الخليفة عليه . وكان الوليد الخليفة الأموي بعث الى يوسطينيان بمكتوب يقول له فيه إنه يريد منه أن يوجه اليه حِرَفيّين من الإغريق لبناء جامع دمشق ، مهددا إياه بهدم عدد من الكنائس إن هو رفض . وبعد عهد الرشيد بقليل ، سيدعو الخليفة المتوكل ، أشد بني العباس رغبة في التشييد وأكثرهم إسرافا فيه[118]، برسّامين من بيزنطة لتزيين جدران قصر سامرا بالزخارف ، ومن بين ما سيرسمونه عليها صورة كنيسة ورهبان .

لدينا عدد من الأحداث التاريخية – وكثيرا ما كان يُغالَى في تزيينها – والروايات التي تشهد بوجود علاقات ، لا بين السلط العليا في الإمبراطوريتين فحسب ، بل وأيضا بين مفكريهما ، وكان يجلب بعضهم الى البعض شبه سر مشترك ، وهوالذي نعته لُوي ماسيِّنيون بكونه « سرابا يشعّ من سراب مضطرم » .

وفي هذين القرنين ، 8ً و 9ً (2ً و 3ً للهجرة) ، كان العرب لا يغيب عن أذهانهم مقام بيزنطة وريثة اليونان القدامى[119] ؛ فكان يزداد اكتشافهم لسعة الثقافة لدى هؤلاء

= تارة مجردة وطورا متمدحة ، وهي لفظة " التركي " le Turc ، وقد ظهرت ابتداء من عصر النهضة ، وخاصة بعد تحالف فرنسوا 1ً مع سليمان القانوني وانبهار الفرنسيين باكتشاف الأسطول التركي العظيم والظفر بنظام الإمتيازات من لدن الباب العالي . وانتشرت بعد ذلك ، في الأدب والفن، دُرْجَة (موضة) « التركيات » les turqueries .

(118) * المتوكل ابن المعتصم تاسع خلفاء من بني العباس . كانت ولايته 14 سنة وتسعة أشهر (847-861/233-247 هـ) . مات وعمره 40 عاما .

(119) * من المعلوم أنّ روما غزت بلاد اليونان وأن هذا الغزو دام ما يزيد على القرن (نصف القرن 2ً – نصف القرن 1ً ق م تقريبا) ؛ وأنّ شريعة "انتقام المغلوب"، كما يسميها المؤرخون ، اقتضت أن يذوب الغالب في حضارة المغلوب وأن «يتهلّن» الرومان (القرنين 1ً و 2ً ب م) باعتناق عقائد الإغريق ومذاهبهم وتبني آدابهم وفنونهم والكثير من عاداتهم ، وبالتالي أن "يتهلن" الشرق الذي أخضعته روما . وانشطرت الإمبراطورية الرومانية الى قسمين (أنظر ص 29 رقم 72) منذ أوائل القرن الرابع للميلاد ، لكن رغم ذلك الإنشطار، ستظل الإمبراطورية ، لثلاثة قرون ، تمثل – دستوريا ومن الناحية النظرية على الأقل – وحدة كاملة لا تتجزّأ . على أنّ التحوّل التدريجي ، طوال نفس القرن ، لمركز النشاط الاداري للدولة نحو الشرق منح الجناح الشرقي تفوقا سياسيا على الجناح الغربي . وفي القرن الموالي (الخامس للميلاد) =

الأقدمين من الإغريق بازدياد ترجمتهم لكتبهم . فكان الرّاغبون من الخلفاء في إثراء مكتباتهم والتعريف بكتّاب العصر العتيق يوجهون الى القسطنطينية علماء من العرب للبحث عن تآليف يونانية . فنرى مثلا راهبا روميا ياتي الى قرطبة ليقدم لأميرها رسالة لدِيُوسْقُورِيدس[120] ويشرحها له ؛ أو نرى المأمون يطلب من الإمبراطور تِيُوفيل[121] أن يرسل اليه لَيُون ، الرياضي المشهور في علم الهندسة .

عندما يوجه الخليفة رسالة الى قيصر الروم ، فانه يدعوه فيها دائما الى اعتناق الإسلام ؛ ويجيب الإمبراطور، وإذا بالمراسلة تصبح عبارة عن مجادلة في علم اللاهوت . من ذلك ، على سبيل الذكر ، مثلا ما دار بين عمر 2ً (ابن عبد العزيز) وليون 3ً الإيزوري ، وبين هارون الرشيد وقسطنطين السادس... ومنه أيضا توجيه الخليفة الواثق[122] بعثة علمية – في أواسط القرن 9ً (3ً الهجري) وبموافقة ميخائيل 3ً [123] – لمعاينة رفات

= سيكون لكل من الجناحين مصير: أما الثاني فستغزوه عشائر البربار (من قوط ووندال وبُرْجُنْد وسُويف وأڤارس وهُون وألان وفرنجة وأنچكل وساكسون وغيرها ، وجلها عشائر جرمانية وقبائل وعبابيد آسيوية) ويُكوّنون فيه أوروبا الغربية الإقطاعية ؛ وأما الأول فستتولّد عنه الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي ستكون فيما بعد الإمبرطورية البيزنطية . وسيجري ، أثناء هذه المدة ، في هذا الجناح الشرقي ، تغير أساسي سيعود فيه الدور القيادي للعنصر اليوناني (بعد خضوع هذا الأخير للرومان مدة قرون) ، وتعود للثقافة الهلّينية الإغريقية مكانتها ، ويقترن مصيرها بمصير الدولة البيزنطية ؛ وسيحل الإغريق محل الرومان في الإدارة والجيش ، وتحل اليونانية تدريجيا محل اللطينية ، وستفشل، في القرن السادس ، محاولات يوسطينيان الرامية الى بعث إمبراطورية الرومان من رمادها؛ ولا يكاد يبدأ القرن السابع حتى يتخلى هرقل عن لقب " إمبراطور الرومان " الى لقب " بازيلوس أوتوكراتور " (أنظر ص 16 رقم 17) ، وستنصرف همة هذه الدولة – حتى سقوطها على أيدي الأتراك – الى رد غارات برابرة الغرب وبرابرة الشرق وإخماد نار الفتنة في الشعوب التي كانت خاضعة لسلطانها .

(120) * دِيُوسْقُورِيدس . طبيب يوناني ونباتي مشهور في كتب العرب . ولد بعين زربة (قِلِيقيا) في القرن 1ً للميلاد. له مؤلفات مفيدة جدا للإطلاع على معارف الأقدمين في علم النبات.

(121) * تِيُوفيل : إمبراطور بيرنطي (829-842/214-228 هـ) . هو ابن ميخائيل 2ً اللّجلاج . (أنظر ص 29 رقم 72) . كان عدوا لدودا لعبدة الصور (أنظر ص 108 رقم 7). حاول الوقوف في وجه الغزاة العرب وكان له معهم حرب ضروس . استولى العرب في عهده على صقلية . بعد موته ارتقت أرملته تيُودورا Théodora العرش (842-856/228-242 هـ) وأباحت من جديد عبادة الصور. رغم تصدي تيوفيل للعرب ، كان من أشد الأباطرة إعجابا بحضارتهم .

(122) * الواثق بن المعتصم . ثامن خلفاء بني العباس . كانت ولايته خمس سنوات وتسعة أشهر (842-847/228-233 هـ) . مات وعمره 32 سنة .

السبعة رقود[124]، وسيرسل نفس الخليفة الى آسيا الوسطى بعثة مهمتها البحث عن الجدار الذي كان الإسكندر شيده للحيلولة دون انتشار أقوام يأجوج ومأجوج[125] .

لم تكن العلاقات إذن بين عاهلي الإمبراطوريتين عدائية رغم تواصل الحرب بينهما بلا انقطاع تقريبا . ومن جانب آخر كانت بيزنطة تمنح العرب شبه امتياز على الغربيّين ، على ما رواه المؤرخ ڤاسيلياف ؛ ومثاله على ذلك أن البروتوكول البيزنطي ، عندما يُدعى الضيوف للجلوس الى مائدة الإمبراطور، يُخصِّص " للأصدقاء " المسلمين مقاعد أرفع مقاما من التي يخصصها "للأصدقاء" الإفرنج[126]، كما أن سفراء الشرق مقدَّمون ، عند الإقتبال ، على سفراء الغرب[127] .

كان هناك أيضا الفارّون من بلاد الروم الى أرض العرب أو الهاربون في الإتجاه المعاكس . فمن العرب من كانت تستهويه بعض الحريات التي يتمتع بها النصارى وراء الحدود ، كحرية شرب الخمر مثلا . ومن البيزنطيين من كان يُضطر الى الفرار من أجل جريمة اقترفها . وهناك من يفر ويجيء فيخدم الخليفة ويدرك عنده أعلى المراتب ، والأمثلة على ذلك عديدة : فمنهم من يُسْلِم ويستقر، ومنهم من يحاول العودة الى بلاده . بل وكانت

---

(123) * ميخائيل 3 السكّير : إمبراطور بيزنطي (842-867/228-253 هـ). هو ابن تيوفيل وتيودورا (أنظر رقم 121 أعلاه) وهو آخر الأموريين (أنظر ص 29 رقم 72). حكم تحت وصاية أمه ثم بمشاركة خاله بَرْداس . عَيَّن فوسيوس Photios بطريركا في القسطنطينية فعجل بالقطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية بعد أن كفّره (سلط عليه الحِرْم) البابا فكفّر هو البابا . أوعز لحظيّه بازيل بقتل بَرْداس .اغتاله بازيل بدوره وأسس بعد مقتله أسرةالمقدونيين.

(124) تقول الأسطورة إن سبعة شبان فروا من اضطهاد الإمبراطور دسيوس واختفوا في كهف قرب إفْسُس [مدينة قديمة في بلاد إيونيا على الساحل الغربي من تركيا،ليس فيها اليوم إلا الأنقاض،كان بها معبد ضخم لأرتميس هو أحد العجائب السبعة في العالم] في القرن الثالث للميلاد فسدّ عليهم الكهف وطُيِّن مدخله . فناموا ولم يستيقظواإلا بعد مرور مائتي عام. ثم ماتوا بعد ذلك ودُفنوا في الكهف الذي صار إحدى المزارات الكبرى في الشرق الأدنى.

(125) * يأجوج ومأجوج : هما ، حسب التّوراة ، شعبان يقطنان أقصى الشّمال ويمثّلان قوى الشرّ؛ وحسب الإنجيل ، هما عدوّان يهاجمان أتباع المسيح في آخرالزّمان . وسدّ يأجوج ومأجوج: هو سدّ جبّار زعم الأقدمون أنه من الحديد ، ونسبوا بناءه الى الإسكندر لحماية شعب استنجد به اسمه يأجوج ومأجوج . والأرجح أنّ هذا السد هو حائط الصين الأكبر.

(126) * قد يتجه الرأي الى تعليل هذا التمييز لا بما يكنه البيزنطيون من الود الى العرب بل بما يكنونه من الحقد الدفين للاّطين والإفرنج والغربيين عموما .

(127) حسب بروتوكول المراسلة المستمدّ من كتاب التشريفات Le Livre des Cérémonies كان اسم الخليفة في عناوين الرسائل يسبق اسم الإمبراطور، في حين كان يُعكس الترتيب في الرسائل التي تُوجه الى ملوك الغرب .

هناك حتى قبائل بأكملها تفر لتنجو من الطغيان ، أو أسرى حرب يختارون عدم الرجوع الى مسقط الرأس : فهؤلاء كانوا يعتنقون الدين الجديد ويُقْطَعون أراضي شاسعة . ومن بين رجال هذا الصنف كانت بيزنطة تختار المترجمين .

أشهر البيزنطيين الذين انضموا الى العرب وخدموهم هو بلا منازع الأسطراطيغوس طَطْزاطِيس الذي فرّ من بلاده سنة 784 (168 هـ) ؛ كما انضم اليهم إِلْپيديوس ، وكان أيضا أسطراطيغوسا ، وقد اتُّهِم بكونه عشيقا للإمبراطورة إيرينة . أما إيفيميوس ، آمر أسطول صقلية ، فقد كان سببُ فراره زواجه براهبة . وممن انضموا الى العرب كذلك الأسطراطيغوس أندرونيك دُوكاس[128] الذي لم يلبث أن اعتنق الإسلام .

كثير من أمهات الأولاد كنّ من أصل إغريقي ؛ فمنهن : قراطس أم الواثق (حفيد هارون الرشيد) ، وحبشية أم المنتصر[129]، وقُرْب أم المهتدي[130]، وضرار أم المعتضد[131]. ثم تأتي ، بعد ذلك بمدة ، شَغَب أم المقتدر[132] الذي كان قصره يعج برجال ونساء من أصل يوناني . وقد اشتهرت شغب بأنها أشد جواري البلاط شغفا بمظاهرالترف وأسباب البذخ .

وكان المساجين المقيمون بين السكان يساهمون في التعريف بعادات المملكتين وحضارتهما . فالأسرى ذوو المقام الرفيع تُفرض عليهم الإقامة في مقرّ لا يغادرونه ، لكنهم يقتبلون فيه من طاب لهم اقتباله . أما سائر الأسرى ، وكانوا يُشغَّلون في المعامل، فقد كانت لهم اتصالات ، بحكم الظروف ، مع من كانوا يقضون معهم يومهم في العمل . ونفس الإتصالات كانت جارية أيضا وبمقدار أوفر مع ساكني المناطق الحدودية ، حيث يحذق اللغتين جميعُ الناس تقريبا ، وحيث يكاد النشاط يقتصر على التجسّس وتهريب البضائع . فالمعارك التي لاتنى ، وافتداءات الأسرى التي لا تكاد تنقطع ، والحرب الطاحنة التي تتخذ كل الأساليب وجميع الأشكال كانت جميعها لا تخلو من تأثير في البلدين .

---

(128) * آل دوكاس . من البيوتات الرومية ذات المجد الأثيل والتأثيرالكبير في القرن 9ً (3ً للهجرة). أنجب هذا البيت ثلاثة أباطرة : قسطنطين 10ً وميخائيل 7ً و آلِكسيس 5ً . عن الأسطراطيغوس أنظر ص 146 رقم 9 .

(129) * المنتصر بن المعتصم . هو الحادي عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته ستة أشهر (861-862/247-248 هـ) . مات وعمره 26 سنة .

(130) * المهتدي بن الواثق : هو الرابع عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته 11 شهرا (868-869/255-256 هـ) . مات وعمره 38 سنة .

(131) * المعتضد بن الواثق : هو السادس عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته تسع سنوات وتسعة أشهر (892-902/279-290 هـ) . مات وعمره 47 سنة .

(132) * المقتدر بن المعتضد : هو الثامن عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته 25 سنة (908-932/296-320 هـ) . مات وعمره 38 سنة .

وأخيرا ، كان حَجُّ بيت المقدس يمثل لدى المسيحيين مناسبة لدخول هذا العالم العربي الذي يكثر حوله الحديث وتقلّ عنه المعارف . وبالرغم من أنّ لدينا معلومات متقطعة في الغرض عن العصر العباسي ، فيبدو أن رعايا القيصر كانت لهم حرية الدخول الى الأرض المقدسة والتجول فيها دون قيود ، على الأرجح بعد إحراز رخصة ودفع بعض الرسوم . بهذه المناسبة أيضا يحدث بين المسلمين والنصارى اتصال يساعد على اطلاع كلا الطرفين على طباع الآخر .

إذن حَكَم الوضع الجغرافي على العرب والروم بالعيش في عالمين متجاورين ، متجاذبين ومتنافرين في آن واحد، يتقاسم الطرفين فيهما إبغاضُ الآخر تارة والإعجابُ به طورا . وكان يخفف ما بينهما من عداء إيمانُهما المشترك بوحدانية الخالق ، ويقينُهما أنه – خارجَ عالميهما ، وبمقدار أقل خارجَ عالمي الفرس والهنود – لا يوجد على البسيطة إلاّ أقوام وعبابيد تئنّ تحت وطأة الجهل والتوحش . « لا يوجد إلاّ عينان اثنتان أوكلت العناية الإلاهية اليهما مهمة الإشعاع على العالم : هما مملكة الرومان العتيدة ودولة الفرس التي تسوسها قيادة حكيمة » ، هذا ما كتبه خسرو الساساني[133] الى الإمبراطور موريس[134].

وبعد فناء دولة الفرس ، بات العرب هم الذين ، بدورهم ، « يشعّون على العالم » .

هارون الرشيد في حربٍ مع قيصر الروم

أَوْلى كلٌّ من السّفاح والمنصور أهمية محدودة للحرب ضد الروم . فالجهاد ضد الشِّرك لم يكن في المقام الأول من المشاغل لدى الخليفتيْن العباسييْن الأول والثاني – المنشغليْن بتمتين أسس الدولة الجديدة وردّ غارات الخزر–، ولا كانت محاربة العرب من كبريات المقاصد لدى أعدائهم البيزنطيين الذين كانت لهم أعمال أوكد : منها مقاومة القبائل الصقلبية في تراقيا ومقدونيا ، وخصوصا صَدّ هجمات البلغار ؛ وكانت عندهم أشد خطورة من تلك التي تمثلها غارات العرب . فقد التقت جيوش المنصور وقسطنطين 5ً وتحاربت ، لكن قلما كان يتم ذلك بطوابير ضخمة . أغارت على مدن وخربتها (ملطية

(133) * هو خسرو 2ً أبرويز الذي عاصر القيصر مُورِيس (أنظر ص 14 رقم 7 و ص 17 رقم 25).

(134) * موريسبوس : إمبراطور بيزنطي (582-602) . كان قائدا للإمبراطور تيبير وصهرا له قبل أن يخلفه على العرش . أخمد ثورة البربر في افريقيا ، وأطرد اللمبرديين من إيطاليا ، والأقارس والصقالبة من البلقان . نظم ادارة المملكة تنظيما محكما . لكن ثار عليه الجيش بقيادة فوقاس الذي قتله وقتل معه أبناءه الستة قبل أن يأخذ مكانه على العرش .

ومَصيصا وأدنة ومرعش) ونفت سكانها ؛ وفي 771 (155 هـ) هجم الأسطول العربي على جزيرة قبرص وأسّر واليها البزنطي .

ما ان وَلِيَ المهدي حتى تجددت[135] الحروب ضد بيزنطة بضراوة أشد . وحين كانت سنة 778 (162 هـ) واحتل ليون 4 سُمَيْساط[136]، جهز الخليفة جيشا عظيما[137] وجعل عليه العباس بن محمد ، عم أبيه[138]، فزحف الجيش الى الروم واستولى على مرعش ؛ فأعاد الروم الكرة واحتلوا المدينة من جديد وأجْلوا عنهاجميع سكانها اليعاقبة الى تراقيا؛ وفي السنة الموالية أُعيد استرداد مرعش . وإذّاك خرج الحسن بن قحطبة[139] يقود العمليات على رأس 30.000 ألف رجل وعدد كبير من المتطوعة ؛ فتوغل حتى وصل عَمـُوريـة[140] وحَمّة أدْرُوليّة (اليوم اسكي شهير في تركيا)،[141] على350 كيلومتر من القسطنطينية ، محرقا ومخربا كل ما اعترض سبيله ، دون أن يلقى أيّ مقاومة : إذ قد كان الإمبراطور أصدر الأمر لجيوشه بالإنسحاب دون قتال .

في سنة 780 (164 هـ) كان الخطر العربي أشد تهديدا . باديء ذي بدء ، تمادى

---

(135) * والحقيقة أن صوائف المنصور– مدة خلافته الطويلة (22 سنة) – لم تتوقف إلا ستة أعوام (من عام 141 الى عام 145 هـو عام 147 هـ) .

(136) * سُمَيْساط : مدينة في الأناضول . عندها مخاضة الفرات . فتحها صلاح الدين الأيوبي (584/1188 هـ) .

(137) * اشتبه الأمر ههنا على أ . كلو . فصائفة العباس هذه التي يصف أحداثها لم تقع سنة 778 (162 هـ) بل قبل ذلك بسنتين ، إذن عاما بعد تولي المهدي الخلافة أي سنة 776 (160 هـ).

(138) * العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (739-122/802-187 هـ) : هو أبو الفضل الهاشمي ، أمير عباسي ، أخو المنصور والسفاح . ولاه المنصور دمشق وبلاد الشام كلها ، ثم أرسله لغزو الروم في ستين ألفا . ولي إمارة الجزيرة في أيام الرشيد . حج بالناس مرات ومات ببغداد . كان من أجود الناس رأيا وكان الرشيد يحبه ويجله .

(139) * الحَسَن بن قَحْطَبة الطائي (716-98/797-181 هـ) · أحد القادة الشجعان المقدمين في بدء العصر العباسي . استخلفه المنصور (133/750 هـ) على أرمينية . ثم استقدمه (134/751 هـ) لمساعدة أبي مسلم الخراساني . وسيّره (137/754 هـ) مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، في سبعين ألفا ، الى ملطية فكان للحسن فيها أثر عظيم . وغزا الصائفة (163/779 هـ) في ثمانين ألفا . فأوغل في بلاد الروم ، وسمته الروم " التّنّين " . توفّي في بغداد .

(140) * عَمُّورية Amorium : مدينة بيزنطية في الأناضول . فتحها العرب على أيام المعتصم تحت قيادة أفشين بعد حصار دام 13 يوما وأعملوا السيف في أكثر أهاليها ، وساقوا منهم 30.000 أسير (224/838 هـ) . لم يبق منها إلا أثر .

(141) * حَمّة أدرُوليّة Dorylée . ويضيف الطبري (الملوك ، 8 ، 142-143) : « وقيل : إنه إنما أتى هذه الحَمّة الحسنُ [بن قحطبة الطائي] ليستنقع فيها للوضح (البرص) الذي كان به » .

المهدي في تشييد الخط الدفاعي الذي سيكون ، باستحكاماته العديدة ، بمثابة المرتكز لجيوشه والمستند لها . وبعد هجوم الروم على مرعش ، قرر حماية هذه المدينة فشيّد بينها وبين ملطية قلعة الحدث ، قطعا للطريق على المغيرين القادمين من الشمال . وهكذا تكونت ، على الجانبين ، ومن سوريا الى مشارف أرمينية ، سلسلة من مراكز الدفاع المحصَّنة التي يقوم على حراستها الجنود النظاميون والمتطوعون الذين معاشهم من النهب والصدقات ؛ فهؤلاء يتولون ، باستمرار، الجهاد في سبيل الله ، ويواجههم – على الجانب الآخر من الحدود ، المتغيرة بلا انقطاع – المتطوعون البيزنطيون الذين يذودون ، هم أيضا ، عن المسيحية ، بوسائل مماثلة من سطو وسلب ونهب . فغُزاة ومتطوعة في جانب ضد آكريتاي[142] في الجانب المقابل : هذا ما كان عليه الوضع العسكري ، وسنجد هؤلاء وأولائك ، متقابلين مدى عصور على تخوم العالمَيْن المتصارعين ، الإسلامي والمسيحي . وإذ كان كل من الغزاة والآكرتاي في منأى عن السلطة المركزية ، وإذ كانوا بمعزل عنها ، ولا صلة لهم في الجهة إلا بالسُّكان المحليين ، فهم يتحاربون ، ولكنهم أيضا يتآخون ، ويفرون أحيانا الى العدو المقابل بما لديهم من أمتعة وسلاح . فلن يكون هذا التجاور، وما أولده من علاقات ، عديم التأثير على تكوين التصوف لدى الدراويش[143] المسلمين وستُخلِّد ذكراه ملاحم الفروسية الرومية والعربية والتركية .

وبعد أن أمّن المهدي الدفاع عن الحدود – على الأقل بما خوّله الظرف من الوسائل ، لأنّ الرشيد سيغيره ويطوره – شنّ عام 779 (163 هـ) أولى حملاته الكبرى ، فوضعها تحت قيادة هارون الذي يُرَجَّح أن يكون أبوه قد عقد العزم منذ ذلك العهد على اختياره خلفا له على العرش ؛ وكان المهدي يبتغي أيضا – اتعاظا بما صنعه والده معه – تدريب ابنه على المسؤولية ، وذلك بأن يُسنِد اليه ، ولو صوريا ، قيادة جيش من الجيوش . كان الأمير اليافع ، الذي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، محاطا طبعا بقواد ومستشارين .

---

(142) * الآكريتاي akritai : هي مجموعات المرتزقة والمتطوعة التي كانت تحشدها الروم – ابتداء من القرن 11م (5هـ للهجرة) وتأسيا بالعرب والأتراك حسبما يبدو – على كامل حدودها مع المسلمين في حصون تفصل بينها مسافات معينة ويتصل بعضها ببعض عن طريق إشارات مرئية .

(143) * الدَّرْويش : المتعبد ، واللفظة فارسية معناها الفقير. وكلمة فقير العربية التي شاعت في العالمَيْن الإيراني والهندي بمعنى متزهد ، دخلت المعجم الفرنسي في صيغة fakir بمعنى متنبئ بالمستقبل . أما كلمة درويش الفارسية التي انتشرت في العالم التركي بمعنى مترهب فقد دخلت المعجم الفرنسي في صيغة derviche بمعنى راهب (أي عضو في الإكليروس الإسلامي–الذي لا وجود له طبعا ، باعتبار أن لا كنيسة في الإسلام–)؛ وكثيرا ما تُنظّر جماعات الدراويش confréries في التكايا dervicheries بجماعات الرهبان في الأديرة ؛ وشاعت كلمة درويش في لهجات المغرب العربي بمعنى أبله مغفّل أومعتوه به مسّ من الجنون.

ففي المقام الأول ، كان يوجد خالد البرمكي وأبناؤه يحيى والحسن وسليمان ومعهم الحاجب الربيع بن يونس ؛ والواقع أن القيادة كانت – على ما روي – بأيدي يحيى .

رافق المهديُّ وأمراءُ البيت العباسي هارونَ عبر ثغور الطوروس حتى سيحان[144] حيث اختار الخليفة مكانا لتشييد مدينة دُعيت المهدية . ثم ودع ابنه وترك له شرف قيادة الجيش في دار الحرب . وقد كان المهدي انتدب لهذا الجيش وحدات من خراسان ، انضافت اليها وحدات أخرى ، مُكَوَّنة على الأرجح من متطوعين ؛ ووجود جيش جرار كهذا، كان يجعل خطر الهزيمة ضئيلا ، والغالب على الظن أن هذه الحملة كانت تمثل لدى الأمير المراهق مناورة تدريبية أكثر منها حربا حقيقية .

كان البيزنطيون غارقين من جديد في خصومة وراثية حول العرش ، فكانوا إذن في شغل شاغل عن محاربة العرب ، وكان معظم الجيش قد وُجّه الى صقلية للقضاء على ثورة هِلْپيديُوس أسطراطيغوس الجزيرة . فأهم نشاط حربي أثناء هذه الحملة تمثل في ضرب الحصار على حصن صَمَلُه الذي استسلم سكانه بعد أن نفد زادهم وكادوا يموتون عطشا ، وقد كانوا قتلوا عددا كبيرا من المسلمين مدة الحصارالذي دام ثمانية وثلاثين يوما . قَبِل هارون شروط السكان الذين طالبوا بألا يُقتَل منهم أحد وألا يُفرّق بين أفراد البيت الواحد ، ثم حوّلهم الي بغداد ؛ فكانت غزوة الرشيد هذه بمثابة "عِمّاد النّار" [أُولى المغامرات] إذ قد خاض فيها القتال لأوّل مرة .

وما كادت تمضي سنتان بعد ذلك حتى تحركت حملة حقيقية نحو بلاد الروم . ففي حين كانت السابقات مجرد غارات على أرض العدو، خرج هذه المرة جحفل عظيم غايته التوغل في الأناضول ، الى أقصى حدودها ، وحتى القسطنطينية إن أمكن الأمر.

هل حاول المهدي أن يظفر "بالمدينة الوسطى" ، كما كان فعل الأمويون من قَبْل ، وقد أغاروا عليها أربع مرات[145] ؟ قد يقول قائل : انه لو كانت تلك غايته لكان قاد الجيش بنفسه ، ولكان أمَر أسطوله –المحدود لا محالة – بأن يُعضِد بحرًا هجوم الجيش برًّا ، وهو الأمر الذي لم يحدث ؛ لكن فكرة الإستيلاء على القسطنطينية كانت بلا شك غير غائبة عن ذهن الخليفة المهدي .

إنّ إيرينة ، الطاغية الرهيبة ، هي التي كانت إذّاك على عرش القسطنطينية . فهذه "القرويّة الخاملة الذّكر"[146]، زوجة الإمبراطور ليون 4 ً، اغتصبت الحكم ، حال موت

(144) سيحَان هو النهر الذي ينبع في الطوروس وينصب في خليج الإسكندرون . [عنده كانوا يتبادلون الأسرى على أيام بني أمية والبيزنطيين] .

(145) لقد غزاها معاويه سنة 665 و 668 و 674 (45 و 48 و 55 هـ) وعبد الملك سنة 715 (97 هـ).

(146) حسب بريهْييه Bréhier .

زوجها ، ومارسته دون ابنها قسطنطين الذي كان في العاشرة من عمره . كان نفوذها هشّا لأن خصومها – أعداء عبادة الصور– كانت بأيديهم أهم المناصب في الدولة . كانت لا محالة تسيطر على جميعهم بقوة شخصيتها ، لكنها في حاجة الى كثير من المؤاربة في تصرفها معهم ؛ وأمام الخطرالمداهم للبلاد من الخارج ، كان بإمكانها الإعتماد على الجيش المخلص لها والمُدَعَّم بالدّوائرالعسكرية التي أحكم ليون 3 تنظيمها إحكاما ، مما جعلها تؤدي وظيفتها على أحسن وجه .

هذه المرة أيضا عُهِد بقيادة الجيش الى هارون الذي رافقه – كما كان الأمر في الحملة السابقة – الربيعُ وبعض البرامكة . وكان تحت امرة يزيد بن مزيد[147] ، القائد الأعلى وخير قادة العصر، قوات هائلة تضم 95.793 جنديا وعددا كبيرا من المتطوعة . أدرب الجيش في أواخر الشتاء ، يوم 9 فيفري (شُباط) [148]781 الموافق ليوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقين من جمادى الآخرة سنة 165 هـ ؛ وما ان تحسنت حالة الجو حتى بدأ المقاتلون يتوغلون في تراب العدو ، واستولوا على ماجِدة ، الحصن الحصين الواقع عند مخرج المخانق المعروفة بأبواب قيليقيا ؛ فأغارت عليهم خيّالة البيزنطيين فردّوها على أعقابها ؛ وحسب ما كانت تقتضيه عادة شرقية قديمة تبارز يزيد مع نِقيطا قومِس القوامس «فأرجل يزيد ، ثم سقط نِقيطًا ، فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم ، وغلب يزيد على عسكرهم » ؛ ففروا ولاحقهم العرب عبر الأناضول حتى نيقوميديا (إزميت) . ويضيف الطبري: « وسار هارون حتى بلغ خليج البحر [الذي على القسطنطينية] عند كريزوپوليس (أسكدار) » بينما كانت وحدات أخرى من الجيش تواصل تقدمها وغزوها في نواحي الأناضول ، خاصة بجهة بارِس (إسبرطة)[149] .

مرة أخرى بلغ العرب القسطنطينية ومرة أخرى فشلت محاولتهم في الإستيلاء عليها . هل كان الظفر بها يتوقف على الإستعداد بما يلزم من العدة والتضحية بما يجب من الرجال ؟ كلاّ ، انما كان العرب المغيرون بعيدين كل البعد عن قواعدهم ، ثم ان " المحروسة " كانت محصنة تحصينا . ولعلهم كانوا على وشك التوفّق الى أخذها ، هذا اذا صدقنا ما ادعاه مروان بن [أبي] حفصة حين يقول :

أَطَفْتَ بِقُسْطَنْطِينِيَّةِ الرُّومِ مُسْنِدًا إِلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى اكْتَسَى الذّلّ سُورُهَا [150]

---

(147) * أنظر ص 56 رقم 17 .

(148) * الملوك ، 8 ، 157 .

(149) حسب نيوفانوس Théophane [ماجاء داخل المعقفين أعلاه وقبلهما من الكلام للطبري وما بعدهما لتيوفانوس] .

(150) * الذّل (بالكسر) : اللّين ؛ وقد خلط أ. كلو في ترجمته بينه وبين الذُّل (بالضمّ) : أي الهوان .

وَمَا رِمْتَهَا حَتَّى أَتَتْكَ مُلُوكُهَـا بِجِزْيَتِهَا ، وَالْحَرْبُ تَغْلِي قُدُورُهَـا[151]
[من الطويل]

إن بيزنطة إذّاك بعيدة عن أن تكون في ذروة عزتها . فإيرينة قد اضطُرت الى توجيه جيوش الى مقدونية باليونان والبيلوپونيز للقضاء على ثورة الصقالبة . فكانت جهة القسطنطينية قليلة التحصين ؛ وإذ كانت إريرينة تعلم أنّ عرشها غير ثابت الأركان ، فقد خشيت أن يُضرَب حول عاصمتها حصار طويل ؛ فركنت للصلح ، وقَبِل هارون أن يدخل معها في مفاوضات ؛ فتبادل الطرفان الرّسل ، لكن المفاوضات تعطلت من جراء إلقاء هارون القبضَ على المبعوثِين البيزنطيين الثلاثة . وفي نهاية الأمر، تعهدت " صاحبة الروم الأغسطة ، امرأة أليون[152] "، أن تدفع جزية سنوية مقدارها 70.000 دينار وأن تطلق سراح 5.643 عربيا كانوا قد أسرُّوا[153]. وحسبما رواه الطبري ، فإن الروم خسروا 54.000 مقاتل ؛ واحتاج هارون الى 22.000 من الدوابّ لنقل الغنائم التي حصلت بأيدي العرب[154] بالرغم من أنه وجد نفسه مُضطرا الى أن يحرق من الغنائم ما كان تافه القيمة[155]. ولكثرة الفيء بيع البرذون بدرهم ، والسيف بدرهم[156] والدرع بأقل من درهم ؛ وكتبوا كتاب الهدنة لثلاث سنين فحسب .

في 31 أوت (آب) 782 (166 هـ) قفل هارون راجعا الى بغداد وهتفت الجماهير لعودته اليها مظفرا، واعتبرها المؤرخون أحد الأحداث الهامة التي وقعت في تلك السنة . ووقتئذ اختاره المهدي وليا لعهده بعد الهادي ولُقّب بالرشيد . وإذ كان – قبل بلوغ العشرين – قاد حملتين ضد بيزنطة ، فستتأصّل فيه النزعة الى الجهاد ، وستظل الصوائف ضد الروم ، أعداء العرب والمسلمين ، أحد مشاغل الخلافة في عهده .

---

(151) * رَامَ (يريم) المكانَ : غادره ؛ وقد خلط أ. كلو بين هذا الفعل وفعل رام (يروم) الشيء : أراده .

(152) * كما يُسمّيها الطبري (الملوك ، 8 ، 152) .

(153) * يبدو أن جملة الطبري هذه قد أساء أ. كلو فهمها أو قُدّمت له عنها ترجمة خاطئة ؛ فرقم 5.643 لا يمثل عدد الأسارى الذين كانوا بأيدي إيرينة ، بل عدد من كان في فيء هارون من أخيذ رومي . وهاك جملة الطبري التي لا لبس فيها: « ... وكان الذي أفاء الله على هارون الى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ... » .

(154) * هذه الجملة أيضا نتيجة فهم خاطئ أو ترجمة خرقاء لكلام الطبري الذي لا يتضمن أي لبس ، وها نحن نسوقه فيما يلي : « ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرون ألف دابة ... » .

(155) * لا وجود في المصادر العربية لذكر إحراق القليل أو الكتير من الغنائم .

(156) * والحقيقة أن الطبري قد كتب : « ... و [بِيع] العشرون سيفا بدرهم ، ... » .

تحصينات وغارات

إن الهدنة التي عقدت مع إيرينة دامت بعض الوقت ، مدة إثنين وثلاثين شهرا حسب الطبري . والبيزنطيون هم الذين خرقوها – " غدراً " كما يقول المؤرخون – في شهر رمضان 785 (169 هـ) ' فما عتّم العرب أن عادوا الى غاراتهم ، فخرجوا في سرية[157] الى الروم « فغنموا وظفروا» . لكن ، في السنة الموالية ، أقبلت الروم [مع البطريق] وأغارت على الحَدَث وهي مدينة بناها المهدي بجهة جرمانيكا (مرعش) ، فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق ودخلها العدو . فاستردها المسلمون في نفس السنة – [وقد غزا بهم فيها معيوف بن يحيى من درب الراهب] ودخلوا أرض العدو فبلغوا مدينة أَشْنَة ، على حدود أرمينية ، فأصابوا سبايا وأسارى وغنموا . أما الروم فقد شنوا بدورهم الغارات واستولوا على مدن أخرى بالأراضي العربية ، منها طرسوس التي أعاد تعميرها أبو سليم فرج الخادم التركي[158] عام تولي هارون الخلافة . استرسل هكذا الغزو والسبي والظفر بالأسرى والغنائم خلال السنوات الأواخر من خلافة المهدي والأوائل من خلافة هارون . وتمادى الخليفة الشاب في توجيه الصوّائف مرة كل سنة على الأقل ، لكن لم ينظم أية حملة ذات بال ؛ ثم إنه اقتصر على إكمال وتحسين الخط الدفاعي الذي يعصم شمالي بلاد الشام ضدّ كل مغير قادم من أرمينية وأذربيجان .

لم يكن جهاز الدفاع المتثمل في الثغور قائما بوظيفته على أحسن وجه ؛ فهذه المدن المحصنة كان يحميها رجال انتُدِبوا من سوريا والجزيرة ومُنِحوا أراضي إضافة الى رواتبهم . فسرعان ما انقلبت الى مراكز لتهريب البضائع والإتجار مع البيزنطيين مما ألحق ضررا بميزان الدولة ، خصوصا أن التساهل والإهمال قد أديا الى الإخلال بوسائل الدفاع إخلالا خطيرا . فلم يُعرض الرشيد عن اعتماد الثغور– وقد بقيت بمثابة خط لدفاع متقدم – بل راجع مراجعة جدية كامل الجهاز الدفاعي ، فنصب أهم تحصيناته جنوبي جبل الطوروس ، على مشارف خليج الإسكندرون ، حتى مدينة حلب وما يليها. فأُرسِلت الى طرسوس حامية هامة ، وأُبدِل لفظ الثغور بلفظ العواصم الذي سيطلق ، مدة زمن طويل ، على الجهة نفسها ، أي على قيليقيا وسوريا حتى الفرات . إذن عُمِّرت المدن المُحصَّنة بوحدات عسكرية عديدة ، يتكون جلها من مقاتلين جيء بهم من الثغور، واستُقدمت عناصر أخرى عُزِّز بها جانب حامية الحَدَث والمصيصة (على نهر سيحان) وعَين زربة

---

(157) * السَّرِيّة : من خمسة أنفس الى ثلاثمائة أو أربعمائة (القاموس) .

(158) * أبو سليم الخادم التركي – لا أبو سليمان الملقب بالتركي كما رسم ذلك كلو– عمَّر طرسوس (ولم يُعِد بناءها) ، فنزلها الناس .

وزِبَطْرا وهارونية[159] ومَنْبِج (هِيَارُوپوليس القديمة) حيث اكتمل هذا الجهاز الدفاعي العتيد الذي اتخذ شكل "حاجز قنفذي" وانتُدِب لقيادته عبد الملك[160]، أحد أمراء البيت العباسي.

لم يتخذ البيزنطيون أية بادرة من شأنها أن تمنع العرب من تأسيس هذه المنطقة العسكرية التي أقيمت في الحقيقة ضدهم والتي ستمثل خطرا دائما على إمبراطوريتهم . صحيح أنهم كانوا في أزمة خطيرة : فالبلاد تهزها موجة من دسائس الحاشية ومؤامرات القصر، والصراع بلغ أقصاه بين إيرينة وابنها الذي تُواصل وصايتها عليه بقبضة من حديد ؛ من ذلك أنها قطعت خطوبته مع الأميرة روطرود ابنة شارلمان ، مغيِّرة بذلك مجرى التاريخ ، أو على الأقل مجرى الأحداث في إمبراطوريتي الشرق والغرب . ولئن أرغِمت موقتا على التخلي عن الحكم ، فقد استطاعت أن تسترجع السلطة بفضل خيانات حدثت في بطانة الإمبراطور ، وهو الذي ارتكب مُحرَّما متمثلا في تطليق امرأته مريم الأرمينية للتزوّج من إحدى رفيقات والدته من نساء البلاط ، فقُذِف بالزنا وعرّض هكذا نفسه لنقمة الكنيسة التي لا ترحم . فالوزراء يتناحرون من أجل السلطة ، وإيرينة تسمل أعين خصومها ، والإمبراطورية تتحلل ، وسيتواصل الإنحلال الى أن يحدث انقلاب يرفع الى العرش إمبراطورا جديدا يستأنف الحملات على العرب للتغلب عليهم .

لكن أيام الإنتصار على العرب لا تزال بعيدة . ففي سنة 790 (174هـ) ما فتئ خط الدفاع الذي أقامه الرشيد يمثل منطلقا عتيدا لعمليات جديدة ضد الروم ؛ وفي كل سنة كان قواد الخليفة يشنون الغارات ؛ فاحتلوا عُرْقُوبَ بِكَبِّادوقيا وخرّبوها ، ثم استولوا على عَمُّورية بالأناضول وتقدموا حتى بلغوا سَمْسُون على البحر الأسود . وعام 797 (181هـ) خرج الرشيد – وقد مرّ عامان على انتقاله الى الرقة – فاجتاز الحدود بنفسه على رأس وحدات من جيشه ، في حين كانت وحدات أخرى قد وصلت الى أنصير (أنقرة) ودِفسوس (إفسوس) ، على ساحل بحر إيجّه ، وبحر مرمرا . وتعاقبت الحملات المضادّة ، ولكن بلا جدوى ؛ فلا أحد كان يستطيع التصدي للعرب الذين باتوا ، ولمدة طويلة ، يضربون في الأرض طولا وعرضا ، ويسلبون وينهبون ويخربون ما طاب لهم التخريب عبر آسيا الصغرى . وستحتفظ الجهة بآثار جلية عن ذلك : فما أحدثه فيها الزحف العربي من اضطرابات واختلاطات عرقية جعل تركيبتها الديمغرافية والعرقية والإقتصادية تتغير تغيرا عميقا ؛ من ذلك أنّ جهات كاملة عَرفت فيما مضى الوفرة والرخاء فشا فيها الإملاق والعوز في حين شمل النهوضُ والتطور جهات أخرى نجت من الغزو والتخريب[161]. وسيعطي بلادَ

(159) * بنيت هذه المدينة سنة 799 (183 هـ) ، ومازالت موجودة إلى اليوم .

(160) * هو عبد الملك بن صالح بن عليّ ؛ أنظر ص 138 رقم 82 .

(161) فمدن داخل الأناضول – كأنصير وقيصرية وحمّة أذرولية ونيقيا Ancyre, Césarée,=

الأناضول التنقلُ التلقائي للسكان عبر ربوعها ، أو النقل القسري المفروض عليهم من مكان الى آخر فيها ، مظهرَها المتميزَ بتعدد العناصر واختلاطها والذي لن يقدر على محوه منها انتشارالعشائر التركية بها .

إنّ حروب بيزنطة مع المسلمين وقطع العلاقات مع إيطاليا كانت من الأسباب التي ساعدت على يأس بيزنطة من الطمع في فرض نزعتها الشمولية الكونية . ففي حين كانت الإمبراطورية الرومانية الهلّينية تسلك مع أجوارها سلوكا هجوميا في القرون الأولى التي تلت نشأتها ، فإنها باتت مقتصرة إزاءهم على موقف دفاعي ابتداء من القرن 8ً (2ً للهجرة) ؛ ولا أدلّ على ذلك من الإصلاح الذي أدخِل على جيشها : فالتنظيم الجديد الذي أقِرّ للدّوائرالإدارية العسكرية هو تنظيم دفاعي ، وكلّ شرائح المجتمع مطالبة بالمساهمة فيه ؛ فلم يبق للجيش البيزنطيّ من السطوة ما كان لجيش الفتوحات الأولى ، ولكن ستكون له سطوة أشد عندما تدق – في القرنين 10ً و 11ً (4ً و 5ً للهجرة) – الساعة لتخليص مختلف الجهات التي استولى عليها العرب من "الجبروت الإسلامي".

غضب الخليفة

عام 802 (187 هـ) أطاحت مؤامرة بإيرينة ونودي إمبراطورًا بنقفور وزيرها للمالية ؛ سُجِنت إيرينة بادئ الأمر بدَير پرينْكيپُو ، على ساحل بحر مَرْمَرا ، ثم بلسبوس حيث قضت نحبها في العام الموالي .

أراد نِقفور ، المنحدر من أصل عربي[162]، أن يمحو – في الداخل والخارج – وصمات العار التي لحقت البلاد في عهد الإمبراطورة ؛ ومن أوكد ما كان ينتظره هو النهوض بالدولة والجيش اللذيْن أصابهما وهن عظيم مدة حكمها . فتصعّد الخلاف بينه وبين شارلمان من أجل امتلاك البندقية ومن أجل تلقبه بالإمبراطور، وهو لقب لا يعترف البيزنطيون به لغير عاهلهم من الملوك ؛ ورفَض المقترحات التي جاءه بها سفراء من الفرنجة والتي كان قد يعطيه قبولُها نصيبا من الطمأنينة غربا ، ويريح باله ، ولو لفترة قصيرة من الزمن ؛ ثم إنه أرسل بالخصوص الى هارون الرشيد يعلمه أنه لن يبعث اليه بالجزية التي التزمت إيرينة بدفعها .

= Nicée, Dorylée, – وعدد من المدن الأخرى التي كانت تحميها أسوارها ، سترى عدد سكانها ينمو وأهمية اقتصادها تزداد دون اختلال كبير الى أن يحل العهد العثماني ، في حين أن مدينة كمدينة پريان Priène – على سبيل الذكر – ستزول وتعفو آثارها .

(162) * « والروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسّان ، ... وأنه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج » (الملوك ، 8 ، 307) .

كان المكتوب الذي وجهه نقفور بهذه المناسبة حادّ اللهجة شائن العبارة . قال فيه :
« من نقفور ملك الرّوم إلى هارون ملك العرب ، اما بعد ، فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل امثاله إليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهنّ ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل لديك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك . والاّ فالسيف بيننا وبينك » .

أخطأ نقفورالعنوان في توجيه المكتوب ! فمخاطبة أمير المؤمنين وخليفة الله على الأرض قاطبة بهذه العبارات يمثل أكثر من إشهار للحرب ؛ فهو إقذاع في السباب قد لا يجيزه لنفسه إلا عاهل يتوفر على قوة عسكرية هائلة . فاستفز الغضب الرشيد ، حسب ما رواه الطبري ، « ... حتى لم يمكن أحداً أن ينظر اليه دون أن يخاطبه ؛ وتفرّق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم ؛ واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه » . فدعا بدواة وكتب على ظهر كتاب نقفور :

«بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أميرالمؤمنين الى نقفور كلب الروم ؛

قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

ثم أمر الجيش بالإستعداد .

اجتازت الحدودَ سريتان ، أما الأولى – وكانت بقيادة القاسم الابن الذي أنجبته لهارون أم الولد قَصْف ، إحدى جواريه – فقد سارعت الى كپّادوقيا وحاصرت قُرّة (قُرُّون) مقر إقامة والي المقاطعة . وأما الثانية ، وكان يقودها أحد مواليه ، العباس بن جعفر، فقد ضربت الحصار على سِنان (سناسوس ، الحصن المشيَّد بجهة عرقوب) . وبعد بعض المعارك فكّت كل من السريتين الحصار وانسحبت مقابل إطلاق سراح عدد من الأسارى المسلمين .

خرج هارون بدوره ، على رأس جيشه ، باتجاه الأبواب القيليقية ، قاصدا هِرَقْلة (إرِيچلِي ، شمال شرقي الأبواب) . والراجح أنّ الرشيد لم يستول على هذه المدينة المحصّنة ، وإنما نهب وأحرق جنوده ما حولها ، وأسروا وغنموا الكثير. وإذ لم يكن نقفور يتوقع رد فعل بهذا المقدار من السرعة ، فقد أرسل يعلم أنه يقبل إبرام معاهدة جديدة ودفْع خراج يؤديه كل سنة . فرضي الخليفة وقفل عائدا الى الرقة ، تاركا وراء ه قواده يواصلون الإغارة والغزو عبر بلاد الأناضول . فظفر أحدهم ، وهو ابراهيم بن جبريل ، بحصني الصفصاف وطباسة ، قرب أنصير، وخربهما . فرد نقفور الفعل بأن هجم بنفسه على الجيش العربي في كرازوس من مقاطعة فريجيا . لكنه جُرح وحُوصر ولم ينج إلا بفضل شجاعة أساورة من جيشه . وحسب المؤرخين المسلمين ، فقد خَسِر 50.000 من الرجال ، و 4.000 من الدواب ، وهي أرقام مبالغ فيها . وفي نهاية الأمر، اتفق الطرفان على قبول الموادعة .

لكن نقفور كان أول من نقض العهد وخان الميثاق ، وقد يئس من رجعة الرشيد

إليه. وإذ كان البرد شديدا وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه ، لم يتهيأ لأحد أن يخبر الخليفة بذلك إشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة في تلك الأيام . فاحتيل له بشاعر من أهل خُرَّة يكنى أبا محمّد [عبد الله بن يوسف] ، فأنشد بين يديه :

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُــــورُ ... وَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَــــدُورُ
أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّــــهُ ... غُنْمٌ أَتَاكَ بِهِ الإِلَــهُ كَبِيــــرُ
فَلَقَدْ تَبَاشَرَتِ الرَّعِيَّةُ أَنْ أَتَــى ... بِالنَّقْضِ عَنْهُ وَافِدٌ وَبَشِيــــرُ
وَرَجَتْ يَمِينَكَ أَنْ تُعَجِّلَ غَــزْوَةً ... تَشْفِي النُّفُوسَ مَكَانُهَا مَذْكُورُ
. . . .
نِقْفُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ إِذْ نَــأَى ... عَنْكَ الإِمَامُ لَجَاهِلٌ مَغْــرُورُ
. . . .
لَيْسَ الإِمَامُ وَإِنْ غَفَلْنَا غَافِــلاً ... عَماً يَسُوسُ بِحَزْمِهِ وَيُدِيــرُ
. . . .
لاَ نُصْحَ يَنْفَعُ مَنْ يَغُشُّ إِمَامَهُ ... وَالنُّصْحُ مِنْ نُصَائِحِهِ مَشْكُورُ

[من الكامل]

دون تردد ، ورغم قساوة البرد ، قررالخليفة شن الحرب . ليس لنا عن حملته هذه رواية مفصلة ، لكن المؤرخين العرب يذكرون أن المقاتلين وجدوا فيها « أشد محنة وأغلظ كلفة ». فإلى أي حد وصلت الجيوش العباسية ؟ الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أنّ النصر كان حليفها وأن نقفور تعهد من جديد بدفع الجزية ؛ فها هوذا أبو العتاهية يعلمنا بذلك في بيت من قصيدة قالها بالمناسبة :

تَحَلَّبَتِ الدُّنْيَا لِهَارُونَ بِالرِّضَا ... فَأَصْبَحَ نِقْفُورٌ لِهَارُونَ ذِمِّيَّا

[من الطويل]

فلم يبرح الرشيد حتى رضي وبلغ ما أراد .

إلاّ أنّ الحرب كانت شديدة على جميع المقاتلين . فلئن فاز الرشيد على أعدائه ، فلقد ترك ، هو أيضا ، خلْفه بالأناضول ، أمواتا وأسرى ؛ لكن عددهم مجهول ، على أنه كان من الأهمية بحيث ذكر المؤرخون العرب ما كان من تفاد للأسارى الذين « شُيِّدت لهم سجون عالية الجدران » . فالحملات التي تُشَن على الهضبة الأناضولية ، حيث يشتد البرد وتتكدّس الثلوج ، كانت تتمّ في ظروف دائمة القساوة ، وتترك كل مرة عددا – وأحيانا عددا كبيرا – من الأسرى بين أيدي العدوّ .

مهما كانت الهزائم التي يتكبدها نقفور في كل وقعة تلتقي فيها جيوشه بجيوش الخليفة ، ورغم ما كان يعترضه في الداخل من مصاعب ، فإنه لم يعترف قطّ بالغلبة لعدوه . فهل كان يعتبر أن حل مشاكله الداخلية رهين انتصاراته على المسلمين ؟ أم هل كان

يخشى أن يشن الخليفة العباسي – وهو إذاك في ذروة عزته – حملة كبيرة ، بل وحاسمة هذه المرة – على القسطنطينية ؟ مهما يكن من حال فإنّ أمر الرشيد بمزيد العناية[163] ببناء السفن أحدث انزعاجا عظيما في نفس القيصر وهو الذي يعلم حق العلم ما في الإغارة على عاصمته برا وبحرا من تهديد لعرشه [164] . فالإمبراطورية العباسية التي تتوفر على ثروات طائلة كانت قادرة ، لمدة طويلة ، على تجنيد وتسليح ما تحتاجه من الرجال لمجالدة الكفار؛ وباستطاعة هارون ، انطلاقا من الحصون التي ابتناها على الحدود ، أن يرسل متى أراد – وحداته عبرالأناضول تغزو ما شاء لها الغزو ، وتؤوب لتحتمي باستحكامات العواصم . فالغالب على الظن أن رغبة شديدة كانت تحدوه – وهو العاهل العظيم المتصرف في حظوظ الكون – ليرفع مجدَ بني العباس الى ذروته بالإستيلاء على أشد مدن الدنيا إثارة للأطماع ؛ ومما لاشك فيه أن نقفور كان على بينة من الخطر المحدق به . إذن لِمَ كلّ تلك الغارات التي كان يشنها ؟ ولِمَ هذا الإلحاح في مطاردة جيوش العباسيين ، والحال أنّ جيشه لم يكن في حالة يحسد عليها ؟ فلا سبيل الى تفسير كل ذلك إلاّ بما يلي : إن نقفور كان يريد أن يقتنع العرب أنّ محاولاتِ الغزو عبر بلاد كبلاد الأناضول قساوة ووعورة مجازفاتٌ مُحْتمَلة التبعات ، وأن مقاتليه – المجندين على عين المكان من بين السكان – قادرون على تكبيدهم أمرّ الخسائر ؛ باختصار كانت غايته أن يُثني عزيمة الخليفة عن شن حملة واسعة النطاق باتجاه الغرب والشمال ، أو أن يسعى على الأقل الى حمله على تأخيرها.

لاشك في أن حسابات القيصر لم تكن خاطئة . لكن ما كان يخشى وقوعه لن يحدث ، على الأقل في هذه المدة . فما خلّفه بخراسان سوء تصرف الوالي علي بن عيسى شغل الرشيد عن التفكير في أخذ طريق بحر مرمرا[165] ومضيق البوسفور. فأوقف حملاته على آسيا الصغرى وخرج الى الجهات الشرقية من المملكة ، لكنه لم يسوِّ فيها أي مشكل . وسيغتنم نقفور هذا التوقف للمعارك ليصلح في القلاع والحصون ما خربه العرب أثناء غاراتهم السابقة .

الرشيد غازيا

في شهر ماي (أيار) 806 (191 هـ) خرج الخليفة غازيا من جديد ؛ وكانت هذه المرة

(163) ستبرز نتائج ذلك عام 806 (191 هـ) عندما يشن العرب غارتهم الصاعقة على قبرص .

(164) كان أغالبة القيروان قد شنوا سنة 805 (190 هـ) حملات على البيلوبونيز إعضادا للصقالبة الذين يحاصرون بطراس .

(165) * بحر مرمرا la Propontide .

حملة تامة العدّة وكاملة الإستعداد للحرب . فقد جُنِّد لها 135.000 مقاتل نظامي ، انتُدِب بعضهم من بين جند " الأبناء " وجند " العباسية " ، وجُلِب البعض الآخر من الأمصار والنواحي ، وضُمّ اليهم مقاتلة من المتطوعة وغير النظاميين[166]. فهل كان هارون يبتغي جلب أكثر ما يمكن من وحدات العدو للقضاء عليها ؟ أم هل كان ينوي غزو الأناضول لتخريبها وإقفارها بعد الإفاءة والغنيمة منها .

اجتمعت وحدات الجيش حول حصون العواصم ثم اجتازت الحدود يوم 11 جوان (حزيران) 806 (لعشر بقين من رجب 190 هـ)، حسب نظامها العادي ، وهو نظامها نفسه في المعسكر وفي المعركة . فوراء المقدمة تأتي الميمنة ويليها القلب ثم الميسرة وتليها المؤخرة . وتُبَثّ الطلائع فتراقب البلاد وتستكشف كل تحرك مريب وتُبَلِّغ عنه . يُختار مسبقا للمعسكر مكان يُضمن فيه الأمن والتموين ، وعندما يصل الجيش ليُخيِّم تكون الطلائع قد اتخذت الإحتياطات اللازمة . ومن الغد يُستأنف السير نحو مُخيم جديد ، يُختار موقعه بنفس الطريقة ، الى أن يصل الجيش الى مكان القتال . وفي حدود الإمكان ، يُضبط هذا المكان قبل بدء المعارك ، مع مراعاة خصائصه وموقعه من مجاري المياه وأشعة الشمس حتى لا تضايق المحاربين أثناء القتال (وكثيرا ما كان يُستعان بمُنجِّم ، وهو شخص دائم الحضور في حاشية الخليفة) .

كل وحدة كبيرة – كل جيش " خميس " – موضوع تحت امرأة ضابط سام يتلقى بدوره أوامره من القائد الأعلى– "الأمير" – الذي يسميه الخليفة والذي له حق التصرف المطلق في جيوشه ؛ أما الوحدات الصغيرة ، من 10 الى 100 رجل ، فقد كانت تحت امرة الضباط الذين يقودونها . وأما الخميس ، فقد كان لقائده ما لقائد جيش كبير معاصر اليوم من حرية البادرة الإحترابية على ساحة الوغى ، لكن طبعا بشرط أن يقرأ حسابا للمخطط العام للقائد الأعلى . وفي بعض المعارك ، يتقدم الجيش للقتال صفا واحدا متواصلا، وفي معارك أخرى يتقدم وحدات صغيرة متفرقة، تقاتل كل واحدة بمعزل عن الأخرى.

في الصفوف الأولى الرُماةُ والقذّافة بأسلحتهم المختلفة الأشكال والأحجام . فالقوس – وقد استُعملت منذ العهود الغابرة من العصر العتيق ، في الحرب والصيد ، وخاصة من قبَل الإيرانيين – ظلت زمنا طويلا سلاح المشاة من المقاتلين ، ثم أصبحت سلاح الخيّالة ، بتأثير من شعوب السباسب [الآسيوية] . فرمْي النشاب عن الأقواس ، والفارس راكب ، كانت من المهارات التي اختص بها الأتراك وفازوا بها على غيرهم فوزا لا جدال فيه ؛ ثم

(166) * في رواية الطبري (الملوك ، 8 ، ص 320) : « بث [الرشيد] الجيوش والسرايا بأرض الروم ، وكان دخَلَها ، فيما قيل ، في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، سوى الأتباع وسوى المتطوعة ، وسوى من لا ديوان له » .

انتشرت بين الإيرانيين وانتقلت بعد ذلك الى العرب الذين لم يكتسبوا قط فراهة كاملة في استعمالها . أما المقذف فقد ظهر منذ بداية القرن 9(3 للهجرة) ؛ على أنهم تمادوا في الرمي بالنشاب من القصب والأنابيب ، وفي القذف بالبُندُق من البَراقيل ، وبالصخر الثقيل من المجانق لفتح الثلمات في الأسوار على مسافات تبلغ أحيانا 300 متر، وهذه الأسلحة وتلك تعتمد التفتيل أو التوتير. والأقواس والمقاذف التي بأيدي المشاة هي طبعا من الأسلحة الخفيفة التي يرمي بها المقاتل الواحد .

وفي الصف الثاني مشاةٌ آخرون بأيديهم الرماح والسيوف المصنوعة من الصلب والمعروفة بالدمشقية ، ومتدرقون بأتراس صغيرة تكون في الأغلب من الخشب أو الجلد.

وراء المشاة الخيّالةُ وبأيديهم المرازق الطويلة أو الحراب القصيرة أو السيوف [المقوّسة] ؛ وفيما بعد ، تحت تأثير الأتراك ، تنضاف اليها القِسِيّ التي يُرمى منها العدوّ بالسهام الصغيرة لإحباط عزيمته إذ هي – كما يقول الأخباريون – « بلسعها تؤثّر تأثيرَ سحابة بَرَد أو فرْق نحل » . ويَقِي الحصانَ وفارسَه شَكّاتٌ خفيفه وزُرُود ودُروع من صفائح الصلْب ، وجميعها أقلّ وقراً بكثير مما ستكون عليه الشكّات الغربية . ويستعمل المقاتلون أيضا الهراوة والحسام [المستقيم] ، الخ . وسيتغير وزن تلك الأسلحة وشكلها ونفاذيتها، ولكنها لن تتغير تغيرا أساسيا قبل الحروب الصليبية والزحف المغولي ؛ ويبقى سلاح المشارقة عموما سلاحا خفيفا .

دورالفرسان في المعارك دور حاسم ، وسيظل هكذا الى أن تظهر فيها الأسلحة النارية . فالرُّماة والمُشاة هم أول من يشنّ الهجوم على العدوّ برميه وقذفه مرة فثانية فثالثة الى أن يحصل الانخرام ثم التشتت في صفوفه الأمامية ؛ وتظلّ في الأثناء وحدات أخرى فى حالة تأهب لردّ غارة مفاجئة من العدوّ وتفريق مقاتليها . ثم يتدخل الفرسان وتكون الغاية من تدخلهم الوصول الى الخيالة من الجبهة المقابلة ، وإدخال الفوضى في صفوفهم ، وجلبهم الى ملاحقتهم ليتمكنوا من الإنتكاص والكرّ عليهم ؛ وهذه الطريقة الإحترابية ، المُستوحاة من طرائق الأتراك ، كانت عظيمة النجاعة ضد البيزنطيين الذين كانوا تقريبا عاجزين عن عدم الوقوع في فخّها .

وحدات الجيش المختلفة مطالبة بالتقليل من القتل وبتأسير أكبر عدد من رجال العدوّ لتسريحهم فيما بعد مقابل فدية تُقبض نقدا أو عينا ، أو لمفاداتهم بمن وقع في أسر العدوّ من المسلمين . والنهب هوالقاعدة في الحرب ، بل هوالمحرك الوحيد للمقاتلين في الجيش ؛ فكل واحد من هؤلاء المقاتلين ، في خضمّ المعركة ، يحاول أن يظفر بكل ما يجده في سبيله من نفائس ، وأن يسبي ، بالخصوص ، ما أمكن من الفتيان والفتيات لبيعهم رقيقا بعد انتهاء الحرب ؛ فالمذابح نادرة ، اللهم إن كانت للعدوّ نيّة واضحة في التّقتيل ؛ فإن كان الأمر كذلك ، جرى القتال بلا شفقة ولا رحمة . وللأمير، مبدئيا ، خمس الغنائم ،

لكن الرقابة عسيرة ، وكل مقاتل يغنم ويسبي ما أمكنه الأمر. فالمسلمون والمسيحيون يغيرون ولا همّ لهم سوى إصابة الغنائم وتكديسها ، وتزكـّيها، لدى الجنود النظاميين ، الأرزاق والرواتب[167] . والمغيرون من الرُحَّل يُتلفون كل ما لا يستطيعون أخذه معهم ؛ أما الجيوش النظامية ،وغايتها إضعاف العدو، فانها تأتي على المحصولات الزراعية والأنعام ، لكنها تمتنع عن تخريب المغروسات وأشغال الريّ .

فيما عدا حالات استثنائية ، لا تدوم الحرب إلا زمنا قليلا : فصلا ، وأحيانا فصلين . والصعوبة تتمثل في وجوب توفير الميرة ، وخاصة في فصل الشتاء الطويل الذي يشتد فيه البرد ويقسو فوق الهضاب الآسيوية . فلا يطيق المقاتلون البقاء بعيدين عن بيوتهم أكثر من بضعة أشهر. ثم إنّ عليهم العودة بالغنائم ، وهي حمل ثقيل لا يمكن طبعا لصاحبه أن يتجول به طويلا . فالجيش ينسحب بعد الفوز على العدوّ أو إبرام الهدنة معه ، في مقابل دفعه غرامة يقدمها نقدا أوعينا (فإيرينة مثلا دفعت غرامتها صوفا) ، وقلما كانت جيوش الخليفة تخرج من الحروب غير منتصرة . فما يقع إعلانه دائما هو أنها هي الظافرة ، وتُنظَّم إذّاك احتفالات للإشادة بالحدث ، خاصة عندما يكون الخليفة هو الذي قادها بنفسه . فتُوزَّع الأعطيات ، وتضاء شوارع بغداد ، ويُدعى السكان الى إقامة مراسم البهجة والسرور .

محاصرة هرقلة وفتحها

كان البيزنطيون يتوقعون اندلاع حرب جديدة ، لأنهم كانوا – حين أدرب الجيش العربي ودخل أرض الروم – قد بادروا بشن الغارات على عين زربة ومواقع مجاورة لها (805-806/190-191 هـ) . وبينما كان الرشيد سائرا نحو الطُّوانة حيث عسكر، كان أحد قواده ، وهو عبد الله بن مالك ، محاصرًا لذي الكِلاع (بين الطوانة وقيصرية) في حين كان قائد آخر ، وهو داود بن عيسى ، مغيرا عبر أرض الروم ، في سبعين ألفا ، يخربها ويقضي على كل ما يعترضه فيها من قوات للعدوّ ؛ واستولت وحدات أخرى [بقيادة شراحيل بن معن بن زائدة] على حصن الصقالبة (اليوم أنسه قلسي) ودَبْسَة [وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف وملَقوبية] . واتضح جليا أن نية الرشيد كانت " تمشيط " كل الجهة الفاصلة بين العواصم وكپّادوقيا .

على أن الخليفة كان مترددا . فالمسعودي يروي أن الرشيد لما كان متجها نحو

---

(167) الجندي من المشاة يتقاضى راتبا مرتفعا بالمقارنة مع غيره (فراتبه يساوي ضعفين أو ثلاثة أضعاف أجر عامل ببغداد) والفارس يتقاضى ثلاثة أضعاف رواتبه.أنظرك. كاهين C. Cahen.

الشمال ، في طريقه الى قونية وحمة أذرولية ، أراد النزول على حصن هرقلة ، وكان معه أهل الثغور، وفيهما شيخا الثغورالشامية مخلد بن الحسين وأبو إسحـــاق الفزاري(168) صاحب كتاب السيَر. فخلا الرشيد بمخلد بن الحسين ، فقال : « أيّ شيء تقول في نزولنا على هذا الحصن ؟ » - فقال : « هذا أول حصن لقيتَ من حصون الروم ، وهو في نهاية المناعة والقوة ؛ فإن نزلت عليه وسهّل الله فتحه لم يتعذر عليك فتح حصن بعده » ؛ فأمره بالإنصراف ، ودعا بأبي اسحاق الفزاري وقال له مثل ما قال لمخلد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا حصن بنته الروم في نحر الدروب ، وجعلته لها ثغرا من الثغور ، وليس بالآهل ؛ فإن أنت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم ، وإن تعذّر فتحه كان ذلك نقصا في التدبير ، والرأي عندي أن يسير أمير المؤمنين الى مدينة عظيمة من مدن الروم؛ فإن فُتحت عمت غنائمها المسلمين ، وإن تعذّر ذلك قام العذر» .

ومال الرشيد الى رأي مخلد ؛ فقد كان يظن أن هرقلة لن تصمد طويلا أمام ما كان لديه من عتاد جبار؛ لكن عكس ما توقّع هو الذي حدث ، وكلّف الحصارُ العربَ عناء شديدا . فليس لدينا وصف مدقق للإستحكامات التي كانت تحمي هرقلة ؛ لكننا نعلم أن بابها مُطلّ على واد وأن خندقا يُطيف بها من جميع الجهات ، وكل الدلائل تشير الى أنها مُحَصَّنة تحصينا . ومما لا شك فيه أن جيش الرشيد يمتلك كل ما كان يُعرَف وقتئذ من وسائل تقنية هجومية قادرة على الظفر بمدينة منيعة : من أجهزة للحصار، وآليات ، وأكباش ضخمة ، وحجارة ، وقذائف ، وكميات وفيرة من النفط (لإشعال النار الإغريقية والرّمي بها) وسلاليم طويلة لارتقاء الأسوار. إذن « نزل الرشيد على هرقلة ، ونصب الحرب حولها تسعة عشر يوما»، لكن لم تُفتح في سورها أيّ ثغرة ، وبان بوضوح أنها حصن حصين وأنها أشد المدن مناعة ، « وأُصيب خلق كثير من المسلمين ، وفنيت الأزواد والعلوفات ، وضاق صدر الرشيد من ذلك ؛ فأحضرأبا إسحاق الفزاري ، فقال : يا إبراهيم ، قد ترى ما نزل بالمسلمين ، فما الرأي الآن عندك ؟ - فقال : يا أميرالمؤمنين ، قد كنتُ أشفقتُ من هذا ، وقدمت القول فيه ، ورأيت أن يكون الجدّ والحرب من المسلمين على غير هذا الحصن ، وأما الآن فلا سبيل الى الرّحيل عنه من بعد المباشرة ، فيكون ذلك نقصا في الملك ، ووهنا في الدّين ، وإطماعا لغيره من الحصون في الإمتناع عن المسلمين ، والمصابرة لهم ؛ ولكنّ الرأي يا أميرالمؤمنين أن تأمر بالنداء في الجيش أن أمير المؤمنين

---

(168) * ابراهيم بن محمد الفزاري (... - نحو 804 /... - نحو 189 هـ) : أبو اسحاق ، من كبار العلماء . ولد في الكوفة وقدم دمشق وحدث بها ، وهو من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه ؛ هو الذي أدّب أهل الثغر (بيروت وأطرافها) وعلّمهم السنّة . ورحل الى بغداد فأكرمه الرشيد وقربه وأجلّه؛ثم عاش مرابطا بثغر المصيصة ومات بها . له كتب منها:كتاب السيَر في الأخبار والأحداث.

مقيم على هذا الحصن الى أن يفتحه الله للسلمين ، وتأمر بقطع الخشب وجمع الأحجار وبناء مدينة بإزاء هذا الحصن الى أن يفتحه الله عزّ وجلّ[169]» .

أخذ هارون بهذا الرأي ، وأمر بالشروع في أعمال البناء لكي يوهم المحاصَرين – وكذلك رجال جيشه – بأنه ممدِّد في الإقامة ما اقتضاه منه الحصار؛ وحينئذ جرت إحدى تلك المبارزات التي يتصارع فيها بَطَلان والتي كثيرا ما كانت تقع أثناء العصرين العتيق والوسيط . يروي المسعودي : «... [أنّ أهل هرقلة لما اشتد بهم الحصار، وعضّتهم الحرب بالحجارة والسهام والنار] فتحوا الباب فاستشرف المسلمون لذلك ؛ فإذا رجل من أهلها كأجمل الرجال قد خرج في أكملِ السلاح ، فنادى : يامعشر العرب ، قد طالت مواقفتكم إيانا ، فليخرج اليّ منكم الرجل والعشرة الى العشرين مبارزة . فلم يخرج اليه من الناس أحد ، ينتظرون إذنَ الرشيد ، وكان الرشيد نائما . فلما استيقظ أُخبِر بذلك ، فتأسّف ولام خدمه على تركهم إيقاظَه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إن امتناع الناس منه اليوم يُطمِعه ويُطغيه ويُجرئُه أن يخرج في غد فيطلب المبارزة ويعود لمثل قوله . فطالت على الرشيد ليلته، وأصبح كالمنتظر له ، إذ فُتح الباب ، فإذا الفارس قد خرج ، وعاد الى كلامه . فقال الرشيد : من له ؟ فابتدره جلّة القواد ، فعزم على إخراج بعضهم ، فضجّ أهل الثغور والمتطوعة بباب المضرب ، فأذن لبعضهم ، وفي مجلسه مخلد بن الحسين وإبراهيم الفزاري ، فدخلوا فقالوا : يا أمير المؤمنين ، قوادك مشهورون بالبأس والنجدة ، وعلو الصيت ومباشرة الحرب ، ومتى خرج واحد ومنهم وقتل هذا العلج لم يكبر ذلك وإن قتله العلج كانت وصمة على العسكر عظيمة ، وثلمة لا تنسد ، ونحن عامةٌ لا يرتفع لأحد منا صيت ؛ فإن رأى أميرالمؤمنين أن يختار رجلا منا يخرج اليه فَعَل . فصوّب الرشيد رأيهم... فأومؤوا الى رجل منهم يعرف بابن الجزري مشهور في الثغور وموصوف بالنجدة . فقال له الرشيد : أتخرج اليه ؟ قال : نعم ، وأستعين بالله عليه ، فقال : أعطوه فرسا وسيفا ورمحا وترسا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا بفرسي أوثق ، ورمحي في يدي أشد ، ولكن قد قبلت السيف والترس . فلبس السلاح ، واستدناه الرشيد فودعه وأتبعه بالدعاء ، وخرج معه عشرون من المتطوعة . فلما انقضّ في الوادي قال لهم العلج وهو يعدّهم واحدا واحدا : إنما كان الشرط عشرين ، وقد ازددتم رجلا، ولكن لا بأس ؛ فنادوه : ليس يخرج لك منا إلا رجل واحد . فلما فصل منهم ابن الجزري تأمله العلج ، وقد أشرف أكثرالروم من الحصن يتأملون صاحبهم ؛ فقال له الرومي : أتصدقني عما أسألك عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنت ابن الجزري بالله ؟ قال : اللهم نعم ، فكفء لك ، قال : بل كفء . ثم أخذا في شأنهما ، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما وكاد الفَرَسانِ أن يقوما تحتهما ، وليس واحد منهما

(169) * مروج ، 1 ، 340-341 .

خدش صاحبه ، ثم رميا برمحيهما هذا نحو أصحابه وهذا نحو حصنه ، وانتضيا سيوفهما وقد اشتد الحر عليهما وتبلّد جواداهما ؛ فجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربة التي يُظن أنه قد بالغ فيها فيتقيها الرومي ، وكانت درقته حديدا ، فيسمع لها صوت منكر، ويضربه الرومي فيغوص سيفه لأن ترس ابن الجزري كان درقة تبتية[170] ، وكان العلج يخاف أن يغوص السيف فيُعطب . فلما يئس كل منهما من صاحبه انهزم ابن الجزري . فداخلت الرشيد والمسلمين من ذلك كآبة لم يصبهم مثلها ، وعطعط[171] المشركون من حصنهم ، وإنما كانت حيلة من ابن الجزري ، فاتبعه العلج وعلا عليه ، فلما تمكن منه ابن الجزري رماه بوهق[172] فاختطفه من سرجه ، ثم عطف عليه ، فما وصل جسده الى الأرض حتى فارقه رأسه ، فكبّر المسلمون ، وانكسر المشركون ، وبادروا الى الباب ليغلقوه[173]».

حين اتصل الخبر بالرشيد « صاح بالقواد : اجعلوا النار في المجانيق وارموها ، فليس عند القوم دفع بعدها ؛ ففعلوا وجعلوا الكَتَّان والنفط على الحجارة وأضرموا فيها النار ورموا بها السور، فكانت النار تلصق به ، فيتصدع وتتهافت منه الحجارة ؛ فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الباب مستأمنين ومستقيلين[174] » .

فوصف ابن جامع[175] اضطرام النيران بالمدينة في بيتين على قدر كبير من روعة التصوير وذلك حين قال :

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لَمَّا أَنْ رَأَتْ عَجَبًا   حَوَائِمًا تَرْتَمِي بِالنَّفْطِ وَالنَّارِ
كَأَنَّ نِيرَانَنَا فِي جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ   مُصَبَّغَاتٌ عَلَى أَرْسَانِ قَصَّارِ

[من البسيط]

تعهّد نقفور [يعفور في مروج الذهب] – وكان مهددا من البلغار– بألا يعمّر هرقلة وألا يخرّب حصون ذي الكلاع وصَمَلُه وحصن سنان ، وأرسل 50.000 دينارا يفتدي بها مَن سُبِي مِن السكان ؛ وإذ كان شبه هذه الشؤون لا يخلو من جوانب عاطفية فإن الرشيد

(170) * الدرقة في الأصل هي الترس من جلد ، ليس فيه خشب ولا عقب ؛ والدرقة التبّتية هي المنسوبة الى التبّت التي اشتهرت بصنعها .

(171) * العطعطة : تتابع الأصوات واختلاطها في الحروب .

(172) * الوهق : الحبل في أحد طرفيه أُنشوطة يُطرح في عنق الإنسان أو الحيوان حتى يؤخذ .

(173) * مروج ، 1 ، 342-344 .

(174) عن أبي الفرج ، رواه ميرسييه Mercier في كتابه · النار الإغريقية Le Feu grégeois [الأغاني ، 18 ، 244] .

(175) * والحقيقة أن أبا الفرج (الأغاني ، 18 ، 245) ينسب البيتين للشاعر المكـّي الذي كان ينزل جُدّة ؛ ودور ابن جامع اقتصر على صنع لحن في البيتين غناه بين يدي الرشيد – (في مروج الذهب البيتان منسوبان لأبي نواس) .

أُعلِم بأنّ بطريقين من عظماء بطارقة الروم قد أوفدهما نقفور لمقابلته . فقد جاءا لتسليمه كتابا في جارية من سبي هرقلة نسخته : « لعبد الله هارون أميرالمؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليكم ، أما بعد ، أيها الملك ، فإنّ لي إليك حاجة لاتضرك في دينك ولادنياك، هينة يسيرة ؛ أن تهب لي جارية من بنات أهل هرقلة كنت خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . واستهداه أيضا طيبا وسرادقا من سُرادقاته ؛ فأمرالرشيد بطلب الجارية وكانت ذات حسن وجمال ، فزايد فيها صاحبُ الرشيد في المغنم ، وبالغ فيها حتى اشتراها له. فأحضرت وزُينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه ؛وسُلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور، وبعث اليه بما سأل من العطر، وبعث اليه من التمور والأخبصة(176) والزبيب والترياق . فسلّم ذلك كله اليه رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقردراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه 50.000 درهم ، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيُون (177) ، واثني عشر بازيا ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين . وفي خبر أن الجارية بلغت من قلب الرشيد مبلغا ، فبنى لها نحو الرافقة بأميال على طريق بالس حصنا سماه هرَقْلة على الفرات ، يحاكي به حصن هرقلة ببلاد الروم .

اشاد الناس بفتح هرقلة إشادتهم بالحدث العظيم : فبما أنه تعذرالظفر بمدينة كبيرة ، اقتُصر على الإحتفاء بالظفر بمدينة صغيرة . أما البيزنطيون فكادوا لا يكترثون للحدث ، وكان الأمر يختلف تماما لو أن العرب استولوا مثلا على أنصير (أنقرة) أو حمة أذرولية . نُظمت إذن ببغداد حفلات عظيمة تكريما لعودة الجيش منتصرا وجمعت بالرقة مساجلات شعرية بين كبار الشعراء ؛ فقد قال أبو الهتاهية بالمناسبة :

أَلاَ نَادَتْ هِرَقْلَةُ بِالْخَرَابِ	مِنَ الْمَلِكِ الْمُوَفَّقِ لِلصَّوَابِ
غَدَا هَارُونُ يُرْعِدُ بِالْمَنَايَا	وَيُبْرِقُ بِالْمُذَكَّرَةِ الْعِضَابِ
وَرَايَاتٍ يَحُلُّ النَّصْرُ فِيهَا	تَمُرُّ كَأَنَّهَا مَرُّ السَّحَابِ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَفَرْتَ فَاسْلَمْ	وَأَبْشِرْ بِالْغَنِيمَةِ وَالإِيَابِ

[من الوافـر]

كانت الروم قد وعدت بألا تعيد بناء الحصون الواقعة فيما يلي طوروس والتي خُربت أثناء الحملة السابقة . لكن ، ما ان اجتاز العرب الحدود في طريقهم الى العودة ،

(176) * ج . خبيص ، وهو ضرب من الحلواء المُخبّصة أي المخلطة والمشبكة .

(177) * البُزيون . ضرب من نسيج البزّ أو من رقيق الدّيباج ، والكلمة مركبة من « بز » و « يون » أي يشبه البزّ ، وهي من الدخيل ، فارسية الأصل .

حتى أمر نقفور بترميمها وتعميرها . وفي أوائل 807 (192 هـ) أمر الرشيد بإعداد العدة لحملة جديدة ، وبعد أشهر أدرب من جديد نحو الحدود وأناخ على الحدث .

لكنه لم يتوغل أكثر من ذلك في أرض الروم ؛ وإذ كان نقفور يجدد الغارات أرسل الرشيد هرثمة في 30.000 رجل لمطاردته ، ثم أمر بترميم الثغور قصد تعزيز الدفاع عن كامل الحدود ، وقفل راجعا الى الرقة ، مؤجّلا الى وقت لاحق الحملة الكبرى التي ينوي شنها .

ومرة أخرى ظلت خراسان تشغل بال هارون .

الفصـــــل الســادس

الوفـــاة بخُراســـان

" قُل اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَــاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ".

(قرآن كريم ، سورة آل عمران ، 3 ، 26)

إن الرحلة التي قام بها هارون الى خراسان عام 805 (190 هـ) لم تغيّر الوضع قليلا ولا كثيرا ؛ فعليّ بن عيسى لم يضع حدًّا لابتزازاته ، وغضبُ السكان ما فتئ في تزايد مستمر ؛ ثم إن ثورة جديدة اندلعت ، أكثر خطورة هذه المرة ، لأنها أبرزت على مسرح الأحداث رافع بن الليث(1) الرجل الذي كان لبيته حظوة وسطوة أيام بني أمية والذي سرعان ما جمع حوله العديد من الناقمين .

فأسباب هذه الثورة لا تخلو من طرافة ؛ قال عنها الطبري : « ...انّ يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج ابنةً لعمِّه النُّعمان ، وكانت ذاتَ يسار ، فأقام بمدينة السلام ، وتركها بسَمَرْقَنْد ؛ فلما طال مقامه بها ، وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمست سببا للتخلص منه ، فعيَّ عليها ؛ وبلغ رافعا خبرُها ، فطمع فيها وفي مالها ، فدسّ اليها من قال لها : إنه لا سبيل لها إلى التخلّص من صاحبها ، إلا أن تشرك بالله وتُحْضِر لذلك قوما عدولا ، وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحلّ للأزواج ؛ ففعلت ذلك وتزوّجها رافع . وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث ، فرفع ذلك الى الرشيد ، فكتب الى عليّ بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقبَ رافعا ، ويجلدَه الحدَّ ، ويقيّدَه ، ويطوفَ به في مدينة سمرقند مقيَّدا على حمار، حتى يكون عِظة لغيره . فدرأ سليمان بن حميد الأزدي عنه الحدّ ، وحمله على حمار مقيدا حتى طلقها ؛ ثم حبسه في سجن سمرقند ، فهرب من الحبس ليلا من عند حميد بن المسيح – وهو يومئذ على شُرَط سمرقند – فلحق بعليّ بن عيسى ببَلْخ ، فطلب الأمان ، فلم يُجبه عليّ اليه ، وهمّ بضرب عنقه ؛ فكلمه فيه ابنه عيسى بن علي . وجدّد طلاق المرأة ، وأذن له في الإنصراف الى سمرقند ، فانصرف اليها ، فوثب بسليمان بن حميد ، عامل عليّ بن عيسى ، فقتله . فوجّه عليّ بن عيسى اليه ابنه ،

---

(1) * رافع بن الليث بن نصر بن سيّار (... – 811 / ... – 196 هـ) : ثائر ، من بيت إمارة ورياسة؛ كان مقيما فيما وراء النهر، بسَمَرْقَنْد، وناب فيها أيام الرشيد العباسي ؛ وعُزِل وحُبِس بسبب امرأة ، وهرب من الحبس ، فقَتَل العامل على سمرقند واستولى عليها (191/806 هـ) ، وخلع طاعة الرشيد، ودعا لنفسه . وسار اليه نائب خراسان عليّ بن عيسى ، فظفر رافع . وتوجّه اليه الرشيد (193/808 هـ)، وانتدب لقتاله هرثمة نائب العراق ، فانهزم رافع (194/809 هـ) وضعف أمره . واختلف المؤرخون في مصيره ، والأرجح أنّ مقتله كان على يد هرثمة بعد الحصار الذي ضربه على سمرقند بأمر من المأمون .

فمال الناس الى سبّاع بن مسعدة ، فرأّسوه عليهم ، فوثب على رافع فقيده ، فوثبوا على سباع فقيدوه ورأسوا رافعا وبايعوه ، وطابقه مَن وراءَ النهر ؛ ووافاه عيسى بن عليّ ، فلقيه رافع فهزمه ، فأخذ عليّ بن عيسى في فَرْض الرجال و التأهّب للحرب[2] » .

لم تكن التّهمة بالزنا التي رَمى بها عليٌّ رافعًا إلا تعلة لإبعاد هذا الرجل الذي كان له ، بصفته حفيدا لآخر وُلاة بني أمية ، تأثيرٌ قويّ في الجهة ؛ واجتمع حول رافع عدد كبير من الأهالي وقد ضاقوا ذرعا بما كانوا يلقونه من عسف عليّ ؛ واجتمع حوله أيضا رؤساء القبائل في بلاد الصُّغد وطخارستان وما وراء النهر؛ فوجّه اليه عليّ جيشا بقيادة ابنه عيسى ، فقُتِل عيسى وانهزم الجيش وتفرقت أفلاله ؛ فخرج اليه عليّ بنفسه فهُزِم بدوره وفرّ الى مَرْو ؛ لكن سُكان بَلخ ثاروا أيضا وقتلوا نائب الوالي وصار الوضع على جانب كبير من الخطورة ؛ واشتعلت نار الفتنة في الجناح الشرقي من المملكة ، وبات على قاب قوسين من الإنفصال عنها ، فاستنجد عليّ بالخليفة الذي اقتنع هذه المرة بأن واليه عاجز وأن تعويضه بات متأكّدًا ؛ إلا أن عليّا كان يتوفّر على وسائل مادية ذات بال ، وقد ينجر ما لا تحمد عقباه عن مجاهرته بالعزل مجاهرة فظّة وعن بُعْد .

فهرثمة – رجل النجدة أيام الشدائد – هو الذي كُلِّف بازاحة علّي عن منصبه ، وإبلاغه كتابا من الرشيد جاء فيه : « ... يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوّهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عَقِبَك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خَوَلَك وأتباعك ؛ فكان جزائي أن خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتى عِثت في الأرض ، وظلمت الرعيّة ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك ؛ وقد وليتُ هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان ، وأمرتُه أن يشدّ وطأته عليك وعلى وُلْدِك وكُتّابك وعُمّالك ، ولايترك وراء ظهوركم درهما ولا حقّا لمسلم ولا مُعاهَد إلا أخذكم به ، حتى تردّوه الى أهله ... » . خرج هرثمة إذن الى مرو على رأس 20.000 رجل ، وحال وصوله ذهب الى القصر، وما ان انتهى من تناول طعام القدوم حتى سلّم عليّا كتابَ الرشيد ، ثم ألقى عليه القبض وأرغمه على إرجاع الأموال المغتصَبة الى أصحابها ووجهه الى بغداد .

إنّ إلقاء القبض على عليّ قد خلّص خراسان من وال فاسد ، لكنه لم يضع حدا للفتنة ؛ فقد عمت الثورة البلاد من أذربيجان الى فرغانة ، وكان تعدّد الأماكن التي التهمتها نيرانُها يبيّن الى أي حدّ كان اعتناق أهالي خراسان للإسلام سطحيا وهشّا ويترجم عن مدى تعلقهم بخصوصيات أعراقهم ومدى استعدادهم للتّنكّر للعباسيين ؛ هذا وسيحرز البعض منهم على الإنعتاق السياسي بعد بضعة عقود .

---

(2) * الملوك ، 8 ، 319 .

أدرك الرشيد أنّ الوضع دقيق وأنّه يدعوه الى التحرك بسرعة ؛ فلئن كان هرثمة قائدا عظيما ، فما هو ، لا محالة ، إلاّ نائب الخليفة ، وليس له ما لسيّده من النفوذ ؛ أما الفضل بن الربيع الذي حلّ محلّ يحيى ، فليس له ما كان للبرمكي العظيم من خصال ولا ما كان يتمتع به من مسؤوليات . فالخليفة وحده قادر على أخذ القرارات الهامّة . لذا عقد هارون العزم على المضيّ بنفسه للتأكّد على عين المكان من حقيقة الأمر.

إنّ عزم الرشيد على الخروج الى خراسان ، في الحالة التي كانت عليها صحته ، لم يخلُ من شجاعة ، لأنه كان عليلا ويعلم ذلك ؛ والعلة التي أصابت منه المعدة – والأرجح أنة السرطان – كانت تجعل رحلة في مثل هذا الطول ، يتجشّمها ممتطيا فرسا ، رحلة شاقة الى أقصى الحدود ؛ وإنما حال دون تردده أمام تكبّد مشاقّها نظرته الى جلال مهمّته كأمير للمؤمنين ، وحرصه على صيانة الإرث الذي خلّفه له أجداده العباسيون .

غادر الرّشيد الرَّقة إذن ، تاركا فيها القاسم ، ثالث أبنائه ، وقد كان أسند له إمارة الشّام والعواصم ؛ ، ثمّ شخص الى بغداد حيث عهد الى ابنه الأمين بخلافته مدّة غيابه .

أما المأمون ، وهو يشهد ما أصاب صحّة أبيه من انحراف ، فقد كان يخشى ، إن هو تغيّب ، أن تفْرُط عنه إمارة خراسان التي كان منحه إيّاها كِتاب ولاية العهد ؛ لذا فإنّه ألحّ على أبيه في الخروج معه . أوَ لم يكن هو الأمير المُوَلَّى على كامل الجهة الشرقية للمملكة ؟ أدرب الخليفة إذن ، وكان يصحبه وزيره الفضل بن الربيع وكِبار الكُتّاب وسامي الموظفين .

كان السفر شاقّا على الرشيد ، وقد وضع عليه كلّ واحد من أبنائه رقيبا يتجسّس لمتابعة ما كان يعتري حالته الصحية من تعكّر ؛ فكان مسرور، سيّافه الذي خلّدت ذكرَه روايةُ ألف ليلة وليلة ، يتجسّس لفائدة المأمون ، والطبيبُ جبريل لفائدة الأمين ، وثالثٌ لفائدة القاسم ؛ وكلّ الذين من حوله كانوا يتمنّون موته فلا يتردّدون أن يُقدّموا له – هو، الخليفة وأمير المؤمنين – أقلّ المطايا انقيادا ، فتذيقه إذا ركبها أمرّ العذاب .

لقد بلغ الى عِلْم الرّشيد أنّ أحد ملوك الهند كان له في حاشيته طبيب ماهر ؛ فأرسل في طلبه وأمر أن يؤتى له به دون تأخير ، فاستُقدِم على جناح السرعة وأقبل عليه يُداويه ، فخفّف علاجُه له ، لمدة قصيرة ، بعض ما كان يشكوه من الآلام ، لكنه لم يُشفه من علّته . فاتّخذ اذّاك مجموعة من التّدابير، منها توجيهُ المأمون الى مَرْو وأمرُه بالخروج اليها حالاّ : وهكذا يكون قد أمّن وجود هذا الأخير مع جيشه في تلك المقاطعة النائية إذا ما لقي حتفه في الطريق ؛ ثمّ قضى أياما بالرّيّ ، وبعدها شخص الى جُرجان ، ومنها الى طُوس بحثا عن مناخ أطيب وهواء أنقى ؛ لكن ما لبث أن اشتدّ به المرض ، فقرّر التمديد في مقامه هناك لعجزه عن مواصلة السّير. وجيء له ذات يوم بأخي رافع بن الليث وقد كان أُسِرَ في بعض المعارك ، فقال له : « يا عدوّ الله ، لقد أشعلتما – أنت وأخوك – نارالفتنة

بأرض خراسان ، مما أرغمني ، وأنا أعاني من ويلات العلة ما أعاني ، على تجشّم متاعب هذا السفر الطويل . سأقتلنّك ، واللّه ، شرّ قتلة[3]» . ثم شفى غليله بمشاهدة تفصيله على يد قصّاب ، وتفكيك جسمه الى أشلاء أربعة وتقطيع أعضائه وتكسير عظام يديه ورجليه .

كان الرشيد رغم الأوجاع التي يتكبّدها ويُكبِّدها لغيره لا يزال شديد التّأثّر بالشعر الجيّد ، كالأبيات التالية المسجّلة بأجمل الخطوط :

أَيْنَ اَلْمُلُوكُ وَأَيْنَ غَيْـرُهُمُ ؟ صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ

يَا مُؤْثِرَ اَلدُّنْيَا بِلَذَّتِـــهِ وَاَلْمُسْتَعِدَّ لِمَنْ يُفَاخِــرُهُ

نَلْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ اَلـدُّنْيَا فَإِنَّ اَلْمَوْتَ آخِـرُهُ

[من السّريع] [4]

---

(3) الطبري [اليك الرواية الأصلية التي ابتعد عنها أ. كلو بعض الإبتعاد : « . . . جيء بأخي رافع، فدخل عليه وهو على سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذراع وعليه فرش بقدر ذلك – أو قال أكثر – وفي يده مرآة ينظر الى وجهه . قال . فسمعته يقول : إنّا لله وإنا اليه لراجعون ! ونظر الى أخي رافع ، فقال . « أما والله يا ابن اللّخناء ، إني لأرجو ألاّ يفوتني خامل – يريد رافعا – كما لم تفتني » فقال له « يا أمير المؤمنين ، قد كنت لك حربا ، وقد أظفرك الله بي ، فافعل ما يحب الله ، أكن لك سلما ؛ ولعل الله أن يليّن لك قلب رافع إذا علم أنّك قد مننت علي» فغضب وقال . « والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرّك شفتي بكلمة لقلت : أقتلوه » . ثم دعا بقصاب فقال · « لا تشحذ مُداك ، أتركها على حالها ، وفصّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجّل ؛ لايحضرنّ آجلي وعضوان من أعضائه في جسمه » . ففصّله حتّى جعله أشلاء ؛ فقال . «عُدّ أعضاءه » . فعُدّت له أعضاؤه ، فإذا هي أربعة عشر عضوا . فرفع يديه الى السماء فقال « اللهم كما مكّنتني من ثأرك وعدوّك ، فبلغت فيه رضاك ، فمكني من أخيه » . ثمّ أُغمِي عليه ، وتفرّق من حضر، الملوك ، 8 ، 342] .

(4) أبو العتاهية [قد يكون من المفيد إرجاع هذه الأبيات الى سياق الخبر الذي رواها المسعودي فبه والذي نورده في ما يلي · قال الرياشي : قال الأصمعي : دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خدّيه ، فظللت قائما حتى سكن ، وحان منه التفاتة ، فقال : « اجلس يا أصمعي ، أرأيتَ ما كان ؟ » – قلت : « نعم يا أمير المؤمنين ! » – قال : « أما والله ، لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا » ؛ ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جلىل ، وهو :

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَلِيَتْ مِنْهُ غَدَاةَ مَضَى دَسَاكِـرُهُ

وَبِمَنْ أَذَلَّ اَلْمَوْتُ مَصْرَعَهُ فَتَبَرَّأَتْ مِنْهُ عَشَائِــرُهُ

وَبِمَنْ خَلَتْ مِنْهُ أَسِرَّتُــهُ وَبِمَنْ خَلَتْ مِنْهُ مَنَابِــرُهُ

. . . .

(هذا مطلع المقطوعة التي تعدّ ستّة أبيات) ؛ ثم قال الرشيد : « كأني والله أُخاطَب بذلك دون الناس ! » ‹ فلم يلبث بعد إلا يسيرا حتى مات . (مروج ، 3 ، 402 -403) .]

والتـي قـال بعـد قـراء تهـا : « أوَ ليـس هـذا الكـلام كـأنّه مُـوجَّه إليَّ دون سِواي ؟ » .

وفي 24 مارس (آذار) جمع من كان في عسكره من بني هاشم ، فقال : « إنّ كلّ مخلوق ميّت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بي ما ترون ، وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ؛ وانظروا محمّدا وعبد الله ، فمن بغى منهما على صاحبه فرُدّوه عن بغيه ، وقبِّحوا له بَغيه ونكثه » ، وأقطع في ذلك اليوم أموالا كثيرة وضياعا ورباعا . ولما اشتدّ ضعفه وأرجف النّاس بموته ، دعا بحمار ليركبه ، فلما صار عليه سقط فَخِذاه فلم يلبث على السّرج ؛ فقال : « أنزلوني ، صدق المُرجفون ! » ثم دعا بأكفان ، فاختار منها ما أراد ، وأمر بحفر قبر ، فلما اطّلع فيه[5] قال : «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ » .[6]

مات الرشيد في ذاك اليوم أي يوم 24 مارس (آذار) 809 (لثلاث خلون من جمادى الثانية سنة 193)[7] وصلّى عليه ابنه صالح ،وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صُبيح ،ومن خدَمِه مسرور وحسين ورشيد ؛ ودُفن بطُوس ، في ضيعة الجُنيد بن عبد الرحمن المعروفة بسَنباذ بموضع يُسمّى المُثَقَّب ؛ وقد سُمِّي فيما بعد " مَشْهَدًا " (قبرالشّهيد) لا للتذكير بمدفن الخليفة فيه بل بمدفن الإمام علي الرِّضى ، ثامن أئمّة الشيعة ، وقد مات بطُوس سنة 818 (203 هـ) ودُفِن بالقرب من قبر هارون حيث أُقيم له ضريح فخم هو اليوم محجّة للشيعة الذين يؤمُّونه من جميع أنحاء العالم ؛ أمّا قبر هارون الرشيد فقد اندثر وعفا رسمه[8] .

" الرشيد "

هكذا انتهى ، بعيدا عن بغداد ، حكمُ الخليفة الذي سيظل عهده العهد الذهبي

---

(5) * مروج ، 3 ، 400 - 401 .

(6) قرآن كريم ، السورة 69، الآيتان 28-29 .

(7) * لا من شهر " جُما " كما رسم ذلك أ. كلو .

(8) * علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، الملقب بالرِّضَى (770-818/154-203 هـ) : ثامن الأئمّة الإثني عشر عند الإمامية ؛ ولد في المدينة ، وكان أسود اللون ، أمه حبشية . أحبه المأمون العباسي ، فعهد اليه بالخلافة من بعده ، وزوّجه ابنته ، وضرب اسمه على الدينار والدرهم ؛ وغيّر من أجله الزي العباسي الذي هو السواد فجعله أخضر ، وكان هذا شعار أهل البيت ، فاضطرب العراق ، وثار أهل بغداد ، فخلعوا المأمون ، وهو في طُوس ، وبايعوا لعمه إبراهيم ابن المهدي ، فقصدهم المأمون بجيشه ، فاختبأ إبراهيم ثم استسلم وعفا عنه المأمون . ومات عليّ الرِّضى في حياة المأمون بطوس ، فدفنه بجانب أبيه الرّشيد ، ولم تتمّ له الخلافة . وعاد المأمون الى السّواد ، فاستألف القلوب ورضي عنه الناس .

للدولة العباسية والحضارة الإسلامية ؛ فالأجيال المتعاقبة تحتفظ دائما من العصور السعيدة بما يزينها من المحاسن وتهمل منها ما يشينها من المساوئ . وسيحمل معاصرو هارون عن مملكته ، التي شهدوا تمزّقها ، ذكرى خالصة من كلّ شائبة ، ذكرى مملكة مُوحّدة تحت سلطة – بعيدة المنال لا محالة ، لكنها في مأمن من النزاعات – سلطة الخليفة محاطا بحاشيته ومتصرفا في حظوظ الدولة داخل بلاطه الذي سيكون رمزا لازدهار لم يُعرف له مثيل .

وعهد الرشيد ، بسنواته الثلاث والعشرين سيكون – كما سنرى ذلك ، ورغم ما اشتهر به من ضروب التفاوت الهائل – العهد الذي بلغ فيه سكان المدن أقصى حدّ من الرخاء . فبغداد – وهي التي لم تكد تمضي ثلاثون سنة على تأسيسها – أضحت المركز الإقتصادي لكامل المعمورة إذّاك ؛ وكان العراق مقصدا تتوافد عليه جموع البشر ، وتتدفق اليه صنوف السلع والبضائع ، وقد تأسست فيه عديد المدن والقرى التي ترد اليها ، من جميع الجهات وتصدر عنها الى مختلف الأصقاع ، موادّ أوّلية ومصنوعات جاهزة ؛ ومما لا شك فيه أنّ نعَم هذا الرخاء لن تشمل العدد الأوفر من السكان إلا في أواخر القرن 8 ً (2 ً للهجرة) وأوائل 9 ً (3 ً للهجرة) أي في عهد "الخليفة الصالح هارون" وخلفائه الأوائل .

وهذا العصر هو أيضا عصر النهضة الفكرية الكبرى التى ستزداد اتساعا أيّام المأمون ، وقد تميزت بظهور العديد من الشعراء والعلماء والمترجمين ، وبالتجديد في الشعر ، وببروز أوائل الأئمّة الذين عرفهم النثر؛ وإذا أضفت الى ذلك بذاخة البلاط ومَبرّات زبيدة وأريحية البرامكة و مآثر الخليفة نفسه ، اكتملت لك عناصرُ المشهد وستزداد تلونا مع مرور الزمان . ورواية ألف ليلة وليلة خلّدت لنا عن ذلك العصر صورة ، مُحسنّة غالبا ، ومُشوّهة أحيانا ، ولكنها أمينة إذا ما بحثنا فيها ، لا عن الحقيقة التاريخية ، بل عن وصف لمجتمع ، عن لوحة حية منه . وعلى كلّ ، فهي الصورة التي ظهر فيها العصر للذين صنّفوا تلك الأقاصيص التي اتخذت من بغداد ومدن العراق إطارا لحوادثها . وها هو المسعودي، وقد ألّف كتبه بعد مرور أكثر من قرن على وفاة الرشيد ، يبلغنا صدى الذكرالذي تخلّد بعد الخليفة حين يقول : " فسمى الناس أيامه ، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ، أيّام العروس".

ومن قبيل المفارقات أن الصورة التي بلغتنا عن عهد الرشيد والتي تكاد تكون أسطورية ، هي – الى حدّ بعيد – وليدة النّكبات التي حلّت بالخلافة والعباسيين ، غداة وفاته ؛ وهو أمر يُعقّد مهمة من يريد الإحاطة بشخصية هارون ، والوقوف على أبرز ملامحها . هل كان جاريا وراء اللذة ، غير مكترث ؟ هل كان حقا بلا عيوب ، شديدا ، لا يقبل المراء في الدين ؟ هل كان من دهاة السياسة أم مُغفّلا على رأسه تاج ؟ المحقّق أنّ هذا الرّجل الذي تمدّحه الجميع الى أقصى الحدود ، والذي نَسب اليه البعضُ أفضلَ السّجايا ، والبعضُ الآخرُ أقبحَ النقائص ، كان عاهلا لم تُفسِد عليه طباعَه ممارسةُ الحكم

المطلق ، غيرَ ميّال الى القسوة ، مباشرًا لسلطته بلا ضعف ولا تردّد ، ولكن أيضا دون فظاظة مُفرطة ، وإن كان بلا شفقة ولا رحمة كلما دعت الضرورة الى ذلك ؛ ولا أدلّ على ذلك من النكبة التي أوقعها بالبرامكة ؛ فمثلما أمر سليمان الفخم[9] بقتل إبراهيم[10] أعز أصدقائه عليه ، أمر الرشيد بضرب عنق جعفر، وسجن يحيى " أبيه " والفضل أعظم وزرائه كفاءة . وهذه العقوبات الصّارمة التي هيّئ لها في الخفاء التام ، منذ أمد بعيد، تُظهره لنا رجلا كتوما ، حقودا ، شديد الإرتياب والحيرة أيضا ؛ والمثال الآخر عن كلّ ذلك نجده في تعامله مع العلويين الذين كان يرقبهم بلا انقطاع ويتخلّص منهم كلما توقّع منهم خطرا مُحدقا . ففي اليَمَن ، أمر باغتيال عدد من المتمرّدين ، وقبيل وفاته نفّذ أبشع ضروب التمثيل في أخي الثّائر رافع بن سيّار[11]. وينبغي ألاّ ننسى الصمود الثوري الذي كان يحرّك أعداءه من علويّين وخوارج وزيدية وأنصار للمُقنّع وغيرهم ، ممن كان الغضب الإجتماعي يعزّز صفوفهم بالأتباع والأنصار.

ممّا لا جدال فيه أنّ الرشيد كان شديد الإيمان ، وأنّه كان على درجة عظيمة من التّقى ؛ وخير دليل على ذلك حجّه البيت الحرام تسع مرّات – على ما في كلّ حجة من شديد المشاقّ ، يخفّفها لا محالة الرّفاه النّسبي الذي يُؤدّيه فيها – وصَلاتُه كلّ يوم مائة ركعة ، وصدقاته على الفقراء والمساكين ؛ وكلّ ذلك قد أشاع في الآفاق ما اشتهر به من ورع وطيبة . أما حياته الغرامية التي لم يكن فيها أكثرَ ولا أقلّ استهتارا من سائر الأمراء ولا حتّى من بعض الموسرين البورجوازيين ، فلم يُذكر عنها ما من شأنه أن يُعتبر خرْقًا لتعاليم الدين .

أحبّ هارون زبيدة كامل حياته ، وفي حبّه لها ما يثيرالشّجى حقّا ، وإن لم يكن لها عليه دائما أحسن التّأثير. أمّا الخمرالتي كان يشربها صحبة الندماء – فإنّ شغفه بها ، رغم ما يجرّه له من مآخذ لدى رجال الدين – لم يُذكَر له فيها إدمان ولا إفراط ، مثلما رُوي عن العديد من الخلفاء . ثمّ إنّ العناية التي أحاط بها تربية أبنائه تُبرزه في صورة أب

(9) * هو سليمان الأول المعروف " بالقانوني " عند المسلمين و " بالفخم " و " العظيم " و" الكبير" عند الأوروبيين : الخليفة العثماني العاشر. حكم بعد ذلك التاريخ بما يقارب السبعة قرون والنصف .

(10) * الملقّب عند الأتراك تارة " بالمقبول " وطورا " بالمقتول " : حظيّ السلطان سليمان القانوني وصدرُه الأعظم (وزيره الأوّل) وزوج شقيقته . من أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية والإدارية التي عرفتها الخلافة العثمانية في القرن 16م (10هـ للهجرة) . ولد بقرية بَرْجا قبالة جزيرة كورفو سنة 1493 (898 هـ) ومات مقتولا بأمر من السلطان سنة 1536 (942 هـ) بقصر طُوب قابو في إستنبول .

(11) * لا « الفضل بن سهل » كما رسم ذلك ا. كلو .

شديد الرعاية لأسرته ، وقور، عطوف ، إبيقُوري[12] ولكن بلا شطط (من ذلك أنه كان قد يُعِدّ الطعام أحيانا) ، يخاف الله ، ويخاف بالخصوص جميع أولائك الذين قد يهدّدون نفوذه أو يرسلون بعض الغيوم عليه « مما قد يجعلنا نفكّر في تشبيهه بلويس 14 » [13]، وأيضا بسليمان القانوني .

مثلما كان الأمر بالنسبة " للملك /الشمس " فإنّ التسليم بكفاءات الرشيد في الميدان السياسي لم يكن محلّ إجماع ؛ فمما يؤخذ عليه الغِشاية التي أحاطت ببصيرته في قضية والي خُراسان علي بن عيسى ، وقد كانت ترد عليه في شأنه أسوأ التقارير، وما كان منه إلاّ أن أبقاه في منصبه رغم أنف الجميع . أما سياسته الجبائية – وهي في الحقيقة سياسة البرامكة – فلم تكن حكيمة ، إذ ساعدت على الزيادة في بؤس أهالي الأرياف ، وكانت من أسباب الإضطرابات التي هزّت أركان المملكة وتوالت بلا انقطاع تقريبا . وأمّا علاقاته مع الخارج ، ولا تكاد تمليها إلاّ مشاريعه الرامية الى مناهضة بيزنطة ، فقد كانت تنمّ عن نيّته في توسيع آفاق المملكة ، ومحاولة البحث عن مؤازرات خارجية ، وعن سياسة طويلة الأمد ، في التعاون مع شارلمان على الأخصّ ، لم تحُلْ دون تحقيقها إلاّ وفاته المبكّرة .

إنّ الذين عاصروا هارون الرشيد ، وكذلك الذين لم يدركوه ، أنحوا عليه جميعا باللائمة في تعجيله تمزيق المملكة بتقسيمه إيّاها ؛ وقد لا يشاطرهم متفرّس أمين في شؤون تلك الفترة قساوةَ حكمهم ، إذ أنّ قراره القاضي بإبطال المركزية في دولة كدولته تلك ، المترامية الأطراف ، البعيدة أقاليمُها عن العاصمة ، العسير حكمُها والمتعذّرة سياستُها انطلاقا من بغداد ، لم يكن قرارا فاسدا ؛ فليس الذنب ذنبه أن يكون وَليّا العهد اللذان عيّنهما غير متساووين في الكفاءات ، وعلى كلّ حال ، فإنّ التيّارات المُرْكِسة ، النابذة عن المركز، كانت من القوّة إذّاك بحيث جعلت تلك المجموعة الهائلة من البلدان ، المتباينة في الأخلاق والعادات ، عاجزة عن البقاء طويلا تحت راية واحدة ؛ فكان إذن من الحتمي أن تؤول الكلمة الأخيرة للخصوصيات والمصالح المحلية على حساب اللغة والدّين ، المقومَيْن الأساسييْن للحضارة العربية الإسلامية ؛ فذاك ما جعل تفتت الإمبراطورية يكتسي أهمية نسبية .

هذه الصورة التي حصلت لنا عن الخليفة العظيم والتي لا تخلو – كما هو شأن سائر الصور لدى جميع البشر– من تناقضات ، قد تكون ناقصة إذا ما حذفنا منها ميله

---

(12) * من معاني هذه الكلمة . ذوّاق ، ملبّ للشهوات ، منغمس في اللذّات .

(13) * " الملك / الشمس " : أعظم ملك عرفته فرنسا ، عاش في القرن 17م (11هـ للهجرة) . في عهده بلغ الإزدهار الإقتصادي والنموّ العمراني والإبداع الأدبي والفنّي أعلى مراتبه – والقولة للمستشرق الفرنسي چودفروا دي مومبين في كتابه " المؤسسات الإسلامية " .

الشديد الى السلاح ، ذاك الذوق الذي اكتسبه منذ عهد الصبّا . فقد قضى الرشيد كامل حياته جنديا يقاتل ؛ وإذ تعلّقت همّته ، منذ ارتقائه عرش الخلافة ، بإقامة جهاز عسكري للدفاع عن الحدود المتاخمة لبلاد الروم ، فقد غادر بغداد ، تاركا وراءه أمواله ونساءه وأبناءه ، ليستقرّ قريبا من تلك الحدود ، بالرّقّة حيث سيقضي ثلاث عشرة سنة ، أي أكثر من نصف المدة التي دامها حكمه ؛ وسيظلّ ، كما رأينا ، توسيعُ رقعة دار الإسلام بالجهاد في سبيل الله أنبل مرامي حياته . لذا فقد شارك شخصيا ، دون سائر خلفاء بني العباس – وهو أمر نادر – في حملات عسكرية شنها على بلاد الروم ، إحداها على الأقلّ كانت ترمي الى فتح القسطنطينية ؛ ورغبته في التقارب مع شالمان تندرج ضمن مشاريع الغزو تلك ، التي أعدّها والتي ستحول فتنُ خراسان ثم وفاتُه دون تنفيذها .

نقض عهد هارون

أمّا زبيدة فقد كانت بالرّقّة عندما بلغها نعي الرشيد ؛ فأقامت مأتما بمحضر بناته وأخته عُلَيّة ووجوه أهل البلاط ؛ وعُهِد الى إسحاق الموصلي بإعداد مرثية يُعدّد فيها مناقب الخليفة الرّاحل ، فاقتصر على أبيات قيلت أيّام بني أمية وكُلِّف بعض جواري القصر بإنشادها ، لما كان فيه القوم من شغل شاغل عن الشعر. وما كادت تمضي أشهر حتى غادرت زبيدة الرّقة وجاءت الى بغداد حيث استقرت نهائيا في قصرها – قصر القرار– وحيث ستقيم الى أن يوافيها أجلها .

وأمّا الأمين فقد كان ببغداد عندما نُعِي له أبوه وأُخبِر بانتقال الخلافة اليه . فاجتمع الناس بعد ذلك بيومين لبيعته في مسجد المدينة المدوّرة ، حيث صعد الخليفة الجديد المنبر، فترحّم على الهالك وحضّ الرعيّة على الطاعة ؛ فنهض بنو هاشم وكبار رجال الدولة وتقدموا إليه فأدّوا له البيعة حسب المعهود ؛ وأخذ له أعمامه البيعة من سائر القوّاد والموظّفين ، وأُمِر للجند ممن كان منهم بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهرا .

وأمّا المأمون فهو الذي أعلن بمَرْو وفاة الخليفة وأخذ البيعة للأمين بالخلافة ولنفسه بولاية العهد من بعده ، وأمر للجند برزق سنة كاملة .

وبعد أيّام خُلّي سبيل عدد من المساجين السياسيين ؛ وبطلب من زبيدة ، أُطلِق سراح البرامكة الذين ما زالوا بقيد الحياة .

عندما اتخذ الرشيد مسبقا ما يلزم من الترتيبات لولاية عهده كان على يقين من أنّ خلافته لن تتمّ بلا صعوبة ؛ وكان من المنتظر أن يمنع عهد مكّة على الأقلّ حدوث ما قد لا نُحمد عقباه ؛ وما وقع بعد موت هارون تجاوزَ أكثر التنبّؤات تشاؤما وجعل المملكة على قاب قوسين من الإنهيار .

فما كاد الرشيد يلفظ أنفاسه الأخيرة حتّى بدأ التنكر للإجراءات التي كان قد أقرّها ؛ فأثناء سفره الأخير، عند توقفه بكرمانشاه ، أمر، في صورة احتجابه [بالوفاة طبعا]، أن يُرسَل كلُّ من كان يرافقه من الجند والآلة والسلاح والمال الى مَرْو ليوضع تحت تصرّف المأمون . لكن ، في ذات اليوم الذي تُوُفّي فيه الخليفة ، جعل مبعوثٌ من قِبَل الأمين – وكان قد وصل الى طُوس[14] منذ بضعة أيّام – يُوزّع رسائل كان وليّ العهد قد أعطاه إيّاها ببغداد ، وكلفه بالسفر لإبلاغها أصحابَها سرًّا (وكان الرشيد قد ارتاب في قدومه ، فأمر بتفتيشه ، لكن دون جدوى) . وقد أمر الأمين في إحدى تلك الرسائل[15] أن يُضَمّ وُلْدُ أمير المؤمنين وخَدَمُه وأهلُه الى الفضل بن الربيع ليسير بهم من طُوس الى بغداد ، وأن يوضع الجيش تحت امرة القواد الذين سمّاهم له فيها . فكانت هذه الأوامر خرقا صريحا لما عهد به الرشيد قبل وفاته . فاجتمع القواد للتّشاور فرجّح الفضل بن الربيع الكفّة بقوله : «أفضّلُ ملكا في الحكم على ملِك أُزيح عنه[16]» ، وسرعان ما اقتنع القواد بسداد رأيه .

لم يُبْدِ المأمون أيّ احتراز مما قرّره أخوه بل وجّه همّته الى الإنكباب على شؤون مقاطعته خُراسان ، وعلى إصلاح ما أفسده فيها عبث عليّ بن عيسى : فأنقص من الضرائب ، وسار عاملا بما أمر به الدين من معروف وعدل ؛ فجلب له ذلك تأييد الجماهير التي تخلّت عن الثّائر رافع بن اللّيث ؛ فما كان منه إلا أن استسلم الى القائد هرثمة ؛ وبإيعاز من الفضل بن الربيع[17] وعليّ بن عيسى ، عزل محمدُ الأمين أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاّه إياه من أعمال الشأم وقِنّسرين والعواصم والثغور؛ فردّ المأمون على ذلك بقطع البريد بين مقاطعته وبغداد ، ثم عزل والي الرَّيّ لموالاته للأمين . فوجّه الأمين اليه يعلمه أنّ الجباية سيتعهّد بها مستقبلا عُمّال يوفدهم هو للغرض ، وأنه سيعيِّن صاحبًا للبريد ويعهد اليه بإبلاغه الأخبار عن مقاطعة خراسان ؛ وكانت كل تلك القرارات تعني مطالبة المأمون بالتخلّي عن تلك المقاطعة[18]، وهو الأمر الذي رفضه هذا الأخير رفضا باتّا

---

(14) * طُوس : مقاطعة في خُراسان شمالي شرقي إيران . من مدنها نوقان وطابران التي أُطلِق عليها اسم طوس . وطُوس مدينة في خراسان سمّيت أوّلا طابران . فتحها العرب عام 649 (29 هـ) وخرّبها المغول عام 1389 (791 هـ) . بها دفن هارون الرشيد .

(15) * وهي الرسالة الثانية وكانت موجّهة الى أخيه صالح .

(16) * والحقيقة أنه قال : « لا أدَعُ مُلْكًا حاضرا لآخَر لا يُدْرَى ما يكون من أمره » ، (يعني مُلْك المأمون لا مُلْك الرشيد كما ظنّ أ. كلو – الملوك ، 8 ، 370) .

(17) * لا « الفضل الربيع » كما رسم ذلك أ . كلو .

(18) * فعلا طلب منه التخلّي له، لا عن كامل خراسان ، بل عن قسم منها ؛ يقول الطبري في ذلك : « كان محمد ... كتب الى المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه ، أن يتجافى [أي أن يتنازل] له عن كُور من كُور خراسان – سمّاها – وأن يُوَجِّه العُمّالُ اليها من قبَل محمد ... » (الملوك ، 8 ، 377) .

وتذكَّر المأمونُ الثورةَ العباسية والمؤامرةَ التي مهّدت لنجاحها عقب دعاية نشيطة بُثّت بكامل بلاد خراسان ؛ واتعاظا بكلّ ما جرى ، أمر بمراقبة الحدود وحراسة الطرقات وتفتيش القوافل ؛ وأردف ذلك بأن أقام بالرّيّ جهازا دفاعيا عتيدا يعتمد 20.000 رجل يقودهم طاهر بن الحسين[19] (الذي سيلعب دورا غاية في الأهمية خلال السنوات القادمة) ؛ وتوالى طوال أشهر عديدة الطلب والرّفض بين الأخوين ؛ وأرسل المأمون الى أخيه يطلب منه أن يوجّه اليه المائة مليون دينار التي خصصها له أبوه قبل وفاته ، وأن يخلّي سبيل أولاده وزوجته أمّ عيسى ليلتحقوا به في خراسان ؛ فأبى أن يستجيب لطلبه ، بل ذهب الى حد الأمر بأن يؤخذ من أم عيسى بالقوة ما كان أهداه لها المأمون من الحلي . على أنّ الفضل بن سهل[20]، المستشار الحازم كان يمهد السّبيل للمأمون في بغداد حيث ترك الأمينُ زمام الحكم بأيدي وزيره ، وعاد الى لهوه ومجونه منصرفا الى تلبية أغرب الأهواء والنزوات .

فلا المأمون ولا الأمين كان يتوقّع أنّ خلافهما سينتهي بمواجهة مُسلَّحة ؛ فالقطيعة بينهما باتت محققّة منذ أن عزل الأمين المأمون عن ولاية العهد وأسندها لابنه موسى [وسّماه النّاطق بالحقّ] – ولم يكن قد تجاوز الثانية من عمره – ، وأبطل الدّعاء للمأمون في الجُمُعات وأسقط اسمه من الطرز والسّكّة وعوّضه باسم ابنه ، وأمر بتمزيق العهد الذي علّقه الرشيد على الكعبة ؛ أما المأمون فقد أسقط بدوره اسم الأمين من السكة وخُطَب الجمعة ، وتسمّى بالإمام متخلّيا عن لقب وليّ العهد ؛ كان كلّ ذلك سنة 810 (195 هـ) ، وهكذا ، بعد وفاة الرشيد بأقلّ من عامين ، لم يبق شيء من منجزاته في الميدانين العائلي والسياسي ، وأضحت الفتنة على وشك الإندلاع .

---

(19) * طاهر بن الحسين الخزاعي (775-822/159-207) : من كبار الوزراء والقوّاد أدبا وحكمة وشجاعة . هو الذي وطّد الملك للمأمون . ولد ببوشنج (بخراسان) وسكن بغداد ، فاتصل بالمأمون في صباه ، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد . ولما مات الرشيد وولي الأمين ، كان المأمون في مرو ، فانتدب طاهرا للزحف على بغداد، فهاجمها وظفر بالأمين وقتله وعقد البيعة للمأمون ؛ فولاه شرطة بغداد ، ثم ولاه الموصل وبلاد الجزيرة والشام والمغرب ثم خراسان ؛ وكان في نفس المأمون شيء عليه لقتله أخاه الأمين دون مشورته ، ولعله شعر بذلك ؛ فلما استقر في خراسان ، قطع خطبة المأمون يوم الجمعة ، فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة ، وقيل مات مسموما ؛ كان أعور ولُقّب بذي اليمينين لأنه ضرب رجلا بشماله فقدّه نصفين .

(20) * الفضل بن سهل السّرخسي (771-818/155-203) : وزير المأمون وصاحب تدبيره . اتصل به في صباه وأسلم على يده وكان مجوسيا . وصحبه قبل أن يلي الخلافة ، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معا فكان يُلقّب بذي الرّياستين (الحرب والسياسة) . مولده ووفاته في سرخس (بخراسان) . قتله جماعة بينما كان في الحمّام ، قيل : إنّ المأمون دسّهم له وقد ثقل عليه أمره . وكان حازما عاقلا فصيحا ، من الأكفاء .

عيّن الأمينُ عليَّ بن عيسى ، الواليَ السابق على خراسان ، على رأس أربعين ألف رجل لمحاربة المأمون والظفر به . وقبل خروجه وهبه 200.000 درهم[21] ثم أوصاه بتولّي شؤون خراسان بالعدل ، وبتخفيف الضرائب على أهلها ، وقال له : « إن ظفرتَ بالمأمون فأرسله اليّ مغلولا في سلاسل من فضّة »[22] . فشخص عليّ من بغداد بجيش عتيد وسار الى الرّيّ حيث كان طاهر بن الحسين معسكرا بعشرين ألف رجل ؛ فالتقى الجيشان بالقرب من تلك المدينة ، وبعد معارك طاحنة ، كرّ طاهر على القلب من جيش العراق ، ففرّقه فُلُولاً وظفر بعليّ ، وكان قد جُرِح ، فضرب عنقه واحتزّ رأسه وبعث به الى المأمون الذي تلقّب في اليوم نفسه بأمير المؤمنين .

فجنّد الأمينُ ، خليفةُ بغداد – لأنّ أمر البلاد الإسلامية بات الآن بيد خليفتين ـ جيشا جديدا من جند"الأبناء"يعد عشرين ألفًا وأرسله لمحاربة المأمون بقيادة قائد من الشجعان وهو عبد الرحمن بن جبلة[23]. فالتقى الجيشان بين الرّيّ وهمذان ؛ فهُزِم عبد الرحمن واعتصم بهمذان،فحاصره طاهر؛ ولما طال به الحصار وقطع طاهر عنه كلّ مدد ، خشي أن يثب به أهل خراسان ؛ فاستأمن فأمّنه طاهر؛ لكن بعد أن تظاهر له ولأصحابه أنه مسالم وراض بعهودهم ، غدر واغترّهم وهم آمنون، فكرّعليهم لكنهم صمدوا له وقاتلوه حتى غلبوه وقتلوه وأعملوا السيف في رجاله؛ وبعد هذا الظفر باتت طريق العراق أمام طاهر مفتوحة .

أضحى الآن النصر في متناول المأمون ؛ ألم يُقِم الدّليل على أنّه أقوى من الأمين

---

(21) * بل 200.000 دينار – الملوك ، 8 ، 390 .

(22) * حسب الطبري هذه الوصيّة صادرة عن زبيدة لاعن ابنها الخليفة الأمين ؛ فإليك الرواية كاملة لما فيها من طرافة : « ... لما أراد عليّ [ابن عيسى بن ماهان] الشخوص الى خراسان ، ركب الى باب أم جعفر [زبيدة]، فودّعها ، فقالت . « يا عليّ ، إنّ أمير المؤمنين ، وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدُث عليه من مكروه وأذى ؛ وإنما ابني مَلِك نافس أخاه في سلطانه ، وغاره على ما في يده ، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره . فاعرف لعبد الله حقّ والده وإخوته ، ولا تجبّهه بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد ولا غُلّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادم ، ولا تعنّف عليه في السّير، ولا تساوه في المسير، ولا تركب قبْله ، ولا تستقلّ على دابّتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » . ثمّ دفعت اليه قيدا من فضّة وقالت : « إن صار في يدك فقيّده بهذا القيد » – فقال لها : « سأقبل أمرَكِ ، وأعمل في ذلك بطاعتكِ » ، (الملوك ، 8 ، 406) .

(23) * عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي (.... - 810 / .... - 195 هـ) ؛ من كبار القوّاد في العصر العباسي . وجّهه الأمين من بغداد في عشرين ألفا ليقاتل المأمون ، واستعمله على كل ما يفتتحه من أرض خراسان . فنزل همذان ، وقاتل جيش المأمون ، وقائده طاهر بن الحسين ، فقُتِل في حسن أباذ .

ومن حكومة بغداد ؟ لكن ستنقضي سنتان وسيحدث فيهما الكثير من أليم الوقائع قبل أن يدخل مُظفّرا مدينة بغداد .

ظلّ الأمين ، كلما غُلبت جيوشه ، يرسل قوّات جديدة لتعويضها ؛ لكن لم يكن ذلك يتم له دون صعوبة ، إذ كان قوّاده قليلي الإستعداد لتعريض أنفسهم للهزيمة كأسلافهم . وإذ قَبِل اثنان منهم – وهما أحمد وعبد الله[24] – الخروج للحرب ، فقد رأى كلّ منهما رجاله يتفرّقون عنه قبل ابتداء المعركة ، لأن رائجات بَلَغتْهم تفيد أنّ من بقي ببغداد من الجنود أُعْطِيَ رزق عامين . فذاك ما مكّن طاهرًا من الإستيلاء على حُلوان[25]، المدينة المُحصّنة . ثم أمرالمأمونُ هرثمة – وقد قدم على رأس 20.000 ألف مقاتل ، أن يحتلّ ما استطاع من الأرض ، وأمرطاهر بن الحسين بالسير الى بغداد .

استولت على العاصمة فوضى كبيرة ؛ فقد خالف الحسين بن عليّ بن عيسى[26] وثار قائلا أمام جنوده : « لانستطيع مواصلة الصبر على الإهانة المتمثلة في الخضوع لسلطة شخص ليس بالرجل ولا بالمرأة : فالأمين لا يحيا إلاّ لإرضاء شهواته ، ويعيش منشغلا بها عن شؤون الجيش والدّولة[27]» . ثم ألقى عليه القبض ، لكنّ الجيش انقسم في

---

(24) * هما : أحمد بن مزيد وعبد الله بن حميد بن قَحطبة ، وجّههما الأمين الى حُلوان لحرب طاهر.

(25) * حُلْوان : مدينة قديمة في العراق العجمي ، فتحها العرب (640/20 هـ) وأحرقها السلجوقيون (438/1046 هـ) .

(26) * الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان (.... - 812 / .... - 197 هـ) : قائد ، كأبيه . تقدّم في العصر العباسي . ولما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون كان هو في الرّقّة ، ومات أميرالرّقّة عبد الملك بن صالح فقام ابن ماهان بأمرها ، وجهّز جيشا قصد به بغداد لنُصرة الأمين ؛ فدخلها ، ولم تُرضه سيرة الأمين ، فابتعد عنه ، ودعا الناس الى القيام عليه ، فالتفّ حوله خلق كثير؛ وقاتله بعض رجال الأمين فظفر بهم ، وأخذ البيعة للمأمون . وطلب منه أنصاره أعطياتهم ، فلم يجد ما يكفيهم ، فانقلب عليه أكثرهم وقاتلوه وأسّروه ، وحملوه مقيدا الى الأمين . وعفا عنه الأمين ، وخلع عليه واستوزره وولاّه الحرب ، وسيّره لقتال المأمون . فلما بلغ الجسر فرّ بحاشيته وخدمه . فبعث اليه الأمين من يردّه ، فأدركه جمع من الفرسان على فرسخ من بغداد فقاتلهم فقتلوه .

(27) * لم نجد أثرا للمصدر الذي أخذ عنه أ. كلو هذا التصريح . والكلام الوحيد الذي نُسِب الى الحسين بن علي هو الذي رواه له الطبري بمناسبة الحديث عن خلعه الأمين وبيعته للمأمون ، في الخطبة التي ألقاها في الجند والتي جاء فيها . « يا معشرالأبناء ! إنّ خلافة الله لاتُجاوَر بالبطر ، ونِعمه لا تُستصحب بالتّجبّر والتّكبّر ؛ وإنّ محمدا يريد أن يوتِغ أديانكم ، وينكث بيعتكم ، ويفرّق جمعكم ، وينقل عزّكم الى غيركم ، وهو صاحب الزّواقيل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدة وراجعه من أمره قوة ، ليرجعنّ وبال ذلك عليكم ، وليُعرَفنّ ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ؛ فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع =

شأنه . ولما رأى الأمين نفسه عاجزا عن إقرار الأمن من جديد في البلاد ، وزّع الأسلحة على الجماهير ظنّا منه أنها ستهبّ لنصرته ؛ لكن ذلك زاد الوضع تعقيدا ، وما أن حلّ يوم 25 أوت (آب) 812 (197 هـ) حتّى نزل طاهر وهرثمة ، قائدا عبد الله المأمون ، بجيشهما عند أسوار بغداد ، وبدأ حصارهما لها[28] .

" انتفاضة " بغداد

كانت بغداد مدينة محصّنة ، وكان من الصّعب الإستيلاء عليها . فقد كان الأمين قوّى الأبواب ، وفرّق الأموال في الجند ، ووزّع فرقا من الجيش فيما يلي باب خراسان الذي تحاصره من الخارج جنود هرثمة ؛ أما طاهر فقد نزل بإزاء باب البصرة ووكّل أحد قوّاده بالعتاد وآلة الحرب المأمونية ، فنُصبت جنوبيّ المدينة ؛ فما عمّت المدينة أن سقطت بأيدي الرّعاع فعمّتها الغوغاء . يقول الطبري في ذلك : « ... [ونقب أهل السجون وخرجوا منها] وفُتن الناس ، ووثب على أهل الصلاح الدُّعّارُ والشُّطّارُ، فعزّ الفاجر، وذلّ المؤمّن، واختلّ الصّالح ، وساءت حال الناس ...»[29]؛ وشبّه المؤرخ كينّدي[30] حصار بغداد بحصار باريس[31] وقال : « إنّ إفلاس الطبقة التقليدية أعطى العناصر الشعبية – وكانت لحدّ الآن بلا قيمة تُذكر– فرصة الصّعود على ركح المسرح السياسي » . وأعلن انتقاضُ كبير قواد الخليفة عن نهاية السلطة ؛ وفي هذا الصدد يضيف الطبري قوله : « ... وأمر [الأمين] حينئذ برمي الحربية [المرتزقة من الأعاجم ؛ والحربية أيضا اسمُ حيٍّ كان يقع شماليٍّ بغداد] بالنفط والنيران والمجانيق والعرّادات ، يقتل بها المقبلَ والمدبرَ... فكثر الخراب

= عزّكم ، فوالله لا ينصره ناصر إلاّ خذِل ، ولا يمنعه مانع إلاّ قتِل ؛ وما عند الله لأحد هوادة ، ولا يراقب على الإستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » ؛ (الملوك ، 8 ، 429) .

(28) * والحقيقة أنّ الحصار حول بغداد ضربه ثلاثة قوّاد : طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيّب .

(29) * الطبري ، 8 ، 443 (نقل أ. كلو كلام الطبري هذا بتصرف كبير) .

(30) * Kennedy

(31) * وهذا ما دعا أ. كلو ، في عنوان هذه الفقرة ، إلى وضع كلمة انتفاضة بين علامتي تنصيص. " ... " ، تنظيرا لانتفاضة بغداد بانتفاضة باريس la “ Commune” de Paris ، تلك المحاولة الثورية التي قامت بها الأوساط العُمّالية لجعل بلدية باريس تدير شؤون المدينة وتستغني في ذلك عن الدولة ؛ كان ذلك سنة 1871 (1288 هـ) إثر رفع الجيش البروسي الحصارَ عن العاصمة الفرنسية ؛ ولم يدُم هذا الحكم البلدي الثوري إلاّ شهرين ، إذ حاصر الجيشُ النظامي الفرنسي المدينةَ من جديد وفتك بسكانها فتكا ذريعا بقيادة الجنرال تيَار.

والهدم حتى درست محاسن بغداد...»[32] ثمّ قوله : «... فألحّ [أحد قوّاد الأمين] في إحراق الدور والدّروب ، وهدمها بالمجانيق والعرّادات ، على يدي رجل كان يُعرَف بالسمرقنديّ ؛ ... وفعل طاهر [قائد المأمون] مثل ذلك ... ؛ وأرسل الى أهل الأرباض ... وكلّما أجابه أهل ناحية خندقَ عليهم ، ووضع مسالحه وأعلامه ؛ ومن أبى إجابته والدخول في طاعته ناصبه وقاتله وأحرق منزله ؛ فكان كذلك يغدو ويروح بقوّاده وفرسانه ورجّالته ، حتّى أوحشت بغداد ...»[33]. أمّا المسعودي فيروي في ذات الصّدد الأبيات المُشْجية التالية :

بَكَتْ عَيْنِي عَلَى بَغْدَادَ لَمَّـــا ... فَقَدْتُ غَضَارَةَ ٱلْعَيْشِ ٱلأَنِيقِ

تَبَدَّلْنَا هُمُومًا مِنْ سُـــرُورٍ ... وَمِنْ سَعَةٍ تَبَدَّلْنَا بِضِيـــقِ

أَصَابَتْنَا مِنَ ٱلْحُسَّادِ عَيْـــنٌ ... فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بِٱلْمَنْجَنِيقِ

فَقَوْمٌ أُحْرِقُوابِٱلنَّارِ قَسْـــرًا ... وَنَائِحَةٌ تَنُوحُ عَلَى غَرِيقِ

وَصَائِحَةٌ تُنَادِي : يَا صِحَابِي ... وَقَائِلَةٌ تُنَادِي : يَا شَقِيقِي

وَحَـوْرَاءُ ٱلْمَدَامِـــعِ ذَاتُ دَلٍّ ... مُضَمَّخَةُ ٱلْمَجَاسِدِ بِٱلْخَلُوقِ

تُنَادِي بِٱلشَّفِيقِ فَلاَ شَفِيـــقٌ ... وَقَدْ فُقِدَ ٱلشَّفِيقُ مَعَ ٱلرَّفِيقِ

وَقَـوْمٌ أُخْرِجُوا مِنْ ظِـلِّ دُنْيَا ... مَتَاعُـهُـمُ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ

وَمُغْتَرِبٌ بَعِيدُ ٱلدَّارِ مُلْقًـــى ... بِلاَ رَأْسٍ بِقَارِعَةِ ٱلطَّرِيقِ

تَوَسَّطَ مِنْ قِتَالِـهِـمُ جَمِيعًـــا ... فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَيٍّ ٱلْفَرِيقِ

فَـلاَ وَلَـدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيـــهِ ... وَقَدْ هَرَبَ ٱلصَّدِيقُ عَنِ ٱلصَّدِيقِ

وَمَـهْمَا أَنْسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى ... فَإِنِّي ذَاكِرٌ دَارَ ٱلرَّقِيـــقِ

[من الوافر]

---

(32) * القولان واردان عند الطبري (الملوك ، 8 ، 446 و 447) ، وكأنَّ الشاهدَ الذي أورده أ. كلو في كليهما خلاصةٌ بتصرف لما ذُكِر فيهما من أحداث .

(33) * مروج ، 3 ، 442 ؛ وأورد الطبرى نفس القصيد (الملوك ، 8 ، 457) ، منسوبا الى بعض فتيان بغداد ، مرفوقا بذكر ما حلّ بسكان بغداد أثناء وإثر وقعة قصر صالح التي كانت لرجال الأمين على أصحاب طاهر؛ فمن ذلك قوله : « ... لم يزل طاهر مصابرا محمدا [الأمين] وجندَه حتى ملّ أهل بغداد (ص 454) ... واستأمن الى طاهرٍ صاحبُ شرطة محمد وكان يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش ... فاقتبلت الغواة من العيّارين (العيّار: كثير التجوّل والطّواف ، الذي يتردد بلا عمل ولا مقرّ) وباعة الطرق والأجناد فاقتتلوا داخل قصر صالح ... فلم تكن وقعةٌ أكثرَ قتيلا وجريحا معقورا من تلك الوقعة ... وقال فيها الغوغاء والرعاع [أي غلب] (ص 455) ... ولما كانت وقعة قصر صالح ... كان لصوصها (المدينة والأرباض وسوق الكرخ وفُرَض دجلة وباب المحوّل والكناسة) وفُسّاقها يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضّعفاء من أهل الملّة والذمّة ؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أنّ =

أو البيتين التاليين :

وَٱلْكَرْخُ أَسْوَاقُهُ مُعَطَّلَةٌ يَسْتَنُّ عَيَّارُهَا وَعَابِرُهَا
أُخْرِجَتِ ٱلْحَرْبُ مِنْ أَرْذَالِهَا أُسُودَ غِيلٍ عَلَتْ قَسَاوِرُهَا
[من المنسرح](34)

ويردّد الشّاعر المعروف بعليّ الأعمى(35) بدوره ، صدى هذه المعارك في الأبيات التالية:

خرَّجَتْ هذِهِ ٱلحُرُوبُ رِجَالاً لاَ لِقَحْطَانَ ، لاَ ، وَلاَ لِنِزَارِ
مَعْشَرًا فِي جَوَاشِنِ ٱلصُّوفِ يَغْدُو نَ إِلَى ٱلْحَرْبِ كَٱللُّيُوثِ ٱلضَّوَارِي
لَيْسَ يَدْرُونَ مَا ٱلْفِرَارُ إِذَا مَا ٱلْ أَبْطَالُ عَاذُوا مِنَ ٱلْقَنَا بِٱلْفِرَارِ
وَاحِدٌ مِنْهُمُ يَشُدُّ عَلَى أَلْـ فَيْنِ ، عُرْيَانُ مَا لَهُ مِنْ إِزَارِ
وَيَقُولُ ٱلْفَتَى إِذَا طعنَ ٱلطَّعْـ نَةَ : خُذْهَا مِنَ ٱلْفَتَى ٱلْعَيَّارِ
[من الخفيف](36)

= مثله كان في شيء من بلاد الحروب ...» (ص 456) ... ولما طال ذلك بالناس ، وضاقت بغداد بأهلها ، خرج منها من كانت به قوة بعد الغرم الفادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم ... وأمر محمدٌ ابنَ أبي خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتسهيل أمرهم ؛ فكان الرجل والمرأة إذا تخلص من أيدي أصحاب الهرش ، وصار الى أصحاب طاهر ذهب عنه الرّوع وأمن ، وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ ...» (ص 456) .

(34) * مروج ، 3 ، 443 ؛ البيتان من قصيدة طويله أوردها الطبري كشاهد على النوائب التي حلّت ببغداد أيام الحصار المضروب عليها من قبل طاهر وهرثمة وزهير بن المسيب ، والتي يصف بعضها بقوله . « ... وسمّى طاهرٌ الأرباضَ التي خالفه أهلُها ، ومدينة أبي جعفر الشرقية ، وأسواقَ الكرخ ، والخُلْدَ وما والاها ، دَارَ النّكث [بعهد الرشيد] ، وقبَض ضياع من لم ينحز اليه من بني هاشم والقواد والموالي وغلاّتهم ، فذلّوا وانكسروا وانقادوا ، وذلّت الأجناد وتواكلت عن القتال ، إلاّ باعة الطريق والعُراة وأهل السّجون والأوباش والرّعاع والطرّارين [ج . طرّار من "طرّ" أي قطع ؛ والطرّار هو قاطع الطريق ، وقيل النّشّال يشقّ ثوب الرّجل ويسلّ ما فيه] وأهل السّوق ، وكان حاتم بن الصفر أباحهم النّهب ، وخرج الهرْش والأفارقة فكان طاهر يقاتلهم ولا يفتر عن ذلك ... » (الملوك ، 8 ، 44) .

(35) * الملقب بعليّ بن أبي طالب .

(36) * مروج ، 3 ، 443 ، ووردت نفس المقطوعة بزيادة بيتين عند الطبري (الملوك ، 8 ، 458) وقد جعلها – كعادته – شاهدا على بقية الأحداث التي كانت أيّام الحصار، إثر وقعة قصر صالح حيث يقول . « ... وفي هذه السّنة ، منع طاهر الملاّحين وغيرهم من إدخال شيء الى بغداد، ووضع الرصيد عليهم بسبب ذلك ... وجعل يبايت أصحاب محمد [الأمين] ويدالجهم ، ويحوي في كلّ يومٍ ناحيةً ، ويخندق عليها المراصد من المقاتلة ؛ وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون ، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدّار وينصرفون ، فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون أضرّ على أصحابهم من أصحاب طاهر...(الملوك ، 8، =

كما يردّده عمرو بن عبد الملك الورّاق العَنَزي[37] في الأبيات التالية :

لَمْ يَبْقَ فِي بَغْدَادَ إِلاَّ امْـرؤٌ حَـالَفَهُ اَلْفَقْرُ كَثِيرُ اَلْعِيَالْ

لاَ أُمّ تَحْمِي عَنْ حِمَاهَا وَلاَ خَـالٌ لَهُ يَحْمِي وَلاَ غَيْرُ خَالْ

لَيْسَ لَهُ مَالٌ سِوَى مِطْرَدٍ مِطْرَدُهُ فِي كَفِّهِ رَأْسُ مَالْ

هَانَ عَلَى اَللَّهِ فَأَجْرَى عَلَى كَفَّيْهِ لِلشِّقْوَةِ قَتْلَ اَلرِّجَالْ

إِنْ صَارَ ذَا اَلأَمْرُ إِلَى وَاحِدٍ صَارَ إِلَى اَلْقَتْلِ عَلَى كُلِّ حَالْ

مَا بَالُنَا نُقْتَلُ مِنْ أَجْلِهِمْ سُبْحَانَكَ اَللَّهُمَّ يَا ذَا اَلجلاَلْ

[من السّريع][38]

فهذه الأنّات الأليمة ـ على ما فيها من بلاغة وسذاجة في نفس الوقت ـ تعبّر أحسن تعبير عما كان من ويل في المأساة التي تعانيها بغداد، وقد بات سكّانها يدفعون ثمن حصار ضربه طاهر على مدينتهم التي تمثل أكبر تجمّع سكني عرفه ذاك العصر. فقد دام الحصار عاما كاملا ، وبلغت المعارك فيه أشد درجات الضَراوة ؛ وقاتل فيه شعبُ بغداد – وكان سلاحُه العَصَا والمقلاع ، وخوذتُه سعفَ النّخل ، وترسُه ضفيرَ الأسَل – خيّالةَ جيش المأمون ؛ واستمات في قتالها ، وهي التي كان يكسوها الحديد ، وتشكها السّيوف والرّماح ؛ وكان المقاتلون ، الذين خرجوا من بغداد لمواجهة فرسان طاهر، عديمي العُدَّة ، مجرّدين حتّى من الثياب ، ولذلك سُمُّوا "العُرَاة"، وهو الإسم الذي عُرِفوا به عبرالتاريخ . ويروي المسعودي قائلا « ثارت العراة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطّرّادات من

= 458-459) ،« ويضيف :« وتحصّن محمد بالمدينة هو ومن يقاتل معه ، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب ، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما ... » (الملوك ، 8 ، 475) .

(37) * عمرو بن المبارك بن عبد الملك الورّاق العَنَزي بالولاء (... – نحو 815 / ... – نحو 201 هـ) . شاعر ماجن خليع ، أصله من البصرة ، له أخبار مع أبي نواس ، إشتهر في أيام الرشيد ، ونظم شعرا كثيرا في حرب الأمين والمأمون ، ويسمّى عمرو بن عبد الملك .

(38) * هذه الأبيات من مقطوعة واردة عند الطبري (الملوك ، 8 ، 460) كشاهد من الشواهد الشعرية على بقية الأخبارالتي يرويها عن بقية أحداث الحصار، ومنها قوله : « ... لما رأى طاهر أنهم لا يحفلون بالقتل والهدم والحرق ، أمر عند ذلك بمنع التّجّار أن يجوزوا بشيء من الدقيق وغيره من المنافع من ناحيته الى مدينه أبي جعفر والشرقية والكرخ ، وأمر بصرف سُفُن البصرة وواسط الى الفرات... فيما كان زهير بن المسيّب يبذرق [يخفر ويحمي] ما كان داخلا منها بغداد ، ويأخذ من كلّ سفينة فيها حمولة ما بين الألف درهم الى الألفين والثلاثة، وأكثر وأقلّ ، وفعل عُمّال طاهر وأصحابه ببغداد في جميع طرقها مثل ذلك وأشدّ ؛ فغلت الأسعار، وصار الناس في أشدّ الحصار، فيئسوا أو كثير منهم من الفرج ، واغتبط من كان خرج منها ، وأسف على مقامه من أقام » (الملوك ، 8 ، 461) .

القراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمّدية [أصحاب محمد الأمين] ، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية [أصحاب المأمون] ، فبعث إليهم طاهر بعدة قوّاد وأمراء من وجوه عديدة ، فاشتدّ الجلاد ، وكثر القتل ، وكانت للعُراة على المأمونية الى الظّهر ، وكان يوم الإثنين ، ثم ثارت المأمونية على العُراة من أصحاب محمد ؛ فغرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف »[39] .

أعقبت ثورةَ "العُراة" ، وكانوا يناضلون لكي تبقى بغداد عاصمة المملكة ، ثوراتٌ عديدة أخرى سترجّ المدينة العظمى دوريا ولمدة طويلة . وستنزل الجماهير الى الشارع لمجرد رائجة تروج ، أو شغب يحدث ، تارة لأسباب سياسية ، وطورا لأسباب اقتصادية ؛ فتَنهب ، وتُحرق ، وتُخرّب ، وتُقتّل . وستصبح تلك الزوابع جزءا من حياة المدينة ، ويُطلَق عليها اسم الفِتَن (والفتنة هي المسّ بوحدة المؤمنين) ، ويُعرَف المشاركون في شغبها بالعامّة ، وهي الجماهيرالتي لا يُعْرف لها اسمٌ ولا يُرى لها وجهٌ والتي يرمي بها الجوع الى الشوارع.

لقد أفلت من أيدي الأمين زمام الأمور، وإذ نفد ماله وبات عاجزا عن الهبة والعطاء ، أذن ، لمن أراد أن يتقاضى رزقه ، دخولَ منازل الموظفين لنهبها ، وهو ما كان قد حصل منذ أمد بعيد[40]؛ وألحّ عليه اليأس حتى قال يوما : « وَدِدْتُ أنّ الله قتَل الفريقين جميعا ؛ فما منهم إلاّ عدوّ : مَنْ مَعِي ، ومَنْ عليَّ ؛ أمّا هؤلاء فيريدون مالي ، وأمّا أولائك فيريدون نفسي »[41] .

في أواخر عام 813 (198 هـ) تسارعت الأحداث ، فانقطع الإتصال بين الضفّة الشرقية والضّفة الغربية ؛ وسقطت الكَرْخ[42] بأيدي القوّات المأمونية ، ولم يبق للأمين إلاّ

---

(39) * مروج ، 3 ، 446 .

(40) * والطبري يعطي عن هذه الإنتهاكات الصدى المأساوي التالي : «... وأمر محمد زُريحا غلامه بتتبّع الأموال وطلبها عند أهل الودائع ، وأمرالهرشَ بطاعته [والهرش قائد من قوّاده ، عاث في الأرض فسادا ؛ وسيخرج بعد سنة على المأمون ويبث البلبلة وينشر الفوضى حتى بلاد الكنانة] ، فكان يهجم على الناس في منازلهم ، ويُبيّتهم [يهجم عليهم] ليلا ، ويأخذ بالظنّة [بالرِّيبة] ، فجبى بذلك أموالا كثيرة ، وأهلك خلقا ، فهرب الناس بعلّة الحجّ ، وفرّ الأغنياء ...» (الملوك ، 8 ، 463) .

(41) * مروج ، 3 ، 447 ؛ الملوك ، 8 ، 470 .

(42) * الكَرْخ لفظ يدلّ في اللغة على مجمع المياه ، وفي الإصطلاح على أماكن عديدة كلها بالعراق، ورد منها في معجم البلدان . كرخ باجَدّا ، كرخ البَصرة ، كرخ بَغْدَاد ، كرخ جُدَّان، كرخ الرّقّة ، كرخ سامَرّا ، كرخ مَيْسَان ، كرخ عَبَرتَا ، كرخ خوزستان . يقول ياقوت في لفظة الكرخ : « ... وما أظنّها عربية ، إنّما هي نبطية ... » – والكرخ المتحدّث عنه في النّصّ حي من أحياء بغداد ، المدينة المدوّرة التي أسسها المنصور (أنظر الفصل الأول ، ص 34) ؛ =

المدينة المدوّرة وضواحيها . وتخلّى الخليفة وزبيدة عن قصر الخُلد وقصر القرار واختفيا في القبّة الخضراء وسط المدينة . وتقدّم اليه آخر من بقي مواليًا له من القوّاد[43]؛ فعرضوا عليه -إذ الوضع قد بات باعثا على اليأس- أن يجمع بعض المئات من شجعان "الأبناء" ، للخروج بهم ليلا من أحد أبواب المدينة ، فينجو بنفسه الى الجزيرة ، ومنها الى الشام ، حيث يمكنه السعي الى لمّ الشعث وجمع الشتّات وإعداد العُدّة لاسترجاع العرش وإنقاذ المملكة . فصرفه عن قبول هذا المُقترح من كان حوله من بطانته ، وكان طاهر قد دسّ فيهم بعض عيونه ؛ فأقنعوه بأن يأمر بالكفّ عن القتال وأن يستسلم ، لا الى طاهر بن الحسين الذي قد يُخشى بطشه ، بل الى هرثمة الذي كان يعرفه معرفة جيدة والذي حدّ من صرامته التقدّمُ في السّنّ . فأرسل الى القائد الشيخ ، خُفية عن طاهر ، يعلمه أنّه مستعدّ لتسليم نفسه اليه في معسكره ؛ وتمّ الإتفاق على أن يبعث بالخاتم والقضيب والبردة – رموز الخلافة – الى طاهر ، وعلى أن يخرج ببدنه الى هرثمة ؛ لذا تعهّد هذا الأخير بأن يأتي قرب القصر في حرّاقة [سفينة حربية لمواجهة العدُوّ] مع عدد من الرجال فيخرج اليه

= يقول ياقوت : « ... والأشعار في الكرخ كثيرة جدا ، وكانت الكرخ أوّلا في وسط بغداد والمحالّ حولها ؛ وأمّا الآن فهي محلّة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محالّ إلاّ أنّها غير مختلطة بها ... وأهل جميع المحالّ سُنّيّة حنابلة ... وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية ، لا يوجد فيهم سنّيّ البتّة » (معجم، 4 ، 448) . اشتهر الكرخ بالوقائع الدّامية التي حدثت فيه بين الشّيعيين والسنّيين أيّام بني بويه في القرنين 10 ً و 11 ً (4 ً و 5 ً للهجرة) . وعلى ذكر سقوط الكرخ بأيدى المأمونية قد يكون من المفيد ذكر ما أورده الطبري عن تُجّارها قبل سقوطها . قال : « ... [وأرسل تجّار الكرخ يقولون لطاهر . إن من ادعى الإنتساب اليهم ممن خرج لقتاله ليسوا منهم ، ولا لهم بالكرخ دُور ولا عقار، وإنما هم بين طرّار وسوّاط [ضارب بالسوط] ونطّاف [رجل مُريب] وأهل سجون . وإنما مأواهم الحمامات والمساجد ، والتجار منهم إنما هم باعة الطريق يتجرون في محقّرات البيوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ، حتى إنّ الرجل ليستقبل المرأة في زحمة الناس فيلتثان ، وحتّى إن الشيخ ليسقط لوجهه ضعفا ، وحتى إنّ حامل الكيس في حجزته وكفّه لَيُطرّ منه ... « (الملوك ، 8 ، 468) .

(43) * وفيهم محمد بن ابراهيم بن الأغلب ويلقّبه الطبري "بالإفريقي" ؛ والغريب أنه كثيرا ما نجد " الأفارقة "– في رواية الطبري لأخبار الفتنة التي نشبت بين الأمين والمأمون – مُورّطين في أحداث الشغب ، مُلحَقين دائما باللّفيف والرّعاع والسّفْلة والغوغاء والأوباش والزّواقيل ، مما يجعلنا نعتقد أنّ المشارقة كانوا لا ينظرون الى وجود المغاربة في الجيش العباسي بعين الرضى ، ومما كتبه الطبري في ذلك . « وثبت على قتال طاهر حاتمُ والهرشُ والأفارقةُ » (ص 474) ، و « كان حاتم قد أباحهم النّهب ، وخرج الهرش والأفارقة» (ص 448) ، و « الهرشُ خرج ومعه الغوغاء والعُراة ولفيفهم» (ص 468) ، و « كان يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش » (ص 455) ، و» جاءه الجُلودي والإفريقي وأبو البطّ وأصحاب الهرش » ، الخ ...

الأمين وينجو بنفسه ؛ وفي آخر لحظة ، اقترح هرثمة ، وقد لاحظ تحركات مريبة على الشاطئ ، أن تؤجل العملية الى الليل ، لكنّ الأمين رفض .

قدم هرثمة إذن مع ثلّة من رجاله ، وجثى على ركبتيه وقال للخليفة المخلوع . « ... يا سيّدي ومولاي ، وابن سيدي ومولاي ! » . ثم ركب الجميع الحراقة ، لكن ما كادت تبتعد عن الشاطئ حتى نزل الى النهر رجال مسلحون ، فأحاطوا بالسفينة ونقبوها ، فرسبت وغرق من كان فيها ؛ أمّا هرثمة فقد أمسكه جندي من شعره وأنقذه ؛ وأمّا الأمين فقد سبح حتى أدرك الشاطئ المقابل ؛ فعرفه رجال طاهر فقبضوا عليه وحملوه على حمار وأودعوه منزلا مجاورا . وحين أعلِم طاهر بإلقاء القبض على الخليفة ، أرسل عددا من غلمانه ومعهم رجل يدعى قُرَيش ، فاقتحموا عليه الدار؛ فلما رآهم الأمين أدرك ما كان ينتظره ، لكنه احتفظ بهيبته ووقاره . وإذ قال له أحمد[44]، صاحب شُرَطه ، وقد ألقِي القبض عليه معه : « قبّح الله وزراءك ، فهم أوردوك هذا المورد ! » – أجابه : « يا أحمد ، ليس هذا موضع عتاب ! فلا تقل في وزرائي إلاّ خيرا ، فما لهم ذنب ؛ ولست بأوّل من طلب أمرا ولم يقدر عليه ! » ، وجعل يصلّي[45] . وحوالي منتصف الليل ، دخل قوم من العجم بأيديهم السيوف مُصْلَتَة ، فحاول الخليفة أن ينجو من الموت وأن يشتري حياته بأغلى الأثمان[46]، فلم يفلح ؛ ولم يلبث أن أصيب في مقدمة رأسه بضربتي سيف فخرّ على الأرض ؛ فوثب عليه قريش الذي كان ضربه ، فحزّ رأسه وذهب به الى طاهر ، فنصبه – حسب العادة – على الجسر الكبير ببغداد .

هكذا ، و في الليلة الفاصلة بين 24 و 25 سبتمبر(أيلول) من عام 813 (198 هـ) هلك أكبر أبناء الرشيد سنّا [47]، الخليفة الوحيد الذي أنجبه أبوان هاشميان[48]. وقبْل أن يُقتل

---

(44) * هو أحمد بن سلاّم ، صاحب المظالم ، كان في ركب من القوّاد مع هرثمة في الحرّاقة التي جاء ت لتنقذ محمدا وغاصت في النهر ؛ ألقِي عليه القبض وحُبس في منزل ابراهيم البلخي مع الخليفة ، وحضر مقتله على يدي خمارويه ، أحدِ رجال قريش ، مولى طاهر، وروَى كل ما شاهد (انظر الملوك ، 8 ، 484-488) .

(45) * والصّواب أنّ أحمد هو الذي صلّى ؛ يقول المسعودي (مروج ، 3 ، 450) – وروايته مطابقة لرواية الطبري (الملوك ، 8 ، 486) ٠ ... قال أحمد : وقد كان بقي عليَّ من صلاتي الوَترِ ، فخفت أن أُقتَل [معه] ولم أوتِر، فقمت لأوتِر، فقال لي : « يا أحمد ، لا تبعد منّي ، وصلّ بقربي، فإنّي أجد وحشة شديدة » ، فدنوت منه ...

(46) * لعلها إشارة هنا الى ما ورد في كتاب طاهر الى المأمون ، حيث يروي للخليفة الجديد الظروف التي أُخِذ فيها أخوه وقُتِل ٠ جاء في هـذا الكتاب : « ... فأخذوه عنـوة وقهرا بلا عهد ولا عقد ؛ فدعا بشعاره ، وعاد في نكثه ، فعرض عليهم مائة حبّة ، ذكر أنّ قيمة كلّ حبّة مائة ألف درهم ، فأبوا إلاّ الوفاء لخليفتهم ، أبقاه الله ، ... » (الملوك ، 8 ، 491) .

جعل يقول : « إنّا لله وإنّا اليه لراجعون ... أنا ابن عمّ رسول اللّه ، أنا ابن هارون الرّشيد ، أنا أخو المأمون ! » .

الآن أضحى المأمون هو الخليفة الوحيد ؛ لكن ستظلّ الطّريق أمامه طويلة قبل أن يفرض سلطته على المملكة ؛ فآثار الفتنة لن تـمّحي في أجل قريب ، وستؤخّر حوادثُ عديدة رجوعه الى العاصمة .

عند مقتل الأمين ، كان المأمون لا يزال مقيما بمرو ، مع وزيره و"ظهيره" الفضل بن سهل الذي كان يريد أن يجعل من خراسان – وله فيها تأثير عظيم وصداقات متينة – قلب المملكة(49) .

هل كان المأمون يريد أن يضع حدّا للخلاف المستمرّ مع العلويّين ؟ أم هل أنّ الأمر انتهى بقناعاته الشخصية – المساندة لهم – الى أن تؤثر تأثيرا حاسما في ضبط توجّهاته ؟ يبدو أنّ ما حصل هو هذا وذاك . ففي ربيع 817 (202هـ) اتخذ قرارا مفاجئا يقضي بتعيين عليّ بن موسى ، الإمام الثامن المعروف عند الشيعة الإثني عَشَرية بعليّ الرِّضى ، وليّا لعهده ، فعُدل عن اللون الأسود ، شعار العباسيين ، الى اللون الأخضر، شعار العلويين؛ وزُفـَّت الى عليٍّ أمّ حبيب ، إحدى بنات الخليفة ، والى ابنه محمدٍ أمّ الفضل ، إحدى أخواتها . لم يكن في نية المأمون حرمانُ بني العبّاس من حقّ ارتقاء عرش الخلافة ، لكنه اعتبر أنّه بالإمكان – بصفة موقّتة – منحُ أقدر الرجال على إنهاء الخلاف القائم بين العلويين والعبّاسيين فرصة الحكم الى أن تتحقّق المصالحة ، وإذّاك لا شيء يمنع من رجوع الأمر الى ذُرِّيّة العباس . كان إذن قصد المأمون تدعيم وحدة آل البيت وتمتين أسس الخلافة ، لكنّ عكس ذلك هو الذي حدث .

مرّة أخرى أرجف الناس ببغداد وشغبوا ؛ وفي نهاية الأمر قرر أمراء بني هاشم الحاضرون خلع المأمون ومبايعة أحد أقرباء هارون الرشيد ؛ ففي البداية ، وقع اختيارهم على المنصور، أحد أبناء المهدي ، إلاّ أنّه رفض . فبُويع عندئذ بالخلافة ،ابن آخرُ للمهدي،

---

(47) * والمعلوم هو أنّ المأمون أكبر سنّا من الأمين ، وهو يكبر أخاه بسبعة أشهر .

(48) * والصواب هو ما قاله المسعودي : « ... ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء الى وقتنا هذا مَن أبوه وأمّه من بني هاشم ، إلاّ عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، ومحمد بن زبيدة » (مروج ، 3 ، 432) .

(49) * يقول الطبري في رفع المأمون لمنزلة الفضل بن سهل : « ... فعقد له في رجب من هذه السنة على المشرق ، من جبل همذان [بإيران] الى جبل سِقيان [بالصّين] والتّبَّت طولا ، ومن بحر فارس والهند الى بحر الدّيلم وجرجان [أي بحر قزوين] عرضا ، وجعل عُمالته ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين ، وأعطاه عَلَما ، وسمّاه ذا الرّياستين ... رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ... » (الملوك ، 8 ، 424) .

ألا وهو ابراهيم ؛ وفي جمعة 24 جويلية (تمّوز) 813 (198هـ) خُطِب له على المنبر في المسجد الجامع ببغداد ، ولُقّب بالمبارك ، وأُسقِط اسم المأمون من الخطبة ؛ ومن جديد ، صار للعالم الإسلامي خليفتان متنازعان .

إنّ اختيار إبراهيم ، المشهور في عالم الموسيقى والغناء ، والغريب عن عالم التدبير والإدارة ، لهو اختيار مدهش ؛ فقد كان فنّانا كبيرا ينادم الرشيد ، وكان لاهيا ماجنا مسرفا في التبذير؛ فلا شيء إذن يؤهّله لمباشرة شؤون الدّولة ، خصوصا في الظروف العصيبة التي تجتازها . فقد نفدت الأموال من الخزينة ، وسرعان ما اضطُرّ إبراهيم الى الأخذ من ماله الخاصّ لصرف أرزاق الجند . وبما أنّ ما لديه من الأموال لم يكن كافيا ، أذِن لبعض قوّاد جيشه أن يقتطعوا أرزاقهم من محاصيل الزراعة بالسّواد[50]، جهة بغداد. فحصدوا ما كان في المزارع واستولوا عليه ، ونهبوا القرى ، وهو بالطبع ، أمر ما كان ليرفع من سمعة الخليفة الجديد ؛ فاندلع في العاصمة من جديد شغب كبير وعمّت الاضطرابات وكان يصطدم فيها أنصار إبراهيم بأشياع عليّ [الرِّضَى] .

من الواضح أنّ قضيّة إبراهيم باتت مخسورة ، وأنّ الحَلّ العلوي الذي تخيّله المأمون قد أخفق ؛ وكلّ النّاس كانوا يعلمون ذلك ويلمسونه ، إلاّ المأمون . وستُزاح الغشاوة عن بصيرته على يد عليّ الرِّضى نفسه ؛ فقد بيّن للخليفة أنّ الشّعب غير راض على وجود الفضل بن سهل على رأس الدولة[51]وغير موافق على تعيينه هو وليّا لعهده ؛ وأنّ جلّ المسلمين في المملكة لم يَرضَوا بتسليم السلطة الى العلويّين ، ومن أجل ذلك بويع إبراهيم بالخلافة ؛ وأنّ عليه أن يعود الى بغداد لأنّ من شأن عودته الى العاصمة أن تعيد الأمن الى نصابه . وأيّد القوّاد هذا التحليل للوضع ، فقرر الرجوع ؛ وفي بداية 818 (203 هـ) غادر مرْو . وبعد شخوصه منها ببضعة أسابيع ، قُتِل الفضل بن سهل ، على الأرجح بأمر من المأمون نفسه . ثم واصل الخليفة سيره ، مرحلة بعد مرحلة ، في طريقه نحو

---

(50) * السّواد لُغةً . اسم لما حول البلدة من قُرًى وأرياف ؛ واصطلاحاً : اسم لموضعين ، أحدهما نواحي قرب البلقاء ، سُمِّيت بذلك لسواد حجارتها ، والثاني يُراد به رُستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطّاب ، سُمّي بذلك لسواده بالزرع والنخيل والأشجار؛ قال الأصمعي : السّواد سوادان ، سواد البصرة دستميسان والأهواز وفارس ، وسواد الكوفة كَسْكَر الى الزّاب وحُلوان الى القادسية (معجم ، 3، 292-293) .

(51) * والغضب شمل في الحقيقة الخاصة والعامّة ؛ قال الطبري : « ... تحدّث النّاس بالعراق بينهم أنّ الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنّه قد أنزله قصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قوّاده من الخاصّة والعامّة ، وأنّه يُبرم الأمور على هواه ، ويستبدّ بالرأي دونه . فغضب لذلك بالعراق مَن كان بها من بني هاشم ووجوه النّاس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون » (الملوك ، 8 ، 528) .

العراق ؛ و بعد ستة أشهر، وصل الى طوس وذهب الى قبر والده هارون الرشيد ، فصلّى وترحّم عليه ؛ وهناك ، في طوس ، هلك عليّ الرّضى ، بعد أن أكل عنبا كثيرا حسب البعض ، وعنبا مسموما حسب البعض الآخر. على كلّ ، فالوفاة الأولى والوفاة الثانية ساعدتا كثيراعلى حلّ مشاكل الخليفة : فالوزير المقوت لدى الرأي العام طواه الرّدى ، والإختيار العلوي في السّياسة عُدِل عنه .

وتلقّى طاهر– وقد بقي مع جيشه ، صامتا بالرّقّة – الأمر َبالزّحف الى بغداد فدخلها في العاشر من أوت (آب) 819 (204هـ) ، تقريبا في نفس الوقت مع الخليفة ؛ وقد انقضى على وفاة الرشيد ما يزيد على العشر سنين .

الفصل السابع

بغداد

" بغداد التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها [1]."
(اليعقوبي)

" بغداد هي مصر الإسلام ، وبها مدينة السّلام ؛ ولها الخصائص والظرافة ، والقرائح واللّطافة ، هواء رقيق ، وعلم دقيق ، كلّ جيّد بها ، وكلّ حسن فيها ، وكلّ حاذق منها ، وكلّ ظريف لها ، وكلّ قلب اليها ، وكلّ حرب عليها " [2] .
(المقدّسي)

(1) * البلدان ، 7 .
(2) * المقدسي ، 3 ، 119 .

قال [المنصور] : « ما اسم هذا الموضع ؟» – قيل له : « بغداد » – قال : « هذه ، والله ، المدينة التي أعلمني أبي محمد بن عليّ أنّي أبنيها ، وأنزلها ، وينزلها وُلْدي من بعدي ؛ لقد غفلَتْ عنها الملوك في الجاهلية والإسلام ، حتّى يتم تدبير الله لي وحكمه فيَّ ، وتصحّ الروايات ، وتبين الدّلائل والعلامات ؛ وإلاّ فجزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيّها ، والفُرات غربيّها ؛ مشرعة للدنيا ، كلّ ما يأتي في دجلة ، من وَاسط[3]، والبَصْرة[4]، والأُبُلَّة[5]، والأهْوَاز[6]، وفَارِس[7]، وعُمَان[8]، واليَمَامة[9]، والبَحْرَيْن[10]، وما يتصل بذلك ،

---

(3) * وَاسط : اسم عدّة مواضع في العراق ، أهمها المدينة التي أنشأها الحجّاج بن يوسف بين الكوفة والبصرة نحو 702 (83 هـ) ؛ كانت على أيام بني أمية قاعدة العراق العجمي ' أخذت بالإنحطاط على عهد بني العبّاس ، ثم تحوّلت عنها مياه دجلة فـأمْحَلَت أراضيها وتوارت تحت رمال الصحراء .

(4) * أنظر ص 18 رقم 30 .

(5) * الأُبُلّة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة ؛ وهي أقدم من البصرة ، لأنّ البصرة مُصِّرت في أيّام عمر بن الخطّاب ، وكانت الأبلّة حينئذ مدينة فيها مسالح من قِبَل كسرى .

(6) * الأهْوَاز: من أقاليم الدولة العباسية ، يسمّى اليوم بلاد خُوزِسْتان ، يقع جنوب غربيّ إيران ، في منطقة هي اليوم غنية بآبار النفط ، فبها مدينة عَبَدان .

(7) * أنظر ص 124 رقم 42 .

(8) * عُمَان : كورة عربية على ساحل بحر اليمن وبحر الهند ، تشتمل على بلدان كثيرة ، ذات نخل وزرع ، إلاّ أنّ حرّها يُضرَب به المثل ؛ وفي العصر العباسي كان أكثر أهلها خوارج أباضية . هي اليوم سلطنة مستقلة عاصمتها مَسْقَط ، ومن مدنها مَرْباط ، وصُور ، وصُحار .

(9) * اليمامة . بلاد في أواسط الجزيرة العربية ، حدودها غير معيّنة ، كثيرا ما ورد ذكرها في أخبار العرب ؛ سكنتها جَدِيس في الجاهلية ، وكان لها فيها حصن في وادي عِرْض . يقول عنها ياقوت . هي معدودة في نجد، وعاصمتها حَجْر.

(10) * البَحْرَيْن . اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة واليمامة ، وهي من أعمال العراق ، واليمامة على جبالها ؛ هذا كان في أيام بني أمية ، فلما ولي بنو العباس ، صيروا عُمان والبحرين واليمامة عملا واحدا؛ يقول عنها ياقوت : أهل البحرين ، بضد أهل عُمان وعلى قربهم منهم ، كلهم روافض سبائيون. والبحرين اليوم مجموعة جزرتتكوّن منها إمارة مستقلة ، عاصمتها المنامة .

فإليها تُرقى ، وبها تُرسَى ؛ وكذلك ما يأتي من المَوْصل[11] وديَار رَبيعَة[12]، وأذَرْبَيْجَان [13]، وأرْمينِيَّة[14] ، مما يُحمل في السفن في دجلة ؛ وما يأتي من ديَار مُضَر[15]، والرَّقـّة[16]، والشَّام ، والثـُّغور[17]، ومصر ، والمغرب - ممّـا يُحمل في السُّفن في الفرات - فيها يحتطّ وينزل ، ومدرجة أهل الجَبَل[18] ، وأصْبَهان[19] ، وكُور خـُراسان . فالحمد لله الذي ذخّرها

---

(11) * أنظر ص 100 رقم 34 .

(12) * ديَار رَبيعَة : هي البلاد الواقعة بين المَوْصِل ورأس العين في شمالي ما بين النهرين . أطلِق عليها هذا الإسم نسبة الى رَبيعة بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان .

(13) * أذَرْبَيْجان : إقليم جبلي واسع يقع ما بين بَرْذَعة مشرقا وأرْزَنْجان مغربا، وتحدّه شمالا بلاد الدَّيلم والجِيل والطَّرْم ؛ من أشهر مدائنه : تبريز وهي قصبته - وكانت قصبته قديما المراغة - ، وخُوَيّ ، وسَلَماس ، وأُرْمية ، وأردبيل ، ومَرَند . وهو صقع جليل ، ومملكة عظيمة ، فيه قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة ، وفواكه جمّة ؛ ماؤه بارد عذب صحيح ، وأهله صِباح الوجوه، حُمرُها ، رقاق البَشَرة ، ولهم لغة يقال لها الأذَرية ؛ وفي أهلها لين وحسن معاملة ، إلا أنّ البخل يغلب على طباعهم ، وهي بلادٌ فتنةٍ وحروب ، ما خلت منها قطّ ، فلذلك أكثر مدنها خراب (معجم ، 1، 128) ؛ وحديث ياقوت هنا يخص ، طبعا ، القسم الإيراني من كتلة جبال أذربيجان ، وهي التي فتحها المسلمون في عهد عمر على يد حُذيفة بن اليمان . وأذرْبَيْجان اليوم إحدى جمهوريات ما كان يُدعى بالإتحاد السوفياتي سابقا ، ولغتها الآزِرية التركية . لها مع جارتها أرمينيا خلافات أدّت أخيرا الى نزاع مسلّح .

(14) * أرْمِينِيَّة : (مصطلح تاريخي إسلامي مثل إفْرِيقيَّة) هو القسم الجنوبي الشرقي الذي افتتحه المسلمون من أرْمِينِيَا ؛ وأرْمِينِيَا (مصطلح خغرافي مثل آفْرِيقِيَا) هي أنجاد وجبال (ذروتها أرَرَات) تقع شرقي آسيا الصغرى جنوب القفقاز، بين أنجاد إيران شرقا ، والأناضول غربا ، وبين بحر قَزْوِين ومسيل الفرات الأعلى ، يجتازها نهر أراكس . كانت أرمينيا دولة مستقلة منذ أقدم العصور، وبلغت أوج العزّ على أيام تِجْران الكبير؛ ثم تنازعها البيزنطيون والعباسيون في ولاية أمرائها البَغْراطيين (885-1079/272-472 هـ) . وبعد الفتح السلجوقي وانقراض الإمبراطورية البيزنطية تقاسمتها روسيا وإيران والدولة العثمانية ؛ وأرمينيا اليوم منطقتان : تركية (ولايات قَرْص ، وأرضروم ، ومُوش ، وبِتْلِس ، وفَان) وروسية (جمهورية أرمينيا و عاصمتها أرِيوَان ، ولها مع جارتها أذربيجان نزاع ترابي أدّى الى اعتداءات مسلّحة) .

(15) * ديَارُ مُضَر: منطقة في الجزيرة ما بين النهرين ، تشمل بلاد الفرات من سُمَيساط الى عانا، كانت قاعدتها الرّقّة .

(16) * أنظر ص 99 رقم 32 .

(17) * أنظر ص 58 رقم 20 .

(18) * الجَبَل اسم جامع للأعمال التي يقال لها الجِبَال ، وهو اسم علم للبلاد المعروفة اصطلاحا بالعراق العجمي ، وهي ما بين أصبهان الى زنجان وقَزْوين وهمذان والدِّينَوَر وقرميسين والرَّي .

(19) * أصْبَهان أو أصْفَهان : مدينة في إيران (والإسم يطلق أيضا على إقليمها)؛ كانت عاصمة =

لي ، وأغفل عنها كلّ من تقدّمني ؛ والله ، لأبنينَّها ، ثم أسكنها أيام حياتي ، ويسكنها وُلْدي من بعدي ، ثم لتكوننّ أعمر مدينة في الأرض »[20] .

أعظم مدن الدنيا ازدهارا

لا شيءَ ، في بغداد ، تلك الآية من آيات التشييد الحضري– ويكاد لا يُرى لها اليوم أثرٌ يُذكر– مدينٌ للطبيعة بحال من الأحوال . ولا شيءَ يميّز موقعها عن غيره . فلا تلالَ مثلما هو الشأن في رُوما[21] أو إستَنبُول[22] ، ولا برودة واحات مثلما هو الأمر في دِمَشق[23] ، ولا أَكْرُبول[24] تُقام فوقه قلعة كما هو الحال في أَثِينا[25] أو القُدْس[26] . فقد أسِّست قديما

= الصفويين ، بنى بها عباس الأول المسجد المعروف (القرن 17م / 11ه للهجرة) ؛ وهي اليوم مشهورة بصناعة الحرير والطنافس .

(20) اليعقوبي (البلدان ، 10-11) .

(21) * روما أو روميّة : عاصمة إيطاليا اليوم ، على نهر التّيبر؛ يرجع تأسيسها الى القرن 8م قبل الميلاد ، على يدي التّوأمين روموس وريمولوس ، حسب ما ترويه الأسطورة . هي من المدن الأثرية والدينية المعدودة ذات التاريخ الحافل . قصدها القديس بطرس ، وأقام بها كرسيّه ، فتوطدت فيها النصرانية رغم الإضطهادات التي سلطها الأباطرة عليها ؛ هي اليوم أيضا عاصمة الكنيسة الكاثوليكية .

(22) * إستنبول : أكبر مدينة في تركيا وعاصمة الدولة العثمانية ماضيا (الباب العالي) . الغالب على الظّنّ أنّ اسم إستنبول مشتقّ من العبارة اليونانية is ten pole يعني"نحو المدينة " ؛ ثم غُيِّر شكل العبارة وأكسبت صيغة اسلامية ، فصارت " إسلامبول" يعني مدينة الإسلام ، ثم تحوّلت الى " إستنبول " (ومخنصره" الآستانة ") الذي لم يصبح اسما رسميا للمدينة إلاّ بعد الثورة الكمالية ؛ وفي العهد البيزنطي ، كانت عاصمة لمملكة الروم وتدعى"القسطنطينية" (بيزنطة سابقا) .

(23) * أنظر ص 13 رقم 3 .

(24) * الأكروبول acropole : هو الجزء الأعلى المحصّن من مدينة إغريقية .

(25) * أثينا: عاصمة اليونان اليوم ؛ كانت دولة بحرية مزدهرة ، أخضعت لنفوذها الدويلات اليونانية المستقلة (القرن 5م ق م) وعرفت حينئذ عصرها الذّهبي ("عهد بِرِكلِيس") . أصبحت جزء ا من الإمبراطورية الرومانية (القرن 2م ق م) ، لكنها احتفظت بنفوذها الثّقافي والفني . استولى عليها العثمانيون في القرن 15م (9ه للهجرة) وتحررت من سلطتهم في القرن 19م (13ه للهجرة). اشتهرت قديما برجالاتها من فلاسفة وأدباء وفنانين وسياسيين وقوّاد . امتازت ببناياتها الفخمة ، وأهمها آثار أكروپوليس ، ومنها معبد پرثينون ذو الروعة الخالدة .

(26) * أنظر ص 14 رقم 11 .

مدنٌ عديدة ، غيرَ بعيد من ذاك الموقع ؛ منها : بابِل[27] وسَلُوقِيَة[28] وطَيْسفُون[29]؛ وجميعها، على غرار بغداد ، شُيِّدت على الطريق المُؤدِّية من الهضبة الإيرانية الى بلاد ما بين النّهرين وأرض الشّام . فعبْرَ آلاف السّنين ، ارتحلت جماعات البشر، وتنقّلت الثقافات والسِّلع من البحر المتوسط الى أواسط آسيا والهند والشرق الأقصى ، سالكة تلك الطريق القديمة التي تجتاز جبل الزّاچروس[30] ، بين خانقين وهمذان ، لتصل الى السهل العراقي ، على مسافة قليلة نحو الشمال . فقلّما كانت المياه تغمر بفيضانها الأراضي المجاورة لبغداد ، ثم انّ دجلة هـهنا قريبة من الفرات مما يجعل الربط بين النهرين بالقنوات أمرا يسيرا . وسرعان ما تبين أنّ هذا المفترق الهام للطرقات يمثل موقعا ممتازا ؛ وفي فترة وجيزة جدا نشأ ونما فيه تجمع سكني هائل .

كان المنصور ينوي ، بادئَ الأمر، تأسيسَ مدينة/قلعة لتجميع وسائل الحكم فيها، أي تشييدَ عاصمة سياسية وإدارية ، بلا حدائق ولا ملاعب ؛ لكنّها ظلّت ، اليوم تلو الآخر، تستحيل الى حاضرة فخمة يجلب اليها بهاؤُها وثراؤُها ، من سائر جهات المملكة – وحتى من أصقاع نائية تقع خارجها – العددَ العديد من الرجال . فما كان مطلوبا من بغداد هو أن تكون جمعاً من القصور لسكنى الخليفة وآل بيته ، ومن المباني الحكومية لإيواء مصالح الدولة : إذا بها تنقلب في أقلّ من اثنتي عشرة سنة الى مدينة كبرى ؛ ولم يمض نصف قرن ، حتى باتت عاصمة هارون الرشيد – التي قد يكون إذّاك عدد سكانها قد بلغ المليون نسمة – أعظم مدن المعمورة ، في عصرلم تتجاوز خلاله أعمَر المدن في شمال إيطاليا وفي بلاد فلاندرا الأربعين ألفا ؛ وبالمقارنة مع بغداد – التي تمتدّ على مساحة تقارب المائة كلمتر مربع–كانت باريس تبدو آنذاك حقيرة الحجم . فلا سبيل لمقارنتها إذن إلاّ بالقسطنطينية ، أو بدمشق والقاهرة ، وستعدّ الأولى عمّا قريب 300.000 والثانية 500.000 نسمة .

---

(27) * بابِل : مدينة قديمة أنقاضها واقعة على الفُرات ، قرب الحلّة ، جنوب شرقي بغداد . أسَّس فيها سوموابوم الأمّـوري (ق 21ً ق م) سلالة كان سادسَ ملوكها حمّورابي (ق 19ً ق م) مُوحِّدُ سُومَر وأكّاد ؛ خضعت لسوريا بضعة قرون ثم أصبحت بعد سقوط نِينَوى (612 ق م) عاصمة نبوكدنصّر، وأخضعها الإسكندر فجعلها عاصمة للشرق ؛ انحطّت على عهد خلفائه السَّلوقيين ؛ وجاء في التوراة أنّ برج بابل بناه أبناء نُوح ليعلوا به الى السماء ، فتبلبلت ألسنتهم وتفرقوا وخرب البرج .

(28) * سَلُوقِيَة Séleucie : مدينة اختطها سَلُوقوس نيكاتور على ضفّة دجلة اليمنى (307 ق م)، وجعلها عاصمة لمملكة سوريا على اثر انقسام امبراطورية الإسكندر؛ استولى عليها البارثيون (140 ق م) ، فانتقل كرسيّ السلوقيين الى أنطاكيا ؛ أنظر ص 31 رقم 76 .

(29) * أنظر ص 14 رقم 8 .

(30) * أنظر ص 100 رقم 33 .

إنّ الأسباب التي أحدثت هذا النموّ المدهش والتي نعثر عليها في كلّ فترات التاريخ – سيما في أوروبا خلال القرنين 12ً و13ً (6ً و 7ً للهجرة) ، أو في البلقان والأناضول خلال القرنين 15ً و 16ً (9ً و 10ً للهجرة) – لهي دائما أسباب واحدة : سلام شامل ، استقرار سياسي ، ادارة حازمة ، موارد أو تيارات اقتصادية جديدة تستغلها استغلالا واسعا الشرائحُ النشيطة من السكان ؛ وبنفس الدوافع سيشهد الشرق العربي خلال القرنين 8ً و 9ً (2ً و 3ً للهجرة) أعظم نهضة عمرانية عرفتها البشرية .

لقد توفرت في بغداد جميع الشروط التي يقتضيها مثل ذاك التطور، وعبقرية المنصور تمثلت في اكتشافها واستغلالها ؛ فالفلاحة في ازدهار متزايد بفضل ما نُفِّذ في المنطقة من الأشغال منذ العهد الساساني ، ومنها : تجفيف المناقع ، وتعاطي الريّ لإنجاح الزراعات الغذائية ، وإدخال زراعة القصب السكري ، والنخل ، وشجر البرتقال ، والنباتات الصناعية (القطن بالخصوص) . فبغداد – وقد شُيِّدت وسط شبكة من القنوات وعلى مقربة من منطقة معروفة بخصبها منذ القدم ، ومؤهلة لمزيد من النماء بفضل ما يتعاطاه فيها المزارعون والبستانيون من إحياء – سيُكتب لها مستقبل زاهر. ولن يلبث تدفّقُ النّازحين الى المدينة – مع حمّى تشييد البناءات وتلبية الحاجات التي سيحدثها – أن يخلق طلبا متزايدا في الرجال ورؤوس الأموال ، وستنجرّ عن ذلك مضاربات كالتي يشهد بتفشّيها خبر يرويه المؤرخ الخطيب البغدادي إذ يقول . « ... إنّ المهدي لما أفضت اليه الخلافة قدم عليه وافد من الروم يهنّيه ... فخرج [الوافد] يتنزّه ومرّ بموضع الأرحاء فنظر اليه . فقال للربيع [بن يونس أبي فروة ، وكان يرافقه] : « أقرضني خمسمائة ألف درهم أبني بها مستغلا يؤدّي في السنة خمسمائة ألف درهم » – فقال : « أفعل » ، ثم أخبر المهدي بما ذكر ، فقال : « أعطه خمسمائة ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وما أغلّت فادفعه اليه ، فإذا خرج الى بلاده فابعث به اليه في كل سنة » ، ففعل ؛ فبنى الأرحاء [مطاحن للحبوب أقامها في ملتقى نهرين] ثم خرج الى بلاده ، فكانوا يبعثون بغلّتها اليه حتى مات ، فقُبِضت عنه ، وأمر المهدي أن تُضمّ الى مستغلّه ...»[31] .

وعلى غرار ما فعل رسول القيصر ، كان كلّ النّاس يتعاطون المضاربة ، بدءًا بآل البيت العباسي وكبار الموظفين وصغارهم ؛ فكل من له نصيب من الثراء كان يشتري ويبيع الأراضي ، ويقتني الأسهم في المؤسسات ، متجاهلا بلا خجل ولا وجل ، تحريم الدين للرِّبى والتحفّظات التي يحيط بها التعامل بالمال .

فأوّل من استقرّ حول المدينة المدورة هم هؤلاء الذين أقطعهم الخليفة أراضي ، ويأتي في المقدمة أشد الناس إخلاصا للنظام ، وعلى الأخصّ أفراد الأسرة العباسية . أوَ

(31) * الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد ، 1 ، 91-92] .

لم يُوص المنصور بهم خيرا ابنَه المهدي بقوله : « ... أن تُظهرَ كرَامتَهم وتُقدِّمَهم وتُكثرَ الإحسانَ اليهم ، وتُعظِّمَ أمرَهم ، وتُوطِئَ الناسَ أعقابَهم ؛ فإنّ عزَّهم عزُّك ، وذكرَهم لك[32] ...».
وأنـزِل أبناءُ المهديّ شرقيّ المدينة ، ريثما ينتهي الخليفة من بناء قصره بالرصافة ، على الساحل المقابل من دجلة ، وعندها التحق به كبار الموظّفين .

أما [ذُرّية] الصّحابة – وقد اتّخذوا مقرّا لهم من أراض أعطاهم إيّاها الخليفة – فكانوا ينتمون الى أشدّ القبائل له ولاء (ويرجع نسبهم الى [المهاجرين من] قريش ، والأنصار، وبعض عشائر اليمن) ، وكانوا أبرز المقرَّبين اليه من بين بطانته ' كان عددهم كبيرا جدا بالبلاط حيث يخلّدون التقاليد الأدبية والشعرية الموروثة عن العهد الجاهلي ؛ فاليهم عهِد المنصور بتعليم ابنِه المهدي أيامَ العرب وآدابَهم ، وكذا فعل المهدي في تربيته لابنيه الهادي وهارون . ومُنِحت أراضٍ أيضا لعدد آخر من القبائل العربية ، وهي التي يرجع الفضل لرؤسائها في سقوط مدن ، كالموصل وواسط والبصرة والكوفة أيام الثورة ، بأيدي العباسيين الذين لم ينسوا لهم ذلك .

ولم ينس العباسيون كذلك العون الذي أمدهم به جند خراسان ، أولائك العرب الذين قرّوا بإيران واندمجوا في الفرس وصاروا القوة الضاربة للجيش الذي أوصلهم الى الحكم ؛ وإذ أعِيد "تعريبُهم" وتنظيمُهم على أسس قبلية ، وصاروا أتباعا « أوفياءَ ، ذوي شهامة وعفة لا تقبل في الموالاة مساومة » ، فقد أضحوا يزوّدون بالرجال ، بالنسبة للخلفاء الأوائل ، أكثر وحدات الجيش إخلاصا .

وأمّا الموالي ، فقد كان لهم أيضا حيّ مستقلّ ؛ فالأهمية التي منحها إياهم المنصور وابنه المهديّ من بعده ، ثم الدّور الخطير الذي باتوا يلعبونه في الإدارة ، خاصة في البريد ، لم يتضاءلا في عهد الرشيد ، بل – على العكس – تزايدا دون انقطاع . ولن يُقضى على طبقتهم بالإنقراض ، وعلى جموعهم بالذوبان في عموم الملإ من المسلمين إلا بعد ذلك العهد بمدة ، أي بعد الفتنة التي ستنشب بين الأمين والمأمون . أما الآن ، فما زال العدد الكبير منهم يحتلّ مناصب مرموقة : فمنهم المستشار لدى الخليفة ، بل ومنهم حتى الوزير' وقد يكون أحيانا لتدخلهم ، بمناسبة ارتقاء أحد الأمراء العرشَ ، تأثيرٌ حاسم . وبالإضافة الى الحيّ الذي منحهم إياه الخليفة ، فقد كان لهم أيضا ، عبر كامل المدينة تقريبا ، أراض أخرى تبرّع بها عليهم .

إنّ المخطط الذي أعده المنصور لمدينته لم يقرأ حسابا للتوسع الذي فرضه عليها تواقد القادمين اليها ، بُعَيد اتّخاذ الخليفة من القبة الخضراء مجلسا له في قصره الجديد، ولا شك أنه كان أوّل من باغته الأمر في ذلك ؛ فالوافدون الجدد على بغداد ينتسبون الى

(32) * الملوك ، 8 ، ص 103 .

أعراق يختلف بعضها شديد الإختلاف عن البعض الآخر، ويمثلون عناصر لا يؤتمن جانبها لقلة الإنضباط الغالب عليها ؛ ومن السَّهل أن نتخيّل المصاعب التي لقيتْها معهم آنذاك السلطة ، إذ كانت قليلة التهيّؤ لمواجهة مثل تلكم الأوضاع ؛ فأوّل الوافدين كانوا من خُراسان ، واليمن ، والحجاز، وواسط ، والكوفة . ثم تدفّق السّيل ، وأقبلت أقوام من سائر أصقاع الشرق ومن كلّ الطبقات الإجتماعية ؛ فملأت المدينة وأرباضها : رجال فكر ، فنانون ، باعة ، متاجرون ، مساكين بلا عمل . وكانت الأسواق قد حُوّلت الى الكرخ الذي أصبح أكبر مركز تجاري ، وها هو ذا اليعقوبي يصفه لنا بقوله : « والكرخ ، السوق العظمى، مادّة من قصر وضّاح الى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ، ومن قطيعة الربيع الى دجلة عرضا مقدار فرسخ[33]؛ فلكلّ تجّار وتجارة شوارع معلومة ، وصفوف في تلك الشّوارع ، وحوانيت ، وعراص ؛ وليس يختلط قوم بقوم ، ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم ، وكلّ سوق مفردة ، وكلّ أهل تجارة منفردون بتجارتهم ، وكلّ أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم[34] ». وليس الفصل بين أصناف التجارات بالأمر المستحدث ، وهو لا يزال موجودا بالشرق الى الآن .

عرف الكرخ نموًّا سريعا يقول عنه اليعقوبي : « ... فهذا ربع من أرباع بغداد ، وهو الربع الكبير ... وليس ببغداد ربع أكبر ولا أجلّ منه »[34] . بُنِيت بالكرخ منازل فخمة ، بجانب دُور أكثر تواضعا ، بنفس الفوضى النى نجدها في جميع مدن الشرق تقريبا . على أنّ بعض الأحياء صارت أكثر أرسطقراطيةً من غيرها ، بسبب ضرب من " حُمّى التقليد والمفاخرة " التي أصابت بعض ذوي اليسار والتي تولّدت عن تنضيد طّبقي طَبَع مدة طويلة مجتمعات المدن العباسية الكبرى . فالسكنى بحيّ الشمّاسية مثلا كان دُرْجَة (مُوضة) شائعة جدا في ذلك العهد : فبعض السكك يسكنها القضاة ، وثانية أغنياء التّجّار، وأخرى أصحاب الحوانيت ؛ وكثيرا ما كانت مكانة الحيّ تتغيّر طبعا بحسب ما يطرأ من الأحداث السياسية والإجتماعية ؛ والأسواق ذاتها كانت تُنْقَل من قسم الى ثان من أقسام المدينة .

وفي فترة من الزمان وجيزة اكتضّت الضّفّة اليمنى لنهر دجلة وهي التي أقيمت عليها المدينة المدوّرة وحي الكرخ ؛ ثم طفح سيل السكان على الضّفّة اليسرى ، قرب المعسكر الذي أعده المنصور لابنه المهدي ، وهذا الحي الذي عُرف بالرصافة[35] سرعان

---

(33) الفرسخ يساوي 6 كلمترات تقريبا .

(34) اليعقوبي [البلدان ، 18] .

(35) * في سرد أحداث 151 هـ يقول الطبري : « وفي هذه السنة ابتدأ المنصور ببناء الرصافة في الجانب الشرقي من مدينة السلام لابنه محمد المهدي ... [وذلك] أن المهدي لما قدم من =

ما اتسع حول قصر الخليفة ، إذ أنّ المهدي ، بسخائه وعدد المنشآت التي شيّدها وشيّدها قوّاده ، لم يلبث أن جلب اليه العديد من الناس . ومن الذين قصدوه بنو برمك ، فقد اتخذوا في الحيّ الجديد مساكنهم ، فساعدوا بذلك على ازدياد الخيرات فيه . فابتنى به كل من يحيى وجعفر قصرا فخما ، وسيقفُو الأمينُ والمأمون آثارَهما ؛ فالخلفاء لايميلون الى سكنى القصورالتي أقامها من سبقهم في الحكم ، فكان يبني كل واحد منهم قصرا جديدا أفخر من قصر سلفه . تُرَى ماذا كان دافعهم الى ذلك ؟ أهو التطيّر أم الرغبة في التشييد ؟ كان للرشيد قصور عديدة عبر نواحي العراق ، وكان ينزل بها في تنقلاته ، مصحوبا بعدد لا يُحصى من الخدم والأتباع . وكانت تلك القصور تُبنى باللَّبن (المضروب بالطين المجفّف) ، ونادرا ما تُبنى بالآجُر(المصنوع من الطين المشويّ) ؛ لذا فهي تنهار حالما يُغفَل تعهّدُها[36]، فيأتي سكّان ما حولها من الدساكر والقرى ويسطون على آثارها فيبتزّون منها ما يحتاجونه من موادّ صالحة للبناء ، ويجعلون منها تلك الخرائب الدارسة التي عفى رسمها والتي تنتشر آثارها في ما بين النهرين الى اليوم .

عندما يشرف القرن 8ً (2ً للهجرة) على نهايته ، سيحتل ثلاثة وعشرون قصرا فضاءات شاسعة ، خصوصا في الناحية الجنوبية من المدينة (التي ستُدعى دارالخليفة)، وتمتد بغداد آنذاك وينتشر عمرانها انتشارا واسعا على ضفتي النهر ؛ ففي عهد هارون الرشيد كان يربط بين الشاطئين ثلاثة جسور معقودة على المراكب ، أحدها يعبر دجلة قرب باب خراسان ، والثاني عند الكرخ ، والثالث الى ناحية الجنوب . وكانت تخترق المدينة شبكة من القنوات إذ كان نقل البضائع والركاب يجري جلّه بواسطة المسالك المائية ؛ وعلى ما رواه المقدّسي « فإنّ سكّان بغداد يغدون ويروحون على المراكب عبر النهر ، إذ ثلثا أرباعها وقصورها ومنازلها شارعة عليه » . ومثلما هو الشأن في البندقية ، كان النهر في عاصمة الرشيد يُعبَر فوق جسور عديدة ، ويُنقل الركّاب والسلع فيه على آلاف القوارب والسّفن ؛ وكان يقال إنّ ساكن بغداد يحتاج الى حمار في الإصطبل ومركب على النهر ؛ وكان للخلفاء سفن للنزهة فاخرة ، غريبة الشكل غالبا ؛ « وقد أمرالأمين بعمل خمس حرّاقات [سفن كبيرة للقتال] في دجلة على خِلْقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس»[37].

= خراسان ، أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي ، وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، وأجرى اليها الماء من نهر المهدي ...» (الملوك ، 8 ، 37) ؛ وعن سبب بناء المنصور للرصافة قصة طريفة يرويها الطبري (الملوك ، 8 ، 37-38) .

(36) إنّ تعهّد المباني مفهوم ظل مدة طويلة غريبا عن المشارقة .

(37) * الطبري (الملوك ، 8 ، 509) .

مجتمع مساواتي ، لكن مهيكل التركيبة

مدينة مترامية الأطراف ، متواصلة الزحف ، يحاذي فيها أرقى أشكال البذخ تفتّنا وصلفا فقرٌ مدقعٌ لا يقدرعلى إفراز مثله غير الشرق ؛ مدينة يفضي فيها تكاثر الفرق الدينية الى اصطدامات دامية بين تعصبات متناحرة ، وتنتشر فيها الأوبئة بسرعة البرق ، وتجتاحها الحرائق والفيضانات بنفس السرعة دون أن يستطيع أحد أن يوقفها . [ومن شائع الشعر في ذمّها] :

بَــغْدَادُ أَرْضٌ لأَهْلِ اَلْمَـالِ طَـيِّبَـةٌ وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ اَلضَّنْكِ وَاَلضِّيقِ
أَصْبَحْتُ فِيهَا مُضَاعًا بَيْنَ أَظْهُرِهِـمْ كَأَنَّنِي مُـصْـحَـفٌ فِي بَـيْـتِ زِنْـدِيق
[من البسيط][38]

فكل المسلمين ينتسبون الى "الأمّة" ، أي الى مجموعة المؤمنين الخاضعين لحكم الله وشريعته دون تمييز ؛ فلا وجود لترتيب تفاضلي للشرائح الإجتماعية ، ولا لطبقة من النبلاء ، إلاّ لتلك التي تُكوّنها أسرة الرسول ، وهي قسمان: الطّالبيون (و[أبو] طالب هو والد عليّ) – وهم الأشراف – ، والعباسيون – ويُدعَون الأسياد – ، ويُعدّون بالآلاف ؛ ومع ذلك فالسلطة تسعى أن تحقق لهم مستوى لائقا من العيش الكريم ؛ ففي نظر الشريعة ، وهو القانون الإسلامي ، كل مسلم سويّ لأيّ مسلم آخر ؛ فذاك هو المجتمع ، لكنه المجتمع الأمثل ، كما تنصّ عليه النصوص الشرعية .

إلاّ أنّ الواقع ، حسبما يتجلى في الحياة اليومية ، خاصة في العاصمة بغداد ، مخالف لذلك بعض الشيء ، والمجتمع العباسي في حقيقة الأمر مجتمع خاضع لترتيب طبقي صارم ، يمليه معيارالثروة .

الــرقيـــق

أسفل السلّم الإجتماعية العبيد ؛ فعددهم كبير في المدن ، وقلّ منهم من يخدم الأرض[39]؛ وقد مثّل الإسترقاقُ ، منذ العصور الغابرة ، أحد مميزات المجتمعات الشرقية ؛

(38) ذكرهما [أ.] متز A. Mez في كتابه "نهضة الإسلام" The Renaissance of Islam ؛ [لم نعثر على البيتين فيه ، وقد أوردهما ياقوت في معجمه (1، 464)] .

(39) إنّ المحاولة التي جرت في القرن 9م (3 للهجرة) والتي كان القصد منها السعي الى تجفيف مناقع الجنوب العراقي بواسطة عبيد جُلبوا من أفريقا الشرقية ستنتهي بفتنة (ثورة الزّنج) تزعزع أركان المملكة ؛ وهي محاولة لن تتجدّد .

فالحديث عنه[40] ورد مرات عديدة في العهد القديم[41] ؛ والبابليون ، كان يذهب بهم الأمر حتى الى أن يُبيحوا للأزواج بيع زوجاتهم وللآباء بيع بنيهم ، إن هم أساؤوا السيرة معهم ؛ فالنبيء محمد ، في هذا المجال ، يُعتبر مُصلحا : ولا أدلّ على ذلك من كون القرآن يأمر بمعاملة العبيد كسائر الناس[42]، ومن أحاديث الرسول قوله[43] : « أَرِقَّاءَكُمْ أَرِقَّاءَكُمْ ،

---

(40) « وسبى بنو إسرائيل نساء مِديْان وأطفالهم » (العدد ، 31 ، 7) .

(41) * كلمة « التوراة » la Torah تعني في المعنى الحصري أسفار موسى الخمسة الأولى le Pentateuque من العهد العتيق أي : التكوين la Génèse والخروج l'Exode والأحبار le Lévitique والعدد les Nombres وتثنية الإشترا ع le Deutéronome (وهوالقسم الذي يتضمن أخبار خلق العالم ، وأخبارالآباء ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وأيام بني إسرائيل في سينا حتى اقتسام أرض الموعد ، والذي لا يعترف بغيره الى اليوم قسم من اليهود وهم السامِريّون – نسبة الى السّامرة la Samarie عاصمة دولة بني إسرائيل الأولى التي بُنيت على أنقاضها نابلس –) . وتعني الكلمة خطأ الكتاب المقدس بكامله . والكتاب المقدس la Bible ، في المفهوم العبري ، هي مجموعة الأسفار التي نزلت بالعبرية والتي يتكون منها العهد القديم (أو العتيق) l'Ancien Testament أي مجموعة الأسفار الراقي تاريخها الى ما قبل المسيح ، وهي . كتب التوراة الخمسة (أنظر أعلاه) والأسفار التاريخية (يشوع ، القضاة ، راعوت ، الملوك ، أخبار الأيام ، عزرا ، نحميا ، طوبيا ، يهوديت ، استير، المكّابيين) والأسفار الحكمية (أيوب ، المزامير ، الأمثال ، الجامعة ، نشيد الأناشيد ، الحكمة ، يشوع بن سيراخ) والنُّبوّات (اشعيا ، ارميا ، مراثي ارميا ، باروك ، حزقيال ، دانيال ، هوشع ، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونان ، ميخا ، نحوم ، حبقوق ، صفنيا ، حجّاي ، زكريا ، ملاخي). والكتاب المقدس ، في المفهوم المسيحي ، هو مجموع العهدين القديم والجديد . والعهد الجديد le Nouveau Testament هو مجموعة الأسفارالتي كتبت باليونانية ودُوِّنت فيها تعاليم المسيح ورسلِه ، وهي : الأناجيل les Evangiles ، (والإنجيل كلمة يونانية معناها البُشْرى ؛ والأناجيل مجموعة أعمال المسيح وأقواله ، وصلتنا بأربع روايات وضعها مَتّى Mathieu ويُوحَنّا Jean وهما من الرسل ، ولُوقا Luc ومُرقُس Marc وهما من تلاميذ المسيح) ، وأعمال الرسل les Actes des Apôtres ، والرسائل les Epîtres ، والرؤيا l'Apocalypse . في عهد بطليموس فيلادلفوس (285-246 ق م) تُرجمت التوراة من قبَل اثنين وسبعين عالما يهوديا الى اليونانية وسُميت هذه النسخة بالسبعينية la Version des Septante . وفي القرن الرابع بعد المسيح ، حَوّر ترجمة العهد القديم والعهد الجديد – اللذين تُرجما من قَبل الى السريانية والقُبطية والقُوطية والصَّقلبية – القدّيسُ جيروم ، فأضحت هذه الترجمةُ ، أو النسخةُ الموضوعة ، النسخة الرسمية la Vulgate لكنيسة روما الكاثوليكية الى اليوم ؛ هذا ، وهي النسخة السبعينية التي اعتمدها القديس جيروم ، كُتب كثيرة يعتبرها اليهود والبروتستانت مُنتحلة (مُزيّفة apocryphe) ونعتبرها الكنيسة الكاثوليكية صحيحة مُصدّقة .

(42) القرآن ، 16 ، 73 ، [سورة النحل ، والآية –71 لا 73 – هي : « وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى =

فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، وَإِنْ جَاؤُوا بِذَنْبٍ لاَ تُـرِيدُونَ أَنْ تَغْفِرُوهُ فَبِيعُوا عِبَادَ اَللَّهِ وَلاَ تُعَـذِّبُوهُمْ"(44).

جلّ الغلمان (خِصْيَان العبيد) الذين يحرسون حريم الخليفة كانوا من البيض · فهم إمّا "صقالبة" (وهي اللفظة التي جاءت منها كلمة "عبد"(45) في اللغة الفرنسية) وإما أروام من الشام وأرمينية ، ممن اعتزموا الترهّب ، فسلَّت خصيتا كلّ واحد منهم قبل بيعه(46)؛ على أنّ البعض منهم كان قد اتَّخذ السّراري وحتّى المهائر ؛ أما السود فقد كانت تُجَبّ ذكورهم " حتى العانة " ، لكي لا يستطيعوا الإنسال . وللخلفاء في حاشيتهم كثير من العبيد ، وكانت تسند اليهم المهام الرسمية : فكان منهم قائد الجيش وأمير البحر والموظف السامي في البلاط .

في عهد الرشيد تحوّل الولوع بالخصيان الى انحراف جنسي ؛ فقد بلغ بالأمين افتتانه بالغلمان(47) الى حدٍّ جعَل أمَّه زبيدة تُلبس جواري القصر لباس الذكور لتثنيَه عن تلهّفه اليهم(48) ؛ وسرعان ما أصبح هذا الولع بالذكور سنة شبيهة بالدُّرجة (الموضة) ،

= بَعْضٍ فِي اَلرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ؟ »] .

(43) * والحديث حديث حسن ، لأحمد في مسنده وابن سعد عن زيد بن الخطاب ' (الجامع ، 1 ، 145).

(44) يوصي النبيء محمد أيضا كلّ مؤمن بإعتاق رقيقه (القرآن ، 24 ، 33) ' [سورة النّور، والآية : « وَلْيَسْتَعْفِفِ اَلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اَللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ اَلَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اَللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ »] . فهو يذهب أبعد من التوراة التي توصي بإعتاق من استُرِقَّ من بني إسرائيل ، لدين عليه ، لا غير .

(45) * وكلمة esclave (عبد) تحريف لكلمة صقلبي ، وهو الإسم الذى أطلقه العرب على من انتسب من العلوج الى جنس الصّقالبة les Slaves وهم أقوام كانت تتاخم بلادهم بلاد الخزر، ثم انتشروا الى بلاد سواها من أوروبا واستقروا حول الأنهار الكبرى المنصبة في البحر الأسود كالفولجا والدنيستر والدنبر والطونة (الدانوب) وغيرها .

(46) كان الخصاء محظورا في الإسلام حظرا صارما وكان الخصيان يُبتاعون وقد تمّ خَصيُهم بعد.

(47) لما ملك محمد [الأمين] ... طلب الخصيان وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ' وفرض لهم فرضا سماهم الجرادية ، وفرضا من الحبشان سماهم الغرابية ؛ ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمي بهنّ » (الملوك ، 8 ، 508).

(48) * يقول المسعودي متحدثا عن زبيدة وعن سعيها هذا : « ... لما أفضى الأمر الى ولدها [الأمين] قدّم الخَدَم ، وآثرهم ، ورفع منازلهم ، ككوثر وغيره من خدمه ؛ فلما رأت أم جعفر[زبيدة] =

فصرتَ ترى المقدودة الهيفاء من الجواري تتزيّى بزيّ الغلمان ؛ وبينما كان الذوق ، من قبل ، يميل الى السمينة من النساء ، تحوّلت الرغبة الى الكاعب المشوقة من حسان الإماءواليك وصف إحداهن في كتاب ألف ليلة وليلة حيث قال الراوي : « ..جارية رشيقة القدّ، قاعدة النّهد ، بطرف كحيل ، وخدّ أسيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل ، عليها أحسن ما يكون من الثّياب ، ورضابها أحلى من الجلاب ، وقامتها تفضح غصون البان ، وكلامها أرق من النسيم إذا مرّ على زهر بستان ... »[49]. فشا إذن ميل الناس الى الغلاميات فشاء ذريعا بين الخاصة وذوي اليسار ؛ على أن من كان من الرجال مولعا بالذكور قليلون نسبيا ، ويبدو أن اللواط الذي لم يُمارَس إلا نادرا عند العرب في الجاهلية إنما أتى من خراسان ، ثم انتشر قليلا في القرون الأولى ، مع قدوم صغار الغلمان المورَّدين من أوروبا وما قيل في الذكور من الشعريكاد لا يحصى ، لكن هل كان ذلك تعبيرا عن واقع غرامي أم هل أنه مجرّد سنة أدبية متوارثة كما سنراه عند الفرس والعثمانيين ؟

كان عدد من العبيد أيضا يعملون (تحت أوامر أسيادهم أو لحساب هؤلاء ، لكن بصورة مستقلة) في التجارة والبناء والصناعة ، وقلّما كانوا يُستخدمون بصفة جماعية في المؤسسات الكبرى ؛ وكان العبد يُعامَل عموما بالرفق الذي أمر به القرآن ؛ والإعتاق ، وهو من الأعمال الصالحة ، كثيرا ما كان يصدر عن صاحبه إثر نذر أو يمين أو غيره؛ فيصير العبد حينئذ حرّا تمام الحرية ، إلا أنّ صلة " الولاء " تبقى تربطه بمالكه السابق .

أما الإماء فقد كان مآلهنّ الأشغال المنزلية قبل كل شيء ، وكل بيت موسر يمتلك منهن عددا صالحا ؛ وإذا كُنّ ممن صغر سنهن واكتمل حسنهن رُبما تسرّاهن رَبّ البيت؛ وقلما يتخطّى التحريمَ الديني فيُكرههن على البغاء ، بل في كثير من الأحيان يأمر بتعليمهن الغناء والموسيقى والشعر . وقد دخل بيوتَ الخلفاء والأمراء عددٌ وفير من الجواري – كالخيزران مثلا – اللائي اشتُرين بعد أن فقّههن وأدّبهن شيوخٌ من العلماء لحساب النخاسين الذين يكسبون من بيعهن أموالا طائلة . وإذا وَلَدت الأمة سُميت أمَّ ولد وصارت في منزلة الزوجة الشرعية وألحِق مولودها بنسب أبيه مع ما لأبناء الحرائر من حقوق .

= شدة شغفه بالخَدَم واشتغاله بهم ، اتخذت الجواريَ المقدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطُّرَر (ج . طرّة وهو ما يتدلّى على الجبين من الشعر) والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ؛ فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه ، فاختلفن في يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبَه اليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ؛ واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواريَ المطمومات ، وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسمّوهن الغلاميات » ؛ (مروج ، 4 ، 337-338) .

(49) الليلة 33 .

يستحيل إحصاء عدد من ولدتهم الجواري والإماء ، المجلوبات من جميع الأصقاع، والمنحدرات من جميع الملل والأعراق ، وانجر عن العدد الكبير لتلك اللّدات اختلاط هائل بين الأجناس ؛ فمنذ القرن 8ً (2ً للهجرة) كان كل الخلفاء تقريبا قد ولدتهم غير الحرائر[50]، ولم يشذّ هارون عن غيره منهم ، وعرفت نفسَ الوضع الطبقةُ الأرستقراطية بأكملها وجلُّ الأسر الغنية .

عامة الشعب

نجد لفيف الشعب فوق العبيد – و غالبا ما يكون أكثر بؤسا منهم – ، وكان كثير العدد بمدينة بغداد : من عيّارين الى صغار تجار وأعوان حمامات ، ومن مُكارين وباعة طرق الى صعاليك وطرّارين ، دون أن ننسى المتمعشين من وضيع الأعمال وطارئها ؛ فجميع هؤلاء هم الذين يتألف منهم الملأ الأعظم من جمهورالسكان ، ذاك الملأ الخليط من جميع الألوان والأعراق واللغات ، والذي تميزت به عاصمة الخلافة العباسية . أضف ، الى جميع أولائك ، جماعات المكدين والمجاذيم الذين يتسكعون نهارا ، ضاربين في أنحاء المدينة ، بحثا عن شغل أو طلبا لقوت ، وينامون ليلا في المساجد والحمامات وتحت حنايا الجسور.

من هؤلاء تتكوّن عصابات النّهّابين الذين يهجمون على المنازل في أحياء ذوي اليسار، وغواة الزواقيل الذين يسطون على المخازن والمتاجر التي يرفض أصحابها دفع معلوم الخَفَارة . وفي فترات التأزّم ، كالتي كانت مثلا أيام الفتنة بين وليّي عهد الرشيد ، يتولى هؤلاء العيارون زعامة الثورة ، موالين الحملة تلو الحملة على خيالة الخليفة[51]، عُدتهم العصيّ والمقاليع بالأيدي ، ودواخل الخُوص على الرؤوس ؛ وقد يَنظَمُّ البعض منهم الى شرطة الخليفة ، إما لنيل الأرزاق وإما – وهو الغالب – للحدّ من نجاعة مفعولها عندما تنشب الإضطرابات . وإذ اشتبه الأمر على الناس بين عصابات العيارين – وهم في الأصل نفر من المُعدَمين – وبين مجموعات الفتيان – وهي منظمات شبان يسعون بالخصوص الى العيش بلا عمل – فإن هؤلاء وأولائك كانوا يتعاونون على مقاومة السلطة ؛ ومذ أن ظلّ

---

(50) * يقول ابن حزم في نقط العروس : « لم يَـلِ الخلافة في الصدر الأول مَن أمُّه أَمَة حاشا يزيد وابراهيم ابني الوليد ، ولا وليَها من بني العباس مَن أُمّه حـرّة حاشا السفاح والمهدي والأمين ، ولم يلِها من بني أمية بالأندلس مَن أُمّه حرة أصلا » .

(51) * والحقيقة – كما رأينا ذلك سابقا – أنّ العيارين كانوا في جانب محمد الأمين الخليفة الشرعي، لا يحاربون خيّالته ، بل خيّالة المأمونية الذين يقودهم طاهر بن الحسين .

الفتيان يتولّون تنظيم العيّارين وتأطيرهم ، قوي أمرهم وباتوا يمثلون أحيانا قوة بالغة الخطورة .

هذا وقد كان باعة الطرُق وصغار التجار يؤلفون طبقة اجتماعية كثيرة العدد ، في مأمن من الخصاصة ، لكن محدودة الموارد ؛ وإذا كانت بغداد تجلب العدد العديد من الرجال والنساء ، الوافدين عليها أحيانا من أقاصي المملكة ، فما ذاك إلاّ لأنها اشتهرت بكونها مدينة لا يموت فيها المرء جوعا ؛ فازدهار التجارة أحدث لدى السكان ارتفاعا في مستوى العيش ربما كانت تحسدها عليه عديد المدن الأوروبية في العهد الوسيط .

البُرجُوازية

تتألف الطبقاتُ الوسطى من التجار والأطباء والمالكين العقاريين والموظفين ؛ وتدرّ الملكية العقارية على أصحابها دخلا محترما بشرط ألا تكون مثقلة بالضرائب . فعلى ما رواه التّنوخي ،[52] يفوق مبلغُ الضّرائب الموظّفة مثلا على هُرْي (مستودع للحبوب) مبلغَ المرابيح الحاصلة منه بنسبة 50 ٪ ، وهذا ما يفسِّر تعدّد الشّكايات التي نجد أخبارَها عند مؤرّخي ذاك العصر. فتنوُّعُ المداخيل كان ، بطبيعة الحال ، كبيرا جدا لدى أصحاب المزارع والبساتين من الفلاحين ، وأصحاب الدكاكين من التّجّار ؛ ولئن كان الربح موفورا لدى الشوّائين والقلاّئين والجزّارين والبقّالين وغيرهم ، فإنّ صغار باعة الطريق – وعددهم يكاد لا يُحصى – في ضنك من العيش . والموظّفون يتقاضون رواتب ضعيفة ، فلا قدرة لهم على شراء الأراضي التي تحيط ببغداد والتي اقتناها منذ بداية القرن 9ً (3ً للهجرة) مَنْ أثرى من التجّار. أما المدرسون فقد كانوا يتمعشون مما يقدّمه لهم تلاميذهم ، وأما الشعراء فقد كانوا يعيشون من صلات ممدوحيهم الذين يوفرون لهم أحيانا العطاء بلا حساب ، مما يجعل البعض منهم – حسبما يرويه لنا الأخباريون – يحيون حياة الأمراء سعة ورخاء .

كان الكثير من هؤلاء التجار والحِرَفيين وصغار المالكين والمقاولين ينحدرون من سلالات الرّجال الذين تبرّع عليهم خلفاء بني العباس الأوائل بأراض (إقطاعات) توجد بجوار العاصمة ؛ فالبعض منهم حسُنت حالهم ، والبعض الآخر ظلّ مقتصرا على كفاف من العيش ، لكن بموارد مالية محترمة . فتاجر في الأقمشة أو مالك لعقار متوسط القيمة مثلا ، قد يهلك عن تركة تُقدر بثمانمائة أو ألف دينار ، ومن كان له بستان – فضلة من إقطاعة وهبها المنصور– يُسوّغه بمعلوم كراء مرتفع .

---

(52) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، لندن ، 1921 [نشوار ، 3 ، 112] .

وينتمي أيضا الى هذه الطبقة الوسطى الحِرَفيون الذين يبيعون بأنفسهم ما يُعدّونه من مُنتجات ؛ فالحِرَفية الخاصة تكاد تنفرد بإنتاج كامل المصنوعات المألوفة في الإستعمال اليومي وفي الحياة المنزلية ، في حين تشمل المحارفُ التي تملكها الدّ ولة أو التي تُشرف عليها ، أساسا ، دور الصناعة ومصانع السلاح وجانبا كبيرا من معامل النسج . فإنتاجها خاضع لشروط صارمة في النوعية والأسعار التي تراقبها الدولة ؛ وقد يُفرض على المُنتجات ، خصوصا المنسوجات ، أن تكون حاملة للدّمغة الحكومية .

إن اقتصاد بلاد ما بين النهرين ، إذ انتقل من المرحلة الفلاحية/الرعوية الى المرحلة التجارية ، قد خلق مراكز اتّجار– وأكبرها بغداد – سرعان ما بلغت درجة قصوى من الأهميّة ؛ ثم إنّه قلب الأوضاع الإجتماعية قلبا بليغ الخطورة . وأعظم قلب حدث في تلك الأوضاع هو ، بلا شك ، نشأة " بُرْجوازية " ستضحي سريعا إحدى الطبقات الأساسية بالملكة ، في جميع الميادين ، وإحدى الدعائم التي يعتمد عليها العباسيون .

يُشيد الإسلام بمهنة التجارة إشادةً ، ويُثني على أهلها عظيم الثناء ؛ فمما رُوي عن الرسول أنه قال : « أَفْضَلُ الْكَسْبِ بَيْعٌ مَبْرُورٌ، وَعَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِه »[53]؛ وعن عمر أنه قال : « أن أُقْبَضَ على راحلتي وأنا في تجارة لأحبّ اليّ من أن أقتَل على جوادي وأنا في جهاد» ؛ ويُروى أنّ أحد أساورة وقعة القادسية ضدّ بني ساسان قال : « درهم أكسبه في التجارة خير لي من عشرة أُرزَقُها في الجيش » . ويذكر الفقهاء أنّ الخليفة الأول ، أبا بكر، كان بائع أقمشة ، وأنّ عُمر، ثاني الخلفاء ، كان مورّدا للحبوب . ثم إنّ إظهار النعمة لم يكن مكروها بل كان ، على العكس ، أمرا مُرَغَّبا فيه ؛ ولنَسُق في هذا الباب الحديث التالي : « إنَّ اللَّهَ تَعَالَى إذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ ، وَيكْرَهُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ ، وَيَبْغَضُ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ ، وَيُحِبُّ الْحَيِيَّ الْعَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ »[54] .

إنّ إظهار النعمة قضيّة تجادَل فيها العلماء طويلا منذ العهود الإسلامية الأولى ؛ فقلّما رُئِيَ في التاريخ عددٌ من الرجال يتطيبون ويخضبون لحاهم وشعورهم بالحنّاء ، ويلبسون الحلي والثياب الرفيعة كعدد من كان منهم في بغداد . فمظاهر الحياة المترفة لم يتضايق منها الناس فوق اللازم ، ولا تضايقوا منها أكثر من تضايقهم من إقبال الأغنياء على شراء الغلمان والولع بهم ، وإن كان عدد من المتزمتين ينحون على كلّ هذه الضروب من السلوك باللائمة والتعزير. أوَ لم يكن للرسول نفسه ولصهره عليّ العديد من السراريّ بجانب ما كان لهما من المهائر ؟

(53) * حديث حسن ، لأحمد في مسنده وللطبراني في الكبير، عن أبي بردة بن دينار، (الجامع ، 1، 193) .

(54) * حديث حسن ، للبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة ، (الجامع ، 1 ، 254) .

ولم يكن جمع الأموال من الأمور المحظورة[55] ؛ بل يُروى عن الرسول أنه كثيرًا ما كان يقول إنّ الفقر كاد أن يكون كالكفر ؛ من ذلك قوله : « اللَّهُمَّ إنـّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْر وَالْكُفْر، اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْر»[56] ؛ لكن المعاملات المالية والتجارية يجب أن تتم في كنف النزاهة : كأنْ يفيَ التاجر بالتزاماته ، وألاّ يخون حريفه ، وألاّ يُخفي عيوب البضاعة ، وألاّيشدّد على المدين من الزبائن ؛ النزاهة ، بل وحتى السماحة أيضا : تلك هي الخصال التي يجب أن يتحلّى بها كلّ تاجر يحب أن يُقبَل منه عند الله[57] .

أعدال الأمـــــراء ...

كان الرجل فيما مضى يُلقَّب بنسبته الى عشيرته ، فأضحى في بغداد يُلقَّب بانتسابه الى مهنته ، خصوصا إن كانت من التجارات الشريفة ، كالبزازة مثلا ، أي بيع الأقمشة[58]. كان سوق البزازين – كما هو شأن المصرف وسوق الصّاغة – يقع قرب المسجد ، منفصلا عن سائرالاسواق ؛ كان لهؤلاء التجار، من موردّين ، ومصدِّرين ، ومجهزين ، وصاغة ، وكبار باعة للحبوب والزيوت ، اقتدار عظيم جدا ؛ وكانت أرقام معاملات البعض منهم هائلة ، فكانوا يُقرضون أموالهم للخلفاء والوزراء الذين يمنحونهم حمايتهم مقابل ذلك ، ويغضّون الطرف عن مضارباتهم ، وكثيرا ما يطغى عليها التحيّل ؛ ومراكز القوى التي يكوّنونها تؤثر تأثيرا بالغا في شؤون الحكومة والدولة ؛ وباستثناء بطانة الخليفة في القصر، فهم الذين يُبدون بلا تستّر أكبر نصيب من البذخ ، وهم الذين يملكون أفخرالمنازل ، وأبهى الحدائق ، وأجمل الجواري ، وأكثر الأتباع والأعوان عددا ؛ ثمّ هم يكفِّرون عن سيّئاتهم ببناء المساجد ومناهل السبيل ، وتعهد المشاريع الخيرية ، وبذل الصدقات الوفيرة . وكالأمراء ، يرعى التجاّر والمصرفيون الأدباءَ والشعراءَ والعازفين والمغنيات ، ويَدرُّون عليهم الأموال الوفيرة ، ويقتبلونهم في بيوتهم ، ويتخذون منهم بطانات تجالسهم وتنادمهم ، فتتمدّحهم وتتملّق غرورهم ومزاعمهم الفكرية والفنية .

(55) * قال النبيء مرغّبا في الغنى : « اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ غِنَايَ وَغِنَى مَوْلاَيَ » ، حديث من الصحاح، للطبراني عن أبي صرمة (الجامع ، 1، 219) .

(56) * حديث من الصحاح لأبي داوود والحاكم في مستدركه عن أبي بكرة (الجامع ، 1 ، 228).

(57) * قول النبيء في ذلك مشهور، قال : « إنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِالَّذِينَ إذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وإذَا وَعَدَوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا ، وَإذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا ، وَإذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا، وَإذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسِّرُوا » ، للبيهقي في شعب الإيمان ، عن معاذ ، (الجامع ، 1، 336) .

(58) * البزّاز في الأصل هو بائع الثياب من الكتّان أو القُطن . وجلّ البزازين كانوا يحترفون الصيرفة والمصرفية ، لذا نراهم يُقرضون الأموال للوزراء والدولة .

كسائر سكان بغداد ، ينتسب كبار التجّار والمصرفيين الى أعراق عديدة ، شديدة الإختلاف ؛ فقد اشتهر بالمهارة في إبرام الصفقات الفرس وأهل البصرة وسكان الجنوب العربي ؛ أما الكوفيون فكانوا لا يقلّون عنهم مهارة ، وأما المشارقة والهنود والروم – وكانوا يوجدون بكامل أنحاء المملكة – فكانوا أيضا معتبَرين من حُذاق رجال الأعمال ؛ وكان اليهود ، بالنسبة الى جميع هؤلاء ، منافسين على درجة كبيرة من الخطورة ؛ فقد كانوا يتعاطون بالأساس مهنة الصرف ويسيطرون على القطاع البنكي وكانت جاليتهم ببغداد كبيرة العدد ، وكنت تراهم يقرضون المال إلى الوزراء وحتّى إلى الدولة .

فقد انقرض العهد الذي كان فيه القوّاد "والكُتّاب" ينفردون بتولّي شؤون الدّولة ؛ وإذ انتهت حروب الفتح ، فقد أضحى النفوذ المركزي في حاجة الى رجال من أغنياء الناس ، اكتسبوا مهارات صالحة في ميدان المعاملات ، والى موظفين مقتدرين وقوّاد مدرّبين على قيادة الجيوش ؛ فلا الأمراء – ولا أيضا كبار المسؤولين في الدولة – كانوا يحتقرون التجار ؛ وسينادم تاجرٌ في الذُّرَة الفضلَ بن سهل ، وزيرَ المأمون ؛ وعندما سيخلف المعتصمُ هذا الأخيرَ، سيستوزر ابنَ الزيات ،"بائعَ الزيوت" الذي كان أبوه مزوّد البلاط . فحاشية الخليفة أضحى رجالها ، في عهد الرشيد ، عربا من أصل برجوازي ، وهو ما كان نادرا على عهد العباسيين الأوائل .

كان عدد كبير من هؤلاء التجّار ينتمي الى فئة المفكرين ورجال الدين ؛ ومما تجدر ملاحظته أنّ أغلب الفقهاء (60 ٪ في القرن 9 م / 3 للهجرة) كانوا تجارا أو أبناء تجار، وجلهم من تجارالنسيج . فقوانين الشريعة وقّرت ، منذ البداية ، حماية التجار المسلمين بجعل رسوم الديوانة (الجمرك) توظف بنسبة 10 ٪ على التاجر الأجنبي، و 5 ٪ على غير المسلم إن كان من رعايا دولة إسلامية ، و 2.5 ٪ فحسب على المسلم .

رجال الدين والقضاة

كان العلماء ، أي رجال الدين ، يحتلون أيضا مكانة اجتماعية مرموقة ويُعَدّون من الأعيان ؛ وكان لهم دور أساسي في الحياة اليومية لسكان بغداد . فكان الأمراء ، وكذلك عامة جمهور الناس ، يقصدون ، في جميع الظروف ، هؤلاء الصالحين من أهل الورع والتّقى ، ابتغاء عونهم أو مرضاتهم ، لفرط ما كانوا يحظون به من تقدير وتعظيم لدى الجميع .

كانت عناية هؤلاء العلماء – وعددهم كبير– منصرفة الى خدمة الدين وعلوم القرآن : من مُفسِّرين ينتسبون الى مختلف المدارس والمذاهب ؛ وجامعين للحديث ورواة له وشُرّاح ؛ ورجال إفتاء يجيبون عما قد يعرضه عليهم الخليفة أو القضاة من الاستشارات ؛ وخُطباء يخطبون في الناس أيام الجمعات ، ومقامهم من الخطورة بحيث غالبا ما يبقى تعيينهم من اختصاص الخليفة دون سواه ؛ ووُعّاظ شعبيين يوجّهون الرأي العام لا في الميدان الروحي

فحسب بل وفي الميدان السياسي أيضا ؛ فالضرورة تقتضي إذن أن يكونوا محل مراقبة دائبة ؛ ومؤذّنين ، وغيرهم ، ... ولجميعهم مكانة هامة في العاصمة . ففي هذه القرون الأولى ، لم تستقر عقيدة الإسلام استقرارا نهائيا ، مما كان يجعل المجادلات تجري على أقصى درجات من الحدة ؛ فالدين والسياسة كانا يتداخلان باستمرار، خصوصا والمشكل العلوي لم يقع حلّه .

كان القضاة أيضا من طبقة العلماء ، وإذ أنّ مهمة الفصل بين المتخاصمين تحمّلهم أوزار الحكم على الغير، فقد كان لهم نفوذ هائل وتأثير كبير ؛ فكان معظم الفقهاء يرفضون خطة القضاء ويعتبرون قبولها مخالفا للأمانة التي تمليها عليهم ضمائرهم ؛ ويستنكف بعض من يقبلها تقاضي أيّ أجر عنها ، محتجّا بأنّ القضاء بين الناس ليس حرفة يمتهنها المرء ؛ ويفضّل الكثير منهم الفقر ويعيش فيه ، وخير مثال على ذلك مثال ذينك الأخوين اللذين كانا ببغداد وكانا لا يملكان إلا عمامة وثوبا ، بحيث إذا خرج أحدهما لزم الثاني البيت ؛ أو مثال قاضي القضاة ، ذاك الذي كان يرتدي لباسا من قطن حقير . وقد رُئي من القضاة من ذهب به الإمساك عن التملق الى حدّ الإمتناع عن القيام إجلالا للخليفة ؛ ويُروى أنه لما دُعي المأمون للمثول أمام القاضي كسائر الخصوم وجلس على أريكة ، أمر القاضي بأريكة ثانية يجلس عليها الطرف المقابل ؛ ويقول الكندي الفيلسوف إنّ أحد وكلاء زبيدة بمصر تجاسر وجلس بمحضر القاضي ، فأمر به فجُلد عشرا بالسياط . وفي القرنين 8ً و 9ً (2ً و 3ً للهجرة) كان القضاة يلبسون السواد – شعار بني العباس – ويجلسون للمتقاضين في المسجد ، والخصوم في حلقة من حولهم ؛ وما كانت تُقبل عندهم إلا شهادة الثقاة من الرجال ، أما المجهولون فيُؤمر بإجراء بحث في شأنهم .

هكذا استمرت في العالم الإسلامي السنّة الموروثة عن ممالك الشرق القديم والقائلة بأن لا شيء عند الشعوب أغلى من العدل ، حتى ولو كان ذاك الشيء دينا من الأديان ؛ وسنجد هذه السنّة مأثورة ، كاملة غير منقوصة ، في الدولة العثمانية : سيُطلق على أشهر سلاطينها وأعظمهم ، سليمان الفخم ، لقب "القانوني" .

إذا وضعنا الفوارق العقائدية جانبا – والمذهبية منها كان يُعبَّر عنها أحيانا بغاية العنف بين المسلمين – فإن هذه الشعوب الوافدة من كل أصقاع الدنيا كانت تتعايش في وئام تام ، خال من كل تعصّب عرقي ، لا لأن العناصر المختلفة كانت غير معتزة بأعراقها، ولكن لأنه لا يتبادر الى ذهن أحد أن يحتقر رجلا ما من أجل لون جلده ؛ وعلى امتداد كامل السُلّم الإجتماعية كان الإختلاط من العمق والشمول بحيث يعسر على أي كان أن يدعي خلوص الأرومة ؛ والخلفاء أنفسهم هم نتاج ذاك الإمتزاج العرقي بحيث لا يليق بأحد أن يفاخرغيره بنقاء أصله ؛ فالعنصرية شعور مجهول في الإسلام ؛ ومجهول أيضا إبغاض من ليس على دين محمد من يهود ونصارى ؛ فلا فرق في بغداد بين المسلمين وأهل الكتاب .

أما النصارى فكانوا ، في معظمهم ، من النساطرة ؛ فدَيْرهم –" الدَيْر العتيق " ، المُقام جنوبيّ الموقع الذي ستُبنى فيه المدينة المدوّرة – هو الذي اقتُبِل فيه المنصور حينما جاء يبحث عن مكان يختاره لتشييد كرسيّ مملكته ؛ فقد كان لعموم المسيحيين كنائس وأديرة في تلك الجهة ، وخاصّة بالكرخ ؛ وعدد النساطرة كبير بحيّ الشّماسية ، لكنّ المونوفيسيين أقلّ منهم عددا ؛ ولم يتعرض أولائك ولا هؤلاء لأدنى ضرب من ضروب الإضطهاد، بل كانت بغداد ، في عهد العباسيين الأوائل ، مركزا هاما للتبشير النسطوري باتجاه آسيا الوسطى .

وأما اليهود، فلم يكن لهم ، بدورهم ، ما يدعوهم لخشية التعرض للمضايقة ؛ فقد وُجِدوا في بلاد ما بين النهرين منذ ما يزيد على الاثني عشر قرنا ، وكان منهم القرويّ المزارع ، والمدني التاجر أو الحِرَفي ؛ ولم يُدخِل عليهم الفتح الإسلامي ولا الثورة العباسية أيّ ضيم ، بل حقّقا لهم تحسينا في وضعهم ، لأنّ بني ساسان الزرادشتيين بالغوا في اضطهادهم ؛ وحالما أسِّست المدينة المدورة ، جاء رؤساء جاليتهم واستقروا بها ، فصارت مركزَهم الإداري والقضائي ؛ وفي عهد هارون ، كان للبعض منهم تأثير كبير في الحياة السياسية ، وفي الشؤون المالية بالخصوص . ثم إن إشعاع مدرسة بغداد التلمودية ، في الميدانين الديني والفكري ، كان يتجاوز حدود المملكة ؛ فتلك " المجامع " التي انكبت على تفسير التلمود[59] أشاعت التعاليم الربّانية اليهودية حتى جنوب أوروبا .

الحــياة ببغــداد

> « هذه بغداد ، مدينة السلام ، قد ولّى عنها الشتاء ببرده ، وأقبل عليها فصل الربيع بورده ، وأزهرت أشجارها ، وطمت أنهارها...» .
>
> ألف ليلة وليلة
>
> (الليلة 34)

---

(59) * التّلمود le Talmud (ومعنى الكلمة بالعبرية : التعليم) : من أهم الكتب الدينية التي دُوّنت بعد الكتاب المُقدّس . وهو قسمان : الأول المِشْنَا (الشريعة الشفوية) أي مجموعة التقاليد المتداول بها بين الربابين علماء الناموس ، في كل ما يتعلق بحياة اليهود الدينية والمدنية ، الى أواخر القرن 2 م ؛ والثاني الجِمارا وهو تفسير المِشنا . وللتلمود طبعتان تختلف فيهما الجمارا : التلمود الفلسطيني (القرن 5 م) الوارد بالآرامية الغربية ، والتلمود البابلي (أوائل القرن 4 م) الوارد بالآرامية الشرقية ، وهذا أعظم شأنا، وهو الكتاب الثاني المعتمد لدى اليهود ، عبر التاريخ ، بعد التوراة (أنظر ص 234، رقم 41).

من قصور الأمراء السّاحرة ودور التّجار الفاخرة ، الى الأكواخ الحقيرة والخرائب المهجورة والمغاور الموحشة حيث مآوي تعساء الشحاذين : جميع أنواع المساكن موجودة بدار السلام .

ففي هذه العاصمة الجديدة ، حيث يسعّر القيظ الجوّ كامل السنة ، لجلّ المنازل ، التي قد نسميها اليوم " بُرجوازية " ، حديقةٌ تُنقّي الهواء وتُطرّيه ، وتؤرّجُه بعبيق الورد والنرجس وشقائق النعمان ، وبطيبِ البنفسج والياسمين واللّيلك والقرنفل[60] ، وبِرْكةُ ماء يَتمرّى النيلوفرُ على سطحها ، ويُفيّء النّخل والسّرو جوانبها ، ويُظلّل البرتقالُ – وقد جُلِب حديثا من الهند – سائر أكنافها ؛ وتنتشر حول قصورها ومساكنها الرياض والبساتين ، وتكثر، وتتسع لفرط ما فُتِن السكان بها . وسيتغنّى العديد من الشعراء بسحر الليالي التي يسهرها القوم في مجالسها ، متساجلين بالقريض ، مستمعين الى ما يشنّف الآذان من بديع الأغاني وعذب الألحان ، متفكهين بما يروّح على النفس من بريء اللهو وغير البريء منه .

وفي حين تُبنى المساكن المتواضعة بالتراب المرصوص ، تُشيَّد الدُّور باللَّبِن المُجفّف في الشّمس ، أو بالآجُرّ المشويّ في النّار، يُضمّ الى بعضه بعضا بالطين أو بالملاط ، ويُفصل بين نضائده بالقصب ، على طريقة قُدماء البابليّين ، ثم يُغطّى بالجبس ، وكثيرا ما يُترك قسم منه عاريا ، طلبا لجمال المنظر النّاتج عن تنوّع الألوان . ولنفس الغاية ، تُستعمل الأخزاف ، وخاصة منها البلاطات ذات البريق المعدني – القاشانيات (نسبة الى قاشان)[61]– المسدسة أو المربعة الشكل ، ذات اللون الأزرق أو الفيروزي أو الأخضر أو الأصفر ؛ وكان يُصنع من هذا الخزف اللمّاع حينذاك في بغداد ما يجعل من هذه المدينة أول مركز لإنتاجه . وكان التزيين بالجبس أيضا شائع الإستعمال ، خاصة في تأطير مشكاة أو كُوّة في جدار، بأشكال خطّية وعربسات هندسية وأوراق مزوّقة ؛ وسيبلغ هذا الأسلوب في التحلية كماله في سامرّاء . وسنجد نفس الأناقة في الأبواب ، المصنوعة من الخشب النفيس – وأشهره الأبنوس – والمكسوّة بورق الذهب .

---

(60) لم تصل بَعْدُ من آسيا الوسطى نبتة التُّوليب التي سيولع العثمانيون بعد قرون باقتناء بصلها وزهرها ، وينفقون من أجلها الأموال الى حدّ الإفلاس .

(61) * قاشان أو كاشان : مدينة في العراق العجمي (إيران) ، اشتهرت قديما باخزافها الملونة ذات البريق المعدني . [ومن البلاط المربع (ويدعى الزّليج في تونس) القاشاني نماذج معدودات ، فريدة في حسنها وأناقتها ، تحيط بالمحراب من جامع عقبة بن نافع بالقيروان ، وتُعَد من نفائس المعمار الإسلامي القديم بالبلاد التونسية ؛ فمنها ، حسب ج. مارسيه (في تاريخه للفن الإسلامي ، ص 56) وك. آدل (في فصل بالموسوعة الإسلامية ، 4 ، 729-730) ما هو مجلوب من الشرق وما هو مصنوع محلّيا بالقيروان] .

سقوف البيوت مسطّحة ، كما هو الشأن في سائر بلدان الشرق ، والناس يضطجعون فوقها للنّوم خلال ليالي الصيف الحارة ؛ وقلّما توجد ببغداد منازل متعددة الطوابق ، على أنه وجدت في نفس الفترة – بالفسطاط مثلا – منازل بها ثمانية طوابق . تُدخل ديارُ الأغنياء من دهاليز واسعة محلاّة بجميل الصُّوَر ونفائس الطرُف ، ويُؤدّي الواحد منها الى فناء داخليّ ، تُحيط به غـُرَف فيها يقيم الرجال ويقتبلون الزائرين ؛ ويُعبَر من ممرّ آخر الى فناء ثان يقيم فيه الحريم ؛ ويليه قسم ثالث من الدار مخصص للخدم ؛ وقد يكون أحيانا للدار خمسون غرفة ، يفتح جُلها على أفنية داخلية ؛ لكنّ الشارعة منها على الطريق تكون لها فـُرْجة بخرّاج ، ويَدخل اليها النور من خلال نوافذ مستديرة قطرها يساوي 20 أو 50 سنتمترا .

يَأتي الى هذه الدُّور بالماء اللازم للحياة اليومية سقـّاؤون يجلبونه من دجلة على ظهور الحمير والبغال ؛ لكن قد يُجلب الماء من خزّانات بواسطة بعض القنوات ؛ وبعض المنازل بها بئر تُحفر في فنائها (ولا ننسي أن بناء سبيل للشّاربين من عموم الناس يعد عند المسلمين من جليل الأعمال الصالحة) . ولإكساب البيت نصيبا من البرودة يلجأ البغداديون الى وسائل مختلفة : منها إعداد غُرف تحت الأرض وتجهيزها بمنافذ للتّهوئة مُوجَّهة الى الناحية التي تتقبّل منها هبوب النسيم[62]؛ ومنها تسييل مياه على طول الجدران؛ ومنها كذلك بسط نسائج مُبللة يحركها بعض الخدم (البَنْكَا ، والوسيلة مأخوذة عن الهنود) ؛ ومنها أيضا وضع قطع من الثلج داخل جدار ذي حاجزين مزدوجين ؛ والموسرون من الناس يضعون قطعا من الثلج في أعلى القباب المشرفة على الأواوين أو كبريات الغرف. على أنّ التدفئة كانت أيسر على سكان بغداد : فمن وسائلها ، إشعال فحم الخشب وتأجيج ناره في منقل من حديد عند عامة الناس ، و من نحاس مُفضّض أو فضّة مذهبة عند سواهم ؛ ذلك أنّ فصل الشتاء ببغداد ثقيل على السّكان ، لكنه قصير .

الأثاث في منازل بغداد قليل ؛ فالناس يعيشون قريبا جدا من الأرض ، لكنّ ذلك لا يمنع ذوي اليسار من استعمال الأسرّة . « إصعد ، مولاي ، على هذا السرير... » ، هذا ما تقوله بعض الحسان لأحد الملوك في ألف ليلة وليلة . والسريرفي عهد الرشيد يُتخذ تختا أحيانا ؛ فهو مستطيل الشكل بحيث يستطيع شخصان على الأقل الجلوس عليه. ويُنام ليلا على الفراش[63]، وهو بمثابة الحشية التي توفر الراحة ، إن قليلا أو كثيرا ، بحسب ما يكون داخلها من حشو. ويختلف علوّ الأرائك باختلاف مرتبة من سيتّكئ عليها من الزائرين ؛ والمتأنّقون في تأثيث بيوتهم يحشونها بشعر حيوانات مجلوبة أو ريش طيور غريبة .

---

(62) وهي وسيلة مستعملة اليوم أيضا في بلدان الخليج .

(63) * لا " الفراس " كما رسم ذلك المؤلف .

وبذخ العيش في بيت من البيوت يُقاس بعدد الزرابي المبسوطة فيه وجودتها ؛ وأثمنها قيمة زرابي أرمينيّة وطبرستان على وجه الخصوص ' فهي حمراء اللون ، منسوجة من صوف ، ومحبّبة الى الناس منذ العهد الأموي ، حتى انّ نساء الرشيد كنّ لا يجلسن إلاّ على زرابي وأرائك من أرمينية ، إذ كان لا يليق بقصر الخليفة سواها؛ وزرابي أصفهان ومازَنْدَران[64] هي أيضا مما كان الناس يقبلون على اقتنائه شديد الإقبال ' فهي موجودة بجميع الأشكال والألوان ؛ أما زرابي الحيرة (بجنوب العراق) ، وهي المشهورة أيضا ، فقد كانت من التنوُّع بحيث انك تَجِد فيها ما صُوِّرت عليه طيور وخيول وإبل أو زهور مزوقة وأشكال هندسية .

في العصر الوسيط لا وجود لأثاث كبير في البيت الشرقي ، فالأمتعة جلها قريب من الأرض : صناديق بعضا لحفظ الثياب أو الماعون ، وأخرى لحفظ الكتب وأواني الفضّة والحلي ؛ والصناديق أنواع ، فمنها المعدني ، ومنها الخشبي ، ومنها المصنوع من الموادّ النفيسة أو من مظفورات الليف والسعف ' ثم هي مختلفة الأحجام ، فمنها ما هو من الكبر بحيث يقدر النائم أن ينام عليه ، وما هو من الصغر بحيث يُحفظ في كُمّ الثوب . وقد تُحفظ الأمتعة كذلك على رفوف أو مشكوات جدارية مُزيّنة ، بقدر قليل أو كثير ' ولا وجود لما عظُم حجمه من الأثاث وأحدث ضيقا في الحجرة من المتاع ، كالخزانات مثلا .

تحتوي المنازل الفاخرة التي على ملك الخواصّ غُرَفا للإستحمام ، مُجهَّزة بمثل ما في الحمّامات العمومية من اللوازم ؛ فالذهاب الى الحمّام ، وقد كان محل استنكاف[65] بعد الهجرة لنسبته الأعجمية – والحال أنّ الطّهارة من الواجبات الدينية الأساسية – أصبح مباحا بصورة نهائية في القرنين 8َو9ً(2ًو 3ًهـ) . ومع ذلك فلا نزال نجد في القرن 10ً(4ًللهجرة) من الخلفاء من يسمي الحمّام :"الحمّام الرّومي" . وفي عهد الرشيد، كان يوجد ببغداد ما بين 15.000 و 60.000 حمّام ، بحسب اختلاف الرواة والعصور ، والأرجح أن الحقيقة كانت الى الرقم الأول أقرب منها الى الرقم الثاني . والحمامات آنذاك ، كانت بناءات جميلة ضخمة ، لكن لا أثر للتّفنّن الزخرفي فيها ؛ وكان البعض منها يُطلى بالقار، فيتوهم الناظر أنها مكسوّة بالمرمر الأسود . ويذكر المسعودي أنّه كثيرا ما تُحلَّى الحمّامات

---

(64) * مازَنْدَران : بلاد واقعة جنوبي بلاد قزوين .

(65) * وردت أحاديث نبوية كثيرة في الترغيب عن الحمّام ، منها مثلا قوله :« أُفٌّ لِلْحَمَّامِ ، حِجَابٌ لاَ يَسْتُرُ ، وَمَاءٌ لاَ يُطَهِّرُ ، لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَدْخُلَهُ إِلاَّ بِمِنْدِيلٍ » ؛ للبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة (الجامع ، 1 ، 196) – أو قوله : « أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ الْحَمَّامَاتِ وَصُنِعَتْ لَهُ النُّورَةُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ، فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ حَرَّهُ وَغَمَّهُ ، فَقَالَ . أَوَّهْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ أَوَّهْ » ؛ للعقيلي في الضعفاء ، والطبراني في الكبير ، وابن عدي في الكامل ، والبيهقي في السنن ، كلهم عن أبي موسى (الجامع ، 1 ، 435) .

بصُوَر العنقاء ، الملاك الشرقي ، بل ذاك الطائر الخرافي ، الذي له رأس بشر ومنقار نسر، وأربعة أجنحة في كلا جنبيه ومخلبان مكان اليدين .

منذ ذلك العهد صار للحمام الدورالإجتماعي الذي لا يزال يلعبه الى اليوم ؛ ففي أيام من الأسبوع يفتح أبوابه للرجال ، وفي الأيام الباقية يفتحها للنساء ؛ وفيه يلتقي الناس ويتبادلون الأخبار، ولكنه ليس دائما مكانا آمنا ، كما تشهد بذلك أبيات لشاعر يشكو فيها كثرة السرقات بالحمّام الى حدّ أن من يدخله مكسوا ومنتعلا يخرج منه عاريا حافيا .

والحمّام معتبر بمثابة الفرع للمسجد[66] ، لكنّ المسجد هو المركز الحقيقي للحياة الإسلامية ، والمكان الذي تلتقي فيه الجماعة من المؤمنين ، ويأتيه المسلم لآداء الصلاة والإستماع الى خطب الإمام . لقد قامت الثورة العباسية باسم الدين الذي تهاون الأمويون بشأنه وأفسدوه ؛ فسيعتني أخلافهم العباسيون بإعادة ترسيخه ودعم الدعوة اليه مقبلين على بناء المساجد ، وسيأمر الخلفاء والأمراء ببنائها في كامل مدن المملكة وخصوصا ببغداد .

تُرى ما هو عدد المساجد بعاصمة الخلافة في القرن 9ً(3ً للهجرة) ؟ يقدّم لنا المؤرخون في هذا الشأن أرقاما خيالية ، ويصلون الى حدّ الستّين ألفا . إنّ أول مسجد تأسس في المدينة المدورة هو المسجد الجامع ، وهو الذي أعاد الرشيد بناءه سنة 807 (192 هـ) ؛ ثمّ شُيِّد جامع آخر في الرصافة ، فثالث قرب قصر التاج سنة 901 (289 هـ)؛ وبجانب الجوامع ، وجدت مُصلّيات ، أو مساجد صغيرة ، وهي عبارة عن محالّ متواضعة، منتشرة عبر أحياء المدينة وأرباضها ، يؤمها المتساكنون لأداء الصلوات الخمس ، ويقصدها سائر الناس بلا انقطاع باقي اليوم ، لأنها – بالإضافة الى كونها مكانا لإقامة الشعائر– قبلة المسافرين والغرباء ، والمُكدّين والشُرّد .

والجوامع هي التي تُقام فيها الجُمُعات ، وتُبلّغ السلطُ ، بواسطة الخُطب من أعلى منابرها ، ما تريد الإعلان عنه للجماهير؛ وفيها أيضا تؤخذ البيعة للخليفة الجديد على عهد العباسيين الأوائل ؛ ثم هي مُلتقى جماعة الناس للتذاكر وتبادل الأخبار، وكثيرا ما تنقلب الى مُحتَدَم بين أنصار السلطان وخصومه ، فيُقلب فيها المنبر ويُعتدى على الإمام .

والمسجد هو كذلك المكان الذي يَجلس فيه القاضي للقضاء بين الخصوم ، ويُلقي فيه العالم درسه على التلاميذ ، وقد جلسوا من حوله حلقة على الحُصُر أو الزرابي . وهو أخيرا مجتمع القوم للتعامل أوالتسلية والترويح ، لذا يتخذ الباعة من صحنه وأروقته معرضا لمختلف مبيعاتهم : من الأطعمة والثياب الى الكتب والعطور، ويتعرض النصابون

(66) ج . مارسيه G. Marçais

في رحابه بحيلهم الى الوافدين عليه لانتشال ما معهم من أموال وأمتعة ؛ وفي المساء ، خصوصا بعد انقضاء يوم قائظ ، يتحرّك جوّ المسجد وضواحيه ، وتستولي عليه حيوية كتلك التي تُشاهد في كبريات الميادين من العواصم الكبرى ، والتي يُحدثها القُصَّاص[67] بحكاياتهم ، والبهلوانيون بألاعيبهم ، والمشعوذون بطريف خُزعبَلاتهم .

ولن يُطرَد الباعةُ والتجار من المسجد ، بأمر من الخلفاء ، إلا في نهاية القرن 9ً (3ً للهجرة) . وفي نفس الفترة تقريبا ، صارت تُزيَّن الجوامع بشَماعِد من المعادن النفيسة ومصابيح من بلور، معلّقة في سلاسل من الفضة أو النحاس المذهَّب . والى ذلك العهد أيضا ترقى السُنَّة القاضية بأن تُنار، في ليالي الأعياد والمواسم الإسلامية ، الجوامع والمساجد التي أضحت كأنها رمز لعزة الخلافة .

الملبـــس

كان تنوّع الثياب التي تُلبَس ببغداد يُضفي على شوارعها روعة في الألوان ، وجاذبية في المظهر من العسير تخيّلهما اليوم ؛ ذلك أنّ كلّ مجموعة من المجموعات العرقية ظلت محتفظة بلباسها الأصليّ : العرب ، والبربر، والفرس ، والترك ، والرّوم ، والصّقالبة ، والرقيق المجلوب من بلدان ما وراء البحر المتوسط ...

فبعض الملابس كان يرتديها جميع الناس (وهي إمّا شِعار، وهو ما يلي الجسد من الثياب ، وإما دِثار وهو ما يلي الشِّعار) ؛ ومن الدّثار الإزار وهو قطعة من القماش يُلتحف بها ، ويغطي بها النساء رؤوسهن ؛ ومنه المئزر وهو لباس الرجال من لفيف الشعب ، وهو أقلّ طولا من الإزار، ولا ينزل إلا الى مستوى الركبتين ؛ ويرتدي ضعفاء الحال من الناس الشَّمْلة ، وهي كساء واسع – من نسيج صوفي في الغالب – يُشتمل به ؛ وقد يَتّخذ منها صاحبها غطاء عند النوم ؛ أما البدو فإنهم يلتفون في العَباء ، وهو كساء من صوف خشن مفتوح من قُدّام . وشِعار الرجال والنساء الغلالات والسراويل مشدودةً الى النطاق بشريط ؛ وقد يكون للقميص كُمّان واسعان يقوم كلّ واحد منهما مقام الجيب . ومن الدّثار الدُّرّاعة (ج . دراريع) وهي جُبّة فضفاضة ذات أكمام ومشقوقة المُقَدَّم ، وهي اللباس الذي يُرتدى في القصر؛قد يلبسها الخلفاء ورجال الدولة مرصعة بالألماس والحجارة الكريمة.

(67) بعد ظهور الإسلام ، كانت روايات القُصّاص يُقصَد من أكثرها وعظُ المؤمنين وحثُّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وأثناء المعارك كانت تُستخدم لإذكاء الحميّة في نفوس المجاهدين ، فكانت السُّلَط حينئذ تشجّع من كان يرويها من أولائك القصاص الملقبين "بفقهاء الشعب" .

وكل من كان في خدمة الخليفة يلبس الثياب السوداء ، والسواد لون العباسيين ، ورفْضُ السواد في اللباس يعني الإستقالة من خدمة الخليفة ؛ ويلبس الفقهاء والقضاة الطيالسة وجوبا ؛ والطيلسان قطعة طويلة من نسيج أخضر يكسو الكتفين ويتدلّى على القفاء كقُبْع البُرنُس .

لا يليق بأحد أبدا أن يطلع على الناس حاسرَ الرأس ، وكشف الرأس ضرب من ضروب العقوبات التي تُسلّط على الرجل ؛ وأكثر العَمَارات شيوعا بين الرجال قَلَنْسُوَّةٌ تُلَفّ عليها عِمامة ؛ وقد كان المنصور أمر بلبس القلانس الطوال الشبيهة بدنان الخمّار، وهي ، على الأرجح ، مأخوذة عن الفرس ؛ ثم اختصّ القضاة ، فيما بعد ، بلبس القلانس الطوال ، لكن كلّ ذلك كان بمثابة الدّرْجَة (الموضة أي الزّي الرائج) العابرة في اللباس . فجميع الرجال إذن يلبسون العِمامة ، وهي اللباس المميز لهم أساسا عن النساء ؛ والعمامة ، حسب بعض كُتاب العصر، « وقاية الرجل في المعارك ، وهيبته في المجالس ، وحمايته في النوائب » . ويختلف طول العمامة وقماشها باختلاف من يلبسها من الرجال ، وقد يرصّعها بعض الأمراء بالأحجارالكريمة ، وعدد من ألوانها مخصّص لسامي الموظّفين والقواد .

يلبس البغداديون النِّعال صيفا وخِفاف الجلد الطويلة شتاء ؛ وفي الخفاف عادة من الفضاء ما يسمح بوضع إزميل أو منديل ؛ والجوارب التي تطول وتقصر– بالقدر الكثير أوالقليل – وتُصنع من صوف أو نسيج رقيق ، تُعوِّض عن الجيوب هي أيضا ويوضع فيها الكتاب والدّواة وغيرهما ؛ وبحسب العصور، فُرض – أو لم يُفرَض – على أهل الذمّة مخالفة المسلمين في الزّيّ ؛ وقد قرّرالرشيد ، بشأن الزّيّ المميّز للذمّيين عن سائرالسكان ، إعادة العمل بأوامر صدرت ماضيا وعُدل عن تنفيذها ؛ لكن قد يكون طبيبه حمله على التراجع في شأنها فعدل عن قراره . عموما يُحجّر على غير المسلمين تقلّد السيوف ؛ وعندما تخرج نساء أهل الذمّة الى الشارع ، يُطالَبن بلباس الثياب الصُفْر أو الزُرْق والخفاف الحُمْر. وفي بداية القرن 9م (3 للهجرة) ، فرض الخليفة المتوكل على رجالهم لباس العمارات والعمائم العسلية ، وعلى نسائهم ارتداء فساتين من نفس اللون ؛ لكن سرعان ما تُرك العمل بهذه القرارات وتلك .

لئن كانت نساء الرعاع من سكان بغداد – أولائك اللائي يخرجن الى الترعة المجاورة لمنزلهن ، فيأتين منها بما يحتاجه بيتهنّ من الماء ، وصِبْيَتُهن متعلقون بأذيالهن – يرتدين أبسط الثياب ، فإنّ نساء ذوي اليسار يجتهدن في ابتكار كلّ ما ليس مألوفا من اللباس : فساتين من كلّ شكل ، قُمْصان بالأكمام وبلا أكمام ، تُفصَّل من الديباج أو النسيج المذهّب ، أو من الأقمشة المُحلاّة بشتّى الألوان ، وفي الشّتاء يُزاد الفرو الى جميعها ؛ ويُروى أن مغنّيات الرشيد كُنّ يلبسن الأقمصة والسراويلات الوردية والخضراء

والحمراء ؛ وأحدثت زبيدة ، زوج الرشيد ، دُرْجة جديدة تقضي بلباس الخفاف المُرصَّعة بالحجر الكريم ، وأرسلت أخته عُليَّة دُرْجة ثانية تدعو الى لفّ الشعور في الشباك المُثمَّنة بالمجوهرات . وها هي ذي إحدى حسان ألف ليلة وليلة تتحدث عن زينتها فتقول : « ... فاخترتُ أفخر حُللي الجديدة ، وأفرغتُها على نفسي ، ثم لبست حليي ، فجعلتُ في عنقي القلادة المنظومة باللؤلؤ الرطب ، وفي معصمي الأساور المرصعة بالجوهر، وفي أذنيّ الحلق المثمنة بالدرّ ؛ ثم أخذتُ خمار الخزّ الأزرق المطرّز بالذهب ، وتوشحت بحياصة الديباج ، وكحلتُ عينيّ ووضعتُ البرقع الصغير على وجهي ، وخرجت ... « (الليلة 435ً) .

وها هي ذي زينة حِسان أُخَر من ألف ليلة : « ... وإذا بنور الهدى خرجت عليهم في حلّة من الحريرالأحمر ، مرصعة بطيور من الذهب ، عيونها ومناقيرها ومخالبها ياقوت وزبرجد يسحر الألباب ...» (الليلة 713ً) . « ... ثم رجعت زين المواصف الى بيتها ، ودخلت الحمام فاغتسلت... ثم أحاط بها جواريها يساعدنها ، فدلكن من بدنها ما يُدلك ، ومرطن ما يُمرط ، وطَوّلن من شعرها ما يُطوّل ، وقصّرن ما يُقصّر ؛ ثم أفرغن عليها حلة بطرازات من العسجد ، ووضعن على رأسها سبيكة من اللؤلؤ الرطب ، وربطن على السبيكة عصابة من الديباج ، مكللة بالدر والجوهر واليواقيت ، وأرخين لها من تحت العصابة سالفتين ، ووضعن في كل سالفة ياقوتة حمراء قدر بيضة الحمامة ، مرقومة بالذهب الوهاج ، وأرخين لها فاضل شعرها وهو كالليل الداج ، ثم بخّرنها بالعود ، وعطرنها بالمسك والعنبر، فبرزت فتنة للعابدين ونزهة للناظرين ...» (الليلة 849ً) .

المآكــــل

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا »(68).
(قرآن ، 2 ، 167)

إنّ حبّ التباهي عند أغنياء البغداديّين ، وقد رأينا كيف يتجلّى في العناية باللباس وتأثيث المنزل ، يظهر بجلاء أكبر في فنّ الذّوَاقة ، أي في إجادة الطهي وتقديم المائدة وتذوق الرفيع من المأكولات ؛ فلا يهمّ أن يكون الطعام قليل التغذية ، عديم الطعم أو مفوّها بإفراط ، إنما المهم أن يكون طريفا ؛ فعندما تُعَدّ مأدبة في بيت أحد من أغنياء التجار أو كبار الموظفين يجب ، من الغد ، أن يتحدث عنها وعن صاحبها كل سكان بغداد ، عظم شأنه

(68) * الآية 167 كاملة هي : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلا طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » (سورة البقرة) . [وترجم أ. كلو الآية كما لو كانت تبتدئ بقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »] .

أوحقرُ؛ وإذا ما اتفق أن قدّم فيها رب البيت صنفا من الطعام يجهله الناس ، أو اخترعه كبير طُهاته أو – وهذا من باب أولى – اكتشفه لدى طُهاة شخصية أجنبية مرموقة ، أحاطت الشهرة بذاك البيت ولازمته دهرا طويلا . وطلبا للتجديد ، ظلّ الناس يختارون أطعمة الفرس ، وحتّى أطعمة الروم ، رغم العداوة التي تكنها مملكتهم للإسلام . وبعد ذلك بقليل ، سيعم تأثير الطّباخة التركية كلّ الأوساط .

إنّ إتقان الطّبخ جزء من الآداب الرفيعة ، بل من الثقافة ، بل ومن المجتمع نفسه ؛ وكان فنّ الطّباخة مما شُغف به الإغريق في الفترة الهلّينيستية ، وكذلك بنو ساسان والرومان ؛ ثم شُغف به العباسيون بدورهم منذ بداية عهدهم تقريبا ، عندما وفّر ازدهار التجارة لأقلّية محظوظة ، كبيرة العدد نسبيا ، وسائل إرضاء نزواتها المطبخية ، وألّفت الكتب لتلقين آداب السلوك ، كذاك الكتاب المنقول من الفارسية الى العربية والذي يروي – على ما ذكره المسعودي – أنّ أحد ملوك الفرس سأل ابنه : « أيّ الأغذية تفضّل بين جميل الطيور، وشهى اللحوم ، وطريّ الخثائر، ولذيذ الأحسية ، وعاطر الأفاويه ،وذكيّ الفواكه ، وشجيّ الألحان ، وكريم الأفراس ، وغانية الحسان ؟ «.

وها هي رواية ألف ليلة وليلة تعرض علينا مشهدا نرى فيه هارون الرشيد أعدّ العدة لقلي سمكة . « فقالت الجارية : والله يا سيدي إن هذا السمك مليح ، يا ليته مقليّ . فقال الشيخ ابراهيم · والله صدقت ؛ ثم قال للخليفة : يا صياد ليتك جئت بهذا السمك مقليا ، قم فاقله لنا وهاته . فقام الخليفة يجري حتى وصل الى جعفر ، وقال : يا جعفر طلبوا السمك مقليا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين هاته وأنا أقليه ، فقال الخليفة · وتربة آبائي وأجدادي ما يقليه إلا أنا بيدي . ثم إنّ الخليفة ذهب الى خصّ الخولي وفتش فوجد فيه كل شيء يحتاج اليه من آلة القلي حتى الملح والزعتر وغير ذلك ؛ فتقدم للكانون وعلق الطاجن وقلاه قليا مليحا ؛ فلما استوى جعله على ورق الموز ، وأخذ من البستان ليمونا وطلع بالسمك ووضعه بين أيديهم ... » ، (الليلة 35ً) .

ألّف عدد كبير من رجـال البطانة كتبا في فن الطبخ : فمنهم مثلا إبراهيم بن المهدي[69] الأميرالموسيقار والشاعر– الذي تولى الخلافة بضعة أشهر–، والقائد الحارث بن بشر ، وغيرهما من الشخصيات ، وأشهرهم المؤرخ الكبير المسعودي . وأُلّفت أيضا كتب في فن التغذية ، منها كتاب الأغذية الذي ألفه الطبيب اليهودي [اسحق بن] سليمان الإسرائيلي[70] والذى تُرجم الى اللاتينية وظلّ مرجعا للتدريس الى القرن 18ً (12ً للهجرة) في جامعة سَالِرْنُو[71] .

(69) وقد تَسَمَّى طعام باسمه ودُعي الإبراهيمي .

(70) * لا وجود لطبيب يُعرف بسليمان الإسرائيلي . فمن الأطباء الأفارقة اسحق بن سليمان =

أقبل عدد كبير من الشعراء على الجيّد والطريف من المآكل يصفونه ، وينوّهون بمن يتفنن في إعداده ، وبمن يجلس من الذوّاقين الى الموائد لتناوله ، حتى انّ صالح بن عبد القدّوس ، أحد أدباء العصر، تهكم لهذا الوابل من القصائد "الذّوّاقية"، معتبرا كثرتها دليلا على تفضيل الناس غذاء البطن على غذاء الفكر(72) .

يحتاج إعداد الأطعمة الى الأفاويه ، وهي باهظة الثمن ، لأنها مستوردة من أفريقيا أو من الجنوب الشرقي الآسيوي ، ومن تلك الأفاويه التوابل كالفُلفل ، وجوز الطّيب ، والقرفة ، والمِسك ، والزّنْجَبيل ، والقَرَنفُل ؛ ومنها الأبزار والنباتات العِطرية كالبَقدونس ، والنعناع ، والخَشخاش ، والكَسْثوث ، وورق الورد وبراعمه ، والفستق ، والثّوم والبصل ، والخَردل ، وغيرها ؛ وبقدر ما تكثر الأفاويه ويطول الوقت في الإعداد يكون الطعام ألذّ وأشهى(73).

= الإسرائيلي ويقول عنه ابن أبي أصيبعة في معجمه . « كان طبيبا فاضلا بليغا عالما، مشهورا بالحذق والمعرفة ، جيّد التصنيف عالي الهمّة ، ويكنّى أبا يعقوب . وهو الذي شاع ذكره وانتشرت معرفته بالإسرائيلي . وهو من أهل مصر، تم سكن القيروان ولازم اسحق بن عمران وتتلمذ له . وخدم الإمام عبيد الله المهدي [أول الخلفاء الفاطميين ، 909 – 934 / 297 – 323 هـ] صاحب إفريقية بصناعة الطبّ . وكان إسحق بن سليمان مع فضله في صناعة الطبّ بصيرا بالمنطق ، متصرفا في ضروب المعارف ' وعُمّر عمرا طويلا الى أن نيف على مائة سنة ، ولم يأخذ امرأة ولا أعقب ولدا ؛ وقيل له «أيسرك آنّ لك ولدا ؟» – قال · « أما إذا صار لي كتاب الحُمّيّات ، فلا ! » ، يعني أنّ بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد . ويُروى أنّه قال : « لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد وهي كتاب الحميات ، وكتاب الأغذية والأدوية ، وكتاب البول ، وكتاب الإسطقسات [وله كتب عديدة يذكرها ابن أبي أصيبعة في هذه الترجمة] ' وتوفي قريبا من سنة عشرين وثلاثمائة ... »(عيون الأنباء، 479 – 480) ؛ ويضيف ح . ح . عبد الوهاب بشأن اسحاق بن سليمان · « وكان معاصروه من يهود إفريقية يجلّونه إجلالا عظيما حتى انهم أسندوا اليه رياستهم الدينية » (ورقات . I . 237 – 238) .

(71) * سَالِرْنُو · مدينة إيطالية تقع جنوب شرقي نابولي ، استعمرها الرومان ، واستقل بها اللومبارديون ، وحاصرها العرب (416/1025 هـ) ، ثم آلت الى أدواق بوچلبا وقلورية وصقلية . اشتهرت خلال العصر الوسيط بمعهدها الطبّي الذي كان ينشر بكامل البلاد الأوروبية تعاليم الطب العربي ، والقيرواني على وجه الخصوص .

(72) * ما نسبه أ. كلو الى صالح بن عبد القدوس لم نجد له ما يقابله بين أشعار هذا الشاعر في الكتب التي ترجمت له أو تحدثت عنه ، وهي: الأعلام ، ومعجم الأدباء ، ونكت الهميان ، وفوات الوفيات ، والتهذيب ، وميزان الإعتدال ، وأمالي المرتضى ، ولسان الميزان ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، وتاريخ بغداد ، ورغبة الآمل .

(73) أنظر الملحق الخامس.

يتصدّر الدجاج قائمة اللحوم المستهلكة في الأوساط الموسرة ؛ فهو قابل لما لا نهاية له من التنوّع في إعداد الشهيّ من أصناف الطعام ؛ وكتاب "وصل الحبيب" المؤلف في العهد الأيّوبي يعدد 74 صنفا من الأطعمة المهيّئة بالدجاج ، منها مثلا : الفرّوج بالفستق ، أو بمُرَبّى الورد ، أو بمُخثَّر التُّوت ، أو بالبقدونس ، أو بالبرتقال ، أو وبغيره . وكانت تربية الدجاج تكثر فيما حول بغداد من المزارع والضياع ، طلبا لما تُنتجه من طريّ البيض . ولحم الدجاج ، قبل طهيه ، يُنقّع غالبا مدة ليلة ، ثم يُغلّى ويُقطّع قطعا ويُقلى في زيت الجلجلان ؛ ومما يكثر استهلاكه من اللحوم لحم المعْز والضّأن ، لأن الأطباء يشيرون به وينهون عن أكل لحم البقر، لجفافه على حدّ قولهم ، على أنهم يوصون بتربية الأبقار لألبانها ؛ ويُمهَّد لطبخ اللحم بغسله بالماء الساخن وقليه في الزيت قصد تطريته . والسمك أيضا – النضير منه والمملّح – يُقبِل الناس عليه إقبالا شديدا ، لا سيما ما كان منه كبير الحجم (ويُترك للفقراء صغيرُه وزهيد الثمن منه) ومصيدًا من دجلة أو الفرات فيتناولونه مقليا أو متبّلا بالخل أو مطهيا في المرق .

يقول مثل عربي من ذلك العصر « مائدة بلا بقل كشيخ بلا حكمة » ، ويقول آخر : « الخُضَر زينة الموائد » ؛ يستهلك الناس من البقول خصوصا الجُلبان والفُول والفاصُولية، فيتناولونها حساء ، أو يغلونها بالملح ويقدمونها في زيت السمسم أو زيت الجوز، أو مع مسحوق الخبز المُحمّص ؛ وللناس ميل شديد للباذِنجان فيأكلونه مطهيا في المرق أو مقليا أو منقوعا في الخلّ أو اللبن . ويتحاشى من انتسب الى الأوساط الراقية أكل الجَزَر والكُرّاث (بسبب رائحتهما) ، لكن تُصنّف الأطعمة بالثّوم والبَصل ؛ وقد تغنّى الشّعراء بالهِلْيَوْن (السّكّوم) المُحبَّب الى النفوس لدى الخاصة ، وأرفعه نوعا ما كان يوجد بدمشق؛ وليس الناس أقلّ ميلا الى الحُرْف والفُجْل والسَّبانـخ والسِّلْق والخَسّ ، وإن كان الظّرفاء يجتنبون تناول ما كان منها قادرا على ترك شيء من الخُضرة على اللّثة والأسنان .

منذ اثني عشر قرنا خلت ، كان الشرق بلدَ الحَلْويات والسكاكر، ينعم بها فيه الفقراء كما ينعم بها الأغنياء ؛ وكان جُلّها يُصنَع من اللَّوز والسكّر، ويُحلّ في زيت السمسم والحليب وشراب السكر، ويُعطّر بماء الورد والمسك والقرفة . ولقد عمّت زراعة القصب السكري كامل بلاد الشرق الأدنى قبل هجرة الرسول بزمن قليل ؛ وكان السكّر المستهلك ببغداد غالبا ما يُجلب من خوزستان ؛ ويتلقّى منه الرشيد كل سنة كميات عظيمة توجّه اليه من سجستان تسديدا للجباية ؛ أما إصفهان فكانت ترسِل اليه العسل الأبيض .

كان لإتقان الأطعمة وتقديم الموائد دور كبير في الإشادة بصاحب المأدبة . فتوجيهات كثيرة كانت تُحرَّر في العهد الوسيط وتوفّر النصائح في هذا الشأن . فمنها مثلا ما يشير باستعمال الزعفران استعمالا واسعا لإعطاء الأطعمة لونا أصفر مُذهَّبا جميلا ، ومنها ما يبيّن كيف تُعرض أصناف من الأكل " كالعُجَّة في القِنّينة " أو "المُـخ الكذّاب " بأسلوب

طريف . وكان عدد الأطباق في كلّ وليمة وفيرا ولو قلّ عدد المدعوّين . وقد يجدر، في هذا الباب ، ذكر المأدبة التي أقامها اسحاق الموصلي ، المغني المشهور، والتي هُيِّئ فيها ثلاثون من طيور الدجاج ، أُعِدّت بطرائق مختلفة ، إضافة الى باقي الأطعمة وألوان التحلية ، الساخن منها والبارد ، لعدد من المدعُوّين لا يزيد على الثلاثة .

وكان المهرة من الطبّاخين يُشتَرَون من أسواق العبيد بأثمان باهظة جدا ؛ على أنّ الناس يفضّلون لهذا الغرض ابتياع الإماء الزّنجيات لما لهن ، حسب الرأي السّائد إذّاك ، من قدرات فائقة في الطِّباخة التي اشتهر فيها الهنود أيضا ، بل وامتاز فيها – على ما رواه الجاحظ – من جُلِب من بلاد السّند امتيازا يجعلهم أقدرالناس عليها إطلاقا .

وأوّل الواجبات على من أراد إعطاء المأدبة حقّها أن يُحسن توجيه الدّعوة اليها ؛ واليك نموذج من ذلك : « نحن ، يا سيدي ، في مجلس غنيّ إلاّ عنك ، شاكر إلاّ منك ؛ قد تفتّحت فيه عيون النرجس ، وتورّدت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامرالأترج ، وفنقت فارات النارنج ؛ ونطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار، واهتزت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وقام منادي الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندّ ؛ فبحياتي لما حضرت ! لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد »[74] .

قبْل الأكل يتقدّم خادم بطشت وإبريق ماء ليغسل الحاضرون أيديهم ، فيبدأ بسيده ثم ينتقل الى المدعوّين . « ... جاء تهم الجارية بطشت وإبريق من الذهب فصبت منه ماء معطرا فغسلوا أيديهم ؛ ثم جاء ت بإناء مرصع باليواقيت والألماس ، مملوء بماء الورد ، فصبت لهم منه ، فمسحوا وجوههم ولحاهم ؛ ثم جاءت بمجمرة من الذّهب بها ماء المقر، فرشت لهم منه ثيابهم ، على العادة ...» (ألف ليلة وليلة) [75] . ثم يبادِر بالطعام صاحبُ البيت أو أكبر المدعوّين سنّا . ويُؤتى بالألوان الواحد تلو الآخر، وتُوضع جميعا معا على الأرض ، فوق قُماشة من نسيج الكتّان أو ورق الموز أو قطعة من إهاب الأنعام . على أنّ الطعام يُقدّم في الأوساط الموسرة على مائدة واطئة (السُّفْرة) ، دائرية الشكل غالبا ، مصنوعة من الخشب أو الحجر (العقيق اليمان عادة) وملبّسة بالأبنوس أو اليشب ، وأحيانا بالصّدف ؛ وغالبا ما تكون المائدة أيضا – لخفّتها وصغر حجمها – مجرّد طبق يوضع على الأرض أو على ركائز من لوح أو حديد مزخرف ؛ ولا يؤكل على المائدة ذاتها ، بل يُكتفى بوضع الأطعمة والأطباق عليها . ويُتناول الطعام بالأصابع ، وقد يستعمل الطّاعم السّكّين والملعقة ، لكن يجب عليه أن يُصغِّر اللقمة ، وألاّ يلطّخ أنامله بالمرق والدّسم ، ويمشّش العظام ، ويأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخّ أو الكلى أو العيون ، لأنّها تُعدّ من

(74) ذكره أ. متز A. Mez ، التأليف المذكور ، .op. cit [ورد في يتيمة الدهر، 3، 81] .
(75) * (الليلة 152)

أشهى ما على المائدة من المأكولات ؛ وعليه أيضا ألاّ يجلل الملح ، ويملأ فمه ، ويلطع أصابعه ، ويخلل أسنانه .

لا تُشرَب الخمر مع الأكل ، بل يُشرب الماء المُثلّج والمحلّى بالسكر أو المُعطّر بالمسك وماء الورد ؛ وشرب الماء المُثلّج في فصل الصيف يُعدّ كمالا صعب المنال ؛ أما الخمرة فهي شراب السهرات التي تُعقد بين الخلان ويشارك فيها الشعراء والعازفون والمغنيات ، ويُحتسى فيها الخمر أحيانا بإفراط ؛ والمآدب – وتُعقد خصوصا في الليل – تجمع عادة عددا محدودا من الأفراد ؛ فقد قيل : « ... ومجلس الثلاثة ، مع المغنّي والداعي اليه ، يُعَد أتم مجلس ؛ فإذا بلغ العدد الستة كان الحُضَّر كُثْرًا ...» ، وقيل أيضا : « ... والمجلس دون الخمسة غبن الوحشة ، وفوقها صخب الأسواق ...» .

الأعيـــاد ...

في بغداد – وكما هو الشأن في سائر مدن الشرق الإسلامي – كلّ شيء مدعاة لفتح قوسين في الحياة اليومية قصد قَطع ما فيها من رتابة وإملال ، مما يضفي على المواسم أهمية بالغة ؛ ولفرط ما اشتهر به البغداديون من تسامح ، فقد كانوا لا يقتصرون على الإحتفال بأعياد المسلمين ، بل كانوا يحتفلون أيضا بأعياد موروثة عن الشرق القديم ، أعياد مسيحية عديدة ، وأخرى يمثل أكثرها مجرّد بقايا لشعائر وممارسات تعبّدية قديمة يرقى منشأها الى سحيق العهود الغابرة ؛ وهذا مأتاه النزعة المُواطِنية الكونية التي كانت تغلب على الإمبراطورية العباسية والتي جعلتها تتقبّل كلّ شيء .

يحتفل المسلمون بعيدين كبيرين : عيد الفِطر(أو العيد الصّغير) بعد نهاية رمضان وعيد الأضحى (أو العيد الكبير ، وقربان بيرم في البلاد التركية) أي عيد الذبيحة ، عيد الخروف . فجميع المسلمين – بمن فيهم من قل تديّنهم – يصومون ، خلال شهر رمضان ، كامل يومهم عن الطعام ويمسكون عن شرب الماء ، ولا يشربون منه ولو قطرة واحدة ، حتى في أشدّ الأيّام قيظا . وتشارك مجموعة السكان بأكملها في الإحتفاء بنهاية هذا الصوم ؛ ويبدأ التأهب لهذا الإحتفاء قبل حلول موعده بمدة طويلة ، فيخرج الأطفال الى الشوارع ، ويجمعون ما أمكن من الأموال لشراء اللعب والتحف والحلويات ، وتُهيّأ الأطعمة ، وتُشرى الملابس الجديدة . ويوم العيد ، في الصباح الباكر، يذهب أعيان البلاط ورجال الدولة الى المسجد الجامع ، يخفرهم الجند شاكا في سلاحه ، ويتقدمهم الخليفة مرتديا بُردة الرسول فيصلّي بالناس صلاة العيد . وحال الفرا غ من الصلاة ، يتبادل الناس التهاني والقبل والزيارات ؛ وطيلة أيام ثلاثة ، يحتفل الناس بالعيد ، كلاّ على قدر

طاقته ؛ و في المساء ، توقد الأضواء في القصور وعلى المراكب والسفن السابحة في نهر دجلة ، فتتألّق بغداد « كعروس تتجلّى » .

أما عيد الأضحى فهو الذي يحتفل به المسلمون يومَ يَنحر الحجيج – وقد رجموا الشيطان على صخرة بمكان يسمّى مِنـًى– كبشا أو بعيرا على جبل عرفات . ويدوم الإحتفال بالعيد ثلاثة أيام ، تذبح فيها الخرفان على الساحات العمومية ببغداد ؛ ويشهد الخليفة النّحر بأحد أفنية القصر، ثم يُهدي جانبا من اللحم الى الذين يريد إكرامهم من المقرّبين ، ويتصدّق بالبقية على الفقراء والمساكين . وبمناسبة هذا العيد، يرتدي الناس جديد الملابس ، ويتبادلون الهدايا ، ويشبعون لحما .

يُحيي الشيعة ذكرى فاطمة وعليّ ، ويحتفي السنيون بمولد الرسول ، وهو ما يستنكره المتشددون من الفقهاء ، باعتباره من البدع ؛ ويُحتفل بما يحدث في البلاط من اللّذات ويُعقد فيه من الزيجات احتفالا إجماعيا ، فيُوزّع الخليفة الصلات والهدايا، ويَنظم الشعراء القصائد ، ويُزَيِّن النّصارى والمسلمون بيوتهم بالأنوار؛ لكنّ الاحتفالات تعظم وتتسع حتى الإفراط ، عند ختان الأمراء · فقد ختن الخليفة المقتدر خمسة من أبنائه في نفس اليوم ، فكلّفه ذلك 600.000 دينار . وجرت العادة أن يختن الخليفة مع أولاده اطفالا من اليتامى وأبناء الفقراء ، وأن يُحسن لأوليائهم ، فيخرجون من القصر مُحمّلين بالنثير الوفير؛ وغالبا ما يُختن في ذلك اليوم المئون من الأطفال على نفقة الخليفة .

يُوفّر أيضا الفرصة ، لتزيين المدينة وإنارتها وإقامة معالم البهجة بها ، مبايعةُ خليفة جديد ، وكذلك رجوعُ أمير المؤمنين منتصرا من إحدى صوائفه ، أو ظفرُه ببعض الخارجين عليه ، أو تعيينُه وليـًا لعهده ؛ ومن مناسبات الإحتفال أيضا ، الإعلان عن "تحدير"[76]أحد أبناء الخليفة في قراءة القرآن ' وفيها يخلع الخليفة على ضيوفه ، ويهب الهبات ، ويُعتق العبيد ؛ من ذلك مثلا أنّه لما "حدر" الرشيد ، أعتق المهديّ خمسمائة من العبيد وأجزل الصدقات ، وأنشد الشعراء بين يديه وأجزل لهم العطاء ، واحتفل الشعب للحدث على عادته ، فأوقد المشاعل وعلّق شرائط الفوانيس .

من بين الأعياد التي أُخِذَت عن التقاويم الأعجمية ، تحتفل بغداد– والفرس كثيرون بين سكانها –، على الأخص ، بعيد النيروز، وهو أول أيام الربيع عند الإيرانيين ، جاءت به الجيوش التي رفعت العباسيين الى الحكم . ويومَ النيروز، يستيقظ الناس مع الصباح الباكر، ثم ينطلقون نحو البئر أو الترعة فينتضحون بمائها ، وبعدها يتناولون حلويات خاصة ، كان النساء قد أعددنها باللوز والسكر وماء الورد ؛ ثم يقبلون على بعضهم بعضا بالمعايدة وتبادل الهدايا ، ويُقدّمون منها أعدادا لا تُحصى الى أمير المؤمنين ، فيُرسم ما

(76) * التّحدير : مصدر حَدَّرَ ؛ وحَدَّرَ القراءةَ والأذانَ والإقامة ، وفيها . أسرع فيها .

يرد منها على القصر في سجلاّت خاصة ؛ ومدة ستة أيام ، تظلّ قصور الخليفة وبيوت الأمراء ومنازل الأعيان مزينة بالأنوار، تضيئها مشكواتٌ أُسرِجت بزيوت معطرة ، وشموعٌ صُنعت من أخلاط نفيسة ، وتؤرّجها ضروب من البخورات النادرة .

والمِهْرَجان أيضا من الأعياد الفارسية ، وهو العيد المؤذن بدخول الشتاء ؛ وبهذه المناسبة يقرع الناس الطبول ، وينيرون البيوت ، ويتبادلون الهدايا ، ويُقدّمون منها للخليفة أفخرها . وأخيرا يحتفل الناس بالسَّدَق وهـو عيد فارسي آخر، يقتبلونه بكثير من البهجة، ويُكثرون فيه من الإضاءة وتأجيج النيران ، تعبيرا عن السرور والغبطة ، خصوصا على ضفاف دجلة حيث تُزيَّن مراكب الوزراء وتُنار درّاعـات الأمـراء ؛ ثـم تُبخّر[77] البيوت ، ويَشرب القوم الخمر ويُغنون ويَرقصون حول النيران الملتهبة .

ويحتفل المسلمون في بغداد بالأعياد المسيحية احتفالَهم بالأعياد الإسلامية ، دون اكتراث – وغالبا دون معرفة – لأسبابها ومقاصدها ؛ فمباهج الفرحة التي يقيمها أجوارهم المسيحيون توفّر لهم دائما مناسبة للإحتفال بها معهم ؛ وما يُنظَّم من زيارات الى ما حول بغداد من أديرة نسطورية ومونوفيسية ، وما يقام بها من طقوس تكريما للقدّيسين المتولّين حمايتها، يُحدِث لدى سائر السكّان فرص التعبير عن السرور والإبتهاج ؛ فيتسارعون في الخروج الى تلك الدّيورة التي تجلبهم إليها سعة أرجائها وجمال بساتينها ، فيشربون الخمر وينعمون بالمقام دون تحفظ ، مما جعل أحد المعاصرين يقول : « ما أطيب الإصطباح مع الرهبان في يوم قرّا » . ومما اشتهرت به أديرة بغداد أيضا ما كان يقام فيها من الألعاب ، والنردُ أخص ما يُتسلّى به فيها من ضروب اللهو .

وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو ، الى شرقي بغداد ، بباب الشماسية ، وسط روض فسيح على نهرالمهدي ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلاّ حضره ، وهناك يدور الشراب ؛ وفي ذلك قال أحد الشعراء :

فَتَـلاَعَبَتْ بِـعُـقُـولِنَا نَـشْوَانُـهُ　　　وَتَـوَقَّـدَتْ بِـخُـدُودِنَـا نِـيـرَانُـهُ
حَتَّى حَسِبْتَ لَنَا الْبِسَاطَ سَفِينَةً　　　وَالـدَّيْـرَ تَـرْقُـصُ حَوْلَنَا حِيطَانُـهُ
[من الكامل][78]

وفي آخر سبت من سبتمبر(أيلول) ، كان عيد دير الثعالب ؛ وهذا الدير يقع في الجانب الغربي من بغداد ، وكان لا يتخلّف عن عيده أحد من المسلمين والنصارى ، لأنه في

(77) يرى البعض أنّ الغاية من هذه العادة إبعاد الشرور، ويرى آخرون أنّ القصد منها إزالة الروائح الكريهة من البيوت ، وتطهير الأبدان من درن الشتاء وعطنه .

(78) * البيتان لمجهول ؛ وقد روى آ. كلو ثانيهما فحسب ، ونسبه الى الشبشتي ، والشبشتي إنما هو صاحب كتاب الديارات الذي رُوي فيه البيتان (ص 14) .

أعمر موضع ببغداد ، لما فيه من البساتين والنخل والرياض ، ولتوسطه في البلد ؛ « وفي اليوم الثالث من ديسمبر(تشرين الأول) ، كان عيد القديسة أشموني ؛ وكان من الأعياد العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها اليه كاجتماعهم الى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلاّ خرج اليه ، كل منهم على حسب قدرته ، فمنهم من يأتي في الزبازب ، ومنهم من يركب الطيارات والسميريات[79]. فيتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم ، ويباهون بما يُعدُّون لقصفهم ، ويعمرون ديره وأكنافه وحاناته ، ويُضرب لذوي البسطة فيه منهم الخيام والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ؛ فهو أعجب منظر وأنزهه ، وأطيب مشهد وأحسنه ؛ وكان الغريب الذي يهبط بغداد ، ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يُرى فيها ، يُسرّ ويتسلّى بأن ينتظر شهرا لرؤية عيد أشموني[80]» . وكان عيد الأحد من الصّوم المسيحي عيدا من أعياد اللهو عند المسلمين ، وكان يُعمل في دير الخوّات بعكبرا المشهورة بنبيذها ، ويبلغ اللهو أقصاه في ليلة الماشوش ، وهي ليلة يختلط فيها النساء بالرجال ، فلا يردّ أحد يده عن شيء ، ولا يردّ أحد أحدا عن شيء ، وهو من معادن الشراب ، ومنازل القصف ، ومواطن اللهو[81]. وفي يوم الأحد الرابع من الصوم ، تعاد الكرة الى اللهو والشراب مع الرهبان بدير دُرْمَالِس ؛ وفي اليوم الأخير من صوم النصارى ، ففي قصر الخليفة ذاته يجري الإحتفال ، وفيه تنتظم مواكب من صغار الغلمان ، يطوفون وبأيديهم قلوب النخل وورق الزيتون .

ثم لا تكاد تمضي أسابيع حتى يُحتفل بعيد القديسة بربارا في أول الشتاء (الرابع من ديسمبر/تشرين الأول) ، وكان المسلمون يعرفونه ، ويقدرون به الفصول ، ويعرفون وقت الأمطار؛ ومن أمثالهم . «إذا جاء عيد بربارا ، فليتخذ البناء زمارة » ، يعني فليقعد في البيت[82] ؛ ويُحتفل بعد مرور ثلاثة أسابيع بعيد الميلاد (25 ديسمبر/ تشرين الأول) فتُوقد النيران ويُلعب بالجوز؛ وسبب العلة التي من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز « أنّ يوسف ، على ما رواه وهب بن منبّه ، لما ألجأ المخاضُ مريمَ الى جذع النخلة اشتد عليها البرد ، فعمد يوسف النجار الى حطب ، فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيه النار، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية ، حتى دفِئَت ؛ وكسر لها سبع جوزات وجدها في خُرجه ، فأطعمها »[83].

---

(79) * الزبازب والطيارات والسميريات : أصناف من السفن النهرية .

(80) * كتاب الآثار للبيروني ، ص 291 .

(81) * كتاب الديارات ، ص 37 .

(82) * المقدّسي ، ص 45 .

(83) * كتاب العلل ، ص 31 .

... والألعـــاب

" لاَ تحَضُرُ المَلاَئكَةُ منَ اللَّهْوِ شَيْئًا إلاَّ ثَلاَثَةً : لَهْوَ الرَّجُلِ مَعَ امْرَأتهِ وَإجْرَاءَ الْخَيْلِ ، وَالنِّضَالَ[84] ".

(حديث نبويّ)

في بغداد ، يتعاطى الناس الألعاب بكثرة ، بالمنازل ، وبما يُشبه النوادي اليوم ؛ ويلعب الناس للتسلّي ، ولكنهم يمارسون أيضا لعب القمار، وإن ورد تحريمه في القرآن .

لقد كان لمسابقة الخيل ولعب الصولجان المقام الأول ؛ ففي عهد الرشيد كان السباق يجري في الحلبة التي هيّأها المهديّ والتي كانت أيضا ميدانا لتدريب الجند ؛ وفيما بعد هُيِّئت حلبات أخرى ، بعضها داخل قصورالخليفة والأمراء ، وأحيط بعضها بالحدائق وجُهِّز بالحمامات ، وغرف للإستراحة ، وقاعات للأكل ، وغيرها من المرافق .

عَرف الفَرَس عند العرب دائما مكانة بارزة ؛ فقد كان يُنسب اليه أصل فَوْطَبِيعِي ؛ أوَلم يكن على فرس البراق ذهابُ الرسول الى القدس وصعودُه الى السماء ؟ ثمّ إنّ ظهورَ الحصان العربي الأصيل حديثُ العهد نسبيا ، بما أنّ هذا النوع لم يستقر نهائيا إلاّ حوالي القرنين 7ً و 8ً (1ً و2ً للهجرة) بمصالبات بين النوعين الشامي واليمني ، ثم بإسهام من الأنواع الموجودة آنذاك بجهة قزوين .

ولقد شجّع الرسول بنفسه على إجراء الخيل ، فقنّنه ، وأذن في المدينة بعقد مسابقات فيه رُصدت لها الجوائز ؛ فكان من الحتمي أن يشجّع مثاله على تنظيم المنافسات في سباق الخيل وفنون الفروسية ، كالتباري بالصولجان ، والتبارز بالرماح والسيوف والأقواس على ظهور الجياد ، وجميعها تدريبات جليلة تُعدّ المقاتلين للجهاد .

كان الناس أيضا يسابقون بين الكلاب والبغال والإبل والحمير ويراهنون عليها ؛ وفي عهد الرشيد اشتد ولعهم بسباق الحَمَام حتى صار يمثل مشكلا اجتماعيا حقيقيا : فقد بات عدد من الناس يُفنون مكاسبهم في شراء حمام السباق والمقامرة به رغم منع السلطة للقمار؛ فثمن الواحد من ذاك الحمام يبلغ أحيانا خمسمائة دينار؛ وترويض هذا الصنف من الطيور يتطلب تكاليف مُشطـّة وكثيرا من الصبر والأناة ، لكنه قد يدرّ على

---

(84) * لا وجود لهذا الحديث بين الصحاح ، والحديث الصحيح الوارد في هذا المعنى ، هو قول النبيء « وَلَيْسَ منَ اللَّهْوِ لَهْوٌ إلاَّ ثَلاَثَةٌ : مُلاَعَبَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ ، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ» (مسند الإمام أحمد بن حنبل ، 4، 147) ؛ وفي المعنى ذاته حديث ضعيف لابن عدي في الكامل عن ابن عمر ، وهو قول النبيء : « أَحَبُّ اللَّهْوِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى إجْرَاءُ الْخَيْلِ وَالرَّمْيُ » (الجامع ، 1 ، 38) .

صاحبه الكثير من المال ؛ وحسب الجاحظ ، فإنّ ما يحصل لصاحبه من الدخل يساوي ما تغلّه ضيعة فلاحية ، ولقد كان هارون الرشيد من أشدّ الخلفاء فتنة بسباق الحمام ، فكان يخرج ويذهب لمشاهدة وصول الطيور "المشاركة" فيه ، مع بقية من كانت تجلبه روعة المشهد ، بل ومحبّة الرّهان والربح أيضا .

ومن الرياضات المفضلة الرمي بالقوس ، وهو رياضة للهو ولكنها للتّدرّب على القتال أيضا ، تُنظّم لها مباريات يُقامَر فيها على الفائز ؛ وغالبا ما تجري في فصل الخريف ، وتحظى بإقبال شعبي كبير ، خصوصا إذا تقابل فيها عدد من مشاهير الرماة؛ وبعضها يتبارى فيه الرماة على أغراض متحركة ، وآخر على أغراض ثابتة ؛ و لا يحرك فيها الرامي رجليه إذ لا حقّ له إلاّ في تحريك جذعه . والتباري بالقذّافة كذلك يجلب عددا وافرا من الناس ؛ فهذا النوع من السلاح الذي ظهر منذ أوائل الدولة الأموية يسمح برمي قذائف من حديد ، ومن حجر، بل وحتى من رصاص .

ومن الرياضات الشعبية كذلك المصارعة التي كان الخلفاء أنفسهم يشجعونها ، ومنهم الأمين ، ابن الرشيد ، وكان يحضر مبارياتها ويوزع الجوائز على الفائزين فيها . لقد كان بعض الخلفاء يتعاطون هذا النوع من الرياضة ؛ ويُروى أنّ المعتضد ، في نهاية القرن 9 م (3 للهجرة) أراد اختبار قوته بصراعه آسدا ، فاستطاع أن يقتله بضربتين سددهما له بسيفه . ويُروى أيضا أنّ المعتصم ، ابن الرشيد أيضا ، رفع ثم حمل يوما بابا من حديد يزن 300 كلوغرام ؛ وكان للناس أيضا ولع بالتبارز بالسيوف والسباق إما جريًا على الأقدام ، أوسباحةً في الماء ، أو في الزوارق على نهر دجلة .

ومن صنوف التسلية الشائعة كذلك المحارشة بالحيوانات : فيشتري الهواة من أسواق خاصة الكباش والدِّيَكة والسمّان ويهارشون بينها ؛ وهنا أيضا كانت المقامرة بالمال ممنوعة ، لكنّ ذلك لم يمنع بعض المهارشين من أن يُقْمَرُوا وأن يَخرُجوا أحيانا من كلّ شيء ، وحتى من ثيابهم ، ومن نعالهم ...

الفصل الثامن

المعجزة الإقتصادية

" من القرن 8ً الى القرن 11ً (من 2َ الى 5ً للهجرة) كان للعالم الإسلامي على الشرق ، وعلى الغرب أيضا ، تفوّق لا مراء فيه ".

(م. لومبار)

" واشتريت لي بضائع نفيسة فاخرة ، يسيرة الرواج ، وفيرة الارباح ، ومتاعا وأسبابا وشيئا من الأغراض المناسبة لسفر البحر... وأنزلتها في المركب ... وسرنا في البحر مدة أيام وليال ، ولم نزل مسافرين من جزيرة الى جزيرة ، ومن بحر الى بحر ، ومن برّ الى برّ ... ". [1]

(السندباد البحري)

---

(1) * ألف ليلة وليلة (الليلة 537") .

باتت الإمبراطورية العباسية – وهي الدولة العتيدة المنيعة التي لا يقدر أحد على أن يهدّدها في كيانها ، ولا أن يُلحق أيّ أذًى بمراكزها العمرانية ومؤسّساتها السّياسية – أعظم وحدة اقتصادية في عصرها .

فمنذ زمن بعيد ، كان الفرس ، والروم ، والمصريون ، وأهل الشام ، والعراق ، والجزيرة يتبادلون البضائع ، ورفيع المنتجات بالخصوص ، لكن بكميات محدودة ؛ فلا نسبة بين هذا التبادل المتواضع والتيارات الكبرى التي مهّدت الفتوحاتُ الإسلامية لها السبيلَ والتي سيعطيها العباسيون دفعا قويا . فقد سهّلت وحدة اللغة والمعتقد – وقد أخضعت الجميع لنفس الشرائع ولقواعد واحدة في السلوك – المبادلات داخل حدود المملكة ؛ أما خارجها ، فقد شجّعت حاجاتُ مجتمع جديد ، يحث الخطى على درب الثراء ، أجرأ التجّار على ركوب المخاطر عبرالبحار والقارّات ، وأقدر المستثمرين جرأة على المغامرة في عالم المضاربات ، يستهويهم في ذلك توقّع الأرباح الطائلة التي توفّرها الحاصلات المجلوبة من الأصقاع النّائية .

إنّ ما جذبه الإزدهار السريع من البشر الى البلاد الإسلامية – ويُضاف اليه ما جُلِب اليها من العبيد وما حُقّق بها من مُقوّمات للعيش الرغيد – سيكون سببا في نموّ ديموغرافي ذي بال ، كذاك الذي نجده في ظروف مماثلة بأوروبا بعد انتهاء حرب المائة سنة ، وفي فرنسا مثلا على عهد القديس لويس[2] ، أو في الإمبراطورية العثمانية على عهد سليمان القانوني[3]. هنا أيضا ، في الشرق الأدنى وفي خراسان ، ستنقلب بعض المدن

---

(2) * هو لويس 9ً : خَلَف أباه لويس 8ً على عرش فرنسا ، وملَك من 1226 (624 هـ) الى 1270 (669 هـ) ، أنهى صراعه مع الإنكليز باسترجاع أربع مقاطعات فرنسية ؛ لكنه اشتهر خصوصا بالصّليبيتين اللتين شنهما على العالم الإسلامي وهما الصليبية السابعة التي هجم فيها على مصر حيث مُني بهزيمة نكراء ، إذ أسِرَ خلالها بدُمْياط مع سائر قواده وما تبقّى من آفلال جيشه ؛ والصليبية الثامنة (والأخيرة) التي حاول فيها غزو تونس وتنصير أميرها وسكانها ، فهلك على سواحل خليجها بالطاعون الذي انتشر في السفن ، فأفنى ما كان عليها من الرجال ؛ وظل دفين ربوة قرطاج الى أن نُقل رفاته الى فرنسا ، وقد كان قُدِّس بُعيد موته ، أي منذ سنة 1297 (696 هـ).

(3) * أنظر ص 205 رقم 9 .

الى مراكز للإستهلاك عظيمة – بل وهائلة أحيانا – ؛ وستتعدّد الإتصالات بين تلك المراكز بينما « تواصل الأرض دورانها حسب ساعة بغداد »[4].

سكان الأرياف الذين لا يُحصى لهم عدد

أكثر من 80 ٪ من أهالـي المملكة يعيشون في الأرياف ويفلحون الأرض ؛ فليس الشرقان الأدنى والأوسط يتكوّنان من مجموعة صحار فحسب ؛ بل هما يشملان أيضا مصرَ، مطمورة العالم القديم ، وبلادَ ما بين النهرين بمزارعها الكبيرة الخصبة ، والشامَ وسهولها وأوديتها ، وإيرانَ وما في واحاتها العديدة من زراعات مسقية ، وما في هضابها وجبالها من حاصلات وخيرات : وكلّ ذلك يمثل آلاف الهكتارات التي توفّر توفيرا صالحا معاش سكانها وسكان مدنها وأمصارها ، إذا ما أُحسِنت خدمتُها وأُتقِن ريُّها .

في تلك الجهات ، لم يتغيّر السّكَن تغيّرا ذا بال الى حدّ الأعوام الأخيرة : أخصاصٌ من القصب أو فسيل النخل فيما بين النهرين ؛ منازلُ من الحجارة في بعض مقاطعات خراسان والشام ، أو من الخشب في المناطق الغابية جنوبي بحر قزوين مثلا . وقد يكون للدار طابقان ، يؤوي أسفلهما اصطبل الدّواب وهُرْي المُدّخرات ؛ وفي سائر الجهات يسكن الناس بلا نظام ، ويبيتون على أديم أرض مُنـضّدة التراب ؛ وقلّما تُبنى الدور معزولة ، بل تكون عادة ضمن قُرى تحيط بها حظائر تحميها وتمنع دخول اللصوص والوحوش اليها .

بخلاف ما كانت عليه طبقة الفلاّحين بأوروبا الغربية خلال العهد الوسيط ، كان فلاّحو البلاد العربية أحرارا ، والمُزارع فيها لم يكن قنّا ، على الأقلّ من الناحية المبدئية . فصحيح أنّ نصوصا كثيرة تتحدّث عن "فلاحين فارّين" ، لكنّ هؤلاء فارّون ، بالخصوص ، من العامل الذي يجبي الخراج ؛ فنسبة كبيرة من السكان هناك غير قارة ، على ما يبدو ؛ وقد يلجأ الفلاح أحيانا الى قرويّ أغنى منه فيحتمي به ويدفع له معلومـا يُعرف "بالتلجئة" مقابل الحيلولة بينه وبين أعوان الجباية ؛ وقد تؤول " الحماية " ، وهي عبارة عن " تأمين " يضمن به الفلاح سلامته وسلامة أرزاقه – بعد مدة قد تطول وقد تقصر– الى ذوبان ضيعات في ضيعات ثانية ؛ وقد تُصادَر عقارات من قِبَل السلطة الجبائية ، وتُفتكّ أخرى من قِبل بعض أغنياء المالكين .

شوهِد هكذا انقراض الملكية الصغيرة انقراضا تدريجيا لفائدة الملكية الكبيرة ؛

---

(4) أ. ميكال ، الإسلام وحضارته André Miquel, l'Islam et sa civilisation .

وظلت هذه الظاهرة التي برزت قبل الفتح العربي ، تتطوّر تطورا سريع النسق ، لايخلو من عنيف الهزّات الاجتماعية ؛ والمزارعون الذين يقيمون على أراضيهم ويخدمونها بأنفسهم صار يحلّ محلّهم كبار الملاّكين الذين يسكنون المدينة ويكتفون باستخلاص العائدات من أيدي الوكلاء ؛ وتنامت هذه الأملاك الفلاحية خصوصا منذ عهد الرشيد ، نتيجة لسياسة البرامكة في ميدان الجباية ، وتعدد العقارات الزراعية الشاسعة جدا والتي كانت على ملك الخليفة وآل بيته . فالخيزران التي كانت لها في ضواحي بغداد وفي سائر أنحاء المملكة دساكر عديدة وضيعات مترامية الأطراف ، ما فتئت تُوسّع ممتلكاتها، وعلى الأخص في أرض الكنانة وبلاد ما بين النهرين . وكان أمراء البيت العباسي وأميراته – وعددهم كبير – هم أيضا من كبار الملاّكين ، وكان أعيان الحاشية يجتهدون في تقليدهم . وخلال القرن الموالي ، ستستحوذ الأرسطقراطية العسكرية الكبرى على الأرض أكثر فأكثر ، لا على حساب الملكية الفلاحية الصغيرة فقط ، بل وعلى حساب متوسّطي الملاّكين أيضا ؛ أما إيران فسيتم فيها ذلك غالبا على حساب الدهاقين .

لم يُعطّل الإنتاجَ الفلاحي تحوّلُ الملكية العقارية ، إذ هو لم يتناقص ، بل – على العكس – تزايد تزايدا ملحوظا ؛ ولا عطّله أيضا الترحّل الذي شجّع توسّعُه ، بعد الفتح الإسلامي ، ازدهارَ الاقتصاد الرعويّ دون إضعاف للزّراعة .

فالمصدر الأوّل للثروة هو طبعا فلاحة الأرض ؛ لكن في حين يتّجه الغرب نحو "التريّف" (أي نحو محورة الحياة حول الريف) ، نرى الشرق يتمدّن (أي يمحور الحياة حول المدن) ، وتتآزرالتجارة والزراعة في تحقيق هذه الغاية . ففي حين تستفيد الزراعة من التيارات التي تحدث بين المدن والأمصار، تنتفع هذه الأخيرة مما تضمنه لها الزراعة من انتاج يؤمّن لها معاشها ومادة تبادلها .

في العصر الوسيط ، كان أساس غذاء السكّان في الشرق الإسلامي هو الخبز الأبيض ؛ وعلى عكس ما كان عليه الوضع في العالم الغربي ، قلّما يُستهلك خبز الشعير الذي يأكله الفقراء والزّهّاد دون سواهم ؛ ومنذ عهود سحيقة لا تعيها الذاكرة ، كانت الحنطة تمثل الزراعة الأكثر انتشارا ، وكذلك الشعير ، وكان يُعطَى أيضا علفًا للدوابّ ؛ فأما الجزيرة (أعالي ما بين النهرين) فتنتج البرّ ، وأما العراق (أسافل ما بين النهرين) فإنتاجها الشعير ؛ في حين كانت مصر – وجهة الفيّوم[5] منها بالخصوص – والشام وإفريقية والمغرب الأوسط ، عندئذ ، من كبريات الأقاليم المنتجة للقموح .

والأرزّ، المجلوب من الهند والمعروف بالعراق منذ عصر ما قبل الميلاد ، انتشر هو

(5) * الفيّوم : مديرية في مصر، تقع في الصعيد ، تسقيها مياه النيل وبحيرة قارون ؛ إنتاجها الزراعي وافر ومتنوع ؛ بها أنقاض كنائس وديورة عديدة .

أيضا بعد الغزو العربي في اتجاه البحر الأبيض المتوسط ؛ والراجح أنّ الإيرانيين هم الذين أدخلوا استهلاكه الى العراق ؛ فكان يُزرع بالفيّوم ، وجهة البحر الميّت ، وأكثر فأكثر بالأندلس ؛ ووُجِدت منه على عهد الرشيد مَزارع شاسعة ببلاد ما بين النهرين . أما الزيتون فقد كانت غراسته شائعة شيوعا كبيرا بالشام وإفريقية والأندلس والمغرب الأوسط .

إنّ تحريمَ القرآن لشربِ الخمر لم يتسبب في اقتلاع الكروم ، وإن أوصى بذلك بعض الخلفاء ، لكن بلا جدوى ؛ بل وسيُصدِر الحاكم(6)، الخليفةُ الفاطمي ، بشأنه أمرا صريحا ، لكن دون نتيجة أيضا . فقد تواصلت ، غداة الفتح ، زراعة الكروم بدلتا النيل وناحية الشام والعراق وشمال فلسطين وجنوب الأندلس حيث عُرف منذ زمن "المالقيّ "(7) و " الجَريزيّ "(8) – المصنوع من كروم جيء بها من شيراز . أما النخل – وأصله المناطق السفلى من العراق – فقد انتشر مع الفتح الإسلامي بجنوب الشام ، وقيليقيا ، وغربي الصحراء وجنوب الجزائر وتونس . ومن الزراعات الكبرى أيضا زراعة القصب السكّري ، المستورد كذلك من الهند منذ عهد قريب ، عن طريق خـُوزستان ، والذي شمل بلاد ما بين النهرين ، ثم بلاد الكنانة – وقد باتت أعظمَ مراكز إنتاجه واستهلاكه – ، فجزيرة صقلية . واعتنى العرب أيضا بزراعة فواكهَ وبقول أخرى منها : شجر البرتقال (وأصله من الهند) بصقلية والمغرب والأندلس ، وكذلك الموز والليمون والخرشوف والسبانخ .

ثم إنّ زراعة النباتات الصناعية تنامت بدورها هي أيضا ، تناميا ذا بال ؛ وفي مقدمتها يأتي القطن ، وهو كذلك مجلوب من الهند (أدخله بنو ساسان الى الشرق الأدنى عن طريق التركستان) ؛ فقد كان يُزرع في بلاد ما وراء النهر ، وإيران ، وجنوب العراق ، لكن ، وبالخصوص ، في فلسطين والشام : ولن تلبث جهة حلَب أن تُصبح أكبر مُزوِّد منه للعالم المتوسطي ؛ وستزدهر زراعته بمصر الإزدهار المشهود الى الآن ، في حين كادت تكون مجهولة بها في بداية القرن 9ً (3ً للهجرة) . والمنسوج الذي كانت تنتجه أساسا بلاد الكنانة إنما هو من الكتان ، الموجود بها منذ غابر دهور العصر العتيق ، كما تشهد بذلك الأقمشة التي عُثِر عليها بمدافن الفراعنة ؛ وكان يُزرع بكامل نواحي الدّلتا ، وخصوصا

---

(6) * هو الحاكم بأمر الله سادس الخلفاء الفاطميين . حكم بالقاهرة بعد المعزّ والعزيز من 996 (386 هـ) الى 1021 (412 هـ) .

(7) * "المالقي" le malaga نبيذ مشهور، خمري المذاق ، مصنوع من عنب عُرفت به جهة مالقة ، وهي مرفأ يقع في الجنوب الشرقي من الأندلس قرب جبل طارق .

(8) * "الجَريزي" أو "الجَريز" le xérès (the sherry بالإنكليزية) · نبيذ حلو أبيض ، قويّ النكهة ، ذو شهرة عالمية ، يُصنع في مدينة جريز(من مقاطعة قادش ، المرفأ الواقع جنوبا على المحيط الأطلسي) من أعناب تُجنى ويُؤتى بها اليها من كامل الأندلس .

بجهة دُمياط ؛ واشتهرت أيضا بزراعته ، من إفريقية ، جهة قرطاج وتونس ، ومن الأندلس مقاطعة جلّيقة ، ومن العراق أسافل وادي الفرات ، ومن إيران ما يُشرف منها على بحر قزوين . أما البَرْدي ، وهو من ثروات مصر التقليدية ، فقد حلّ محلّه الكاغذ ، وسيزول في أواسط القرن 9 م (3 للهجرة) ؛ وأما القُنَّب ، المستعمل استعمالا واسعا في صنع الملابس الخشنة وقلاع السفن وحبالها ، فقد كان يُزرع في آسيا الوسطى وجنوب العراق والأندلس؛ وأما وبر الجمال فهو يُستخدم خصوصا في صناعة اللّبد (بأواسط آسيا وأرمينية) والأقمشة السميكة (بخراسان ومصر) .

ويحتلّ الصّوف ، في ميدان النسيج ، المرتبة الأولى ، بعيدا أمام سائر الموادّ الأخرى ؛ فالبلاد الإسلامية إذّاك هي أكبر البلدان المنتجة له ، يتصدّرها في ذلك الشمال الإفريقي : فهضاب المغرب ، وكتل جبال الأطلس ، ومرتفعات التلّ والأوراس ، وسهول الساحل الأطلنتي تنتج خرفانا رفيعة النوع ، أصوافها غزيرة رقيقة الشعر، سيُدخلها البربرُ بلادَ الأندلس مع "المَستى"[9] – وهي تلك العادة التي لا تزال راسخة بين أهالي الأرياف والقاصية بأن تَعهد قُرى عديدة الى راع واحد بالرحيل بشياهها الى المراعي البعيدة – ومع تقنيات رعوية أخرى أيضا ؛ وفي تلك الفترة كذلك ظهر بالعدوة الأندلسية خروف المَرينوس (ضأن بني مَرين) وهو هجين حاصل بالمصالبة بين النوع المحلّي وفحول أكباش مجلوبة من المغرب ؛ وإذ تعاظمت حاجة المدن الى النسيج ، تزايد إنتاج الصوف وتزايد بالتالي الإتّجار فيه . فتكاثرت قطعان الضأن في كلّ مكان تقريبا ، وأصبحت تُربّى على نطاق واسع في مصر ، والشام وفلسطين ، والشمال الغربي من إيران ، وفارس ، وخراسان ؛ وكان لانتشارها والتّرحّل بها نتائج أحيانا وخيمة ، كالإمعان في قطع الأشجار وجثّ الحِراج وتعرية أديم الأرض بإتلاف ما يُغطّيه من النبات .

كان الحرير معروفا لدى العرب منذ أمد بعيد ، لكنه لم يُدخَل الى العالم المتوسطي قبل القرن السادس ؛ وما من أحد إلا ويعرف تلك الرواية التي تدعي أنّ جماعة من الرهبان جاؤوا الى بيزنطية ، على عهد القيصر يوسطنيان ، ببيض ديدان الحرير في عِصيّ الحجيج التي كانوا يتوكّؤون عليها . وما ان كان الغزو العربي حتى انتشرت تربية دود الحرير في كامل الجهات التي تُتيحها فيها خصائص المناخ ؛ وشجع أيضا ازدهارُ المدن بتلك الجهات ، وشمولُ الرخاء ظروفَ الحياة فيها ، نموَّ هذا الضرب من النشاط وقد بات

(9) * هو دون شك تحريف لكلمة "مشتى" وهو موضع الإشتاء أي الإقامة في الشتاء . والمشاتي والمصايف هما قطبا الترحّل الفصلي الذي يُتداول الرحيل اليهما دوريا بالعيال والأمتعة والدواب والأنعام ، طلبا للكلإ، بين مراعي الشتاء في أسافل الأودية والوهاد وبين مراعي الصيف في أعالي الهضاب والجبال .

انتاجه يلقى صعوبات في إرضاء احتياجات البلاط المتزايدة . وبحلول القرن 8م (2هـ للهجرة) ظلّت خُراسان ، وسواحل بحر الخزر (قزوين) ، وغربيّ إيران ، وأرمينية تُعَدّ من بين كبريات الجهات المنتجة للحرير ، إضافة الى سهل نهر العاصي[10] ، وشبه الجزيرة الإيبيرية – وعلى الأخص الجنوب الشرقي منها (الأندلس) – حيث أدخَل معهم الشاميون الذين وفدوا مع الأمويين دود الحرير؛ لكن في نهاية القرن 8م(2هـ للهجرة) وبداية القرن 9م(3هـ للهجرة) مكّن تزايد الإنتاج من كفاية الإستهلاك في كامل البلاد التابعة للخلافة ؛ وأصبحت تُصدَّر كمياتٌ كبيرة الى بيزنطية ، وقد أمست في تبعية تامّة – أو تكاد – للبلاد الإسلامية في إرضاء حاجاتها من الحريرالخام .

في نفس الفترة ، كان مردود الزراعات بالبلاد الإسلامية أرفع منه بأوروبا الغربية. فنسبته في إنتاج البرّ بمصر مثلا كانت 10 على 1(بل وأكثر من ذلك في بعض جهات هذه المقاطعة) مقابل 2 أو 2,5 على 1 في أوروبا على عهد شارلمان ؛ ومردودات من هذا القبيل لن تُبلَغ في فرنسا إلا في القرن 18م (12هـ للهجرة) ؛ على أنه ما كانت تَبلغ هذا المستوى إلا نادرا . فالعرب – ولم يكونوا قد فُطِروا على خدمة الفلاحة – استعملوا طرائق وُجِدت من قبلهم ، لكنهم اجتهدوا غالبا في تهذيبها .

فباستثناء الحبوب – أي القمح الصلب والشعير– التي تنبت بسهولة في الأراضي شبه القاحلة ، جلّ المزروعات تتطلّب الماء ؛ ومنذ القرون الغابرة من العهد العتيق وُجِدت بالشرقين الأدنى والأوسط وسائل مختلفة للرّي : كالقناة والسدّ والخزّان لتجميع مياه الأنهار وسيول الأودية واستخدام غرينها . فجلّ تلك المياه لا يُستغلّ غالبا لجلبها إلاّ الإنحدار، فيُؤتى بها عبر فَجّارَات[11] أي مجار محفورة تحت الأرض (وتسمّى قنوات في إيران) هُيِّئت لتّهوئتها جُفَرٌ على مسافات متساوية ؛ وقد اعتنى الخلفاء الأوائل بتلك الشبكات من القنوات المعدة للرّيّ ؛ فالخليفة عمر، غداة فتح العراق ، أمر بإقامة مُسنّاة لتوفير الماء لمدينة البصرة وقد مُصِّرت منذ قليل ؛ ثم جاء العباسيون فأنجزوا في هذا المضمار الشيء الكثير[12] ؛ فبناءُ بغداد وإعدادُ ما حولها من الاراضي لجعلها صالحة

---

(10) * نهر العاصي l'Oronte : نهر في سوريا (500 كم) ، ينبع في لبنان بالقرب من رأس بعلبك ، ثم يجري الى سوريا ، ويجتاز بحيرة حمص وسهلي حمص وحماه ، ثم يسيل في تركيا مارًّا في أنطاكيا ، وينصبّ في المتوسط قرب السويدية .

(11) * دخلت الكلمة في الاصطلاح الجغرافي والزراعي بأوروبا محرّفة ، فلفظوها وكتبوها : foggara.

(12) يُعطي كتاب الخراج (القرن 8م / 2هـ للهجرة) الذي ألّفه [القاضي] أبو يوسف نصائح للسّلط الحاكمة بشأن استصلاح الأراضي واستغلالها ، من ذلك قوله ، مخاطبا الرشيد الذي اقترح عليه تصنيف الكتاب : « [ورأيت أن تأمر عمال الخراج] إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم ، فذكروا لهم أنّ في بلادهم أنهارا عادية قديمة وأرضين كثيرة غامرة ، وأنهم إن استخرجوا=

للزراعة استوجب عملا جبارا تمثّل في حفرالعديد من " الأنهار " ، وقد أذن الرشيد بحفر عدد كبير منها قرب العاصمة ، وبجهة الرقّة وكذلك بناحية سامرّاء[13] . فصيانة قنوات الريّ وتوزيع المياه كانا يخضعان لتقنين شديد الصرامة في العراق والأندلس ، وفي إفريقية وخراسان . ففي مرو، مثلا ، كان المشرف على توزيع المياه موظفا ساميا يستخدم 10.000 عونا ، ويأتي ، في هرم المسؤوليات ، فوق رئيس الشرطة ؛ وفي مصر، كان يُسبَر فيضان النيل بذاك المقياس المعروف – ولا يزال يُرى بالفسطاط – والذي يسمح بتقدير المساحات التي ستغمرها المياه وضبط معلوم الضرائب التي ستوظف عليها .

وتُستعمل أيضا لرفع الماء آلات : منها ما يُتيح السقي بالرِّشاء وهي القربة أو دلو الفخّار المُدلّى بِرشاء معقود إلى أحد زُرْنُوقي البئر ؛ والسقي بالدّالية وهي عجلة القواديس التي تجرّها ناضحة من النّواضح ؛ والسقي بالسّانية وهي النّاعورة ؛ ومن النّواعير ما كان موجودا منذ عهد قريب بوادي العاصي . واستُخدِمت الطّواحين النهرية لتحريك الأرحية والمعاصر ، الخ . أما الطواحين الهوائية فلم توجَد إلا في الأندلس .

وتُضاف الى إنتاج أصحاب الحِرف والمعامل ، والى حاصلات الزراعة ، المنتجاتُ التي توفّرها تربية الحيوان ، للتّغذية أوّلا ، ثم لتوفير المواد الأولية المعدّة للصناعة ؛ فقد وردت من آسيا الوسطى تقنيات جديدة في تربية الحيوانات واستخدامها ، انجرّ عنها ما لم يسبق له مثيل من اتساع لمناطق التربية وتنوّع لصنوف الحيوانات المُهجّنة ؛ ففي القرن 8ً (2ً للهجرة) وصل الجاموس الى العراق ، وقد جاءت به من الهند جماعات من الغَجَريين ، وسيُرى عمّا قريب بالشام ثم بالأناضول .

ومن بين الحيونات الأهلية ، ينبغي أن نذكر قبل كلّ شيء الفرس ، لأنّه لعب في التوسع الإسلامي دورا هائلا ؛ فأمّا الفرس التركي /المغولي – الصغير البدين – فهو نتاج

= لهم تلك الأنهار واحتفروها وأُجرِي الماء فيها ، عمرت هذه الأرضون الغامرة وزاد في خراجهم ، كُتِب بذلك اليك . . . فإذا اجتمعوا على أنّ في ذلك صلاحا وزيادة في الخراج ، أمرت بحفر تلك الأنهار وجعلت النفقة من بيت المال ، ولا تحمل النفقة على أهل البلد، فانهم أن يعمروا خير من أن يخربوا ، وأن يَفِروا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا... » (ذكره سورديل ، Sourdel في كتابه "الوزارة العباسية" Le Vızırat abbasside [الخراج ، 131]) .

(13) * سـامَرّاء : لغة في سُرَّ منْ رَأى ، مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة ، بناها المعتصم (836 / 222 للهجرة) وسكنها حين ضاقت بغداد عن عساكره ، وعمّرها حتى أصبحت " أعظم بلاد الله "، وأقام بها ابنه الواثق من بعده ، ثم ولي المتوكل فأقام بها وشيد فيها القصور والأبنية العديدة ، وقد خربت وبقيت أثرا بعد عين . وهي اليوم مركز قضاء بالعراق على 100 كم شمالي بغداد، ومن آثارها المهمة : جامع المتوكل وبيت الخليفة وقصر المنصور والقادسية .

خالص للسباسب الآسوية ؛ وأما الفرس الإيراني ، فقد كان أثقل وأقدر على تحمّل وقر الدروع ، وسيصدّر الى الهند حيث يكوّن مركوب الخيالة المَراطِهية[14]؛ وأما الفرس المغربي (البربري)[15]، فسيكوّن ، بعد اختلاطه بأنواع أخرى من الخيول غداة فتح العرب للأندلس ، العنصر الأصلي الذي سينحدر منه حصان أوروبا الغربية ؛ وأما الفرس الشامي، نتيجة مصالبة بين خيول إيرانية وفحول مغربية ، فستجري مصالبته مع حصان النجود العربية : وهكذا يظهر الحصان العربي ؛ وسيُربّى ببلاد العرب وأرض الكنانة والعدوة الأندلسية .

ثم نذكر الجمل وقد لعب ، خلال العصر الوسيط ، دورا أساسيا في اقتصاد العالم العربي والشرقي . فمنذ احتجاب العجلة ، في نهاية العصر العتيق[16] ، ظلّ هو الحيوان المفضّل في نقل الرّحال ، لفرط ما في سائر الدّوابّ الأخرى من البطء (الثور) أو الخفّة (الفرس) ؛ فسرعته النسبية وصبره على مشاق السّفر يجعلانه قادرا على حمل أثقال تزن أحيانا 200 كغ وزيادة ؛ وعلى ظهور الإبل تُحمل البضائع والأمتعة عبر كامل الشرقين الأدنى والأوسط . وشرقيّ المملكة ، في آسيا الوسطى ، يُستخدَم للنقل الفالِج وهو الجمل ذو السنامين المسمّى "جمل طخارستان" [17] والذي يُربَّى بإيران وخراسان ؛ وفي الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر يُستخدم الجمل ذو السنام الواحد والحمار.

إنّ نموّ الإستهلاك نموا ذا بال ، وتزايد المبادلات مع الداخل ، وكذلك مع الخارج ، يسرا ازدهار الإنتاج الذي بلغ في عهد هارون مستويات لم يبلغها من قبل ؛ فبغداد – المدينة العظيمة – ، والبصرة – أكبر مرفإ في العالم الإسلامي – ، والكوفة ، وواسط والفسطاط ، ومرو ، وعدد كبير من المدن الأخرى ، كانت أسواقا هائلة ؛ وليس فيما دُوِّن في ذاك العصر من الأخبار ما يدلّ على أنّ انهيارا للأسعار حصل نتيجة للإفراط في الإنتاج .

وكان لتحسّن الوضع الذي عليه سبل الإتصال دور كبير في ترقّي المعارف التقنية ؛ فمن المحيط الأطلسي الى الهندوكوش[18]، لم يحدث أن سافر الناس ، ولا أن تنقّلت الأفكار

---

(14) * المَرَاطَهَة les Marathes : شعب في الهند الغربية يقيمون في مَهارَاشترا (عاصمتها بومباي) ويتعاطون الزراعة . خدموا في جيوش المسلمين وحذقوا أساليب الحرب .

(15) * الحصان البربري le cheval barbe .

(16) تعطّل استعمال العجلة بسبب الخلل التقني الذي كان يعرقل ربط العربة بالدابة وارتفاع كلفة النقل بواسطتها . ولن تظهر العربات ذات العجلات من جديد إلاّ مع قدوم الأتراك في القرن 12 م (6 ه للهجرة) .

(17) * طَخارِسْتان la Bactriane ، (أنظر ص 20 رقم 38 ، وص 41 رقم 104) .

(18) * هِنْدُوكُوش : سلسلة جبال في آسيا (ارتفاعها 6.000 م) ، متصلة بجبل حِمَلايا ، ومتجهة من بلاد پامِير نحو الجنوب الغربي .

والأشياء بالمقدار من السهولة الذي عُرِف إذّاك . فأثقل البضاعات – كالحنطة – وأخفّها – كالبهار– تقطع الآلاف من الكيلومترات ؛ وتُنقل المواد الأوّلية بلا صعوبة من مكان استخراجها الى مكان تحويلها ؛ من ذلك مثلا أن دمشق تستورد فولاذها من الهند ؛ والفضة المصنعة يُستخرَج معظمها من مناجم أفغانستان ، ويأكل سكان بغداد هليون سوريا ، وتفاح لبنان (مثلما هو الحال اليوم) ؛ ويرتدي الناس في إيران ملابس من كتان مصر ؛ ودُرجة اللباس في بغداد ، بالرغم من العداوة القائمة بين الحكومتين ، تُتّبع في الحين بقرطبة . وطريقة صنع الكاغذ ، التي وصلت الى سمرقند في منتصف القرن 8 م (2 للهجرة) ، أدركت بغداد واستُعملت فيها منذ العقد الموالي ؛ كما أنّ أساليب الريّ المُتّبعة في فرغانة حلّت دون تأخير بالأندلس . فنقل السكان من جهة الى أخرى ، وتبادل الأسرى ، وترحال الحجيج عبر الأقطار أعان على انتشار التقنيات والطرائق والأساليب التي باتت تتقابل فتتلاقح ويؤثّر بعضها على البعض ؛ فلم يحدث قط أن تبادل البشر معارفهم وإنتاجهم بالقدر الذي تبادلوه به خلال تلك السنوات التي تلت سقوط الامبراطورية الساسانية الكبرى ، وإضاعة بيزنطة للمجال الهلّينستي القديم ، وانتصاب خلافة جديدة في العالم الإسلامي .

حضارة النسيج[19]

كانت صناعة النسيج هي الصّناعة الكبرى في العالم الإسلامي ؛ فهي في ذاك العصر أحسن ما ينتجه الشرق الأوسط كمالا ، وجودة ، وتنوّعا ؛ فمنها سُجُل الشّمال الإفريقي الثقيلة المصنوعة من الصّوف الغليظ ، وستائر إيران الخفيفة ، وشُفوف دلتا النيل وأنسجته الكتّانية الرقيقة ، ووشائح خراسان وكابل الرفيعة التي تُصدّر حتى بلاد الصّين، وستائر أنطاكيا[20] وبغداد ، وزرابي أرمينية الفاخرة ؛ ومن وِشَاء الشام (والوَشْي هو الثّوب المَوْشِيّ) الى قطنيات مصر، مرورا بالأسمال الحقيرة التي يلتحف فيها فقراء بغداد ، كلّ ما يصلح لإكساء البشر يُنتجه الفضاء الجغرافي الإسلامي .

---

(19) العبارة لموريس لومبار Maurice Lombard .

(20) * أنطاكيا : مدينة في تركيا اليوم . أسسها سلوقوس 1 م (300 ق م) عاصمة له وأصبحت ثالثة مدن الأمبراطورية الرومانية بعد روما والإسكندرية . فيها أقام بطرس ومن بعده أغناطيوس الأنطاكي ، وفيها ألقى القديس يوحنا أشهر مواعيظه . وأنطاكيا مركز بطريركية وفيها دُعِي النصارى باسم "المسيحيين" . دمرها الفرس (560 م) وأجهزت عليها الزلازل (ق 6 م) ، واحتلها العرب (ق 7 م / 1 للهجرة) وغزاها الصليبيون (ق 11 م / 5 للهجرة) ، فصارت عاصمة إمارة إفرنجية ، أعاد فتحها السلطان بَيْبَرْس (ق 13 م / 7 للهجرة) ثم احتلّها الأتراك، وهي اليوم أقصى المدن التركية جنوبا .

فجميع الأقاليم تقريبا تغزل وتنسج ، لتلبية كثرة الطّلب ؛ وقبل كلّ شيء طلب القصور التي تنفق مبالغ هائلة في تزيين قاعاتها الفسيحة ، ومبالغ أعظم بكثير دون شكّ للباس الأمراء والأميرات ، وأعيان البطانة ، وكبار الموظفين – المدنيين منهم والعسكريين – ذاك اللباس الذي كانت تُقلّده سائرُ طبقات المجتمع ، كل واحدة على قدر طاقتها ، وفي مقدمتها طبقة كبار التجّار البُرجُوازية .

يختلف اللّباس باختلاف مهنة صاحبه ومكانته في المجتمع ؛ فلباس التّجّار القميص والرّداء ، ولباس الوُعّاظ وأئمّة الصّلاة ثوب كالمعطف القصير يُمسك بنطاق ؛ ويُطالب الموظّفون بارتداء ثياب مُعيّنة : فللقضاة القلانس (وهي عَمَارات طويلة) والطيالسة ؛ وللوزراء والكُتّاب الدُّرّاعات ؛ ويرتدي الشُّعراء ملابس مُصبّغة ، والمغنُّون ثيابا ذات زينة ووشي ؛ ولا تُلبس نفس الثياب كامل اليوم ؛ ويتنافس قوّاد الجيش أيضا في التأنّق في الملبس ، ويرتدي بعضعهم جلابيب الدّيباج والسّراويل المسجوفة برفيع الفرو .

ويُعير الخلفاء أهمّية بالغة للّباس ؛ فالمتوكّل ، حفيد الرّشيد ، كان مولعا بجنس من الثياب يُعرف بالمُلحَم ويختلف سداه المُتّخذُ من الإبريسم عن لحمته المتّخذة عادة من القطن أو الصّوف ؛ قال المسعودي عن هذه الدُّرجة الجديدة : « وأظهر لباس ثياب المُلحمة ، وفضّل ذلك على سائر الثّياب ، واتّبعه من في داره على لبس ذلك ، وشمل الناسَ لبسُه ، وبالغوا في ثمنه اهتماما بعمله ؛ واصطُنِـع الجيّد منها ، لمبالغة الناس فيها ، وميل الراعي والرعية اليها ؛ فالباقي منها في أيدي الناس الى هذه الغاية من تلك الثياب يُعرف بالمتوكّليّة ، وهي نوع من ثياب المُلحم نهاية في الحسن والصّبغ وجودة الصّنع»[21] . كانت خزائن الثياب مودعة في مبان خاصة من قصور الخلفاء[22]، يقوم على حراستها وتدبير شؤونها موظف سام . وكانت هذه الخزائن ضخمة ، حسب ما تشهد به المحادثة التالية التي جرت بين الخليفة[23] الموفّق (النصف الثاني من القرن 9م / 3هـ للهجرة) ووزيره الحسن

---

(21) * مروج ، 4 ، 95 .

(22) * بل ومنهم من خصّص لها أجنحة كاملة من قصوره ، كالذي فعله المتوكل عندما أحدث البناء "الحِيري" ؛ قال المسعودي في هذا الشأن . « أحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري ... على صورة الحرب للهجه بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ؛ فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصّه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج منه الى الشراب ... فسُمّي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري ، إضافة الى الحِيرة ... » (مروج ، 4 ، 96) .

(23) * الموفّق هو أخو المعتمد ' يقول ابن طباطبا : « كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفّق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ؛ كان هو =

[بن مخلد] : « قال الحسن بن مخلد : كنت مرّة واقفا بين يدي الموفّق بن المتوكل ، فرأيته يلمس ثوبه بيده ، وقال لي : « يا حسن قد أعجبني هذا الثوب ، كم عندنا في الخزائن منه ؟ » ، فأخرجت في الحال من خُفّي دستورا فيه جُمَل ما في الخزائن من الأمتعة والثياب مفصّلة ؛ فوجدت فيها من جنس ذلك الثوب ستة آلاف ثوب . فقال لي : « يا حسن ! نحن عُراة ، اكتب الى البلاد في استعمال ثلاثين ألف ثوب من جنسه وحملها في أسرع مدة »[24]. ولنذكّر بأنّ هشام بن عبد الملك ، الخليفة الأموي ، حين خرج الى الحجّ ، حُمِل ما أخذه معه من الثياب على 700 بعير ؛ وأنّهم وجدوا له ، حين تُوفّي ، 12.000 قميص موشيّ و 10.000 نطاق من الخزّ . وما تركه الرشيد في خزانته من الثياب معروف : 4.000 كساء من الحرير المطرّز بالذهب ، 4.000 كساء مسجوف بفرو الزّيبلين آو السّمّور أو غيرها من ضروب الفرو ، 10.000 قميص ، 10.000 رداء ، 2.000 سراويل ، 4.000 عمامة ، 1.000 قباء ، 1.000 مُطرّف ، 5.000 منديل ، 1.000 نطاق مذهّب ، 4.000 زوج من النّعال جلّها مُحلّى بفرو السّمّور والزّيبلين ، 4.000 زوج من الجوارب .

وممّا يؤيّد ما للثياب من الأهمّية أنها هي التي يجازي بها الخليفة من أراد تكريمه (هي بمثابة الأوسمة اليوم). فالخِلَع تُتّخذ من أقمشة يختلف صنعها وتتفاوت أثمانها بحسب مقام المُكَرَّم ومقدار ما يريد الخليفة أن يُحيطه به من الإحتفاء ؛ والخلعة تتكوّن – إضافة الى الكساء نفسه – من قميص وسراويل وطيلسان ودُرّاعة . ويُهدِي الخليفة الخلع بمناسبة الأعياد الدينية الكبرى والأفراح العائلية (زيجة ، ختان) والإنتصارات الحربية ، أو بمناسبة التعبير عن رضاه على أحد رجال الدولة . وقد يحدث أن يُبادل الخليفة غيره من الملوك الخِلع مع سائر الهدايا ؛ من ذلك مثلا أنّ المأمون أرسل 500 من أكسية الديباج الى بعض ملوك الهند ، وأنّ قيصر الرّوم أهدى 200 من نوعها الى الرّشيد ؛ وفي القرن التّالي، بعثت الملكة بيرتا الى المكتفي بالله[25] عشرين كساء مطرّزًا بالذهب . ومن المعلوم أنّ شارلمان تلقّى من هارون الرّشيد خيمة وعددا كبيرا من قطع الديباج وستائر الكتّان .

ويُفرّق الخلفاء ، شتاء وصيفا ، العديد من لفائف الأقمشة الرفيعة على بطانتهم وحشمهم وخدمهم ، أي على الآلاف المؤلّفة من البشر، مما يجعل استهلاك القصر لمختلف الأنواع من المنسوجات عظيما جدا .

= وأخوه طلحة كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكّة والتّسمّي بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي ، وقود العساكر، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء ، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذّاته» (الفخري ، 250) .

(24) ابن الطقطقا [الفخري ، 250] .

(25) * المكتفي بن المعتضد بن الموفّق بن المتوكّل ، السابع عشر من خلفاء بني العبّاس . كانت ولايته ست سنوات وستة أشهر (902-908/290-296 هـ) . مات وعمره 33 سنة .

للزّرابي أيضا دور أساسي في الحياة اليومية ، ولها استعمالات متعدّدة : فهي تارة مَجلس ، وطورا مُتّكأ ، وطورا آخر مُضطجَع ؛ وقد يبلغ بعضها مساحات كبيرة : فقد كان لهشام بساط طوله 54 م وعرضه 27 م ، وللمستنصر[26] خباء قطره 70 م مرفوع على عمود علوّه 30 م ، ولخليفة آخر سرادق قائم على دعائم من فضّة وقماشه مطرّز بخيوط الذّهب ، وبلغ وزن سرادق آخر 17 طنّا .

وأثناء الإحتفالات الكبرى ، أو بمناسبة قدوم سفير أجنبي - لبلده أهمّية في نظر الخليفة - تُعلّق ستائر من أقمشة مختلفة على طول الطريق التي يخترقها ركبه ، وتُفرش الأرض بالبُسط وضروب السّجّاد . ستائر من ديباج ، طرائز من ذهب ، زرابي من حرير مقصّبة بخيوط الإبريز ومرصّعة بكريم الحجر والدرّ ، جلال مُزركشة وأغطية تزيّن الخيل والإبل في الإحتفالات والأفراح : بهذا يكون مجموعُ ما تُعدّه المصانع الأميرية ، لسكان القصر وسائر أهل البلاط ، عشراتِ الكلومترات من النسيج .

فالمنسوجات – وقد ظلت ، في آن واحد ، أداةً تخدم سياسة نفوذ ، وعلامةً فارقة تُحدّد المراتب في هرم الدّولة ، ووسيلةً تُتوخّى للتكريم والتبجيل ، وكنزًا يتوارثه الخلفاء مع سائر النّفائس – ستبقى ، مدة قرون ، أعظم ما وُفّـقت اليه من نجاح حضارة قلّما أُدرِك مستواها ، في هذا الميدان .

تُنسج الأقمشة الرّفيعة في " الطّراز " أي في المحارف التي على ملك الخليفة ، والكلمة فارسية الأصل[27]، وقد دلّت ، باديءَ الأمر، على الكساء أو القماش المزيّن بالخطوط الملوّنة والرّسوم ، ثم دلّت –بالتعميم –على المحارف التي يجري فيها النسج ؛ وهي موزّعة في كامل المملكة : هي طبعا موجودة ببغداد ، ولكن أيضا بسامرّاء ، وخراسان ، ودَبيق (بالدّلتا المصري) ، والقيروان ، وغيرها . يقول ابن خلدون : « مِن أُبَّهَةِ المُلك والسُّلطانِ ومذاهبِ الدُوَل أن تُرْسَم أسماؤُهم أو علاماتٌ تختصُّ بهم في طرازِ أثوابهم المُعَدَّة للباسهم ، من الحرير أو الدّيباج أو الإبريسم ، تعتبرُ كتابة خطّها في نسج الثوب إلحامًا وإسداءً بخيط الذّهب ، أو ما يخالف لونَ الثوب من الخيوط الملوّنة من غير الذّهب ، على ما يُحكِمه الصُّنّاع في تقدير ذلك ووضعِه في صناعة نسجهم ، فتصير الثيابُ الملوكيّة معلّمة

---

(26) * المستنصر بن الظاهر السادس والثلاثون من خلفاء بني العباس . كانت ولايته ثماني عشرة سنة (1226-1243/624-641 هـ) . مات وعمره 52 سنة .

(27) * جاء في المنجد "طَرَّزَ الثوبَ": زيّنه بالخيوط الملوّنة والرسوم وما شاكلها ، دون ذكر لأصل الكلمة . وجاء في اللسان " الطَّرْز". البَزّ والهيئة ؛ و"الطِّرْز": بيت الى الطّول ، فارسي . قال الأزهري : أراه معرّبا وأصله "تِرْز"؛ و"الطِّـراز": ما يُنسج من الثياب للسلطان ، فارسيّ أيضا ؛ و"الطِّـراز". عَلَم الثّوب ، فارسي مُعرّب (اللسان ، 4 ، 581) .

بذلك الطّراز قصدَ التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصّه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك ، أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته . وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطّراز بصُوَر الملوك وأشكالهم ، أو أشكالٍ وصورٍ مُعيَّنة لذلك ، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكَتْب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السّجلات ، وكان ذلك في الدّولتين (الأموية والعباسية) من أُبَّهة الأمور وأفخم الأحوال ... »[28].

وفي العصر العباسي ، كانت كتابات الطّراز تُرسم بالخطّ الكوفي[29]، وتتمثّل عموما في رسم اسم الخليفة ولقبه (الرّشيد مثلا) ثم دعاء أوعبارة دينية ؛ وقد تكون مُصوّرة بالألوان أو مُطرّزة أو مُهيّأة بالعقد على طريقة صنع السّجّاد .

إنّ دُور الطّراز هي أبعد ما تكون عن الإستئثار بصنع المنسوجات ، والمحارف الخاصّة التي تساهم في هذا الصنع كثيرة جدا وإنتاجها يتجاوز بكثير إنتاج المحارف الرسمية ؛ ففي تنِّيس[30] مثلا ، بدلتا النّيل ، يشتغل في النّسج – وهو الصناعة الوحيدة هناك – كلُّ السكان القادرين على العمل ؛ وكذا الأمر في مدن وقرًى أخرى من الفيّوم ، حيث يعمل النساء والأطفال بالمحارف ، وخاصة في الغزل ، لكن بأجور زهيدة جدّا .

يتمّ الغزل بالمغزل أو العرناس ، والنسج بالأنوال الأفقية أو ذات المدوس ، وكلاهما من أصل صيني ؛ وتُمكِّن تقنيات مُعقّدة ، مجلوبة هي أيضا من الشرق الأقصى دون شكّ (وخصوصا تلك التي نسمّيها في أوروبا طريقة الجُوبْلِين)[31]غرز اليواقيت والجواهر في

---

(28) المقدّمة ، 2 . [الباب الثالث ، الفصل السّادس والثلاثون في شارات الملك والسّلطان الخاصّة به ، 477-478] .

(29) الكوفيّ خطّ ذو زوايا ؛ كان بادئ الأمر بسيطا مجرّدا ، ثم تحلّى ، على مدى السنين ، ونُمْنِمَ بالأوراق والزهور المزخرفة .

(30) * تنِّيس Tanis : هو الإسم اليوناني القديم لقرية في مصر (الشّرقية) تُدعى اليوم صَان الحَجَر وتقع قريبا من بحيرة المنزلة ، هي من أقدم قرى الدلتا ، فقد عاصرت الممالك الفرعونية الأولى ، ثم اتخذها الهيكسوس (أو الملوك الرّعاة) عاصمة لهم ؛ يقول عنها ابن خلّكان ، وقد أرفق تعريفه بخريطة طريفة للمكان « تنِّيس ... جزيرة في بحر مصر قريبة من البرّ ، ما بين الفرما ودمياط ... وبها تُعمل الثياب الملوّنة والفُرُش والبوقلمون ... ولتنّيس موسم يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون في موضع آخر [ثم يذكر عشرات من أسماء الطيور التي تحلّ بها] ... ويُعرف بها من السّمك تسعة وسبعون صنفا [ويعدّدها !] » (معجم ، 2 ، 51-54) .

(31) * نسبة الى طريقة كانت متوخّاة في صنع الطرز والزرابي والسّتر الفاخرة بالمحارف الملكية الفرنسية الشهيرة la Manufacture royale des Gobelins .

سدى القماش ومزج خيوطه بخيوط الذهب والفضة . ومنذ أواخر القرن 8 (2 للهجرة) استُعمل الذهب ، خصوصا في شكل سِحايات رقيقة من المعدن النفيس ملفوفة على خيط؛ أمّا المنسوجات المقصّبة باللجين فمصدرها أساسا الأندلس وفارس حيث مناجم الفضّة .

في عهد الرّشيد ، كانت طرائق النسج تُتيح للنّسّاج تصوير الأشكال الحيوانية والنّباتية[32]، وستتطور تقنيات المحارف وتتحسّن ، إلاّ أنّ جمال إنتاجها وتناسق الأشكال في صُورها سيظلاّن متفاوتين كامل العصر الوسيط في الشرق الأوسط .

والعالم الإسلامي كله تقريبا يغزل وينسج ويصبغ : القطن والصّوف بالمغرب الأقصى ، الحرير والصوف بالأندلس ، الصوف والقطن بإفريقية ، القطن بالشام وقيليقيا ، الحرير والقطن بخراسان ' وفي العراق ، يُنسج القطن والحرير والصّوف بأشكاله المختلفة في محارف ببغداد وضواحيها (بَاقَدْرَا والحُفَيْرَة) ' واشتهرت الكوفة بخُمُرها الفاخرة ، والبصرة والأبُلَّة بستائرها الأنيقة وصَرْجها الرفيع ، وتكريت والحيرة وخاصة الموصل بالموصلي[33] الرقيق ؛ وفي الأهواز يُوجد ثمانون محرفا تُصنع بها الزرابي ، وفي عبدان عشرات من المحارف تهيء الحشايا والأرائك ؛ واشتهرت كذلك بغداد والنعمانية وأرمينية وإقليم بخارى بسجّادها الجميل ، وبلاد ما وراء النهر (مرو ، نيسابور) بمنسوجاتها القطنية ، وبلاد الشام ببُسطها وأقمشتها الحريرية ، الخ .

على أنّ مُعظم ما يُنتَج من المنسوجات يبقى مُجمَّعا في ثلاث جهات : فارس ، وخوزستان ، والدلتا المصرية على وجه الخصوص ؛ ففي فارس ، قرابة الثلاثين مركزا للإنتاج – أهمّها فَسَا وقُرْقُوب وكازَرُون وتُواج – تصنع الديباج المقصّب ، وستائر الزّينة وطنافس الصّوف ، وملابس القطن ، والسجّاد المصنوع بالعَقد أو بالغَرز ؛ وتختصّ خوزستان بإنتاج أنسجة الكتّان وصنوف الخزّ والدّيباج المقصّب بخيوط الذهب والفضّة ؛ أما دلتا مصر ، فقد كانت مدنه ، التي يناهز عددها العشرين ، تُرسل الى كامل البلاد الإسلامية وعديد البلاد الأجنبية الطنافس الثقيلة ، والقلوع الخفيفة ، والأقمشة الكتانية المقصّبة بخيوط الذهب ، والشّف والغلائل على اختلاف ألوانها وأنواعها ، والمنسوجات المشجّرة ، وجميع "أصناف االثياب" كما يقول اليعقوبي ، وهو الذي يضيف قائلا عن تِنّيس : « ... وهي مدينة قديمة تُعمل بها الثياب الرّفيعة الصّفاق والرّقاق من الدّبيقي والقصب والبرود والمُخمل والوشي ... »[34].

---

(32) كانت بعض المنسوجات تُكتّم بتشميعها أو بنسجها نسجا محبوكا .

(33) * الموْصلي la mousseline .

(34) * البلدان ، 191 .

الصناعات الأخـــــرى

من حيث الحجم ، لا تمثل صناعة الورق في العالم الإسلامي على عهد العباسيين ، بالمقارنة مع صناعة النّسيج ، إلا شيئا تافها ؛ ولكن ، هل من حاجة الى التأكيد على ما كان من نتائج خطيرة ، لاستيراد العرب لتقنيات هذه الصناعة ، وتطويرهم لها ، ونقلهم إيّاها الى الغرب ؟

فالى غاية القرن 8ً (2ًللهجرة) ، كان الناس يكتبون على الرّقّ والبرديّ ؛ فأما الأوّل فهو جلد الخرفان المُيبّس ، وأما الثاني فهو مجموع نُصَيلات من قشر نبات معروف مضغوطة ومُلصقة بالنشاء . كان الأمويون يستخدمون البرديَّ والعباسيون الرّقّ ، « تشريفا للمكتوبات وميلا بها الى الصحّة والإتقان »[35]. لكن سنة 751 (134 هـ) ، أوقع العرب عند طالاس هزيمة نكراء بالقائد كَاوْ سِيَانْ تشِي[36] وجيشه ، وأسّروا ، فيمن أسّروا ، صينيين كانوا يعرفون كيفية استخراج الكاغذ[37] من الكتّان والقنّب ؛ فأرسلوا الى سمرقند حيث بُني معمل لصنع الكاغذ . ثمّ إنّ تقنيات هذا الصناعة ، وعددا كبيرًا من صناعات كبرى أُخِذت عن الصينيين ، انتقلت الى الغرب وانتشرت فيه ؛ ويبدو أنّ جعفرًا البرمكي – بإشارة من أخيه الفضل أيّام كان واليا على خراسان – هو الذي أمر بفتح أوّل مصنع للورق في العالم العربي ، وكان ذلك سنة 794-795 (178 هـ) ، وما كادت تمرّ على ذلك سنوات قلائل حتى بُنِيت للكاغذ معامل في الأندلس ، والمغرب ، وصقلّيّة ، ودمشق ، وطبريّة ، ولمدّة طويلة سيكون أرفع الورق جودة وإتقانا ورق سمرقند . ولن تلبث مصر أن تتخلّى عن البردي وتصنع الكاغذ بدورها ؛ وسيظلّ الأعاجم ، وعلى رأسهم البيزنطيون ، يشترون الكاغذ من العرب .

وتُعالَج كذلك المعادن ، وإن كان فقدان اللوح يحدد كثيرا من استغلال المناجم ؛ وتُستورَد المعادن من أفريقيا ، وعلى الأخصّ من بلدان الغرب والهند ؛ ويشتغل عدد كبير من المحارف في صُنع أدوات من الحديد والنّحاس صالحة للحياة اليومية - كأبواب القصور والقلاع ، والسلاسل - وأيضا في صنع أشياء مختلفة ، ومن بين المدن السورية ، تخصصت حوران في الموازين والآلات العلمية ، كالأسطرلابات والساعات الرملية والمائية ؛ وتُصنع في كل الجهات الأسلحة من فلزّات تُعالج حسب تقنيات تُمكّن من إحراز صنوف

(35) ابن خلدون [المقدمة ، الباب الخامس ، الفصل الحادي والثلاثون ، 762] .

(36) * Kao Sien Tche . عن المعركة ومكانها أنظر ص 21 رقم 44 .

(37) * وهو القرطاس (المصطلح القديم) أو الورق (المصطلح المعاصر) : والكلمة من أصل صيني (أنظر : ورقات ، 2 ، 167 حول انفراد سكّان المغرب بتسمية الورق بالكاغذ أو الكاغض) .

من الفولاذ صلبة ولدنة في آن واحد (ومن بين تلك التقنيات ما كان سرا مكنونا يأخذه الإبن عن أبيه). ومن تلك التقنيات – وجلّها مجلوب من الهند – ما كان مُطبَّقا في المدن العربية ، وأخصّها دمشق ، المشهورة منذ عهود طويلة بأسلحتها، وطليطلة . أما بلاد القفقاس (القوقاز) ، حيث مناجم الحديد كثيرة ، فتُصنَع فيها الدّروع والسّرود ؛ لكن تُورَّد الأسلحة أيضا من الغرب ، كتلك السّيوف الشهيرة التي تجلب من بلاد الفرنجة وبلاد الصّقالبة .

أما تصنيع الذّهب والفضّة فقد كان يجري في مراكز عديدة ، بعضها على ملك الخليفة ؛ وتُتَّخَذ من كلا المعدنين أعلاق ثمينة : كالأكواب ، والأطباق ، والمصنوعات من الفتائل المجدولة ، والتّحَف المطلية بالميناء ، والحلي من جميع الأشكال ، مُستوحًى من الفنّ الهلّينستي ، وبالخصوص من الفنّ السّاساني . وتَصنع تلك المحارفُ ، في تلك المراكز، ذاك العددَ العديدَ من المشاكي والشماعد ، والثريات ، والحليات الجدارية ، وحيوانات الزخرف ونباتاته ، وآلات الموسيقى ، والتماثيل التي تُزيّن القصور بالمدن الكبرى ؛ كما تُنتج معاملُ بغداد والمغرب واليمن ، وخاصّة قرطبة ، مصنوعات من الجلد أنيقة : كسروج الخيل وطواقمها ، والمناطق ، وعلب الحلي ، والأكياس ، وجميعها أقلّ قيمة من الحلي وإن كانت كثيرا ما تُزركش بالذهب وتُرصَّع بالجواهر واليواقيت .

وأما صناعة الطّيب فكانت في تطوّر مُطّرد ، وإيران أوفر الأقاليم إنتاجا لها : ففيها تُستخرَج الزيوت العطرية من النرجس والليلك والياسمين وتُرسل الى بغداد والمدن الكبرى حيث تُمزَج بماء البنفسج وماء الورد ؛ وكان ماء الورد يُنتَج بكميات كبيرة لأنه يُستعمل – لا في التطيّب فحسب – بل وفي الطّبيخ أيضا ؛ وتُستخدم العطور كذلك في إعداد المراهم وأدوات التجميل ومُختثّرات شراب السكّر. وهكذا فإنّ عددا من الأدوية والعقاقير – وكلها أصيلة الهند – كانت تُتّخَذ من الأعشاب والزهور ، وبعض الركائز كالبُورق والشّبّ المستخرجَين على عين المكان أو المستوردَين . فالأدوية والمخدّرات والروائح العطرية – وكذلك المنبهات العديدة للشهوة الجنسية – تُغذّي صناعةً تتعاطاها مؤسّساتٌ صغيرة يمثّل ما يُروّج من إنتاجها نسبة غير قليلة من التجارة .

تُشغّل صناعات أخرى يدا عاملة كبيرة العدد ، كصناعة القصب السكّري في مصر التي تصدر إنتاجها الى العالمين الإسلامي والخارجي ؛ وصناعة الخزف ، وهي من الصناعات الأولى بحجم إنتاجها وعدد عمالها وصنّاعها . فمن محارفها المنتشرة في جميع أنحاء المملكة ، وخصوصا في بلاد الشام وما بين النهرين ، تخرج التربيعات الخزفية التي تُكسى بها جدران البيوت ، والأوعية والأطباق والجرار والأباريق المستعملة يوميا أو الأواني الأكثر أناقة . والزّجاج ، وقد عُرف منذ عهد بعيد، كان يُنتج بكميات وافرة في محارف مصر والشام ، ثم بإيران والأندلس ، ويُصدّر الى عديد الأقطار، حتى الى بلاد الصين .

ولنذكر أيضا صناعة البناء، ببنّائيها، ولبّانيها، وجبّاسيها الذين يعالجون الجبس – أحد العناصر الأساسية في تزيين داخل الأبنية – ونجّاريها، وغيرهم. وفي بعض المدن، كبغداد مثلا، يمثل بناء السّفن صناعة هامّة، ذات إنتاج متنوّع. فمن مراكب لشحن البضاعة، وحرّاقات لنزهة الخليفة والأمراء، وسفن للمعارك الحربية (وبعضها كان يُطلى بموادّ مانعة من الإحتراق للإحتماء من قوادس الروم الرّاجمة بالنفط الملتهب والقنابل المتفجرة). وفي الأبلّة، الميناء الكبيــر المجاور للبصرة، تُبنى سفن – على حدّ قول اليعقوبي – « بخياطة أخشابها الى بعضها بعضا، بحيث تكون قادرة على الأسفار البعيدة، وحتى على الذهاب الى بلاد الصين ».

تُوفّر أنشطةُ أخرى المنتجاتِ المعدّة لسدّ حاجات السكان أو التّصدير للخارج، فالسّلاّلون والحدّادون والدّبّاغون والخرّاطون والسّكـّافون والنّجّارون والخشّابون وصانعو العربات موجودون حتى في أصغر القرى، ويعملون حسب تقنيات موروثة عن الأجيال الماضية : منها الدّولاب، والكِير، والملفاف، ومختلف وسائل الرّيّ ؛ لكنّ العرب – بفضل تقدّمهم في العلوم الصّحيحة وبراعة علمائهم طوّروا تلك التّقنيات وتلك الوسائل محققين زيادة في المردودية وتنويعاً في الإنتاج. وسهّل ظهورَ صناعات جديدة توريدُ موادَّ أوليةٍ نادرةٍ أوغيرِ معروفة الى ذاك العهد (كالشبّ والنّيلة والزّعفران) من خارج المملكة، وجلبُ سائر العقاقير والموادّ من مختلف أمصارها. وحدث نشاط حثيث في تبادل المعارف والتقنيات دون صعوبة : من ذلك أنّ صناعة الحرير بالعراق تأثرت بتقنيات نفس الصناعة في فارس، وأنّ نسج الكتّان على سواحل بحر قزوين حاكى وسائل صنعه بمصر، وأنّ زجاج الشّام مُقلِّد لزجاج ما بين النهرين، وزجاج مصر مُقلِّد للذي يُصنَع بسامرّاء.

أحدث التزايدُ المطّرد لحاجات السكان في المملكة دفعا هائلا للإنتاج الصناعي أفرز بدوره نموّا للمبادلات التجارية، شمل باديَ الأمر البلاد الإسلامية، ثم شيئا فشيئا سائر العالم المعروف آنذاك.

توسّع التـّجارة المدهِش

كانت الأنهار – وبمقدار أوفر المسالك البرّية – تُوزّع الحاصلات والسلع داخل حدود المملكة : أما البحار فتحمل الى أقاصي المعمورة مُنتجات البلاد الإسلامية وتجلب لها منها الموادّ الأوّلية اللازمة لصناعتها، لكن من أين هذا التوسّع التّجاري الذي لا تمكن مقارنته، عبر التاريخ، إلاّ بأبرز فترات عرفتها ثورة الصناعة والاتصالات في القرنين 19م و 20م (13 و 14 للهجرة) ؟

إنّ النهضة العمرانية والتهافت على الإستهلاك لا يفسران كلّ شيء، ولا بفسره

أيضا توظيف الدّين واللّغة وعزّة الخلافة في توحيد أقطار كانت الى ذلك العهد مشتّتة ؛ توجد بلا ريب أسباب أخرى ، أولاها تلك القدرة الفائقة على التحرّك التي أبدتها شعوب المملكة غداة الفتح العربي ، والتي تنامت أكثر فأكثر أثناء العقود الأولى التي تلت الثورة العباسية . فالسرعة الخاطفة التي أخضعت بها الجيوشُ الفاتحة – وكانت قليلة العدد والعتاد بدرجة لا تُصدّق – ذاك القدرَ الهائل من الأراضي الشاسعة ، ثم النهضةُ المُبهتة التي تميّزت بها بغداد إثر تأسيسها ، بعث في العرب ضربا من الحماس لن نجد له نظيرا لدى غيرهم من الشعوب إلاّ في عهد الإكتشافات الكبرى ، أي بعد مرور عدد غير قليل من القرون .

ثم إنّ الفتح أتاح لشعوب المملكة اكتشاف أمصار وبحار سهّلت عليهم الاتصال ببلدان نائية جدّا ؛ فالبحر الأبيض المتوسط – وقد مكّن المسلمين من زيادة التّعرّف على الحضارتين المصرية واليونانية القديمتين – فتح أمامهم سُبُل الغرب ، ويسّر لهم بلوغ ثروات وأشكالا من التفكير جديدة ، خاصّة في إسبانيا .

وفي جنوب المملكة ، شقّ غزوُ البلدان المحيطة بالخليج العربي/الفارسي أمامهم طريق القارّة الآسيوية ؛ فقد توفّرت لديهم الآن سبيل جديدة ، أقصر وأسهل من سبيل البحر الأحمر، ألا و هي تلك التي تمرّ عبر بلاد ما بين النهرين ، مع وادي دجلة والفرات، باتّجاه الشام والأناضول وشمال إيران ، وكذلك باتّجاه البحر المتوسط ، ما دامت كلّ الحدود قد زالت ، وصار حينئذ البحران ، المتوسّط والأحمر، يكوّنان سبيلين متوازيتين باتّجاه جنوب شرقيّ آسيا والشرق الأقصى . وإذ ظلّ يرتادهما العرب والفرس واليهود والأقباط بلا انقطاع ، فسيساهمان في ازدهار العراق ومصر وسائر بلدان المملكة .

تقع المملكة الإسلامية في قلب العالم القديم ، وتضيف الى هذا الإمتياز امتلاكَها – في خبايا أراضيها – لكميات هائلة من معادن نفيسة مكّنتها من إقرار عملتها على أسس صحيحة واقتناء ما يحتاجه نموّها الاقتصادي من موادّ ضرورية .

اختزن الشرقُ الذهبَ طيلة قرون ، واختزنته مصرُ طيلة آلاف السّنين : فقد كدّس الكنوزَ فراعنةُ كلّ السلالات في قبورهم ، وأكاسرةُ بني ساسان في قصورهم ، والأساقفةُ في كنائسهم والرّهبانُ في ديورتهم . فالذهب الذي عُثِر عليه في قبر تُوتْ عَنْخ آمُون[38] قُدِّرت قيمته بما يُعادل ضعفين من احتياطي بنك مصر حوالي سنة 1925 (1343 هـ)[39]؛

---

(38) * تُوتْ عَنْخ آمُون (القرن 14ق قبل الميلاد) : فرعون من السلالة المصرية 18ق. أحيا ونشّط عبادة آمون التي كان سلفه أمينوفيس 4ق قد زعزع أركانها . اكتُشِف قبره ومومياؤه سنة 1922 (1340 هـ) .

(39) حسب م. لومبار M. Lombard ، في التأليف المذكور سالفا .

فكم من طنّ إذن كان قد وُوري قبورَ الأقيال العظام ؟ وفي مملكة فارس ، حيث السّكّةُ الرّائجة فضّيّةٌ ، يُحوَّل الذّهبُ حليا وأثاثا وتُحفا تُزيّن قصور "ملك الملوك" وذويه ؛ أما الشام وبلاد ما بين النهرين ، فقد تكدّست ، في معابدهما وأديرتهما المسيحية ، ثرواتٌ هائلة · من زخارفِ كنائسَ ، وأصنامٍ ، وأشياءَ صالحةٍ لإقامة الطقوس ، اقتُنِيت أو أهدِيت بكميات كبيرة جدا بعد التوسّع النصراني ؛ وقد كان أباطرة بيزنطة قد استولوا على الكثير مما كان فيها عندما حلت بهم الأزمات النقدية ؛ ووجد فيها العرب بعد الفتح مدخرات عظيمة من الذهب ، تمكنوا بفضلها – بدمشق ثم ببغداد – من سكّ الدّينار ، العملة التي ستأذن بانطلاقة تجارتهم الدّوليّة .

منذ نهاية القرن 8 م (2 للهجرة) انضاف ، الى هذه الكميات من المعدن النفيس ، الذهبُ المستخرَجُ من السودان والمنقولُ على ظهور الإبل عبر الصحراء حتّى مدن السّاحل ، والمُصدَّرُ بعد ذلك الى مصر والشّام والعراق . وسيظلّ الدينارُ – لمدّة طويلة ، والى جانب النّومِسْمَا البيزنطيّ[40] – العملةَ الوحيدةَ الرّائجة في العالم الإسلامي والرّوسي والغربي، لاعتماده احتياطياً عظيما من الذهب يتجدّد بلا انقطاع . فوزنه (4.25 غراما) أقلّ بمقدار طفيف من وزن النّوميسما (4.55 غراما) ، وعياره رفيع (من 96 ٪ الى 98٪) بفضل الطرائق الجديدة التي كان يستخدمها العرب في الإذابة والإشابة . لكنّ العملة ترتكز أيضا على الفضّة لأنّ للمملكة مناجمَ من هذا المعدن بإيران وآسيا الوسطى؛ فوزن الدرهم 2,97 غراما ، وقيمته في عصر الرشيد خُمُس الدينار تقريبا ؛ فهو كثير الرواج بالعراق ، في حين تروج سكة الذّهب بالشام وإفريقية ، وتروج السكتان ببغداد . وسيتقلّص ظلّ الفضّة ، بعد القرن 10 م (4 للهجرة) ويُسيطر الذهب سيطرة تكاد تكون تامة.

أواخرَ القرن 8 م (2 للهجرة) وخلالَ القرن 9 م (3 الهجري) ، كان الخليج العربي/ الفارسي هو السّبيل التجارية الوحيدة نحو المحيط الهندي وسيلان وماليزيا والهند الصينية والصّين . وفي القرن 10 م (4 للهجرة) ، في مصر الفاطمية ، يظهر تيّار للنّقل مضادّ يمرّ من البحرالأحمر ؛ لكن ، في عهد الرشيد وعهد من تلاه من الخلفاء ، ظلّ تفوُّق موانـي الخليج على غيرها تفوّقا مطلقاً .

البصرةُ – "مدينة الدنيا ، ومعدن تجارتها وأموالها" ، كما يقول اليعقوبي[41] –

---

(40) * النّومِسْمَا le nomisma : إحدى العملات البيزنطية التي راجت طويلا (من ق 7 م / 1 هـ الى ق 15 م / 9 هـ) في مملكة الرّوم وخارجها .

(41) * البلدان ، ص 80 . – وفيها وفي سائر الأمصار قول للجاحظ طريف يرويه البغدادي ، « الأمصار عشرة فالصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والخير ببغداد ، والغدر بالريّ ، والحسد بهراة ، والجفاء بنيسابور ، والبخل بمرو ، والطرمذة بسمرقند ، والمروءة ببلخ ، والتجارة بمصر» [ولا شيء عن إفريقية والمغرب والأندلس !] (1، 48) .

كانت فعلا أكبر متجر إسلاميّ لذاك العهد ؛ لقد مُصِّرت سنة 636 (15 هـ)[42] ، ونمت خلال القرن 7 (اًللهجرة) ، وصارت عاصمة من كبريات العواصم ، ومركزَ معاملات مالية يلتقي فيه النصارى واليهود والفرس والعرب والهنود ، ومدينةً صناعية بمسافن تُبنى فيها سفنُ الأسطول التّجاريّ ، ومعاملَ تنتج السّكّر ، ومحارفَ تنسج الأقمشة ، ومركزًا فكريا ذا بال؛ على أنّ كل هذه الحيوية التي اشتهرت بها البصرة ظلت ثانوية بالنسبة الى نشاط مينائها : فهذا الميناء – بمرفئه النهري ، الكَلاَّء[43]، وبالأبلّة – المرفإ المجاور له والأقرب منه الى البحر– يمثل أكبر ميناء في الإمبراطورية الإسلامية ؛ وإذ كان موقعُه على خَوْر الفرات ، فإنّ السّفن مُضطرّة الى قطع مسافات طويلة فوق المضاحل قبل الوصول الى مكان إرسائها ؛ لكنّ ذلك لم يَحُل دون تنامي التجارة الكبرى بهذا الميناء تناميا مُذهِلا ، مما جعله يُؤمّن أكبر قسط من المبادلات بين البلاد الإسلامية وبلدان الشرق .

أمّا سِيراف[44]، المرفأ الواقع على الساحل الجنوبي من البلاد الإيرانية ، والمتّجه بمبادلاته الى المحيط الهندي وما يليه ، فسيتطوّر بعد بضعة عقود ؛ لكنه أصبح يمثّل ، منذ تلك الفترة ، متجرا على جانب من الخطورة ؛ وقد اشتهر تجّاره بأنّهم أغنى الناس في إيران ، وأنّهم يسكنون منازل ذات طوابق عديدة ، مبنية بخشب السّاج – وهو ترف في أعلى درجات الكمال – وأنهم على الأخصّ أمهر ما في البلاد الإسلامية من نواخذة وبَحّارة ، وأقدر الناس على ركوب البحر وتحمّل مخاطره . جاء في كتاب عجائب الهند : « ذكروا أنّ أكثر السّفن الصّينية تحمل من سيراف ، وأنّ الأمتعة تُحمل من البصرة وعُمان وغيرها الى سيراف ، فتُعبَّأ في السّفن الصّينية بسِيراف ، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلّة الماء في مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا ؛ فاذا عُبِّئ المتاع بسيراف ، استعذبوا منها الماء وخطفوا – وهذه لفظة يستعملها أهل البحر: يعني أقلعوا–الى موضع يُقال له مَسْقَط ، وهو آخر عمل عُمان »[45].

وأما عَدَن[46] فتبدو متواضعة بجانب كلّ تلك المواني العظيمة ؛ فهي بالخصوص

(42) * لا سنة 650 (30 هـ) كما رسمه أ. كلو .

(43) * الكَلاّء محلة مشهورة وسوق البصرة (مراصد ، 3 ، 117) .

(44) * سِيراف : مرفأ في إيران على الخليج العربي/الفارسي ، حار جدّا ، مشهور بتجارة اللؤلؤ والبهار ؛ بالقرب منه ، في البحر، منابع ماء زلال . خرّبته الزلازل سنة 977 (367 هـ) .

(45) * نسب أ. كلو هذا الكلام الى كتاب "عجائب الهند" (لصاحبه بزرج بن شهريار، وقد نشره أحد المستشرقين بلايدن سنة 1883) ، والحقيقة أنّه مأخوذ من "أخبار الصّين والهند" ، ألّفه مجهول سنة 851 (237 هـ) ، نشره ، مع ترجمة وتعليق ، ج. سوفاجي ، J. Sauvaget، باريس ، 1948 ، ص 7 .

(46) * عَدَن : مدينة في جنوب عربي جزيرة العرب وميناء على خليج عدن ، قرب مضيق باب المندب =

مصرف لمنتجات سواحل أفريقيا، ومحطّة بينها وبين الشرق الأقصى . أمّا عُمان[47]، بمدينتيها مَسْقَط وصُحَار، فهي سوق للعبور بالبهار والعاج والحاصلات النفيسة النادرة الواردة من الهند ؛ وأمّا جُدّة[48] فهي ميناء مكّة ومحطّة على البحر الأحمر .

والعناصر الفاعلة في هذا الملتقى الدّائم على دروب المعاملات في مختلف جهات المعمورة هي قبل كلّ شيء العناصر اليهودية ؛ فقد أتاح لليهود توحيد المملكة الإسلامية توثيق الرّوابط بين طوائفهم المتشتّتة من إسبانيا الى مصر والشام وفلسطين والعراق ، وحتى بلاد الهند ؛ وحركيتهم أنشط ما تكون ببغداد حيث لهم زعيم سياسي « الرّيش چالُوطا »[49] ورئيس ديني[50] ومدارس لاهوتية (سيَصدر عنها تلمود بغداد)[51]. فكلّ هذه الجاليات متصلة ببعضها البعض ، ومنظمة تنظيما محكما بواسطة جمعيات ووكلاء ،

= من حيث يُدخَل البحر الأحمر جنوبا ؛ من أشهر موانئ البهار في العصرين العتيق والوسيط ؛ احتلها البرتغاليون وآطردهم منها العثمانيون (ق 16 م / 10 هـ) ؛ استولى عليها الإنكليز (ق 19 م / 13 هـ) وجعلوها مرفأ حرا ملحقا بممتلكاتهم الهندية (1266/1850 هـ) ؛ ازدهرت بعد فتح قنال السويس (1286/1869 هـ) ، وُهِبت نظام مستعمرات التاج (1356/1937 هـ) تحت إمرة حاكم بريطاني ؛ ضُمّت الى فدرالية المحميات البريطانية بالجنوب العربي (1381/1962هـ) ، بعد الإستقلال صارت عاصمة للجمهورية الشعبية لليمن الجنوبي (1388/1968 هـ) .

(47) * عُمان : سلطنة مستقلة في الجزيرة العربية بين خليج عُمان واتحاد الإمارات العربية والربع الخالي وحضرموت وبحر عُمان ، عاصمتها مسقط ؛ من مدنها مرباط ، وصور ، وصُحار.

(48) * جُدّة : يعرفها ياقوت بقوله « ... بلد على ساحل بحر اليمن ، وهي فرضة مكة ، بينها وبين مكة ثلاثة أميال ...» هي اليوم ثالثة مدن المملكة العربية السعودية (250.000 نسمة) وأهم مراكزها الدبلوماسية والتجارية والصناعية ، بمطارها ينزل مئات الآلاف من الوافدين لأداء مناسك الحجّ .

(49) * ريش چَالُوطَا Resh Galutha . أمير المنفى ، هو زعيم جماعات اليهود في بلاد الغربة ، اقتضت التقاليد أن يكون من سلالة داود ؛ يدبر شؤون بني جلدته تدبيرا مستقلا في كل بلاد تكون لهم فيها الأغلبية بين السكان ؛ له تبع مسلّحون وشرطة وجباية خاصة وقضاء مدني ودبني مستقل ؛ أقرّ نظامَ هذه الزعامة exilarcat في بلاد مابين النهرين الملوكُ الفرثيون حتى 211 م ، والأكاسرةُ الساسانيون حتى 642 (22 هـ) ، والخلفاءُ المسلمون حتى سقوط بغداد 1258 (657 هـ) .

(50) * الحبر المعلّم ، واشتهر أحبار العراق (چيُونيم مفرده چَاوُون) بتبحرهم في علوم الدين وتفسير مختلف النصوص العبرية المقدسة وعلوّ المكانة بين أهل ملّتهم . كان لخطّة "الجاوون" gaonicat أهمية كبيرة في الشرقين الأدنى والأوسط ما بين القرنين 9 م و 13 م (3 هـ و 7 هـ للهجرة) ، لأن صاحبها كان يباشر التعليم والإرشاد والفُتيا في المسائل الدينية .

(51) * انظر ص 243 رقم 59 .

وتضمّ دُورا تجارية متضامنة بينها ، متحملة مسؤولية مشتركة فيما يهمّ عملياتها التجارية. فما ان كان القرن 8ً(2ًالهجري) حتى انتشر اليهود الرادانية[52] في العالم المعمور إذّاك يتعاطون التجارة الكبرى على النطاق الواسع ، فيسافرون الى الأقاصي لجلب حاصلات مختلفة المصادر (حبوب ، بهار، أقمشة رفيعة ، منتجات ثمينة ، عبيد) ؛ ولمدّة قرنين سيسيطرون سيطرة تامة على التجارة الدُوَليّة .

كان النصارى في ذاك العهد يمارسون المبادلات القارّية ، معتمدين في نشاطهم على جالياتهم ، وكانت هي أيضا متوزّعة في كلّ مكان تقريبا ' فيساهمون على نطاق واسع في العمليات المصرفية ، وقد نال فيها الأرمن امتيازا خاصا على غيرهم ؛ لكنهم لم يكونوا بمعزل عن التجارة الدُوَلية ؛ وكذلك كان الأمر بالنسبة للتّجّار المسلمين . ففي القرنين 9ً و10ً (3ً و 4ًللهجرة) كان بأيديهم النصيب الأوفر من الثروات الكبرى في بغداد ، وتقريبا كلّ المبادلات مع المغرب وإفريقية .

كلّ هؤلاء الرجال يجوبون بلا هوادة مسالك العالم المعمور إذّاك وأنهاره وبحاره لكنهم لا يدخلون الغرب المسيحي ؛ فالمسلمون لا يتجاوزون أبدا الحدود الإسبانية أو مراقي إيطاليا ، أي پيزا و أمالْفي حيث تُعقد الصّفقات التجارية الكبرى ؛ ويهود الشرق ونصاراه أنفسهم لا يسافرون الى الغرب إلاّ قليلا . فهل يَعتبِر المشارقةُ أنّ أهمية المتاجرة مع الغرب قليلة ؟الأغلب على الظّنّ أنّ الإيطاليين كانوا يمنعون التّجّار المشارقة من تخطّي بعض الحدود حفاظا على أسواقهم .

ولتعاطي التجارة أوجه عديدة ؛ فمنها أن يخرج التاجر بنفسه الى البلد الذي يبيع فيه أو يشتري منه البضاعة ؛ ومنها أن يُوكِل الى أحد المسافرين الى ذاك البلد أن يبيع فيه ويشتري منه مكانه . فالسندباد ، بطل ألف ليلة وليلة ، يخرج في رحلاته الأربع الأولى مع

---

(52) رَهْدانية من رهدن ، وهي كلمة فارسية الأصل معناها منافق (ولا من رْدانية) ، وصار معناها ناجر ، وليس يهوديا بالضرورة . [كلمة راذانية وردت لأول مرة في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه (طبعة ليدن ، 1883 ، 6 ، 153) حيث يقول . « مسلك التجار اليهود الرّاذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسبة والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، ويسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برّا وبحرا » . وذهب المستشرقون في تأويلها مذاهب شتّى : فالهولاندي دي خويه براها مشتقة من رهدن ، وهي الكلمة الفارسية المذكورة أعلاه والتي معناها منافق ، ثم صارت تعني خبيرا بالمسالك ؛ ويذهب هذا المذهبَ عددٌ من الباحثين ، ومنهم أ. كلو ' في حين يرى عدد آخر، ومنهم م. لومبار (الإسلام في عظمته الأولى ، بارس ، 1971، 228) أنها مستمدة من رُوداني ، نسبة الى رُدَانُه (وهو اسم نهر الرون الفرنسي عند قدماء العرب) ' والطريق التجارية عبر هذا النهر وواديه مشهورة طيلة العصر الوسيط بروّادها اليهود] .

تجار يسافرون مثله لبيع بضاعتهم عبرالبحار. يقول ، مثلا ، متحدثا عن خروجه للرحلة الرابعة : « ... واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر... وسافرت من مدينة بغداد الى مدينة البصرة ، وأنزلت حمولي في مركب واصطحبت بجماعة من أكابر البصرة ، وقد توجّهنا الى السّفر، وسارت بنا المركب على بركة الله تعالى ... »[53] . وبعد مغامرات على غاية من الغرابة والهول ، يعود السندباد الى مسقط رأسه ، وقد جمع أموالا طائلة ؛ وفي رحلته الخامسة ، يُؤجّر لنفسه مركبا كاملا بربّانه ونوتيته : ورغم أنه صار على قدر عظيم من الغناء ، اشتاق من جديد الى السّفر، فخرج لرحلته السادسة ، مع عدد من التجار هذه المرّة ... ؛ وفي رحلته السابعة ، سيكون سفره على متن سفينة الخليفة .

إنّ تأجير مركب كبير يتطلّب ، طبعا ، مالا كثيرا ؛ فالتجّار على نفس المركب ، يكونون في الغالب عُصبة واحدة ، ومن ذوي النحلة الواحدة ؛ لكنّ هذه العادة أخذت في التّلاشي شيئا فشيئا ، وحلّ محلّها نظام تجاريّ آخر ، ألا وهو نظام " التوصية " الذي يعرض فيه المموّل البضاعة على رجال يتعهّدون ببيعها ، وعند انتهاء الصفقة يقسم معهم الأرباح دون الخسائر التي يتحمّلونها وحدهم ؛ وكان تجّار القوافل في العصر الجاهلي يمارسون التوصية ؛ وإذ أقرّ الفقهاء أنّ هذه الطريقة متماشية مع أحكام الشريعة ، فقد انتشرت خلال القرن 9ً(3ًالهجري) في البلاد الإسلامية ، ثم في حوض البحر المتوسط وأوروبا .

كيف كانت الأموال تنتقل عند إبرام هذه الصّفقات التجارية ؟ كان المسلمون يستخدموت الصّكوك منذ زمن بعيد – وسرعان ما عمّت هذا الوسيلة – ، والصّيارفة يُصدْرون السفاتج ومستندات الديْن ، وغيرها من الوثائق ؛ وكانت تجري المقايضات أحيانا بواسطة تبادل الرقا ع . وقد كان الدّيْن يشمل ما قد يسبّق من الأموال لإتمام صفقة أوصفقات ينوي عقدَها بعضُ كبار التجّار ممن لا يُطعن في كفاءتهم ولا في أمانتهم . وفي تلك السنين – سني القرنين 9ً و 10ً(3ً و 4ًللهجرة) المُفعمة بالنشاط التجاري – ظهرت في المعاملات التجارية أشكال كثيرة أخرى من الإقراض ؛ وإذ كانت تتكيّف مع جميع الحالات ، فهي تفسّر، الى حدّ بعيد ، التفوّق الاقتصادي الذي كان للبلاد الإسلامية خلال العهد الوسيط ؛ فلا الفقهاء ولا رجال الدّين كانوا يمانعون في تكريسها رغم التحريم الصريح للربا (وهو الزيادة لغة ، لكنه الفائدة الفاحشة اصطلاحا) .

المسالك الكبرى عبر المملكة وسائر المعمورة

خلال العصر الوسيط ، كانت الطرق النهرية الصالحة للملاحة قليلة : فالمقْدسي

(53) ألف ليلة وليلة (الليلة 550ً) .

الجغرافي (ق 10 ً / 4 ً هـ) ، يعدّ منها اثنتي عشرة ؛ لكن اذا استثنينا النيل ثم دجلة والفرات ، ليست فيها طريق واحدة يمكن استغلالها بصفة منتظمة ومتواصلة لنقل الركاب والسّلع . فوضع بلاد ما بين النهرين ومصر متميّز عن وضع سائر بلدان المملكة : إذ ، فضلا عن أنّ الفرات ودجلة قابلان للملاحة على أكبر قسط من مجراهما، تربط بين النهرين قنوات عديدة مُشكّلة شبكة مائية كثيفة في أسافل الوادي وناحية بغداد . فحطب أرمينية وزيت زيتون الشام ينزلان في الفرات على أطواف الخشب ؛ ويُحوّل في الأنبار ، على متن مراكب أصغر حجما ، ما هو موجّه من السلع الى بغداد فينقل اليها عبر نهر عيسى . أما الأطواف والقوارب النازلة مع دجلة ، من سامرّاء وتكريت والموصل وأعالي الجزيرة ، فإنها تصل الى بغداد رأسا ؛ فتلك الأطواف ، وجلها كبير الحجم ، يقودها رجال من أمهر النوتية النهريين ، فيخترقون الشلاّلات بأحمالها الثقيلة ؛ وعند حلول الأطواف ببغداد تُفكّك أخشابها لتُباع حطبا ، وهو بضاعة نادرة باهظة الثمن .

الأسطول النهري العامل بالنيل ضخم : فهو يتركب من مراكب شراعية ، قلوعها قديمة مربّعة أو حديثة مثلّثة – وتُدعى اللاتينية – وهي مستوحاة الشّكل حديثاً من قلوع سفن المحيط الهندي ، بحيث تقدر على اغتراف الريح عن قرب ؛ ويتركب كذلك من فُلْك تجرى في روافد النهر وتُرَعه التي لا تكاد تحصى ؛ ومنها تلك الترعة التي حفرها تراجانوس[54] للربط بين الفسطاط والقُلْزُم[55] على البحر الأحمر حيث تُرسي السفن المحمّلة بالبضائع والحاصلات المورّدة لتموين العاصمة ، كما ترسي بنفس المرفأ السفن التي تزوّد مكة والمدينة عن طريق جدّة . أما أسوان فهي المستودع الكبير والسوق العظمى بالسودان : فإليها تأتي قوافل النّوبة بمختلف السلع التي تُشحن بالنهر، فيما بعد ، على متن المراكب .

جُلّ الأنهار الأخرى في العالم الإسلامي تجري مياهها جريانا غير منتظم ولا تُتاح الملاحة بها إلاّ في مسافة قليلة من مسيلها أو في فترات قليلة من السنة ؛ فذاك شأن جَيْحون وسَيْحون[56] وهِلْمَنْد[57] والأنهار المنحدرة من الهضبة الأناضولية . النقل النهري

---

(54) * تَراجانُوس (52-117 م) · امبراطور روماني . ولد في إسبانيا . انتصر في محاربة الفارثيين في ما بين النهرين ، وعمّر البنايات الفخمة ، واضطهد المسيحيين .

(55) * القُلْزُم · مرفأ قديم على البحرالأحمر، يرقى عهده الى الفراعنة ؛ رمّمه عمر بن الخطاب ، لنقل الميرة بين الفسطاط ومكة عن طريق البحرالأحمر، وسُدّ من بعد؛ وبحرالقُلْزُم هو البحرالأحمر.

(56) * انظر ص 20 رقم 35 .

(57) * هِلْمَنْد Hilmand Rod : نهر في أفغانستان (1.200 كم تقريبا ، جلّها سيول) . ينبع غربي كابل بجبال قُوهي بابا من سلاسل هندوكوش ، ثم يسقي قندهار ويخترق مناقع سِجستان فينصبّ في بحيرات هامُون على الحدود الإيرانية .

ليس له إذن في البلاد الإسلامية إلاّ دور محدود ، خصوصا إذا نظّرناه بالنقل عبر أنهار أوروبا وبلاد الصّقالبة .

إنّ المبادلات بين مرافئ الخليج العربي / الفارسي وبلدان الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية حديثة العهد نسبيا ؛ فعلى أيام بني ساسان ، كان عدد من يرتحل من المسافرين الى تلك الأصقاع النائية ويبلغ بلاد الصّين قليلا جدا ؛ والتجارة مع المحيط الهندي ، إنما بدأت حقيقة على عهد الأمويين : فمنذ سنة 700 (81 للهجرة) استقرّ تُجّار مسلمون في جزيرة سَيِلان (سَرَنْديب عند العرب سابقا وسِري لانْكا اليوم) ، وهي كبرى الجزر الدِّيبَجات ؛ واستحث التوسّعَ التجاريَّ باتجاه الشرق الأقصى(58) انتقالُ مراكز النشاط ، من دمشق والشام الى بغداد وبلاد ما بين النهرين .

الغاية الأولى من هذا التوسّع هي بلاد الهند ؛ فالسفن المُقلعة من البَصرة أو من سِيراف والقاصدة الى ساحل مَلَبار، وخاصة الى مرقى مَنْدجَايور(مَنْجَالُور) يمكنها أن ترسي بمَسْقَط ، على ساحل عُمَان ، وأن تخطف مباشرة بعد ذلك الى ساحل مَلَبار، أو أن تسير والشاطئَ على طول سواحل السند ومَكْران . ففي الذهاب تكون محمّلة بالملح وأطباق النحاس والفضة ، وأقمشة القطن والحرير، والطـُّرُز، وأفاويه العراق وغَضاره ، وخيول عُمان . وفي الإياب تعود بما تنتجه القارة الهندية من أخشاب رفيعة كالساج والعود والصّندل والبقّم والأبنوس ، وأعشاب الصِّباغة والتّداوي كالدّاذي والوَرس والقُسط والصِّيلبنج والدّارصيني ، وتعود أيضا بالعنبر، والقاقُلّة ، والحديد والأسلحة .

ثم انّ السفن التي تريد مواصلة الرّحلة نحو الصين تتجه الى سَيِلان " جزيرة الجوهر" ، ومنها تشتري الياقوتَ الأزرق والقِرفة والفيَلة . ويستمر بعضها في السير بعد ذلك حتى يبلغ جزائر جاوة وسُوماتْرا (وكانت قديما تسميّ الرامي أو بَالمِبَانج) أوغيرهما من جزر التّوابل الأخرى فتتزود منها بالجَوزبُوّا (جَوزة الطيب) ، وكبْش القرنفُل ، وسائر أصناف البهار كالكبابة والسنبل والخولنجان ، وبالكافور، وعود الصندل ، وخشب السّاج ، والرصاص القلعي (القصدير) . والبعض الآخر من السفن يُعرِّج شماليَّ سُوماترا ويرسي بسواحل كامبوديا بعد اجتياز مضيق مَلَقَه ؛ والمراقي التي ترسي بها تلك السفن هي : صَنْف (تشامبا ، شمالي سَايْجُون) ، ولُوقِين أو لُوقيُو (هانُوْي) وهي آخر مرقى قبل

---

(58) السفن الصينية في المحيط الهندي قليلة ؛ فمركز الثقل للصّين موجود في الشمال ، وحكومة الإمبراطورية لا تشجع على تنمية الموانى الجنوبية ، ويجب انتظار سلالة سُونْج ، في القرنين 11ً و 12ً (5ً و 6ً للهجرة) لكي تلتفت عناية الحكومة الى الجنوب والمؤسسات التجارية المتعاملة فيه مع الأقاليم النائية [سونج Song : اسم السلالة 19ً الصينية ، ملكت من 960 الى 1280 (349-678 هـ) ، عَدّت 18 امبراطورا آخرهم غلبه المغَولي كوبيلاي خان].

خَانْفُو (كَانْتُون ، هُونْج كُونْج اليوم) المرقى الأعظم ومحطّ رحال التجارالعرب ببلاد الصّين ؛ وتمرّ بعض السّفن بجزائر أَلَنْكَبَالُوس[59] ، لكنّ العرب لم يتجاوزوا خَانْفُو ؛ وفي اعتقاد بحّارتهم ، أنّ ما يلي بلاد الشّيلا (كوريا) ، هي المتاهات الكبرى من المعمورة . ويأتي العرب الى الصين بالأقمشة الرفيعة ، وبأعلاق النحاس والفضة والذهب ، وبجواهر الجنوب الشرقي من آسيا ، وقرون الكركدّن ، والعاج ؛ ويؤوبون منها مُحمّلين بالكاغذ ، والأدوية ، والمسك ، والكافور، ومنسوجات الحرير: وكل تلك المُنتجات خاضعة لإجراءات دقيقة قبل أن يُرخّص للتجار شحنُها ، لأن بعض السلع ممنوع تصديرها لندرتها .

طريق الإياب هي غالبا طريق الذهاب ؛ فالتّجّار يركبون البحر أواخرَ نُوفمبر (تشرين الثاني) للإستفادة من مَوسِم[60] الشمال الغربي ويحلُون بعد ستة أشهر بخانفو. فيقضون هناك الصيف وينصرفون في نوفمبر (تشرين الثاني) أو ديسمبر (كانون الأول) للإستفادة من موسم الشمال الشرقي ؛ وتكون عودتهم الى البصرة أو سيراف أوائلَ الصيف الموالي ، فتدوم الرحلة في الجملة 18 شهرا ، هذا اذا تمّ فيها كلّ شيء على أحسن ما يُرام .

لكنّ الرّحلة قد لا تخلو مما يُعكّرها ؛ فمماً جاء في كتاب أخبار الهند والصّين (أواسط القرن 9م / 3للهجرة) قول صاحبه [وهو مجهول] «... فيقلّ المتاع . ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بخَانْفُو ، وهو مرقى السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين، فيأتي الحريق على المتاع . وذلك أنّ بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مُشقّق . ومن أسباب ذلك أن تتكسر المراكب الصادرة والواردة ، أو يُنْهَبوا أو يُضطرُّوا الى المقام الطويل ، فيبيعون المتاع في غير بلاد العرب . وربّما رمت بهم الرّيح الى اليمن أوغيرها فيبيعون المتاع هناك ؛ وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل ...»[61]. وورد في كتاب عجائب الهند : « ... وكل من ركب الى الصين ناله ما ناله من الخطوب والأهوال ، ولم يُسمع عن أحد من التجار خرج اليها وعاد منها بسلام ؛ وإن كان ذلك ، فمن قبيل العجب ... » . ومن الجهات ما يكثر فيها اللصوص ، ومنهم من كان يقطع على التجار طريقهم حتى في الخليج ؛ والتجارالعرب يهابون منهم ، بالخصوص ، من كان

---

(59) * جزر أَلَنْكَبَالُوس (المعروفة اليوم بجزر نيكوبار) أطلق عليها أ. كلو اسم جزر ياراسيلس، وهذا العَلَم الأخير اسم طبيب سويسري اشتهر ببحوثه الكيموية وليس اسما لمجموعة جزر.

(60) * المَوْسم la mousson . ريح موسمية تهب على كامل الجنوب الشرقي الآسيوي في الشتاء الى البحر جافة باردة ، وفي الصيف الى البرّ حارة ممطرة ، وكثيرا ما تحدث الكوارث بفبضانانها ، وأصلُ المصطلحِ الجغرافي الأعجمي كلمة "الموسم" العربية .

(61) * أخبار ، 6 .

يعيث في سواحل الهند– لأنّ لهؤلاء مراكب بالمجادف أسرع من سفنهم الشراعية [62] – فيتزود أصحاب السفن بالنيران الإغريقية ويصطحبون النّفّاطين لدفع أذاهم : ومغامرات السندباد في سفراته السّبع ، رغم ما فيها من خوارق خيالية ، تصوّر تصويرا أمينا ما يتعرّض اليه البحّارة من مخاطر في رحلاتهم عبر المحيط الهندي وما يساورهم عنها من هواجس ومخاوف .

لم تكن مصاعب الملاحة لمن ركب البحر في ذاك العهد أقلّ خطورة ؛ فالآلات والخرائط الجغرافية اللازمة لمعرفة الطريق – وجلها فارسية الصّنع – كانت مختصرة بل وغاية في الاختصار[63]، حتى بعد ما أمر به المأمون من قيس (قيس قوس دائرة الطول للكرة الأرضية) ، مما جعل عدد السفن الضائعة لا يكاد يُحصى . على أنّ كلّ هذه المخاطر ما كانت لتُثنيَ عزيمة التجّار العرب الذين كان أسطولهم يسيطر على التجارة الدُوَلية سيطرة تكاد تكون مطلقة . لا محالة ، كان التجار الهنود يساهمون في النشاط التجاري عبرالمحيط الهندي حتى أندونيسيا ، وكبريات السفن الخيزرانية الصينية كثيرا ما تُرَى غامرة عباب البحر في مياه الخليج العربي/الفارسي ؛ إلاّ أنّ ذاك النشاط التجاري كان في معظمه بأيدي المسلمين ؛ وسيظلّ الأمركذلك لمدة تفوق القرنين ، ثم يأخذ دورالمسلمين في التّقلص شيئا فشيئا لفائدة الصّينيين والهنود، الى أن يأتي يوم – في نهاية القرن 15ً (9ً للهجرة) – يخرج فيه البرتغالي ڤاسكو دي چاما ، بسفن يقودها الربّان العربي أحمد بن ماجد ، غازيا في تلك البحار ، ومحاولا – دون أن ينجح تماما – أن يطرد منها البحارة المسلمين .

(62) * من أمثلة ذلك ما جاء في نفس المرجع « ... جزيرتان يقال لهما أنْدامان وأهلهما يأكلون الناس أحياء وهم سود ، مفلفلو الشعور، مناكيرالوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، فرج أحدهم مثل الدراع ، عراة ، ليست لهم قوارب ولو كانت لهم لأكلوا كلّ من مرّ بهم ... (ص 5) : ... وأمام موضع يقال له كَنْدُرَنْج جبل مشرف ربما [أي كثيرا ما] كان فيه الهُرّاب من العبيد واللصوص ... . (ص 9) ' ... وفي جزيرة يقال لها مُلْجان فيما بين سرنديب وكَلَـه قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علّقوه منكسا وقطّعوه وأكلوه نيّاءً ... (ص 10) » . أو ما ذُكر في مسالك ابن خرداذبة ' « ... ومن الخشبات الى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخا، وأهلها لصوص يقطعون على المراكب ... » (ص 60) .

(63) والحال أنّ للعرب والفرس امتيازا ذا بال ' يتمثّل في استعمالهم للشراع المثلث المعروف "باللاّتيني" والذي يتيح للمركب أن يمضي ضد الريح ، وقد أخذته عنهم ، في القرن 15ً (9ً للهجرة) ، بلدان البحر الأبيض المتوسط ، فبلدان الشمال الأوروبي . ثم انّ الإبرة المغنطيسية، الصينية الأصل ، والمنقولة الى الغرب على أيدي العرب ، لم تُستعمَل من قِبَل هؤلاء قبْل أواسط القرن 9ً (3ً للهجرة) .

فلئن كانت طريق البحر ، في القرنين 8ً و 9ً (2ً و 3ً للهجرة) هي الطريق المسلوكة أكثر من غيرها ، فإنّ طريق الحرير البرّية القديمة لم تُترَك ، بل بقيت مستعملة لنقل السلع الخفيفة والنفيسة ؛ فبسبب الرّجّات السياسية التي هزّت امبراطورية الوسط (الصّين) باتت الطريق المُؤدّية الى بلاد سِين كِيَانْج[64] قليلة الأمن ؛ ورغم تحالف عاهل الصين ، وهو من سلالة تَنْج[65]، مع هارون الرشيد سنة 798 (182 هـ) ، فإنّ النشاط لن يعود لطريق آسيا الوسطى إلاّ بعد أمد طويل .

فإذا خرجْتَ من بغداد وأردت بلاد الصين ، سلكت ، عبرالهضبة الإيرانية ، السبيل المعروفة منذ العهود السحيقة ، ومررْتَ بخَانِقِين وكَرْمانْشاه ثم بهَمَذان والرَّي لتصل الى بلاد خُراسان ؛ ومن مفترق موجود بالقرب من نَيسابُور ، تخرج بك الطريق الى الهند ، مرورا ببَلْخ وبَامِيان وكابُل ومُلْتان على نهر السِّند ؛ ومن أراد الصين مُخيَّرٌ هناك بين طريقين · إحداهما تمرّ بتَشْكَنْت (طَشْقَنْد) وطالاس وتصعد ووادِيَ إيلِي مع مسيل النهر الذي يجري فيه[66] ؛ والثانية تتجه نحو كَشْجَر، وتمر بسلسلة من الواحات على ضفّتي نهر تَريم : أكْسُوم وطُرْفان في الشمال ، ويُرْقَنْد وخُوطان في الجنوب ؛ وتلتقي الطريقان بعد ذلك باتجاه إقليم كَانْ سُو ثم إقليم شَانْج أَنْ .

في تلك المفازات الشاسعة والرمال المتناهية ، لم تكن المخاطر معدومة ، بدءا بالغارات التي يشنها قطاع الطريق على المسافرين ؛ لكنّ القوافل تستطيع مواجهتها بالإكثار من عدد المشاركين في الرحلة ، وخفرها بالرجال المسلّحين (المُقاتِلة) . لكن ، وبالمقابل ، لا قدرة لأحد على الصمود أمام كوارث الطبيعة : فمن أمطار تتهاطل وتُطمي الأنهارَ ، فتقطع سيولُها الطرقاتِ ، وتُزهِق الأرواح ، وتُغرِق الدواب ، وتُتلِف السلع والمتاع ؛ الى ثلوج متراكمة وحرارات محرقة تجفف عيون المياه ومجاريها ؛ وكانت الرحلة تدوم من 8 أشهر الى 12 شهرا .

ورغم أنّ الحرير صار يُغزل ويُنسج بالعديد من جهات المملكة ، بل وفي بيزنطة ذاتها ، فإنّ حركة توريده لم تتوقّف تماما ؛ ولمدة طويلة ، ستواصل الأحمال الكثيرة من

(64) * سِينْ – كِيَانْج : تركستان الصينية ، هي فياف واسعة واقعة غربي بلاد الصين ، عاصمتها أُورُومْتْشي . جل سكانها من المسلمين .

(65) * تَنْج : اسم السلالة الصينية 13ً . ملكت من 618 الى907 (4 قبل الهجرة – 295 بعد الهجرة) . أحدثت نهضة في الآداب والفنون . من عظمائها تَايْسُونْج الإمبراطور المتوفى سنة 649 (29 هـ) – انظر ص 21 رقم 44 .

(66) * إيلِي · نهر في آسيا الوسطى (200 1 كم تقريبا) . يسقي بلاد بلوخستان وينصب في بحيرة بلخاش . كان في القرن 13ً (7ً للهجرة) الحدّ الشمالي للعالم الإسلامي .

هذه البضاعة النفيسة اجتيازَها براريَ آسيا الوسطى وجبالَ خراسان ؛ على أنّ بضاعة أخرى بدأت تُجلب أكثر فأكثر عبر هذه الطريق ، وتلك هي الأواني من الغضار الصيني الرفيع ؛ وقد شاع الولع به شيوعا سريعا بالبلاط في بغداد ، مذ أن أهدى علي بن عيسى الى الرشيد عشرين إناء من "الصيني الإمبراطوري" ، « لم يُر لها نظير حتى ذلك العهد » . وكان يُوَرَّد من الصّين أيضا ، وعبر نفس الطريق ، ما لا يوجد من البهار في الجنوب الشرقي من القارة الاسيوية ؛ ويُجلب منها أيضا اليشب ، والمسك[67] - وسوقه نافقة جدا ببغداد - (ولن يمضي قرنان أو ثلاثة حتى يحلّ الشاي محلّ الحرير في التجارة بين الشرق والغرب) . ومقابل تلك البضائع يُصدِّر التجّارُ العرب والفرس الى الصّين العطورَ والدّرّ والمرجان والبخور وبعض الأنواع الرفيعة من الأقمشة . ويصدّرون الى تُرْك آسيا الوسطى الأنسجة الحريرية والقطع النقدية مقابل الأسلحة ، والمصنوعات النحاسية ، واللبد ، والعبيد بالخصوص .

المـُنتَجات المتبادَلة

الرقيق ضروري لنظام المجتمع العباسي ، الى حدّ أنّ تباطؤ النسق في اقتنائه قد يجرّ اضطرابات للإقتصاد ؛ فلإنجاز الأشغال التي يرفض القيامَ بها الأحرارُ ، كان المجتمع في حاجة الى عدد كبير من العبيد ، خصوصا والدين يشجع على إعتاقهم ، ويحرّم استعباد المسلمين . وقد وضعت الفتوحات تحت تصرّف الغالبين سبيا وافر العدد من الجنسين لم يلبث أغلبه أن وقع استرقاقه ؛ وعندما بلغ العرب أقصى حدود غزوهم ، لم يبق لهم من مصدر للرقيق غير الغارات على بلاد الروم .

وإذ نضب هذا المعين بدوره ، أصبح الباعة (النخّاسون) ، في العهد العباسي[68] ، يبحثون عن بضاعتهم ويقتنونها حيثما وجدوها ، بحيث صارت الأسواق تعرض عبيدا من أعراق على غاية من الاختلاف . "... فنظر الدلاّل من حوله ورأى أنّ التجّار لم يحضروا ؛ وفي انتظارهم باع عددا من الجواري النُّوبية والتّكـُورية (من السّودان) ، والفرنجية ، والمـَراغية (من أذربيجان) ، والرّومية ، والتتارية ، والبربرية ، والحبشية ، والخُلَنْجية (ذوات البشرة المشوبة بحُمْرة وصُفْرة)[69]» .

(67) يفرزه نوع من الظباء ؛ وأحسنه ما جاء من بلاد التـُبَّت [والمسك طيب وهو من دم دابّة كالظبي يُدعى "غزال المسك" (المعجم)] .

(68) الرقيق ، التركيّ الأصل ، قليلُ العدد على أيام الرشيد .

(69) ألف ليلة وليلة .

توفّر القارّة السمراء كثيرا من العبيد النُّوبيين ، والأثيوبيين ، والبانطو ، والصوماليين ، بل وحتى السينغاليين والتشاديين ، يشتريهم النخّاسون من رؤساء قبائلهم ، أو تسبيهم عصابات على اتصال بتجّار كبريات المدن من الساحل الإفريقي أو العربي ، ثم يُنقلون من مستودع الى آخر عن طريق البر أو البحر. ومن كان منهم مُعَدّا للخصاء – وأكثرهم من السّودان وأثمانهم باهظة – يتمّ خَصيُهم في مصر .

ومن الأصقاع المزوّدة بالعبيد أيضا أوروبا الوسطى والشرقية ، أي بلاد الصقالبة . فمع الأنكلوسكسون ، يمثل الصقالبةُ أحسنَ ما يُرغَب فيه من العبيد ؛ وابتداء من القرن 8 ً(2 ً للهجرة) ، حلّ هؤلاء محلّ الجواري والغلمان الذين كان النخّاسون بالبلدان الكاثوليكية من أوروبا الغربية يبيعونهم في السوق الداخلية .

كانت الطرق التي يُجلب منها العبيد الى الأسواق عديدة : شرقا ، تمرّ طريق جلبهم مع نهرالڤولجا (باتِيل ، عاصمة الخزر) ، وأرمينية (وهي أحد مراكز الخصاء) ، والرّي، لتصل الى بغداد ، وتمرّ ثانيةٌ عبر البحر الأسود ، وثالثة مع نهرالرّاين ثم نهرالطّونة (الدّانوب) . وأشهر سوق للعبيد في أوروبا الغربية هي مدينة ڤِرْدُون [70] ، وهي أيضا من أكبر مراكز الخصاء ، ويتعاطاه فيها اليهود ؛ ومن تلك السوق يُوجَّهون عبرالطريق الغربية السائرة ونهري السَّاؤُون [71] ورُدانُه [72] الى آ َرْبُونة [73] أو آرْل ، ومنهما الى الأندلس أو الشرق . ومن الأسواق الهامة پراچ (پراها باللغة التشيكية) وكذلك البندقية ، وقد أضحت هذه الأخيرة منذ القرن 8 ً(2 ً للهجرة) ، من أعظم المدن المزوّدة بالعبيد ، رغم احتجاج البابوات . وهكذا صار الرجال والنساء يُسْبَوْن بكامل القارة الأوروبية ، ثم يُباعون للمسلمين في أسواقهم ، وللنصارى في بيزنطة : يُبعث بالأنكلوسكسون مباشرة الى الأندلس أو البندقية عن طريق لِيُون ، وباللـُّمْبَرْديين الى إفريقية ومصر ، ويشتريهم غالبا تجار جنوب إيطاليا ويعيدون بيعهم .

للمسلمين ولع بالأسلحة المصهورة في أوروبا الكاثوليكية ؛ وقد يُفسَّر تفوّق الجرمانيين فيها – وكانوا خيرة من يصنع السيوف – بالاتصالات التي كانت لهم مع شعوب آسيا الوسطى ، وعلى الأرجح مع الأتراك الذين كانت لهم في الحِدادة مهارات يشهد لهم بها

---

(70) * ڤِرْدُون : مدينة واقعة على نهر الماس la Meuse شمال شرقي فرنسا ؛ انظر ص 151 رقم 36.

(71) * السَّاؤُون نهر يجري شرقي فرنسا وينصب في نهر رُدانه بمدينة لِيُون .

(72) * رُدانُه : هي الصيغة العربية لاسم نهر الرُّون ، وهي مأخوذة عن اسمه اللاتيني Rhodanus؛ انظر ص 151 رقم 35 .

(73) * هي مدينة نَرْبُون الفرنسية ؛ انظر ص 152 رقم 44 .

التاريخ منذ أقدم العصور؛ وللمشارقة أيضا ولع بأسلحة إسكانديناڤيا (أسوج أي السويد، والنروج أي النورڤيج اليوم) ، لصحتها وليونتها في آن واحد .

ويبتاع المسلمون من الغرب المعادن ، والفراء ، والأخشاب لبناء سفنهم ؛ أما أوروبا – وهي القارّة الفقيرة المتأخرة – فلا شيء تقدمه للمقايضة مع الشرق غير تلك الموارد ؛ ومشترياتها ، وهي المقصورة على أقلّية محظوظة مترفة ، تتمثّل أساسا في مُنتجات كمالية ، لا قدرة لها على صنعها ، وأخصّها المنسوجات . فكبار النبلاء ورجال الدين من الإكليروس يلبسون ثيابا من الحرير المطرّز بالذهب . وما يلبسه منها شارلمان وبناته كان يبهر الأبصار ويذهب بعقول الشعراء ؛ وقد اضطرّ لويس الجرماني[74] الى تحجير الحرير المطرّز بالذهب على عساكره . وشهّر ألكُوين[75] بالإكليروس الذي يُبدّد الأموال في شراء الملابس الفاخرة . ثم انّ أوروبا تستورد – لكن بكميات محدودة – التوابل والأعشاب الطبية والعاج وأطباق الذهب والفضة .

وهكذا تصل الشرقَ بالغرب طرقٌ ستظلّ قارة لمدة طويلة . تخرج إحداها من انكلترا ، وتمرّ بمقاطعة بريطانيا الفرنسية ، لتصل الى لشبونة ، ثم الى المرافئ الإسلامية على المحيط الأطلسي ؛ وتنطلق ثانية من ألمانيا وبلاد الفرنجة وتمرّ بنربونة لتبلغ الأندلس وشمال أفريقيا ؛ ثم ان الموانئ الإيطالية – مثل أمالْفي ، وجايتا ، وساليرنو– بدأت تلعب هي أيضا دورها في الوساطة بين مدن الشمال الإفريقي كتونس والقيروان والفسطاط ؛ ويوجّه التجّار الرّوس والسّكانْدِناف ، من جهتهم ، حتى مدينة بغداد ، الفرو والسلاح والعسل والشمع والخيل ، والعبيد طبعا ؛ ويورّدون الأقمشة والأطباق والمسكوكات الفضية . ويجري التبادل بواسطة القوافل ، وعن طريق الأنهار على وجه الخصوص ؛ فيسيرون ونهر الدّون والڤولجا والدّنيبير باتجاه بحر قزوين والبحر الأسود حيث يلتقون بالتجار المسلمين القادمين من أذربيجان وجُرجان وخُوارِزم ؛ وقد يصل المطاف بأولائك الى كِياڤ وأعالي الڤولجا وبحر البلطيق .

هكذا كان العالم الإسلامي قطبا وسط حركة لتبادل دُوَلي واسع استجاب لتنامي الاستهلاك الذي أوجد بدوره مناشطَ جديدة ؛ فاستحثاث الإستهلاك هذا هو الذي أعطى للحضارة الإسلامية الأسس المادّية التي لولاها لما كان لها بلا شك ما عرفته من إشعاع وتأثير . وهذا الإزدهار ، المدعم بسلطان عتيد ، هو الذي أتاح للخلافة العباسية أن تكون بوتقة تنصهر فيها مساهمات شتى الحضارات ، القريبة منها والبعيدة ، وتجد فيها أوروبا الوسيطة جذور نهضتها الأصلية .

(74) * لويس الجرماني : ابن لويس التقيّ وحفيد شارلمان . ملك على الفرنجة الشرقيين ثم على جرمانية من 843 (229 هـ) الى 876 (263 هـ) .

(75) * ألكُوين Alcuin : أحد كبار العلماء ببلاط شارلمان .

الفصل التاسع

التلهّف إلى المعرفة

" أُطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ ".[1]

(حديث نبوي)

(1) * الحديث كاملاً هو : «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ ، فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كلِّ مُسْلِمٍ ، إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَطْلُبُ » ؛ ابن عبد البرّ عن أنس (الجامع ، 1، 168) .

يبدو أنّ الأمويين ، وهم من كبار البُناة المشيّدين ، المولعين بالشعر العربي البدوي ، كانوا قليلي التّقبّل لما قد يكون لثقافات الدول المهزومة من تأثيرات فكرية ، وإن كان بعض الخلفاء ، منذ نهاية القرن 7ً (1ً الهجري) ، يمتلكون مكتبات خاصة : وأوّلهم معاوية ، ثم الأمير خالد ، ابن يزيد الأوّل ؛ يقول عنه ابن النديم : «... كان فاضلا في نفسه ، له همّة ومحبّة للعلوم ، خطر بباله حبّ الصّنعة (الكيمياء) ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل بمصر وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقُبْطي الى العربي ، وهذا أوّل نقل في الإسلام كان من لغة الى لغة ...»[2] . لكنّ هذه المحاولات الأولى كانت ظرفية ، وحتى جابر، الرجل الوحيد الذي اشتهر بأعماله في الميدان ، والمعروف في التآليف اللاّتينية عن الكيمياء باسم جِبِر، فالراجح أنّه شخصية مُنتحلة ، اختلقها دعاة الإسماعيلية في القرنين 9ً و 10ً (3ً و 4ً للهجرة) لأسباب سياسية[3]. فلا وجود إذن لعلم عربي بأتم معنى الكلمة قبل العباسيين ، ولن يكون للعرب إنتاج علمي متميّز إلاّ بعد دراستهم لأعمال اليونان القدامى والإيرانيين والهنود ، وسيستوعب العالم الأسلامي إسهامات الثقافات الماضية ، وينقل هذا الموروث الحضاري المشترك الى الغرب من القرن 10ً الى القرن 13ً (من 4ً الى 7ً للهجرة) .

الموروث الحضاري عن الأقدمين

يرقى تاريخ انتشار الثقافة الهلّينية في الشرق العربي الى ماض بعيد ، فقد شعرت الكنيسة ، بعد مجمع نِيقِيا المسكوني (325 م) أنّ نصارى الشام ، الذين يتكلمون اللغة الآرامية ، وهي السريانية ، كانوا يحيدون عن أسس العقيدة ومقتضيات الطقوس الكاثوليكية ، فبات من الضروري تعليمهم . فتأسست مدرسة بِنصِّيبِين ، على الحدود بين الشام والجزيرة، ووُضعت تحت مسؤولية أفْرام ، أحد فقهاء الكنيسة . ولما استولى الفرس على نِصِّيبين ، اضطرّ أفرام الى الهروب ، فلجأ الى الرَّهَا[4] حيث أسَّس مدرسة جديدة سرعان ما

---

(2) ابن النديم ، ذكره ج. ڤيرني J. Vernet ؛ [الفهرست ، 303] .

(3) حول الجدال الذي نشب في الموضوع ، انظر ج. ڤيرني ، التآليف المذكور سابقا .

(4) * انظر ص 15 رقم 12 .

اكتسبت شهرة عظيمة . كان التعليم يجري في هذه المدرسة بالسريانية ، وهي اللغة التي شُرِع ، أواخرَ القرن 4ً للميلاد ، في ترجمة الكتب اليونانية اليها ، كتب في اللاهوت بادئ الأمر ، ثم بعض النصوص لأرسطو . لكن ، سنةَ 431 م ، حرّم مجمع إفْسُس المسكوني انشقاق نسطور[5] ؛ وإذ ناصرالإنشقاقَ وزعيمَه جلُّ أعضاء المدرسة الرّهاوية ، أمر بإغلاقها الإمبراطورُ زِينُون[6] الذي كان من أنصار المونوفيسية[7] ، وذلك أواخرَ القرن 5ً للميلاد . ففُتحت من جديد بنصّيبين[8] حيث عظم شأنها ، فصارت جامعة نسطورية كبيرة (وقد أُضيف اليها مستشفى وكلية للطبّ)· وعند ذاك امتدّ تأثير الكنيسة النسطورية ، وتوزّع مبشروها في أغلب بلدان الشرق الأوسط ، وواصلوا انتشارهم حتى أواسط القارة الآسيوية ، وبلغوا من بلاد العرب المدينة المنوّرة (يثرب إذّاك) .

أما حركة الترجمة – ترجمة الكتب اليونانية القديمة – التي أوعز بها ثم شجّعها الملك الساساني خسرو 1ً – ففي مدينة جُنْدَيسابور[9] كان نماؤها وازدهارها ؛ فقد كان هذا الملك عدوّا لدودا لقيصرالرّوم ، لكنّه شديد الإعجاب بالثقافة التي أضحت بيزنطة وريثة لها . فآوى مَن طلب اليه اللجوء ممن بقي من فلاسفة الافلاطونية الجديدة ، بعد إغلاق مدرستهم سنة 529 للميلاد بأمر من يوسطينيان ؛ وكان خسرو يريد أن يؤسس بجنديسابور أكاديمية كالتي تأسست بالإسكندرية وأعطتها سمعة عظيمة . وفي هذا المركز الفكري النشيط ، حيث كانت السيطرة للثقافة اليونانية ، يُدرَّس المنطق والطبّ والرياضيات والفلك (كان به مرصد) . وكان النقل يجري الى السريانية أكثر منه الى الفارسية ، وهكذا

(5) النسطورية ، التي ظهرت أوائل القرن الخامس ، تَنسب للمسيح طبيعتين : الطبيعة البشرية التي أمّها مريم ، والطبيعة الإلاهية وهي الكلمة ؛ وبعد مجادلات طويلة ، خصوصا بين كِيرِلّس Cyrille أسقف الإسكندرية ، المدافع عن النزعة التقليدية ، ونَسْطُور Nestor ، أسقف القسطنطينية ، المروّج الرئيسي للمذهب الجديد ، عُقِد بالرّها في 431 م مجمع مسكوني حرّم البدعة النسطورية . إلا ان هذه البدعة سرعان ما اتبعها العديد من المسيحيين، فانتشرت بإيران وجزيرة العرب ، والهند ، وامتدّ تأثيرها حتّى بلاد الصين ، بعدد من الأسقفيات يزيد على المائتين . ثم إنّ عدد النساطرة وتبشيرهم تقلّص بسرعة بعد غارات تيمورلنك ، بين القرنين 14ً و 15ً (8ً و 9ً للهجرة) ، وبعد صراع القوميات في الشرق الأوسط خلال القرن 19ً (13ً الهجري) – [أنظر ص 17 رقم 24] .

(6) * زينُون : أحد أباطرة الإمبراطورية الشرقية (474 - 491 م) .

(7) * انظر ص 16 رقم 20 .

(8) * انظر ص 95 رقم 20 .

(9) * مدينة في خوزستان أسسها سابور 1ً الساساني وأسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسرها . فتحها أبو موسى الأشعري (638 / 16 هـ) على أيام الخليفة عمر . اشتهرت بمعهدها الطبي ، وكانت لغة التعليم فيها الآرامية (السريانية) .

تُرجمت مؤلّفات جالينُوس[10] ، وقسم كبير من أعمال بُقْراط[11]، ومنطق أرِسْطُو[12] ، ورسالة لفُرْفيريُوس[13] ، ورسائل في علوم الفلك والرياضيات والزراعة . وممَّن بقي يُذكر من الناقلين الأسقف المونوفيسي جورْجِيوس الذي ترجم لأرسطو كتاب أُرْجَانُون[14] ، وأسقف ثان يُدعى سيِڤيرُوس وتَرجم له كتاب أنَالُوطِيقا[15] ، وهو الذي يُقال عنه إنه أدخل الى إيران ونشر فيها الأرقام المعروفة "بالعربية" والتي هي ، في الواقع أصيلة الهند . فمن الطبيعي إذن أن تجذب بغداد ، بما يمنحه خلفاؤها من الصلات والعطايا ، أساتذة وأطباء جنديسابور، المدينة القريبة كل القرب من بلاد ما بين النهرين . وما جبريل ، طبيب الرشيد، إلاّ حفيد ابن بختيشوع ، أحد مشاهير الأطباء الذين عرفهم ذاك العصر والذي كان تعاطى التدريس بجنديسابور، ذاك المركز العلمي الخطير .

على أنّ قنوات أخرى كانت تتدفّق عبرها الى بغداد كلُّ تلك المعارف التي ستنصهر منها الثقافة العربية الإسلامية : منها أنطاكيا ، وحرّان (ببلاد الشام) – وهي مركز غنوصيّ تخلّدت فيه وثنية بابلية الأصل تعتمد في معتقدها على معرفة الأجرام

---

(10) * جَالِينُوس . طبيب يوناني (131 – 201 م). له اكتشافات هامة في ميدان التشريح . أخذ عنه كبار الأئمة في الطب العربي .

(11) * بُقْرَاط : أشهر الأطباء الأقدمين (460 ق م – ؟) . ولد بجزيرة كوس باليونان. علل الأمراض باضطراب الأخلاط ، وجعل لها مصدرين : الهواء والغذاء . أرسل اليه ملك الفرس الهدايا ودعاه للمجيء الى بلاده لمعالجة الأمراض المتفشية فيها؛ فردّ عليه هداياه وأبى أن يخدم أعداء وطنه . توفّي بلاريسا بتسّاليا . نقلت بعض مصنفاته الى العربية .

(12) * أرسطوطاليس أو أرسطو . فيلسوف يوناني (384 – 322 ق م) . من كبار مفكري البشرية. مؤسس مذهب المشّائين ومؤدب الإسكندر. مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والأخلاق والإلهيات كثيرة ، أهمها: المقولات ، الجدل ، العبارة أو التفسير ، الخطابة ، السماء والعالم ، الكون والفساد ، كتاب ما بعد الطبيعة . تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه التي نقلها الى العربية النقلة السريان وأهمهم اسحق بن حنين .

(13) * فُرْفيريُوس الصُّوري : فيلسوف . تلميذ افلاطون . من تباع الافلاطونية الجديدة (233 –304 م). ولد في صُور وعلّم في روما. كان له الدور الأول في نشر تعاليم أستاذه . له كتاب إيساغوجي (ومعناه باليونانية المقدمة) في الفلسفة ، عُرف عند العرب باسم المقولات الخمس .

(14) * أُرْجَانُون : كتاب ذو مكانة في تدريس الفلسفة شرقا وغربا. هو مجموعة مقالات أرسطو في المنطق وأهمها المقولات و قوانين الجدل والقياس .

(15) * أنَالُوطيقَا les Analytiques : وهما اثنان · الأول ومعناه تحليل القياس ، والثاني ومعناه البرهان (الفهرست ، 361) .

السماوية [16] – ، وشمال الهند ، وبالخصوص بلاد ما وراء النهر؛ فمنذ فتوحات الإسكندر، ظلت تلك الأصقاع محافظة على طابع التفكيراليوناني ؛ وتحت تأثيرالأرسطوطاليسية ، بقيت العلوم الطبيعية والطب والفلك والرياضيات تحتل في ثقافتها مكانة ذات بال ؛ لكن يبدو كذلك واضحا فيها تأثير الافلاطونية الجديدة وضرب من المسيحية المطبوعة بالطابع الهلّينستي؛ فتلك التيارات المتولدة عن التفكير الأجنبي – واليوناني بالخصوص – مثلت ما سيُسمّى "بالفلسفة" وستكون أساس النهضة الفكرية التي سيعرفها العالم العربي / الإسلامي.

العصر الذهبي للعلم العربي

وعندئذ بدأت حركة الترجمة والتفسير لآثار الأقدمين ، تلك الحركة العارمة التي نتجت عن تفتح العالم العربي على العالم المتوسطي "المُهلّن" (أي المتأثر بالثقافة الهلّينستية) ؛ فأوْلى العباسيون اهتمامهم الى ما في البلاد المفتوحة من آفاق فكرية وروحية كان تغاضى عنها الأمويون من قبل ؛ فالمدرسة النسطورية وجنديسابور قد لعبتا دورا حاسما في ظهور هذه الثقافة الجديدة ، وقد أعان على ظهورها – الى حد بعيد– التأييد الرسمي الذي لقيته من السلط الحاكمة[17]؛ فشجع الرشيد رجال العلم ونقلة الكتب الأعجمية ،ووجّه الى بيزنطة بعثة للبحث عن مخطوطات يونانية قصد ترجمتها الى السريانية والعربية ؛ وكان وزيره جعفرالبرمكي على درجة عالية من الثقافة ، فشجّعه على الدأب في هذا الإتّجاه ، وأحاط برعايته كل من كانت له قدرة على تطوير المعارف وإثرائها ، وقد كان والده يحيى استقدم من الهند علماء وأطباء ، وسيرسل المأمون[18] الى القسطنطينية وفدا ليعود اليه منها بمؤلفات

---

(16) * وهي النحلة التي أطلق الإسلام على معتنقيها اسم الصّابئة (وهم قوم ورد ذكرهم في القرآن وعُدّوا من أهل الكتاب ؛ ومنهم من كان يعبد الكواكب ، ومقرهم حرّان) .

(17) كان المنصور قد طلب من صاحب الروم ببيزنطة أن يرسل اليه كتبا في الرياضيات ، وخاصة تآليف أقليدس ؛ وكان الإستيلاء على المدن المفتوحة – كعمّورية وأنصير (أنقرة قديما) – يُثري خزائن الكتب في قصور الخلافة ؛ وقد يفرض العرب أحيانا على الروم دفع جزيتهم كتبا.

(18) ومن الأساطير التي تُروى عن اكتشاف المأمون لأهمية الموروث الحضاري الهلّينستي أنـــه « رأى في منامه كأنّ رجلا أبيض اللون مُشْرَبا حُمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أجلح الرأس ، أشهل العينين ، حسن الشمائل ، جالس على سريره . قال المأمون . وكأنّي بين يديه قد مُلِئت له هيبة . فقلت . من أنت ؟ – قال : أنا أرُسطاليس ! – فسررت به وقلت. أيها الحكيم! أسألك ؟ – قال سل ! قلت . ما الحسن ؟ – قال . ما حسن في العقل ! – قلت : ثم ماذا ؟ – قال . ما حسن في الشرع ! – قلت : ثم ماذا ؟ – قال : ما حسن عند الجمهور! – قلت . ثم ماذا ؟ – قال : ثم لا ثم ! » . وفي رواية أخرى: قلت. زدني ! – قال : من نصحك =

لأرسطو، وسيُقبل أعيان الحاشية ورجال الدولة أيضا على الناقلين والشارحين للكتب الأعجمية يشجعونهم ويحيطونهم برعايتهم ، فِعْلَهم مع سائر والأدباء الشعراء .

يعتبر العرب أنّ علم الهيئة هو أفضل العلوم لصلته بشؤون العبادة : كضبط سمت القِبلة ، وتعيين أوقات الصلاة ، وبدء صيام رمضان ، وغير ذلك . فبتأثير من أهل خراسان ، ومن البرامكة بالخصوص ، ستكون التراجمُ الأولى تراجمَ كتب تتعلق بالتنجيم والرياضيات . لقد كان بنو ساسان شجعوا البحوث الفلكية التي ساهم في نجاحها علماء من الهند ، لما كان لهذا البلد من تقدم كبير فيها ؛ من ذلك مثلا أن مرصدا فلكيا كان يعمل بمرو منذ زمن بعيد ؛ وبعد فتح خراسان ، تواصل الرّصد الفلكي على عين المكان ، ثم انتقل الى بغداد. ومع تولِّي الرشيدِ الخلافة – أو قبله بقليل – شُرِع في ترجمة كتُب سدْهـارْطَـا [19] الهندية التي أُلِّفت في الهيئة خلال القرن 5ً للميلاد ؛ وأوجبت هذه الترجمة نقل أصول أقليدس [20] والمجسطي لبطليموس[21]، والراجح أنّ ذلك تمّ ببادرة من الرشيد نفسه (يُروى أنه قيل له : قد يكون مَن لديك من الفلكيين غير قادرين على فهم التآليف الهندية لنقصان معارفهم في الهندسة) . وفي نفس الفترة ، كانت تُهيّأ أزياج بجداول تَحَرّك الأفلاك السيارة انطلاقا من تآليف هندية وفارسية ، أعدّ بعضَها الفضلُ بن نوبخت ، كبير القائمين على شؤون مكتبة الرشيد . وسيُصدر المأمون أمرَه – وكان هو أيضا مشغوفا بالفلكِ والتنجيم (علمِ إثبات الشرائع) – الى من حوله من العلماء ، ليؤلفوا زِيَجَة جديدة ، ويقيسوا درجة من خط

= في الذهب ، فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد ! » (لابن النديم [الفهرست ، 303]، رواه ج. ڤيرني) .

(19) * الإشارة هنا واضحة الى ترجمة ابراهيم الفزاري لكتاب سِيدّهانْطا (لا سيدهارتا) Sıddhânta للفلكي الهندي براهْماچُوپْتا Brahmagupta سنة 771 (155 هـ) بعنوان كتاب السند هند الكبير [وينسبه الفهرست (338) الى ابن ماجور،] – (اطلب موسوعة أونيڤيرساليس ، 12، 717).

(20) * أقْليِدس (306 –283 ق م) · رياضي يوناني . وضع مبادئ علم الهندسة السطحية. وعلّم على أيام بطليموس 1ً الإسكندرية . له كتاب الأصول les Eléments شرحه نصر الدين الطّوسي ، والظاهرات ، واختلاف المناظر، والمعطيات ، والقسمة ، والقانون ، والثقل والخفة، والتركيب .

(21) * بَطْلَيْمُوس (؟ – 167 م) عالم يوناني من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية . ولد بصعيد مصر وتوفي قرب الإسكندرية . وهو صاحب النظرية القائلة ان الأرض لا تتحرك وان الفلك هو الذي يدور حولها ، وقد فندها كوبرنك . من أهم آثاره المجسطي Almageste وهو أقدم كتاب وصل الينا مما وضعه الفلكيون في علم الهيئة . هـو معرب عن اليونانية ، ومعناه "الأكبر".

الطول ليضبطوا بواسطتها قيس كامل الدائرة الأرضية . لكن ، ابتداء من ذاك الوقت فصاعدا ، سيستمدّ علماءُ العربِ معارفَهم في علم الهيئة من الإغريق ، وكذا سيكون الأمر في الرياضيات .

وفي ميدان الطبّ ، سيُنْقَل الحاوي ، الموسوعة[22] الطبّية التي ألّفها أهْرُن الإسكندراني، ويشتغل جبريل ، طبيب الرشيد ، بإعداد الكُنّاش ، وهو عمل جليل ، حُرِّر بالسريانية – استنادا الى آثار جالينوس وبُقراط وبُولُس الإجيني – وسيظل زمنا طويلا مشهورا ومعتمدا لدى المتطببين . ونقل أيّوب الرّهاوي ، هو أيضا ، الى السريانية ، كتب جالينوس وسمْعان الطابثي[23] . وسيؤلف عليّ بن اسحق [بن رَبَل] الطَّبَري ، وهو ولد ناقل المجسطي[24]، كتابا جليلا آخر في الطبّ عنوانه فردوس الحكمة ؛ أما الفلاحة ، فيجدر أن يُذكر في بابها كتاب ڤنْدُنيوس أناطُوليوس ، الموسوعة الزراعية الكبيرة التي أمر الرشيد بترجمتها .

ومن بين من اشتهروا بنقل كتب العلوم ينبغي أن يُذكر أيضا حُنَين بن اسحق الذي عاصر الرشيد والذي سيخلفه ابنه يعقوب وابن أخته حُبيش ؛ فلهؤلاء جميعا ، – وكلهم من نصارى النساطرة الذين خدموا الخلفاء – الأيادي البيضاء على الثقافة العربية ، إذ قد عربوا كتبا كثيرة لكبار علماء الإغريق : كأرسطو وأقليدس وجالينوس وبطليموس وغيرهم ؛ ولنذكر أخيرا ، الى جانب هؤلاء ، بني موسى بن شاكر الثلاثة ، وقد كان أبوهم أحدَ كبار القطاع ، فدخل في خدمة الخليفة ، وصار صاحب شُرَطه[25] ، فكان كبير الثلاثة نابغة في الهيئة ، والثاني ماهرا في علم الآلات والثالث من خيرة الرياضيين ؛ وقد تركوا رسالة

---

(22) * أهْرُن الإسكندراني Pandectae medicinae d'Aaron d'Alexandrie . وكلمة pandectai يونانية الأصل ، ومعناها : « الذي يحوي كل شيء » ؛ وأطلقت غالبا على الموسوعات القانونية عند اليونان والرومان ؛ وهي التي تُرجمت بلا شك بلفظة "الحاوي" أو "الحاوي الكبير"، وتقابلها اليوم عبارة "موسوعة" أو "دائرة معارف".

(23) * سمعان الطّابثي Simon de Taibuthe ؛ (الفهرست ، 305) .

(24) * لا "علي سهل الطبراي" كما رسمه أ. كلو ؛ أما المجسطي فنقلَتْه كثيرون منهم مجهولون ، أمَرَهم بذلك خالد بن برمك فلم يتقنوه ، ومنهم أبو حسان ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، والحجاج بن مطر، وثابت بن قرة ، وابراهيم بن الصلت ، وأصلحه حنين ، وعملُ هذا الأخير أجود عمل ، وغيرهم ، (الفهرست ، 304 ، 327) .

(25) * موسى بن شاكر (. . . – نحو 815 / . . . – نحو 200 هـ) : والد المهندسين الثلاثة المعروفين ببني موسى . كان في شبابه من قطاع الطرق ، وتاب فدخل في خدمة المأمون ، وتعلم التنجيم والهيئة ثم مات وأبناؤه صغار ، فجُعلوا في بيت الحكمة ونبغوا في الحساب والهيئة والآلات ، كانوا يشرفون على حركة الترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى .

ستنقل الى اللاّتينية تحت عنوان " كتاب الأقسام الثلاثة للهندسة [26] . وإذ كانوا على درجة من الثّراء ، فقد تمكنوا من تأسيس مدرسة من الناقلين والعلماء خاصة بهم .

تُرجمت في تلك الفترة أيضا كتب أخرى كثيرة من اليونانية الى السريانية ، وهي اللغة التي سيتواصل النقل اليها ، ما دام النشاط متواصلا في مدرسة جنديسابور ، أي الى نهاية القرن 8 (2 للهجرة) . لكن ، الى جانب ذلك ، بدأت تتزايد الترجمة مباشرة من اليونانية أو السريانية الى العربية ؛ وأضحت لغة الضاد لغة جميع المثقفين في الشرق الأوسط ، بالرغم من أنّ من اليهود من لا يزال يكتب بالعبرية ، ومن الإيرانيين بالفارسية ، ومن النصارى بالسريانية . وتدريجيا ظلّ المترجمون للكتب العلمية لا يكتفون بمجرد النقل لآثار الأقدمين ، بل هم يتخطونه الى النقل مع التصرف ، بل الى المراجعة ، فالى تدقيق الحساب ، وأحيانا الى اتخاذ مواقف مضادة . بل ويذهب بهم الأمر حتى الى نقد أرسطوطاليس ؛ فقد صرح بعضهم قائلا : « والعجيب في أمرهم ، أنّ أكثرهم أفرط في الإعجاب المتناهي بأرسطو ؛ فقد جعلوا من آرائه حقائق مسلّمة ، مع علمهم أنها ليست سوى نظريات عبّر عنها على قدر استطاعته ، دون أن يدّعي الإلهام من الله أو العصمة من الخطأ » .

إذن لم يبق المترجمون مجرّد نَقَلة "مبلغين" ، بل صاروا علماء بأتم معنى الكلمة ، وبتنا نشاهد أكثر فأكثر ظهور روح علمية حقيقية . فالخوارزمي [27] ، أحد نوابغ الرياضيين العرب (المتوفّى عام 830 م) ، أدخل النظام العشري وألّف كتاب الجبر والمقابلة الذي هو أصل للجبر في أوروبا ؛ وألّف البِيروني [28]، العالم الموسوعي ، المعروف في أوروبا باسم " أَلِيبُورُون"، كتبا في الهيئة والرياضيات والفيزياء والطب ؛ وكان أيضا من نوابغ الجغرافيين

---

(26) * كتاب الثلاثة أقسام للهندسة Liber trium fratrum de geometria .

(27) * محمد بن موسى الخُوارزمي (. . . – بعد 847 / . . . – بعد 233 هـ) : رياضي فلكي مؤرخ من أهل خوارزم ، وينعت بالأستاذ . أقامه المأمون قيّما على خزانة كتبه ، وعهد اليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها ؛ فأمره باختصار المجسطي لبطليموس ، فاختصره . وله كتب أخرى عديدة ، – وكلمتا algèbre و logarithme تحريفان " لجبر"(التأليف) "ولخوارزمي" (المؤلف) –.

(28) * محمد بن أحمد البِيرُوني (973–1048/363–440 هـ) : فيلسوف رياضي مؤرخ من أهل خوارزم ، أقام في الهند بضع سنوات ، ومات في بلده . اطلع على فلسفة اليونان والهنود ؛ وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره . كانت بينه وبين ابن سينا مراسلة . صنف كتبا كثيرة جدا – سُمي في العهد الوسيط Aliboron ، وكان يُرمز بهذا الإسم الى العالم الموسوعي الذي لا يُشق له غبار ، وقد يساق أحيانا في مقام هزلي ساخر، كالذي يُعثر عليه في بعض آمثال لافونتان ، شاعر القرن 17 الفرنسي– .

كما سنرى ذلك . أما ابن سينا الطبيب الفيلسوف الذي اشتهر أيضا في ميداني الكيمياء والفيزياء (المتوفى عام 429/1037 هـ) ، فقد كان كثير التأليف ، وكتب تقريبا في كل المواضيع ، بما في ذلك الموسيقى[29]. وأما ابن الهيثم[30] ، الرياضي والفيزيائي الكبير (المتوفّى عام 1039 م /431 هـ) ، وصاحب المعارف الكونية الجامعة ، فهو صاحب تأليف فريد في البصريات بكامل العالم العربي . وأعدّ الرازي[31] ، الطبيب المعروف بأبحاثه حول الجُدَري ، موسوعة طبية ضخمة تعتمد ملاحظات سريرية كثيرة ؛ وله ، الى جانب ذلك ، عدد من التآليف في الفلسفة والفقه والعلوم الطبيعية ، إضافة الى كتاب سرّ الأسرار الذي يفتتح عهد الكيمياء العلمية . وترك لنا عمر الخيّام[32]، الذي تفوق شهرة رباعياته شهرة تآليفه العلمية ، كتابا في الجبر ذا أهمية بالغة[33] .

ويحتل الجغرافيون العرب أيضا مكانة هامة ؛ فالنماء الهائل الذي بلغه الإقتصاد

---

(29) * الحسين بن عبد الله بن سينا (980-1037/370-429) . الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات . أصله من بلخ ، ومولده في إحدى قرى بُخارى ، وبها نشأ وتعلم . طاف البلاد وناظر العلماء واتسعت شهرته ؛ تقلد الوزارة بهمذان وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته ؛ عاد في أواخر أيامه الى همذان ، فمرض في الطريق ومات بها. له كتب عديدة جدا أشهرها القانون في الطب Canonmedicina وكان المعول عليه في أوروبا مدة ستّة قرون.

(30) * محمد بن الحسن بن الهيثم (965 – نحو 1038/ 355 – نحو 430 هـ) مهندس من أهل البصرة ويُلقّب ببطليموس الثاني . من علماء العرب في الرياضيات والطبيعيات وفلسفة أرسطو . له كتب كثيرة منها المناظر، وقد ترجم الى اللاتينية وكان له أثر بليغ في معارف العربيين ، وكيفيات الظلال ، وفي المرايا المحرقة بالدوائر، وفي مساحة الجسم المكافئ وغيرها .

(31) * أبو بكر بن زكريا الرّازي (865-925/251-313 هـ) . فيلسوف ومن الأئمة في صناعة الطبّ. من أهل الري ، ولد وتعلم بها. أولع بالغناء ونظم الشعر، واشتغل بالسيمياء والكيمياء ؛ ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره ، فنبغ واشتهر. تولى تدبير مارستان الري ، ثم رياسة البيمارستان المقتدري في بغداد ، وعمي في آخر عمره ومات ببغداد . له كتب عديدة ، تُرجم جلها الى اللاتينية ، ومن أشهرها الحاوي في الطب .

(32) * عمربن ابراهيم الخيّام (... – 1121 / ... – 515 هـ) : شاعر فيلسوف فارسي مستعرب . من أهل نيسابور مولدا ووفاة . كان عالما بالرياضيات واللغة والفقه والتاريخ . له شعر عربي وتصانيف عربية كثيرة . وبلغت شهرة الخيام ذروتها بمقطوعاته الشعرية الرباعيات ، نظمها شعرا بالفارسية وتُرجمت الى العديد من لغات العالم . عُرف قدره في أيامه ، فقرّبه الملوك والرّؤساء .

(33) * ما أورده أ. كلو في الفقرات السابقة من الأسماء والعناوين ليس طبعها إلا نزرا يسيرا مما بلغنا من الإنتاج الفكري العربي لتلك الفترة ، أما ما ضاع منه وتلاشى فلا يكاد يُحصى .

العباسي ظلّ يقود بحارة العرب وتجارهم عبر البحار حتى بلاد الصّين ، فما تركه الإغريق من الأوصاف والروايات بات غير واف بالغرض ؛ ومنذ بداية القرن 9 (3 للهجرة) صارت المعاينة مفضلة على السماع ، وسرعان ما ظهر أدب جغرافي عربي ما زال الى اليوم يدهشنا ما فيه من دقة الملاحظة .

وإذا استثنينا ما ورد فيه من روايات خرافية وأقاصيص مضحكة ، كـرحلات الشرق الأقصى لسليمان التاجر[وعنوان الكتاب ، في الواقع ، سلسلة التواريخ ، في أحوال بلاد الهند والصين ، ألّفه مع أبي زيد حسن 304/916 هـ)] ، أو رحلة ابن فضلان الى بلغار الفُلْجَا [المعروفة باسم رسالة ابن فضلان والتي حررها هذا الأخير حال عودته الى بغداد إثر مهمة أوفده فيها المقتدر الى ملك الصقالبة (309/921 هـ)] ، أو عجائب الهند لبزرج بن شهريار[34] ، فكثير من الكـُتّاب وصفوا ما شاهدوا بغاية الدقة ودون إفراط في سرد الخوارق ، وغالبا ما كان هؤلاء من أصحاب البريد الذين تفرض عليهم وظائفهم السفر والتنقل ؛ ومن بينهم ابن خُرَّداذبه (المتوفـّى أواخر ق 9 / 3 هـ) الذي ترك لنا في كتابه "المسالك والممالك" وصفا أمينا لكل ما شاهده من البلدان ، بسبلها التجارية والمسافات الفاصلة بين مدنها ؛ أما اليعقوبي (المتوفّى أواخر ق 9 / 3هـ) فانه يعدد في كتاب البلدان الطرق المؤدية الى حدود المملكة اعتمادا على مشاهداته أو مشاهدات من يثق فيهم من الرواة . وأما المسعودي ، الرّحّالة الكبير (المتوفى سنة 956 / 345 هـ) والذي ترحّل عبر البحرين القزويني والمتوسط فهو يرى أنّ الجغرافية فرع من التاريخ وأنّ للبيئة تأثيرا على البشر والحيوان والنبات ؛ فتآليفه : كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر " كنز من الفوائد ، ولا تقلّ عنه قيمة حوليات الطبري (المتوفّى سنة 923 /311 هـ) التي يروي فيها الأخبار عاما فعاما مُذ خُلِق العالم (وهي المعروفة بكتاب الأمم [أو الرسل] والملوك) .

فبغداد ، لدى هؤلاء الكتّاب جميعا ، هي سُرّة الكون ، وأخبارهم وأوصافهم تنطلق من العراق وإليها تعود ؛ ثم هم يقصرون مشاهداتهم على دار الإسلام ، ولا يلتفتون الى الغرب الذي لا تعنيهم شؤونه ، فلا وجود لأي خبر عن أوروبا لدى أي رحالة عربي يرقى عهده الى القرون الأولى من العصر الوسيط ، وما قد يُخصصه لها بعضُهم من الصفحات القليلة إنما ينم عن احتقار شديد لشعوبها الوثنية المتوحشة الجاهلة القذرة . ومحيط العرب مقصور على الشرق الذي يبادلونه بضائعهم .

لكن لدى غيرِ هؤلاء من الجغرافيين – كابنِ رُستَه[35] أو البَلْخي[36] – صاحب

(34) * انظر ص 282 رقم 45 .

(35) * أحمد بن عمربن رُستَه (... – نحو 912 / ... – 300) :جغرافي عربي فارسي الأصل ، من أهل إصفهان.رحل الى بلاد العرب حاجّا (903/291هـ) وألّف الاعلاق النفيسة في تقويم البلدان.

(36) * أحمد بن سهل البَلْخِي (849-235/934-323 هـ) : أحد الكبار الأفذاذ من علماء الإسلام =

تعقيب على خرائط – وسطُ الدنيا هو جزيرة العرب ، وبصورة أدق مكّة ، مهبط الوحي ؛ وبالرغم من أنهم اجتهدوا في التوفيق بين ملاحظاتهم وما ورد في القرآن ، فقد أعدوا تآليف أكثر اتصافا بالطابع العلمي وتتجاوز محتوياتها مجرد المعاينة . وما ان حلّ القرن 10ً (4ً للهجرة) حتى كان المقدّسي[37] ، فوسّع ميدان الجغرافية وأقحم فيه دراسة الأعراق والعادات واللغات والموازين والمكاييل الخاصة بشتّى الشعوب ، غيرَ مسلِّم بما لا تثبته له مشاهداته . لكنّ القرن 11ً (5ً للهجرة) هوالذي ستبلغ فيه الجغرافية العربية الذروة مع البيروني[38] ؛ فقد رافق محمود الغزنوي[39] الى بلاد الهند ورجع من رحلته بمؤلف ضخم ، " كتاب الهند " ، وهو مجموعة كبيرة من المعلومات عن هذا البلد ؛ ثم انه أقدم على إلقاء نظرة نقدية على أشغال من تقدمه من الجغرافيين وترك لنا ملاحظات جليلة في ميداني الهيئة والجغرافية الطبيعية . بل واستطاع أيضا أن يبتدع طريقة لتحلية ماء البحر وأن يضبط الوزن النوعي للمواد .

إنّ حصيلة تلكم الأعمال ، من ترجمة للكتب ، وجمع للمنتخبات ، وشرح للتصانيف ، وتأليف في شتى المواضيع الجديدة ، تكوّنت منها مكتبات ضخمة ، ومنها مكتبة الرشيد التي كانت تستخدم عددا كبيرا من الأعوان .

أهَلْ أنّ ما تحويه من الكتب كان يتماشى مع ما جاء في التنزيل ؟ فقد كان العلماء يتساءلون ، من جنديسابورالى بغداد والبصرة : أليست الفلسفة اليونانية تتعارض مع ما يوجبه القرآن على المؤمن من تصوّر للكون والأخلاق والسياسة ؟ ففي رأي الكندي (المتوفّى سنة 260/873 هـ) ، أقدم فلاسفة الإسلام ، الملقب " بفيلسوف العرب" ، لا وجود لأي تناقض مبدئي بين تعاليم الرسول والفكر الإغريقي : وسيحذو حذوه الفارابي[40] وابن

= جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والعلوم . ولد في إحدى قُرى بَلْخ ، وساح سياحة طويلة، ثم عاد وقد علت شهرته ؛ فعُرضت عليه الوزارة فرفضها ، ثم ذُكرت له الكتابة فرضيَها؛ فكان يعيش منها الى أن مات ببلخ . تآليفه كثيرة ، منها صُوَر الأقاليم الإسلامية ، وقد استعمل فيه رسم الأرض وسبق بذلك علماء البلدان في الإسلام كافة .

(37) * محمد بن أحمد المقدسي – ويُقال له البشاري – (947 – نحو 990/336 – 380 هـ) · رحّالة جغرافي وُلِد في القدس وتعاطى التجارة ، فتجشم أسفارا هيّأت له معرفة الغوامض من أحوال البلاد ؛ ثم انقطع الى الترحّل ، فطاف أكثر بلاد الإسلام وصنّف كتابه أحسن التفاسيم في معرفة الأقاليم .

(38) * انظر أعلاه ، ص 303 ، رقم 28 .

(39) * محمود الغزنوي (حكم من 998 الى 1030/389 الى 422 هـ) أعظم ملوك الدولة الغزنوية التي انتصبت بافغانستان والبنجاب واتخذت من غزنة عاصمة لها ؛ وهو الذي اشتهر بغزواته في خراسان والعراق وشمال الهند .

(40) * أبو النصر محمد الفارابي (874-950/261-339 هـ) : أكبر فلاسفة المسلمين ، تركي =

سيناء، قاصريْن همّتهما على الجانب الإجتماعي من الشريعة . وسيكون للروح الصوفية نصيب أوفر في فكر الإمام الغزالي (الذي عاش من 450/1058 هـ الى 505/1111 هـ) الملقبُ "بحجة الإسلام" ، والذي قد يُنظّر تأثيره بتأثير طُوما الأكْوِيني[41] في اللاهوت المسيحي.

إذن فالعلماء والفلاسفة الذين ظهروا في عهد الرشيد وفي القرنين التاليين له كانوا من الكثرة بحيث سُمّي ذاك العهد "العهد الذهبي" للعلم الإسلامي ؛ وحوالي 830 (215 هـ)، أعطَى المأمونُ التحرّكَ الفكري العظيم ، الذي بدأ في عهد أبيه ، صبغة نظامية رسمية بإحداثه " لبيت الحكمة " وهو بمثابة أكاديمية مسؤولة عن النقل والبحث العلمي ؛ وظلّ الإقبال عليها كالإقبال على مكتبة الإسكندرية أيامَ ازدهارها ، وكان يُجرى راتب على من يُنتدب للعمل بها .

كان الفلكيون والرياضيون والأطبّاء والجغرافون والفلاسفة والمترجمون والأدباء يفدون من كافة أقاليم المملكة ، ويشارك جميعهم في النهضة العلمية والفكرية ، ويُفجّرون من الشرق العتيق حضارة جديدة ، هي نتيجة تمازج عميق حصل بين الثقافات الكبرى التي عرفها الحوض الشرقي من البحر المتوسط وسائرالشرق الأوسط ؛ وهذا الزاد العلمي الجديد الذي شمل ميادين شاسعة جدا من المعارف سيستوعبه الغرب المسيحي بدوره ويستقي منه المقومات الأساسية لنهضته .

الثقافة العربية في الغرب

للوصول الى العلماء الغربيين – الذين لم تكن لديهم من كتب الأقدمين غير مُنتخبات

= الأصل مستعرب ، ولد بفاراب (على نهر جيحون) وانتقل الى بغداد فنشأ فيها وألف بها أكثر كتبه ، ورحل الى مصر والشام ، واتصل بسيف الدولة وتوفي بدمشق . كان يُحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره . درس الفلسفة على علماء النصارى ، عُرف " بالمعلم الثاني " لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأوّل) . ذهب الى التوفيق بين فلسفته وفلسفة أفلاطون فنشأت عنه الفلسفة الإسلامية الأفلاطونية الجديدة . كان متضلعا من الرياضيات ومن فنّ الموسيقى ، وينسبون اليه اختراع آلة القانون . له مؤلفات عديدة .

(41) * طُوما الأكْوِيني [القدّيس] (1225–1274/623–673هـ) : راهب دومينيكاني ، أحد معلمي الكنيسة وحجة في اللاهوت والفلسفة والتعليم الكاثوليكي المدرسي (سكولاستيك) . اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد وانتقدها ؛ من كتبه العديدة : الخلاصة اللاهوتية ، والخلاصة ضد الأمم في الردّ على اليهود وغيرهم من خصوم المسيحية وأعدائها وإقناعهم بصحتها .

يرقى تاريخها الى الفترة المتأخرة من العهد الإمبراطوري – سلكت الثقافة العربية مسلكين رئيسيين .

انتقلت عبر المسلك الأوّل مؤلفات طبية بالأساس ؛ فقد كانت تصدر عن إفريقية ، وتَرِد، عَبْر صقلية ، الى سَالِيرْنُو حيث يوجد منذ زمن بعيد معهد للطبّ شهير . فقد جلَبها وترجمها طبيبٌ – ويُقال تاجر– قدم من قرطاجة فتنصّر وتسمّى قُسطنطين[42] ، فحرّكت الهممَ لدى علماء المعهد ، وأعطت لنشاطهم العلمي الدفع الذي كان ينقصه ؛ فأثّر ذلك في تحرك النشاط المعرفي بسائر المعاهد الأوروبية في العصر الوسيط .

كان لصقلية وإيطاليا الجنوبية تأثير أوسع على الأوساط المثقفة المسيحية . فقد ازدهرت ثقافة إغريقية /لاتينية /عربية بفضل ما تحلّى به ، من تسامح وإقبال على شؤون الفكر، مَنْ توالى على الحكم في صقلية من أمراءَ مسلمين[43] وملوكٍ نُورْمانديِّين[44] وحكامٍ من آل هُوهِنْشتَاوْفِن[45] وآل أَنْجُو[46] . فمن بين هؤلاء نذكر فريديريك 2ً الذي كان

(42) * قُسْطَنْطِين الأفريقي (1015–1087/406–480 هـ) . قسّ مسيحي(وقيل مسلم تنصّر) ولد بقرطاجنة تونس وقرأ بالقيروان مي زمن المعز بن باديس وآتفن العربية وتتلمذ لمشاهير الأطباء ؛ ثم سافر الى مصر على عهد الفاطميين وأكمل معارفه في العلوم الرياضية ؛ ثم تحوّل الى صقلية حيث احتضنه ملكها النورماندي وأوكل اليه رياسة رهبان دير مونتي كاسّينو فتصدّى لدراسة كتب الطب الإفريقية وترجمتها الى اللاتينية ونشرها بأوروبا (ورقات، 1، 211) .

(43) * Les émirs de l'Ifrikia المقصود هنا مَن حكم إفريقية وصقلية في تلك الفترة أي الأغالبة ثم الفاطميون والكلبيون أتباعهم – دام حكم العرب بصقلية من 831 /216 هـ الى 1091/ 484 هـ –.

(44) * les rois normands هؤلاء الملوك هم : روجير 1ً (1062 – 1101 / 454 – 495 هـ) ، روجير 2ً (1101– 1154/495– 549 هـ) ، غليوم 1ً (1154-1166/549-562 هـ) ، غليوم 2ً (1166-1189/562- 585 هـ) – دام حكم ملوك النورمان بصقلية من 1062/454 هـ الى 1189/585 هـ – .

(45) * les Hohenstaufen أسرة أباطرة ألمان آلت اليهم صقلية بالمصاهرة (في حين آلت الى النورمان بطرد العرب) ؛ ومَن حَكَم الجزيرة من هذه الأسرة هم . هنري 6ً (1194– 1197/ 591 – 594 هـ) ، فيليب 1ً دي سُواب (1198 – 1208/ 595 – 605 هـ) ، فـريديريك 2ً (1212 – 1250/609 – 648 هـ) ، مانفريد (1258 – 1266 / 656 – 665 هـ) – دام حكم هذه السلالة بصقلية من 1194/591 هـ الى 1250/648 هـ – .

(46) * les Angevins . هو فرع من البيت الحاكم في فرنسا ؛ ارتاب البابا من سطوة آل هوهنشتاوفن الألمانية ، فأوعز الى شارل دانجو سليل البيت الفرنسي (وقد رافق أخاه لويس 9ً[القديس لويس] الذي شنّ صليبيّته على تونس ومات فيها بالطاعون مع غالب جيشه أمام سواحل قرطاجة) بغزو ممتلكاتهم في إيطاليا وصقلية ، ففعل فهـزَم مانفريد وارثَ العرش =

يجلب الى بلاطه العلماء المشارقة ؛ وقد قدم عليه ميشال سكوتّ ، أحد كبار التراجمة بطليطلة ، وأقام في بطانته الى أن وافاه الأجل ؛ وانظم أيضا الى حاشيته ثِيُودُورُوس الأنطاكي ، وهو نابغة من نوابغ الثقافة العربية ، قرّبه وجعل منه كاتبه ومنجمه الخاص ؛ وأحاط برعايته لِيُونار دي پِيز (فِيبُونَاتْشِي) الذي أدخل ، على ما يُقال ، الأرقام "العربية" الى الغرب[47]؛ ومن بينهم مانْفريد وارث عرش صقلية ، وكان من الإستعراب بحيث شهّر به البابا ولقّبه "بأمير العرب" [48]؛ ومنهم شارل دانجُو نفسه ، الذي وضع حدّا لسيطرة آل هُوهِينْشْتاوفِن على الجزيرة ؛ فقد أمر بترجمة موسوعة الرازي الطبّية . وبذلك يكون قد فُتِح في أوروبا الوسيطة مركز للترجمة من العربية الى اللاّتينيّة والإيطالية فوضع بين أيدي النخبة المثقفة كتب الأقدمين (اليونان والرومان) ومؤلفات الشرق في شتى العلوم .

أما إسبانيا والبرتغال فقد لعب العلماء والتراجمة فيهما دورا أكثر شمولا وعمقا ؛ فكان ما يقدمه هؤلاء من عمل – ويستوي في ذلك النصارى واليهود والمسلمون من جميع الجنسيات – على قدر بالغ من الأهمية ؛ وسرعان ما هرع العلماء من أوروبا قاطبة نحو هذين البلدين للإطلاع ، في مراكز الإشعاع الثقافي المنتشرة فيهما ، على تآليف الأقدمين التي لم يروا منها الى ذلك العهد إلا مقتطفات . ومن أوائل الذين ذهبوا الى الأندلس لهذا الغرض الفيلسوف والرّياضي جِربِيرالذي سيُعيَّن بابا تحت اسم سِلْفِسْترُوس 2ً[49] عام

= وافتك منه صقلية ؛ فانتقل هكذا أمرها من أيدي الألمان الى أيدي الفرنسيين – ودام الحكم لهذا البيت (بواسطة شارل 1ً) في صقلية من 1266 (665 هـ) الى 1285 (684 هـ) .

(47) * لِيُونَارِدُو فِيبُونَاتْشِي المسمّى أيضا Léonard de Pise (نحو 1170 – نحو 1250/ نحو 566 – نحو 648 هـ) : رياضي مستعرب جليل ، نشأ بإفريقية حيث كان أبوه تاجرا فتعلم العربية واطلع على أعمال الخوارزمي في الجبر ؛ ثم خرج في رحلات عبر البحر المتوسط واتصل بكثير من علماء الرياضيات ، فقارن النظام العربي بالنظام الروماني المعمول به في الحساب لدى التجار النصارى في مرافئ المتوسط التي زارها ، وعاد الى پيزا وجعل يؤلف الكتب للتعريف برياضيات العرب ، أشهرها Liber abaci (599/1202 هـ) في نظام العدّ العربي/الهندي وأكبر اكتشافات العرب في الجبر والأرطماطيقا (كسور مثلثة ومكعبة ، معادلات من الدرجة الأولى والثانية) Pratica geometriae (617/1220 هـ) وفي الهندسة والمثلثات Liber quadratorum (622/1225 هـ) ضمنه حلول العرب لأصعب مشاكل العصر في الرياضيات والهندسة .

(48) * " Seigneur des Sarrasins " .

(49) * هو البابا 136ً ، تولى من 999 الى 1003 (390 –394 هـ) – هو العلامة جِرْبِير دُورِيّاك Gerbert d'Aurillac : أحد نبلاء مقاطعة أوڤيرنيا بفرنسا ، تبحر في علمي الجدل والمنطق ، واعتنى بالطب والموسيقى والخطابة ، وشرح إيساغوجي لفرفيريوس وكتب أرسطو ؛ يُنسب اليه صنع آلة أرغل بخارية وكرة أرضية تصور حركات الأفلاك وتأليف رسالة في الاسطرولاب ؛ =

999 (390 هـ) ؛ وطيلة ثلاثة قرون سيحذو حذوه عددٌ عديد من المفكرين أمثال الفيلسوف الإنكليزي دانيال دي مُرلاى [Robert de Morley] وغيرهم .

حوالي 1200(597 هـ) ، كانت كلّ المؤلفات العلمية التي كتِبت في العصر العتيق قد نُقِلت الى اللاتينية ؛ فبشَقُوبْيا تَرجم رُوبِير دِي شِسْتِر [Robert de Chester] كتاب الجبر للخوارزمي ؛ وفي أواسط القرن 12 م(6 هـ) نقل أفْلاطُون دِي تِيفُولِي [Platon de Tivoli] ببرشلونة رسالة البَتّاني في علم الهيئة ، وآثار البلاد لبَطْلَيْمُوس ، وكتاب الجبر لأبْرَاهَم بَارْ حِيّا [Abraham bar Hiyya] ؛ وترجم هِرْمانُوس الصَّقلبي [Hermannus le Slave] القرآن وعددا من كتب الفلك ؛ أمـا جِيرَار دِي كـرِيـمُـون [Gérard de Crémone] فقد ترجم المجسطي ونقل أيضا كتبا للكندي وأقليدس وأرخميدس وبَطليموس وبُقراط والرازي وابن سينا ، وجملةُ ما ترجَم سبعةٌ وثمانون مؤلفا مما يجعلنا نعتقد أن الرجل كان يشرف على مدرسة للمترجمين .

وبالمقارنة كانت التراجم الى العبرية تحتل مقاما ثانويا ؛ ومن بين علماء اليهود الذين اشتغلوا بالنقل في تلك الفترة ينبغي أن نذكر آل تِيبّون [les Tibbons] وقد امتاز بيتُهم ، طيلة أجيال ، على سائر البيوت اليهودية في وفرة النشاط العلمي ؛ وكانوا موزَّعين على مدن عديدة منها غرناطة ولُونيل ومرسيليا ومونبيليه ، وقد سجّل موزيس [Moses] تِيبّون اسمه في قرابة الثلاثين ترجمة ؛ أما ابن عمّه بِرُوفاسيوس [Prophatius] أصيل مرسيليا ، فقد ترك – بجانب ما ترجمه – تآليف شخصية منها "روزنامة"[(50)] ستُترجم الى اللاّتينيّة وتظلّ رائجة بين الفلكيين الى عصر النهضة الأوروبية .

تنافس في الأندلس ملوك النصارى وأمراء المسلمين على تشجيع هذه الإنطلاقة نحو النهوض العلمي ؛ ففي القرن 11 م(5 للهجرة) عرفت إشبيلية ومالقة وقرطبة والمرية ومايورقة ثم طليطلة ازدهارا علميا ذا بال .

وكان صغار الأمراء من النصارى ، بدورهم ، يحثون الباحثين على التحمّس للدراسات العربية والترجمة دون أن يصرف ذلك هممهم عن محاربة المسلمين لطردهم من

= تقلّب في مناصب دينية عديدة وكان له تشجيع مرموق للحركة العلمية وتأثير على سياسة عصره .

(50) * almanach : روزنامة ، والكلمة عربية الأصل (المناخ)؛ والروزنامات كتيّبات كانت رائجة في ذلك العهد لما كانت تتضمنه – بالإضافة الى بيانات عن الأيام والشهور وطلوع الشمس والقمر على مدار السنة – معارف مبسطة في الطب والهيئة والأنواء والطبخ والتنجيم ورسم الطلاسم وغيرها .

الأندلس ؛ ففي القرن 13ً (7ً هـ) كانت شخصية ألفونس الحكيم مهيمنة عليهم جميعا بعظمتها : فقد كان هو ذاته عالما جليلا ، لذا أمر بإعداد الأزياج الألفونسية[51] التي ظلت زمنا طويلا أداة الملاحين في الإهتداء الى الطريق عند ركوبهم البحر. وقد صنع في البرتغال أحدُ أبناء أحفاده ، الملك دينيس [Denis Ier, en portug. Diniz] صنيعا مماثلا – وإن كان أقل شأنا – وذلك عندما أمر بنقل كتب عربية ولاتينية وإسبانية الى البرتغالية ، وأسس جامعة أشبونة التي ستنقل فيما بعد الى قَلَمُرية .

أما عمل المثقّفين النصارى الذين جاؤوا الى المشرق مع الصليبيات ، فإنه يبدو زهيدا بالمقارنة مع ما أنجز غربا . فعدد الذين اهتموا بما كان من إنتاج علمي وأدبي لدى الشعوب التي أخضعها الفرسان المسيحيون قليل جدا ؛ فلم يستقرّ في الشرق ويبذل مجهودا في النقل أحدُ غيرُ أدِلار دي باث [Adélard de Bath] وإتيان الأنطاكي [Etienne d 'Antioche] ؛ ومن أهم ما ترجمه أدِلار، الإنكليزي الأصل ، أزياج الخوارزمي وأصول أقليدس .

الشعر في عصر الرشيد

إنّ تأثير الثقافة الإغريقية العتيقة على الأدب العربي كان طفيفا ؛ فلم يعرف العرب الشعر اليوناني ، ولم يزد هوميروس عندهم على أن يكون مجرّد اسم ، بل وكانوا يجهلون حتى أرِستُوفانُس[52] . ففي العصر العباسي لم يُترجَم أيّ شعر أعجمي ؛ وأديب كالجاحظ يَعتبِر أنّ نقل الشعر مستحيل ، فيقول : « ... والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوِّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجّب منه ، وصار كالكلام المنثور؛ والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن من المنثور المنقول من

(51) * أزياج أذفونش les Tables alphonsines . هي جداول فلكية يستدل بها على حركة السيارات خصوصا أثناء الملاحة بحرا. وقد أعدّت سنة 1252(650هـ) بأمر من ألفُنس 10ً الحكيم ("الأذفنش ، ملك قشتالة ولاوُن من 652/1254 هـ الى 682/1284 هـ) ، وكان له الفضل في التأليف بين الثقافات المسيحية والعربية واليهودية التي ستقوم عليها الحضارة الإسبانية في القرن 13ً(7ً هـ) ؛ كان عالما بالهيئة شاعرا أديبا ، وفي عهده بلغت اللغة القومية القشتالية أشدها وألّف أوّل تاريخ لإسبانيا .

(52) * أرِستُوفَانُس (445 ؟ – 386 ق م) . شاعر يوناني ؛ له روايات مسرحية هزلية أشهرها : الغيوم ، الزنابير، العصافير، الضفادع ، بها يقدح في رجال الدولة والفلاسفة والشعراء وجماهير الشعب و حتى المعبودات ؛ وتجاوز في مسرحياته كل حدّ في السخرية.

موزون الشعر... »[53]. ولئن اعتنى العرب بفلسفة الشعوب المغلوبة وعلومها ، فانهم لم يحفلوا بشعرها .

للشّعر الوجداني في العصر الجاهلي – وكان يُنشَد – السيادةُ المطلقة على سائر الفنون الأدبية ؛ فهو يَتغنّى – في لغة جزلة ومنذ عهود سحيقة – بشجاعة الأبطال ، ومحاسن الطبيعة ، وجمال الحبيبة ، وما في حياة البداوة من شظف وقساوة بين أوابد الصحراء ووحوشها . وتواصل الإنشاد في هذا الشعر التقليدي حتى العصر الأموي ؛ لكن، مع تحوّل ظروف العيش لدى العرب ، تطوّر التعبير عن العواطف والمشاعر، ولم يخلُ هذا التطوّر من تأثيرات فارسية ؛ فخلَف الشعرُ المدني الرقيق شعرًا لأرجاء الواسعة والآفاق الرحبة ؛ وباتت حياة البداوة مجرّد ذكرى لا غير ، وظهر لون جديد من الشعر: وهو عبارة عن مقطوعات مقتضبة ، جلها على أوزان قصيرة مرحة (كالرجز مثلا) تتغنى بالخمر والبساتين والصيد والولع بالقيان والغلمان .

وأشهر ممثّل لهذه المدرسة هو أبو نواس ، واسم هذا الشاعر– في الأقاصيص الشعبية – ملازم لاسم الرشيد ملازمة لا تكاد تعرف انقطاعا ؛ من ذلك مثلا أنّ كتاب ألف ليلة وليلة كثيرا ما يتعرّض لذكره : « ... وكان من عادة أمير المؤمنين أنه إذا فضّ الديوان يدخل قاعة الجلوس ثم يُحضر فيها الشعراء والندماء وأرباب الآلات ، ويجلس كل منهم في مرتبته ولا يتعدّاها ، ويرسل في طلب أبي نواس ليستمتع بفكاهاته وأشعاره...»[54]. نشأ أبو نواس وترعرع بالبصرة ، وكانت مركز نشاط ثقافي عظيم ؛ وما أن انتقل الى بغداد حتى تفتقت قريحته ، فأنشد شعرا وصف فيه الخمرة وانقطاعه الى شربها ، ومجالس لهوه ومجونه بين غلمان لا يعرفون مجاملة لهيبته ولا رحمة بنفقاته . فهو مثلا يزدري نفسه بلا مداراة حين يروي ما يلقاه من صحبه ، وقد خرج بهم الى بعض الخمارات وفعل السكر بلبه ما فعل ، كالذي رواه في قصيدته "سُكْر" التي مطلعها :

أَلاَ فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ ... وَلاَ تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الْجَهْرُ

والتي يقول فيها :

وَخَمَّارَةٍ نَبَّهْتُهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ ... وَقَدْ غَابَتِ الْجَوْزَاءُ وَارْتَفَعَ النَّسْرُ
فَقَالَتْ : مَنِ الطَّارِقُ ؟ قُلْنَا :عِصَابَةٌ ... خِفَافُ الأَدَاوَى يُبْتَغَى لَهُمْ خَمْرُ
وَلاَ بُدَّ أَنْ يَزْنُوا ، فَقَالَتْ أَوِالْفِدَا ... بِأَبْلَجَ كَالدِّينَارِ فِي طَرْفِهِ فَتْرُ

[من الطويل][55]

(53) ذكره شارل پيلاّ Charles Pellat .
(54) الليلة 382 .
(55) * أبو نواس ، 201 – 202 .

وكالكثير من شعراء الشرق ، يذكر أبو نواس رفاقا وندمانا قصَف معهم ومَجن ، ويبكي الزمن الراحل الذي لا يعود ، ويُمعن أحيانا في التشاؤم ، كالذي عبّر عنه في قوله:

أرَى كُلّ حَيٍّ هَالِكًا وابْنَ هَالِك ، وَذَا نَسَبٍ فِي الْهَالكِينَ عَرِيــقِ
فَقُلْ لقَرِيبِ الدَّارِ : إنَّكَ ظَاعِــنٌ الَى مَنْزِلٍ نَائِي الْمَحَلِّ سَحِيــقِ
إذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَـهُ عَنْ عَـدُوٍّ فِـي ثِيَابِ صَدِيـقِ
[من الطويل][56]

على أنّ أبا نواس –" كبيرَ الذّنوب " ـ لا ينقطع له رجاء في عفو الله وصفحه ، فيصرخ، في أبيات له ، قائلا :

يَا رَبِّ ! إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِيَ كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أعْظَـمُ
[من الكامل][57]

فهو معتبَر ، في عصر كان من المألوف أن تُعبِّر أوساطه المثقّفة عن خواطرها شعرا ، أحدَ فحول الشعراء ورؤوس الأدب العربي ؛ وترك لنا المسعودي عنه وصفا بليغا ، بمناسبة الحديث عن مسامرة في وصف الخمر: « ... وقد أتى أبو نواس في وصفها ووصف طعمها وريحها وحسنها ولونها وشعاعها ، وفعلها في النفس ، وصفة آلاتها وظروفها وأدنانها ، وحال المنادمات عليها ، والإصطباح والإغتباق ، وغير ذلك من أحوالها، بما يكاد يُغلَق به باب وصفها ، لولا اتساع الأوصاف لها ، واحتمالها إياها، وأنها لا تكاد تحصر، ولا يبلغ الى غاياتها ... »[58] .

ويقال إن سبب وفاة أبي نواس ، هو ما تعرض له من تنكيل وسوء معاملة على يد آل نوبخت (ذاك البيت الذي أنجب عددا من العلماء ، ومن بينهم محافظ مكتبة الرشيد) لتعريضه بهم في بعض أشعاره ، وقد يكون تُوفّي في السجن حيث أودع من أجل ما جاء في أشعاره من انتهاك للحرمات والمقدسات ؛ أو قضى نحبه – وهذه رواية أخرى – في بعض الخمارات ، وقد يكون هذا أكثر تماشيا مع ملامح شخصيته .

ولئن استطاع النّواسي – نديم الرشيد وسميره – أن يحجب قليلا بنبوغه سائر الشعراء ، فإنه لم يقدر على أن يجعلهم نسيا منسيا . فهؤلاء جميعا – بأسلوبهم وإلهامهم – ـم من " المحدَثين " الذين عاشوا في الحواضر، مقبلين على اللهو والمجون وشرب الخمر ؛ فمنهم الشاعر المكدّي الشهير، دِعْبِل[59] ،الشبيه بذكائه الحاد ونقده اللاذع بفرنسوا

---

(56) * أبو نواس ، 394 .
(57) * أبو نواس ، 501 .
(58) * مروج ، 4 ، 379 .
(59) * دِعْبِل بن علي الخزاعي (765 – 860 / 148 – 246 هـ) · شاعر هجّاء ، صديق للبحتري ، =

ڤييّـون[60] أقدم شاعر وجداني فرنسي ؛ ومنهم أيضا الشاعرالخمري الخليع ، ديك الجنّ[61]، وهو القائل من مقطوعة :

وَقُمْ أَنْتَ فَاحْثُثْ كَأْسَهَا غَيْرَ صَاغِرٍ وَلاَ تَسْقِ إلاّ خَمْرَهَا وَعُقَارَهَا

. . . .

ظِلْنَا بِأَيْدِينَا نُتَعْتِعُ رُوحَهَا وَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ ثَارَهَا

[من الطويل][62]

ولنذكر كذلك مسلم بن الوليد[63]، ذاك النابغة الأفّاق (البوهيمي) الذي عُرف برشاقة أسلوبه وطرافة غزله ؛ وهوالقائل من قصيدة مشهورة :

مَا لَذَّةُ الدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ فِيهَا فَتَى كَأْسٍ صَرِيعَ حَبَائِبِ ؟

[من الكامل][64]

ومن المقربين أيضا الى الرشيد – والى أبيه المهدي من قبله – الشاعر أبو العتاهية الذي تاب بعد حياة خليعة ماجنة ، فتزهّد وانقطع الى الإنشاد في الشعر الفلسفي ، وله فيه قصائد ومقطوعات وأقوال كثيرة ، منها قوله :

إنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

. . . .

يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ يَرْتَهِنُ الرَّأْيَ الأَصِيلَ شَكُّهُ

[من الرجز][65]

= أصله من الكوفة وأقام ببغداد . كان بذيء اللسان ، مولعا بالحط من أقدارالناس . هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق فمن دونهم . وطال عمره ، فكان يقول : لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فلم أجد من يفعل ذلك .

(60) * فرنسوا ڤيُّون François Villon (1431 – 834/1463 – 867 هـ) . أقدم من عرفهم الأدب الوجداني الفرنسي من الشعراء المُلهمين . كان ماجنا خليعا . عرّض نفسه مرات للمشنقة باستهتاره في مغامراته .

(61) * عبد السلام بن رغبان الكلبي ، المعروف بديك الجنّ (778 – 162/850 – 236 هـ) : شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي المجّان . ولد وتوفي بحمص ولم يفارق بلاد الشام ولا انتجع بشعره . سُمّي بديك الجن لأنّ عينيه كانتا خضراوين .

(62) * ديك الجنّ ، 107 – 108 .

(63) * مسلم بن الوليد الأنصاري (747 ؟ – 823 /130 ؟ – 208 هـ) : شاعر من العهد العباسي الأول لُقّب بصريع الغواني . ولد في الكوفة وتوفي في جرجان . تثقف في ما بين النهرين وتقرب بشعره الى عظماء عصره أخصهم الفضل بن سهل وزير المأمون . جدد شعره بالبديع مع المحافظة على نسق الشعر القديم معنى ومبنى .

(64) * صريع الغواني ، 188 .

أو قوله :

أيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو الْعَسَاكِرِوَالْمَنَا بِرِوَالدَّسَاكِرِوَالْقُصُورِالْمُشْرِفَاتْ ؟
وَالْمُلْهِيَاتُ فَمَنْ لَهَا؟ وَالْغَادِيَاتُ الرَّائِحَاتُ مِنَ الْجِيَادِ الصَّافِنَاتْ ؟
هَلْ فِيكُمُ مِنْ مُخْبِرٍحَيْثُ اسْتَقَرَّ قَرَارُ أَرْوَاحِ الْعِظَامِ الْبَالِيَاتْ ؟
فَلَقَلَّ مَا لَبِثَ الْعَوَائِدُ بَعْدَكُمْ وَلَقَلَّ مَا ذَرَفَتْ عُيُونُ الْبَاكِيَاتْ

[من الكامل](66)

على أنه كان يعرف كيف يستعطف أمير المؤمنين ويستعطيه ، كالذي قاله من قصيدة له يترضّى بها الهادي ويمدحه :

وَإِلَى أَمِينِ اللَّهِ مَهْرَبُنَا مِنَ الدَّهْرِ الْعَثُورِ
وَإِلَيْهِ أَتْعَبْنَا الْمَطَايَا بِالرَّوَاحِ وَبِالْبُكُورِ
صُعْرَ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا جُنِّحْنَ أَجْنِحَةَ النُّسُورِ
مُتَسَرْبِلاَتٍ بِالظَّلاَمِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُعُورِ
حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ فِي سِنِّ مُكْتَهِلٍ كَبِيرِ

[من مجزوء الكامل](67)

الى نفس الطبقة ينتمي أيضا بشّار بن برد(68)، وهو من المقرّبين الى المهدي ؛ كان هذا الشاعر الكبير من أصل فارسي ، وكان ينشد شعره في لغة العرب ، إلا أنه كان لا يُخفي ميوله لمزدكية أجداده ؛ فجرّ له تهجمُه على العرب حقد العديد من معاصريه ؛ على أنّ نبوغه في الشعر وما يلقاه من حماية كان يجعله في مأمن من ردود الفعل . ولما تخلّى عنه المهدي سنة 783 (167 هـ) ، قُتل وألقي بجثته في دجلة . كان قوي الشاعرية حادّ الحسيّة، وتغنيه بالملذات الجسدية – وإن غالى فيه الى حد الفحش أحيانا – جعله يعبّر عنها في صيغ شيّقة . وقد اشتهر في عديد الفنون الشعرية أخصها الغزل ، فهو القائل في عبدة :

---

(65) * من أرجوزة هي من بدائع أبي العتاهية تُعرف بذات الأمثال ، ويقال إن فيها أربعة آلاف مَثَل . قطوف الأغاني ، أبو العتاهية ، 57 .

(66) * أبو العتاهية ، 37 .

(67) * قطوف الأغاني ، أبو العتاهية ، 101 – 102 .

(68) * بشار بن برد (696 ؟ – 783 / 77 ؟ – 167 هـ) : شاعر عربي من أصل فارسي ، أدرك الأمويين ثم اتصل بالعباسيين ، لاسيما بالمهدي الذي سخط عليه إذ رآه مرة بالبصرة سكران يؤذن ، فرماه بالزندقة وضُرب سبعين سوطا حتى مات . كان أعمى ، غليظ المنظر ، متبرما بالناس ، يسخر بهم ويهجوهم .

عَبْدَ ، إِنِّي إِلَيْكِ بَالأَشْوَاقِ لِتَلاَقٍ ، وَكَيْفَ لِي بِالتَّلاَقِي
أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَعَيْنَيْكِ وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ

[من الوافر][69]

ومما قاله في مرارة الخيبة وألم الفراق :

أَبْكِي الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي فِي الْهَوَى رَقَدُوا
وَاسْتَنْهَضُونِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِبًا بِثِقْلِ مَا حَمَّلُونِي وُدَّهُمْ قَعَدُوا
لأَخْرُجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَحُبُّهُمُ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدُ
أَلْقَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُزْنِ مَعْرِفَةً لاَ تَنْقَضِي أَبَدًا أَوْ يَنْقَضِي الأَبَدُ

[من البسيط][70]

وقد تطول قائمة أولائك الشعراء الذين عاشوا في القرنين 8م و9م (2م و3م هـ) ومزجوا في أشعارهم الغزل بالتصوّف ، وتمجيد الخمرة بذكر الله ، وخلطوا محبة الجواري مع الولع بالغلمان ، وشكوى الزمان مع التهيب من هول الموت وعذاب الآخرة . ولنذكر أخيرا العباس بن الأحنف الذي كان أقرب الشعراء الى الرشيد ؛ فهو أيضا فارسي الأصل ، تغنّى بضرب من غزل القصور الرقيق اللطيف الذي سيكون له عظيم التأثير بالأندلس ؛ فمما أنشده في حبيبته فَوْزَ :

بَخِلَتْ عَلَيَّ أَمِيرَتِي بِكِتَابِهَا وَتَبَذَّلَتْ بِصُدُودِهَا وَحِجَابِهَا
فَالنَّفْسُ فِي كُرَبِ الْهَوَى مَغْمُورَةٌ وَالْعَيْنُ مَا تَنْفَكُّ مِنْ تَسْكَابِهَا

. . . .

خَرَجَتْ سُعَادُ تَقُولُ لِي بِشَمَاتَةٍ زَجَرَتْكَ فَوْزُ أَنْ تَمُرَّ بِبَابِهَا
مَاذَا يَرُدُّ عَلَى سُعَادَ مُتَيَّمٌ قَدْ ضَاقَ عِيًّا نُطْقُهُ بِجَوَابِهَا
الوَيْلُ لِي إِنْ قُمْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا وَالْوَيْلُ لِي إِنْ لَمْ أَقُمْ بِطِلاَبِهَا
يَا سُعْدُ هَاتِي لِي بِعَيْشِكِ قَبْضَةً مِنْ بَيْتِهَا لأَشُمَّ رِيحَ تُرَابِهَا
فَأَكُونَ قَدْ أَسْقَيْتُ مِنْهَا رِيقَهَا وَأُنِلْتُ حُسْنَ بَنَانِهَا وَخِضَابِهَا
يَا لَيْتَنِي مِسْوَاكُهَا فِي كَفِّهَا أَبَدًا أَشُمُّ الْعُبْرَ مِنْ أَنْيَابِهَا
أَوْ لَيْتَنِي مِرْطٌ عَلَيْهَا بَاطِنٌ أَلْتَذُّ نِعْمَةَ جِلْدِهَا وَثِيَابِهَا
فَأَكُونَ لاَ أَنْحَلُّ عَنْهَا سَاعَةً دُونَ الثِّيَابِ مُجَاوِرًا لِحِقَابِهَا

[من الكامل][71]

(69) * بشار ، 4 ، 137 .
(70) * بشار ، 4 ، 44 .
(71) * ابن الأحنف ، 72 – 73 .

فهذا الشعر المحدَث ، الذي ازدهر ازدهارا كبيرا في عهد الرشيد وأبنائه ، ترك آثارا بينة في الأدب العربي ؛ لكنه سرعان ما نضب معينه ، فجف واختفى في القرن الموالي ، وسيُبْعث الشعر القديم للوجود من جديد ، لأنه أكثر صدقا وأقرب في تعبيره الى العواطف البشرية الحقيقية .

نشـــأة النثر

في ميدان الأدب ، بقي التأثير اليوناني محدودا جدا ؛ لكن المآل كان مغايرا تماما بالنسبة للموروث الأدبي الفارسي . فقد ساهم عدد كبير من المثقفين وكتاب الدواوين الذين كانوا من أصل إيراني في ترجمة الكتب الى لغتهم ؛ وأحسن مثال معروف على ذاك الضرب من النشاط هي ترجمة كليلة ودمنة الى الفارسية ثم الى العربية على يد عبد الله بن المقفع[72] : فهذا الكتاب الذي ألفه بَيْدَبا – أحد براهمة القرن 4 ً للميلاد – يروي قصة أخوين من بنات آوى كانا يعيشان في بلاط الأسد ، وقد عرف رواجا عظيما وانتُحِل عدد كبير من قصصه في مختلف أنحاء العالم . وقد ترجم ابن المقفع أيضا تاريخا ضخما لإيران سيظل لمدة طويلة مصدرا أساسيا يعتمده الباحثون عن أخبار الفُرس ؛ وعُرِّبت مؤلفات أخرى من التراث الإيراني – في التاريخ والسحر والأخلاق وغيرها – واندمجت في الثقافة العربية الإسلامية فأثْرَتْها إثراء كبيرا .

واقترن ذلك في الأوساط المؤيدة للعنصر الإيراني بظهور حركة مضادة للثقافة العربية عُرفت بحركة الشعوبية وقد تصحّ ترجمتها بحركة الأعاجم (أو الزنادقة)[73] . ففي جانب كان الموالي المعتزون بأصلهم الإيراني والمعتدّون بتفوقهم الفكري وانفرادهم بالمناصب العليا في الدولة وانتسابهم الى الطبقة المتحضرة والمتأنقة في طرق عيشها ، وفي الجانب المقابل المحافظون على التقاليد العربية والمتشبثون منها بوفائهم لما حقق لهم المجدَ ، وهذه الخصومة بين القدماء والمحدثين – ولم تكن خالية من مقاصد اجتماعية ، بل وحتى من مرام عرقية – تجلّت في جميع الميادين ، خصوصا في عهد هارون الرشيد .

---

(72) * عبد الله بن المقفع نقل الكتاب من الفارسية الى العربية ، أما الذي نقله من الهندية الى الفهلوية (الفارسية القديمة) فهو برزويه . جاء في الباب الوارد ثالثا بعد مقدمة الكتاب والذي عنوانه :"برزويه ، ترجمة بزرجمهر بن البختكان" ما يلي « قال برزويه رأس أطباء فارس ، وهو الذي تولّى انتساخ هذا الكتاب وترجمه من كتب الهند ...» [كليلة ودمنة ، 145] .

(73) " le " Mouvement des Gentils ، حسب كلود كاهين Claude Cahen ؛ [وكلمة gentil أطلقها العبريون على الأجانب ، وأطلقها المسيحيون بعدهم عل الوثنيين والمشركين الذين يخفون كفرهم ، وقد يقابلها لفظ زنديق في العصر العباسي].

في بداية القرن 9ً(3ً للهجرة) ، حينما كان الشعر العربي يتّخذ اتجاها جديدا، أعطى الجاحظ للنهضة بالنثر العربي دفعا عظيما. لقد وُلد بالبصرة ، وانتقل الى بغداد حيث عاش الى أن تجاوز التسعين ، ثم عاد الى مسقط رأسه وبه تُوفي . فآثار هذا الأديب الفارسي الأصل ، المنتسب الى العرب بالولاء ، لا تضاهيها آثار في عصره ، وربما حتى في غيره من سائر العصور ؛ وهي تتمثل في ما يقارب المائتي كتاب من شتى الميادين : علوم ، تاريخ ، أنساب ، فقه ، نحو ؛ فمنها كتاب البخلاء الذي يصف فيه مجتمع عصره مُنوّها بكرم العرب ومُشهرا بشحّ الفرس ؛ وكتاب الحيوان وهو في العلوم الطبيعية ؛ وكتاب البيان [والتبيين] وهو في البلاغة ؛ ومنها رسائل عديدة ألفها في الترك والنصارى واليهود، الخ . فهذا العالم الموسوعي جمع لنا في تآليفه كل معارف عصره ؛ فهو الدارس والباحث والكاتب والأخلاقي والمناضل برسائله ، لذا شُبّه بلُوسيان[(74)] تارة وبمُولِيَار[(75)] أوڤُولْتِير[(76)] طورًا . وقد شهد له ابن قتيبة ، أحد معاصريه ، بقوله . الجاحظ أحسن المتكلمين « للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتحقير العظيم حتى يصغر؛ ويبلغ به الإقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ... » . وقال عنه كبير أخصّائيي الجاحظ شارل پيلا . « إنّ قدرتة على معاينة شؤون معاصريه ووصفها الوصف الدقيق تجعل منه أديبا الى لابْرُوِيار[(77)] ومولِيَار أقرب منه الى سائر الكتاب العرب » .

فإنتاج الجاحظ ، بخصوبته واتجاهه التجديدي ، كان له قصب السبق في الأدب ، العربي ، وتأثيره على الثقافة الجديدة كان على قدر غزارته ، فهو راسم معالم فن الأدب وهو الذي رفع الثقافة العربية الإسلامية الى درجة الكمال .

---

(74) * لُوسْيَان السُّمَيساطي Lucien de Samosate : من أدباء اليونان ، عاش في القرن 1ً بعد الميلاد . اشتهر بأدبه الحواري وبرواياته الهجائية .

(75) * مُولِيَار (1622–1673/ 1031–1084 هـ) · أعظم كاتب وشاعر وممثل مسرحي عرفه الأدب الفرنسي ؛ اختص في التمثيليات الهزلية التي اتخذ منها وسيلة لتهذيب الأخلاق بفضيحة المساوئ في من تمثلت فيهم كالبخل والإحتيال والنفاق الديني ، الخ . تمثيلياته عديدة ذات شهرة كونية ، وجلها مترجم الى مختلف لغات العالم .

(76) * ڤولْتِير (1694–1778/1105–1192 هـ) : من نوابغ "فلاسفة" القرن 18ً (12ً للهجرة) "قرن الأنوار" الفرنسي . ولد بباريس وأقام بأنكلترا وپروسيا وفرنسا وسويسرا . تزعم حركة الفلسفة التحررية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع ، وجادت قريحته في شتى ألوان الأدب والشعر والتاريخ .

(77) * لابْرُوِيَار (1645–1694/1055–1105 هـ):من مشاهير الأدباء الكلاسيكيين الفرنسيين وصف في كتابه "أخلاق طِيُوفراست" طباع معاصريه وانتقدها في لغة أنيقة .

وكلمة "أدب" – وكانت تعني العادة أو ما يليق بالشخص أو بالشيء – تطور معناها في القرون الإسلامية الأولى، فدلت تارة على الخلق الحسن وطورا على الظرف والتأنّق في السلوك ؛ وباتت تعني ، على ما رواه ف . چابريالّي : « التفنن التدريجي في تهذيب الأخلاق وآداب السلوك البدوية من خلال الإسلام » . وزاد المعنى تحولا فبات له مدلول فكري يشير الى « مجموعة المعارف التي تجعل من الرجل انسانا مهذبا لطيفا » ، أي ما يساوي عند الأوروبيين مفهوم "الرجل المهذّب" [78] .

في أوائل العصر الإسلامي ، كان يُعتبر مثقّفا من كان له إلمامٌ بتعاليم الدين الجديد وشيءٌ من التضلع في دقائق لغة العرب ؛ فكان رجل المدينة يخرج الى البادية ليأخذ عن الأعراب ما يصحح أو يتمم به معارفه في اللغة . وبقدر ما كانت تكتمل نظرية الشريعة ، انضاف الى ذلك المفهوم ، شيئا فشيئا ، عنصر العلوم الدينية ، ثم عنصر الثقافات التي اكتشفها العرب في البلدان المفتوحة . وأول " أديب " عُرف من هذا القبيل – لكن بالمفهوم الواسع – هو عبد الله بن المقفع ، الذي نقل كليلة ودمنة الى العربية ، وجمع بين الثقافتين العربية والفارسية .

فمن باب المفارقات أن يصبح ما شوهد إذّاك في العالم الإسلامي من تراكم هائل للمعارف ، خطرا محدقا بكيان الثقافة العربية ؛ وفعلا فقد بات من المتوقّع أن يهدد بإحداث فاصل معرفي قادر على ترجيح الكفة – بتأثير من طبقة الكتاب من الموالي – لفائدة العلوم الفارسية والهندية ، وبالتالي على تحقيق الفوز للشعوبية . والى الجاحظ يعود الفضل في إقرار نظرية حقيقية تحدد مفهوم الثقافة العامة التي يراها ذاك العصر والتي تقتضي التمكن من الشعر والتاريخ والبلاغة والجغرافية والعلوم الدينية ، وقد ألحّ بالخصوص على ضرورة إعمال العقل والتعبير، عند الكتابة ، في لغة جليّة ، لا تكلفَ فيها .

فنظرية "الأدب" هذه – المتلخصة في الجمع بين الثقافة العامة وحرية التفكير– ستتغير بعد أيام المأمون ، وستصبح مجرد براعة لفظية وصفائية أسلوبية عقيمة ، وسيقتصر الأدب على إعداد مؤلفات للناشئين من الكتّاب أو على إنتاج كتب للتّرفيه ، القصد منها وصف المجتمع في أسلوب يغلب عليه التأنق في اللفظ والتركيب : وتلك هي المقامات ، وسيبرز فيها الهمذاني[79] والحريري[80].

---

(78) * الرجل المهذب l'honnête homme : اصطلاح له مدلول حضاري خاص بالقرنين 17 و 18 (12 و 13 للهجرة) ، ويشار به في الأوساط الحضرية من أوروبا الغربية – وخاصة فرنسا – الى الرجل الذي يكتسب من المعارف الصالحة والأخلاق الرفيعة ما يجعله طيب المعاشرة

(79) * بديع الزمان الهمذاني (968-1007/358-398 هـ) : شاعر وأديب . ولد بهمذان وانتقل الى =

وممن كان لهم أيضا تأثير كبيرعلى الأدب العباسي كاتب آخر ألا وهو ابن قتيبة[81]؛ ومن بين ما تركه لنا من التآليف كتاب الشعر والشعراء وعيون الأخبار ، وهو من أقدم ما وصلنا من كتب التاريخ في لغة العرب . وقد قاوم بمؤلفاته – وهي دون مؤلفات الجاحظ قيمة – تيار الشعوبية مقاومة عنيفة ، مستخدما كل مهاراته الجدلية في النضال على العروبة ضد الموالي ، أنصار العلوم الأعجمية .

بإمكاننا أن نذكرالعديد من التآليف الأخرى الصادرة في نفس العصر ؛ فقائماتها معروفة وهي معروضة في الفهرست للورّاق ابن النديم[82]، بها الكتب المترجمة والكتب المؤلفة بالعربية رأسا ، الأدبي منها والعلمي .

=هراة ومنها الى نيسابور ثم عاد الى هراة واستقر بها . اشتهر بالمقامات – وراويتها عيسى بن هشام وبطلها أبو الفتح الإسكندري – ' وله أيضا رسائل .

(80) * القاسم بن علي الحريري (1054–1122/446–516 هـ) : نحوي وأديب مقلد . ولد بالعراق ونشأ بالبصرة مترددا على مجالسها الأدبية . ولي بها منصب صاحب الخبر في ديوان الخليفة . أشهر مؤلفاته المقامات ، حاكى فيها مقامات بديع الزمان – وراوينها الحارث بن همّام وبطلها أبو زيد السروجي– ؛ وهي دون مقامات البديع قيمة أدبية .

(81) * ابن قتيبة الدّينوري (828–889/213–276 هـ) : أحد كبار أدباء العصر العباسي . ولد في الكوفة وعاش في بغداد . ولي القضاء في دِينَوْر(اقليم الجبال) . من مؤلفاته أدب الكاتب وعيون الأخبار وكتاب الشعر والشعراء .

(82) * ابن النديم الورّاق (936 ؟ – 995 /325 ؟ – 385 هـ) : ولد ببغداد وعاش بها . كان من المعتزلة. تعاطى مهنة الوراقة وألّف الفهرست وهو فهرس العلوم القديمة وتصانيف اليونان والفرس والهند الموجود منها بلغة العرب .

الفصل العاشر

من الرّشيد إلى القانوني

" لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ ".
(قرآن كريم ، 42 ، 49)[1]

(1) * سورة الشورى ، مكّية .

إن الآثارالتي تركتها الفتنة ببغداد سرعان ما امّحت ؛ فأعيد بناء المدينة شيئا فشيئا ، ونُسيت المواجهة الطويلة التي جرت بين ابني الرشيد . وتوفّي المأمون سنة 833 (218 هـ) وخلفه أخوه المعتصم ؛ ودُبِّرت ضدّه مؤامرتان كشفتا له أنه يتعذر عليه مستقبلا التعويل على"الأبناء" وأن أمنه يُحتّم عليه انتداب رجال لحرسه يكونون على تمام الوفاء لشخصه . وبما أن مقرّ "الأبناء" كان ببغداد ، قرّر سنة 836 (222 هـ) بناء مدينة جديدة له ولجنده ، وهي مدينة سامرّاء[2]التي شُيِّدت على الضفة الشرقية من نهردجلة ، على قُرابة المائة كيلومتر شمالي العاصمة . فهرع اليها المتطوعون والمرتزقة وافدين من الشرق ، وجلهم من الأتراك ؛ وهذا الجند الجديد سيفتح الباب على مصراعيه في وجه سلطة جديدة.

فلم يَغِب طويلا عن الجند أنهم القوة الوحيدة التي يعتمد عليها الخليفة ، والتي بدونها لا يمثّل أمير المؤمنين شيئا يُذكر ؛ ولم يكن يفصل بين هذا الإقتناع وبين الإستيلاء على الحكم إلاّ خطوة سهلة الإجتياز ، وفي 861 (247 هـ) اغتال قادة الجيش الخليفة المتوكل الذي خلف المعتصم ، على الأرجح بإيعاز من ابنه الأكبر الذي بويع حالا بالخلافة بعده ؛ وهكذا يصبح قادة الحرس – حرس الخليفة – أسياد الدولة .

وفي المستقبل ، الى هؤلاء القادة ، والى قادة الجيش عموما ، سيؤول أمر اختيار الخلفاء ؛ وسيختارونهم دائما من رجال البيت العباسي ، لكن على أساس مطاوعتهم في تلبية رغبات هؤلاء القادة لا على اعتبار مؤهّلاتهم للحكم . قد ترتقي العرش شخصيات قوية – كشخصية الموفّق أخي المعتمد (نهاية ق 9 م / ق 3 هـ) – لكن ، رغم ما سيبذله الخلفاء من جهود ، لن يستعيدوا مقاليد الحكم في المملكة ؛ بل سيكون على رأسها حوالي 865 (251 هـ) خليفتان ، المعتز[3] في سامرّاء والمستعين[4] في بغداد ، وسيُقتل كلاهما غيلة ؛ وستُهجر سامرّاء عام 892 (279 هـ) ، لكن لن يغيّر ذلك في مجرى الأحداث شيئا.

---

(2) أنظر الملحق الثاني .

(3) * المعتز بن المتوكل : هو الثالث عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته ثلاث سنوات و 7 أشهر (866-868/252-254 هـ) . مات وعمره 24 سنة .

(4) * المستعين بن المعتصم : هو الثاني عشر من خلفاء بني العباس . كانت ولايته ثلاث سنوات و 9 أشهر (862-866/248-252 هـ) . مات وعمره 31 سنة .

فالجيش لا تنفك هيمنته تتزايد على دواليب الحكم في الدولة ، ولا يتوانى في إخماد نيران الثورات في جهات عديدة من البلاد ؛ منها ثورة الزنج[5] الذين شكّلوا حكومة واحتلوا البصرة حينا من الزمن ، وظلت المذابح التي أحدثتها فتنتهم تروّع بلاد العراق من 869 (256 هـ) الى 883 (270 هـ) . ومنها ثورة القرامطة التي اندلعت بعد ثورة الزنج بقليل - وفي نفس المناطق تقريبا - والتي آلت الى تأسيس دولة قرمطية[6] صغيرة في البحرين على أسس ديمقراطية مساواتية .

ومن الأسباب الأخرى ، التي أعطت الجيش كل ما اكتسبه من ثقل في الحياة العامة ، هي كلفة الإنفاق عليه ، وكانت الأموال المخصصة لذلك تمثل تقريبا نصف الميزانية الجملية للدولة ؛ ولمواجهة هذه النفقات ، لم يكن للدولة إلا وسيلتان : إما منح قادة الجيش ، في مختلف الأقاليم ، ضربا من الاستقلال المالي يتيح لهم صرف رواتب الجند وأرزاقهم من أموال الجباية المستخلصة على عين المكان ، وتوجيه المتبقي منها الى بغداد ؛ وإما منح القواد - بعنوان شخصي - حقّ التمتع بدخل بعض الأراضي . وهذا النظام الأخير- وهو نظام الإقطاع - معمول به حتى ذاك الحين ، إلا أنه كان مقصورا على أهل البيت الحاكم وبعض المقرَّبين الذين قدّموا خدمات جليلة ؛ وتعميمه على عدد من القواد العسكريين سيساعد على إضعاف النفوذ المركزي ؛ ومن كان يتعاطى الإقطاع من ولاة الأقاليم سرعان ما أحرزوا استقلالا فعليا ؛ وإذ باتت بغداد عاجزة عن مراقبة تلك الأقاليم مراقبة مالية ، أفلتت هذه الأخيرة أكثر فأكثر عن سلطتها . ففي مصر أضحى أحمد بن طولون[7]- وقد أعاد تنظيم الجيش والإدارة واستولى على بلاد الشام - يتصرف تصرف العاهل الحقيقي ، وسيرتقي ابنه عرش المملكة من بعده ؛ وسيعيد له الخليفة نفوذه لمدة قصيرة ، لكن ستفتكّه منه أسرة فارسية الأصل - وهم آل إخشيد[8] - وتحتفظ به مدة تفوق الخمسين عاما ، وتدوم في الحكم حتى مجيء الفاطميين[9] .

---

(5) جمعت هذه الحركة أقواما من أعراق وملل مختلفة : زنوج ، عرب ، فرس ، يهود ، نصارى . وحسب المرجع من الروايات ، فإنّ سبب الفتنة هي الظروف القاسية التي كانت مسلطة في العمل على الزنوج العاملين في مزارع قصب السكر بالعراق ' لكنّ شابان Shaban (في كتابه : التاريخ الإسلامي ، ج 2 ؛ Islamic History , t. II) يرى أن هذه الإنتفاضة - التي يؤيّدها ويموّلها التجّار- كانت الغاية منها السيطرة على مسالك التجارة المؤدّية الى إفريقية والمغرب .

(6) القرمطية - وهي تستمد تسميتها من اسم مؤسسها حمدان قرمط - كانت نوعا من الإسماعيلية السبعية ؛ وهذه الحركة ذات الطابع الإجتماعي كانت لها صبغة مسيحيانية شديدة .

(7) * أحمد بن طولون (835-884 / 221-271 هـ) : مؤسس الدولة الطولونية . أول ولاة مصر والشام الذين لم يكونوا تابعين للخلافة إلا بالاسم .

(8) * بنو إخشيد ' أسرة من أصل فارسي تولّت الحكم بمصر والشـام من 935 (324 هـ) الى =

هكذا انحلت المملكة ؛ ففي أذربَيجان ، وشِيرُوان ، وكردستان ، والديلم ، وشمال الشام (حيث الحمدانيون) ، حلّ محلّ الولاة ملوك وأمراء محليون ، وأخذ مكان الجيش النظامي العباسي مرتزقة ٌتركية الأعراق ، نزحت من الشرق . وفي مقاطعة خراسان ، التي تنازل عنها المأمون لفائدة طاهر بن الحسين ، الرجل الذي مكّنه من دخول بغداد ، أصبح الحكم وراثيا[10]؛ وستسقط نفس المقاطعة بعد ذلك بأيدي الصفّاريّين[11]، ثم بأيدي السامانيّين[12]؛ وسيغزوها بدورهم الغزنويّون[13]الذين سيُشيّدون ، انطلاقا من أفغانستان، مملكة عظيمة تترامى أطرافها حتى بلاد البِنْجاب ؛ وفي كل مكان ، أضحت سلطة الخليفة مفلولة يتنازعها المغامرون . لكن لا أحد من بين هؤلاء الملوك وأولائك الأمراء يستطيع أن يتولّى الحكم دون أن يولّيه إيّاه الخليفة ، كما لوكان ـ من عُقر قصره ـ ضروريا لنظام العالم ؛ ويتواصل مع ذلك ضرب السكة باسمه والدعاء له على المنابر أيّام الجمعة .

= 969 (359 هـ) وعدد ملوكها خمسة ، أولهم محمد إخشيد ورابعهم أبو المسك كافور الذي قبض على زمام الحكم بمصر وابن سيده لا يزال صبيا ، والمشهور في الأدب والتاريخ بالمدائح والأهاجي التي قالها فيه أبو الطيب المتنبي . ولفظة إخشيد فارسية ومعناها السيد وأيضا الخادم .

(9) * الدولة الفاطمية :

أ\ بإفريقية (909–969/297–359 هـ) . عاصمتها القيروان ثم المهدية . عدد خلفائها 4 . أولهم عُبيْد الله المهدي وآخرهم المعز لدين الله .

ب\ بمصر (970–1171/360–567 هـ) . عاصمتها القاهرة . عدد خلفائها 10 . وأولهم العزيز بالله و آخرهم العاضد لدين الله .

(10) * بنو طاهر ، دولة أسسها طاهر بن الحسين قائد جيش الخليفة المأمون (810/195 هـ) . طالت مدتها نحو 65 سنة . حلّ الطاهريون محلا عاليا بين أمراء زمانهم بثقافتهم العربية ، ومنهم الشاعر والكاتب والفيلسوف . بشأن طاهر بن الحسين ، أنظر ص 209 رقم 19 .

(11) * بنو الصفّار : دولة أسسها يعقوب بن الليث الصفّار، أصله من سجستان ، تعاطى التلصص وتولّى الحكم بفارس مدة 33 سنة . أضاف الى مملكته أقاليم الهند المتاخمة وتهدد بغداد . مات بخوزستان وانقرضت دولته من بعده . مدة هذه الدولة 45 سنة (867–911 /253–299 هـ) وعدد ملوكها 5 ، أولهم يعقوب بن الليث وآخرهم المعدل بن عليّ .

(12) * بنو سامان : دولة تأسست في بلاد ما وراء النهر . مدتها 134 عاما (875–1005/262–396 هـ) وعدد ملوكها 11 . أولهم نصر بن أحمد وآخرهما اسماعيل بن نوح . جدهم الأعلى مائخودات نشأ في قرية سامان على أيام الرشيد . ازدهرت في زمانهم الآداب الفارسية بفضل الشاعرين رودكي وفردوسي وغيرهما . بلغ سلطانهم أوجه أيام ناصر بن أحمد .

(13) * الغزنويون · دولة تأسست في الأفغان والهند . مدتها 213 سنة (977–1184/367–580 هـ) وعدد ملوكها 14. أوّلهم سبكتكين وآخرهم ملك شاه بن خسروشاه. أشهرهم محمود الغزنوي (أنظر 306 رقم 39) .

إنّ تفتّت ما كان للدولة من سلطة تسبّب في ظهور أرسطقراطية أخذت تغيّر شيئا فشيئا وجه المجتمع ؛ فعندما طُبِّق الإقطاع على الطبقات السفلى ، أحدث نفس التأثير الذي كان أحدثه في القواد المكلفين بولاية اقليم من الأقاليم : فمَن مُنح من هؤلاء الضباط الصغار دخلَ أرض من الأراضي – وإن لم يكن مالكا لها – سرعان ما اعتبر نفسه منتميا الى طبقة اجتماعية متميزة ؛ والحال أنّ هذه الطبقة ، المكوّنة في معظمها من مثقفين أعاجم ، هي التي يُنتدب منها أعوان الوظيفة العمومية . فمن صفوفها سيخرج عام 924 (312 هـ) أمير الأمراء ، وهو الحاكم الذي له اليد الطولى على الإدارة والجيش ؛ فهو فوق الوزراء ، وبيده جميع مقاليد الحكم . لكن لأيّ غاية ؟ إن كان القصد من هذا الحلّ اختيار رجل قويّ لسياسة البلاد وإنقاذ امبراطورية ، « فالحلّ فاشل ، لأنه لا وجود لإمبراطورية قابلة للإنقاذ »[14].

ازدادت شؤون الدولة انخراما ، وتوالى على الحكم عشرة أمير أمراء ؛ وتتالى الخلفاء بنفس السرعة · فالراضي[15]الذي أوصله الجيش الى الحكم سنة 932 (321 هـ) مات بعد 8 سنين من تولّيه ؛ وما ان ارتقى أخوه[16]عرش الخلافة حتى سُمِلت عيناه وخُلع، وبُويِع بعده المستكفي[17]. وآن الأوان لمن كان أكثر سلاحا أو أشد مغامرة أن يظفر بالحكم؛ وفي 945(334هـ) ، خرج البويهيون من بلاد الديلم على سواحل بحر قزوين واستولوا على بغداد.

كان البويهيون من الشّيعة . فهل كان بإمكانهم أن يتعايشوا مع الخليفة ، حامي حمى السنة التي كانوا يُبغضونها ويعملون على تقويض أركانها ؟ بمن يُمكن تعويضه دون التعرّض للدخول في منازعات مع الإمارات السنية ؟ مصلحة الدولة هي التي فرضت الحل : احتُفِظ بالخليفة على عرشه . فما دام مجرّدا من كلّ نفوذ ، وما دام دوره يقتصر شرفيا على حماية الشريعة وضمان العدالة ، فأمير المؤمنين لا يمثل أيّ خطر ؛ وهكذا باشر زعيم بني بويه الحكم وتلقّبَ بالشاهنشاه (أي ملك الملوك) – وهو لقب مستوحى من الماضي الساساني – وعادت الأمور الى مجراها الطبيعي .

---

(14) م. أ. شابان ، التاريخ الإسلامي ، M. A Shaban , Islamic History .

(15) * الرّاضي بن المقتدر · هو العشرون من خلفاء بني العباس . دامت ولايته ست سنوات (934-940/323-329 هـ). مات وعمره 32 سنة .

(16) * هو المتّقي بن المقتدر: وهو الواحد والعشرون من خلفاء بني العباس . دامت ولايته أربع سنوات (940-944/329-333 هـ). مات وعمره 60 سنة .

(17) * المستكفي [لا المستقصي كما رسم ذلك أ. كلو] بن المكتفي : الثاني والعشرون من خلفاء بني العباس . دامت ولايته عاما وأربعة أشهر (944-945/333-334 هـ) مات وعمره 60 سنة .

ولن يمر ما ينيّف على القرن إلا قليل حتى تنهار مملكة البويهيين بدورها تحت ضربات غزاة آخرين قدموا من الشرق ؛ ولكن ، ريثما يتم ذلك ، ستشع الحضارة العربية الإسلامية ، في ظلّ هؤلاء الحربيين – وكانوا أول أمرهم على غاية من الخشونة – بأنوارها البراقة التي تذكّر بأيام الرشيد والعباسيين الأوائل .

إن تزعزع أركان الخلافة ووقوع الخليفة في قبضة المرتزقة الأعاجم لم يَنتُج عنه إطلاقا انحلال المجتمع وأفول نجم الثقافة ؛ فقد استعادت بغداد نشاطها في جميع الميادين ، وشجّع البويهيون – وكانوا من حُماة العلم والأدب – المثقفين بجميع أصنافهم ؛ وشيدوا المباني والمعالم في العاصمة وفي المدن الخاضعة لسلطتهم ، وخاصة في شيراز وإصفهان . وانتصبت بالقاهرة وحلب ونيسابور وغزنة دول جديدة تعمل على تحقيق الإزدهار للبلاد ، وتشجع الحياة الفكرية ؛ فلستَ تجد أميرا ولا تاجرا إلا وفي قصره مكتبته الخاصة ؛ وفي أفغانستان ، اجتمع في بلاط محمود الغزنوي ، فاتح بلاد الهند ، أربعمائة شاعر يشيدون ببطولاته ؛ وأعدّ فردوسي تآليفه الرّائع المعروف بالشاهنامه ، أي كتاب الملوك ، حيث يتغنّى بماضي إيران المجيد في لغة إيرانية مجدّدة ، وهي لغة بلغت أشدها وستلعب دورا خطيرا في تحقيق النهضة الفارسية . وفي حلب ، أحاطت بسيف الدولة – وقد يكون قُصّاص ألف ليلة وليلة قد استوحوا من شخصيته ملامح هارون الرشيد أحد أبطالها – ثلةٌ من الشعراء والأدباء والعلماء : ففي بلاطه أنهى الفارابي – الوافد عليه من بلاد ما وراء النهر– إعداد أعماله ، وأنشد المتنبي أروع قصائده ؛ وبلغت عندئذ آسيا الوسطى ونيسابور، عاصمةُ السامانيين ، عصرَهما الذهبي ، في حين اجتهد الفاطميون بالقاهرة – العاصمة التي أسسوها منذ قليل – في إضفاء أبهة على حياة بلاطهم ، لم يُر لها مثيل إلا في قصور العباسيين .

وهكذا تبيّن أنّ إفلات السلطة من أيدي الخليفة لم يولّد الإعراض عن طلب المعرفة ؛ بل ، على العكس ، انجرّ، عن تشتّت مراكز النفوذ ، التنافس بين مواقع النشاط الثقافي والإزدهارالحضاري ؛ فكل أمير كان يُكثّف جهوده حول ولايته ، فيقوى التزاحم على الزعامة والرياسة ، وبفضل تزايد السكان واتساع المدن ، يطّرد نموّ الإقتصاد في العالم الإسلامي بأسره .

وسنة 1055 (447 هـ) دخل الأتراك السلاجقة بغداد ؛ فهم مسلمون سنّيون ، وسيغيّر استيلاؤهم على الحكم خارطة الشرق السياسية ، لكن دون تحويل يُذكر للمسار الحضاري ؛ وستكون أهم نتيجة لظهورهم على مسرح الأحداث إعادة الإعتبار للخلافة . وفي القرن 12ً (6ً للهجرة) سنرى الناصر بنفسه – وهو من ألمع خلفاء بني العباس – يحاول المصالحة بين الشيعة والسنة معتمدا على تنظيمات نصف دينية ونصف مهنية ، هي منظمات الفتوّة؛ وسيفرض الغزو المغولي إعادة النظر في كلّ شيء ، بما في ذلك الخلافة نفسها .

وحينئذ ينهار كلّ الصرح ؛ ففي أوائل 1258(656 هـ)، يفتح مدينة بغداد هولاكو حفيد جنكيزخان ؛ وفي 18 فيفري (شباط) يستسلم الخليفة المستعصم، فيأمر هولاكو بقتله وقتل كافة عائلته ؛ ولمدة ثمانية عشر يوما تتواصل ذبائح السكان ويتواصل تقتيلهم . ويروي المؤرخون أن عدد القتلى تراوح بين 800.000 و2.000.000 ، وهي طبعا أرقام مبالغ فيها ؛ وخُرّبت وأحرِقت أحياء كاملة من المدينه ؛ وهُدم المسجد الأكبر ومسجد الكاظمين ، وهو من أقدس معالم الشيعة . فالكارثة التي حلت لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وانتهى دور بغداد كعاصمة لبلاد الإسلام كافة ، وسيكتب لها البقاء ، لكن كقصبة لمجرد إقليم ، يتوالى الغزاة على حكمه . وفي 1393(795هـ) يستولي عليها تيمورلنك .

واستمرت الخلافة ، لكن ليس للخليفة منها إلا الإسم ، إذ قد فرّ ولجأ لدى مماليك القاهرة ، أحدُ العباسيين وتلقّب بالمستنصر؛ فأكرم وفادتَه سلطانُهم بيبرس وبايعه بالخلافة لتدعيم سلطته ؛ لكنّ المستنصر اكتفى بالجلوس على العرش بلا نفوذ . على أنه بقي يتمتع بامتياز واحد ألا وهو إسناد الولاية لمن يطلبها من أمراء الأقاليم البعيدة ، وخاصة سلطان دلهي ، وكان ، كسائر الملوك والأمراء ، يواصل اعتباره "خليفة الله على الأرض" . حتى كان عام 1516(922 هـ) فاستولى السلطان سليم الأول ("سلطان أوغوز" أي السلطان الرّهيب) على القاهرة ، فأسّر فيها الرجل الذي بات شبحا لمن كان يُعرف بأمير المؤمنين، وأرسله الى إستنبول حيث أقام الى أن تولّى الأمرَ سليمان القانوني – الملقب "بالعظيم" أو "الفخم" لدى الأوروبيين – فأذن له بالرجوع الى القاهرة حيث مات عام 1539 (945 هـ)؛ وبوفاته لم يبق للعباسيين في الوجود أثر يُذكر.

الملاحق

الملحق الأوّل

الحركات المسيحيانية

حالما قُتِل أبو مسلم (755/138هـ) ، انتسبت اليه حركات ، وتعصبت له فرق ذات نزعة مسيحيانية ، خاصة بين الفرس والأتراك من سكان خراسان وما وراء النهر . وكانت عقائدهم مستوحاة من كلّ الأديان المعروفة · من المزدكية ، والزرادشتية ، والإسلام ، وحتى من المسيحية .

فأول ما ظهر من الحركات هي حركة سُنْباذ ، وهو مزدكي من بطانة أبي مسلم ، جمع حوله عددا كبيرا من الأنصار - 60.000 حسب الطبري - كان قد أقنعهم أنّ أبا مسلم لم يمت ، وأنه أخذ شكل حمامة وطار نحو قصر من نحاس لا يزال يعيش فيه إلى ذلك العهد صحبة مزدك . فحشد سنباذ حشوده وزحف الى العراق ، لكن أوقفَ زحفَه ، بين الري وهمذان ، الجيشُ الذي أرسله المنصور في طلبه ، وكان مقتله بجرجان . وبعد ذلك بقليل ثار ثائر آخر من أصحاب أبي مسلم ، يُدعى اسحق التركي ، مدعيا هو أيضا أنّ أبا مسلم رسول زَرادُشْت وأنه يعيش مختفيا في جهة الريّ وأنّه سيعود .

حوالي 756 (139 هـ) ، اندلعت في جهة مرو ثورة المقنع ، وهو رجل إيراني يُخفي وجهه وراء قناع ، يقال إنه كان من ذهب ؛ فادّعى أنّ الله حلّ على التوالي في جسد آدم فشيث فنُوح فإبراهيم فموسى فعيسى فمحمد فأبي مسلم فجسده هو . فاجتمع حوله عدد كبير من سكان بلاد ما وراء النهر، وقد جمعت بينهم عقائد هي الى الفوضى أقرب منها الى الشرائع الدينية ؛ فأرسل الخليفة جيشا لقتاله ، فحوصر فانتحر .

وبعد مرور أحقاب من الزمن ، اختلط اسم أبي مسلم بعقائد تناقلتها تيارات مبتدعة ذات طابع صوفي ونشرتها في الأوساط الشعبية ، وبين الصنّاعين وأعضاء التنظيمات الحِرَفية ؛ وعلى مرّ السنين ، حيكت أسطورة حول شخصه ، جاعلة منه فارسا مغوارا وبطلا منقطعا الى خدمة المستضعفين والدفاع عن المظلومين . وأشاعت الملاحم الشعبية

اسمه بين حِرَفِيِّي الأناضول ، ثم في فِرَق الدراويش ؛ فالبقطاشية ينسبون مؤسس جماعتهم ، حاجي بقطاش ، الى أبي مسلم وأصحابه ؛ وتكوّن أدب شعبي هائل يذيع – بما يعرضه من عجائب وخوارق – بين الفرس والأتراك ، والى يومنا هذا ، قصة أبي مسلم ، مُحلّيا رواية أحداثها بوصف مروءات البطل وتعداد مآثره .

الملحق الثـــــاني

سُرَّ مَنْ رَأَى

سنة 836 (222 هـ) قرر المعتصم ، وقد خلف المأمون على العرش ، أن ينقل عاصمته الى سامرّاء (سُرّ مَن رأى) . فأتاح له الموقع – الذي اختاره لها والذي لمّا يُعمَّر، الى ذاك الحين ، إلا من قبَل عدد قليل من الرّهبان – أن يُشبِع ميوله للفخامة التي يتميّز بها معمار القصور في ذاك العهد .

وكما أنّ المنصور ، لما أراد بناء المدينة المُدوَّرة ، أتى بالحرفيين من جميع أنحاء المملكة ، « ... كتب المعتصم في إشخاص الفَعَلة والبنّائين ، وأهل المِهَن من الحدّادين والنّجّارين وسائر الصناعات ، وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السّواد ، من أنطاكية وسائر سواحل الشام ، وفي حمل عملة الرخام وفرش الرخام ...[1]» .

وطيلة ما يقارب الخمسين سنة ، شيّد العبّاسيّون قرابة الثلاثين قصرا ؛ وقد تكون المدينة بلغت – على ما يُقال – المليون نسمة ؛ وما كان يقدر الزائر على التجوّل فيها إلا راكبا، لطول المسافات بين أطرافها ؛ وكانت تمتدّ مع ساحل دجلة ، على طول المئات من الأمتار، مجموعات القصور التي تفصل بينها البساتين والميادين والبرَك .

كان أول قصر بُنِي بِسرّ من رأى – وهو قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني – يُغطّي 175 من الهكتارات ؛ وكان يُدخل اليه من بوابة (ما زال قسم منها محتفَظا به) ، لها 12 مترا ارتفاعا ، مثلّثة العقود ، إيوانية الشكل ، ملبسة الجدران بالجبس ؛ وكانت البوابة تفتح على سطح مشرف على دجلة وتُنفذ ، عبر قاعات كبيرة ، الى ساحة فسيحة يفتح

---

(1) اليعقوبي ، البلدان [24] .

عليها بيت المال ، ومخازن السلاح ، ومساكن الجند ، والمساجد ، والدّكاكين . ثم يجتاز الزّائر ساحتين قبل الوصول الى القاعة التي يجلس فيها الخليفة ، وهي مربعة الشكل ، تعلوها قبّة ، ويفتح عليها إيوانٌ كلِّ غرفة من الغرف المحيطة بها ؛ ثم يأتي الحَرَم [مقرّ الحريم] ، وبعده قاعة أخرى فوقها قبّة محلاّة بصور(بعضها لا يزال موجودا) يُنفذ منها، عبر أبواب خمسة ، الى شرفة فسيحة تمسح 350 مترا على 180 مترا ، وبُنيَت تحتها غُرف واقية من الحرّ ومجهّزة بأحواض .

وينتهي مجموع المباني بميادين للعب الصولجان ، على جانبها أكشاك مرتفعة ، وتحتها حمّامات وإصطبلات وبها مقاعد تُشاهد منها الألعاب والمباريات ؛ ويمتدّ وراء الميادين ، على مسافة 5 كيلومترات ،"الفردوس"، وهو حير الصيد والوحوش . إن أهمّ ما بُنِي به القصر من المواد اللَّبِنُ ، وهو المربّع المضروب من الطّين والمجفف في الشمس ، وفيما يحتاجه المبنى من مزيد في الصّحة ، فالبناء يتم بالآجرّ المطهيّ في النار. وظهرت مع الجوسق الخاقاني أشكال معمارية جديدة منها القبّة المقامة على عقود ، والإيوان ، والقاعة الفسيحة التي تعلوها قبة ويتقدمها إيوان .

من قصور سامرّاء قصر بَلْكُوَارا ، والآثار الباقية من هذا القصر، الذي شيّده المتوكّل ، تُصوّر لنا كيف كانت مجموعات المباني التي تتكوّن منها القصور في ذلك العهد؛ فالقصر على شكلِ مربّع [بل مستطيل] طوله 575 مترا وعرضه 460 مترا ، ومجموع المباني كان يشرف على النهر والوادي بثلاث بوّابات عظيمة يَنفُذ منها الزّائر الى ثلاث ساحات متتاليات ، يفتح على كلّ واحدة منها إيوانُ كلِّ قاعة من قاعات الإستقبال الثلاث ؛ ويلي ذلك المحالُّ الخاصة بالخليفة ؛ وللقصر أجنحة أخرى بها المكاتب ومقاصر الحريم ومساكن الحاشية وثكنات الجند ، الخ . والى الشرق بستان فسيح بُثت فيه أكشاك فاخرة وسرادقات أنيقة ، تجري من بينها الجداول وتتخللها الشلاّلات ؛ ويليه ميدان للعب الصولجان تتوزّع فيه المباني والتجهيزات ، وتعقبه ، هو ذاته ، بساتين وحدائق أخرى . وكلّ هذه القصور بُنِيت في عدد قليل من الأشهر ، وهو ما يفسّر تداعيها السريع الى الخراب والسقوط .

الجبس سريع الصنع والإلصاق ، سواء بإعداده مربّعات أو بحفره بالسكّين ؛ فذاك ما جعله كثير الإستعمال في تحزيم الجدران الى نصف علوّها ، وقوائم الأبواب وأفاريزها ، وقد تُزيّن بمسامير الذهب . وكانت السقوف تُغطّى بالخشب ، وخاصة بخشب السّاج ؛ والجُدُران تُغطّى ، أحيانا بأكملها ، بتزاويق تُرسم عليها ألواحًا . وقد تُحلّى أيضا بمربّعات الخزف المُلمّع ، والرخام المنقوش ، ولوحات الفسيفساء المستوحاة من الفنّ الهلّيني أو الأموي ؛ وعلى النوافذ زجاجات صغيرة ، متعددة الألوان ، بلا شك قريبة من

تلك التي لا تزال تُرى بالبيوت القديمة في اليمن . وكانت الأرض غالبا ما تُكسى بالمرمر ؛ وفي الغرف التي يقيم فيها الخليفة ، والقاعات الكبيرة التي يقتبل فيها الزائرين ، تُفرش الزرابي الفاخرةُ ، وتُعلَّق ستر الحرير والديباج والأنسجةُ المطرزة بالذهب ، وتوضع في مشاك مفتوحة في الجدران أعلاقٌ من أنفس ما يوجد : كتُحف من المصوغ ، وأكواب من البلور والعسجد ، وأطباق من الغضار الملوّن اللمّاع .

في سامرّاء ، ما يزال الطابع الإسلامي للفن العربي غير واضح ، والتأثيرات الإيرانية مهيمنة ؛ فالغاية من الرسوم التشكيلية ، التي يُزخرَف بها القصر ، تعظيم الخليفة وتمجيده ؛ وما يصوَّر فيها من الرجال يمثّل جنود حرسه من الأتراك ؛ وتُصوّر الجواري ، بخدودهن الممتلئة على طريقة المُنَمْنَمَات الشرقية ، وعيونهنّ اللوزية الشكل ، وهنّ يرقصن أمام الخليفة المهيب ، رقصاتهن الكهنوتية في فساتينهن الثقيلة ، والأكاليلُ على رؤوسهن . وتُرى نفسُ المشاهد المجمّدة فيما يُصوّر من طرود الخليفة التي يشارك فيها نساء فوارس وصيّادات : من إجهاز على ثور مُزنّر بوشاح ساساني ، لتأكيد انتسابه لسلطان الأكاسرة ؛ ومن مطاردة لصيد بالكلاب بين أوراق الكروم وقرون الخصب .

وفيما عُثر عليه بنيسابور من شلايا صور رُسمت على بعض الجدران ، مشهد نساء رَبِلات ، وكأنّ هذا الأسلوب تكونت منه مدرسة ، إذ نعثر عليه في نفس الفترة بمصر على عهد بني طولون . وهكذا تثأرالقارّة الآسيوية لنفسها من الموروث الحضاري الذي خلفته أثينا ورومة في الفنّ ، مثلما حصل ذلك في الأدب ، لكن دون أن تمحوه : فالأسلوب "العباسي" لن يتسرّب الى الشام ولا الى الأندلس ، حيث يكلِّف أمراء بني أمية فنانين شاميين ببناء ثم بزخرفة قصورهم ومساجدهم . ولمدّة قرون ، سيشاهد تأرجح بين مذهبين في الفنّ ، الى أن يأتي يوم تفرض فيه كل بلاد من البلدان الإسلامية - إيران وما بين النهرين ، مصر والمتوسّط الشرقي ، مصر والمغرب - شخصيتها الفنية وترسم معالم فنها الكلاسيكي الخاص .

الخــــزف

بلغ الخزف في سامرّاء أوج اكتماله .

فعلى أيام الرشيد ، وصلت أوان من الغضار الصيني الى بغداد عبر خراسان . ووردت " صينيات " أخرى عن طريق البحر: أطباق باهتة الخُضرة " مرقّطة " باللون المشمشي أو السكّري ، حُثّيات خُضر وسُمر(مصنوعة من صلصال صيني مزجّج بالفلدسبات) . ولم يلبث الخزّافون العراقيون ، وهم ورثة مأثور عريق ، أن قلّدوا هذه القطع

الفنية ؛ ففي بداية الأمر، أنتجت أوفى محارف بغداد شهرة ، أخزافا مُقَولَبة ومشقوقة وأحيانا مطلية – ثم أوعية وأطباقا مُبَرنَقة ، قريبة من غضار الخزف الصيني ، لكن بكميات من الزينة أوفر .

بلغ فنّ الخزف أعلى درجات كماله مع الأخزاف ذات اللمعان المعدني ؛ فهذا اللمعان – الذي يَتخذ ألوانا متعددة (من أحمر وأصفر وأخضر وأسمر) ويُحرَز باختزال أُكْسيد معدني وُضِع فوق الميناء اختزالاً كيماويًا في النار– خير شاهد على ما وصلت اليه تقنيات رفيعة لن تُتَجاوَز إطلاقا بعد القرن 9ً (3ً للهجرة) ؛ فالخزّافون العراقيون ما انفكوا يختبرون المركبات الكيماوية الجديدة لتطوير هذه التقنيات حتى حققوا فيها نتائج مدهشة ، وما يجتهدون بفضلها في استنباطه من زخارف هو مُستوحًى من الفن الساساني أو العباسي ومُحَلـّى بكتابات كوفية ، وهذه النماذج من الأخزاف لن تُصنع بعد 860 – 870 (246 –257 هـ) .

كانت قطع الماعون هذه – من أطباق ، وكؤوس ، وأباريق ، وغيرها – مستعملة في قصر الخليفة وقصور الأعيان ؛ لكنها كانت تباع أيضا . وبإمكان الزائر أن يَرى بجامع سيدي عقبة [أي عقبة بن نافع] بالقيروان ، على جدار المحراب ، مربعات من ذاك الخزف، كانت أُرسِلت من بغداد سنة 862 (248 هـ) ؛ وقد مكنت حفريات سامرّاء من اكتشاف قطع عديدة من ذاك الخزف البديع .

الملحق الثـــالث

خروج الخليفة للصيّـد

كان خلفاء بني العباس من أمهر الصيّادين ؛ فنحن نتذكر أنّ المهديّ قُتِل عندما كان يلاحق غزالا ؛ وقد ترك لنا المؤرّخون أخبارا عديدة عن الصيد ، فالرشيد كان كثير الخروج للتّصيّد ، خصوصا عندما انتقل الى الرّقّة حيث تكثر الطرائد ، الصغيرة منها والكبيرة ، من أسود ، ونمور، ونعام وثيران وحشية .

وخروج الخليفة للصيد كان مناسبة يجتمع فيها المئات بل وأحيانا الآلاف من البشر، ومعهم الخيل والإبل والدّوابّ والطيور المدجّنة . وعندما يتقرر موعد الخروج يأمر المكلفُ بشؤون صيد الخليفة كبيرَ السوّاس والأدلاّءَ والحوّاشة والرماة والبيازرة وحرّاس سائر الطيور والحيوانات أن يستعدوا . وكان جند مسلح يخفر ركب الخليفة وأهل بيته الذين يرافقهم ، دائما تقريبا ، أطباؤهم والكتبة وقرّاء القرآن والمنجّمون وغيرهم ؛ وكانت تُحمل على ظهورالبراذين أحمال هائلة ، فيها الخيام والبسط والزرابي والفُرش ومختلف أنواع الأواني والمواعين ، لأنّ مخيم الخليفة في الصحراء لا يقلّ بذخا عن أجنحة قصره .

ثم يُرسَل الأدلاّء في مقدمة الركب ، وحالما يكتشفون الصيد يدركهم الحوّاشون والصيّادون فيحيطون به وقد شُرِع في قرع الطبول .

وعندئذ تُطلق طيور الصّيد : البُزاةُ وراء التدارجِ وفراخِ الحجل ودجاج الماء ، والصقورُ وراء الأرانب ؛ وتُفكّ الفهود والكلاب من قيودها فتلاحِق الصيد وعندما تدركه وتحيط به ، يأتي الخليفة والأمراء ويشرعون في رميه . وعندما ينتهي الصيد يعود المشاركون فيه الى المخيم ، فيهيء الخدمُ والغلمان المصيدَ ، فيُشوى ويُقدم الى الخليفة وضيوفه .

أما صيد الأسُود ، وهو المفضل عند الرشيد ، فقد كانت تُستخدَم له خيول مدربة تدريبا خاصا ؛ فكان على الصيّادين أن يلاحقوا الضرغام بلا هوادة الى آن يكلّ وتخور قواه ، وإذّاك ينقضّون عليه طعنا بالرماح والسيوف ، أو رميا بالنشّاب .

كانت هذه النزهات الطردية تكوّن فرصة نشاط ومورد رزق لخلق كثير: موظّفين ، أعوان ، فنيين مستخدمين كامل الوقت في القصر للعناية بالدواب والمعدات ، تجار يستوردون حيوانات الصيد ويبيعون أدواته ، أدلاّء ، حوّاشة ، وغيرهم . فعلى أيّام المتوكل ، أي بعد وفاة الرشيد بنصف قرن ، إنّ ما يُنفق على أرزاق الأعوان المكلفين بشؤون الصيد يساوي 500.000 درهم في السنة ؛ فإذا أضفنا ، الى ما يُعطى الى الخدم والأعوان ، ما يُصرف في شراء الحيوانات والمعدات ، وما يُدفع من تعويضات – وكانت في عهد الرشيد وفيرة – للفلاحين عما يُتلف لهم من المحاصيل ، فإن مجموع النّفقات على الصيد قد تبلغ سنويا عشرات الآلاف من الدنانير .

إنّ المبالغ التي تُصرف في شراء حيوان الصيد وتربيته هائلة جدا ؛ فمن تلك الحيوانات ما كان يُقدّم هدية من الملوك أو كبار المسؤولين في الدولة : فقد تلقّى الرشيد من ملك الروم اثني عشر صقرا وأربعة كلاب صيد . ومما كان على أرمينية أن تدفعه من ضمن ضرائبها سنويا ثلاثون بازيا ؛ فثمن الطيور الكواسر كان غاليا جدا ، وما كان منها يُجلب من تركستان وبلاد اليونان والهند : النسورُ ، والجُلُم ، والصقور بأنواعها ، ومنها القطامي والباشق والسنقر وأرفعها الباز ؛ وقد تُستورد كواسر أخرى ، خصوصا تلك التي لها ريش موحّد اللون .

إنّ الكلاب أيضا كانت كثيرة الإستعمال في الصيد ، وأفضلها ما كان يرد من اليمن ، وكان باهظ الثمن ؛ وكان السرعوب مستخدما في إخراج الثعالب من أجحارها ؛ وللفهد ، دون سائر الحيوان ، مكانة متميزة ؛ فلا يقدر إلا الأغنياء على امتلاك هذا السبع الذي لا يتناسل إذا أسِّر ودُجِّن ، والذي تحتاج تربيته الى زمن طويل وعناية فائقة ؛ وكان الخلفاء يتباهون بعرضه في مواكبهم ، مربوطا الى زمامه ، كما تغنّى به العديد من شعراء البلاط ، ومنهم الشاعر الشهير أبو نواس .

الملحق الرابع

هارون الرشيد وشارلمان

لا أثر في المصادر العربية الموجودة بين أيدينا الى حدّ هذا التاريخ لأيّ إشارة الى ما قد يكون وُجِد من العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان ؛ فالطبري والمسعودي ، اللذان أعطيانا أخبارا وفيرة عن عهد هذا الخليفة العظيم ، لا يذكران شيئا عن تلك العلاقات ، وهذا ما يحمل المؤرّخين على نفي وجودها تماما .

يمكن أن يُفسّر سكوت المشارقة تفاسير متعددة : منها أنّ علاقات الخليفة مع عاهل أجنبي لا تمثل أمرا استثنائيا ؛ فقد كان لهارون وأسلافه علاقات مع ملوك الشرق وأمرائه – كملوك الهند مثلا – ؛ ومع ذلك فالمؤرخون العرب لا يتحدثون عنها ، اللهم إلا إذا كانت تُتيح للخليفة الفرصة للتباهي بالبذخ المتناهي الذي يعيش عليه بلاطه ، كالذي كان عند اقتبال امبراطور بيزنطة سنة 917 (305 هـ) . ثمّ إنّ المؤرّخين المسلمين لم يكونوا جميعا ينظرون الى النصارى بعين الرّضا ؛ فكيف يجوز أن يتحدّث أحدهم عن علاقات الخليفة مع ملك كافر ، حلّ رسله بالرّقة ولم يلتفت اليهم أحد ؟ (لم تصل أيّ بعثة من بعثات شارلمان الى بغداد التي غادرها الرشيد بلا رجعة) .

الى حين عصر النّهضة ، كان شارلمان معتبرا عند نصارى الغرب أفضل حجاج المسيحية الى فلسطين ؛ ثم بدأ الحديث شيئا فشيئا عن إهداء الخليفة الأراضيَ المقدّسة الى الإمبراطور ؛ واعتُبِرت رواية سان چال أصحّ الروايات على حساب إيجينهارد [Eginhard] . بل ذهبوا (مادام دي جانليس [Madame de Genlis] في روايتها "فُرسانُ التّمّ" [Les Chevaliers du Cygne] ، ومؤرِّخ يؤلّف في الموسيقى) الى حدّ ذكر أُرْغُن بعث به هارون الى شارل ... ويتواصل تزيين الأسطورة حتى القرن 19 م (13 هـ) ، حيث جزم پوكڤيلّ [Pouqueville] في كتابه : بحث تاريخي [Mémoire historique] أن لا وجود إطلاقا لعلاقات بين العاهلين . ومن الأغرب أن يأتي الروسي و . بارتولد [W. Barthold]

وأن يتبنّى نفس النظرية متذرّعا بانعدام المصادر العربية في الموضوع وسكوت الجغرافيين العرب على وجود أي انتصاب مسيحي في القدس . وتقريبا في نفس الفترة ، قَبِل أ. ڤاسيلياڤ [A. Vassiliev] المختص في الدراسات البيزنطية قبولا يكاد يكون كليا رواية راهب سان چال [le moine de Saint-Gall] . وسنة 1919 (1337 هـ) صرّح ل. بريهييه [L. Bréhier] في المؤتمر الفرنسي بسوريا أنّ الرشيد منح لشارل حماية حقيقية على فلسطين ، وهي كما يقول : « ضرب من الإمتياز في حماية النصارى ، امتياز لم يظفر به أباطرة بيزنطة إطلاقا ، اللهم إن كان ذلك في القرن 11 (5 للهجرة) » . وكانت فرنسا في تلك الفترة – فترة ما بعد الحرب – تطالب بوصاية على المشرق ؛ ولا يشكّ أحد في أنّ العالم الفرنسي الكبير أدّاه الى اتخاذ هذا الموقف ما سمّاه عالم آخر مختص في الدراسات البيزنطية س. رُنسيمان [S. Runciman] « بحمية الوطنية الغربية » . وما كادت تمرّ سنون قلائل حتى تخلّى ل. بريهييه عن القول بهذه النظرية[1]، واتخذ في الأمر موقفا أكثر اعتدالا في كتابه شارلمان وفلسطين ، 1928 [Charlemagne et la Palestine] في حين يعود إ. يورانسن [E . Joransen] في كتابه الحماية المزعومة للفرنجة على فلسطين [The Alleged Frankish Protectorate in Palestine] الى قول بارتهُلد فيتبنّاه في أغلبه. ويذهب الأمريكي ف. و. بُوكلر[F. W. Buckler] في كتابه "هارون الرشيد وشارل العظيم" ، 1921 [Harunul'Rashid and Charles the Great] الى أنّ شارلمان كان بفلسطين تابعا (بالمفهوم الإقطاعي) للرشيد وواليه على القدس .

إنّ عبارة "محور آخن/بغداد" التي استعملها المؤرّخ ج. كالميت [J. Calmette] – وكذلك النظرية التي قال بها بريهييه – متأثرة بالواقع السياسي الذي عاشه العالم فيما بين الحربين الكونيّتين ("محور روما/برلين") ؛ ويبدو، فعلا ، أنه أفرط في المبالغة حينما جزم أنّ هذا المحور كان « أحد العناصرالأساسية في انتصارات الكارولنجيين » في قضية [غزو] الهضاب الإسبانية وفي مسألة اعتراف بيزنطة بإمبراطورية شارلمان . ولا شكّ في أنّ أقرب الأقوال الى الحقيقة هو قول كلاينكلاوز [Kleinklausz] في كتابه أسطورة الحماية التي زُعِم أنها كانت لشارلمان على الأرض المقدسة [La Légende du protectorat de Charlemagne sur la Terre sainte] وخلاصته أنّ الهبة التي تلقّاها شرلمان هي هبة قبر المسيح ذاته تعبيرا من الرشيد عما كان له معه من اتفاق في النظرة؛ ويشاطر س. رُنسيمان هذا الرأي وإن كان يقصر هبة هارون على كنيسة العذراء وعلى التسهيلات الممنوحة للحجّاج المسيحيين .

(1) * يا " للحمية الوطنية "كيف تستولي على العالم الكبير فتجعله يحلل الأمر يوما ويحرّمه آخر ! ! ! [المعرّب] .

الملحق الخامس

المائدة على أيّام الرّشيد

« ... فدخلوا البستان ، فإذا هو بستان ، بابه مقنطر عليه كروم ، وأعتابه مختلفة الألوان ، الأحمر كأنه ياقوت ، والأسود كأنه أبنوس ؛ فدخلوا تحت عريشة ، فوجدوا فيها الأثمار صنوانا وغير صنوان ، والأطيار تغرد بالألحان على الأغصان ، والهزار يترنم والقمري ملأ بصوته المكان ، والشحرور في تغريده كأنه إنسان ، والفاخت كأنه شارب نشوان ، والأشجار قد أينعت أثمارها من كل مأكول ومن كل فاكهة زوجان ، والمشمش ما بين كافوري ولوزي ومشمش خراسان ، والبرقوق كأنه لون الحسان ، والقراصية تذهل عقل كل إنسان ، والتين ما بين أحمر وأبيض وأخضر من أحسن الألوان ، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان ، والورد يفضح بحمرته خدود الحسان ، والبنفسج كأنه كبريت دنا من النيران، والآس والمنشور والخزامى مع شقائق النعمان ، تكللت تلك الأوراق بمدامع الغمام وضحك ثغر الأقحوان ، وصار النرجس ناظرا الى الورد بعيون السودان ، والأترج كأنه أكواب والليمون كبنادق من ذهب وفرشت الأرض بسائر الألوان ، وأقبل الربيع فأشرق ببهجته المكان ، والنهر في خرير ، والطير في هدير ، والريح في صفير، والزمان في اعتدال، والنسيم في اعتلال ... وإذا بالخدم قد مسحوا الرخام ، وجلوا النحاس ، وعمروا القناديل ، وأوقدوا الشموع ... وقد أعدوا الطعام ، وجهّزوا العشاء ، فعملوا قلقاسا مقليا ، وجوزا ولوزا وزبيبا ، تحته أرز مُفلفل ، ووضعوه على مائدة ؛ ... ثم قدموا لنا سفرة مزركشة عليها سمك مقلي ، ودجاج محمّر، وخروف مشوي ، وفراريج محشوّة بالفستق ، وخبز وليمون وحلاوة نتحلّى بها ، وسكباج لا يوجد مثله في طعام الملوك ، وخافقية ، وزرباجة محشية بالسكر وعليها ماء ورد ممسك ، وزبدية ممتلئة حب رمان ؛ ثم أحضروا باطية من الصيني سكبوا فيها ماء الخلاف ، وأرخوا فيه قطعة من الثلج ، ومزجوه بالسكر، وقلتين من شربات معطرة بماء الورد والمسك ، ... فأكلنا حتى شبعنا ؛ ... ثم جاؤوا بالشراب

وآلته وكثير من النقل والفاكهة والمشموم وسائر الحلويات ، فشربنا وتنقّلنا ؛ ... ثم قدّمت لنا الأباريق والطشوت فغسلنا أيدينا ؛ ... ثم جاؤوا بدرج فيه ندّ وعود وعنبر ومسك فتبخرنا وتطيّبنا ... » (الليلة 39ً) .

« ... فرأيت نورا على بعد ، فقصدته ؛ فلما وصلت اليه وجدت مقعدا عظيما معقودا ، عليه قبة من العاج والأبنوس ، والقنديل معلق في وسط تلك القبة ، وذلك المقعد مفروش ببسط الحرير المزركشة بالذهب والفضّة ، وهناك شمعة كبيرة موقودة في شمعدان من الذهب تحت القنديل ، وفي وسط المقعد فسقية فيها أنواع التصاوير ، وبجانب تلك الفسقية سفرة مغطّاة بفوطة من الحرير ، والى جانبها باطية كبيرة من الصيني مملوة خمرا ، وفيها قدح من بلور مزركش بالذهب ، والى جانب الجميع طبق كبير من فضة مغطى ؛ فكشفته ، فرأيت فيه من سائر الفواكه ما بين تين ورمان وعنب ونارنج واترج وكباد ، وبينها أنواع الرياحين من ورد وياسمين وآس ونسرين ونرجس ، ومن سائر المشمومات ، فهمت بذلك المكان ، وفرحت غاية الفرح ، وزال عني الهم والترح ... فاشتهت نفسي الأكل ، فتقدمت الى السفرة ، وكشفت الغطاء ، فوجدت في وسطها طبقا من الصيني وفيه أربع دجاجات محمرة ومتبلة بالبهارات ، وحول ذلك الطبق أربع زبادي ، واحدة حلوى ، والأخرى حب الرمان ، والثالثة بقلاوة ، والرابعة قطائف ، وتلك الزبادي ما بين حلوى وحامض . فأكلت من القطائف وقطعة لحم ، وعمدت الى البقلاوة وأكلت منها ما تيسر ، ثم قصدت الحلوى ، وأكلت ملعقة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، وأكلت بعض دجاجة ، وأكلت لقمة ، وشربت من الزردة ، فأعجبتني ، فأكثرت الشرب منها بالملعقة حتى شبعت ، فعند ذلك امتلأت بطني وارتخت مفاصلي ... » (الليلة 116ً) .

وصف هِلْيَوْن[1]

(قصيد للشاعر محمود بن الحسين بن السندي المعروف بكشاجم)[2]

لَنَـا رِمَـاحٌ فِـي أَعَالِيـهَا أَوَدْ مُفَتَّلاَتُ الْجِسْمِ فَتْلاً كَالْمَسَـدْ

---

(1) * الهِلْيَوْن asperge · جنس نبات من الفصيلة الزنبقية له قضبان رخصة تؤكل ، ويُعرف في تونس بالسَّكُوم .

(2) * محمود بن الحسين ابن السندي بن شاهك (... - 970/... - 360هـ) : شاعر متفنن ، أديب من كتاب الإنشاء ، فارسي الأصل ؛ كان أسلافه في العراق ، ونشأ في فلسطين وتنقل بين القدس ودمشق وحلب ، فكان من شعراء البلاط الحمداني ؛ ومن أجل كتاب ألفه في الطبيخ قيل إنه كان طباخ سيف الدولة . ولفظ كشاجم منحوت من الكاف للكتابة ، والشين للشعر ، والألف للإنشاء ، والجيم للجدل ، والميم للمنطق .

مُسْتَحْسَنَاتٌ لَيْسَ فيهَا مِنْ عُقَدْ لَهَا رُؤُوسٌ طَالعاتٌ فِي جَسَدْ
مَكْسُوَّةٌ مِنْ صَنْعَةِ الْفَرْدِ الصَّمَدْ مُنْتَصِبَاتٌ كَالْقِدَاحِ فِي الْعَمَدْ
ثَوْبٌ مِنَ السُّنْدُسِ مِنْ فَوْقِ بَرَدْ قَدْ أشْرِبَتْ حُمْرَةَ لَوْنٍ يَتَّقِدْ
كَأنَّهَا مَمْزُوجَةٌ حُمْرَةَ خَدٍّ قَدْ قَرَصَتْ حُمْرَتَهُ كَفُّ حَرِدْ
مُنَضَّدَاتٌ كَتَنَاضِيدِ الزَّرَدْ نَسَائِجُ الْعَسْجَدِ حُسْنًا مُنْتَضِدْ
كَأنَّهَا مُطْرَفُ خَزٍّ قَدْ مُهِدْ لَوْ أنَّهَا تَبْقَى عَلَى طُولِ الأَبَدْ
كَانَتْ فُصُوصًا لِخَوَاتِمِ الْخُرُدْ مِنْ فَوْقِهَا مَرْيٌ عَلَيْهَا يَطَّرِدْ
يَجُولُ فِي جَانِبِهَا جَزْرٌ وَمَدْ مَكْسُوَّةٌ مِنْ زَيْتِهَا ثَوْبَ زَبَدْ
كَأنَّهَا مِنْ فَوْقِهِ حِينَ لَبِدْ شَرَاكُ تِبْرٍ أَوْ لُجَيْنٍ قَدْ مَسَدْ
فَلَوْ رَآهَا عَابِدٌ أَوْ مُجْتَهِدْ أَفْطَرَ مِمَّا يَشْتَهِيهَا وَسَجَدْ

[من الرجز][3]

في وصف جوذابة[4]
(وهي أيضا قصيدة لكُشاجم)

جُوذَابَةٌ مِنْ أرُزٍّ فَائِقِ مُصْفَرَّةٌ فِي اللَّوْنِ كَالْعَاشِقِ
عَجِيبَةٌ مُشْرِقَةٌ لَوْنُهَا مِنْ كَفِّ طَاهٍ مُحْكِمٍ حَاذِقِ
نَسِيجَةٌ كَالتِّبْرِ فِي حُمْرَةٍ وَرْدِيَّةٌ مِنْ صَنْعَةِ الْخَالِقِ
بِسُكَّرِ الأهْوَازِ مَصْبُوغَةٌ فَطَعْمُهَا أحْلَى مِنَ الرَّائِقِ
غَرِيقَةٌ فِي الدُّهْنِ رَجْرَاجَةٌ تَدُورُ بِالنَّفْخِ مِنَ الذَّائِقِ
لَيِّنَةٌ مَلْمَسُهَا زُبْدَةٌ وَرِيحُهَا كَالْعَنْبَرِ الْفَائِقِ
كَأنَّهَا فِي جَامِهَا إذْ بَدَتْ تُزْهِرُ كَالْكَوْكَبِ فِي الْغَاسِقِ
عَقِيقَةٌ صُفْرَتُهَا فَاقِعٌ فِي جِيدِ خَوْدٍ بَضَّةٍ عَاتِقِ
أحْلَى مِنَ الأمْنِ أتَى مُؤْمِنًا إلَى فُؤَادٍ قَلِقٍ خَافِقِ

[من السّريع] [5]

---

(3) [المسعودي ، مروج ، 4 ، 486 – 487 .]
(4) * الجوذابة ج جواذب : طعام يُتخذ من اللحم والرز والسكر والبندق .
(5) * [المسعودي ، مروج ، 4 ، 389 .]

الملحق السـادس[1]

أباطرة بيزنطة في القرن الثامن

الأباطرة الأحد عشر، الذين غطّت عهودهم تقريبا كامل القرن 8ً (2ًللهجرة) ، والذين خُلِع منهم ثمانية ، هم :

1 ـ يُوسْطِينِيَانُ 2ً في الفترة الأولى من حكمه (685 – 695 /66 – 76 هـ) .

يوسطينيان 2ً Justinien II Rhinotmète الملقب "بالأجدع" هو آخر الأباطرة الهراقلة[2]؛ وفي عهده فترتان : ففي الأولى كان يدفع الجزية للعرب الذين قاسموه السلطة على قُبرُص وأرمينية . لكن غزو العرب لجورجيا (692/73 هـ) ولشمال افريقيا (693/ 74 هـ) وثقل الضرائب على الأهالي أحدثا ثورة عارمة قادها ليونيس وآلت الى خلعه عن العرش وجدع أنفه ونفيه .

2 ـ لِيُونِيس Léonis (695 – 698 /76 – 79 هـ) .

لِيُونِيس هو الغاصب الأول لعرش يوسطينيان 2ً، قتله تيبير3ً، واعتلى العرش مكانه ؛ وليونيس هذا هو ثاني المخلوعين الثمانية ، وهو معاصر للخليفة الأموي 5ً عبد الملك بن مروان .

3 ـ تيبير 3ً Tibère III (698 – 79/705 – 87 هـ) .

تيبير 3ً هو الغاصب الثّاني لعرش يوسطينيان 2ً وقد اعتلاه بعد خلعه لليونيس ؛ قضى كامل عهده يتصدّى للغزو العربي في شمال إفريقيا ؛ ظفر به يوسطينيان بعد أن عاد الى الحكم مدعوما بالمرتزقة البلغار، وأمر به فقُتِل في المضمار؛ وتيبيرهذا هو ثالث المخلوعين الثمانية، وهو معاصرأيضا للخليفة الأموي 5ً عبد الملك بن مروان.

---

(1) * من وضع المعرّب .

(2) * انظر ص 29 رقم 72 .

- **يوسطينيان 2ً** في الفترة الثانية من حكمه (705 –711 / 87 –93 هـ) .
في هذه الفترة اعتلى يوسطينيان العرش من جديد ، بعد أن تآمر مع البلغار واستعان بهم على استرجاع الحكم فأعانوه ؛ فقتل الغاصب تيبير 3ً وسلّط موجة من الإضطهادات على الشعب . ومن جديد قامت ثورة ، بقيادة فيليپّيك بَرْدان ، آلت الى الإطاحة به ، ثم الى مقتله ؛ ويوسطينيان هذا هو أول المخلوعين الثمانية ، وهو معاصر ، في فترتي حكمه ، لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد الخليفة الأموي 6ً .
4 ـ فيليپّيك بَرْدان Philippique Bardane (711–713/93–95 هـ) .
فيليپيك هذا رجل من أصل أرمني ، قاد الثورة التي أطاحت بيوسطينيان 2ً بعد عودته الى الحكم ؛ ساند "الموحِّدين" (أي القائلين بوحدانية الذات في أقنوم المسيح) من الأروام ، لكنه لم يستطع أن يمنع الغزاة العرب والبلغار من أن يعيثوا في الأرض فسادا ، فخُلِع وسُمِلت عيناه ؛ وهو رابع المخلوعين الثمانية ، ومعاصر للخليفة الأموي 6ً الوليد بن عبد الملك .
5 ـ أناستاز 2ً Anastase II (713–715/95–97 هـ) .
هذا الإمبراطور البيزنطي تولّى الحكم عامين ، وأزاحه عنه تيودوز 3ً . وهو خامس المخلوعين الثمانية ومعاصر أيضا للوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي 6ً .
6 ـ تيُودُوز 3ً Théodose III (716–717/98–99 هـ) .
تيودوز هذا كان عاملا يجبي الأموال ؛ فلما ثار جيش رودس على أناستاز 2ً نصّب تيودوزَ 3ً امبراطورا رغم أنفه ؛ فزحف الى القسطنطينية واستولى عليها وعزل أنستاز 2ً . أزاحه بدوره عن الحكم ليون 3ً ، فترهب وقضّى بقية حياته بالدير . وهو سادس المخلوعين الثمانية ، ومعاصر للخليفة الأموي 7ً سليمان بن عبد الملك .
7 ـ لَيُون 3ً الإيزُوري Léon III l'Isaurien (717–740/99– 123 هـ) .
ليون 3ً هو مؤسّس الأسرة الإيزُورية[3] ؛ هو قائد جيش stratège ، كان يحكم الدّائرة الإدارية والعسكرية الأناضولية le thème anatolien ؛ ثار على تيودوز 3ً ، فنودي به إمبراطورا ؛ استطاع إذاك أن يذود مدينة القسطنطينية دون العرب الذين حاصروها من 717 الى 718 (من 99 الى 100 هـ أي في عهد هشام بن عبد الملك) وأن يُلحِق بهم هزيمة نكراء بأكْرُوَايْنُون (740/123 هـ) ويحرّر آسيا الصّغرى . واصَل سياسة الهراقلة الرامية الى إعادة تنظيم الإدارة المركزية والجهوية . واذ ناصر الشق القائل بتحريم عبادة الأيقونات (الصور المقدسة للمسيح والعذراء مريم والقدِّيسين) ؛

(3) * أنظر ص 29 رقم 72 .

فقد افتتح "معركة الصّور"[4] l'icônoclasme التي ستكون لها أوخم العواقب على وحدة المملكة وعلاقاتها مع المسيحية الغربية . وليون 3ً هذا طال عهده فعاصر هو أيضا سليمان بن عبد الملك الخليفة 7ً، وعاصر كذلك الخليفة 8ً عمر بن عبد العزيز والخليفة 9ً يزيد بن عبد الملك والخليفة 10ً هشام بن عبد الملك .

8 ـ قُسْطَنْطِين 5ً "القَذِر" Constantin V Copronyme (741-775/124-159 هـ).

هو ثاني الأباطرة الإيزوريين ؛ تولّى بعد أبيه ليون 3ً فصدّ هجمات البلغار عن القسطنطينية وحارب الصقالبة ؛ لكنه لم يقدر على مدافعة اللُّمْبَرْديين ، فافتكّوا منه راڤين بإيطاليا . كان أشدّ عداء من أبيه لعُبَّاد الصُّوَر les Icônolâtres وأنكى قسوة عليهمم ، وذاك ما جعل المؤرخين المتعصبين ضده ينعتونه هذا النعت المُشين . وقسطنطين هذا[5] دام ملكه أيضا مدة طويلة وعاصرالخليفة 10ً هشام بن عبد الملك ، ثم الخليفة 11ً الوليد بن يزيد ، والخليفة 12ً يزيد بن الوليد ، والخليفة 13ً ابراهيم بن الوليد ، والخليفة 14ً والأخير مروان بن محمد ، ثم الخليفة العباسي 1ً ابا العباس السفاح والخليفة 2ً ابا جعفر المنصور، وكانت وفاتهما في نفس السنة .

9 ـ لَيُون 4ً الخَزَري Léon IV le Khazar (775-780/159-164 هـ) .

هو ابن قسطنطين 5ً من زوجته الأولى وهي أميرة خزرية[6] . كان مناهضا لعبادة الأيقونات ، لكن مناهضة معتدلة ، بتأثير من زوجته إيرينة ؛ عاصر ليون 4ً الخليفة العباسي 3ً محمدًا المهدي ، وخلفه على العرش ابنُه قسطنطين 6ً .

10 ـ قُسطنطين 6ً Constantin VI (780-797/164-184) .

هو ابن ليون 4ً وإيرينة ؛ ارتقى العرش قاصرا ، في التاسعة من عمره ، ومارس الحكم تحت وصاية أمّه حتى سنة 790 (174 هـ) ؛ أعانته انتفاضة عسكرية على التخلص من الوصاية ، فباشر السلطة مدة ؛ لكنّ توغُّلَ العرب والبلغار في أرض المملكة أحقد عليه رجال الجيش وأراب به رجال الدين ؛ فتآمروا عليه بمساعدة أمه وأطاحوا به[7] وسملوا عينيه ؛ وقسطنطين هذا هو سابع المخلوعين الثمانية ، وقد عاصرالثالث والرابع والخامس من خلفاء بني العباس أي المهدي والهادي والرشيد.

11 ـ إيرينة Irène (797-802/181-187 هـ) .

هي زوجة ليون 5ً والوصية على عرشه منذ وفاته (780/164 هـ) ومدة قصور ابنها

---

(4) * أنظر ص 108 رقم 7 .

(5) * أنظر ص 34 رقم 83 .

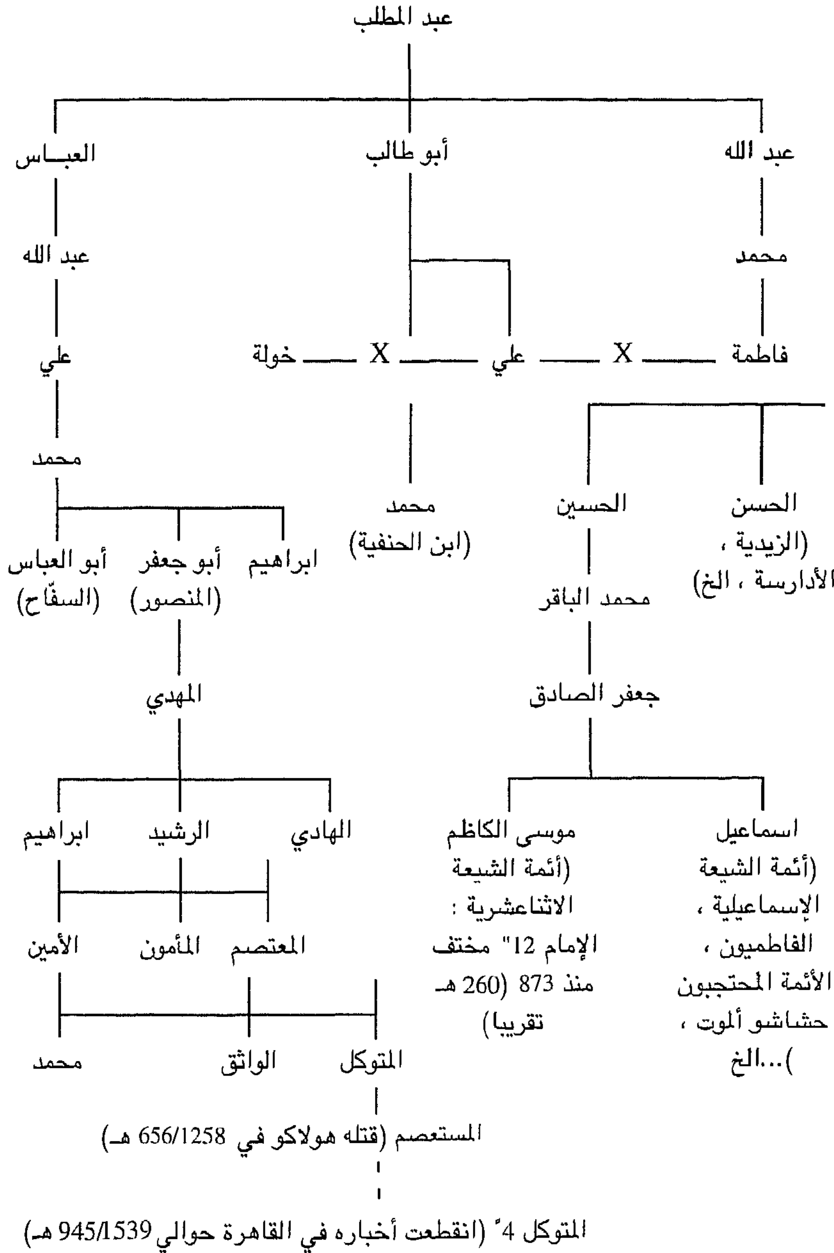
(6) * أنظر ص 53 رقم 7 .

(7) * أنظر ص 53 دقم 7 .

قسطنطين 6 ؛ أباحت من جديد ، بمساندة مجمع نيقيا (787/171 هـ) ، عبادة الإيقونات (الصور) ، ولما بلغ ابنها وباشر الحكم كادت له وخلعته وسملت عينيه ثم استولت على العرش وتلقبت " بملك الروم " basileus (هكذا بتذكير اللقب !) ؛ لكن عهدها كان كارثة على المملكة ، اذ انتهى بها الأمر الى الخضوع لهارون الرشيد ودفع الجزية له صاغرة ؛ على انها كانت تحاول أن توحّد الجناحين ، الأرثوذوكسي والكاثوليكي من العالم المسيحي ، بزواجها من شارلمان عاهل الإمبراطورية الجرمانية المقدسة . حيكت مؤامرة ضدها فخُلعت ونُفيت الى جزيرة لِسبوس حيث تُوفيت. عاصرت إيرينة (ويدعوها المؤرخون العرب " رينِي امرأة أليون المُلقَّبة أغُسْطة ") هذه هارون الرشيد وهي ثامنة المخلوعين الثمانية[8] .

(8) * أنظر ص 70 رقم 58 ، و 108 رقم 7 .

شجرة مختصرة لآل محمد



أحداث كبرى

	في العالم الإسلامي	خارج العالم الإسلامي
570	ميلاد النبيء محمّد .	
612	بعث محمّد بالرسالة .	
618	بداية حكم أسرة تنـج الصّينية .	
0/622 هـ	فرارمحمّد الى المدينة ؛ بداية التاريخ الهجري .	
8/630 هـ	رجوع محمّد الى مكّة .	
11/632 هـ	وفاة الرسول ؛ خلافة أبي بكر .	
13/634 هـ	خلافة عمر ؛ هزيمة الروم بأجنادين .	
14/635 هـ	فتح دمشق .	
15/636 هـ	هزيمة الروم باليرموك .	
17/638 هـ	فتح مدينة القدس .	
20/640 هـ	فتح هِيلْيُوپُولِيس (مصر) .	
22/642 هـ		انهيار الإمبراطورية الساسانية
24/644 هـ	مقتل عمر . خلافة عثمان .	
26/646 هـ	فتح الإسكندرية .	
35/655 هـ	هزيمة الروم بحرًا .	
36/656 هـ	مقتل عثمان ، خلافة عليّ .	
37/657 هـ	معركة صفين ؛ تخلّي الخوارج عن علي .	
41/661 هـ	مقتل عليّ بالكوفة ؛ خلافة معاوية .	

/667-663		
47-43 هـ	حملات العرب على القسطنطينية .	
50/670 هـ	تأسيس القيروان .	
61/680 هـ	مقتل الحسين بكربلاء .	پيپين دي هيرستال سيدًا على الفرنجة.
66/685 هـ	حركة المختار.	
93/711 هـ	طارق يفتح الأندلس .	
98/716 هـ	حصارمسلمة للقسطنطينية ؛ بداية المؤامرة العباسية .	قَارْلُه (شارل مارتيل).
99/717 هـ		ليون 3ً الإزوري امبراطورًا ببيزنطة .
108/726 هـ		بداية خصومة الصّوَر. تحريم عبادتها.
114/732 هـ		معركة بلاط الشهداء .
130/747 هـ	الثورة العباسية في خراسان ؛	أبو مسلم .
132/749 هـ	السفاح أول خليفة عباسي .	
134/751 هـ	هزيمة الصينيين بطالاس .	پيپين القصير ملكًا على الفرنجة .
137/754 هـ	خلافة المنصور .	
138/755 هـ	مقتل أبي مسلم .	
139/756 هـ	عبد الرحمن أميرًا على قرطبة .	
145/762 هـ	تأسيس بغداد .	
149/766 هـ	ولادة هارون الرشيد .	
155/771 هـ		شارلمان ملكًا على الفرنجة .
159/775 هـ	خلافة المهدي .	
162/778 هـ	معركة رونسيڤو .	
163/779 هـ	أولى حملات الرشيد على الروم .	
165/781 هـ	ثاني حملات الرشيد على الروم .	
169/785 هـ	خلافة الهادي .	
170/786 هـ	خلافة الرشيد (14 سبتمبر/أيلول).	
171/787 هـ		إيرينة وصيةً على العرش؛ إباحة الصوَر.
173/789 هـ	الأدارسة في المغرب ؛ تأسيس فاس .	
180/796 هـ	الرشيد يغادر بغداد للرقّة .	
181/797 هـ	الرشيد يغزو الروم .	إيرينة إمبراطورةً على الروم ؛ أول وفود شارلمان الى الرشيد .

184/800 هـ	الأغالبة في إفريقية .	تتويج شارلمان .
186/802 هـ	اتفاق الكعبة ؛ قسمة المملكة .	حلول مبعوثيْن مسلمين ببلاط شارلمان . وفد جديد من شارلمان الى الخليفة . نقفور إمبراطورًا على الروم ؛ طرد إيرينة.
187/802 هـ	نكبة البرامكة ؛ الرشيد يغزو الروم .	
189/804 هـ	وفد جديد من الرشيد الى شارلمان .	
191/806 هـ	الرشيد يغزو الروم ؛ الإستيلاء على هرقلة .	
192/807 هـ		شارلمان يوجه وفدا جديدا الى الرشيد.
194/809 هـ	وفاة الرشيد بطوس (24 مارس/آذار) .	
/813-809		
198-194 هـ	خصومة الأمين والمأمون؛ "انتفاضة بغداد" .	
195/810 هـ	بنو طاهر في خراسان .	
198/813 هـ	خلافة المأمون .	
199/814 هـ		وفاة شارلمان .
210/825 هـ	العرب في جزيرة كريت .	
216/831 هـ	العرب في صقلية .	
217/832 هـ	تأسيس بيت الحكمة .	
218/833 هـ	وفاة المأمون ؛ خلافة المعتصم .	
222/836 هـ	سامراء عاصمةً للخلافة .	
254/868 هـ	بنو طولون في مصر .	
261/874 هـ	بنو سامان في خراسان .	
334/945 هـ	بنو بويه في بغداد .	
447/1055 هـ	الأتراك السلاجقة في بغداد .	
656/1258 هـ	المغول يستولون على بغداد .	
795/1393 هـ	تيمورلنك في بغداد .	
922/1516 هـ	سليم 1 ً يلقي القبض على الخليفة العباسي .	
945/1539 هـ	سليمان القانوني يخلي سبيل الخليفة العباسي فتنقطع أخباره .	

المصادر والمراجع

أ ـ التي اعتمدها الكاتب

BIBLIOGRAPHIE

Sources et Ouvrages généraux

TABARI, *Annales*, trad. fr. Zotenberg, Paris, 1867-1874.

YAKUBI, *les Pays (Kitab al-Buldan)*, trad. fr. G. Wiet, Le Caire, 1937.

MASUDI, *les Prairies d'Or (Murudj)*, trad. fr. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1861-1877.

BALADHURI, *The Origins of Islamic State (Futuh al-Buldan)*, trad. angl. P.K. Hitti, Londres, 1916.

Bibliotheca Geographorum Arabicorum.

Encyclopédie de l'Islam, I, 1913-1938.

Encyclopédie de l'Islam, II, 1960.

A. MIQUEL, *l'Islam et sa civilisation*, Paris, 1968.

Histoire générale des sciences, t. I., Paris, 1966.

C. CAHEN, *l'Islam des origines au début de l'Empire ottoman*, Paris, 1970.

R. MANTRAN, *l'Expansion musulmane*, Paris, 1968.

E. LEVI-PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne musulmane*, Paris, 1944-1953.

D. et J. SOURDEL, *la Civilisation de l'Islam classique*, Paris, 1968.

The Cambridge History of Islam.

The Cambridge History of Iran.

Le Coran, trad. R. Blachère.

Les Mille et Une Nuits, Ed. de Boulak, trad. Dr. Mardrus, Paris, 1899-1904.

An Historical Atlas of Islam, Leyde, 1981.

C. CAHEN, *Introduction à l'histoire du Monde musulman médiéval*, Paris, 1982.

Ouvrages et Etudes

ABBOTT (N.), *Two Queens of Baghdad,* Chicago, 1946.
ABEL (A.), «Les marchés de Bagdad», *Bulletin de la Société belge d'études géographiques,* 1939.
AHRWEILER (H.), *Byzance et la mer,* Paris, 1966.
- «l'Asie mineure et les invasions arabes», *Revue historique,* 1962.
AHSAN (A. M.), *Social Life under the Abbassids* , Londres, 1978.
ARNOLD (T. W.), *The Caliphate,* Oxford, 1924.
ASHTOR (E), «Essai sur l'alimentation des diverses classes sociales dans l'Orient médiéval», *Annales E.S.C.,* 1960.
- *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval,* Paris, 1969.
- «Migrations de l'Irak vers les pays méditerranéens», *Annales E.S.C.,* 1972.
AUDISIO (G.), *la Vie et la Mort de Haroun al-Rachid,* Paris, 1930.
AZIZ AHMED, *A History of Sicily,* Edimbourg, 1975.
BADAWI (A.), *Transmission de la philosophie grecque au monde arabe,* Paris, 1968.
BAGDAD, volume collectif publié à l'occasion du 1200e anniversaire de la fondation, *Arabica,* Leyde, 1962.
BARBIER DE MEYNARD (M.), «Ibrahim, fils de Mehdi», *Journal asiatique,* 1869.
BARTHOLD (V. V.), *Turkestan down to the Mongol Invasion,* Londres, 1939.
- *la Découverte de l'Asie,* Paris, 1947.
- *Four Studies on the History of Central Asia,* Leyde, 1962.
BITTERMAN (H. B.), «Harun al-Raschid gift of an Organ to Charlemagne», *Speculum,* 1929.
BOSWORTH (C. E.), *The Islamic Dynasties,* Edimbourg, 1967.
- *The Ghaznavids,* Beyrouth, 1973.
BOUISSON, *le Secret de Shéhérazade,* Paris, 1961.
BOULNOIS (L.), *la Route de la soie,* Paris, 1963.
BOUSQUET (G. H.), *l'Ethique sexuelle de l'Islam,* Paris, 1966.
BREHIER (L.), *Vie et mort de Byzance,* Paris, 1948.

- *les Institutions byzantines,* Paris, 1949.
- *la Civilisation byzantine,* Paris, 1950.

BROOKS (E.), «Byzantines and Arabs in the time of early Abbassids», *English Historical Review,* 1900.

BUCKLER (F. W.), «The diplomatic relations of the early Abbassids and the Carolingian houses», *Journal of the American Oriental Society,* 1927.
- *Harun al-Raschid and Charles the Great,* Cambridge, 1931.

BULLIETT (R. W.), «Le Chameau et la roue au Moyen-Orient», *Annales E.S.C.,* 1969.

CAHEN (Cl.), *Leçons d'histoire musulmane,* Paris, 1957-1958.
- *Les peuples nusulmans dans l'histoire médiévale,* Damas, 1977.

CANARD (M.), «Quelques à-côtés des relations entre Byzance et les Arabes», *Mélanges Levi della Vita,* Rome, 1956.
- *Byzance et les Musulmans au Proche-Orient,* Variorum Reprints, 1973.
- «Byzantium and the Muslim World», in *The Cambridge Medieval History,* IV.

CHEJEN (A. G.), «Al-Fald b. al-Rabi, a politician of the early Abbassid period», *Islamic Culture,* 1962.
- «The boon Companion in early Abbassids Times», *Journal of the American Oriental Society,* 1965.

CHRISTENSEN (A.), *l'Iran sous les Sassanides,* Paris, 1944.

CIPOLLA (C.), «Sans Mahomet Charlemagne est inconcevable», *Annales E.S.C.,* 1962.
- *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam,* Symposium, Paris, 1977.

COOK (M. A.), *Studies in the economic History of the Middle East,* Londres, 1970.

CORBIN (H.), *la Philosophie islamique,* Paris, 1964.

CRESWELL (K. A. C.), *Early Muslim Architecture,* Londres, 1958.

CROWE (P.), *Slaves on Horses,* Londres, 1980.

DENYS DE TELL-MAHRE, *Chroniques,* trad. J. Chapot, Paris, 1895.

DIETRICH (A. I.), «Quelques aspects de l'éducation princière à la cour abbasside», *Revue des études islamiques,* 1976.

DJAHIZ, *le Livre de la Couronne,* trad. Ch. Pellat, Paris, 1954.
DJAÏT (H.), «l'Islam ancien récupéré à l'histoire», *Annales E.S.C.,* 1975.
DUCELLIER (A.), KAPLAN (M.), MARTIN (B.), *le Proche-Orient médiéval,* Paris, 1978.
ELISSEEF (N.), *Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits,* Beyrouth, 1949.
ETTINGHAUSEN (R.), *la Peinture arabe,* Genève, 1962.
- *From Byzantium to Sassanian Iran and the Islamic World,* Leyde, 1972.
FARAG (F. R.), «The Arabian Nights», *Arabica,* 1976.
GABRIELLI (F.), «La successione di Harun al Rasid e la guerra fra al Amin e al Mamun», *Rivista degli studi orientali,* 1928.
GARDET (L.), *la Cité musulmane,* Paris, 1957.
GAUDEFROY-DEMOMBYNES (M.), *le Monde musulman jusqu'aux croisades,* Paris, 1941.
- *les Institutions musulmanes,* Paris, 1946.
GHAZI (M.), Un groupe social : « les raffinés», *Studia Islamica,* 1959.
GIBB (H. A. R.), *The Arab Conquests of Central Asia,* New York, 1923.
GLUBB (J. B.), *Haroon al Rasheed,* Londres, 1976.
GOITEIN (S.), «The Rise of the Near Eastern Bourgeoisie», *Cahiers d'histoire mondiale,* 1957.
GRABAR (O.), *The Formation of Islamic Art,* Yale, 1973.
GROUSSET (R.), *l'Empire des steppes,* Paris, 1939.
GRUNEBAUM (V.), *Medieval Islam,* Chicago, 1954.
HEYD (W.), *Histoire du commerce extérieur du Levant,* Amsterdam, 1959.
HOROWITZ (J.), «The Origins of the Arabian Nights», *Islamic Culture, 1927.*
HOURANI (A. H.), and STERN (S. M.), *The Islamic City,* Oxford, 1970.
- «Sea Faring in the Indian Ocean», *Journal of the Economic and Social History of Orient,* 1973.
IBN FADLAN, *Voyage chez les Bulgares de la Volga,* trad. M. Canard, Alger, 1959.

IBN KHALDOUN, *Prolégomènes,* trad. de Slane-Monteil, Paris, 1975.
IBN KHURDADBEH, *le Livre des routes et des provinces,* trad. B. de Meynard, Paris, 1975.
Islam and Trade of Asia, Ed. D.S.Q. Richards(colloque) ,Oxford,1970.
Islam, la philosophie et les sciences, Unesco, 1981.
JORANSEN (E.), «The alleged Frankish Protectorate in Palestine», *American Historical Review,* 1927.
KENNEDY (H.), *The Early Abbassid Caliphate,* Londres, 1981.
KLEINCLAUSZ (A.), «La légende du protectorat de Charlemagne sur la Terre sainte», *Syria,* 1926.
LACY O'LARY (E. de), *How Greek Science passed to the Arabs,* Londres, 1957.
LANE (A.), *Early Islamic Pottery,* Londres, 1957.
LAOUST (H.), *les Schismes dans l'Islam,* Paris, 1983.
LASSNER (J.), *The Shaping of Abbassid Rule,* Princeton, 1980.
LAURENT (J.), *l'Arménie entre Byzance et l'Islam,* Paris, 1919.
LEMERCIER-QUELQUEJAY (C.), *la Paix mongole,* Paris, 1970.
LESTRANGE (J.), *Bagdad during the Abbassid Caliphate,*Oxford,1924.
- *The Lands of the Eastern Caliphate,* Londres, 1930.
LEWIS (Arch.), «Les marchands dans l'Océan indien», *Revue d'histoire économique et sociale,* 1976.
- *Power and Trade in Mediterranean Sea,* Princeton, 1951.
LEWIS (B.), *Les Arabes dans l'Histoire,* Neuchâtel, 1958.
- *les Assassins,* Paris, 1982.
- *Comment l'Islam a découvert l'Europe,* Paris, 1984.
LOMBARD (M.), *les Textiles dans le Monde musulman,* Paris, 1968.
- *l'Islam dans sa première grandeur,* Paris, 1971.
- *Espaces et Réseaux du haut Moyen Age,* Paris, 1972.
- *le Fer et les Métaux précieux,* Paris, 1975.
LOPEZ (R.), «Mohamed and Charlemagne, A Revision», *Speculum,* 1942.
- «East and West in the Early Middle Age», *Congrès international des sciences historiques,* Rome, 1955.
MANGO (C. A.), *Byzantium, The Empire of New Rome,* New York,, 1980.

MARCAIS (G.), *la Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age,* Paris, 1946.
MASSIGNON (L.), *la Passion d'al-Hallaj,* Paris, 1928.
- «Les méthodes de réalisation artistique des peuples de l'Islam», *Syrie,* 1931.
MASSIGNON et ARNALDEZ, *les Sciences antiques et médiévales,* Paris, 1957.
MELIKOF (I.), *Abu Muslim le porte-hache du Khorasan,* Paris, 1962.
MERCIER (M.), *le Feu grégeois,* Paris, 1952
MEZ (A.), *The Renaissance of Islam,* Londres, 1937.
MIELI (A.), *la Science arabe,* Leyde, 1939.
MUSCA (G.), *Carlo Magno e Harun al-Rasid,* Bari, 1963.
NADVI (R. A.), «Industry and Commerce under the Abbassids», *Journal of Pakistan Historical Society,* 1953.
OMAR (F.), *The Abbassid Caliphate,* Bagdad, 1969.
OTTO-DORN (K.), *l'Art de l'Islam,* Paris, 1967.
PELLAT (Ch.), *le Milieu basrien et la formation de Djahiz,* Paris, 1953,
- *Langue et Littérature arabes,* Paris, 1955.
- *Etudes sur l'histoire soicoculturelle de l'Islam,* Londres, 1976.
PERROY (E.), «Encore Mahomet et Charlemagne», *Revue historique,* 1954.
PIPER (D.), «Turks in Early Muslim Service», *Journal of Turkish studies,* 1968.
PIRENNE (H.), *Mahomet et Charlemagne,* Bruxelles, 1937.
PLANHOL (X. de), *le Monde islamique,* 1957.
- *les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam,* Paris, 1968.
POPOVIC (A.), *la Révolte des esclaves,* Paris, 1977.
QUATREMÈRE (E.), «Les Barmécides», *Journal asiatique,* 1861.
RODINSON (M.), «Recherches sur les documents arabes relatifs à la cuisine», *Revue des études islamiques,* 1949.
- *Mahomet,* Paris, 1961.
- *Islam et Capitalisme,* Paris, 1966.
ROUX (J. P.), *les Explorateurs au Moyen Age,* Paris, 1985.
RUNCIMAN (S.), «Charlemagne and Palestine», *English Historical*

Review, 1935.

SABARI (S.), *Mouvements populaires à Bagdad à l'époque abbasside*, Paris, 1981.

SADAN (J.), «Meubles et acculturation dans la civilisation califienne», *Annales E.S.C.*, 1970.

- *le Mobilier au Proche-Orient médiéval*, Leyde, 1976.

SALMON (G.), *Introduction à l'histoire topographique de Bagdad*, trad. de Khatib al-Baghdadi, Paris, 1904.

SAUVAGET (J.), *la Poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks*, Paris, 1941.

- *Morceaux choisis des historiens arabes*, Paris, 1946.
- *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris, 1961.

SCHACHT et BOSWORTH, *The Legacy of Islam*, Oxford, 1979.

SHABAN (M. A.), *Islamic History, A New Interpretation*, Cambridge, 1976.

SHARON (M.), *Black Banners from the East*, Leyde, 1983.

SHIMIZU MAKOTO, «Les Finances publiques dans l'Etat abbasside», *Islam*, 1965.

SOURDEL (D.), *le Vizirat abbasside*, Damas, 1960.

- «Questions de cérémonial abbasside», *Revue des études islamiques*, 1960.

SOURDEL-THOMINE (J.), «Art et Société dans le monde de l'Islam», *Revue des études islamiques*, 1968.

SULEYMAN, *Relation de la Chine et de l'Inde*, trad. Sauvaget, Paris, 1948.

TIBAWI (A. L.), «Muslim education in the Golden Age of the Caliphate», *Islamic Culture*, 1954.

TIBBETTS (G. T.), «Arab Navigation in the Indian Ocean before the Entry of the Portuguese», *Journal of Royal Asiatic Society*, 1971.

TRITTON (A. S.), *The Caliphs and Their Non-Muslim Subjects*, Oxford, 1930.

- «Sketches of Life under the Caliphs», *The Muslim World*, 1964.

TUMA (E. H.), «Early economic policies», *Islamic Studies*, 1965.

TYAN (E.), «l'Idée dynastique dans le gouvernement de l'Islam», *Journal asiatique*, 1933.

VASILIEV (A.), *Histoire de l'Empire byzantin,* Paris, 1932.
- *Byzance et les Arabes,* Paris, 1928.

VERNET (J.), *Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne,* Paris, 1985.

VILAR (P.), *Or et Monnaie dans l'histoire,* Paris, 1978.

WATT (M.), *The Influence of Islam on Medieval Europe,* Edimbourg, 1972.

WERNER (K. F.), *les Origines,* Paris, 1984.

WIET (G.), «L'Empire néo-byzantin des Omeyyades et l'Empire néo-sassanide des Abbassides», *Cahiers d'histoire mondiale,* 1953.
- *in Histoire de la Nation égyptienne* (G. Hanotaux).
- *Grandeur de l'Islam,* Paris, 1961.

ب ـ التي اعتمدها المعرّب

أبو العتاهية ديوان أبي العتاهية . – بيروت ، دار صادر . 1961 .

أبو فراس ديوان أبي فراس . – نشر سامي الدّهان ، جزءان . – بيروت ، 1944 .

أبو نواس ديوان أبي نواس . – بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1987 .

بشـّار ديوان بشـّار بن برد . – جمع وتحقيق فضيلة المرحوم الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور، 4 أجزاء . – تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1975–1976 .

ديك الجنّ ديوان ديك الجنّ . – بيروت ، دار الثقافة ، 1964 .

صريع الغواني ديوان صريع الغواني ، مسلم بن الوليد . – شرح سامي الدّهان . – القاهرة ، 1957.

ابن الأحنف ديوان العبّاس بن الأحنف . – بيروت ، 1978 .

عيون الأنباء ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) . – عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء . – القاهرة ، المطبعة الوهبية ، 1300 هـ .

أخبار أخبارالهند والصّين . – (لمجهول) – تحقيق وترجمة ج. سوڤاجي . – باريس ، 1948.

الأغاني الإصفهاني (أبو الفرج) . – كتاب الأغاني ، 25 جزءا. – بيروت ، دار إحياء التّراث العربي ، 1963.

البخاري الإمام البخاري (أحمد بن اسماعيل) . – صحيح البخاري ، 9 أجزاء . – القاهرة ، دار إحياء التّراث العربي ، د. ت.

پروڤانصال لاڤي – پروڤانصال (إ.) . – تاريخ اسبانيا الإسلامية ، 3 أجزاء . – باريس ، 1953.

عجائب بزرج بن شهريار . – كتاب عجائب الهند ، تحقيق ن. د. ليث . - ليدن ، بريل ، 1883-1986 .

البغدادي الخطيب البغدادي (أحمد بن علي). – تاريخ بغداد ، 13 جزءا. – بيروت ، دارالكتاب العربي ، د. ت.

مراصد البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق) . – مراصد الإطـّلاع على اسماء الأماكن والبقاع (مختصر عن معجم البلدان ، لياقوت) ، 3 أجزاء . – بيروت ، دار المعرفة ، 1954 .

نشوار القاضي التـّنوخي (المُحَسّن بن علي) .– نشوارالمحاضرة وأخبارالمذاكرة ، 3 أجزاء . – بعمدون (لبنان) ، 1971 .

اليتيمة الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) . – يتيمة الدّهر في محاسن العصر، 4 أجزاء . – القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1956 .

البيان الجاحظ (عمرو بن بحر) . – البيان والتبيين ، 4 أجزاء . – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1948.

التّاج الجاحظ (عمرو بن بحر) . – كتاب التّاج . – بيروت ، دار الفكر ، 1955.

الحيوان الجاحظ (عمرو بن بحر) . – كتاب الحيوان ، 7 أجزاء . – بيروت ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، منشورات محمّد الدّاية ، 1969.

ثمرات ابن حجّة الحموي (أبو بكر بن علي) . – ثمرات الأوراق . - القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1971.

المقدمة ابن خلدون (عبد الرّحمن) . – مقدّمة كتاب العبر . – بيروت ، 1956 .

وفيات ابن خلّكان (أحمد بن محمّد) . – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ، 8 أجزاء . – بيروت ، 1968.

دائرة المعارف دائرة المعارف الإسلامية (التّرجمة الفرنسية) . – بريل / باريس ، 1975.

الأعلام الزّركلي (خير الدّين) . – الأعلام ، 8 أجزاء . – بيروت ، دارالعلم للملايين ، 1984.

الجامع السّيوطي (جلال الدين) . – الجامع الصّغير، جزءان. – بيروت ، دار الفكر، د. ت .

المرتضى الشّريف المرتضى (علي بن الحسين) . – تهذيب السّيد المرتضى . – القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1967.

نكت الهميان الصّفدي (خليل بن أيبك) . – نكت الهميان في نكت العميان . – القاهرة ، المكتبة التجارية ، 1911.

الفخري ابن طباطبا (محمد بن علي) .– الفخري في الآداب السلطانية .– بيروت ، دار صادر، د. ت .

الملوك الطّبري (محمد بن جرير) . – تاريخ الأمم والملوك ، 11 جزءا . – بيروت ، دار التراث ، 1966.

ورقات عبد الوهّاب (حسن حسني) . – ورقات في الحضارة العربية بإفريقيّة ، جزءان. – تونس ، مكتبة المنار، 1965.

الميزان ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) . – لسان الميزان ، 3 أجزاء . – بيروت ، مؤسّسة الأعلمي ، 1971.

قطوف قطوف الأغاني . – ابو العتاهية . – بيروت ، مكتبة صادر ، 1950 .

فوات الكتبي (محمد بن شاكر) . – فوات الوفيات ، 5 أجزاء . – بيروت ، دار صادر ، 1993.

مؤنس — مؤنس (حسين) . – فجر الأندلس . – القاهرة ، الشركة العربية للطّباعة والنّشر، 1959.

الحضارة — متز (ادم) . – الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع ، تعريب م .ع . ه . أبو ريدة ، جزء ان . – بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1967.

رغبة — المرصفي (سيد بن علي) . – رغبة الآمل من كتاب الكامل ، 8 أجزاء . – بغداد ، مكتبة البيان ، 1969.

مروج — المسعودي (علي بن الحسين) . – مروج الذّهب ومعادن الجوهر، 4 أجزاء . – بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، 1991.

كليلة ودمنة — ابن المقفع (عبد الله) .– كليلة ودمنة .– القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى . 1934

المقدسي — المقدسي (محمد بن أحمد) . – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . – ليدن ، بريل ، 1906.

اللسان — ابن منظور (محمد بن مكرّم) . – لسان العرب، 7 أجزاء . – بيروت ، دار الجيل ، 1988.

الفهرست — ابن النّديم (محمّد بن أبي يعقوب) . – الفهرست . – بيروت ، دار المسيرة ، 1988.

النويري — شهاب الدّين النّويري (أحمد بن عبد الوهاب) . – نهاية الأرب في فنون الأدب ، 8 أجزاء . – القاهرة ، دار الكتب المصرية ، 1923– 1955.

التهذيب — الأزهري الهروي (محمّد بن أحمد) . – تهذيب اللّغة . – القاهرة ، المؤسّسة المصرية العامّة ، 1964.

معجم — ياقوت الحموي (أحمد بن محمّد) .– معجم البلدان ، 8 أجزاء . – بيروت ، دار الثقافة ، 1968.

البلدان — اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) . – كتاب البلدان . – بيروت ، دار إحياء التّراث العربي ، 1980.

اليعقوبي — اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) . – تاريخ اليعقوبي . – منشورات المطبعة الحيدرية ، د.ت .

الخراج — القاضي أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) . – كتاب الخراج . – القاهرة ، 1341 هـ .

فهرس الأعلام

- أ -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

– ز –

– ن –

فهرس الكتاب


حدود الامبراطورية العباسية على عهد هارون الرشيد
بحر الشمال
بحر البلطيق
البحر الأسود
القوقاز
بحر قزوين
إيران
خراسان
المغرب
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأحمر
بحر عمان
المحيط الهندي
النيل
اليمن
عدن
مكة
المدينة
مسقط
الخليج العربي الفارسي
قرطبة
طليطلة
جبل طارق
فاس
القيروان
إفريقية
الإسكندرية
الفسطاط
(القاهرة)
أسوان
دمياط
القدس
فلسطين
دمشق
الشام
الكوفة
القادسية
كربلاء
بغداد
البصرة
الأبلة
الأحواز
خوزستان
شيراز
سيراف
همذان
الري
طبرستان
جرجان
نيسابور
طوس
مشهد
مرو
بلخ
كابل
غزنة
بخارى
سمرقند
فرغانة
بلاد ماوراء النهر
جيحون
سيحون
خوارزم
طالاس
أذربيجان
الأناضول
العواصم
الرها
الموصل
الإنداس (السند)
حدود الامبراطورية العباسية